

موسيقى

شباك مصر

أرمين

مؤسسة دار الشعب



Bibliotheca Alexandrina



0119579

أحمد حسين

توسعة تاريخ مصر

الجزء الثاني

دار الشعب

٩٢ شارع قنصل العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

بعثة محمد رسول الله

٦١٠ م -

وفي نفس السنة ، حيث كان يجرى هذا التبدل في عرش بيزنطة ويرتقى العرش هرقل الأول .

كان حدث انساني خطير يتم في خفاء لم يتجاوز من علموا به في وقته بضعة أشخاص يعدون على اليد الواحدة ، ولم يكن هذا الحدث سوى بعثة محمد بن عبد الله ليكون رسولا نبيا ... وكان محمد بن عبد الله الذي ولد عام الفيل « ٥٧٠ م » قد بلغ من العمر اربعين سنة ولم يكن قد اشتهر في هذا العمر الطويل بغير صفة واحدة وهي الأمانة فأطلق عليه اهله وعشيرته لقب الأمين ، وكان قد ولى نجارة خديجة سيدة قريش ، فسافر على رأس قوافلها الى الشام . فأنست فيه ما حبه الى قلبها فعرضت عليه الزواج منه... فاستجاب الى العرض... وكفى بهذا الزواج مؤونه الكدح في طالب الرزق وأحس بالعزوف عن الاختلاط بالناس ، والرغبة في الخاوة فأصبح من عاداته ان (يتحنن) أى يعتكف على رأس جبل من جبال مكة يدعى غار حراء شهرا في كل سنة ، وبينما كان يخلو بنفسه في الغار جريا على عادته في هذا الشهر من كل عام . اذ سمع صوتا يقول له « اقرا » ففرع محمد بن عبد الله من هذا الصوت الذى لا يرى صاحبه . ورد عليه بأنه لا يستطيع القراءة ولكن الصوت « غطه » في صدره وكرر عليه الأمر بالقراءة ...

وكرر محمد بن عبد الله الاعتذار عن القراءة لجهله بها ...

فانطلق الصوت يقول له :

— اقرا باسم ربك الذى خالق .

— خلق الانسان من علق .

— اقرا وربك الاكرم .

— الذى علم بالقلم .

— علم الانسان ما لم يعلم .

ولم يكن هذا الصوت الا وحيا من رب العالمين . . . ولم يكن هذا اللقاء الا لقاء بين الارض والسماء ، ليكون محمد بن عبد الله ، هو محمد رسول الله الى بنى البشر كافة ، رسول رحمة ومحبة واخوة وانسانية تقوم على أساس من توحيد الألوهية ، ومحاربة كل عبادة لغير الله الواحد الأحد ، والتقاء البشر في ظل هذا التوحيد على اختلاف اجناسهم والوانهم وقومياتهم ، أخوة يتحابون ويتعاونون على البر والتقوى ، ويتصدون لحرب الاثم والعدوان .

٦١١ م - انتصار الفرس على الروم :

لو صح ما ادعاه كسرى الثانى من ان زحفه على اراضى بيزنطة كان غضبه لصاحبه وحاميه وراعيه الامبراطور موريس ، لوجب ان تتوقف جيوشه بعد ان اقتصر من قاتل صهره ، ولكن العلاقات بين الدول لا تقوم على العواطف او العلاقات الشخصية . . وانما تتم لعديد من العوامل المحركة لمصير الانسانية ، ولذلك فان سقوط فوكاس وارتقاء هرقل عرش بيزنطة لم يزد جيوش الفرس الزاحفة الانشاطا في زحفها . . . فسقطت كبريات المدن السورية واحدة بعد اخرى في قبضة الفرس ، ابتداء من انطاكية عاصمة الأقاليم حتى حمص وقيصرية .

٦١٣ م - سقطت دمشق في يد الفرس :

٦١٤ م - سقطت مدينة بيت المقدس في يد الفرس ونهب الفرس كل ما كان بها من ذخائر ومقدسات . . . بما في ذلك صليب الصلبوت « وهو قطعة من خشب الصليب الذى صلب عليه المسيح » . . وكان موضوعا في صندوق محلى بالذهب والبرونز واليواقيت . واعمل جنده سيوفهم في رقاب المسيحيين من سكان المدينة . . .

ويقول درانت ان ٢٦ ألف يهودى انضموا الى جيشه ليعاونوهم في الفتك بالمسيحيين حتى قيل ان عدد من مات في هذه المذبحة قد بلغ ٩٠.٠٠٠ قتيل .

٦١٦ م - وفاة الأنبا انستاسيوس :

توفى الأنبا انستاسيوس بعد ان اقام على كرسى الكرازة المرقسية روحيا اثنى عشر عاما .

الأنبا ان روتيكوس :

واختار الشعب والاكليروس المصرى المتمسك بعقيدته المونوفيزنية الأنبا ان روتيكوس ليكون بطريركا لكنيستهم .

يوحنا الرحوم :

ولكن البطريرك الملكى الذى كان صاحب السلطة الفعلية فى الكنيسة كان هو الاسقف يوحنا الرحوم أو « المتصدق » والذى استطاع ان يظفر بحب المصريين على خلافهم معه لفرط رحمته وتسامحه وانفاقه على البؤساء والفقراء والمعوزين . ويتخذ المؤرخون الحديثون من سيرة يوحنا الرحوم الدليل على مدى ما كانت عليه الاسكندرية فى هذه الفترة من التاريخ من غنى وثروة ، وأنها كانت لا تزال أعظم المدن التجارية على الاطلاق .

ويستنتجون ذلك من ثروة الكنيسة كما تنطق بها أعمال يوحنا الرحوم . الذى وجد بالقصر البطريركى حين اعتلائه مبلغ ٨٠٠٠ رطل من الذهب وكان له اسطول مكون من ثلاث عشرة سفينة تجارية كبيرة تنقل التجارة بين الاسكندرية وشواطئ بحر الادرياتى وانشغل هذا البطريرق بين عامى « ٥٩٦ - ٦٠٣ » بسلسلة طويلة من المفاوضات مع جريجورى الأكبر للحصول على أخشاب تصاح لبناء السفن من ايطاليا وبلغت ثروته حدا كبيرا جدا فعندما استغاثت به مدينة القدس بعد استيلاء الفرس عليها أرسل لها ألف قطعة ذهبية ، وألف جوال من القمح وألف كيل من البقول الجافة وألف رطل من الحديد وألف رطل من السمك المقدد وألف دن من النبيد وألف صانع من المصريين . وذلك معاونة منه على إعادة بناء المدينة .

ويمضى أرشيبالد . ر . لويس الذى ننقل عنه هذه العبارات ليقول لنا :

« ولعل مصر هى أكثر بلاد الامبراطورية رخاء ، ولا سيما مدينة الاسكندرية العظيمة ، التى تلت فى المكانة مدينة القسطنطينية مباشرة حينذاك ، والتى كانت أعظم مدن البحر المتوسط على الاطلاق . وليس ببعيد أن تكون قد فباقت فى أهميتها كمركز تجارى أهمية القسطنطينية ذاتها وصارت الاسكندرية محط رحال تجارة الشرق ، التى اشتملت على التوابل والحريير القادمين عبر طريق البحر الأحمر . وصدرت هذه البضائع منها الى عالم البحر المتوسط ، واذن أصبحت لصر تجارة واسعة فى ذلك البحر وذهب قمحها الى القسطنطينية واقلعت منها السفن محملة بالحبوب وفاخر الصناعات الى ايطاليا لتبادل بذلك على الخشب ، وأوفدت تجارها الى اسبانيا ومرسيليا وغيرهما من مدن جنوب فرنسا ، كما اتجرت على نطاق واسع مع شمال افريقيا ويحتمل كذلك أن تكون سفنها الكبيرة قد اجتازت أعمدة هرقل « جبل طارق » وقامت بتجارة واسعة النطاق فى مادة القصدير مع بريطانيا البعيدة المدى واذا صح هذا فانه يفسر أصل وجود العناصر الشرقية والاغريقية فى الصور الايرلندية والكنايس السكتلندية كما يفسر ما تدهش له من معرفة علماء الايرلنديين للغة اليونانية (١) .

(١) ص ٦٥ - القوى البحرية التجارية - ترجمة أحمد محمد عيسى .

٦١٩ م - سقوط مصر في يد الفرس :

كان من أثر زحف الجيوش الفارسية على سوريا وفلسطين وتساقط عواصمها ومدنها الواحدة أثر الأخرى . . . أن لجأ الى مصر عشرات الألوف من المهاجرين من هذه المدن والمناطق يلاحقهم الفرس بزحفهم ، حتى وصل المهاجرون الى شرق الدلتا . . . والفرس في أعقابهم . . . فهرع اللاجئون الى الاسكندرية التي أصبحت تفض بعشرات الألوف من اللاجئين .

ومرة أخرى تطالعنا شخصية البطريرك الملكى . يوحنا الرحوم ومدى الثروة التى كانت تتمتع بها الكنيسة المصرية فى أيامه . . .

فقد أخذ على عاتقه عملية اطعام هذه الجيوش الجائرة من اللاجئين . على أن العملية لم تلبث أن أصبحت مستحيلة ازاء تزايد عدد اللاجئين المستمر، وشراستهم المتصاعدة .

وشاء سوء الحظ أن تقحط مصر فى هذه السنة ، فعزت الاقوات . . . ولم يستطيع يوحنا الرحوم مواجهة الموقف المتدهور فغادر مدينة الاسكندرية ، ناجيا بنفسه ومصطحبا معه نيكيتاس حاكم مصر وقائد الجيوش ، وقصدا جزيرة قبرص، حيث لم يلبث يوحنا الرحوم أن مات (٦١٧ م) .

أما الاسكندرية التى خلفها وراءهما . فقد فتحت أبوابها لجيش الفرس عن طريق الخيانة كما يقول بتلر (ص ٦٦ على أن المحقق أن الشعب السكندرى وخاصة المنوفيزنى منه قابل الفرس بالترحاب ، أملا منه أن يتيح له هذا القبول فى السلطة الحاكمة ، تدعيم الكنيسة المونوفيزنية وانتصار بطريركهم اندردنيكوس الذى أقام فى الاسكندرية طوال مدة ولايته .

على أن بتلر ينفى بشدة فى كتابه « فتح مصر » أن أقباط مصر قد رحبوا بالغزو الفارسى الوثنى .

غلبت الروم :

وقد كان هذا النصر المؤزر الذى أحرزه الفرس (الوثنيون) على الروم المسيحيين من أهل الكتاب هو الذى جعل مشركى قريش من أعداء الرسالة المحمدية يشمتون بالمسلمين ، فنزل القرآن الكريم بسورة الروم التى تنبأت بانتصار الروم بعد هزيمتهم :

« ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفليون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . »

وهكذا نرى اصداء الأحداث العالمية تتردد فى آيات القرآن . . . ومن دلائل اعجاز القرآن وصدق رسول الله . . . ان هذه النبوءة التى بدت ساعة الافصاح عنها وكأنها

تحدث عن أمر مستحيل . . هي التي تحققت بالفعل في المدة المحددة والتي لا تخرج عن نطاق (بضع سنوات) .

٦٢٢ م - هرقل يستأنف الحرب ضد الفرس :

بدأ هرقل حربه ضد الفرس يوم الصفح من عام ٦٢٢ عندما نزل بسفنه من جديد في موقع بين حدود الشام وقايقيا في الأناضول ، بعد أن ترك وراءه القسطنطينية وابنه في « ايدى الله وأمه العذراء والبطيرك » .

٦٢٢ م - ١ هجرية :

هجرة رسول الله :

وفي الوقت الذي كان هرقل يبدأ حربه التي سيقدر لها أن تستمر ست سنوات تكفل في ختامها بالنصر ، ليخرج منها هرقل كأقوى ما عرفت الامبراطورية الرومانية من اباطرة .

كان هذا النبي الأمي الذي ولد عام الفيل ، فلم يكد يحس بميلاده سوى أفراد أسرته ، والذي بعث يوم كان هرقل يتسلم عرش بيزنطة ، فلم يؤمن به سوى زوجته خديجة وبضع نفر من أصحابه المقربين ، كان يهاجر من مكة أخيرا نحو المدينة هذه القرية التي تقع الى الشمال من مكة . . . وذلك بعد أن ضاق وضاق المؤمنون من قبله باضطهاد ذوى قرباهم الذين عذبوهم وانتهبوهم وحاصروهم وأخرجوهم من ديارهم ، هاجر من مكة مصطحبا خيله وصفيه وخليفته من بعده « أبو بكر الصديق » الى حيث الانصار من أهل المدينة والذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام وبايعوا الرسول واستقبله أهل المدينة بالتشيد الذي خلد على مر الزمن :

« طلع البدر علينا من ثنيات الوداع »

« وجب الشكر علينا ما دعا لله داع »

« أيها البعوث فينا . . جئت بالأمر المطاع »

٦٢٣ م - وفاة الأنبا اندروتيكوس :

توفي الأنبا اندروتيكوس بعد أن أقام على كرسي الكرازة المرقسية سبع سنوات أقام فيها فترة الحكم الفارسي في الاسكندرية .

الأنبا بنيامين :

واختار الشعب المصري المونوفيزني والاكليروس الأنبا بنيامين ، وقد وافق اختيار بنيامين لولاية الدين ، هوى في قلوب الناس ، فقد كالا حبيبا اليهم عزيزا على نفوسهم .

وقد ظل ذلك حظه عند الناس لم ينل منه تغير الأحوال أو تقلب الظروف .

وقد اخذ الأنبياء بنيامين على عاتقه ان يعيد للدين في نفوس القسوس مكانته وهيبته فأخذهم بالشدة ، حتى لقد نفى البعض منهم لانحرافه عن جادة السلوك القويم وراح يعمل جاهدا على تدعيم وحدة الكنيسة القبطية من جديد وان يعيد اليها طمأنينتها واستقرارها .

٦٢٤ م - ٣ هجرية :

غزوة بدر :

عاش الرسول منذ مبعته حتى هجرته ، وهو يدعو الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، يرد على الاساءة بالاحسان ، وعلى الاضطهاد بالصبر ، وعلى التخشن في القول والبغى بالتسامح والصفح الجميل . . . فلم يزد ذلك قريشا الا مزيدا من الحقد والتآمر والرغبة في استئصال دعوة التوحيد . . . فنزل القرآن الكريم يأذن للمسلمين ان يدفعوا عن انفسهم الظلم والبغى بقوة السلاح : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » .

وهكذا التقت لأول مرة حفنة المؤمنين المجاهدين حول رسول الله الذين لم تتجاوز عدتهم ثلثمائة رجل ليس فيهم الا فارس واحد ، مع جيش المشركين الذي كان يتألف من ثلثمائة فارس مقابل هذا الفارس الواحد وبالإضافة الى سبعمائة راجل آخر من حملة القسي والحراب .

فكان النصر للمؤمنين المجاهدين ، وصرع أبطال المشركين ودهاقنتهم وعلى رأسهم أبو جهل أعدى اعداء النبي .

ويقف التاريخ ليلقى علينا أحد دروسه الخالدة . . . فليست العبرة في هذا الوجود بالكم وان كثر . . فهذه المعركة التي تشبه ان تكون شجارا يقع في كل يوم وفي كل ساعة بين قبائل العرب ، كانت إحدى معارك التاريخ الفاصلة التي ختمت فصلا من كتاب حياة البشر وفتحت فصلا جديدا ، ولم تكن كذلك مثل هذه المعارك الطاحنة التي كانت تدور الى الشمال وقتئذ بين جحافل الفرس وجيوش الروم التي تقدر بمئات الألوف .

٦٢٧ م - جلاء الفرس عن مصر :

كان هرقل في حربه ضد الفرس التي بدأها منذ خمس سنوات في آسيا الصغرى « الاناضول » وسوريا . ينتقل من نصر الى نصر .

فاضطرب الفرس الى سحب جيوشهم من مصر للاستعانة بها في حربهم ضد هرقل .

وهكذا عادت جيوش الروم الى مصر في غير معركة ، وبدون قتال . .

٦٢٧ م - ٦ هجرية :

رسالة النبي الى المقوقس حاكم مصر :

وفي هذه السنة تسلم المقوقس حاكم مصر وكبير القبط بها - على ما يقول مؤرخو المسلمين - رسالة من النبي صلوات الله عليه حملها اليه حاطب بن ابي بلتعة وقد جاء نص الرسالة كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاء الاسلام ، فأسلم تسام وأسلم يؤتلك الله أجره مرتين (يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وقد حار المؤرخون الاوربيون الذين ارخوا لهذه المرحلة من تاريخ العالم فيمن يكون هذا المقوقس ، ولقد كان يتلر على رأس من حاولوا التحقق من هذه الشخصية واستقر رأيه بعد البحث على المقوقس لا يمكن الا ان يكون هو قيرس البطريك الملكى ، والحاكم الذى سيبحث به هرقل لحكم مصر عام ٦٣٢ ، وكان هو البطريك والحاكم الذى تفاوض مع عمرو بن العاص لتسليم مصر ، والذى سلم لعمرو مدينة الاسكندرية ، ومؤرخو العرب يجمعون على ان من فعل ذلك هو المقوقس .

ومن هنا يستنتج بتلر أن لابد ان يكون مؤرخو العرب قد اطلقوا هذا الاسم على ذات الوالى والحاكم الذى تسلم رسالة رسول الله عام ٦٢٧ م . وكيفما كان الأمر ، وكيفما كان اسم الشخص الذى تسلم رسالة الرسول ، أو طبيعة وظيفته في مصر ، فان لدينا الحقيقة المادية القاطعة التى تدل على ان من تسلم رسالة الرسول في مصر قد اكرم وفادة مبعوث رسول الله ، ووعد بأنه سيبحث في الأمر ، ويزاد على ذلك أنه بعث بهدية عظيمة لرسول الله ، وكان يمكن ذلك كله مجرد اخبار تروى ، لولا ان الهدية شملت فيما شملت (١) ارسال جاريتين مصريتين ، هما ماريه القبطية وأختها شيرين وقد اعتقهما الرسول بمجرد وصولهما اليه وتزوج الرسول ماريه القبطية بعد ان اشتهرت اسلامها بينما تزوج حسان بن ثابت بأختها شيرين . وانجبت ماريه القبطية لرسول الله ابنة ابراهيم الذى كان ربحان حياته في هذه السن المتأخرة بحيث حزن على موته حزناً لم يعهده المسلمون عليه من قبل .

(١) كان من بين الهدية مبلغ من المال وبغلة سماها النبي (دلدل) وحمار وتقول بعض الآثار التى لم يذكرها المؤرخون ان من بين الهدية كان هناك طبيب معالج قرده رسول الله بقوله لقد اغنانا الله عن الطبيب ذلك اننا قوم لا نأكل حتى نجوع واذا اكلنا لا نشبع . .

٦٢٩ م - انهزام كسرى ومصرعه :

واصل هرقل انتصاراته على الفرس ، ودحر جيوشهم فاضطر كسرى الى الفرار مهانا ذليلا ، فقبض عليه خلفه شيرويه والذي يقول البعض انه انبه وعذبه عذابا شديدا تم قتله (١) .

وعقد شيرويه الصاح مع هرقل على ان يتخلى الفرس عن كل البلاد التي لاتزال في أيديهم من أملاك الروم ، وان يدفع جزية للروم ، وكان من أهم شروط الصلح إعادة صليب الصليب المقدس - ويقول المؤرخون أن ملك لفرس وخلفاءه لم يمسوا هذا الصليب أو الصندوق الموضوع فيه بسوء ولذلك فقد عاد كما كان .

الاحتفال بعودة الصليب :

وجرى احتفال من الاحتفالات الخالدة في التاريخ بعودة الصليب الى مكانه في كنيسة القيامة في اورشليم ، حيث ضجت السموات والأرض على ما يقول مسيحيو هذا الزمان بالبشرى لانتصار الصليب ، واعتبر هرقل أعظم شخصية عرفها التاريخ ، وأن له من هرقل الاغريق الذي كان نصف اله شبها ، ولا بد أن تكون روح القدس قد حلت به .

رسالة النبي لهرقل :

يقول لنا بتلر وقد تسلم هرقل - وهو في أوج مجده ، وقد باغت احتفالاته الدروة - رسالة من النبي محمد يدعوها فيها الى الاسلام (٢) .

ونحن نرجح أن تكون الرسالة قد وصلت قبل ذلك عام ٦٢٧ مع بقية الرسائل ، فهذا ما يؤكد مؤرخو المسلمين ولا يوجد دليل على عكسه . بل ويؤيده أن التاريخ الاسلامي يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن هذه الرسالة وأنها وصلت لهرقل ابان وجوده في القسطنطينية في عاصمة بلاده ، وأنه دعا من كان موجودا من العرب يومئذ وعلى رأسهم أبو سفيان لسؤالهم عن النبي وما يعرفونه عنه .

وأغلب الظن أن بتلر اراد أن يشير الى هذا الموقف الدرامي وهو المقابلة عند وصول رسالة الرسول الى هرقل وهو في ذروة مجده .

على أن هذه المقابلة الدرامية متحققة على كل حال وستظل تتحقق في كل عام بل وفي كل يوم وفي كل ساعة ، كما يشهد على ذلك الحادث التالي :

(١) جاء في كتب السيرة المحمدية أن كسرى الثاني كان واحدا ممن بعث اليهم الرسول - برسائله داعيا للاسلام ، فمزق كسرى الرسالة وقتل مبعوث الرسول .. فلما بلغ الخبر الى سيدنا محمد . قال : مزق خطابي فليمزق الله ملكه وهكذا كان .

(٢) أثبت كتاب السيرة نص الرسالة .

٢٦٩ م - غزوة مؤتة :

في هذه السنة هاجمت سرية ضخمة من المسلمين يرأسها زيد بن حارثة عند قرية مؤتة بالقرب من نهر الأردن أحد جيوش الروم ، فقتل زيد بن حارثة ، وقتل من ولى القيادة من بعده .

وكادت الدائرة تدور على المسلمين لولا ان حمل الراية خالد بن الوليد ، فاستطاع ان يثبت اقدام الجيش الاسلامي ، وأن ينجو به من كارثة محققة ، لينسحب به بعد ذلك في أمن وسلام .

ولا شك ان جيوش الروم ، وهرقل من قباهم ، لم يشغل ذهنه كثيرا بهذا الحادث ولم يعلق عليه كبير أهمية واعتبره مجرد غارة من غارات البدو والعرب ، من هذه الغارات المألوفة التي لا خطر منها .

ولم يطف لجيوش الروم في خيال ، ولا في رأس قائدها هرقل المظفر . . . ان هذا العربي الذي يدعى خالد بن الوليد سيكون هو الذي يسحق جيوش الروم بعد بضع سنوات في معركة من اكبر معارك التاريخ وهي اليرموك ناسفاً بذلك كل انتصارات هرقل التي اذهلت الدنيا في ذلك التاريخ .

٦٣٠ - ٨ هجرية - فتح مكة :

دخل محمد رسول الله مكة فاتحاً منتصراً بعد ثمانى سنوات من خروجه منها ، عاد اليها على رأس جيش من المسلمين بلغ عدته عشرة آلاف مقاتل كاملي العدد والعدة وهو حشد لم تسمع به جزيرة العرب من قبل . وكان ذلك نهاية هذا الشوط من المعارك والغزوات كبدر واحد والخندق وخيبر . . . بحيث أن أهل مكة لم يكن أمامهم غير الاستسلام على الرغم من تصورهم سوء الجزاء الذي سيلقونه على يد الرسول ، لما اضطهدوا وقتلوا من أصحابه ومحاولتهم المستمرة لتدميره ، ولذلك فقد كانت مفاجأتهم عظيمة عندما أصدر الرسول عفواً عاماً عنهم وقال لهم حكمته المدوية في سماع التاريخ .

« اذهبوا فأنتم الطلقاء - اليوم أقول لكم كما قال يوسف لآخوته » .

بل واذهلهم فوق ذلك كله . . . عندما رد مفاتيح الكعبة الى أصحابها من أهل قريش .

متمثلاً بقول القرآن « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى أهلها » .

وهكذا دخل أهل مكة في دين الله أفواجا ونزلت سورة النصر :

« اذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » .

٦٣١ م - ولاية قيرس على مصر :

تصور هرقل أن واجبه المقدس هو أن يوحد العقيدة المسيحية بعد أن نجح انتقاذ الامبراطورية المسيحية . فوضع بالانفاق مع بعض رجال الكنيسة صيغة جديدة للتوفيق بين المذهب الخليقدوني والمونوفيزنى ، وذلك بأن يكف الناس عن الاختلاف في الكلام عن طبيعة المسيح ، وما اذا كان لها طبيعة واحدة أو طبيعتان ، على يؤمنوا بأن له ارادة واحدة وقضاء واحدا .

واختار مطران مدينة فاسيس بالقوقاز ، وكان يدعى قيرس ليقوم بمهمة توحيد المذهبين اليعقوبى والمالكى ، أو الخليقدونى ، والمونوفيزنى في مصر .

ولم يكد الأنبا بنيامين بطريرك مصر يسمع عن مقدم قيرس وعن المهمة التى اليه بها ، حتى أسرع بعقد مجمع في مدينة الاسكندرية للقساوسة والرعية وافهمهم خطايا حرضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافقهم الموت وكم الى الاساقفة يأمرهم بالهجرة الى الجبال والصحارى ، ريثما يرفع الله عنهم غضب ونقمته ، وبعد أن قام بهذه الاجراءات أسرع بمفادرة الاسكندرية ، متوجها الى الجنوب ... نحو الصعيد .

عهد جديد من الاضطهاد في مصر :

ووصل قيرس الى الاسكندرية ، وحاول في بادىء الأمر أن يشرح للناس في روكياسة حقيقة المذهب الجديد مذهب وحدة الارادة (المونوتليتى) وانه لا يختلف جوهر المونوفيزنى ، ولكنه لم ياق من عامة الشعب اذنا صاغية ، فعقد في الاسكندرية مجمعا من الاساقفة والقساوسة الملكيين الذين أسرعوا الى اقرار النحلة الجديدة ولكن ذلك لم يزد الناس الا نفورا .

وهنا بدأ قيرس يتنكر للناس ويشرع في حملة من الاضطهاد استمرت على رة العباد عشر سنوات ويحوى تاريخ الكنيسة القبطية الكثير من قصص التعبد والاضطهاد والتى تعيد للذاكرة أسوأ ما تعرض له المسيحيون في تاريخهم الطويل ويسوقون الامثلة على ذلك اولها ما اصاب منياس شقيق الأنبا بنيامين « حيث سله نيران المشاعل على جسده فأخذ يحترق - حتى سال دهنه من جبينه الى الأرض ولكنه لم يتزعزع عن عقيدته وايمانه فنزعوا أسنانه ، ثم وضعوه في حقيبة رمل ، وتوغلوا به في البحر واخذوا يعرضون عليه الحياة اذا هو آمن بما أقره مجد خليقدونيا ، فلما أن أصر على الرفض رموا به في البحر فمات غرقا » .

وليس هذا الا قصة من عشرات ومئات القصص .

ويجمع المؤرخون الأوربيون ، على أن هذه الحماسة من جانب قيرس هي ا مهدت السبب لفتح المسلمين لمصر ، فقد كره الأقباط الحكم البيزنطى الذى ساء عليهم قيرس ، ودعوا الله أن ينجيهم من شروره وآثامه ... فلما جاء المسلم الى مصر استقبلهم المصريون ، كما يستقبلون المخلصين والمحررين من رسل الشما.

٦٣١ م - ولاية قيرس على مصر :

تصور هرقل أن واجبه المقدس هو أن يوحد العقيدة المسيحية بعد أن نجح في انقاذ الامبراطورية المسيحية . فوضع بالاتفاق مع بعض رجال الكنيسة صيغة جديدة للتوفيق بين المذهب الخليقدوني والمونوفيزنى ، وذلك بأن يكف الناس عن الخوض فى الكلام عن طبيعة المسيح ، وما اذا كان لها طبيعة واحدة أو طبيعتان ، على أن يؤمنوا بأن له ارادة واحدة وقضاء واحدا .

واختار مطران مدينة فاسيس بالقوقاز ، وكان يدعى قيرس ليقوم بمهمة توحيد المذهبين اليعقوبى والمالكى ، أو الخليقدونى ، والمونوفيزنى فى مصر .

ولم يكد الانبا بنيامين بطريرك مصر يسمع عن مقدم قيرس وعن المهمة التى عهد اليه بها ، حتى أسرع بعقد مجمع فى مدينة الاسكندرية للقساوسة والرعية والقي فيهم خطابا حرضهم فيه على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافقهم الموت وكثب الى الاساقفة يأمرهم بالهجرة الى الجبال والصحارى ، ريثما يرفع الله عنهم غضبه ونقمته ، وبعد أن قام بهذه الاجراءات أسرع بمفادرة الاسكندرية ، متوجها نحو الجنوب ... نحو الصعيد .

عهد جديد من الاضطهاد فى مصر :

ووصل قيرس الى الاسكندرية ، وحاول فى بادىء الأمر أن يشرح للناس فى رفق وكياسة حقيقة المذهب الجديد مذهب وحدة الارادة (المونوتليتى) وانه لا يختلف عن جوهر المونوفيزنى ، ولكنه لم ياق من عامة الشعب اذنا صاغية ، فعقد فى الاسكندرية مجمعا من الاساقفة والقساوسة الملكيين الذين أسرعوا الى اقرار النحلة الجديدة ، ولكن ذلك لم يزد الناس الا نفورا .

وهنا بدأ قيرس يتنكر للناس ويشرع فى حملة من الاضطهاد استمرت على رقاب العباد عشر سنوات ويحوى تاريخ الكنيسة القبطية الكثير من قصص التعذيب والاضطهاد والتى تعيد للذاكرة أسوأ ما تعرض له المسيحيون فى تاريخهم الطويل ، ويسوقون الامثلة على ذلك اولها ما اصاب منياس شقيق الانبا بنيامين « حيث سلطت نيران المشاعل على جسده فأخذ يحترق - حتى سال دهنه من جبينه الى الأرض - ولكنه لم يتزعزع عن عقيدته وايمانه فنزعوا أسنانه ، ثم وضعوه فى حقيبة بها رمل ، وتوغلوا به فى البحر وأخذوا يعرضون عليه الحياة اذا هو آمن بما أقره مجمع خليقدونيا ، فلما أن اصر على الرفض رموا به فى البحر فمات غرقا » .

وليس هذا الا قصة من عشرات ومئات القصص .

ويجمع المؤرخون الأوربيون ، على أن هذه الحماسة من جانب قيرس هى التى مهدت السبب لفتح المسلمين لمصر ، فقد كره الأقباط الحكم البيزنطى الذى ساط علىهم قيرس ، ودعوا الله أن ينجيهم من شروره وآثامه ... فلما جاء المسلمون الى مصر استقبلهم المصريون ، كما يستقبلون المخلصين والمحررين من رسل السماء .

٦٣٢ م - ١١ هجرية : وفاة رسول الله :

وفي هذه السنة في يوم الاثنين ليلة الثاني عشر من ربيع الاول توفى محمد رسول الله . صلوات الله عليه ، بعد أن أدى الأمانة وأتم الرسالة ، ونصح الأمة ولا يتسع هذا الكتاب المخصص لتاريخ مصر ، أن يفيض في التعريف بدين الاسلام ويغنيينا عن ذلك ان جمهور قراء هذا الكتاب من المسلمين الذين يعرفون تفاصيل دينهم . . . ومع ذلك وجريا على سنتنا حتى الآن في ايجاز المبادئ الأساسية للمعتقدات والأديان التي تعاقبت على مصر .

من المعروف والمشهور أن قواعد الاسلام خمس :

١ - شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

٢ - الصلاة .

٣ - الزكاة .

٤ - صوم رمضان .

٥ - حج البيت لمن استطاع اليه سبيلا .

ولكن الذى يغيب عن أفهام الكثيرين حتى بين المسلمين المتعبددين أن هذه التقاليد والعبادات ليست مقصودة في ذاتها ، وإنما هي وسائل لتربية النفس لخير الجماعة الانسانية في مجموعها ، فالله غنى عن العالمين ، وسواء آمنوا به أو لم يؤمنوا ، عبدوا أو لم يعبدوا فإن يضره ذلك في قليل أو كثير . . . وإنما العبادة وسائر التعاليم إنما كانت لخير العالمين ، فالرسول صلوات الله عليه يقول . . . « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وهو يصف نفسه بأنه رحمة مهداة ويقول القرآن الكريم « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

فتوحيد الاله هنا على سبيل المثال ، لايعنى سوى تحرر البشر من طغيان بنى الانسان ، فليس ثمة سوى اله واحد وجميع الناس عبيد له . . . فلا كهان ولا قساوسة ، ولا وسطاء ، ولا طقوس ، أو هياكل ، فالله في كل مكان أقرب لكل انسان من حبل الوريد - حسبه أن يدعو له ليجده سميعا مجيبا ، ويتفرغ من هذا المبدأ الأساسى بقية تعاليم الاسلام ، من مساواة بين المسلمين وحرية وأخاء . .

والصلاة ليست سوى تربية نفسية ليظل ضمير الانسان حيا ، عاكفا على أداء الواجب ومحاسبة النفس والسير على الجادة . . . وهى بعد ذلك تزويد للانسان بسلاح يستعين به وقت الشدة وخلال الازمات حيث لا يتصور نفسه وحيدا ضائعا في الوجود وأن يدعو الله فيجده أقرب اليه من حبل الوريد .

والصوم لون آخر من ألوان التربية تعويد النفس على احتمال المشاق والصبر على المكاره ، ومن أجل تحقيق مثل أعلى . . وهو فوق ذلك تنبيه للانسان ان يقدر معنى الجوع والظما . . .

وان يعمل على الا يكون على ظهر الأرض جائع أو ظمآن . وذلك من خلال المبدأ الرابع « الزكاة » : فالزكاة هي طريق الاسلام ليقضى على الجوع والحرمان على ظهر الأرض ، فليس لانسان أن يستأثر بملك شيء من الأشياء الا أن يدفع منه جزءا للمحتاجين والمحرومين ، لا على سبيل المن والاحسان ، ولكن على سبيل أداء الواجب وتوفية الحقوق ... فمال الغنى ليس من كسب يده ، وانما هو من صنع الجماعة كلها .

ويتكامل التهذيب الاسلامي وتربيته الاجتماعية والنفسية لخير الجماعة في منسك الحج . حيث يتوافد المسلمون من كل فج عميق من أربعة أرجاء المعمورة ، ليحتشدوا حول بيت الله الحرام في مكة ليتعارفوا فيما بينهم ، ولتتجلى وثاق وحدتهم في اجتماع واحد ، حاشدا مرة في كل عام ، لأقوياء المسلمين من كل لون ومن كل جنس ومن كل مدينة ، ومن كل طبقة ، ليدوبوا جميعا في بوتقة واحدة هي بوتقة الايمان بالله عادل رحيم يطالب منهم أن يتحابوا وأن يتعاونوا وأن يرحم بعضهم بعضا ويصل منسك الحج الى ذروته وهو يطلب من جميع الحجاج أن يخلعوا ملابسهم الا من قطعة قماش غير مخيطة تلتف حول جسدكم ، وأن يقفوا عاربي الرؤوس .. وهكذا لا يعرف فيهم الملك والامبراطور ، من أصغر الناس ..

فالكل أبناء الله ... والكل عبيد الله ... فلا استعلاء ، أو استكبار ولا استغلال ، ولا استعباد .

ذلكم هو روح الاسلام .

جزع المسلمين لوفاة الرسول :

وقد جزع المسلمون لوفاة رسول الله ، وحق لهم أن يجزعوا ، وليس هناك ما يصور هول ما أصيبوا به من موقف عمر بن الخطاب ، وهو من هو ، رجاحة عقل ، وقوة شكيمة ، وبعد نظر فقد أنكر أن يكون محمدا قد مات كما يموت سائر البشر وجرد سيفه وأعلن أنه سيقطع به رقبة كل من يكرر هذه القولة المفزعة ، ولم يكن سوى أبى بكر الصديق حبيب رسول الله وصفيه وخليله ، من تمالك رشده في هذا الموقف العصيب وخرج على المسلمين الذين كاد الحزن يذهب بصوابهم وقل لهم قولته الخالدة : على مر الزمن : أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، وتلا عليهم من القرآن : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » .

وهنا فقط زالت الغشاوة عن عين عمر وقلبه ... وأدرك من لم يكن قد أدرك أن رسول الله قد لحق بالرفيق الأعلى . فعمدوا الى اختيار خليفة له ليلى أمورهم .

خلافة أبى بكر الصديق :

وعلى الرغم من أن رسول الله ... قد أشار أكثر من إشارة لرغبته في أن يكون أبو بكر الصديق خليفته ، فقد آثر أن يدع الأمر لاختيار المسلمين من بعده ، لكى

يكون أمرهم شورى بينهم ، وليضع القاعدة الأساسية من قواعد الاسلام في الحكم ان لا حاكم الا ما اختاره الناس اختيارا حرا . فهو وحده الذي له عليهم حق السمع والطاعة .

ولذلك فقد أوشك المسلمون أن يفترقوا فيمن يولون واجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ليولوا أحد كبرائهم خليفة لرسول الله ... لولا أن أدركهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب فما كان ليلي الخلافة سوى واحد من قريش ممن قاموا مع رسول الله منذ اليوم الأول ... ورشح لهم عمر بن الخطاب ... ولكن عمر طلب من أبي بكر أن يبسط يده لبياعه ، فلما أن بايع عمر أبا بكر تنبه الناس الى أنه أحق المسلمين بالخلافة فأسرعوا جميعا لمبايعته .

وبايع الناس في اليوم التالي أبا بكر في المسجد بيعة عامة ...

فالقى خطبة موجزة تعتبر بحق والى الابد دستور العلاقة بين الحاكم والمحكوم أي هي العقد الاجتماعي قبل أن تعرفه أوروبا بأكثر من ألف سنة والذي قال بوجوده الفلاسفة في القرن الثامن عشر - واليك ما قال :

« أيها الناس اني قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوموني . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندي حتى أخذ الحق له ان شاء الله والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه ان شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله الا ضربهم الله بالذل . ولا تشيع فأحشة في قوم قط الا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم : قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله » .

ارتداد العرب :

وفوجيء أبو بكر الصديق . او بالأحرى فوجيء المسلمون جميعا بارتداد عرب الجزيرة عن الاسلام وتوقفهم عن أداء الزكاة التي ترمز لوحدة الدول العربية الواحدة ، والاعتراف بالقائد الواحد ، وامتلات الجزيرة بأنبياء كذبة وأدعياء النبوة من أمثال مسيلمة وطلحة وسجاح ، ولاذت كل قبيلة بنبيها المدعى لتعان عن سلطانها واستقلالها عن قريش ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، ولم يتصوروا أن بقدرتهم أن يواجهوا العرب مجتمعين ، فأشاروا بالمهادنة والملاينة وكان على رأس الداعين الى ذلك عمر بن الخطاب .

ولكن رجلا واحدا امتلا قلبه بالايمان الذي يزحزح الجبال - ذلك الرجل هو أبو بكر الصديق ، فقد أصر أن لا سلام ولا مهادنة مع العرب المرتدين ، فاما الاذعان لما كانوا عليه أيام الرسول واما الحرب والقتال ... وامعن أبو بكر الصديق في الاعراب عن ايمانه العميق بالله وبرسالة محمد ، فأوفد الجيش الوحيد الذي كان يوجد بالمدينة ساعثا ، الى حدود شبه الجزيرة لمناوشة الروم . وانتصر ايمان أبي بكر ، وسحقت حركات الردة وقتل ادعياء النبوة ... وعادت من جديد جزيرة العرب موحدة تحت راية الاسلام ، ورأى أبو بكر الصديق بوحي من ايمانه وعلى هدى من بصيرته أن يوجه جموع العرب الى الآفاق ... لتواجه الروم والفرس ، وتدعوها الى الدين الجديد ، بعد ان رسخ الايمان به في أعماق أعماق من كانوا يكفرون به ويتحدونه .

٦٣٣ م - ١٢ هجرية :

قام خالد بن الوليد بأول غارة على الامبراطورية الفارسية فاستولى على مدينة الحيرة عاصمة المناذرة الدولة العربية التابعة للفرس .

٦٣٤ م - ١٣ هجرية :

بعد الانتصار ضد أول جيوش الفرس ، اندفع خالد بن الوليد بناء على طلب الخليفة أبي بكر إلى الشام لمواجهة الجيوش البيزنطية في سوريا وفلسطين فحصل على أول انتصار ساحق على الروم في موقعة اجنادين .

وفاة أبي بكر الصديق وخلافة عمر بن الخطاب :

وفي اليوم السابع من شهر جمادى الآخر توفي أبو بكر الصديق بعد أن مكث في خلافته عامين وثلاثة أشهر وتسعة أيام ، تعتبر في طبيعتها استمراراً لحياة الرسول صلوات الله عليه ، وتثبيتاً للرسالة وتدعيماً لها .
ومات عن ثلاث وستين سنة على أصح الروايات . .

وقد استشار المسلمين قبل وفاته فيمن يخلفه بعده فأجمع الكل على ولاية عمر بن الخطاب فأوصى به خليفة من بعده ولذلك فقد انتقلت الخلافة إليه بطريقة آليّة .

٦٣٦ م - ١٥ هجرية : موقعة اليرموك :

كانت ولاية عمر للخلافة بمثابة قوة دافعة للجيوش الإسلامية التي مضت في حربها ضد جيوش الفرس والروم في آن واحد .

... وكانت أعظم واقعة في بلاد الشام بين المسلمين والروم هي واقعة اليرموك ، والتي ولى قيادتها « خالد بن الوليد » على الرغم من عزل عمر بن الخطاب له وتوليته أبي عبيدة . ويعتبر المؤرخون الأوروبيون أن انتصار المسلمين في معركة اليرموك على قلة عددهم على جيش الروم المنظم المدرب المحترف ، والذي كان يقوده تيودور شقيق الامبراطور هرقل والذي يعتبر مفخرة القواد البيزنطيين لبلائه في الحرب ضد فارس . . يعتبرون انتصار العرب في هذه المعركة لغزاً استعصى عندهم على التفسير العلمي .

وبانهزام الروم في موقعة اليرموك ، استولى المسلمون على دمشق وحمص وسقطت حلب وانطاكية . . . وقد شهد سكان هذه البلاد شيئاً لا عهد لهم به من قبل ، فقد أقرهم المسلمون على دينهم . . وتركوا لهم انظمتهم وكنائسهم وأموالهم . . . واكتفوا منهم بالجزية التي لم تكن تزيد عن دينارين على كل رأس . . . وهو لا يكاد

يؤلف جزءا صغيرا من الضرائب التي اعادت بيزنطة والرومان من قبلهم أو الفرس من بعدهم أن يبهظوهم بها فكان لهذه المعاملة المثالية أثر كبير في اعتناق الكثيرين لدين الاسلام ومصادقة من لم يسلم للمسلمين ، مما كان له اكبر الأثر في اسنمرار الفتوح .

٦٣٧ م - ١٦ هجرية : معركة القادسية :

انتصر سعد بن ابى وقاص على رأس جيش المسلمين في واقعة القادسية التي حشد لها الفرس زهرة حيوشهم المدربة بالأسلة ، والتي كانت تفوق في العدد اضعاف المسلمين ، وكانت مزودة بالأسلحة التي لاعهد للعرب بها من قبل وخاصة بالفيلة وكان يقود الجيش الفارسي رستم كبير وزراء كسرى يزديجرد والذي اثبت كفاءته المنقطعة النظير .

وبانتصار المسلمين في القادسية ، تهاوت مدن فارس الكبرى وأهمها المدائن عاصمة فارس ، واستولى المسلمون على ايوان كسرى وكنوزه وذخائره .

٦٣٨ م - ١٧ هجرية :

استسلمت مدينة « اورشليم » (القدس) للمسلمين واشترط اسقفها منقرنيوس أن لا يسامها الا لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين نفسه ، فقصدتها عمر بن الخطاب قاطعا الرحلة من المدينة الى بيت المقدس ، في غير حاشية أو رفاق ، وليس يصحبه سوى تابع له فراح عمر يركب بعض الطريق بينما يمشى تابعه ، ثم ينزل ليركب تابعه حتى وصل في لباسه البسيط المتواضع الى بيت المقدس ، فكانت هذه القداسة افعل في نفوس المسيحيين ، من الجيوش الاسلامية الطاهرة وناقلت الدنيا احاديث هذا الأمر العجيب .

الفصل الثامن

مصر الإسلامية

٦٣٩ م - ١٨ هجرية :

عمرو بن العاص يقترح على الخليفة فتح مصر :

في هذه السنة شرع عمرو بن العاص يقنع عمر بن الخطاب الذي كان لا يزال موجودا بالشام أن يفتح مصر ، وراح يبين له المزايا التي ستعود من فتح مصر ، في حرمان الروم من مواردها الوفيرة واستقرار المسلمين بها . ومضى يهون له من شأن هذا الفتح وأنه لن يحتاج الى جيش كبير ، فقد سبق أن زار مصر ويعرف مسالكها واحوالها وظروفها ، فأذن له عمر بن الخطاب على مضض ، فقد كان شديد الحرص على دماء المسلمين ، وعلى أن لا يشتت قواهم شرقا وغربا في الفتوحات ، وكانت جيوش المسلمين في هذا الوقت القصير قد بدأت تضرب في أنحاء فارس بعد أن استولت على كل بلاد النهرين وسوريا وفلسطين .

وسار عمرو بن العاص بجيشه المحدود الذي أجمع المؤرخون على أن عدته لم تربو على أربعة آلاف مسلحين بالسيوف والرماح والقسي ولازيادة .

وثمة خلاف على الوقت الذي بدأت فيه الحملة على مصر ، فمن قائل أنها تمت في السنة السادسة عشرة من الهجرة على ماروى الطبرى نقلا عن سغب ولكنه لم يأخذ بهذا الرأي وأثبت تأريخ فتح مصر في السنة العشرين من الهجرة .

٦٤٠ م - ٢٠ هجرية : فتح مصر :

حدث خلط كثير بين المؤرخين العرب في كل ما يتعلق بفتح مصر وقد نشأ ذلك عن الخلط بين مصر البلد التي كانت تنصرف الى مدينة منف وحصن بابليون وبين مصر كلها كإقليم . . . وكذلك بالنسبة لدخول المسلمين الاسكندرية صلحا ، ثم عودتهم اليها حربا .

ونحن نثبت هنا أرجح الآراء التي اتفقت عليها الأغلبية :

تقدم عمرو بن العاص بجيشه الى مصر ، حتى اذا وصل الى رفح أول الحدود المصرية لحق به رسول من قبل عمر بن الخطاب يحمل رسالة ، ولما كان عمرو بن العاص

يعرف بناقبة ذكائه مقدار تردد عمر بن الخطاب في الاذن له بفتح مصر ، فقد غاب على خاطره أن يكون في هذه أمر يصرفه عن غزو مصر ، ولذلك فقد تقاعس عن مقابلة رسول الخليفة واستلام الرسالة ومضى بجيشه نحو الإمام حتى وصل مدينة العريش وأصبح بذلك بوغل في أرض مصر . وهنا فقط استدعى الرسول وفض الرسالة ، فإذا بها تصدق حدسة وتخمينه ، وتشهد له بحسن البراعة والتقدير وأن الفضل في فتح مصر وادخالها الى العالم الاسلامي يدين بالدرجة الأولى الى عمرو بن العاص ، فقد كانت رسالة الخليفة تقول له انه اذا تسلم الرسالة وهو لا يزال خارج حدود مصر فعليه أن يعود ادراجه ، ولا يمضي لهدفه . . . اما اذا كان قد تجاوز الحدود المصرية بالفعل فقد أصبح لزاما عليه أن يمضي على بركة الله . . .

وأخبر عمرو بن العاص من حوله بمضمون الرسالة وهو يخفى من غير شك ابنسامة الاحساس بالنصر . . . فأصبح لزاما طبقا لأمر الخليفة أن يمضوا نحو الإمام .

سقوط مدينة الفرما :

وكانت أول مقاومة قابلها المسلمون حول مدينة الفرما حيث كانت توجد بها حامية بيزنطية ، وبعد حصار ومناوشات استمرت شهرا سقطت المدينة في يد المسلمين وانسحب منها الروم ، فكان ذلك أول الفتح ، فضاغف من عزائم المسلمين وقوى ايمانهم في الوقت الذي أوهم من عزائم الروم وقت في عضدهم . وكانت انتصارات المسلمين المذهلة على جيوش الروم والفرس ، قد بدأت تجعل الشعوب تؤمن بأن قوة المسلمين لا تغلب . . . كما أن حسن معاملتهم للشعوب التي ذاقت الأمرين في ظل الفرس والروم ، والعدل والأمانة التي اشتهرت بها هذه الطلائع الاسلامية قد فتحت لهم القلوب وازاحت من طريقهم أقوى العقبات . . . وهي كراهية الشعوب ومعادائهم . . .

سقوط مدينة بلبيس :

ولذلك فقد أعقب سقوط الفرما ، سقوط مدينة بلبيس ، بعد حصار ومناوشات استمرت شهرا آخر ، وانسحبت حامية المدينة بما انضم اليها من حامية الفرما المنسحبة الى حصن بابليون أقوى حصون مصر ومفتاحها في الشرق .

معركة هليوبوليس ١

وصل المسلمون الى حيث كان يقوم حصن بابليون (مصر القديمة) - في الوقت الحاضر فوجدوه أمنع من عقاب الجو ، ولم يكن لدى جيش عمرو آلات الحصار ، ولذلك فقد رأى عمرو انه لا محل للتفكير في الاستيلاء على الحصن عنوة ، وقد كان بداخله اضعاف اضعاف جنده من جنود الروم ، ولذلك فقد أرسل الى عمر بن الخطاب يطلب منه مددا ، ثم خلف حصن بابليون ورائه وراح يهاجم بجيشه الخفيف السريع حول مصر الوسطى ، فوصل الى الفيوم ودأبت له معركة حامية الوطيس عند مدينة البهنسا خسر فيها بعض رجاله ولكن النصر كان حليفه في ختامها . . .

على انه لم يسسول على الفيوم اد وصلته الانباء ان مدد الخليفة قد وصل فعاد ادراجه للاتصال بالمدد . ولم يكن المدد الذى وصله سوى اربعة آلاف . وعلى أثرها اربعة آلاف اخرى على رأس كل منها صحابى جليل قومه عمر بن الخطاب بألف رجل وهؤلاء الاربعة القادة هم الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد - أو خازجة بن حذافة .

وهكذا تكامل لعمر بن العاص جيش من اثنى عشر ألف مقاتل وصفها عمر ابن الخطاب بأنها لا تغلب عن قلة .

ولعل تيودور قائد الروم فى حصن بابليون قد تصور ان هذا الذى وصل من طلائع المسلمين هو أول المدد الذى لن يلبث أن يتزايد ويتضاعف . . فرأى ان يضرب ضربته قبل أن يستكمل المسلمون أهبتهم ، خاصة وقد كانوا بعددهم الضئيل لا يصلون الى ربع القوات التى كانت تحت امرته . فغادر الحصن الذى كان يلوذ به على رأس جيشه ليشتبك بجيش المسلمين عند هليوبوليس « مصر الجديدة فى الوقت الحاضر » وتكررت الاعجوبة التى أذهلت المعاصرين ولا تزال تدهل الباحثين حتى اليوم ، فهذا العدد المحدود من المسلمين ، قد تفوق تفوقا ساحقا على جيوش الروم المدربة المجهزة المحاربة فاذا بها تتمزق ترممزق ، فيموت من يموت ، ويفرق فى النيل من يفرق . ويهرب من يهرب . . ويلوذ بحصن بابليون من يلوذ ولكن كان من المحقق ان الأمر قد قضى وان مصر قد سقطت ، كما سقطت الشام والعراق من قبل ، ولكن بأيسر سبيل هذه المرة وبأقل جهد .

وأسرع عمرو بن العاص فاستولى على قرية أم دنان « الأزبكية حاليا » متخذاً منها قاعدة على النيل يتحرك منها الى أى جزء من اجزاء مصر .

مفاوضات قيرس مع عمرو بن العاص :

من المحقق أن هوى قيرس حاكم مصر وبطيريركها الملكى - كان مع المسلمين عندما دخلوا البلاد - كان شديد الرغبة فى التصالح معهم .

ولذلك فقد دخل عقب موقعة هليوبوليس فى مفاوضات مع عمرو بن العاص - انتهت الى اعداد مشروع معاهدة حفظ لنا الطبرى نصها لحسن الحظ :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينقص ، الا يساكنهم النوب (النوبة) وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم ، خمسين ألف ألف وعليلهم ماجنى لصوتهم (لصوصهم) فاذا أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة ، وان نقص نهرهم عن ثمانية ، رفع عنهم بقدر ذلك .

« ومن دخل في صلاتهم من الروم والنوب ، فله مثل ما لهم وعليه ما عليهم
ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ قامته أو يخرج من سلطاننا . عليهم
ما عليهم أثلاثا ، في كل ثلث جبايته ثلث ما عليهم . »

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين
وذمم المؤمنين . وعلى التوبة الذين استجابوا أن يبعثوا بكذا وكذا رأسا وكذا وكذا
فرنسا على أن لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة .
شهد الزبير وعبد الله ومحمد وابناه وكتب وردان . »

وقد يكون قد رفع خطأ من النسخ في الرقم الوارد في مقدار الجزية بهذه
المعاهدة ولكن هذا الخطأ الذي يمكن أن يوصف (بالمطبعي) لا يمكن أن يؤثر على
سلامة المعاهدة في مجموعها . فهي نموذج لما جرى عليه العمل في الاقطار الاخرى ،
ودستور المسلمين في هذه الفترة .

وقد علق قيوس شرط ابرام المعاهدة نهائيا على موافقة هرقل امبراطور الروم ،
والى أن تتم هذه الموافقة ، فعلى الجيوش أن تلتزم مواقعها ولا يدور بين الطرفين
قتال .

ولم يكد مشروع هذه المعاهدة الذي يمثل في حقيقته تسليم مصر للمسلمين
يصل الى هرقل ، حتى غضب وحنق على قيوس وأرسل يستدعيه الى
القسطنطينية . حيث عنفه وعزله عن ولاية مصر ونفاه ، وأرسل الى رجاله في
مصر أن يمشوا في مقاومتهم للغزو الاسلامي .

٦٤١ م - ٢١ هجرية - انتصار المسلمين في معركة نهاوند :

في هذه الفترة انتصر المسلمون انتصارا ساحقا في معركة نهاوند ، وبهذا انتهت
الحرب مع فارس نهائيا ، اذ تساقطت اقاليمها كالري وهمدان واذربيجان وجرجان
وخراسان .

٦٤١ م - موت هرقل وسقوط حصن بابلين :

في مارس من هذه السنة وصل نبأ موت هرقل امبراطور الروم الى المسلمين
المحيطين بحصن بابلين ، فأرتفعت من صفوف الجيش أصوات التكبير والتهليل ،
فلما أن سأل المحاصرون في الحصن عن علة التكبير وعلموا بنبا موت هرقل فت ذلك
في عضدهم وكسر شوكتهم على ما يقول مؤرخو العرب ، فوهنت قوتهم وانهار
عزمهم في الوقت الذي تقوى فيه المسلمون حتى أن الزبير بن العوام تسور جدار
الحصن من راويته الجنوبية الشرقية شاهرا سيفه وكبر فرددت جموع المسلمين

المحتشدين أسفل الحصن الكبير وراءه ، فتصور من بالحصن أن المسلمين قد اقتحموا الحصن بالفعل ، فأرسلوا الى عمرو بن العاص يفاوضونه في التسليم على ما سبق الاتفاق عليه وأجابهم الى ما طلبوا وفي يوم الاثنين ١٩ أبريل سنة ٦٤١ في عبد الفصح غادر البيزنطيون حصن نابليون مسلمين الى عمرو بن العاص وجيش المسلمين ، ويلطم كثر من المؤرخين خلدودهم ، ويرفعون أصواتهم بالاحتجاج والحسرة ، وعلى رأسهم بتلر ، كيف يسلم الروم هذا الحصن الذى ما كان باستطاعة العرب أن يأخذوه عنوة أبدا .

٥٤٢ م - ٢٢ هجرية : فتح مدينة الاسكندرية :

سارت الجيوش الاسلامية بعد فتح حصن نابليون نحو الاسكندرية فتصدت لها بعض الجيوش الرومانية ، في بعض المواقع ، ولكن الهزيمة كانت تدور عليهم في خائمة المطاف وأخيرا وصلت جيوش المسلمين الى مشارف مدينة الاسكندرية ، ويعبر بتلر عن حسرته لسقوط الاسكندرية وهو يصور بعين الخيال ما كانت عليه المدينة الخالده من عظمة بالقيساس الى هؤلاء الاعراب الشعث الوجوه النحيلي الاجسام القليلي العدد وهم يتجولون وسط الحدائق وبساتين الكروم والاديرة الكثيرة بأراضيه فيقول في وصف المدينة : لقد كانت الاسكندرية حتى ذلك الوقت تعتبر أجمل مدن العالم وأبهاها . فلم تبدع يد البناء قبلها ولا بعدها شيئا يعادلها اللهم الا روما وقرطاجنة القديمتين .

فما سرحت العين الا لتقع على أسوار وحصون لا نظير لها بقيت بعد ذلك قرونا وهى مشار أعجاب من رآها من أهل الاسفار وكانت تشرف وراء هذه الاسوار والحصون بدائع من قباب ومن عمد بعضها اسطوانى وبعضها مربع تقوم فوق قواعدها ، ومن تماثيل ومعابد وقصور تتلأأ وتتألق ، فاذا ما تيسرت رأيت دون ذلك معبد السيرابيوم وقد أفاق بسقفه المذهب والقلعة التى كان يشرف عليها عمود دقلديانوس ، فاذا ما نيامنت بدت لك الكنيسة العظمى كنيسة القديس مرقس ، تليها العمدة المربعة التى سميت مسلات كليوباترا والتى كانت قد عمرت نيفا وألفى عام وفيما بين يمينك ويسارك يرتفع بناء المنارة الرائع (فاروس) والذى كان يعده الناس أحد العجائب السبع وحق لهم أن يفعلوا .

وكان من الممكن أن يقف المسلمون على أبواب الاسكندرية الى ما شاء الله دون أن يستطيعوا لها فتحة . . فقد كانت مفتوحة الى البحر الذى لا يوجد للمسلمين فيه أى سفينة فأصبح يستحيل حصارها ، وكان مأوها موفورا وثروتها لا حد لها وكانت أسوارها لا يمكن اقتحامها: بل لم يستطع المسلمون الاقتراب منها ، فقد انهالت عليهم قلنائف المنجنيق ، وكانت المدينة تفص بعشرات الالوف من الجند ومرة أخرى يظهر قيرس في الميدان ليسلم الاسكندرية للمسلمين فبعد وفاة هرقل ، تولى الحكم من بعده قسطنطين ابنه ، فاستدعى قيرس من منفاه ليستشيره في أحوال مصر ، وسبيل الدفاع عنها ، على أن قسطنطين لا يلبث أن يموت ليلى العرش بعده

أخوه هرقلوناس الذى شاركه وسكانر فى الحكم . فاتفقا على أن يوفدا قيرس الى مصر ليعقد صلحا مع المسلمين بعد أن بين لهم استحالة الدفاع عن مصر .

وفى نوفمبر سنة ٦٤١ أبرم قيرس معاهدة جديدة على غرار معاهدة بابليون على أن يسلم لجيش بيزنطة أن يفادر الاسكندرية وأن يحمل جنوده امتعتهم وأموالهم وكذلك كل من يرغب فى مغادرة الاسكندرية من رعاياها .

وأن يتعهد المسلمون ان لا يتعرضوا للكنايس .

ونم الاتفاق على أن يتم الجلاء بعد احد عشر شهرا .

وفى التاسع والعشرين من شهر سبتمبر سنة ٦٤٢ انسحب الروم حسب الاتفاق ودخل المسلمون مهللين مكبرين الى مدينة الاسكندرية فى هدوء وسلام .

وكان قيرس قد مات خلال هذه الفترة من الهدنة :

عمرو بن العاص يكتب الخليفة :

وارسل عمرو بن العاص ببشر عمر بن الخطاب بالفتح ويقول له « ان الله فتح علينا مدينة من صفتها أن بها أربعة آلاف قصر ، وأربعة آلاف حمام ، وأربعمائة ملهى وإثنى عشر ألف بائع خضر ، وأربعين ألفا من اليهود اهل الذمة وقد يكون فى هذه الارقام بعض المبالغة كما هى العادة ... »

ولكن الامر المجمع عليه ان الاسكندرية حتى ذلك الوقت كانت أعظم مدن العالم التجارية بصفه عامة وليس يفوقها أو بالأحرى يضاهيها من حيث العمران فى هذه الفترة سوى القسطنطينية وربما روما .

هل حرق المسلمون مكتبة الاسكندرية :

وقد نسب بعض مؤرخى المسلمين « المتأخرين » الى جيش المسلمين الفاتح للأسكندرية أنه أحرق مكتبة الاسكندرية .

وقد رأينا فيما مر بنا من احداث ان هذه المكتبة قد احترقت من قبل . وليس لكتاب بتلر من حسنة سوى أنه جهد نفسه فى هذه الناحية لاثبات زيف هذه القرية وبطلانها وكيف انها لم ترد فى أى من مصادر التاريخ الاسلامى أو البيزنطى أو القبطى التى كتبت فى القرون التى عقت الفتح . وان جميع الذين زاروا الاسكندرية قبل الفتح الاسلامى لم يشيروا الى وجود مكتبة بها .

انشاء مدينة الفسطاط :

وكشف المسلمون عن طبيعتهم الصحراوية فلم يتخذوا من الاسكندرية عاصمة للبلاد ، ويرجع ذلك الى عبقريه عمر بن الخطاب ، الذى أصر على أن يحافظ جيش المسلمين على نقشفه وطيهارته فأشار فى كل قطر دخلوا اليه الى انشاء مدينة جديدة يوافق جوها مزاج العرب وتقع على حافة الصحراء ، وعلى هذا الاساس أنشأ عمرو بن العاص مدينة الفسطاط بالقرب من حصن بابليون أما سبب تسميتها

بالفسطاط . فيرجع الى أن المسلمين عندما حلوا خيامهم من حول حصن بابلون ، ليسأنفوا زحفهم نحو الاسكندرية اكتشفوا ان حمامة ، قد عشتت في خيمة عمرو بن العاص وأفرخت ، فقال عمرو بن العاص انها نزلت في حماية المسلمين ، فطلب منهم ان يبقوا الفسطاط على حاله اكراما لها . فلما أن رجع الجيش من الاسكندرية تساءلوا اين ينزلون فقال البعض عند الفسطاط فكان ذلك هو اسم المدينة الجديدة .

لم ترق هذه القصة التي أجمع عليها مؤرخو العرب الدكتور جمال الدين الشيال في كتابه - تاريخ مصر الاسلامية - ولذلك فهو يناقشها مناقشة عقلية يستبعد بها أن تعشش حمامة على فسطاط عمرو بن العاص . وهو يرجح برأى مؤرخى الفرنجة من ان كلمة فسطاط كلمة قد أخذت عن الكلمة الاغريقية Fossotun أى المدينة - وان كان يرى ان الفسطاط كلمة عربية الاصل بمعنى المدينة والذي فات الدكتور الشيال ان وجود كلمة الفسطاط في المعاجم العربية بمعنى - المدينة لا يمنع أن تكون منقولة عن اليونانية ، فما فاته أن يفسر لنا ، اذ كانت كلمة الفسطاط تعنى أى مدينة فلماذا اختصت مدينة الفسطاط التي انشأها عمرو بهذا الاسم دون أى مدينة أخرى انشأها العرب ، حتى ليقولوا على ما فعل هو نفسه :

« سميت البصرة فسطاطا على التشبيه بفسطاط مصر » .

المسجد الجامع : أو مسجد عمرو بن العاص :

وكان أول مبنى أقيم في المدينة هو المسجد الجامع جريا على عادة المسلمين في هذه الفترة ، فخط مسجد عمرو الذي لا يزال باقيا حتى الآن وكانت مساحته يوم أن انشأه عمرو بن العاص لا تتعدى خمسين ذراعا في ثلاثين ، ولم يلبث هذا المسجد ان تحول الى مركز اسلامى علمى ، فيه محدثون من الصحابة ومن التابعين وتابعى التابعين ، والاجماع على أن أستاذ المعهد الاول هو الصحابى الجليل عبد الله ابن عمرو بن العاص ، الذى يشهد له الكل بالثفقه في الدين ، وينسب اليه أنه من أول أو لعله الوحيد الذى كتب أحاديث رسول الله .

ترعة أمير المؤمنين :

وليس هناك ما يكتشف عن عبقرية عمرو بن العاص وكأنه قد ولد مفطوراً على الادارة والقيادة ، من أنه عكف أول ما استتب له الأمر على تطهير هذه القناة التى كانت مقياسا دائما على مدى رقى مصر أو تدهور أحوالها ، فكانت هذه القناة تطهر وتستعمل كلما صلحت الاحوال في مصر ، وتردم كلما تدهورت الاحوال ، ونعنى بها هذه القناة الموصلة من النيل الى البحر الاحمر ، والتي كانت سبيل التجارة بين الشرق والغرب عبر النيل ، وقد كان آخر من طهرها واستعملها هو براجان ولذلك أطلق اسمه عليها ، اما هذه المرة فقد أطلق عليها اسم قناة أمير المؤمنين ، ذلك أنها أصبحت الطريق الرئيسى لحمل الغلال وسائر الاقوات من مصر الى المدينة .

الأنبا بنيامين يتنبأ كرسية في الاسكندرية :

بادر عمرو بن العاص باشعار أقباط مصر بروح التسامح الاسلامي ، واحترامه لمختلف العقائد فأصدر كتاب أمان للأنبا بنيامين بطريرك الأقباط هذا نصه :
« أينما كان بطريق الأقباط بنيامين نعهده بالحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق ها هنا في أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته » .
ولم يكن بنيامين يطمع في أكثر من ذلك لكى يظهر من مخبئه ويدخل الى الاسكندرية دخول الظافرين حيث احتفل به الشعب احتفالا رائعا بعد غيبة ثلاثة عشر عاما .

وقد كان لهذه السياسة التي انتهجها عمرو بن العاص بوحى من تقاليد الاسلام أثرها المباشر في نفسية المصريين ، اذ بدأوا يدخلون في دين الاسلام وعندما تيقنوا أن الدخول في الاسلام يعفيهم حقا وصدقا من دفع الجزية ويرتفع بهم الى مرتبة الحاكمين ندفقوا بأعداد غزيرة

بحيث لن يمضى وقت كبير ، حتى لا يبقى على دين المسيحية سوى الرهبان في أديرتهم ورجال الدين بصفة عامة ، والأغنياء والقادرون على حماية أنفسهم ورعاية مصالحهم .

الشعب المصرى عند الفتح :

واذ نؤشك الآن أن ندع مصر المسيحية لنشرع في تاريخ مصر الاسلامية نرى أن تثبت وصف المقرئى لشعب مصر عند الفتح الاسلامى .

« اعلم ان أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت جميعها مشحونة بالنصارى على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم . أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة المسيحية الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على ثلثمائة ألف رومى ، والقسم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط ، وأجناسهم مختلفة لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الاسرائيلى الأصل ، من غيره وكلهم يعاقبه فمنهم كتاب المملكة ، ومنهم أهل الفلاحة والزراعة ومنهم أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكيين أهل الدولة — من العداوة ما يمنع زواجهم ويوجب قتل بعضهم بعضا » (١) .

٦٤٣ م — ٢٣ هجرية :

وهى أرجح التواريخ في رأى بشار لفتح ليبيا ولكن أمين باشا سامى يجعل هذه الواقعة في السنة السابقة ومن رأينا أن فتح ليبيا أعقب فتح الاسكندرية .

(١) المقرئى — الخطط — ج ٤ ص ٢٩٣

وقد وصلت جيوش عمرو الى برقة في غير كبير مشقة ، وسامت المدينة صلحا على أن تدفع المسلمين ثلاثة عشر ألف دينار جزية معلومة كل سنة ، ثم سار الجيش بعدها الى طرابلس وكانت أمتع حصونا ، وأعز جندا ، ولكنه لم يحل دون اقتحام عمرو للمدينة والاستيلاء عليها ، وهكذا دخلت ليبيا كلها تحت ولاية عمرو بن العاص في ظل الحكم الاسلامي .

٦٤٤ م - ٢٣ هجرية : استشهاد عمر بن الخطاب :

في الثاني والعشرين من ذي الحجة من عام ٢٣ هجرية ، اغتال أبو اؤاؤة فيروز المجوسي عبد المغيرة بن شعبة امير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو قائم يصلي في المسجد وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وكان عمره يوم وفاته نيفا وستين سنة على أرجح الآراء .

ودفن الى جوار صاحبيه محمد رسول الله وأبي بكر باذن خاص من السيدة عائشة . وسيرة عمر وحكايات عمر وزهد عمر وعدالة عمر وحزم عمر ونقشف عمر ، قد كتبت فيها وسنظل نكتب مئات الألوف من الصفحات ، فهو عصر الاسلام في ذروته ، في حقيقته وجوهره ، في نقائه وطهارته ، ولذلك فمن العيب أن نشوه ذلك بالاشارة الى بعض هذه الجوانب ، فهي أشهر من أن تعرف .

ولو حاولنا أن نقف عند حد وصفه بأنه كان أول من فعل كذا وكيت لاحتاج الأمر بدوره الى صفحات وصفحات ولذلك فنكتفي ببعض العبارات التقليدية التي لا يخلو منها كتاب مهما كان مختصرا .

فعمر بن الخطاب أول من نقل الدعوة الاسلامية من السر الى العلن ولذلك أطلق عليه اسم الفاروق وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين ، وأول من سن للمسلمين العمل بالتاريخ الهجري ، وأول من وضع الخراج بدلا من نزع الأرض من تحت يد المنتفعين بها وأول من مصر الامصار فأمر بانشاء البصرة والفسطاط وأشار بطرق تخطيطهما ، وأول من استقضى القضاة ، ودون الدواوين ، بحيث كان يوزع على كل مسلم ابتداء من الطفل المولود حتى كبار الشيوخ قدرا من المال يكفي لاعاشته وبالجملة فهو مرسى قواعد الدولة الاسلامية بحق وواضع دستور الحكم بها ، استنادا على روح الاسلام والقرآن وسنة الرسول .

خلافة عثمان بن عفان :

وقد عهد عمر بن الخطاب بعد استشارة أولى الراى الى ستة من كبار الصحابة ليتفقوا على من يتولى الخلافة من بعده ، وهم عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطاحه بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف فانتهى الأمر بهم الى اختيار عثمان بن عفان ، فأصبح بذلك ثالث الخلفاء الراشدين .

٦٤٥ م - ٢٥ هجرية : عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر :

وكان من أول ما فعله عثمان بن عفان ، ان عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وعهد بولايتها الى عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، وهو أخ لعثمان بن عفان من أمه وكان ذاك فاتحة النصرقات التي اخذت على عثمان بن عفان من أنه يعزل الولاة الصالحين احسب افراد عائلته ، والاجماع على أن حكم عمرو بن العاص كان آية في العدل والاصلاح ، وكان آخر ما جباه من الجزية في مصر اثني عشر الف الف دينار ، ولما كانت الجزية كما ذكرنا من قبل هي دينارين على الفرد القادر البالغ من العمر اثني عشر عاما حتى الستين ، وهؤلاء يؤلفون عادة ثلث السكان فان ذلك يدل على ان عدد سكان مصر في هذه الفترة كان يبلغ ثمانية عشر مليوناً .

عودة الروم الى الاسكندرية :

وكان الروم استفلوا فرصة ابعاد عمرو بن العاص عن مصر فأرسلوا أسطولا وصل مدينة الاسكندرية . فلم ير عثمان بن عفان الا ان يعيد عمرو الى مصر على رأس الجيوش . فاستطاع عمرو بن العاص هذه المرة ان يقتحم أسوار المدينة عنوة ، ولذلك فقد نكل بالجيوش الرومانية التي نكثت بعهدها معه ، اذ كان أحد بنود الاتفاق ان لا يعودوا لغزو مصر ...

وفي هذه المرة هدم عمرو اسوار مدينة الاسكندرية الشرقية وسواها بالارض حتى لا تعود للوقوف في وجهه مرة ثانية .

اتخاذ الأساطيل الاسلامية :

وقد أثبت هذا الحادث في غير خفاء ، ان لا معدى للمسلمين من اتخاذ الأساطيل في البحر ، بعد ان خرجت دولتهم من الصحراء ، وأصبحت على ساحل البحر ، وكان عمر بن الخطاب شديد الخوف على المسلمين من ركوب البحر حيث لم يكن لهم عهد به من قبل ولذلك فقد رفض ما أشار به عليه معاوية بن أبي سفيان من ضرورة اتخاذ الأساطيل في البحر . ولكن عثمان بن عفان صرح لمعاوية بإنشاء أسطول في البحر الأبيض .

٦٤٨ م - ٢٧ هجرية : فتح افريقية :

فتح عبد الله بن سعد أمير مصر افريقية « قرطاجنة القديمة » بعد معركة ضارية ، ودارت مع من يسميه مؤرخو المسلمين جرجير ملك البربر « وهو جريجورى بطريق

أفريقية » وكان قد استقل بها عن بيزنطة ، وكان جيشه يزيد على مائة ألف ويجعله بعضهم مائتى ألف ، فكانت الناصرة لجبوش المسلمين وفتح الطريق أمام المسلمين غربا حتى المحيط .

٦٤٩ م - ٢٨ هجرية : فتح قبرص :

تمكن معاوية بن أبى سفيان والى الشام من فتح جزيرة قبرص مستخدما لأول مرة سفنا صنعت في الاسكندرية ومرافق الشام فكانت هذه هى أول غزوة يشنها المسلمون بحرا .

٦٥١ م - ٣١ هـ . موت كسرى يزديجرد :

وأخيرا مات كسرى يزديجرد ، قتله آخر من بقى حوله من اتباع وبهذا انتهت الأسرة الساسانية التى رفعت من شأن الفرس كأعظم ماتحقق لهم في يوم من الايام ...

وبموت يزديجرد طويت صفحة فارس عابدة النار لتبدأ فارس الاسلامية صاجبة الصفحات المشرقة في تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية ..

٦٥٢ م - ٣١ هجرية : فتح بلاد النوبة :

غزا أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبى السرح بلاد النوبة حتى وصل الى دنقلا فطالب النوبيون الصلح فعقد لهم معاهدة على غرار المعاهدات التى اعتاد المسلمون أن يبرموها مع أهل الذمة ... غير ان الجزية التى كان عليهم يدفعوها هى تقديم عدد من العبيد سنويا .

٦٥٥ م - ٣٤ هجرية : غزوة ذات الصواري البحرية :

اعد قسطنز الثانى امبراطور بيزنطة اسطولا كبيرا يتراوح عدد سفنه ما بين ٧٠٠ الى الف سفينة وذلك بقصد اعادة فتح مدينة الاسكندرية مرة اخرى .

غير ان أمير مصر عبد الله بن أبى السرح كان قد أدرك بدوره أهمية الاسطول البحرى ، وصنع له الاسكندريون ، اسطولا يتألف من مائتى سفينة زودت بالبجاعة السكندريين المتمرسين على القتال وبالرغم من ضالة هذا العدد بالنسبة لحجم الاسطول البيزنطى ، وكون المسلمين قربى عهد بركوب البحر ، فقد تصدى عبد الله ابن أبى السرح بأسطوله الوليد ، للأسطول البيزنطى ، واقتربت السفن من بعضها وجرت معركة التحام بين المسلمين والبيزنطيين انتهت بما نسميه الكارثة بالنسبة

للبيزنطيين بحبث نجا الامبراطور قسطنطين من الموت بشق النفس حبث هرب على ظهر احدى السفن السريعة .

وقد اخذت هذه المعركة في التاريخ اسم معركة ذات الصواري اشارة لكثرة صواري السفن التي كانت محنسة فيها .

والراى على ان هذه اضخم معركة بحرية شهدها البحر الأبيض بعد موقعة اکتيوم .

وليس هناك مايدل على مدى ماحققته هذه المعركة من اثر ، ان بيزنطة كفت بعدها عن كل نشاط يجرى ضد البلاد الاسلامية . ومن عجب ان المسلمين بدورهم لم يحرزوا فيما بعد معركة مماثلة من حيث الأهمية .

٦٥٥ م - ٣٥ هجرية : ثورة المسلمين في مصر على عثمان بن عفان :

خرج عبد الله بن ابي السرح أمير مصر متوجها الى المدينة للتشاور فيما يبدو مع سيدنا عثمان بن عفان في هذه الأحداث التي بدأت تصدع العالم الاسلامي ، فقد ارتفعت الأصوات من كل جانب تتهم عثمان بن عفان بخروجه عن العدالة ومحاباة ذوى قريبه من الأمويين الذين كانوا آخر من دخل الاسلام ، وتاريخهم كله حرب على رسول الله ، وذلك كله فضلا عن انحرافه عن طريق صاحبيه من قبله ابو بكر وعمر بن الخطاب .

وقد بدأ النقد والملاحظات على تصرف عثمان بن عفان في المدينة اولا ، من صحابة رسول الله واقطابهم ، وعلى رأسهم على بن ابي طالب ، وطلحة والزبير ، والسيدة عائشة ام المؤمنين . . . باعتبارهم الامناء على دين الله ودستور الحكم الاسلامي ، وتسربت اقوالهم وانتقاداتهم الى الاقطار ، فارتفعت موجة النقد ضد تصرفات عثمان بن عفان .

وحدث ان اسلم يهودى من صنعاء ويدعى عبد الله بن سبأ وقيل انه لم يرد من اسلامه الا تخريب الدعوة الاسلامية من داخلها وسواء صح ذلك ، فان نشاطه قد ادى الى ذلك فقد راح يتنقل في حواضر العالم الاسلامي منددا بتصرفات عثمان في تولية اقاربه وعزل الاكفاء من الصحابة وراح يحمل على الطبقة الجديدة من الأغنياء ويغلو في تقديس شخصية على بن ابي طالب باعتباره هو وحده الذى يمثل روح الاسلام وقد طرد عبد الله بن سبأ من كل بلد حل به في البصرة والكوفة والشام ، فوصل الى مصر اخيرا . فصادفت دعوته لخلع عثمان هوى في النفوس فقد كان المصريون مسلمين واقباط على خلاف مع عثمان بن عفان لخلعه عمرو بن العاص عن اماره مصر ، وهو الذى لم يشهد المصريون مثل ماشهدوه في عهده من امان لدينتهم واموالهم .

وكان المسلمون المقيمون في مصر ، ينقمون على عبد الله بن أبي السرح الذي عينه عثمان اميرا على مصر ، لانه ارتد عن الاسلام ايام الرسول صلوات الله عليه حتى لقد اهدر دمه ولم ينقله الا عثمان يوم الفتح .

ونقم المصريون عليه اشتداده في تحصيل الضرائب ، فحيث اقتصرت جباية عمرو بن العاص طول سنين امارته على ١٢ مليون دينار . كان ينفق الجزء الأكبر منها على اصلاح احوال مصر . . . فقد رفع عبد الله بن أبي السرح الجباية الى ٤ مليون دينار ، دون ان يخصص ما كان عمرو بن العاص يخصصه لاصلاح شئون البلاد . وذلك كله بالاضافة الى ان عبد الله بن أبي السرح كان مشغولا اكثر ايامه بالغزو والفتح فلم يخصص لشئون البلاد ما تحتاجه من عناية ورعاية .

لكل هذه الأسباب ، اشتعلت نيران الفتنة في مصر ضد عثمان واميره على مصر . . فاستدعى عثمان : عبدالله بن أبي السرح ، او لعل عبد الله بن أبي السرح رأى هوان بقصد الخليفة ليتباحث معه في هذه الأزمة ، فاستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني وتوجه الى المدينة .

محمد بن أبي حذيفة يستولي على امارة مصر :

ولم يكد عبد الله بن أبي السرح يغادر مصر . حتى استغل الفرصة محمد ابن أبي حذيفة ، وهو احد زعماء الجند الاسلامي في مصر من القرشيين فجمع حشدا من الجنود والساخطين ، وهاجم عقبة بن عامر وهزمه واخرجه من مدينة الفسطاط ودعا الناس الى خلع عثمان بن عفان من الخلافة .

ووصل الخبر الى عبد الله بن أبي السرح وهو في الطريق نحو المدينة ، فكر راجعا الى مصر ، ولكن رجال محمد بن أبي حذيفة تصدوا له وحاولوا بينه وبين الدخول الى مصر وقاتلوه . فانسحب الى فلسطين . حيث لا يعرف ما الذي انتهى اليه امره وان كان الراى على انه لم يلبث ان قتل في مدينة الرملة . وانحازت شعية عثمان وعلى رأسهم معاوية بن خريج وخارجة بن حذافة ويسر بن ارطاه ومسلم بن مخلد الى مدينة خربت .

مصرع خليفة المسلمين عثمان بن عفان :

في الثامن عشر من شهر ذي الحجة من هذا العام « ٣٥ هجرية » قتل امير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، بعد حصار دام حول بيته اربعين يوما ، وقام به جيش من ستمائة مقاتل وفد من مصر بعد امور وحوادث وقعت بينهم وبين الخليفة وجماعات اخرى وفدت من البصرة الكوفة اجمعت كلها على خلع عثمان ، وكان يتزعم الشائرين محمد بن أبي بكر الصديق ووقف كبار رجال الصحابة بالمدينة وعلى رأسهم سيدنا علي بن أبي طالب من هذا الحصار موقفا سلبيا ، وان كانوا قد ارسلوا اولادهم ليدافعوا عن عثمان ويحولوا دون دخول الشائرين اليه .

. وقد خشي الثائرون من طول الحصار ، أن يصل اليهم جيش من الشام قبل أن معاوية سيبعث به ، فراوا أن يحسموا الموقف بقتل عثمان الذي رفض بكبرياء وأصر أن يتنازل عن الخلافة وأذ كان اقتحام مدخل البيت متعذرا ، فقد تسوروا سطح البيت من البيوت المجاورة ، ونفذوا إلى داخل حجرات عثمان : ولم يحمه أنه جلس يتلو في كتاب الله . . . فقد انقض عليه بعض الوافدين من مصر كما يقول المؤرخون ، فضربوه ، وطعنوه ، ولم يلبثوا أن قتلوه بالسيف . . . بينما وقفت إلى جواره زوجته نائلة تدفع عنه باستماته ، فقطعت أصابعها وسالت دماؤها إلى جوار دم زوجها الشهيد عثمان بن عفان على المصحف .

وهكذا تمت هذه المأساة أو الكارثة في حياة الأمة الإسلامية فكانت بدء أحداث مفعجة أغرقت الأمة الإسلامية خلال خمس سنوات في طوفان من الدم . . . ولولا قوة الدين الإسلامي وعمق ما ينطوي عليه من حق وصدق لكانت هذه الفتنة كافية للقضاء عليه ، ولكنه خرج منها كما خرج من كل فتنة لحقت به ، وهو أشد قوة وحيوية ونضارة .

ولا يتسع المجال هنا لبحث الظروف والأسباب التي أدت إلى هذه الفتنة ، ومحاولة توزيع اللوم على هذا الجانب أو ذاك فلذلك كتبه المتخصصة لمن أراد المزيد من البحث .

أما الآن فحسبنا أن نقرر أن عثمان بن عفان كان من أول خمسة سبقوا إلى الإسلام ، وأنه تزوج رقية ابنة رسول الله فلما توفيت زوجة الرسول اختها أم كلثوم ومن هنا كان يسمى بذي النورين وفي أيامه اتسعت فتوحات المسلمين فوق اتساعها ، وركبوا البحر بعد أن كان عمر بن الخطاب يحظره عليهم . وهو صاحب الفضل الأول في نسخ القرآن وتوزيعه على الأمصار محققا بذلك معجزة القرآن من قيامه بنص واحد عبر ثلاثة عشر قرنا وإلى مايمتد من الزمان .

وكان يوم قتل شيخا نيف على الثمانين ، وكانت مدة خلافته اثني عشر عاما إلا أياما .

خلافة علي بن أبي طالب :

أقبل الثائرون الوافدون من مصر والبصرة والكوفة عقب مقتل عثمان بمبايعة علي بن أبي طالب ، ولكنه رفض بيعهم على أساس أن ذلك لبس لهم وإنما للصحابة ممن حضروا بدرا ، وانفه منه أن يلي الخلافة بعد هذا الحادث المروع . فاختبأ عن أعين الناس في بعض المنازل ولكنهم عرفوا مكانه فطرقوا الباب وولجوه عليه . وجاعوا هذه المرة بطالحة والزبير ، وقالوا له : أن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير ، ولم يزالوا به حتى أجاب شريطه أن يتم ذلك في المسجد . فبايعه عامة المسلمين ، وتخلف البعض عن بيعته ، وكان ذلك يوم السبت التاسع عشر من ذي الحجة وكان علي بن أبي طالب يرى نفسه الحق من يلي الخلافة ليس بعد مقتل عثمان بل وقبله توأليه بل ورنأ ببصره

اليها عقب وفاة رسول الله ، فهو زوج السيدة فاطمة بنت رسول الله ، ووالد السبطين الحسن والحسين قرّة عين رسول الله ... ولكنه قبل ذلك كان ربيب رسول الله الذي تعهده بالرعاية منذ صباه المبكر ، وكان لهذا أول من أسلم من الصبيان ... وكان هو الذي أفتدى رسول الله بنفسه ليلة الهجرة ، وآوى الى فراش الرسول ليؤمهم المشركين المتربصين لقتل الرسول انه لا يزال نائما على فراشه معرضا بذلك نفسه للقتل .

وكان هو فارس المسلمين غير منازع والذي تحقق النصر في اكثر من غزوة على يديه او بسبب شدة قتاله .

وهو بعد ذلك وقبل ذلك كله مستودع العلم الاسلامي وامامه ، وهو المستشار والمرجع لابي بكر وعمر وصدر من خلافة عثمان

فلا يعتبر توليه الخلافة بعد هذا الظرف العصيب ، انتهازية ووصولا الى ما ليس من حقه أو هو به غير جدير ...

ولكن شاءت المقادير ، ان تصل اليه الخلافة الا وقد حفت بها المكارة .

على يعزل كل ولاية عثمان :

وكان أول ما فعله سيدنا على بمجرد تسلمه الخلافة ان عزل جميع ولاية عثمان على الأمصار ، وذلك على عكس المشورة انتهى وجهت اليه وهو ان يقيهم على اعمالهم حتى تتم البيعة له ، ثم يعزلهم بعد ذلك .

وقد رفض معاوية بن أبي سفيان : قرار عزله وأعلن توليه المطالبة بدم عثمان . واذ كان معاوية قد استقر على امارة الشام أيام عمر بن الخطاب ، وطوال أيام عثمان ... فقد كان سلطانه قد تدعم فيها ، ولم يعد أهل الشام يعرفون لهم قائدا غيره . وكان ذلك أول الفرقة والتصدع بين المسلمين .

٦٥٦ م — ٣٦ هجرية : واقعة الجمل :

ولم يلبث الخلاف ان اخذ صورة القتال الدموي ، ذلك ان الزبير بن العوام وطاحه وقد كانا أول من بايع سيدنا عليا ، أعلنّا انهما قد بايعا مكرهين ، وخرجا من المدينة قاصدين مكة : حيث التقيا فيها بعائشة أم المؤمنين التي روعها مقتل عثمان على الرغم من انها كانت تؤلب عليه ... وقرر الثلاثة ومن انضم اليهم ان يطالبوا بالقصاص من قتلة عثمان ، وساروا نحو العراق لهذا الغرض ، وخرجوا والى البصرة واعتدوا عليه فقصده اليهم على بن أبي طالب ، وعبثا حاول اقناع القوم بالكف عن الخلاف والشقاق ودارت بين الجانبين موقعة رهيبة اشتهرت في التاريخ باسم موقعة الجمل نسبة الى الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة أم المؤمنين والذي كان كالعلم

للجيش فاستمر القتال حوله الى ان عقر الجمل وخر الى الأرض . وكانت الغلبة في النهاية لعلى بن أبى طالب واعاد السيدة عائشة الى المدينة معززة مكرمة بعد أن عاتبها على ما وقع منها .

ولكنه كان انتصارا مؤلما ، فقد مات في الموقعة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهما من المبشرين بالجنة وقتل من المسلمين والصحابة مالم يقتلوا من قبل في معركة من المعارك . . . ولكن هذه المرة بأيدي أخوانهم وأصحابهم في الدين .

٦٥٧م - ٣٧ هجرة : اماره قيس بن سعد بن عبادة على مصر :

لم يقر على بن أبى طالب محمد بن أبى حذيفة الذى كان قد غصب اماره مصر كما رأينا ، فأرسل قيس بن سعد بن عبادة أميرا على مصر وذلك في مستهل ربيع الاول من هذه السنة .

ولم يكد قيس يصل الى القسطنطين حتى صعد على المنبر في الجامع الكبير وتلا على المصلين كتاب أمير المؤمنين الى مسلمي مصر ، وهو خطاب بصدد أحداث ذلك الزمان ولذلك نشبته بنصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم - من عبد الله على بن أبى طالب أمير المؤمنين . الى من بلغه كتابي هذا من المسلمين والمؤمنين سلام الله عليكم ، اما بعد فاني أحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو ، وأصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقد توفى رسول الله ، واستخالف بعده خليفتان صالحان عملا بالكتاب والسنة وأحسننا السيرة ثم توفاهما الله تعالى ، ثم ولى بعدهما والى أحدث أحداثا فوجدت عليه الامة مقالا فقالوا ، ثم نقوموا عليه وغيره ، ثم جاثونى وبأيعونى ، والله على العمل بكتابه وسنة رسوله ، والنصح للرعية ما بقيت والله المستعان .

وقد بعثت اليكم بقيس بن سعد بن عبادة أميرا فوازروه وعاشروه وأعينوه على الحق ، وقد أمرته بالاحسان الى محسنكم ، والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم ، وهو ممن أرضى هديه ، وأرجو صلاحه ونصيحته ، وأسأل الله لنا ولكم عملا صالحا وثوابا جزيلا ورحمة واسعة .

والسلام عليكم . .

يقول تغرى بردى صاحب النجوم الزاهرة :

وبعد ان تلا قيس الخطاب قال : أيها الناس قد جاء الحق وزهق الباطل ، ما بايعنا الا من هو خير من نعلم بعد نبينا صلى الله عليه وسلم فقوموا فبايعوا على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فان نحن لم نعمل بها فلا بيعة لنا عليكم . فقام الناس وبايعوا - واستقامت احوال مصر .

معاوية يوقع بين علي وقيس :

واذ كان معاوية يعلم خطر مصر في تدعيمها لجانب سيدنا علي ، واذا كان يعلم من ناحية أخرى قوة مراس قيس بن سعد وأنه كفيل بتحويل مصر الى قاعدة قوية لمؤازرة علي فقد استعمل دهاءه للايقاع بين علي وقيس فاصطنع خطابات بينه وبين قيس توهم أنه يتفاوض معه ، فنجحت خططه وأساليبه وعزل سيدنا علي قيساً ابن سعد من مصر ، فلم تدم امارته الا أربعة اشهر وخمسة أيام .

امارة محمد بن أبي بكر الصديق :

جرى الخلاف فبينما ولي مصر بعد انصراف قيس بن سعد عنها، فقيط هو محمد ابن أبي بكر الصديق : وقيل بل هو الاشتهر النخعي وجاءت ولاية محمد بن أبي بكر بعده ويرجح تغري بردى في النجوم الزاهرة ، ان يكون محمد بن أبي بكر قد ولي الأمور في مصر علي وجه من الوجوه عقب انصراف قيس بن سعد عنها ، فلما لم يحسن التصرف نظرا لحدائث سنة استبدله علي بن أبي طالب بالاشتر النخعي عقب فراغه من موقعة صفين .

واقعة صفين :

في شهر ذي الحجة من هذه السنة ، كانت موقعة صفين وهي التي تقابلت فيها جيوش الشام وعلي رأسها معاوية مطالبة بدم عثمان : بجيوش العراق وعلي رأسها علي بن أبي طالب وذلك عند بلدة صفين على شاطئ نهر الفرات الغربي يقدرها البعض بالأسابيع ويقدرها البعض بالأشهر وقد تحاجز الفريقان عن بعضهما فترة طويلة دارت خلالها المفاوضات ، فلما انتهت المفاوضات الى غير نتيجة بدأ الصراع العنيف لبضعة أيام متتالية : بل لقد تواصل القتال بالليل فيما سمي ليلة الهرير . واوشكت الدائرة في ختامها ان تدور على جيش الشام فأشار عمرو بن العاص علي معاوية وقد كان نصيره في هذه المعركة ، أن يلجأ الى خديعة جيش علي وذلك برفع المصاحف بدعوى الاحتكام الى كتاب الله وحقق دماء المسلمين . وقد أدرك علي بن أبي طالب ما في هذا العمل من خدعة ومحاولة لشق صفوف جنده، فأبى الا المضي في المعركة حتى نهايتها المظفرة ، ولكن الخدعة الذكية أحدثت أثرها وسط أصحاب علي وقد كان أكثرهم من رجال الدين والتقوى فقالوا كيف يدعوننا لكتاب الله ونأبى عليهم . فقتل علي لهم كلمته المشهورة .

« انما هي كلمة حق أريد بها باطل » ولكن الاغلبية من رجاله اصروا علي ايقاف القتال وبقبول التحكيم بالنزول علي ما يقضى به القرآن .

وتم الاتفاق علي ان يختار كل من الطرفين حكماً يمثلهم . . . ومرة أخرى فرض اصحاب علي عليه ان يختار ممثلاً له في التحكيم ابا موسى الاشعري وكان قد أبدى خلافاً مع سيدنا علي ، وذلك في الوقت الذي اختار فيه معاوية عمرو بن العاص .

وتم الاتفاق في شهر صفر على أن يجتمع الحكمان في دومة الجندل في شهر رمضان من هذا العام ٣٧ هجرية .

وكان مجرد هذا الاتفاق على التحكيم أن قامت هدنة بين علي ومعاوية وجيوش كل منهما ، وتم الاعتراف من الناحية الواقعية بالبحث بقيام سلطتين ، أولاهما يمثلها سيدنا علي في العراق ، والثانية يمثلها معاوية في الشام .

وقد اعتبر البعض مجرد قيام هذه الحالة ورضاء علي بها اخلايا بالدين وحكم القرآن فاعلنوا تمردهم على سيدنا علي وأطلق عليهم اسم الخوارج ، وهم الذين سيشقون الأمة الاسلامة عبر القرون التالية .

قرار التحكيم وعزل علي :

واجتمع الحكمان كما تم الاتفاق في دومة الجندل وجات علي أبي موسى الاشعري هذه الخدعة المشهورة التي خدعه بها عمرو بن العاص ، عندما اتفق معه علي أن يخلع كل منهما صاحبه ويدع للمسلمين اختيار من يريدون ، ثم قدم عمرو بن العاص أبا موسى لبعان للناس ما اتفقا عليه ، فأعلن أبو موسى خلع علي ومعاوية ، وتلاه عمرو بن العاص فوافق علي خلع علي وأقر معاونه ، فثار عليه أبو موسى معلنا أنه قد خدعه ، ولم ينفع عليا بعد ذلك رفض نتيجة التحكيم فقد استشرت فتنة الخوارج من اصحابه بحيث كان مضطرا لمحاربتهم قبل أن يمضي لحرب معاوية .

امارة الاشتر النخعي على مصر :

أرسل علي بن أبي طالب الاشتر النخعي أحد رجاله الاقوياء ليلي امارة مصر بعد انصرافه من موقعة صفين ، وقد أدرك معاوية من جديد مغبة وصول الاشتر النخعي الى مصر فبقواون أنه طيب من البعض أن يخلصوه من الاشتر في مقابل مكافأة معلومة ، فدرس له هذا البعض سما في شراب من عسل قدمه له ، فمات وهو على أبواب مصر ولم يدخلها .

ويذكر عن عمرو بن العاص وكان يجالس معاوية عند وصول نبأ موت الاشتر بهذا الأسلوب قوله : أن الله جنودا من عسل .

٦٥٨ م - ٢٨ هجرية امارة عمرو بن العاص الثانية على مصر :

دخل عمرو بن العاص في شهر ربيع الاول من هذه السنة على رأس جيش من ستة آلاف مقاتل لانتزاع مصر من سلطان محمد بن أبي بكر الصديق حيث كان يحكمها باسم علي . ولم يستطع محمد بن أبي بكر أن يتصدى لهذه الجيوش القوية وفر هاربا .

وعاد عمرو بن العاص الى الفسطاط وهى المدينة التى انشأها ونزل فى دار الامارة التى بناها . وقد كانت امارة مصر هى الثمن الذى اشترطه عمرو بن العاص على معاوية ليوقف الى جواره فى صراعه ضد على . فلما ان انتهى التحكيم الى ما انتهى اليه على ما قدمنا ، وفى معاوية لعمرو بن العاص فسيه على رأس جيش الى مصر فدخل مصر على الصورة السابقة . .

ولم يلبث معاوية بن خريج أحد كبار الأمويين أن عثر على محمد بن أبى بكر الهارث فقتله شر قتلة ثم وضعه فى جلد حمار وحرقه ، وذلك كله بدعوى انه كان ممن شارك فى قتل سبئنا عثمان .

اختصاصات أمير مصر :

واذ عاد عمرو بن العاص الى امارة مصر على ان يكون حاكمها المطلق المتصرف فى كل شئونها ، فمن الخير ان نحدد اختصاصات الامارة وكيف أنها ستجتمع لبعض الولايات كما هو الشأن بالنسبة لعمرو بن العاص هذه المرة ، وكيف توزع أحيانا على أكثر من شخص .

اما هذه الاختصاصات فتتلخص على ما حددها الماوردى فى سبع مواد :

- ١ - النظر فى تدبير الجيوش ، وترتيب النواحي وتقدير الارزاق .
- ٢ - النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام .
- ٣ - جباية الخراج وقبض الصدقات وتعيين العمال فيها ، وتوزيع المستحق منها على مستحقيه .
- ٤ - حماية الدين والدود عن الحرب .
- ٥ - اقامة الحدود فى الله وحقوق الأدميين .
- ٦ - الامانة فى الجمع والجماعات ، ويقوم بها بنفسه أو يستخلف عليها .
- ٧ - تسيير الحجاج .

فاذا كان هذا الاقليم قفرا متاخما للعدو اقترن بهذه المعالم مهمة ثامنة وهى جهاد من عايه من الأعداء .

وقد كانت هذه الاختصاصات كلها فى ولاية عمرو بن العاص الأولى فى السنوات الأولى من فتح مصر باعتباره صاحب الفضل فيه ومنفذه ، على أن عمر بن الخطاب لم يلبث أن فصل عملة الخراج عن اختصاصات عمرو بن العاص وعهد بها الى عبد الله بن أبى السرح ، ثم لم يلبث ان عين قاضيا للحكم بين الناس ، وهو اجراء سيلجأ اليه فيما بعد الخلفاء فيعينون القضاة بأمر منهم .

وقد كانت كل هذه الاختصاصات فيما عدا ما يختص منها بجمع الخراج يقع فى سلطان الأمير الذى يأتى مصر على الصلاة : على أساس ان الحكم الاسلامى حكم

دينى ، ومن يلى الصلاة فهو أمير المسلمين ولذلك فسوف يصادفنا من الآن ان هذا الوالى أو ذلك ولى على الصلاة والخراج معا ، أو على أحدهما دون الآخر .

٦٦٠ م - ٤٠ هجرية : مقتل سيدنا على بن أبى طالب :

أشرنا الى هذا نفر الذين خرجوا على سيدنا على بن أبى طالب لقبوله التحكيم ، واعتبروا ذلك كفرا والحادا فى دين الله وطلبوا من سيدنا على أن يتوب ويستغفر والا حاربوه وقتلوه .

وبدأوا يعيشون فى الأرض فسادا ويرتكبون من الجرائم ما يقشعر لسماعه الأبدان باسم الدين والممسك بأحكام القرآن . فجرت لهم معارك مع سيدنا على هزمهم فيها هزيمة منكورة عند النهروان ودحرهم وأوقع بهم مقتلة عظيمة .

فاتفق ثلاثة نفر منهم على أن يقتلوا عليا ومعاوية وعمرو بن العاص فى ليلة واحدة ليخلصوا المسلمين منهم .

وفشل من تصديا لقتل معاوية وعمرو بن العاص فى تحقيق هدفهم ولكن عبد الرحمن بن ملجم الذى أخذ على عاتقه قتل سيدنا على بن أبى طالب ، نجح فى مهمته اذ تربص له فى المسجد عند صلاة الفجر وطعنه فى المحراب بخنجر مسموم أعده لذلك وقيل بسيف .

ولم يلبث سيدنا على أن مات متأثرا بجراحه .

وكانت وفاته ليلة الأحد فى التاسع عشر من رمضان واختلف فى عمره ساعة وفاته فمن قائل أن عمره كان ثلاثة وستين عاما بينما يقول البعض بل كان ثمانية وخمسين عاما فقط .

وقد حكم على بن أبى طالب أربع سنوات وتسعة أشهر أمضاها كلها فى مشاق وآلام واحزان وصراع ، وليس هناك ما يعكس آلام سيدنا على سوى مطالعة كتاب نهج البلاغة الذى يعتبر احدى ذخائر المكتبة العربية الاسلامية فى كل عصورها .

وعلى بن أبى طالب أشهر من أن يتحدث عنه ، وهو الذى انفرد بتعظيمه جانب كبير من المسلمين الشيعة ، حتى ليغاو بعضهم فيجعله فوق البشر ، والمعتدل منهم لا يعترف بامامة غير امامته : ولا يفهم قيام مجتمع اسلامى لا يكون على رأسه أحد من ذرية على اماما .

ولقد لخص سعد بن أبى وقاص مكانة على فى الاسلام فى حديث جاء فى الصحيحين عندما سألته معاوية بن أبى سفيان ، لماذا يرفض سب أبى تراب (يكنى به عن سيدنا على) فرد عليه بقوله : ذكرت ثلاثا قالهن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لأن تكون لى واحدة منهم أحب الى من حمر النعم . سمعت رسول الله يقول له :
أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي . وسمعتة يقول
يوم خيبر « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله » ، قال
فتطاوات لها ، قال ادعوني عليا فأتى به وهو أرمد (أى مصاب برمد فى عينيه) فتقل
فى عينيه ودفع اليه الراية ففتح الله عليه . ولما نزلت هذه الآية « . . فقل تعالوا
ندعو أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم » دعا رسول الله صلى
الله عليه وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ثم قال « اللهم هؤلاء أهلى » .
وبموت سيدنا على انتهوى عهد الاسلام الأول ، عهد الخلفاء الراشدين ، ليبدأ
عهد الملكية الاسلامية .

٦٦١ م - ٤١ هـ : خلافة معاوية بن أبى سفيان :

لم يكد على بن أبى طالب يقتل حتى أقبل أهل الكوفة على ابنه الحسن فبايعوه
ولكن الحسن كان لا يحب المضى فى القتال ويرغب فى إعادة الوحدة الى صفوف
المسلمين .

وعلى الرغم من أنه اجتمع له من المقاتلة ما لم يجتمع لأبيه . . . فقد أثر أن
يصطلىح مع معاوية على أمور شرطها بنفسه فأجابه معاوية الى ما طلب ، فتنازل
الحسن لمعاوية عن الخلافة وبايعه . وطلب من جنوده أن تباع لمعاوية .

وهكذا تم الأمر لمعاوية ، وعادت الوحدة الى الجماعة ، ولذلك أطلق المؤرخون
على عام ٤١ عام الجماعة .

٦٦٢ م - ٤٢ هـ : وفاة الأنبا بنيامين :

فى الثالث من شهر يناير من هذا العام طويت حياة الأنبا بنيامين بطريق الاقباط
المصريين لتسع وثلاثين سنة ، شهد فيها انسحاب الروم ودخول الفرس الى مصر
ثم انسحابهم منها وعودة الروم ، ومقدم المسلمين وانسحاب الروم .

وبموته كانت آخر صفحة فى كتاب بطاركة مصر المسيحية الذين مثاوا شخصية
مصر التى اسهمت فى ارساء قواعد الديانة المسيحية .

حيث بدأت شخصية مصر الاسلامية فى مسرح الاحداث السياسية والحضارية
تحل بالتدريج محل مصر المسيحية .

٦٦٣ م - ٤٣ هجرية : وفاة عمرو بن العاص :

في يوم عيد الفطر من هذه السنة مات عمرو بن العاص فاتح مصر وبرقة .
وكان عمره عندما مات قد أشرف على المائة وكانت امارته الثانية على مصر قرابة
خمس سنوات ، ويتلجلج دائما في النفس موقف عمرو بن العاص من سيدنا على
ابن ابي طالب . وخدعته التي قام بها في عماية التحكيم ، وهي التي ظلت تؤرق
مضجعه حتى لحظة وفاته على ما يقول المؤرخون ولكن الحقيقة التي لا تجحد انه أحد
بناة هذه الدولة الاسلامية العتيدة ، وواحد من هؤلاء الذين يدهاؤون المؤرخين والباحثين
على مر العصور والدهور ، كيف استطاع رجل بدوى مثله لا عهد له من قبل بالحكم
او الادارة ، أن يصبح حاكما متاليا لمصر حتى ليقترن اسمه بأسماء أعظم من حكموها
من الملوك بشقه ترعة أمير المؤمنين ، ولكنها معجزة الاسلام التي لا تتمثل في عمرو
فحسب ، بل في مئات من الحكام والقادة العسكريين الذين بهروا الدنيا كلها ولا يزالون
يبهرونها بحنكتهم وحكمتهم وبراعتهم وشجاعتهم ، وقدراتهم الفائقة على حكم
شعوب تخالفهم في العقيدة واللغة ، تم ينجحون .

امارة عتبة بن ابي سفيان :

ولى معاوية أخاه لأبيه عتبة بن ابي سفيان امارة مصر على الصلاة ، بينما يقول
الطبرى في أحداث عام ٤٣ أن معاوية ولى عبد الله بن عمرو بن العاص بعد موت ابيه
فولياها فيما زعم له الواقدي نحو من سنتين .

وقد حسم المقرئى هذه القضية بقوله ان عمرو بن العاص استخلف ابنه عبد الله
قبل وفاته فولى صلاة مصر ، قبل أن يولى عايها معاوية أخاه عتبة ، وقد قصد عتبة
بعد ذلك الى الاسكندرية ليقيم بها مرابطا واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى .

٦٦٤ م - هجرية : امارة عقبة بن عامر الجهنى :

مات عتبة بن ابي سفيان بعد أن لم تدم ولايته سوى ستة أشهر ، وأقر معاوية
عقبة بن عامر على امارة مصر ، صلاتها ، وخراجها ، وكان عقبة أحد صحابة
رسول الله وكان ممن شهد الفتح مع عمرو بن العاص وكان قارئاً فقيها وشاعرا .

٦٦٧ م - ٤٧ هجرية : عقبة بن عامر يغزو رودس :

كان اهتمام معاوية بن ابي سفيان الاول موجهها نحو سيادة المسلمين على البحر
اتقاء لهجمات القسطنطينية وتمهيدا لغزو القسطنطينية نفسها فعهد الى عقبة بن عامر
الجهنى ان يحتل جزيرة رودس بأسطول مصرى فأقدم عقبة على تحقيق المهمة التي
نيطت به وخرج بأسطوله قاصدا صوب رودس ناشرا على السفن رايات المسلمين ،
وقيل انه أول من فعل ذلك .

امارة مسلمة بن مخلد :

بعث معاوية بن ابي سفيان مسلمة بن مخلد ليكون اميرا على مصر ، ولكنه طلب منه ان يخفى نبأ توليه حتى يبارح عقبة بن عامر مصر بأسطوله .

وقد جمع معاوية لمسلمة بن مخلد صلاة مصر وخراجها .

والراى على أن مسلمة بن مخلد من الصحابة فقد كان له من العمر عند وفاة الرسول عشر سنوات وقيل أربع عشرة سنة .

٦٧٠ م - ٥٠ هجرية : محاولة غزو القسطنطينية :

حرض مسلمة بن مخلد معاوية على غزو القسطنطينية ولا بد أنه هيا لمعاوية الاسطول ابلازم لهذه الفزوة ، فقد كانت مصر فى هذه الفترة القاعدة الرئيسية للاسطول الاسلامى وقرر معاوية أن يكون غزو القسطنطينية من البر والبحر معا ووضع الحملة تحت قيادة ابنه يزيد ، الذى لم يخف سريعا لتولى القيادة .

واستطاعت الجيوش البرية أن تتوغل فى آسيا الصغرى حتى وصلت الى مشارف القسطنطينية فى الوقت الذى حاصرت الأساطيل المدينة نفسها ، وقد دام الحصار الذى فرض على المدينة ست سنوات ، وهو أخطر حصار تعرضت له ، ولم ينجها منه الا توفيق البيزنطيين الى اكتشاف سلاح رهيب فى هذه الفترة وهو ما أشتهر باسم النار الاغريقية حيث كان يتعذر اطفائها فكان هذا السلاح المفاجيء حاسما فى تدمير السفن الاسلامية ، وفشل الفزوة بعد كل الجهود المضنية التى بذلت : واضطر معاوية فيما بعد الى ابرام معاهدة صالح مع بيزنطة مدتها ثلاثون سنة .

وفاة الحسن بن على بن ابي طالب :

وفى هذه السنة (٥٠ هـ) فى شهر ربيع الأول توفى الحسن بن على بن ابي طالب وينسب البعض الى يزيد بن معاوية أنه تسبب فى موته .

٦٧٣ م - ٥٣ هجرية : الروم يهاجمون مصر :

حاول البيزنطيون فى هذه السنة - وكان حصار المسلمين على القسطنطينية بالبر والبحر لا يزال مستمرا على أشده - أن يخففوا الضغط على مدنتهم ، فأغاروا على مصر ونزلوا فى مدينة البرلس ، ولكن مسلمة بن مخلد تصدى لهم وأجلاهم عن البلاد وقد مات فى هذه الواقعة وردان كاتب عمرو بن العاص .

٦٧٧ م - ٥٨ هجرية : انشاء مدينة القيروان :

كان مسلمة بن مخلد قد بعث عقبة بن نافع لاعادة فتح افريقية التى كانت قد انتقضت على الحكم الاسلامى ، فأعاد فتحها وأسس مدينة القيروان .

وفاة عائشة أم المؤمنين :

وفي هذه السنة توفيت السيدة عائشة أم المؤمنين ابنة أبي بكر الصديق وأحب زوجات رسول الله إليه وتلميذته . وقد روى عنها الكثيرون من أعلام الصحابة الأحاديث التي اتخذت أساسا للتشريع الاسلامي ، ولقد رأينا كيف بلغ بها الأمر أن فرضت زعامتها على كبار الصحابة عندما خرجت تطالب بدم عثمان بن عفان ووصل الأمر بها إلى حد قيادة الجيش في موقعة الجمل مما يدل على قوة شخصيتها . وهي تعتبر على رأس الداعين إلى الاجتهاد في استنباط الأحكام للإسلام كما تضمنها القرآن باستعمال العقل والمنطق على هدى المبادئ الأساسية .

٦٨٠ م - ٦٠ هجرية : وفاة معاوية بن أبي سفيان :

مات معاوية بن أبي سفيان بعد أن ولى الخلافة عشرين سنة ، سبقتها ولاية الشام لمدة عشرين سنة أخرى .

وكانت سنه عند وفاته سبعا وسبعين سنة .

وأبوه سفيان بن حرب الذي تولى حرب رسول الله وظل على شركه حتى كان فتح مكة فدخل الإسلام مكرها . وقيل إن معاوية قد أسلم قبل فتح مكة وإن كان قد أبقى إسلامه في الخفاء خوفا من أبيه ، وينسب إلى معاوية أنه كتب لرسول الله في أخريات حياته .

وهو ينطوى على خلال مؤسسى الأسرات الحاكمة في كل زمان ومكان عندما لا يتخرجون من شيء لبلوغ غرضهم ، وهم في نفس الوقت منطوون على مهارات وقدرات فائقة وسعة صدر وحكمة ودهاء واستعداد للبطش من ناحية أخرى .

ولا يتردد مسلم واحد في الانحياز بعواطفه إلى جوار على بن أبي طالب في أحقيته بالخلافة من معاوية ولا يتردد الإنسان في الحكم على معاوية أنه ظلم سيدنا عليا بتحميله دم عثمان .

ومع ذلك فإن معاوية سيذهب في تاريخ الدولة الإسلامية باعتباره أحد عمدها والمساهمين في تأسيسها . . . فقد أعاد إليها الوحدة والاستقرار في خلافته ، حيث استأنفت الفتوحات الإسلامية طريقها في البحر والبر شرقا وغربا . . . فأما في الشرق فقد تعدت بلاد الهند وأفغانستان إلى ما وراء نهر جيحون .

وفي الغرب وصل عقبة بن نافع إلى ساحل المحيط الأطلسي بعد أن أسس مدينة القيروان .

وبلغ عدد سفن الأسطول الإسلامي في أيامه ١٧٠٠ سفينة .

سقطه معاوية في ولاية يزيد :

على أن سقطة معاوية الكبرى التى لا تحتل دفاعا من أى نوع كان . هى فرض ولاية العهد من بعده لابنه يزيد الذى كان يعرف عدم صلاحيته لهذا المنصب من كافة النواحي فقد كان كل همه الصيد والشراب والمجون . . . فدل ذلك على أنه قد حكم هواه فى تهايته كما فعل ملوك الفرس والرومان من قبله وكان معنى ذلك ، أنه حول منصب الخليفة الذى كان يمثل أروع ما ينطوى عليه عالم الاسلام ، من دين وورع وتقوى وصلاح وعدل ، وكفاءة ، الى منصب وراثى قد يتولاه البله أو المجانين أو المفسدين فى أكثر الأحوال .

خلافة يزيد بن معاوية :

ولى يزيد الخلافة بعد موت معاوية ، وامتنع عن بيعته الحسين بن على ، وعبد الله ابن الزبير ، وفرا الى مكة فكان ذلك اشارة لما سيكون منهما فى المستقبل .

٦٨١ م - ٦١ هجرية : مقتل الحسين بن علي :

لم يكذب يزيد يلى الخلافة حتى أرسل أهل الكوفة الى الحسين بن على يطلبون منه أن يفد عليهم ليبايعوه على الخلافة بدلا من يزيد باعتباره أحق من يلى خلافة المسلمين . فسار اليهم الحسين بن على فى آل بيته وكان عددهم لا يتجاوز ثمانين ما بين رجال ونساء وأطفال .

فبعث عبيد الله بن زياد جيشا ليحول بين الحسين وبين الوصول الى الكوفة .
وحديث الحسين بن علي وما أصيب به من نكبة عند مدينة كربلاء ، يدمى القلوب
وهو ذروة ما يمكن أن يصل اليه الايمان العميق بالله وحب الاستشهاد في سبيل الحق
من ناحية الحسين وصحبه ، وذروة ما يمكن ان يصل اليه الفجور والتجبر والعنف
والقسوة في مجابهة الحق من جانب الجيش الذي تصدى له . وقد انتهى الأمر بمصرع
الحسين وحمل رأسه الى عبيد الله بن زياد ، أمير العراق فوصل الأمر به الى حد أنه
راح ينكت بقضيب في يده بين ثنايا الحسين متهمكا ساخرا .

وحملت الرأس الى يزيد بن معاوية ونساء بيت الحسين ومن بينهم السيدة زينب باعتبارهن سبايا .

وقد هلع المسلمون في ذلك الزمان لهذا الحادث وقد كان الحسين هو الذي مكن لعبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه وهو بصفة عامة نقطة البدء لتفويض عرش بني أمية ، وبدء العمل على إسقاطه ونقل الخلافة إلى البيت العلوي فـ " ١٠ " " في بلاد العراق وفارس .

ولا تزال الشيعة تحتفل حتى أيامنا هذه بذكرى استشهاد
كربلاء في شهر المحرم .

وستبقى قصة الحسين مصدر وحى وإلهام للمجاهدين فى سبيل الله والحق فى كل زمان ومكان .

٦٨٢ م - ٦٢ هجرية : وفاة مسلمة بن مخلد أمير مصر :
مات مسلمة بن مخلد أمير مصر فى هذه السنة بعد أن ظل أميراً بها خمس عشرة سنة وأربعة أشهر ، وهو القائد المظفر فى البر والبحر

وقد أعاد بناء مسجد عمرو بن العاص بصورة اكمل وزاد فى مساحته ، وبنى له منارة على غرار منارة الاسكندرية الشهيرة ، فكان بذلك أول من ابتدع نظام المآذن فى المساجد الاسلامية التى تعتبر تخليداً لمنارة الاسكندرية ، حيث كانت تقوم على قاعدة مربعة وأخرى مثمانية ، وثلاثة مستديرة يعاوها بيت المصباح ، والناظر لمنارة أى مسجد سىرى فيها هذا التنسيق .

وتخليد مسلمة بن مخلد لمنارة الاسكندرية يكشف عن حبه للبحر بعامة والاسكندرية بخاصة ولذلك فقد أقام فيها أخريات حياته ومات بها .

إمارة سعيد بن يزيد على مصر :

بعث يزيد بن معاوية بسعيد بن يزيد الأزدي أميراً على مصر وقد كان شاباً من أهل فلسطين وقد أزور عنه المسلمون فى مصر منذ قدومه وظلوا متربصين به ، فلم يكذ عبد الله بن الزبير يعلن خلعه ليزيد بن معاوية ويدعو لنفسه بالخلافة ، حتى كان المسلمون المصريون أسرع الناس استجابة له .

٦٨٣ م - ٦٣ : خلافة عبد الله بن الزبير :

استغل عبد الله بن الزبير حالة السخط العامة التى شملت العالم الإسلامى لمصرع الحسين بن على ، فدعا الى خلع يزيد بن معاوية ، ومبايعته على الخلافة فاستجاب له أهل الحجاز ومصر والعراق ، ولكن يزيد سار لحرب عبد الله بن الزبير جيشاً تحت قيادة مسلمة بن عقبة ، فجرت بينهما بالمدينة موقعة اشتهرت فى التاريخ باسم موقعة الحرة ، وأخرى بها أن تسمى مذبحه الحرة حيث استشهد بها ألف من المسلمين من بينهم أعلام المهاجرين والأنصار ، واستبيحت حرمة المدينة لثلاثة أيام ، أسرف فيها مسلمة وجيشه فى النهب والسلب والعدوان .

وقد خربت المدينة بعد هذه الواقعة وفقدت رونقها وان ظلت أحد المراكز العلمية وتابع مسلمة بن عقبة : عبد الله بن الزبير الى مكة ولكنه مات فى الطريق . بعد أن أوصى بقيادة الجيش بعده للحصين بن نمير ، والذى لم يتهيب حرمة مكة فحاصرها وقذف الكعبة بالمنجنيق فاحترقت ، وكان ذلك فى الثالث من ربيع الأول عام ٦٤ هجرية .

٦٨٤م - ٦٤ هـ : موت يزيد بن معاوية :

مات يزيد بن معاوية بعد أن ولى الخلافة ثلاث سنوات وسبعة أشهر ، اغرق فيها الأمة الإسلامية بالملأى والكوارث والدماء ، ولا يرتفع صوت واحد يقول كلمة خير في يزيد الذى كان سكيراً عربيداً قليل الدين ، وليس هناك ما هو ابلغ في تصوير مدى منزلته في النفوس من أن عمر بن عبد العزيز قد انزل عقوبة القذف على احد جلسائه لمجرد تسميته يزيد بن معاوية بأنه أمير المؤمنين .

خلافة مروان بن الحكم :

ولى الخلافة بعد موت يزيد ابنه معاوية (الثانى) بعهد منه ولكن معاوية بن يزيد كان على خلاف أبيه تقياً ورعاً ، وكان من ناحية أخرى ضعيفاً ولذلك فقد تنازل عن الخلافة ودعا بنى أمية لاختيار من يولونه خليفة عليهم .

واستقر رأى على خلافة مروان بن الحكم شيخ الأمويين فبويع خليفة ، وبذلك انتقل الحكم من أسرة معاوية الى أسرة مروان وان كانت الأموية تجمعهما .

امارة عبد الرحمن بن جحدم على مصر :

بايع المصريون عبد الله بن الزبير كما قدمنا بمجرد دعوته الى نفسه ، وبعثوا اليه ان يوفد اليهم أميراً من لدنه ، فأوفد اليهم عبد الرحمن بن جحدم على رأس جماعة من الخوارج الذين ساندوا قضية عبد الله بن الزبير ، وام يكادوا يصابون الى مصر حتى تسابق أهل مصر من المسلمين لتأييدهم ونزل عبد الرحمن بن جحدم ببیت الامارة فى الفسطاط وجعل عباس بن سعيد المرادى على شرطة مصر وقضاتها .

مروان بن الحكم يزحف على مصر :

ما كان لمروان بن الحكم ان تتحقق له الخلافة اذا بقيت مصر فى يد خصمه عبد الله بن الزبير ، ولذلك فقد كان أول ما فعاه بمجرد أن ولى الخلافة أن زحف من الشام الى مصر على رأس جيشه ، مصطحباً معه ابنه عبد العزيز ليجعله أميراً على مصر .

وقد استطاع مروان بن الحكم أن يهزم عبد الرحمن بن جحدم وان يستفر له الأمر فى مصر فى ١٠ جمادى الأولى سنة ٦٥ هجرية .

موت عبد الله بن عمرو بن العاص :

وفى النصف من جمادى الثانية من هذه السنة مات عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابى الجليل وواحد من اثنين كان يكتب أحاديث الرسول فى صحيفة أطلق عليها اسم الصادقة .

وهو مؤسس المدرسة الاسلامية في مصر ، والجاعل من الفسطاط احد مراكز العلم الاسلامى التى يحج اليها .

٦٨٤م - ٦٥ هجرية : اماره عبد العزيز بن مروان :

ولى مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز بن مروان على صلاة مصر وخراجها وامده بموسى بن نصير بمثابة وزبر له .

وكان اول مافعله عبد العزيز بن مروان أن بنى فى مدينة الفسطاط دارا عظيمة ليسكن بها أطاق عليها اسم دار الذهب وذلك لقبته المذهبة التى كانت اذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر أن يحدق فيها . وكانت تعرف بالمدينة لفنها وعظمتها .

وفاة مروان بن الحكم :

لم يكد مروان بن الحكم يستتب له الأمر فى مصر والشام ، ويوجه همته نحو العراق الذى كان يحكمه مصعب بن الزبير بأسم أخيه عبد الله ، وينجح بالفعل فى هزيمة مصعب ، حتى وافته منيته . وقيل أن زوجته أم خالد « أرملة يزيد » هى التى قتلتة خنقا بوضع الوسادة على وجهه .

وكانت سنه عندما مات احدى وسبعين سنة وقيل احدى وثمانين سنة ، ويقول الطبرى أنه لم يحكم سوى عشرة أشهر بينما يطيل البعض الآخر هذه المدة الى ستة عشر شهرا .

ومروان بن الحكم هو بن عم عثمان بن عفان وهو أحد أسباب الفتنة التى أودته بحياة عثمان اذ جعله كاتبه وأمين سره ، فزيف على عثمان هذا الخطاب الخاص بأهل مصر والذي كان السبب المباشر فى كارثة عثمان .

خلافة عبد الملك بن مروان :

ولى الخلافة بعد مروان بن الحكم ابنه عبد الملك بعهد من أبيه على أن يكون الخليفة من بعده أخاه عبد العزيز .

وقد أقر عبد الملك اماره أخيه على مصر ، واستوى فى مقر الخلافة فى دمشق ، ولكن العراق والحجاز كانا لا يزالان فى سلطان عبد الله بن الزبير .

٦٨٩م - ٧٠ هجرية - الطاعون فى مصر :

انفجر وباء الطاعون فى مصر « الفسطاط » فغادرها عبد العزيز بن مروان ولاذ بدير يقع على شاطئ النيل بموقع مدينة حلوان « الحالية » فأعجبه المكان فاشتراه

من أصحابه الرهبان بعشرة آلاف دينار واتخذ مسكنا له ، وأقام بنحلووان الأعوان والحراس ، وبنى بها الدور والمساجد وغمرها أحسن عمارة وغرس نخلها وكرومها .

وقيل أن ابنه عمر بن عبد العزيز قد ولد في مدينة حلوان ولكن الدكتور مصطفى الوكيل يستبعد هذا القول في مؤلفه (عمر بن عبد العزيز) على أساس أن عمر بن عبد العزيز قد ولد بين عامي ٦١ ، ٦٣ هـ حيث لم يكن أبوه قد وفد إلى مصر بعده .

٦٩١م - ٧٢ هـ : بناء قبة الصخرة في القدس :

كان عبد الملك بن مروان قد نجح في هزيمة مصعب بن الزبير في العراق ودخل إلى الكوفة حيث بويغ من أهلها في العام السابق (٧١ هجرية) فلم يبق لعبد الله ابن الزبير سوى الحجاز .

واراد عبد الملك أن يجعل في فلسطين حرما مقدسا يحج إليه الناس فبنى قبة الصخرة في القدس والجامع الأقصى ، وكان المسلمون يطوفون حول الصخرة كما يطوفون من حول الكعبة وينحرون يوم العيد ضحاياهم .

عبد العزيز بن مروان يعرف في مصر :

وكان عبد العزيز بن مروان من ناحيته يعرف في مصر أى يقف بالناس في المسجد الجامع يوم عرفة كما يقف الحجاج . وذلك لنفس الغرض الذي يسعى له أخوه وهو صرف المسلمين عن الحج ، حيث كان عبد الله بن الزبير مسيطرا على الحجاز .

٦٩٢م - ٧٣ هجرية : مقتل عبد الله بن الزبير :

ندب عبد الملك بن مروان لحرب عبد الله بن الزبير رجلا عرف بالصلابة والقبو وهو الحجاج بن يوسف الثقفي والذي يعتبر بحق صاحب الفضل في تثبيت العرش لعبد الملك وأولاده من بعده .

وقد حاصر الحجاج مكة كما فعل الحصين بن النمر من قبل ، وقذف الكعبة بالمنجنيق وكان عبد الله بن الزبير قد أعاد بناءها بعد احتراقها . وظل يضيق الخناق على عبد الله بن الزبير حتى لم يبق معه أحد من أنصاره . وقصة عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر عندما ذهب يشكو إليها ما انتهى إليه أمره إحدى دور التاريخ الإسلامي ، فقد دفعته للاستشهاد في سبيل الله ، على أن لا يسلم نفسه أو يهادن ما يعتبره باطلا ، فكان أن قتل وعلقت جثته .

٦٩٣ م - ٧٤ هـ : أماره الحجاج بن يوسف على الحجاز :

ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف أميرا على الحجاز بعد انتصاره على عبد الله ابن الزبير فوطد به حكم بنى أمية باستخدام كل ضروب القسوة والتنكيل لا يعفى منها صحابة رسول الله أنفسهم حتى طلب منه عبد الملك أن لا يتعرض لعبد الله ابن عمر ولا أنس بن مالك .

وقد أعاد الحجاج بناء الكعبة على قواعدها الأولى كما كانت أيام الرسول ، بعد أن كان عبد الله بن الزبير قد أدخل في بنائها حجر اسماعيل .

٦٩٤ م - ٧٥ هجرية : ضرب الدنانير العربية :

أقدم عبد الملك بن مروان على ما يمكن أن يعتبر بتعبيرائنا الحديثة ثورة اقتصادية في دنيا المال والتجارة فقد كان العرب منذ أقدم عصورهم يتعاملون بالدرهم الفارسية الفضية والدنانير البيزنطية ، وكانت الدنانير البيزنطية هي العملة الذهبية المعترف بها في ذلك الزمان وقد ظل الحال على ذلك حتى بعد ظهور الاسلام ومقام الدولة الاسلامية الى أيام عبد الملك الذى أصدر امره بصك الدنانير الاسلامية فلا يكون بها صورة امبراطور بيزنطة او علامة الصليب .

وان يكتب على الدنانير باللغة العربية كلمات التوحيد .

وحظر عبد الملك التعامل في الدولة الاسلامية بغير هذه الدنانير .

وقد اعتبر جوستنbian الثانى امبراطور بيزنطة ، هذا الاجراء عدوانا على سلطانه وحقوقه فأعلن الحرب على عبد الملك ، ولكنه فشل في حربه وهزم ، فاستقر التعامل بالدرهم والدينار الاسلاميين منذ ذلك التاريخ .

٦٩٩ م - ٦٠ هجرية : أسطول مصرى يغزو قبرص :

خرج عبد الواحد بن أبى الكنود من الاسكندرية على رأس اسطول مصرى غزا سفن الروم التى تعرضت له ووصل الى جزيرة قبرص .

٧٠٣ م - ٨٤ هـ : موسى بن نصير يلى امرة المغرب :

ولى عبد العزيز بن مروان بموافقة الخليفة عبد الملك موسى بن نصير امرة المغرب الذى كانت قد ساءت أحواله واضطربت نتيجة لثورات البربر بتحريض من الروم حتى لقد قتلوا عقبة بن نافع وسقطت القيروان في أيديهم ولم يعدها الا جيش جديد بعث به عبد العزيز بن مروان من مصر بقيادة حسن بن النعمانى الذى استرد

القيروان وقرطاجنة ولم تلبث الثورات أن تجددت بقيادة امرأة أطلق عليها اسم الكاهنة ولم ينجح حسان بن النعمان في قمعها الا بعد لاي .

فكان اختيار عبد العزيز لموسى بن نصير من أعظم الخدمات التي قدمت للإسلام، فان موسى بن نصير لم يكد يصل الى مدينة القيروان حتى بدأ صفحة جديدة للإسلام ليس فقط في شمال افريقيا بل في حياة الاسلام كله ، اذ أن نشاطه سينتهي الى فتح الأندلس .

وقد سير موسى بن نصير الجيوش بحث قيادة اولاده الأربعة لتضرب القوات المتمردة في كل مكان في آن واحد .

ثم عكف على سلاح البحرية يقويه باعتباره الأساس لتطهير البحر من البيروطين فاقام دارا كبرى لصناعة السفن في مدينة قرطاجنة وتونس ، وأمدّه عبد العزيز ابن مروان بصناعة السفن من مصر .

وكان كمال توفيق ، موسى بن نصير ودليل فراسته ان استعان بأحد أبناء البلاد من البربر وهو طارق بن زياد ، فعينه أميرا على مدينة طنجة في مواجهة الشاطئ الأوربي .

٧٠٤ م - ٨٥ هجرية : وفاة عبد العزيز بن مروان :

مات في هذه السنة عبد العزيز بن مروان بالطاعون وليس يعرف اذا كان هذا هو نفس الطاعون الذي حمله على سكن حلوان ، أم أنه طاعون جديد انتشر في البلاد . وقد حل موته مشكلة لأكبره عبد الملك الذي كان قد اراد منه التنازل عن ولاية العهد لابنه الوليد بن عبد الملك فرفض عبد العزيز ذلك :

وكانت مدة امارته على مصر ٢١ سنة وهي أطول مدة حكمها فيها أمير . وكان يتمتع فيها بشبه استقلال مطلق .

امارة عبد الله بن عبد الملك على مصر :

ولى عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله بن عبد الملك أميرا على مصر صلاتها وخراجها عقب وفاة عبد العزيز بن مروان وكان عمره عندما وليها تسعا وعشرين سنة فلم يلبث أن ظهر نزقه وطيشه اذ استعمل الشدة مع الناس ، واتصفت أعماله بالجور ، واختلس من أموال الخراج وارثى ، وتعرض للاقباط بالاضطهاد فحظر عليهم لبس البرانس العربية : ويقول ابن بول أنه فرض على الرهبان أن يرتدوا اشارات معينة والا عرضوا اديرتهم لشتى صنوف الجزاءات .

... تعريب الدواوين :

وفي هذه السنة اقدم عبد الملك بعد مروان على خطوة من خطواته الإصلاحية الكبرى فأصدر أمره بجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية التي تكتب بها الدواوين .

ونفذ ابنه عبد الله هذه التعليمات في مصر ، حيث كانت الدواوين تكتب حتى هذا التاريخ باللغة القبطية فبدىء في كتابتها باللغة العربية .

٧٠٥ م - ٨٦ هجرية : وفاة عبد الملك بن مروان :

مات عبد الملك بن مروان يوم الخميس للنصف من شهر شوال والأقوال في عمره عند وفاته تتراوح بين ٥٨ و ٦٣ سنة . حكم منها إحدى وعشرين سنة . وليس يعيب عبد الملك بن مروان سوى ولاته القساة الغلاظ الطفاة ، وحسبه أن يكون الحجاج أحد رجاله الذي حكم بأسمه .

ومع ذلك فإن المؤرخ يفغ أمامه باعتباره من أعظم ملوك الاسلام الذين اعادوا للدولة وحدتها وجددوا شبابها وثبتوا أقدام الاسلام نهائيا في شمال افريقيا وأبرقوا شخصيتها الاسلامية بصك الدنانير وتعريب الدواوين الى العربية .

خلافة الوليد بن عبد الملك :

ولى الخلافة الوليد بن عبد الملك اذ لم يكد يفرغ من دفن أبيه حتى صعد الى منبر المسجد ودعا الى بيعته فلم يختلف عليه أحد .

٧٠٨ م - ٩٠ هجرية : اماره قرة بن شريك على مصر :

قاسى المصريون كما قدمنا أيام اماره عبد الله بن عبد الملك وحدث أن تترقت الأرض بسبب تخلف الفيضان عن المقدر المعتاد فعلت الأفواه وغلت الاسعار الى ما لا عهد للمصريين به ما قبل . فضجوا بالشكوى الى الوليد بن عبد الملك ، فعزل أخاه ، وولى قرة بن شريك على الصلاة والخراج . ومن سوء حظ المصريين ان قرة ابن شريك لم يكن بأحسن حال من سلفه فقد كان بدوره سىء التدبير ظلما غشوما فاسقا ، مفرقا في الشهوات والملذات .

توسيع مسجد عمرو :

كان الوليد محبا للبناء والانشاء والتعمير ولذلك فلم يكد يلى الخلافة ، حتى شرع فى بناء الجامع الأموى فى دمشق . وكان أصله كنيسة ، ثم أصبح نصفه مسجدا ، وظل النصف الآخر على حاله كنيسة : فاشترى الوليد الكنيسة بأصعاف ثمنها ، ولم يقبل المسيحيون الا كارهين .

وفى نفس الوقت أصدر أمره لعمر بن عبد العزيز الذى كان قد ولاه على المدينة المنورة أن يضاعف فى مساحة مسجد الرسول ليكون مائتى ذراع فى مثلها وان يقوم القبلة .

وارسل الى واليه على مصر قرّة بن شريك يطالب منه توسيع الجامع العتيق الذى انشأه عمرو بن العاص . يقول تغرى بردى أن قرّة كان اذا انصرف العمال الذين يعملون فى بناء المسجد بالليل يدعو بالخمور والزمر والطبول ويظل يعربد فى المسجد طول الليل ويقول لنا الليل ولهم النهار .

٧١١ م — هجرية : فتح الأندلس :

اثمرت سياسة موسى بن نصير وحسن ادارته لشمال افريقيا وسيادته على غرب البحر الأبيض المتوسط بأسطوله الذى مكنه من الاستيلاء على جزيرة سردينية ثم جزيرتى مينورقة وميورقة . فاستطاع قائده طارق بن زياد أن يعبر مضيق هرقل الذى سمي منذ ذلك التاريخ باسم طارق فأصبح يعرف بمضيق طارق ، ودارت معركة فاصلة بينه وبين ملك القوط الغربيين رودريك ، الذى يسميه العرب « لدريق » فكان النصر لطارق بن زياد وبدأت بذلك عملية فتح الأندلس الذى سيكون بمثابة واجهة الحضارة الاسلامية فى قلب اوربا الغربية .

٧١٢ م — ٩٣ هجرية : مولد الليث بن سعد :

ولد فى هذه السنة بمصر الليث بن سعد الذى سيقدر له أن يحمل راية العلم فى القرن الثانى وهى التى رفعها عبد الله بن عمرو بن العاص فى القرن الأول .

٧١٤ م — ٩٦ هجرية : وفاة قرّة بن شريك والحجاج بن يوسف :

مات فى هذه السنة قرّة بن شريك أمير مصر فتنفس المصريون الصعداء لخلاصهم منه . ومن عجب أنه مات فى نفس السنة الحجاج بن يوسف فتنفس المسلمون فى مشارق الدنيا ومغاربها الصعداء . وسيظل اسم الحجاج يدوى فى التاريخ الاسلامى كله كرمز على اقصى ما يصل اليه طغيان الحاكم ، وستظل قلوب المسلمين تنفر منه الى ابد الأبدى .

وقد وصف الدكتور على ابراهيم حسن الحجاج فى كتابه فى تاريخ مصر الاسلامية بأنه كان قبيح الوجه قمينا دقيق الساقين . اعور معروق الأصداغ ، وهى صورة تشير القشعريرة فى النفس .

ومع ذلك فان المؤرخين الغربيين يكيلون له الثناء والمديح فيقول لنا عنه ول دورانت : انه جفف المستنقعات واصاح الاراضى واعدها للزراعة ، وأعاد فتح ماظم من قنوات الري واصلاحها . وكان هو الذى قمع فتنة الخوارج التى كادت تعصف بالدولة الاسلامية وذلك عن طريق قائده المهلب بن ابي صفرة وقد استؤنفت

الفتوح في الشرق بقواده ثم لم يقنع بذلك فأحدث انقلابا كبيرا في طريقة الكتابة باستعماله حركات الاعراب والتنقيط .

امارة عبد الملك بن رفاعة على مصر :

ولى الوليد على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت المصرى ، وجعل له الصلاة دون الخراج . فكان على النقيض من سابقة اذ جسيبت سببرته واشتهر بالعفاف والتقوى والعدل في الرعية . وكان تقيا امينا فاضلا ، حتى ان فقيه مصر الليث بن سعد قد روى عنه ، وكان من بين ما رواه ما يعتبر بتحقيق دتسنورا للحكام وهو : « اذا دخلت الهدية من الباب ، خرجت الامانة من الطاق » . وكان على خراج مصر اسامة بن زيد التثوخي .

٧١٥ م - هجرية : وفاة الوليد بن عبد الملك :

مات الوليد بن عبد الملك في يوم السبت النصف من جمادى الآخرة من عام ٩٦ هجرية وتتراوح الاقوال في عمره عند وفاته ما بين اثنين واربعين سنة وست واربعين ، اما مدة خلافته فتسع سنوات . وثمانية اشهر ، وكان له تسعة عشر ابنا .

ويعتبر عهده ذروة ما وصلت اليه الدولة الاموية من استقرار وازدهار ومجد عسكري وعمراني ولع في عصره ثلاثة من قواد المسلمين الاعلام فكان قتيبة بن مسلم الباهلي قائد الحجاج يواصل فتوحه في الشرق حتى استولى على كغابل وكشفر على حدود الصين وذلك في الوقت الذي كان محمد بن قاسم بن محمد الثقفي صهر الحجاج يغزو الهند حتى يصل الى نهر السند .

وفي الغرب كان من شأن موسى بن نصير ومولاه طارق ما ذكرناه ، من فتح الأندلس واستتيلائهما على طليطلة عاصمة البلاد وما وجداه بها من كنوز وفي نفس الوقت بنى وأنشأ المساجد الكبرى التي لا تزال مفخرة العالم الاسلامي حتى اليوم ، وأنشأ المستشفيات للمرضى والملاجئ للعجزة ، وساق المياه الى مكة والمدينة .

ومع ذلك فان المؤرخين المسلمين يأخذون عليه اقراره الحجاج على طغيانه في العراق ، وعلى قرعة بن شريك في مصر ، مما يدل على ان المسلمين لا يعدلون بالعدل شيئا آخر .

خلافة سليمان بن عبد الملك :

ولى الخلافة سليمان بن عبد الملك بعد أخيه الوليد بناء على العهد الذي كان أبوه قد أبرمه .

اقرار عبد الملك بن رفاعه على اماره مصر :

وقد اقر سليمان بن عبد الملك ، عبد الملك بن رفاعه على اماره مصر كما اقر اسامة ابن زيد التنوخي على خراجها .

بناء مقياس الروضة :

استصدر أسامة بن زيد عامل الخراج اذنا من الخليفة بالغاء مقياس النيل في حلوان وهو الذي كان عبد العزيز بن مروان قد انشاه ، وكذلك بالغاء كافة مقاييس النيل : على أن ينشئ مقياسا جديدا يحل محلها في جزيرة الروضة فأذن له . ولا يزال هذا المقياس موجودا حتى الآن باعتباره من أجمل الآثار الاسلامية .

عملة اسامة بن زيد :

ولا يزال بين أيدينا من آثار اسامة بن زيد الاوزان الزجاجية التي كانت النقود المصرية تصلك على أساسها .

٧١٦ م - ٩٧ هجرية :

ولد في هذه السنة وقيل في التي قبلها عبد الله بن لهيعة أحد الثلاثة الذين بدأوا حياة العلم الاسلامي المسجل في مصر .

٧١٨ م - ٩٩ هجرية : وفاة سليمان بن عبد الملك :

في العشرين من صفر في هذه السنة مات سليمان بن عبد الملك ، ولم تطل مدة خلافته لأكثر من سنتين وسبعة أشهر . أو ثمانية على اختلافات يسيرة وقد أزال مظالم الحجاج وأطلق من في السجون وأنصف المظلومين ، وحاول أن يفتح مدينة القسطنطينية بجيش برى وضعه تحت قيادة أخيه مسامة بن عبد الملك وأسطول بحري مؤلف من ١٨٠٠ سفينة فأخفق ومن جديد فتكت النار الاغريقية بوحدات الاسطول فاضطر لرفع الحصار عن المدينة .

على أن أعظم أعمال سليمان بن عبد الملك هو استخلافه ابن عمه عمر بن عبد العزيز مقدما آياه على أخويه يزيد وهشام وذلك تقديرا منه لدينه وتقواه وورعه .

خلافة عمر بن عبد العزيز :

ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، وهو الذي وصف بأنه خامس الخلفاء الراشدين ، اذ تبرأ من كل مظالم بنى أمية وعمل على انصاف كل من ظلموه وتعويض كل من حرموه معيدا بذلك سيرة جده لأمه عمر بن الخطاب .

وكان آية حكمه الجديد ورغبته عن سفك الدماء ان بعث يستدعى الجيش المحاصر للفسطاطينية .

عزل أسامة بن زيد عن خراج مصر :

كما كان من أول ما قام به من أعمال وحتى قبل أن يدفن سليمان بن عبد الملك هو عزله أسامة بن زيد صاحب الخراج على مصر ، لما كان يبلغه عنه من استنزافه موارد مصر لصالح الدولة الأموية ، وأمر بالقبض عليه وسجنه جزاء له على ما اقترفت يده ، وإصدار الخليفة أمره بأن يوقف تحصيل الخراج من المصريين لمدة عام على سبيل التخفيف والتعويض عن أهلها .

امارة أيوب بن شرحبيل على مصر :

أقر عمر بن عبد العزيز في أول خلافته عبد الملك بن رفاعه على الصلاة ، ثم لم يلبث ان عزله وولى أيوب بن شرحبيل وكان رجلاً صالحاً وزع اختصاصاته الادارية على بضعة نفر من الرجال الصالحين . فجعل الفتوى الى جعفر بن أبي ربيعة ويزيد ابن أبي حبيب (أستاذ ابن لهيعة والليث) وعبد الله بن أبي جعفر . وجعل على الشرطة الحسين بن يزيد الرعيني ، وزاد في عطاء الناس ، ونفذ أوامر أمير المؤمنين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأغلقت حانات الخمر وكسرت دنانها .

وقد كان من أثر عدل عمر بن عبد العزيز وسياسته ، أن دخل كثير من أقباط مصر في الاسلام ، مما أثر على حصيلة الجزية والخراج ، فكتب أيوب بن شرحبيل يقترح على عمر بن عبد العزيز أن تؤخذ الجزية من الأقباط حتى في حالة اسلامهم خوفاً من أن تنقطع موارد الدولة .

فرد عليه عمر بن عبد العزيز رده المشهور :

« قبح الله رأيك ، ان الله قد بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، ضع الجزية ممن أسلم ، ولعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه » .

ومضى عمر بن عبد العزيز في رغبته في حمل الأقباط على اعتناق الاسلام ، فقليل انه أصدر أمره ان لا يلى وظائف الدولة الا مسلماً فأدى ذلك الى اسلام كثير من القبط الموظفين .

٧١٩ م - ١٠٠ هجرية : بدء دعوة بني العباس :

وكان طبيعياً في ظل هذا الامام العادل الرحيم ان تبدأ الدعوة الى بني العباس في مضاعفة نشاطها ، فوجه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رسالة في هذه السنة الى العراق وخراسان تدعو الى خلع بني أمية وتوجيه الخلافة الى الهاشميين من آل بيت النبي واختيار اثني عشر نقيباً ليحملوا لواء الدعوة .

٧١٩ م - ١٠١ هجرية : وفاة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز :

في الخامس والعشرين من شهر رجب من هذه السنة توفي أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز وهو لما يتم الأربعين سنة من عمره بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين وخمسة شهور مرت على شعوب الدولة الإسلامية كما لو كانت حلما جميلا .

وكان أيراد عمر بن عبد العزيز قبل أن يلي الخلافة أربعين ألف دينار أما إرادته بعد أن أصبح خليفة فلم يكد يتجاوز مائتي دينار . ولعل هذه المقارنة تغنى عن كل حديث آخر .

وحكم عمر بن عبد العزيز مدحضة للوهم والادعاء بأن اتساع رقعة الدولة الإسلامية وتغير ظروفها ، لم يعد يسمح بطراز حكم الخلفاء الراشدين . فسيظل ورع الحاكم وزهده وتقشفه وعدله أولا وقبل كل شيء هو أعظم ما يهفو له البشر في كل زمان ومكان وفي ظل أى نظام .

خلافة يزيد بن عبد الملك :

ولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، وهو ثالث أبناء عبد الملك بن مروان ولم تكن سنة عندما ولى الخلافة تزيد عن تسع وعشرين سنة . وقد حاول في مطلع حكمه أن يتابع عمر بن عبد العزيز على سيرته . ولكن جاريته حبانته التي كان مغرما بها إلى حد الوله قد فتنته واقعدته عن تحقيق عزمه ، فعاد إلى الانهماك في الملذات . بل ونقض ما كان عمر بن عبد العزيز قد سنه من رفع الجزية عن أسلم .

امارة بشر بن صفوان على مصر :

مات أيوب بن شرحبيل أمير مصر ، فولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان فدخلها في السابع عشر من شهر رمضان .

وفي أيامه أغارت الروم على مدينة تنيس ثم جلت عنها .

٧٢١ م - ١٠٢ هجرية : امارة حنظلة بن صفوان :

ولى الخليفة يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أميرا على إفريقيا فخرج إليها من مصر واستخلف أخاه حنظلة بن صفوان ، فأقره يزيد على امرة مصر .

٧٢٢ م - ١٠٣ هجرية : تحطيم الأصنام والتماثيل في مصر :

خرج حنظلة بن صفوان إلى الاسكندرية واستخلف على مصر عقبة بن مسلم النجيبى . ولم يلبث أن ورده كتاب من الخليفة يزيد بن عبد الملك يأمره بكسر الأصنام والتماثيل فعمل جهده لتنفيذ هذا الأمر .

وقد أدى تنفيذ هذا الأمر الى نشوب أول تمرد بين أقباط مصر ضد الحكم الاسلامى ويقول لين بول فى حديثه عن هذه الثورة ، وعن تجددتها انه ترتب على اعتقال البطريرك المصرى ان زحف جيش من النوبيين بلغت عدته مائة الف مقاتل غضبا لاعتقال البطريرك ولم يحملهم على العدول عن غزو مصر الا البطريرك تلافيسه بعد أن أفرج عنه .

المسلمون يغزون جنوب فرنسا :

وفى هذه السنة اجتاز مسلمو الأندلس جبال البرانس الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا واستولوا على مدينة ناربون فى جنوب فرنسا .

٧٢٣ م - ١٠٥ هجرية : خلافة هشام بن عبد الملك :

مات يزيد بن عبد الملك بعد أن ولى الحكم أربع سنوات وشهرا وكان عمره يوم وفاته ٣٣ سنة على الأرجح وقصة غرامه بجاريته حبابة هى أظهر ما يميز حياته .

وقد ولى الخلافة من بعده أخوه هشام بن عبد الملك وكان سنه يومئذ ٣٤ سنة .

امارة محمد بن عبد الملك على مصر :

لم يكد هشام يتولى الخلافة ، حتى صرف حنظلة بن صفوان عن ولاية مصر ، وولى عليها أخاه محمد بن عبد الملك . وكان ناسكا كثير العبادة حسن السيرة جوادا كريما لا يحب السلطان ، ولم يكد يصل الى مصر حتى وقع بها وباء ، فأقام محمد ابن عبد الملك فى الصعيد . ثم لم يلبث أن انصرف عن مصر بعد شهر من وصواه اليها .

امارة الحر بن يوسف على مصر :

ولى هشام بعد انصراف أخيه عن مصر - الحر بن يوسف أميرا على الصلاة فقط وولى عبيد الله الحبجاب على الخراج . ولا تزال الأوزان الزجاجية لدراهم ودنانير الحبجاب وما كان عليها من كتابة باقية حتى الآن .

ثورة لأقباط مصر :

وفى عهد الحر بن يوسف ، وبسبب سياسة عبد الله بن الحبجاب المالية قام الأقباط على ما يروى الكندى بثورة على زيادة ضريبة الأرض ، فقد كتب ابن الحبجاب للخليفة هشام يقترح زيادة ضريبة الأرض قيراطا على كل دينار فانتفضت بعض كور مصر (كورة تنو ، وتمى ، وقربيط ، وطرايبة) وعامة الحوف الشرقى ، فبعث

اليهم الحر بن يوسف بأهل الدواوين (أى الجند من العرب) فاختصوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين (تاريخ مصر الاسلامية ص ٨٨) .

هجرة قبيلة قيس الى مصر :

وقد سعى عبد الله بن الحبحاب عامل الخراج لكى يمكن لنفسه فى مصر ، فكتب الى هشام يطلب منه تهجير بعض قبائل قيس الى مصر ، فأجابه هشام الى طلبه ، فوفد الى مصر أربعمئة عائلة من بطون قيس المختلفة فنزلت بالحواف الشرقى حول مدينة بلبيس ثم توافدت جموع أخرى منهم بلغ عددها ألف وخمسمئة عائلة .

وسرعان ما سوف تتحول هذه الوافدة الى بذرة خلاف وفتنة فلا تكاد تمضى فترة من الزمان ، حتى يكون للقيسيين من أهل الحواف الشرقى ملحمة من النهب والسلب أو خلق الفتن والاضطراب .

٧١٦ م - ١٠٨ هجرية : اماره حفص بن الوليد على مصر :

وقع الخلاف بين الحر بن يوسف وبين عبيد الله بن الحبحاب ، لتزايد سلطانه وغلبته على شئون البلاد ، ولكن هشام بن عبد الملك انحاز الى جانب عبد الله بن الحبحاب وعزل الحر بن يوسف ، وولى على صلاة مصر بدلا عنه حفص بن الوليد . وكان حفص بن الوليد هو القائم على شرطة مصر : كما ولى مصر باستخلاف الحر بن يوسف . على أن الخلاف سرعان ما نشب بين حفص بن الوليد وبين عبد الله بن الحبحاب فعزل هشام بن عبد الملك حفص بن الوليد .

٧٢٧ م - ١٠٩ هجرية : ولاية عبد الملك بن رفاعه الثانية على مصر :

ولى هشام بن عبد الملك ، عبد الملك بن رفاعه أميرا على مصر ، على الصلاة ، وقد كان ولى أمرة مصر من قبل عقب وفاة قره بن شريك ، فأحسن السيرة ولكنه كان مريضا هذه المرة فأتاب عنه أخاه الوليد بن رفاعه للصلاة بالناس : وام يلبث بأن مات ، فأقر الخليفة أخاه الوليد بن رفاعه على ولاية مصر .

امارة الوليد بن رفاعه على مصر :

ولى الوليد بن رفاعه الصلاة ، وجعل على شرطته عبد الله بن أبى سمير الفهمى ، وكان على خراج مصر عبيد الله بن الحبحاب صاحب النفوذ الكبير فسعى الوليد ابن رفاعه عند الخليفة هشام على ما يقول تفري بردى فأخرجه هشام من مصر واستعمله على افريفيا . ومن هنا طالت اماره الوليد بن رفاعه على مصر ، على خلاف كل من سبقه من الأمراء .

٧٢٨ م - ١١٠ هجرية : وفاة جرير والفرزدق :

مات في هذه السنة بالشام شاعرا الاسلام الكبيران جرير والفرزدق ، ومن عجب ان الرجين قد عاشا في تنافس طول حياتهما ... ثم ابى عليهما القدر الا ان يموتا في سنة واحدة .

٧٣٢ م - ١١٤ هجرية : عبد الملك بن الحبحاب يلي اماره المغرب :

عين الخليفة هشام عبيد الله بن الحبحاب عامل الخراج اميرا على المغرب . فانتقل من مصر الى عمله الجديد ، وكان اول ما قام به من عمل ان سعى لاحتلال جزيرة ضقلية المواجهة للشاطئ الافريقى فدارت له معركة بحرية مع الروم انتصر فيها عليهم ، وظل يواصل غزواته في البر والبحر بنجاح .

٧٣٥ م - ١١٧ هجرية : اماره عبد الرحمن بن خالد على مصر :

مات الوليد بن رفاعه بعد ان ظل اميرا على مصر ثمانى سنوات واربعه اشهر وبضعة عشر يوما وكان قد استخلف قبل موته على الصلاة عبد الرحمن بن خالد الذى ولى له الشرطة عدة سنوات ، فلما مات الوليد اقر هشام امرة عبد الرحمن ابن خالد على صلاة مصر .

على انه لم يلبث ان عزله ، وقيل ان سبب عزله هو فشله فى الحيلولة دون نزول الروم فى احد بلاد الساحل المصرى ، حيث قتلوا ونهبوا واسروا ، قبل ان يتصدى هم عبد الرحمن بن خالد ويطردهم من البلاد .

وقيل ان السبب الحقيقى لعزله عن مصر ، هو ان دعاة بنى العباس الذين قوى شأنهم فى خراسان ارسلوا اليه يدعونه الى بنى العباس . فاكرم وفادة الرسل ووعدهم خيرا .

٧٣٧ م - ١١٩ هجرية : اماره حنظلة بن صفوان الثانية على مصر :

عزل هشام عبد الرحمن بن خالد ، وولى حنظلة بن صفوان الذى سبق ان ولى امرة مصر فقدمها فى الخامس من محرم من هذه السنة اميرا على الصلاة وجعل على الشرطة عياض بن خثرمة .

٧٣٨ م ١٢٠ هجرية : ثورة الأقباط في الصعيد :

ذكر المقرئى ان الأقباط فى الصعيد قاموا بانتفاضة -فحاربهم حنظلة وأسكن الفتنة ، ولم يذكر لذلك سببا .

٧٤١ م ١٢٤ هجرية : اماره صفى بن الوليد :

ولى هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان أميرا على افريقيا ، فاستخلف على الصلاة صفى بن الوليد فأقر الخليفة هشام هذه الامارة ، ولم يلبث أن ضم اليه ولاية الخراج كذلك .

موقعة نور بواتينيه فى فرنسا :

فى هذه السنة دارت المعركة الحاسمة بين المسلمين فى فرنسا وبين الفرنجة ، وكان على رأس جيش المسلمين عبد الرحمن الفافقى ، وعلى رأس الافرنج شارل مارتل واستمرت المعركة ثمانية أيام كاد النصر يتم فيها للعرب ، ولكن الدائرة لم تلبث أن دارت عليهم فانهزموا وقضى بذلك على آخر محاولاتهم — محاولات المسلمين فى الأندلس لفتح فرنسا — ولذلك يعتبر المؤرخون الأوربيون هذه الموقعة إحدى مواقع التاريخ الحاسمة .

٧٤٢ م — ١٢٥ هجرية : وفاة هشام بن عبد الملك :

فى يوم الاربعاء الرابع والعشرين من ربيع الاول من هذه السنة مات هشام ابن عبد الملك وكان عمره يوم مات بضعا وخمسين سنة وقيل تجاوز الستين ، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر ، وهو الرابع من أولاد عبد الملك الذين ولوا الخلافة ، وكان هشام بن عبد الملك على ما يقول : « ابن كثير » فى كتابه البداية والنهاية حازم الراى ، جامعا للأموال بخيلا فى صرفها ، وكان ذكيا مدبرا له بصر بالأمور جليلها وحقيرها وكان فيه حلم واناة .

وهو آخر ملوك بنى أمية العظام وبموته اقتربت نهاية الأسرة .

خلافة الوليد بن يزيد :

ولى الخلافة بعد موت هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد ، وكان فاسقا فاجرا تروى عنه أقاصيص من ضروب المبالغة والتهويل ، ولكنها تدل على نوع الحياة التى اشتهر بها ، فمن ذلك أنه كان يسبح فى بركة من الخمر ويعب منها وهو يسبح ، وتمزيق المصحف الشريف عن طريق التصويب عليه بالنشاب وذلك على سبيل

التحدى ، حتى روى عنه في ذلك شفر ، وقيل أكثر من ذلك مما يستبعده ثغرى
بردى بعد أن يرويه وهو اعتداؤه على عفاف ابنته ، أما الطبرى فيقول لنا أنه كره
تسجيل ما نسب اليه ولذلك فقد أجمع آل بيته على وجوب التخلص منه فقتلوه
واخذوا رأسه فلم تزد مدة خلافته على سنة وثلاثة شهور ، واختلفوا في سنة
يوم مات ما بين ست وثلاثين سنة وست وأربعين .

٧٤٣ م - ١٢٦ هجرية : خلافة يزيد بن الوليد :

ولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد اشتهر باسم يزيد الناقص
لأنه أنقص الأعطيات التى كان الوليد قد قررها من قبله للجند ، وقيل أن سبب
التسمية غير ذلك على أيامه لم تطل إذ مات في شهر ذى الحجة من نفس السنة
التى ولى فيها فلم تزد مدة خلافته عن ستة شهور .

٧٤٤ م - ١٢٧ هجرية : خلافة مروان بن محمد :

حاول ابراهيم بن الوليد أن يلى الخلافة بعد موت أخيه يزيد ، ولكن مروان
ابن محمد الذى كان أميرا على اذربيجان وارمنية عندما بلغه نبأ موت يزيد جمع
رؤساء جنده وانفق عليهم الأموال فبايعوه بالخلافة ، ولكن باقى رجال الأسرة الأموية
رفضوا أن يبايعوه ، فسار بجيشه نحو الشام وانتصر فى المعارك التى اشتعلت
فيها ضد مخالفيه واستقر فى دمشق خليفة .

ولكن بنى العباس انتهبوا فرصة هذا التفكك والتصددع الذى أصاب الأسرة
الأموية فجدوا بدعوتهم وأعلنوا الحرب فى خراسان تحت قيادة أبى مسلم الخراسانى
لاسقاط الأسرة الأموية ومبايعة الأسرة العباسية .

امارة حسان بن عتاهية على مصر :

كان صفى بن الوليد هو الأمير على مصر ابان خلافة الوليد (الثانى) ، وخلفه
يزيد ، فلما أن ولى الخلافة مروان بن محمد استعفاه حفص فأعفاه وولى حسان
ابن عتاهية .

فلما استقر حسان بن عتاهية على امرة مصر واسقط الأعطيات التى كان حفص
ابن الوليد قد فرضها للناس والجند ، فثار عليه الجند وقاتلوه وتنادوا بخلع مروان
ابن محمد من الخلافة ، وبيعة الخليفة من بنى العباسى وحاصروا حسان بن عتاهية
فى داره وطلبوا منه أن يغادر مصر ، وكذلك فعلوا بعيسى بن أبى عطاء صاحب الخراج ،
وكان حسان بن عتاهية قد سجن حفصا وأولاده فأخرجوهم من السجن ونادوا به
أميرا عليهم . واضطر حسان بن عتاهية لمغادرة مصر حيث لم تزد مدة امارته على
بضعة عشر يوما .

ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر :

أقام رؤساء الجند حفص بن الوليد أميرا على مصر كرها عنه شهري رجب وشعبان . وقدم الى مصر حنظلة بن صفوان من افريقية بعد ان اخرجها أهلها فنزل بالجيزة . فقدم عليه كتاب الخليفة مروان بن محمد بامارته على مصر ولكن المصريين رفضوا تنفيذ هذا الأمر ، ومنعوا حنظلة من الدخول الى القسطنطينية وأخرجوه الى الحوف الشرقى ، وتم أمر حفص على الامارة بقية السنة وسكت مروان ابن محمد عنه .

٧٤٥ م - ١٢٨ هجرية : امارة حوثر بن سهيل على مصر :

بعث مروان بن محمد بحوثر بن سهيل ليكون أميرا على مصر وزوده بجيش من سبعة آلاف مقاتل ، ولم يشأ حفص بن الوليد أن يسمح لاتباعه بمقاومته وسلم نفسه لحوثر فقتله وقتل الكثير ممن أيدوه .

٧٤٧ م - ١٣٠ هجرية : استيلاء أبي مسلم الخراساني على خراسان :

استولى ابو مسلم الخراساني صاحب الدعوة على مدينة مرو عاصمة خراسان فاعتبر صاحب السلطان في خراسان ، ولم يلبث أن وطد سلطانه بالفعل بالاستيلاء على أكثر مدنها .

٧٤٨ م - ١٣١ هـ : امارة المغيرة بن عبد الله على مصر :

بعث مروان بن محمد الى حوثر أمير مصر ان يبادر بنجدة نائبة بن هبيرة على العراق لمواجهة زحف أبي مسلم الخراساني ، فسار حوثر على رأس جيش من مصر ، وولى مروان بن محمد المغيرة بن عبد الله أميرا على الصلاة فقدمها في شهر رجب عام ١٣١ هـ وجعل على الشرطة ابنه عبد الله ، وكان ليما محببا للناس وخرج الى الاسكندرية واستخلف على القسطنطينية ابا الجراح الحرشي ، ولم يلبث ان مات فكانت مدة ولايته عشرة اشهر .

٧٤٩ م - ١٣٢ هجرية : امارة عبد الملك بن مروان على مصر :

ولى مروان بن محمد بعد موت المغيرة عبد الملك بن مروان بن موسى على الصلاة والخراج فجعل اخاه معاوية على الشرطة . وأمر باتخاذ المنابر في جوامع البلاد كلها

ولم يكن في الجوامع المنتشر في البلاد منابر وإنما كان ولاية البلاد يتكئون على عصيتهم الى جانب القبلة .

٧٤٩ م - ١٣٢ هجرية : قيام الدولة العباسية :

في الثالث من شهر ربيع الأول من هذه السنة أستولى أبو مسلم الخرسالي على نيسابور وخطب رسميا لعبد الله السفاح أول خلفاء بني العباس وهو عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

وقرر مروان بن محمد أن يخوض المعركة الفاصلة بينه وبين العباسيين ، فصار على رأس جيش من مائة ألف من جيوش الشام ، ولكن الخلاف بين هذه الجيوش كان قائما وعهد عبد الله السفاح الى عمه عبد الله بن علي بمحاربة مروان وتم اللقاء على نهر الزاب حيث دارت الدائرة على مروان ، ففر الى مصر بعد أن لم يصبح له نصير في بلاد الشام .

وصول مروان بن محمد الى مصر :

وصل مروان بن محمد الى مصر بعد هزيمته في العراق والشام : وقد عقد العزم على أن يتخذ من مصر ومن جيوشه بها ومن مساعدة ولاته في شمال افريقيا مركزا للمقاومة والوثوب بعد ذلك على العباسيين ولكنه لم يكد يصل الى مصر حتى كان نبأ هزيمته واندحاره قد سبقه اليها ، فانحاز أغلب ما بمصر من جنود الى العباسيين ولبسوا السواد شعاعهم .

كما انتهز الأقباط في مدينة رشيد وما حولها هذه الفرصة ليعلنوا الثورة على الحكم الاسلامي ، على أن مروان استطاع أن يقمع هذه الحركات والفتن كلها ، وكن العباسيين لم يمهلوه اذ بعثوا خلف مروان بجيش يطارده ، وكان على رأسه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ، ودارت آخر معركة بين مروان وبين العباسيين عند بلدة بوضير أبلى فيها ما وسعه الجهد حتى خر قتيلا وأخذ قاتلوه رأسه وبعثوا بها جريا على عادة ذلك الزمان الى الشام .

انتهاء دولة بني أمية :

وهكذا مات مروان بن محمد بعد حكم دام ست سنوات وخمسة أشهر وبضعة عشر يوما أمضاها كلها في حروب متصلة طاحنة ، حتى قيل أن ذلك هو سبب تسميته بالحمار لفرط ما عانى في حياته من متاعب وما كابده من مشاق .

وقد أصدر عبد الله السفاح أمره بعد موت مروان بقتل أمراء البيت الأموي حيثما وجدوا ، وأينما كانوا هم وكل من يلوذ بهم أو أقاربهم فنفذ ذلك الأمر بدقة وصرامة بحيث لم ينج من بنى أمية سوى أمير واحد وهو عبد الرحمن الأموي الذي هرب الى الأندلس ليؤلف بها أسرة حاكمة أموية .

ويعزو كثير من المؤرخين سبب سقوط الدولة الأموية الى ما ارتكبه بعض خلفائهم المتأخرين من ضروب الفسق والاستهتار والى ما وقع بين هؤلاء الخلفاء المتأخرين من تعصب قبلى آثار النزاع القديم بين القبائل المصرية واليمانية .

ولكن الذى لا جدال فيه أن السبب الرئيسى فى زوال الدولة الأموية هو تفرقها بين العرب والموالى من المسلمين وهى تفرقة ياباها وتنكرها روح الاسلام وتعاليمه . . فلما ان أخذ العباسيون جانب الموالى ، كان النصر حليفهم .

وكانت مدة خلافة الأمويين تسعين سنة .

الفصل التاسع

مصر في عهد الخلفاء العباسيين

٧٥٠ م - ١٢٣ هجرية : اماره صالح بن على العباسى على مصر :

ولى الخليفة عبد الله السفاح اماره مصر لصالح بن على ، صلاتها وخراجها ،
فعمل على تثبيت دعائم الحكم الجديد فى مصر فأمر للناس بأعطياتهم وقسم الصدقات
على الأيتام والمساكين وأبناء السبيل ، وزاد فى المسجد زيادة كبيرة وجعل على
شرطته ابنه هانى الكندى .

ثم ورد عليه كتاب السفاح يؤمره على فلسطين ويطلب منه أن يستخلف على
مصر فأستخلف أبا عون عبد الملك على الصلاة والخراج معا ، وغادر مصر الى
فلسطين .

اماره ابنى عون الاولى على مصر :

كان أبو عون عبد الملك بن يزيد من أهل جرجان من رجال دولة بنى العباس
وقد قدم الى مصر فى معية صالح بن على باعتباره أحد كبار القواد .

انشاء مدينة العسكر :

وقد نزل صالح بن على وأبو عون على رأس الجنود فى الصحراء الواقعة شمال
الفسطاط عند جبل يشكر (جامع ابن طولون حاليا) وكانت هذه النقطة تسمى فى
صدر الاسلام بالحمراء القصوى . فمألاً للجنود الفضاء ، فأمرهم أبو عون أن يبنوا
لهم دورا فبنوا . وكان ذلك هو منشأ مدينة العسكر ، التى لن تلبث أن تعمر لتصبح
مقاما للأمراء مصر فى عهد بنى العباسى ، وقد بنيت بها فيها بعد دار للأماره ومسجد
جامع عرف بجامع العسكر .

وسرعان ما اتسعت المدينة واتصل العمران بينها وبين مدينة الفسطاط .

٧٥٢ م - ١٣٥ هجرية : وفاة رابعة العدوية :

في هذه السنة توفيت بمدينة البصرة رابعة العدوية الزاهدة العابدة ، والتي بلغ من روعها وتقواها وزهدا ان سفيان النوري أحد الأئمة الفقهاء كان يتأدب معها هو ورفاق له .

٧٥٣ م - ١٣٦ هجرية : خلافة أبي جعفر المنصور :

عهد عبد الله السفاح عند موته بالخلافة الى أخيه جعفر المنصور وكانت سنه عندما ولي الخلافة تجاوز الأربعين وهو يعد المؤسس الحقيقي للدولة العباسية في كمال قوتها وقد ساد في عهده نظام الادارة المركزية . فقد ركز جميع السلطات في يده ، لم يسمح طوال حكمه بظهور طبقة من الولاة والحكام من أمثال عمرو بن العاص أو الحجاج بن يوسف أو زياد بن أمية .

امارة صالح بن علي الثانية على مصر :

كان عبد الله السفاح قبل موته قد ضم اماره مصر الى صالح بن علي فوق امارته لفلسطين . فقدم الى مصر في الخامس من ربيع الثاني من هذه السنة (١٣٦ هـ) وجعل على شرطة الفسطاط عكرمة بن عبد الله وجعل على شرطة العسكر يزيد بن هاني الكندي . وولى ابا عون المعزول عن امرة مصر جيوش المغرب بعث به كطليعة له الى افريقية والتي لم تكن أمورها قد استتببت لبنى العباس ، فوصل أبو عون الى برقة فلما ولي أبو جعفر المنصور الخلافة ، أقر عمه على اماره مصر ، ولكنه طالب منه أن يوقف حملة أبي عون الى افريقيا لحاجته اليه في فلسطين .

٧٥٤ م - ١٣٧ هجرية : مقتل أبي مسلم الخراساني :

في هذه السنة قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني صاحب الفضل الأكبر في قيام الدولة العباسية ، وذلك لتخوف المنصور من قوة نفوذه ، من أن تحدثه نفسه بالاستقلال بخراسان ، وخاصة بعد أن رفض أبو مسلم اماره مصر التي عينه أبو جعفر المنصور أميرا عليها .

فاحتال عليه حتى استقدمه آمنا الى مدينة الانبار التي اتخذها العباسيون مقرا لهم وأعد له كميناً من الجند ، واتفق معهم اذا سمعوه يصفق أن ينقضوا على أبي مسلم ويقتلوه . وهكذا غدر بأبي مسلم وقتل شر قتلة ولا جدال أن الانسـان يأبى أن يكون ذلك مصير الرجل الذي رفع قاتله الى العرش ، ولكن أبا مسلم من

ناحيته لم يتردد في قتل عشرات الالوف على ما روى التاريخ بكل وسائل القتل
تشبيها لدعوته ، وتدعيما لسلطانه .

بل لقد كان عوناً للمنصور على الغدر بابى مسلمة الخلال وزير العباسيين الاول
ثم ابن عم المنصور عبد الله بن علي .

ومثل هذا الطراز من الحياة والسلوك لا يمكن الا ان ينتهى بصاحبه كما انتهى
امر أبو مسلم ، وهو أن يشرب من الكأس التى طالما أسقاها للآخرين . كأس الغدر
والفيلة والظلم .

امارة أبى عون الثانية على مصر :

استدعى أبو جعفر المنصور عمه صالح بن علي ليستعين به على غزو الروم ،
فاستخلف صالح أبا عون على مصر صلاتها وخراجها ومضى الى فلسطين فأقر
أبو جعفر امارة أبى عون .

٧٥٥ م - ١٣٨ هجرية : عبد الرحمن الداخلى يترك الاندلس :

وصل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الى الاندلس
وملكها ، وسمى عبد الرحمن الداخلى ووصف بأنه صقر قریش ، ومنذ ذلك الوقت
استقلت نهائيا عن العباسيين .

٧٥٧ م - ١٤٠ هجرية : بناء مدينة بغداد :

وفي هذه السنة على ارجح الآراء شرع المنصور في بناء مدينة بغداد ، وقد ذكر
الدهبى وتابعه أمين باشا سامى على أن الشروع في بنائها كان عام ١٤٥ م ، ولكننا
نرجح التاريخ الذى أخذ به تغرى بردى ، ذلك انه ما دام من المتفق عليه أن المنصور
قد سكن بغداد عام ١٤٦ هـ فليس من المعقول أن يكون عام واحد كافيا لجعل المدينة
صالحة للسكنى بحيث ينتقل اليها المنصور .

بل أن هذا العام لا يكاد يكفى لبناء قصر المنصور وقبته الخضراء الشهيرة التى
كان ارتفاعها يبلغ ثمانين ذراعا .

وقد بنيت مدينة بغداد لأول مرة في التاريخ على شكل دائرة قطرها ميلان وكان
يحيط بها سوران مبنيان بالحجر الضخم وكان لها أربعة ابواب ، بين الباب والآخر
مائتا ذراع وكان الجامع والقصر هما أول ما بني بها . .

٧٥٨ م - ١٤١ هجرية : اماره موسى بن كعب على مصر :

عزل جعفر المنصور أبا عون عن امارته على مصر واستدعاه اليه في فلسطين ، وولى على امرتها وصلاتها وخراجها موسى بن كعب أحد نقباء بنى العباس فدخلها في شهر ربيع الثاني وجعل على شرطته عكرمة بن عبد الله وباشر حكم مصر « بحرمة وافرة » على ما يقول تغرى بردى .

امارة محمد الأشعث :

على ان جعفر المنصور لم يلبث أن عزل موسى بن كعب قبل أن يتم السنة في الامارة وولى بدلا منه محمد بن الأشعث على الصلاة والخراج ، ثم نزع منه الخراج وعهد به الى نوفل بن الفرات .

٧٦٠ م - ١٤٣ هجرية : اماره حميد بن قحطبة على مصر :

عزل المنصور محمد بن الأشعث وولى على اماره مصر حميد بن قحطبة على صلاتها وخراجها . وأرسله المنصور على رأس جيش من عشرين ألفا ليعيد غزو افريقيا ثم بعث اليه بمدد آخر ، وطلب منه أن يمضى لانفاذ ما طلبه منه ، فسار بالجيش حتى مدينة برقة واستولى عليها ، وعاد الى مصر .

عهد التدوين :

وفي هذه السنة شرع علماء المسلمين في تدوين الكتب في مختلف العلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير . ففي مكة صنف ابن جريح تصانيفه وفي البصرة صنف سعيد بن أبى عروية وحماد بن مسلمة ، وفي الكوفة صنف أبو حنيفة في الفقه والرأى ، وصنف الأذراعى بالشام وصنف مالك الموطأ بالمدينة ، وصنف ابن اسحق في المغازى ، وصنف معمر في اليمن وصنف شعبان الندرى كتاب الجامع ، ثم بعد ذلك صنف هشام كتبه وفي مصر صنف الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة . الخ .

وكثر تبويب العلم وتدوينه ، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، اما قبل هذا العصر فكان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويرددون العلم عن صحف صحيحة ولكنها غير مرتبة .

وبعد أن بدأ عصر التدوين ، سهل تناول العلم .

٧٦١ م - ١٤٤ هـ : اماره يزيد بن حاتم على مصر :

عزل ابو جعفر المنصور قحطبة عن اماره مصر وولى بدلا عنه يزيد بن حاتم فقدمها فى النصف من ذى القعدة فأقر على شرطتها عبد الله بن عبد الرحمن وعلى الخراج معاوية بن مروان ، وعلى القضاء ابا خزيمه ابراهيم بن يزيد . وكان يزيد بن حاتم ممدوحا شجاعا وتوجد فى مجموعه الآثار الأوزان الزجاجية لنقوده وما نقش عليها من كلمات .

٧٦٣ م - ١٤٦ هجرية : اتخاذ بغداد عاصمة للخلافة العباسية :

انتقل ابو جعفر المنصور فى هذه السنة من الانبار الى بغداد جاعلا منها عاصمة الدولة العباسية وتوافد عليها الخطباء والشعراء والعلماء من أرجاء المملكة مبتدئين بذلك عصر بغداد الذهبى حيث تتمثل الحضارة الاسلامية فى ازهى صورها .

٧٦٥ م - ١٤٨ هجرية : استتاب الملك لأبى جعفر المنصور :

وفى هذه السنة استتب الملك لأبى جعفر المنصور ولم يبق خارجا عن سلطانه الا الاندلس فعظمت هيئته فى النفوس ودانت له الامصار .

٧٦٧ م - ١٥٠ هجرية : قيام الأقباط بفتنة فى مدينة سخا :

تعددت انتفاضات الأقباط فى مدينة سمبود ولكنها انتفاضات قليلة الأهمية ويقضى عليها فى يسر وسهولة ، ولكن فى هذه السنة قام الأقباط فى مدينة سخا بأكبر حركة تمرد من نوعها حيث انضمت اليهم البلاد المجاورة واستطاعوا أن يدحروا كل القوات التى بعث بها يزيد بن حاتم لقمعهم .

ومن رأى لين بول أن هذه الانتفاضات كانت فى طبيعتها من تدبير العرب المسلمين الذين بدأوا يسكنون فى المدن الريفية والقرى فكانوا يستثيرون أهل البلاد .

وفاة الإمام أبى حنيفة النعمان :

وفى هذه السنة مات أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الاسلامى الشهير .

ولا نحسب أننا فى حاجة للحديث عن مكانة أو شخصية أبى حنيفة النعمان . فهناك مئات المجلدات التى أفردت لذلك . على أن أبا حنيفة سيبقى حتى فى عصرنا .

الحديث بمقاييسه الحديثية فوق ذروة لا يطاوله فيها انسان آخر اذ كان صاحب مذهب الاجتهاد في الشريعة بالرأى . فهياً بذلك للفقہ الاسلامى نظارة لا تبلى على مر الزمن .

٧٦٩ م - ١٥٢ هجرية : امارة عبد الله بن عبد الرحمن على مصر :

عزل المنصور يزيد بن حاتم وولى عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية على الصلاة يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الثانى ، ولم يول احدا على الشرطة ، وباشر ذلك بنفسه ، حيث كان قد ولاها من قبل لأكثر من أمير ، وولى الخراج محمد بن سميد .

٧٧١ م - ١٥٤ هجرية : تعيين عبد الله بن لهيعة قاضيا في مصر :

أصدر الخليفة لأول مرة في تاريخ الحكم الاسلامى أمره بتعيين عبد الله بن لهيعة قاضيا في مصر فقد كان تعيين القضاة قبل ذلك من اختصاص أمير مصر .

وابن لهيعة ممن حملوا لواء علم الحديث في مصر فكان يدونه ويتحرى عن اسناده ، ويرحل في طلبه . وقد نقل عنه الكندى الكثير من أخبار الفتح العربى لمصر . وهو تلميذ يزيد بن حبيب ، أما زميله في التلمذة فهو الايث بن سعد ، وعلى يد هؤلاء الثلاثة أمكن تدوين تاريخ مصر الاسلامى .

٧٧٢ م ١٥٥ هجرية : امارة محمد بن عبد الرحمن بن معاوية على مصر :

مات عبد الله بن عبد الرحمن أمير مصر ، وكان قد استخلف قبل موته أخاه محمد بن عبد الرحمن على الصلاة ، فأقر جعفر المنصور هذا الاختيار وقد جعل على شرطته العباس بن عبد الرحمن وسار في الناس سيرة مشكورة .

وفي أيامه خرجت عساكر مصر تحت قيادة يزيد بن حاتم لاقرار الأمن والنظام في إفريقيا ، فقام محمد بن عبد الرحمن بأمر هذه التجهيزات العسكرية ، فوصلت هذه الجيوش الى القيروان واحتلتها ، واصلحت سائر أحوال المغرب .

ومات محمد بن عبد الرحمن في شوال من هذه السنة .

امارة موسى بن على مصر :

استخلف محمد بن عبد الرحمن قبل وفاته موسى بن على الصلاة فأقره أبو جعفر المنصور عليها فجعل على شرطته أبا الصهباء محمد بن حسان الكلبى .

يقول تغرى بردى عن حكم موسى بن على :

وقد خرج عليه قبط مصر وتجمعوا ببعض البلاد فبعث موسى بعسكر فقاتلوا القبط وهزمهم ، فقتل قاداتهم وعفا عن سوادهم ، ثم راح يمهد أمور مصر فأحسن تمهيدها ، وكان فيه رفق بالرعية وتواضع وكان يتوجه الى المسجد ماشيا وصاحب شرطته بين يديه يحمل الحربة ، وكان اذا قام صاحب الشرطة الحدود بين يديه يقول له :

أرحم أهل البلاد .

وكان يحدث الحديث فيكتب عنه الناس .

٧٧٥ م - ١٥٨ هجرية : وفاة الخليفة جعفر المنصور :

وفى ذى الحجة من هذه السنة مات أبو جعفر المنصور عن بضع وستين عاما على خلاف فى عدد السنين فوق الستين .

وقد حكم منها اثنين وعشرين سنة، ويروى عنه حاجبه الربيع بن يونس قوله :
الخلفاء الراشدون أربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والموك بعدهم أربعة معاوية وعبد الملك وهشام وأنا .

كما يصف جلده على العمل بقوله : كان يصلى الفجر ثم يجلس وينظر فى مصالح الرعية الى أن يصلى الظهر ، ثم يعود الى ذلك الى أن يصلى العصر ثم يعود الى أن يصلى المغرب ، فيقرأ ما بين المغرب والعشاء ثم يصلى العشاء ويجلس مع سماره الى ثلث الليل الأول فينام الأوسط ثم يتنبه الى أن يصلى الفجر وهكذا .

وقيل على ما روى الطبرى أن ولاة البريد فى الآفاق كانوا يكتبون له فى كل يوم عن سعر القمح والحبوب والآدم وبسعر كل مأكول . ويكاد ما يقضى به القاضى فى نواحيهم وما يعمل به الوالى وبما يرد الى بيت المال وكل حدث وكانوا اذا وصلوا المغرب يكتبون اليه بما كان فى كل ليلة . فكان يطالع كل ما يكتبون ويراجع كل امر .

ويستعلم ويستفسر عن سبب هذا أو ذاك .

وقد مات وفى بيت المال على ما يقول صاحبه الربيع مائة ألف درهم .

والحكايات عن بخله وخاصة فى عطايا الشعراء كثيرة ومستفيضة ، وقد لقب بالدوانيقي لحاسبته عماله وتابعيه على الدانق .

ويأخذ عليه الكثيرون غدره بأبي مسام الخراساني إلا أن هذه كانت تغفر له باعتبارها من مصالح الدولة العليا . فان مالم يقبل منه هو تحالفه مع ملك الفرنجة ضد عبد الرحمن الداخل . فكان ذلك أول الوهن في الصف الاسلامي والذي انتهى بإزالة حكم الاسلام من الأندلس .

خلافة محمد المهدي :

ولى الخلافة محمد المهدي بن جعفر المنصور بعهد من أبيه وكان أول ما فعله أن فتح الخزائن وفرق ما بها من الأموال على الجند والناس وأطاق من في الحبوس واعتق جاريته الخيزران وتزوجها وهى التى أنجبت له ولديه الهادي والرشيد .

٧٧٧ م - ١٦١ هـ : امة عيسى بن لقمان على مصر :

عزل الخليفة المهدي موسى بن على عن امة مصر وولاها لعيسى بن لقمان على الصلاة والخراج فجعل على شرطته الحارث بن الحارث المجمعى ، وسكن مدينة العسكر . على أن امارته لم تطل او لم تدم أكثر من أربعة شهور .

٧٧٨ م - ١٦٢ هـ : امة واضح المنصورى على مصر :

عزل المهدي عيسى بن لقمان ، وولى بدلا عنه واضح بن عبد الله المنصورى ، وجمع له الصلاة والخراج ، وقد جعل على شرطته موسى بن زريق ولكنه كان شديدا في حكمه ، فاشتكى منه أهل مصر فعزله المهدي ، فلم تزد مدة ولايته على ثلاثة شهور على أنه بقى عاملا على بريد مصر .

امة منصور بن يزيد :

ولى المهدي على امة مصر ابن خاله منصور بن يزيد فجعل على شرطته هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن على أن المهدي لم يبقه سوى شهرين ونصف الشهر ثم عزله وولى يحيى بن داود .

امة يحيى بن داود :

ولى مصر يحيى بن داود الشهير بابن ممدود الأمير أبو صالح الخرشي وجعل على شرطته عسامة بن عمرو .

وكان أبو صالح المذكور تركيا اشتهر بشدة البأس وقوة الجنان مع المعرفة والتدبير ، وقد هاله عندما قدم الى مصر أن وجد سبها مخيفة لا يأمن السائر فيها على نفسه لكثرة المفسدين وقطاع الطرق . فأخذ على نفسه قمع المفسدين وابداتهم ، حتى قتل منهم جماعة كثيرة فعظمت حرمة وتزايدت هيبة في قلوب الناس . حتى

تجاوز الحد ، فمنع الناس من غلق الدروب والأبواب أو غلق الحوانيت ، أمعانا في الأمان واستحالة السرقاته وكان ينادى بمصر ويقول من ضاع له شيء فعلى اداؤه . فلم يحدث أن فقد إنسان ايا من حوائجه .

قال صاحب اليقين : وهو أحد من مهد الديار المصرية وأباد أهل الخوف من قيس ويمنى وغيرهم من قطاع الطرق، وكان من أجل امراء مصر لولا شدة كانت فيه.

٧٨١ م - ١٦٤ هـ : اماره سالم بن سواده على مصر :

عزل الخليفة المهدي يحيى بن داود وولى سالم بن سواده التميمي امرا على مصر . فجعل على شرطته الأخضر بن مروان ، وولى أبو قطيفة اسماعيل بن ابراهيم على الخراج .

هارون الرشيد يغزو الروم :

وفي هذه السنة غزا هارون الرشيد بن المهدي بلاد الروم حتى وصل الى خليج القسطنطينية ، واضطرت ملكة الروم أن تتصالح معه على أن تدفع للمسلمين جزية قدرها سبعون ألف دينار لمدة ثلاث سنوات .

٧٨٢ م - ٦٥ هـ : اماره ابراهيم بن صالح على مصر :

عزل الخليفة المهدي سالم بن سواده، وولى على مصر ابن عمه ابراهيم بن صالح، على الصلاة والخراج فدخل مصر يوم ١١ المحرم وجعل على شرطته عسامة بن عمرو.

ثورة امير اموى بالصعيد :

وفي ولاية ابراهيم بن صالح أعلن في الصعيد أحد أحفاد عبد العزيز بن مروان واسمه دحية خلعته للمهدي من الخلافة ودعا الى فتنة وقد أهمل ابراهيم بن صالح شأنه ، فاستفحل أمره وغلب على بعض مدن الصعيد .

٧٨٤ م - ١٧٦ هـ : موت بشار بن برد :

توفي في هذه السنة بشار بن برد الضير الشاعر المشهور وقد ولد أعمى جاحظ العينين ، وكان ضخما عظيم الخلقة والوجه مجدرا طويلا ، وكان يرمى بالزندقة .

وهو صاحب البيت المشهور في وصف الحرب الذي فاق به البصريين :

كان مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

ومن أشعاره الخالدة التي تجرى مجرى الأمثلة :

يا قوم اذنى لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

٧٨٤ م - ١٦٧ هـ : اماره موسى بن مصعب على مصر :

عزل المهدي ابن عمه ابراهيم بن صالح عن اماره مصر لفشله في معالجة فتنة دحية الاموى وولى على مصر موسى بن مصعب فدخلها في ٧ ذى الحجة وجعل على شرطته عسامة بن عمرو . وراح يتشدد في جمع الخراج ، وضاعف في قدره ، ولقى الناس منه شدة وعنفاً ، وساءت سيرته وارثى في الاحكام .

وفرض الضرائب على اهل السوق والدواب ، فكرهه الجند وكرهته الرعية : ولذلك انتهزوا فرصة تصديه لحرب عرب الحوف فانهزموا عنه وخلوا بينه وبين محاربيه فسقط قتيلاً : ولم يجد انساناً واحداً في مصر يحرك من اجله اصبعاً .

٧٨٥ م - ١٦٨ هـ : اماره عسامة بن عمرو على مصر :

كان موسى بن مصعب قبل توجهه لحرب دحية قد استخاف على الصلاة عسامة ابن عمرو : فأقره المهدي عليها .

٧٨٦ م - ١٩٦ هـ : وفاة الخليفة محمد المهدي :

توفي أمير المؤمنين محمد المهدي ثالث الخلفاء من بنى العباس وكان عمره حين مات اثنتين وأربعين سنة حكم منها ثيف وعشر سنوات .

وكان الخليفة المهدي محبوباً من الشعب ومن العلماء والشعراء لكثرة ما أجزل للجميع من العطايا ، وقد كثر في عهده البناء والتعمير والانشاء ، فوسع في المسجد النبوي توسعة كبيرة ، وكسا الكعبة وبني محطات ومنازل على جوانب الطريق التي سالكها الحجاج وأقام أحواضاً لخزن المياه ليشربوا منها . ونظم البريد من بغداد الى مكة لأول مرة وهو أول من جعل طعام المسجونين على حساب الدولة بعد أن كان يرسل لهم من بيوتهم .

وقد بدأ في عصره ظاهرة سماع الخليفة العباسي للفناء ، ومن الخليفة سري التقليد الى بقية الكبراء : وبدأ تاريخ الدولة العباسية يتسم بسمة الابهة والترف .

خلافة موسى الهادي :

اعتلى الهادي عرش الخلافة بعهد من أبيه على أن الخلافة لم تستمر أكثر من سنة .

امارة الفضل بن صالح على مصر :

وكان المهدي قبل وفاته قد ولى على مصر الفضل بن صالح بن علي الأمير العباسي وبعث معه باليوش للقضاء على فتنة دحية الاموى : وولاه على الصلاة والخراج

وجعل على شرطته عسامة بن عمرو الذي كان اميرا قبيله ولم يكد يصل الى مصر ، حتى توفي المهدي فامر به الهادي على امارته .

وقد استطاع ان يقضى على فتنة دحية وان يقضى عليه ويقتله فكان الفضل يتفاخر بهذا النجاح ويرى نفسه احق الناس بالاستمرار في امرة مصر ، وانشأ جامعا كبيرا في مدينة العسكر . فكان ذلك مما أدى الى عزله خوفا من أن يطمع في الاستقلال بمصر . وفي مجموعة الاثار توجد الاوراق والقوالب الزجاجية لنقود الفضل بن صالح التي صكها .

امارة على بن سليمان على مصر :

ولى الهادي بعد عزل الفضل بن صالح . . . على بن سليمان على صلاة مصر وخارجها فجعل على شرطته عبد الرحمن بن موسى اللخمى ، ثم لم يلبث أن عزله وولى على الشرطة الحسين بن يزيد الكندي .

وكان على بن موسى عادلا وفيه رفق بالرعية . . وكان آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر .

٧٨٧ م - ١٧٠ هـ : وفاة الخليفة موسى الهادي :

مات الخليفة موسى الهادي وكانت سنه يوم وفاته خمسا وثلاثين سنة اما حكمه فاهم يزد على سنة واحدة وشهرين . . وكان موته بسبب قرحة اصابته وقيل ان امه الخيزران هي التي سعت الى موته عندما تحسداها ومنع تدخلها في الشؤون العامة حتى لقد هددتها بأنه سيضرب عنق أى أمير يقف ببابها ودعاها الى الاشتغال بمغزلها أو تلاوة المصحف . . ويستبعد الدكتور على ابراهيم حسن في كتابه هذه الواقعة على أساس من حنان الام : مع أن التاريخ حافل كما رأينا بعشرات الامهات اللواتي ضحين بأولادهن من أجل النفوذ والسلطان .

على أن الدكتور على ابراهيم حسن يعود القتل الراوية على أساس أن الهادي فكر في حرمان أخيه الرشيد من ولاية العهد : واذا كانت الخيزران تحب الرشيد فقد تكون بالفعل سعت الى موته .

خلافة هارون الرشيد :

ارتقى هارون الرشيد عرش الخلافة وهو الابن الثانى للمهدي وكان عمره يوم وليها خمسا وثلاثين سنة وهو المع الشخصيات في الدولة العباسية وأكثرهم شهرة في الغرب لما كان بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود وقد أصبحت بغداد في أيامه حاضرة الدنيا الاولى وتحوّلت الى كعبة رجال العلم والادب ومركز التجارة العالمية .

١٨٨ م - ١٧١ هـ : اماره موسى بن عبيسي على مصر :

ولى هارون الرشيد اماره مصر موسى بن عبيسي احد امراء بني العباس وذلك بعد ان عزل على بن سليمان . . اما سبب عزل على بن سليمان فهو تعلق مسلمي مصر به لكثرة ما تصدق به : ولتخمينه للدين مما جعله يهدم الكنائس التي احدثها الاقباط في مصر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وتجمع حوله من يزینون له صلاحيته للخلافة ، ووشى به عند الرشيد فعزله .

وقد جعل موسى بن عيسى على الشرطة أخاه اسماعيل ثم عزله وولى عسامة ابن عمرو وكان موسى بن عيسى جوادا كريما وكان رفيقا بالرعية محسنا لها .

ولم يقف بره كسلفه عند حد المسامحة بل شمل الاقباط أيضا ولذلك فقد اذن لهم ان يعيدوا بناء الكنائس التي هدمها سلفه وقد اذن بذلك بناء على مشورة الليث ابن سعد امام مصر وحجتها وعبد الله بن لهيصة قاضيها ، على اساس ان هدمه الكنائس قد بنيت في الاسلام وفي زمن الصحابة والتابعين فلم يعد يجوز هدمها .

٧٨٨ م - ١٧٢ هـ : اماره مسلمة بن يحيى على مصر :

صرف الرشيد موسى بن عيسى عن اماره مصر خوفا كما يبدو من تطلعه للاستقلال بها وولى مسلمة بن يحيى بن قرة البجلي الخراساني ، على الصلاة : فجعل على شرطته ابنه عبد الرحمن : وكان عمرو بن غيلان على الخراج .

٧٨٩ م - ١٧٣ هـ : اماره محمد بن زهير الازدي :

عمت الفتن في ايام مسلمة بن يحيى في ارجاء مصر فعزله هارون الرشيد وولى محمد بن زهير الازدي على الصلاة والخراج : فاستعمل على الخراج عمرو بن غيلان وجعل على شرطته حنك بن العلاء ثم استبدله بحبيب بن ابان العجلي .

وقد اشتد عمرو بن غيلان على الناس واهل الخراج فنفرت منه القلوب وثار عليه الجند وحاصروه في داره فلم يدافع عنه محمد بن زهير فغضب هارون الرشيد لذلك عندما بلغه الخبر وعزل محمد بن زهير .

٧٩٠ م لا ١٧٤ هـ : اماره داود بن يزيد على مصر :

هو داود بن يزيد بن حاتم ولاء هارون الرشيد بعد عزل محمد بن زهير على الصلاة وولى ابراهيم بن صالح بن على العباسي على الخراج .

وفاة عبد الله بن الهبة :

وفي هذه السنة مات عبد الله بن الهبة الامام الحافظ عالم الديار المصرية وفاضليها ومحدثها .

٧٩١ م - ١٧٥ هـ : امارة موسى بن عيسى الثانية :

عزل هارون الرشيد داود بن يزيد وأعاد الى امارة مصر موسى بن عيسى وجمع له صلاة مصر وخراجها .

وفاة الليث بن سعد :

وفي هذه السنة مات فقيه مصر الليث بن سعد الذي استنطاع بعلمه أن يصبح كبير الديار المصرية ورئيسها ، فكان القاضي والنائب تحت امره ومشورته حتى قال أحد الشعراء بحرض جعفر المنصور عليه :

أمير المؤمنين تلاف مصرا فان أميرها ليث بن سعد

وأتكن ورع الليث بن سعد وعلمه حماء من هذه الوشابات، وكان التسامح يقول عنه : الليث أفقه من مالك الا أن أصحابه لم يقوموا به .

وقد جرت بين الليث بن سعد والامام مالك مراسلات مسجلة في كتب الفقه تشهد بعلو كعبه وتدينه .

٧٩٢ م - ١٧٦ هـ : امارة ابراهيم بن صالح الثانية :

طمع موسى بن عيسى أمير مصر في الاستقلال بها فعزله الرشيد وولى بدلا عنه ابراهيم بن صالح الذي ولى على الصلاة قبل مقدمه الى مصر ، عسامة بن عمرو ، وولى نصر بن كلثوم على الخراج ثم ارسل روح بن روح بن زبياع على الصلاة والخراج حتى قدم بنفسه في منتصف شهر جمادى الأول وكان على شرطته خالد بن يزيد وكان ابراهيم بن صالح من وجوه بنى العباس ، وكان خيرا ، دينا ، ممدوحا ، ولكن أيامه لم تطل فقد توفي في شعبان .

بيعة الرشيد لولديه الأمين والمأمون :

في هذه السنة عقد الرشيد البيعة من بعده لابنه محمد الأمين ثم لعبد الله المأمون ، وكتب كتابا بهذا العهد علقه في الكعبة . وكان المأمون أسن من الأمين بنهر واحد ، ولكن الأمين كانت أمه زبيدة وهى هاشمية ، أما المأمون فأمه أم والد فارسة وقد أقام هارون المأمون حاكما على الشرق .

وقد جدد هارون هذه البيعة فيما بعد أكثر من مره بعد أن ضم اليها ابنه الثالث القاسم ليكون خليفة بعد الاثنين .

امارة عبد الله بن المسيب :

ولى الرشيد عبد الله بن المسيب امارة مصر بعد وفاة ابراهيم بن صالح ، فقدم مصر فى ١٩ رمضان فى هذه السنة : ونزل بالمعسكر وجعل على شرطته ابا المكيس .

٧٩٣ م - ١٧٧ هـ : امارة اسحق بن سليمان :

عزل الرشيد عبد الله بن المسيب : وولى على مصر اسحق بن سليمان الهاشمى العباسى وجمع له الصلاة . والخراج ، فجعل على شرطته مسلم بن بكار العقيلي .

وقد زاد اسحق بن سليمان فى الضرائب المفروضة على المزارعين زيادة فاحشة فكرهته الناس وخرج عليه جماعة اهل الخوف من قيس وقضاة فجارهم ، ولكنهم استطاعوا ان يقتلوا عددا كبيرا من حاشيته وجنده ، فكتب بعلم الرشيد بما حدث فعزله .

٧٩٤ م - ١٧٨ هـ : امارة هرثمة بن ايمن :

ولى الرشيد هرثمة بن ايمن على مصر صلايتها وخراجها ، وأوفد معه جيشا كبيرا لافرار الامن بها ، ولكى يتوجه بعد ذلك الى شمال افريقيا .

اماره عبد الله بن صالح :

بعد ان انصرف هرثمة وجيوشه عن مصر قاصدا افريقيا ولى الرشيد على صلاة مصر وخراجها عبد الملك بن صالح ، فلم يقدم الى مصر واستخلف نيابة عنه عبد الله ابن المسيب الذى جعل على شرطته عماد بن مسلم .

٧٩٥ م - ١٧٩ هـ : امارة عبد الله بن المهدي :

ولى الرشيد اخا له وهو عبد الله بن المهدي فعهد اليه بصلاة مصر وخراجها فاستخلف عليها داود بن حباش وأرسله اليها ثم لحق به فى شعبان من هذه السنة وجعل على شرطته معاوية بن صدر . ثم عمار بن مسلم .

وفاة الامام مالك بن أنس :

توفى بالمدينة المنورة الامام مالك بن أنس شيخ الاسلام وامام دار الهجرة ومؤلف الموطأ وهو أول جمع منظم للأحاديث النبوية وصاحب المذهب المشهور .

قال الشافعى فى وصفه اذا ذكر العلماء فمالك هو النجم ، وما فى الارض كتاب أكثر صوابا من الموطأ .

وكان مالك عظيم الجلال كبير الوقار غزير العلم متشددا في دينه .
وكان رجلا طوالا جسيما عظيم الهامة أشقر اصلع عظيم اللحية عريضها (١) .

امارة موسى بن عيسى الثالثة :

عزل الرشيد أخاه عبد الله وولى موسى بن عيسى على الصلاة فقط فاستخلف ابنه يحيى ثم قدم مصر في شهر ذى القعدة ، على أن الرشيد لم يلبث أن صرفه عن مصر وأعاد أخاه عبد الله بن المهدي للمرة الثانية .

٧٩٦ م - ١٨٠ هـ : امارة عبد الله بن المهدي الثانية :

ولاه الرشيد على الصلاة ، فاستخلف داود بن حبشى على الصلاة الى ان قدم بنفسه الى مصر في ٤ شعبان من هذه السنة .

هدم منارة الاسكندرية :

في هذه السنة وقع زلزال عظيم في مدينة الاسكندرية سقط بسببها رأس منارة الاسكندرية الشهيرة فكان ذلك أول تصدع أصابها بعد أكثر من ألف سنة على انشائها .

وفاة سيبويه امام النحو :

وفي هذه السنة توفي ببلاد فارس (٢) ، أبو بشر عمر بن عثمان البصري امام النحاة المشهور على أثر مناقشة دارت في بغداد بينه وبين الكسائي : وهو مؤلف كتاب النحو الذي لم يسبقه أو يلحقه كتاب في النحو ، ومن عجب ان يكون أعظم مؤلف في النحو فارسيا وأن يحقق هذا النبوغ في سن الثانية والثلاثين والذين يطايون لا يتجاوزون به الأربعين .

٧٩٨ م - ١٨٢ هـ : امارة اسماعيل بن صالح :

عزل الرشيد أخاه عبد الله بن المهدي للمرة الثانية بعد ولاية لم تزد على سنة وثلاثة أشهر : وولى أميرا عباسيا آخر وهو اسماعيل بن صالح على صلاة مصر فاستخلف عون بن وهب الخزاعي حتى حضر بنفسه في ٢٥ رمضان وجعل على شرطته سليمان بن الصمة ثم صرفه بيزيد بن عبد العزيز الفسائي وأخذ في اصلاح الديار المصرية وكان فصيحاً عاقلاً أديباً شجاعاً .

(١) اقرا كتاب الامام مالك لابي زهرة وللشيخ امين الخولى .

(٢) اعلام الثقافة العربية - سيبويه ص ١٦ .

٧٩٩ م - ١٨٢ هـ : اماره اسماعيل بن عيسى :

عزل الرشيد اسماعيل بن صالح وولى اسماعيل بن عيسى العباسي الهاشمي على الصلاة . فقدم مصر في ١٦ جمادى الثاني على أنه لم يمكث بها الا ثلاثة شهور ثم عزله الرشيد .

امارة الليث بن فضل على مصر :

ولاه الرشيد بعد عزل اسماعيل بن عيسى على الصلاة والخراج ، فقدم مصر في الخامس من شوال وجعل على شرطته أخاه على بن الفضل .

٨٠٢ م - ١٨٦ هـ : ثورة أهل الحوف على الليث :

ثار أهل الحوف على الليث بن الفضل وتعذر عليه جمع الخراج فطلب من الرشيد أن يبعث إليه جيشا لتحصيل الخراج ولكن محفوظ بن سليمان تعهد للرشيد أنه قادر على جمع الخراج بغير حاجة الى جيش ، فأرسله عاملا على الخراج : فتمكن بالفعل من جمع الخراج بغير حاجة لاستعمال العنف فكان سببا في عزل الليث بن الفضل .

٨٠٣ م - ١٨٧ هـ : اماره أحمد بن اسماعيل :

هو أحمد بن اسماعيل الهاشمي العباسي ولاه الرشيد على صلاة مصر بعد عزل الليث بن الفضل ، فقدمها في ٢٥ جمادى الثاني وجعل على شرطته معاوية بن جرد نكبه البرامكة :

وفي هذه السنة نكب الرشيد البرامكة : نكبتهم المشهورة بعد أن ترك ليحيى ابن خالد البرمكى وأولاده شئون الحل والعقد في الدولة ، وجعل من جعفر البرمكى خلا له وصديقا لا يستطيع مفارقتها لحظة ، حتى إذا بلغ نفوذ البرامكة الاوج أصدر الرشيد امره بقتل جعفر البرمكى وسجن ابنه يحيى وأخاه الفضل وايداع باقى الأسرة السجن ، ومصادرة أموالهم ، واضطهاد كل من يشيد بذكرهم .

وقد قيات اتاحيص كثيرة في أسباب هذه النكبة ، ولكن من المحقق أنه نفس السبب الذى أدى الى مصرع أبى مسلم الخرساني وهو خشية الحاكم عن نفوذه من الضياع من أعوانه الاقوياء .

٨٠٥ م - ١٨٨ هـ : اماره عبد الله بن محمد :

عزل الرشيد أحمد بن اسماعيل : وولى اماره مصر على الصلاة الامير العباسي

الهاشمى عبد الله بن محمد فقدم مصر يوم السبت ١٥ نوال وجعل على شرطته احمد بن موسى العدرى ثم عزله وولى محمد بن عسامة .

٨٠٦ م - ١٩٠ هـ : اماره الحسين بن جميل :

عزل الرشيد عبد الله بن محمد العباسى وولى الحسين بن جميل مولى أبى جعفر المنصور ، أميرا على مصر فولاه الصلاة فقدم اليها يوم الخميس ١٠ رمضان وسكن المعسكر وجعل على شرطته كاملا الضائى تم معاوية بن حرد ، ثم جمع له الرشيد بين الصلاة والخراج ، فلما ولى الخراج شدد فيه فخرج عليه أهل الخوف بالشرق ، وامتنعوا عن أداء الخراج : فأرسل اليهم الرشيد جيشا ودهم الى الطاعة وادوا ما عليهم من الخراج .

مقدم الشاعر الحسن بن هانى (أبو نواس) الى مصر :

قدم الى مصر الحسن بن هانى (أبو نواس) شاعر العباسيين أملا فى نوال الخصيب ، وديوان أبى نواس ملئ بالقصائد حول هذا المعنى .

امت الخصيب وهذه مصر فتدققا فكلكما بحر

وذكر السيوطى أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا للاجتماع بأبى نواس ومصاحبته وكتابة شعره .

٨٠٨ م - ١٩٢ هـ : اماره مالك بن دلهم :

عزل الرشيد الحسين بن جميل وولى مالك بن دلهم بن عيسى أميرا على مصر صلاتها وخراجها فقدمها يوم الخميس ٢٣ ربيع الأول وجعل على شرطته محمد ابن توبه بن آدم .

٨٠٩ م - ١٩٣ هـ : وفاة الخليفة هارون الرشيد :

توفى هارون الرشيد عن خمس واربعين سنة حكم فيها ثلاثة وعشرين سنة وشهرين . وهو أشهر خلفاء المسلمين بعد الخلفاء الراشدين لكثرة ورود اسمه فى الادب الشعبى كما هو ممثل فى حكايات ألف ليلة وليلة ونوادى أبى نواس .

واذا كان عصر عبيد الملك بن مروان يعتبر عصرا عربيا فان عصر الرشيد كان عصرا فارسيا من حيث نظام الحكم ومديرية وصفة الحياة الاجتماعية التى أصبح محببا فيها كل ما هو فارسى ، اما أمراء الجيش وقواده جميعا ففسدوا من الفرس .

وحسبنا أن نشير الى ما وصل اليه البرامكة قبل نكبتهم .. وقد اتصف هارون الرشيد بالكرم والجود فكان يعطى الكثير من الهبات للشعراء الذين يمدحونه ، وكان يفدق العطايا والاموال على الناس في المواسم . وعلى الرغم من ذلك فقد ترك وراءه خزائنه عامرة بالمال يقدر ما فيها بـ ١٨ مليون دولار على ما يقول ول دورانت .. وليس وراء ذلك دليل على ما وصات اليه الدولة في عهده من غنى واستقرار وازدهار .

وقد امتلأ بلاط الرشيد في بغداد بالعلماء والشعراء والادباء والمغنيين واقطاب الموسيقى : من أمثال ابي العتاهية وأبى نواس والعباس بن الاحنف والاصمعي والكسائي والواقدي .. يتوج هؤلاء أبو يوسف صاحب كتاب الخراج ، كما اشتهر من رجال الفناء ابراهيم الموصلي واسحق الموصلي .

الرشيد وشارلمان :

الرشيد هو أشهر ملوك الاسلام في تاريخ أوربا في العصور الوسطى للعلاقات الودية التي نشأت بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة وباعث الامبراطورية الرومانية المسيحية .

ومما يؤسف له أن هذه العلاقات الودية كانت على حساب العداء المشترك للدولة الاموية في الاندلس .

وقد أفاضت المصادر الفرنجية في وصف الهدايا التي كان الرشيد يبعث بها الى شارلمان ، وكيف كانت تبهر الافرنج حتى ليعدوها من صنع الجان كما هو الشأن في موضوع الساعة المائية الدقيقة . ولم يقل تأثير الفيل الذي أهده الرشيد لشارلمان عن أثر الساعة .

خلافة محمد الأمين :

ولى محمد الأمين الخلافة بعهد من أبيه هارون الرشيد ، غير أنه لم يكد يليها حتى أقدم على فعل ما فعله خلفاء بني أمية من قبله عندما كانوا يخلعون اخوانهم من ولاية العهد لحساب ابنائهم .. ولذلك فقد خلع الأمين أخاه من ولاية العهد وجعلها لابنه موسى من بعده .

فشب الخلاف بين المأمون الذي كان يقيم في خراسان ويحكم في الشرق ويمثل العنصر الفارسي الذي بدأ يطفئ على الدولة الاسلامية وبين الأمين الذي كان يقيم في بغداد وتلوذ به العناصر العربية التي تحاول أن تتشبث بسابق نفوذها وسيادتها .

امارة الحسن بن البجراح على مصر :

كان الأمير على مصر عند وفاة هارون الرشيد هو الحسن بن البجراح وكان قد وليها بعد عزل مالك بن دلهم « وقد ورد اسمه بهذا الضبط » (البجراح) في كتاب أمين باشا سامي وفي النجوم الزاهرة ، ولكن في كتاب القريري وفي الكسندى الحسن بن التختاخ وهو ما اختاره لين بول . »

وقد ولى صلاة مصر وخراجها .. فلم يكذ يهمل الى مصر حتى جاء الخبر
ينعى هارون الرشيد واستنخلاف الامين فنار الجند على الحسن وقتلوه فقتلهم
وجرت بين الاثنين مقتلة عظيمة .

٨١٠ م - ١٩٤ هـ : اماره حاتم بن هرثمة :

عزل الامين حاتم بن هرثمة وولى عليها جابر بن الاشعب وجمع له الصلاة
وخراجها فجعل على شرطتا ابنه ثم عزله بغيره بعد ذلك واستقر على امرة مصر
ومهد امورها وابتنى بها القبة المعروفة بقبة الهواء .

ميلاد البخارى :

وفي هذه السنة ولد ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى امام جامعى
الاحاديث النبوية .

١٩٥ هـ - اماره جابر بن الاشعب على مصر :

عزل الامين حاتم بن هرثمة وولى عليها جابر بن الاشعب وجمع له الصلاة
والخراج فقدم مصر يوم الاثنين ٢٥ جمادى الثانى واستخلف على الصلاة يحيى
ابن يزيد المرادى .

معركة الرى بين الامين والمأمون :

وقعت معركة الرى بين الامين والمأمون وكان على جيش الامين عيسى بن ماهان
فى عسكر كثيف : وعلى عسكر المأمون طاهر بن الحسين فى اقل من اربعة آلاف .

فتمت الغلبة للطاهر بن الحسين ، وبعث للمأمون يقول له :

كتابى الى امير المؤمنين ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى اصبعى وجنده
تسبى امرتى والسلام .

ثورة السرى بن الحكم على والى الامين فى مصر :

احدثت هذه رلهزيمة الساحقة اثرها فى مصر فوثب السرى بن الحكم ومعه
جماعة من المصريين منادين بخلع الامين ومبايعة المأمون ، ولما حاول جابر أن يتصدى
لهذه الحركة ، قاتله السرى بن الحكم وهزمه وأخرجه من مصر . وعقد بيعة الناس
للمأمون .

١٩٦ هـ - اماره عباد بن محمد :

ولى المأمون على اماره مصر عباد بن محمد بن حبيب البلخي وكان عباد يعمل قبل ذلك وكيلا على ضياع هرثمة في مصر . فلما أن ولى الامارة جعل على شرطته هبرة بن هاشم بن حديج .

وكتب الأمين من ناحيته الى ربيعة بن قيس رئيس فيس الحوف بمصر بولاية مصر ، فقام أهل الحوف بخلع المأمون ومبايعة الأمين من جديد ، وساروا لمحاربة عباد وأصحابه فانصروا عليه ، وبعثوا به الى الأمين فأعدمه .

١٩٧ هـ - وفاة ورث شيخ القراء في مصر :

مات في هذه السنة أبو سعيد أمام القراء وهو على إحدى الروايات عثمان بن سعيد بن عدي بن غزران بن داود بن سابق (القبطي المصري) وشيخه نافع وهو الذي لقبه ورثا نشدة بياضه وانتهت اليه رئاسة القراء بالديار المصرية .

٨١٣ م - ١٩٨ هـ : وفاة الخليفة محمد الأمين :

قتل الخليفة محمد الأمين في مدينة بغداد بعد حصار عنيف للمدينة قام به قائد المأمون طاهر بن الحسين من ناحية وهرثمة بن عيسى من ناحية أخرى ولقد لاقت بغداد شذائد وأهوالا من جراء هذا الحصار ووقف الشعب الى جانب محمد الأمين الذي باع كل مافي خزائنه من الأمتعة ليصرف على الجند وحول كل ما كان في قصره من ذهب الى دنائير ، حتى اذا اسفط في يده ، وأصبح صفر اليدين من كل شيء . نصح له الناصحون أن يتنازل عن الخلافة لأخيه ويسلم لهرثمة ولكن رجس طاهر بن الحسين أبو الا ان يقتلوه ويبعثوا برأسه الى المأمون الذي حزن اشد الحزن لمقتل أخيه على هذه الصورة .

والصراع بين الأمين والمأمون هو آخر محاولة من العناصر العربية للاحتفاظ بمواضع السلطة والنفوذ ، ضد سلطان الفرس وبقية الأجناس الاسلامية الزاحفة ومن سوء حظ العناصر العربية ان مثلها وهو الأمين كان أخا صيد ولهو وموسيقى وشراب حتى لقد ظل وسط الأزمات والمحن لا يكف عن ممارسة الوان مجنونه وتعبته حتى اعتبر مجنونا ، وكان سنه عندما قتل في بعض الآراء عشرين سنة ، ولكن الطبري يرجح أن يكون عمره ثمانى وعشرين سنة .

خلافة عبد الله المأمون :

وعلى النقيض من الأمين كان المأمون جادا وقورا شغوفا بالعلم منذ صباه متعمقا في دراسة الفلسفة حتى لقد اعتبر من أساطين العلماء في عصره بأكثر مما يعد في دهاة السياسة .

وام المأمون فارسية وفد ولد عام ١٧٠ هـ قبل الأمين بشهر ، وقد ولاه الرشيد ابن حبابه خراسان فافام بها فأصبح أكثر ميلا للفرس منه للعرب ، حتى لقد فوض كل امره الى الفضل بن سهل الفارسي وعهد اليه برئاسة القلم والسياف مطلقا عليه اسم ذوالرئاستين .

ولم يشأ عند توليه الخلافة أن ينتقل من خراسان الى بغداد عاصمة الملك فظل في مصر . تاركا للحسن بن سهل ادارة شئون الدولة .

امارة عبد المطلب بن عبد الله على مصر :

ولى المأمون عبد المطلب بن عبد الله بعد عزل عباد بن محمد على صلاة مصر وخارجها . فقدم الى مصر من مكة في النصف من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، وجعل على الشرطة هبيرة بن هاشم ، ثم راح يبدل ويغير رؤساء شرطته لكثر ما وقع في عهده من اضطرابات وفتن ، مما جعل المأمون يبادر بعزله قبل أن يتم سنة .

امارة العباس بن موسى على مصر :

ولى المأمون الأمير العباسي الهاشمي العباس بن موسى على الصلاة والخراج . فقدم ابنه عبد الله امامه في ٢٨ شوال من هذه السنة .

وعندما وصل عبد الله الى مصر سجن المطلب أمير مصر المعزول وشدد النكير على أهل مصر فأبغضوه وتآمروا مع الجند وأخرجوا المطلب من سجنه ونصبوه أميراً على مصر . فأقر المأمون تصرف الجند . ولعل ذلك هو الذي شجعهم على قتل عبد الله بن العباس . كما توفي العباس نفسه وفي رأى تغرى بردى أنه لم يدخل مصر اطلاقاً ولم يحكمها وإنما الذي دخلها وحكمها هو ابنه .

مقدم الامام الشافعي الى مصر :

وقد قدم الى مصر في هذه السنة في معبة عبد الله بن العباس محمد بن أديس الامام الشافعي . فكان قدومه نقطة تحول في تاريخ مصر الاسلامي ، فبعد أن كان يتنازع أهلها من المسلمين المذهب المالكي والحنفي ، جاء المذهب الشافعي ليعلو على المذهبين الآخرين . ويصبح في خاتمة المطاف هو مذهب الأغلبية الساحقة من مسلمي مصر .

٨١٤ م - ١٩٩ هـ : امارة المطلب بن عبد الله الثانية :

ولى المطلب امارة مصر بعد اخراج الجند والأهالي له من السجن كما قدمنا ، فاصطنع الرفق بالرعية وأجزل لهم العطاء واحسن الى الكافة ، فالتفت حوله القلوب ، واستفحل أمره وقويت شوكته . . . ولعل هذا هو الذي جعل المأمون يسكت عنه الى حين .

دنابير المأمون مضروبة في الفسطاط :

وفي مجموعة النقود الاسلامية توجد دنابير مضروبة في الفسطاط هذا العام باسم المأمون . (لين بول) .

٨١٥ م - ٢٠٠ هـ : اماره السرى بن الحكم :

عزل المأمون المطلب بن عبد الله عن ولاية مصر وولى عليها السرى بن الحكم بن يوسف ، على الصلاة والخراج ، فجعل على شرطته محمد بن عساقه ، ولكن الجند لم يلبثوا أن ثاروا عليه ، فعزله المأمون عن الامارة .

٨١٦ م - ٢٠١ هـ : اماره سليمان بن غالب على مصر :

ولى المأمون سليمان بن غالب على صلاة مصر وخراجها فجعل على شرطته أباذكر بن جناده فشدد على المصريين فعزله سليمان واستبدله بالعباس بن لهيعة . على أن النجد لم يلبثوا أن ثاروا على سليمان بن غالب وقتلوه ، مما أدى بالمأمون الى عزله عن اماره مصر ، وأعاد السرى بن الحكم الذى كان فى السجن .

امارة السرى بن الحكم الثانية :

ولى المأمون السرى بن الحكم اماره مصر وبعث اليه فيما يبدو بخلعة فأخرج من السجن ، وسار الى المعسكر فى موكب حافل وجعل على شرطته محمد بن عساقه ثم راح يستبدل رعيى شرطته بأخر كلما شكوا الناس منه . . . يقول تفرى بردى : وكان السرى أميرا جليلا معظما فى الدولة .

وقد ظل هذه المرة فى امارته حتى مات .

المأمون يعهد بولاية العهد الى على الرضى :

أقدم المأمون على الخطوة التى كآت تراوده منذ امد طويل ، وهو أن يعيد الخلافة الى أحفاد على بن أبى طالب . فقد كان يؤن بأنهم ظلموا وأنهم أحق بالملك من بنى العباسى . فعزل أخاه القاسم من ولاية العهد وجعلها الى على الرضى بن موسى ابن كاظم بن جعفر الصادق العلوى ، باعتباره اتقى وأورع العلويين والعباسيين معا . . . ولكن بنى العباس تمردوا على هذا القرار وثار ثورتهم فى بغداد ، فخلعوا المأمون .

وبايعوا ابراهيم بن المهدي خايفه ، فاندلعت نيران الحرب الداخلية من جديد .

٨١٨ م - ٢٠٣ هـ : وفاة علي الرضى ووصول المأمون الى بغداد :

مات علي بن موسى الرضى العلوى الذى جعله المأمون ولى عهده فكان ذلك حلا للأزمة التى تعقدت بين المأمون وبين أسرة بنى العباس ، اذ بعث المأمون الى العباسيين فى بغداد يعلمهم نبأ هذه الوفاة وانه عدل عن نقل الخلافة الى العلويين ، ولكن البغداديين ردوا عليه ردا خشنا وأعلنوا نمسكهم بإبراهيم المهدى فسار المأمون على رأس جيشه قاصدا بغداد ، فلم يتصد لقتاله أحد . . . ولم يكد يصل الى بغداد حتى اختفى إبراهيم المهدى وكرر المأمون اعلان عزمه على اقرار الأمور ببني العباس . وعدل عن لبس الملابس الخضراء شعار العلويين ، الى السواد شعار بني العباس .

٨١٩ م - ٣٠٤ هـ : وفاة الامام الشافعى فى مصر :

مات الامام الشافعى . . وكان قد نزل ضيفا بمجرى وصوله الى مصر عند أسرة من اكرم الأسر وأغناها وأعلمها فى الفسطاط وهى أسرة بنى عبد الحكم . . وقد قدمته هذه الأسرة للمجتمع المصرى ، فأحبه المصريون لعروبتة وقرشيتة وعلمه وفصاحته .

وكون الشافعى لنفسه حلقة فى المسجد الجامع (عمرو بن العاص) واقام فى مصر منذ عام ١٩٨ حتى هذه السنة فكثرت تابعوه وتلامذته . . . وبلغ نشاط الشافعى فى مصر الأوج اذ ألف كتاب الأم الذى يعتبر بحق أساس علم أصول الفقه .

وكان الشافعى على ما يصف بن حجر يجلس فى حلقة اذا صلى الصبح فيحتويه أهل القرآن فيسألونه ، فاذا طلعت قاموا وجاء أهل الحديث يسألونه عن معانيه وتفسيره فاذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة فاذا ارتفع النهار تفرقوا جاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب نصف النهار فينصرف الى منزله .

وقد شرح مذهب الشافعى من بعده تلميذاه المزنى والبويطى .
وقد كتب الكثير وقيل الأكثر فى مناقب الشافعى كصاحبيه من قبله أبى حنيفة ومالك ، ولعل من أبسط ما قيل فيه : لو جمعت أمة لوسعهم عقل الشافعى .

٨٢٠ م - ٢٠٥ هـ : إمارة محمد بن السرى على مصر :

ولى المأمون محمد بن السرى بن الحكم إمرة مصر بعد وفاة أبيه ، وفى أيامه خرج الجروى عن الطاعة وغلب على مصر السفلى فجهز له محمد العساكر وخرج لقتاله ولكن الموت عاجله .

٨٢١ م - ٢٠٦ هـ : اماره عبيد الله بن السرى على مصر :

ولى المأمون عبيد الله بن السرى على صلاة مصر وخراجها بعد وفاة أخيه محمد ابن السرى ، فجعل على شرطته محمد بن عقبة ، وبدأ ولايته بالحرب ضد الجروى الخارجى .

واذ كانت ولاية مصر قد تعاقبت فى بيت السرى كما رأينا ، وأصبحت له مكانة فى نفوس المصريين ، فقد حدثت عبيد الله نفسه بالخروج على المأمون والاستقلال بمصر ، فبدأ بعد العدي ويحشد الجنود ، استعدادا لإعلانه خلع المأمون لولا أن تسرب خبره الى المأمون فأرسل عبد الله بن طاهر بجيش كبير لخلع عبيد الله بن السرى . ودارت المعارك بينهما ، انتهت بهزيمة عبيد الله الذى استسلم لعبد الله ابن طاهر .

٨٢٣ م - ٢٠٨ هـ : وفاة السيدة نفيسة :

فى هذه السنة توفيت السيدة نفيسة صاحبة الضريح المشهور باسمها فى قرافة القاهرة : وهى ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن أبى طالب : وقد وفدت السيدة نفيسة مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق من المدينة الى مصر عام ١٩٣ هـ فلم تلبث ان ذاعت شهرتها وتقواها وورعها وعلمها وأدبها .

ويتحدث تفرى بردى عنها بقوله : وهى صاحبة الكرامات والبرهان ومد ذكرها شرقا وغربا .

٨٢٦ م - ٢١١ هـ : اماره عبد الله بن طاهر على مصر :

هو عبد الله بن طاهر بن الحسن امير خراسان ثم امير مصر ولاه المأمون عليها بعد عزل عبيد الله بن السرى .

وكان عظيم الهيبة حسن المذهب شجاعا مقداما يعدل بين الرعية وكان فوق ذلك جواد كريما بارعا فى الأدب ويقرض الشعر مما حبه الى قلوب الرعية . . وقيل انه خلف فى بيت المال فى خراسان وهى موطن ولايته الرئيسى أربعين الف الف درهم سوى ما فى بيت مال العامة وقد جعل على الشرطة اiban ولايته لمصر معاذ بن عزيز ثم عبد ربه .

وجعل على القضاء عيسى بن المنكدر وأجرى له أربعة آلاف درهم كل شهر . وقد استطاع فى مدة ولايته أن يرتب أحوال البلاد وان ينظمها وان يمهّد طرقها وسبلها وأمنها وقد زاد فى مسجد عمرو بن العاص زيادة كبيرة وكان التاريخ يأبى الا أن يجعل لهذا الحاكم أثرا يتنساقل عبر الاجيال فهو الذى زرع بمصر البطيخ .

العبدلى وقد استنبتته من نوعين مختلفين ، وهى الكلمة التى يرددها العامة باسم (العبد اللاوى) .

استيلاء المسلمين على جزيرة كريت :

كان قد نزل بالاسكندرية قبل مقدم عبد الله بن طاهر اليها طائفة من المغاربة الذين أبعدها من الأندلس لثورتهم فى وجه الحكم بن هشام وكانت عدتهم تزيد على بضعة الوف ، فاستولوا على مدينة الاسكندرية . ولما قدم عبد الله بن طاهر الى مصر توجه الى حربهم ، فدارت بينه وبينهم معاضات ، أن يمدهم بالمال والسلاح والسفن ويرحلوا الى جزيرة كريت البيزنطية فيستولوا عليها فجهزهم عبد الله بن طاهر بما طلبوا وخرج من الاسكندرية أسطول حربى بهذا الحشد من المجاهدين فهزموا الأسطول البيزنطى واستولوا على جزيرة كريت بالفعل ، فكان ذلك أول دخول للإسلام فى الجزيرة ويقول ارشبيالد لويس أنهم ظلوا فى جزيرة كريت لمدة قرن ونصف كانوا فيه مشار الفزع للعرب البيزنطى .

٨٢٧ م - ٢١٣ هـ : اماره عيسى بن يزيد على مصر :

بعد أن أقر عبد الله بن طاهر الأمور فى مصر ، استخلف عليها عيسى بن يزيد الجلودى ، على صلاتها وخراجها فأقره المأمون وظل أميرا على مصر نيابة عن عبد الله ابن طاهر ، حتى صرف المأمون عبد الله عن امرة مصر وجعلها لأخيه المعتصم محمد بن هارون الرشيد فلما أن وليها المعتصم أقر عيسى بن يزيد على الصلاة فقط وجعل على خراج مصر صالح بن شيرزاده ، فزاد صالح فى الخراج واشتد وظام وعسف ، فانتفض عليه أهل الحوف واجتمعوا وعسكروا واجتمعوا على قتاله .

فسانده عيسى بن يزيد ولكنه انهزم وقتل الكثير من جنده . فعظم ذلك على المعتصم وعزل عيسى بن يزيد وولى مكانه عمير بن الوليد النميمى .

وفاة ابن هشام كاتب السيرة النبوية :

وفى هذه السنة مات بمصر صاحب السيرة النبوية محمد بن عبد الملك بن هشام ، كاتب ابن اسحق ، وبرى تأثر مصر عليه فى كتابه إذ يروى أحيانا عن ابن لهيعة عالم مصر وقاضيه .

٨٢٩ م - ٢١٤ هـ : اماره عمير بن الوليد على مصر :

ولى المعتصم عمير بن الوليد على الصلاة فجعل على شرطته ابنه محمد ولكن القيسية واليمانية من أهل الحوف خرجوا عليه كما خرجوا على من سبقه فسار نحوهم بجنوده ودارت بينه وبينهم معارك سقط فيها صريعا .

امارة عيسى بن يزيد الجاودي على مصر ثانية :

اعاد المعتصم عيسى بن يزيد الجاودي الى ولاية الصلاة ، ولكن القيسييه واليمينية من اهل الحوف ، كان أمرهم قد اسنشرى وازدادوا ضراوة بما انضم اليهم من قطاع الطرق ، وما احرزوه من انتصارات في معاركهم السابقة . فخرج عيسى بن يزيد على رأس جيش لمقاتلتهم ، والتقى بهم عند المطرية (عين شمس) فانتهدت المعركة بهزيمة عيسى بن يزيد وقتل الكثير من عسكره واضطر الى النجاة بنفسه والاحتماء بالفسطاط .

المعتصم في مصر :

عندما وصل نبأ هذه الهزيمة الى المأمون طلب من اخيه المعتصم ان يسافر الى مصر ليمسك امارته بها فقدم المعتصم من بغداد في أربعة آلاف من جنوده الاتراك وهاجم الحوف في طريقه الى الفسطاط فهزمهم هزيمة ساحقة ووضع في رقابهم السيف حتى اونسك ان يفنيهم .

ثم دخل الفسطاط وفي خدمته عيسى الجاودي وجميع اعيان مصر وسكن المعسكر واصلاح احوال مصر وولى عليها عبد ربه بن جبلة بعد ان عزل عيسى بن يزيد . ثم بارح مصر الى الشام .

المسلمون يفتحون صقلية :

وفي هذه السنة استولى المسلمون من افريقيا على جزيرة صقلية وخاضوا معارك برية داخل الجزيرة انتهت بالاستيلاء عليها واستقروا في عاصمتها بارم (٨٣١ م) وسرعان ما أصبحت أعظم قاعدة بحرية اسلامية . . وبهذا انطوت صفحة بيزنطة من هذه الجزيرة ونجح مسلمو شمال افريقيا في السيطرة على البحر الأبيض وهو ما عجز عن تحقيقه الأمويون .

٨٣٠ م - ٢١٥ هـ : امارة عبد ربه بن جبلة على مصر :

ولاه المعتصم نيابة عنه على الصلاة ، فسكن المعسكر على عادة الأمراء وجعل على شرطته ابنه وعلى المظالم اسحق بن اسماعيل . ولم يلبث اهل الحوف من القيسية واليمينية ان عادوا للشغب ، فسار اليهم واستطاع ان يجمع حركتهم .

ويقول أمين باشا سامي (نقلا عن درر التيجان) ان الغلاء اشتد في عهده بمصر واعمالها حتى أصبحت وية القمح تباع بدينار ذهب وحصل الناس ما يطول شرحه من سوء الحال وأمور تقشعر من سماعها الأبدان .

ولكنني لم أجد إشارة الى ذلك في خطط المقرئى . . . او النجوم الزاهرة .

٨٢١ م - ٢١٦ هـ - اماره عيسى بن منصور :

عزل المعتصم عبد ربه بن جبلة وولى على مصر عيسى بن منصور على الصلاة فقط فجعل على شرطته ابا المغيث يونس بن ابراهيم ولا بد أن يكون قد أساء السيرة فقد ثار في عهده الاقباط ثورة عارمة .

ثورة سكان الوجه البحرى :

انتفض عرب الوجه البحرى وانضم اليهم الاقباط فشدوا جموعا كبيرة زحفوا بها على العاصمة فتجهز لهم عيسى بما معه من قوات : ولكنه انهزم فتقهقر بمن معه ، فدخلت الاقباط وأهل الشريعة مصر (اى المعسكر) واخرجوا عيسى بن منصور على اقبح وجه لسوء سيره ، واخرجوا معه كذلك متولى خراج مصر وكانت هذه أعنف حركة قامت في البلاد منذ الفتح الاسلامى ، وقد استمرت قرابة ثمانية أشهر . ويرى الدكتور الشيال في اتساع هذه الحركة ، نمو شخصية مصر الاسلامية وتطلعها الى الاستقلال .

٢١٧ هـ - قدوم المأمون الى مصر :

قرر المأمون أن يفد بنفسه الى مصر لبحث أسباب هذه الفتر المتوالية ويضع حدا لها ، فوصل الى مصر فى ٥ محرم من هذه السنة وأوقعت عساكره تحت قيادة قائدها الشركسى افشين بالمتمردين من العرب أهل الخوف وأقباط الوجه البحرى .

وقد اجمع المؤرخون على أن المأمون قسا على الاقباط الشائرين حتى لقد قتل الكثير من رجالهم وسبى النساء والاطفال .

وسجل التاريخ غضب المأمون على واليه بمصر والالفاظ التى عنفه بها اذ قال له : أن هذا الحدث العظيم لم يكن الا عن فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس مالا يطيقون وكتتمتموني الخبر حتى تفاقم الامر واضطربت البلاد والاجماع منعقد على أن هذا الحادث كان آخر مظهر لبقايا مصر المسيحية ، فمنذ ذلك التاريخ وقبل أصبحت الاغلبية في مصر اسلامية وذلك لدخول الكثير من الاقباط في دين الاسلام ، ويقول المقرئى ومن بقى منهم على دينه كف عن المحاربة وعود : الى المكاتب واستعمال الحيلة ، وعملوا كتابا للخراج فكانت لهم وللمسلمين اخبار كثيرة .

وهناك قول عن أن المأمون قد حاول فتح الاهرام . ولكن أحد من الكتاب لم يرو هذه القصة .

وقد ذكرها امين باشا سامى في حوادث عام ١٩٩ هـ ، وليس ادل على وهن هذه القصة من أن المأمون في هذا التاريخ كان لا يزال في خراسان لم يفكر في المجيء الى بغداد نفسها وليس الى مصر .

أماره كيدر على مصر :

هو نصر بن عبد الله وكلمة كيدر شهرة غلبت عليه ولاء المأمون على الصلاة فجعل على شرطته ابن سنديار ثم بعث المأمون برجل من العجم يسمى بسطان ليكون واليا على الشرطة ، ولكن كيدر لم يلبث أن عزله لسوء سيرته ولرشوة ارتشاها ، وضربه بالسوط في سجن الجامع وولى ابنه المظفر بدلا منه .

٨٣٣ م - ٢١٨ هـ : دعوة المأمون الى القول بخلق القرآن :

. ارتكب المأمون العظيم رلته الكبرى في هذه السنة عندما حاول ان يحمل رجال الدين والفقهاء والقضاة بقوة السلطان على ان يقولوا بخلق القرآن وما بقيت القضية في دائرة الراى والخلاف الفكرى ، فقد كانت مظهرا على ما وصلت اليه الحضارة الاسلامية من تطور فكرى على يد علماء المعتزلة ، حيث نادوا بسلطان العقل وخضوع الدين لاحكام العقل .

اما عندما انزلق المأمون الى فكرة فرض الفكرى بقوة السلطان ، فهنا بدأ الزلل والشطط . والذي ذكر بحماقات اباطرة القسطنطينية عندما راحوا يفرضون عقائد ونظريات دينية : وان كان المأمون لم يصل الى حد القتل والتعذيب مكتفيا بالتهديد والعزل عن ولاية المناصب .

احمد بن حنبل :

وقد كان الامام احمد بن حنبل احد الدين طلب منهم امير بغداد بناء على طلب المأمون ان يقر بان القرآن مخلوق فوقل احمد بن حنبل عند القول بأن « القرآن كلام الله » لايزيد على ذلك او ينقص وان الخوض في ذلك بدعة . فلما ابلغ المأمون ذلك ، طالب ان يرسل به اليه مقبوضا عليه الى مدينة طرسوس للبحث في أمره ، ولكن قدر الخليفة المأمون ان يموت ان يواجه احمد بن حنبل .

موت الخليفة عبد الله المأمون :

في الثامن عشر من رجب من هذه السنة مات الخليفة المأمون وكانت مدة خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وكانت سنة عندما مات ثمانى واربعين سنة ، وقد وسف وليم لانجر في موسوعة تاريخ لعالم عصر المأمون على الوجه التالى :

المأمون العظيم . لعل عصره ازهى عصر في تاريخ الخلافة حظيت فيه الفنون والعلوم بفيض من سخائه وكرمه . جرى في زمنه اقامة مرصدين احدهما قرب دمشق والآخر قرب بغداد . وأنشأ قرب مرصد بغداد دارا للعلم زودها بمكتبة زاخرة . وجدت في عهده ترجمة كتب الادب والعلوم الفلسفة اليونانية والسريانية

اصطناع الأتراك :

وقد اختط المعتصم سياسة جديدة ، كان لها أكبر الأثر فيما أصاب الدولة العباسية من انحلال فيما بعد ، فقد قرر أن يجعل اعتماده في الجيش وفي حرسه الخاص على الأتراك بدلا من الأرس أو العرب . وربما كان مرجع ذلك إلى أن أمه تركية . فشرع في استجلاب الرقيق التركي وكان يجاء به من بلاد ما وراء النهر (سيحون وجيحون) واتخذ منهم أجنادا وحراسا ، وبدأوا يشتهرون بجمال المنظر وحسن الهندام والشجاعة فضلا عن التمسك بأهداب الإسلام وسرعان ما أصبح منهم قواد الجند وولاة الأقاليم . ولم يقف المعتصم عند حد الاستعانة بالأتراك . . . لقد تجاوز ذلك إلى اضطهاد العرب وخلعهم من أعمالهم مما أثار الفتنة في صفوف جيشه وولاته ، فكان ذلك أول انتصاع الذي أصاب الدولة العباسية والتي ظل يتزايد حتى انتهى سلطانها كما سنرى .

٨٣٤ م - ٢١٩ هـ : إمارة المظفر بن كيدر على مصر :

ولى إمارة مصر المظفر بن كيدر بعد وفاة أبيه باستخلاف منه . . وكان أبوه قد تلقى كغيره من الولاة الأمر باسقاط العرب من الديوان وقطع العطاء عنهم ، فخرج عليه يحيى بن الوزير الجروى في جمع من عرب لخم وجذام . . ولكن كيدر مات قبل أن يقع بينهما الاصطدام .

فلم يكد المظفر يباشر عمله ، حتى تصدى لحرب ابن الوزير فانتصر عليه بعد معركة حامية الوطيس .

إمارة موسى بن العباس على مصر :

سن المعتصم تقليدا جديدا ، بأن جعل الولاية على قطر من الاقطار نوعا من الانعام ، فأنعم بأمره مصر على أحد كبار قواده أبو جعفر اشناس ، على أن يظل إلى جواره ينتدب من ناحيته من يدير مصر باسمه .

فأقر الوالى الجديد المظفر بن كيدر على إمارة مصر لانشغاله بقتال ابن الوزير حتى إذا فرغت الحرب بعد أربعة شهور بانتصاره على ابن الوزير كما رأينا : عزاه من الإمارة ، وولى موسى بن العباس على صلاة مصر وخراجها ، وذلك في شهر رمضان من هذه السنة .

٨٣٥ م - ٢٢٠ هـ : بناء مدينة سر من رأى :

تدمر سكان بغداد من هذه الجائحة الجديدة التى تمثلت في ممالك المعتصم من الأتراك وبدأ هؤلاء الجند من الأتراك يزعمجون سكان بغداد ، فشكا الناس إلى المعتصم ، وهددوه بأنه إذا لم يكف أذى جنده عنهم فأنهم سيحاربونه ويخلعوناه .

فبنى المعتصم مدينة سر من رأى لتكون مستقرا جديدا له ولاجناده حتى اذا
كمل بناؤها انتقل اليها ، فأصبحت سر من رأى وليست بغداد هي العاصمة
الرسمية وأن ظلت بغداد بطبيعة الحال هي المدينة الاولى في الدولة الاسلامية .

٨٣٩ م - ٢٢٤ هـ : اماره مالك بن كيدر على مصر :

عزل اشناس موسى بن العباس عن امرة مصر وعهد بالامارة على الصلاة الى
مالك بن كيدر فوفد الى مصر في الثالث والعشرين من ربيع الثانى من هذه السنة .
ويصف أبو المحاسن مالك بن كيدر بأنه كان أميرا عاقلا . . وقورا مدبرا ، ولى
الجليل من الاعمال فأدارها بنجاح ، وكان من اكبر القواد والامراء .

٨٤١ م - ٢٢٦ هـ : اماره على بن يحيى الارمنى على مصر :

عزل اشناس التركى مالك بن كيدر عن امرة مصر وولى عليها أبو الحسن على
ابن يحيى الارمنى فوصل الى مصر في السابع من شهر ربيع الثانى من هذه السنة
فجعل همه الاول اصلاح احوال الديار المصرية .

وكان على امرة الخراج أبو الوليد بن خاله التختان وعلى القضاء محمد بن
الليث الخوارزمي .

٨٤٢ م - ٢٢٧ هـ : وفاة الخليفة المعتصم :

توفى الخليفة المعتصم في يوم الخميس التاسع والعشرين من ربيع الاول وكان
عمره عند وفاته ثمانى وأربعين سنة تربع فيها على عرش الخلافة ثمانى سنوات
وثمانية اشهر وثمانية أيام . ولما كان ترتيبه من خلفاء بنى العباس هو الثامن فقد
اطلقوا عليه وصف الثمانى ويعددون الكثير من المصادفات التى ملأت حياته
برقم ثمانية .

ويقول عنه أبو المحاسن انه كان عاريا عن كل علم . . يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة
والكنه مع ذلك كان فصيحاً اذا تكلم ، مهيباً على الهمة شجاعاً مقداماً ، حتى قيل
انه كان اهيـب خلفاء بنى العباس .

وقد غلبت عليه صفة الجندية لكثرة ما خاض من معارك وحروب انتصر فيها
كلها بنفسه : أو بوساطة قواده .

وقد كان نصره الاكبر عندما استجاب لاستغاثة المرأة المسلمة التى صاحت
« وامعتصماه » فآلى على نفسه أن ينتقم لها ، فكانت معركة امورية التى ضرب فيها

هذه المدينة الرومية ورووع الروم .. وهى المعركة التى خلدتها أبو تمام الشاعرون
فى قصيدته المشهورة .

السيف اسدق انباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
واستطاع أن يقضى على حركة الخرمية وان يقتل زعيمهم بابل الخرمى الذى
اراد أن يفرف فارس فى الاباحية وعلى حركة فريار الذى أريد بها إعادة فارس
الى المجوسية .

وقضى على قائد جيوشه الكبير الافشين الذى تولى قمع الحركات السابقة ،
عندما حدثته نفسه بالخروج على الدولة وهكذا أبقي على الدولة العباسية وحدتها
وتماسكها وسيادة الخليفة الاسمية والفعلية على كل أرجائها .

وان كان فى نفس الوقت هو واضع البدرة لانفراط عقدها .. فقد مات مخلفا
وراءه ثمانية عشر ألف مملوك من الاتراك سرعان ما تحولوا الى نكبة على الخلافة
والخلفاء .

خلافة الواثق :

وبعد وفاة المعتصم بويج بالخلافة لابنه أبى جعفر هارون الواثق بالله وذلك
فى ١٩ ربيع الأول وانه أم ولد رومية .. وكان ملكا مهيبا جايلا كريما اديبا يقرض
الشعر ، وكان مولعا بالغناء والجوارى .

٨٤٣ م - ٢٢٩ هـ : اماره عيسى بن منصور الثانية على مصر :

ابتدع الواثق بدعة جديدة فعهد بالسلطة كلها الى اشناس التركى الذى ولى
على مصر عيسى بن منصور على الصلاة والخراج معا .

ولكن اشناس لم يلبث أن توفي ، فعهد الخليفة الواثق بأمره مصر الى ايتاخ
التركى الذى اقر عيسى بن منصور على أمره مصر . وقد عهد عيسى بن منصور الى
ابنه بولاية الشرطة .

وكان عيسى بن منصور على ما ذكر معاصروه أميرا جليلا ذا معارف وتدير وانه
مهد أمور مصر .

٨٤٥ م - ٢٣١ هـ : تجديد محنة القول بخلق القرآن :

شاءت ارادة الواثق ان يبعث محنة القول بخلق القرآن بعد ان كانت قد سكنت
فكتب من جديد للولاة على الامصار يطلب منهم امتحان العلماء القضاة وموظفى
الدولة فى موضوع خلق القرآن وعزل كل من لا يقول بهذا القول ، ووصل الامن الى

حد انه عند افتكاك الاسرى المسلمين مع الروم ، فكان من لا يقول بخلق القرآن يبقى في الاسر ولا تدفع فديته . . وغنى عن البيان كما يقول ابو المحاسن ان الجميع قد اعترفوا بخلق القرآن لكى ينفكوا من الاسر .

٨٤٦ م - ٢٣٢ هـ : موت الخليفة الواصل :

مات الخليفة الواصل في الرابع والعشرين من ذى الحجة بعد حكم دام خمس سنوات ونصف ، وكانت سنه عند وفاته ستا وثلاثين سنة على ارجع الاقوال وقد طلب منه وهو في مرض الموت ان يوصى بالخلافة لابنه ولكنه رفض .

ويعتبر عهد الواصل هو نهاية الصدر الاول من الحكم العباسى حيث بدأ من بعده العصر الثانى عصر الاضمحلال السياسى وتمزق اوصال الدولة واستقلال مختلف ولاياتها ، وغلبة قواد الترك على خلفاء بنى العباسى .

خلافة المتوكل على الله :

بويح بعد موت الواصل اخيه المتوكل على الله ابو الفضل جعفر بن الخليفة المعتصم . وكان عمره عندما ولى الخلافة يتراوح على حسب مختلف الأقوال بين الخامسة والعشرين والسابعة والعشرين .

ولما كان المتوكل قد استهل حكمه بوقف بدعة التحدث عن خلق القرآن فقد افرقه المؤرخون القدامى بالثناء ، فيقول ابو المحاسن ويتابعه على قوله أمين باشا سامى : كانت به كل الخصال الحسنة : وقد افتتح خلافته باظهار السنة ورفع محنة بخلق القرآن عن المتبلمين .

ولكن الدكتور عالى ابراهيم حسن ، وصفه بأنه كان مدمنا على شرب الخمر تعلق بحب جاريته فأعتقها وتزوجها وأطلق عليها من فرط جمالها حسنها اسم « قبيحة » على سبيل التضاد فى التسمية (ص ٤١٦) وهى التى أنجبت له ابنه أبو عبد الله المعتز

٨٤٧ م - ٢٣٣ هـ : اماره هرثمة بن نصر على مصر :

عزل الخليفة المتوكل على الله ، عيسى بن منصور عن اماره مصر بعد أخذ البيعة من المصريين .

فولى الأمير ايناخ التركى الذى كان هو الأمير الرسمى على مصر هرثمة بن نصر على الصلاة فقدم الى مصر يوم الأربعاء السادس من شهر رجب من هذه السنة وجعل على شرطته ابا قتيبة .

وفى أيام هرثمة ورد عليه كتاب الخليفة المتوكل يأمره بترك الجدل فى القرآن واتاع السنة ، وعدم القول بخلق القرآن .

٨٤٨ - ٢٣٤ : اماره حاتم بن هرثمة على مصر :

استخلف هرثمة بن نصر عندما حضرته الوفاة ابنه حاتم على الصلاة : فأقره الأمير ايتاخ على هذه الامرة ، فجعل على شرطته محمد بن سويد .

وعلى الرغم من أن حاتم بن هرثمة ، أقبل على تدبير شئون مصر في معرفة ودراية . وكان جليلا نبيلًا ، فيبدو انه لم يحسن تدبير اموره مع ايتاخ التركي ولذلك فقد صرفه عن الامارة .

امارة على بن يحيى الثانية على مصر :

أعاد الأمير ايتاخ التركي على بن يحيى على امرة الصلاة في مصر بعد عزل حاتم ابن هرثمة فسكن المعسكر جريها على عادي امراء بنى العباس وجعل على شرطته معاوية بن نعيم .

ولم يابث أن جاءه النسا بالقبض على ايتاخ التركي وقتله ، وصدر اليه امر الخليفة بالتحفظ على أموال ايتاخ واسقاط الدعاء له على المنابر .

٨٤٩ م - ٢٣٥ هـ : اماره اسحق بن يحيى على مصر :

قسم المتوكل سلطان الدولة بين اولاده الثلاثة المنتصر والمعتز والمؤيد فوqعت مصر من نصيب المنتصر ، فعزل على بن يحيى وولى نيابة عنه على صلاة مصر وخارجها اسحق بن يحيى بن معاذ .

فجعل على شرطته الهياجى ، وعلى المظالم عيسى بن لهيعة الحضرمى . وكان اسحق على مايقول ابو المحاسن من اجل الامراء جوادا كريما عاقلا سيوسا ممدوحا ، وكان فيه رفق بالرعية وعدل وانصاف . ومن ذلك أن المتوكل غضب على الشيعة لانتخاذهم من قبر سيدنا على بن أبى طالب مزارا يحجون اليه فبالغ في حربهم واضطهادهم وامر بطردهم من سائر الولايات وكتب بذلك الى اسحق بن يحيى فراح ينفذ الامر في رفق وفي غير افحاش بالنسبة للعالميين ، فلم يعجب المتوكل وعزله عن أمر مصر .

٨٥٠ م - ٢٣٦ هـ : اماره عبد الواحد بن يحيى :

ولى المنتصر اماره مصر بعد عزل اسحق بن يحيى « عبد الواحد بن يحيى بن منصور » على صلاة مصر وخارجها ، فقدم اليها في الحادى والعشرين من شهر ذى العقدة . فجعل على شرطته محمد بن سليمان البجلى .

ولكن المنتصر لم يلبث أن عزله عن الخراج وأبقاه على الصلاة فقط .

٨٥٢ م - ٢٣٨ هـ : اماره عنبسة بن اسحاق على مصر :

ولى المنتصر امرة مصر عنبسة بن اسحاق بعد ان عزل عبد الواحد فقدم مصر في الخامس من ربيع الثانى من هذه السنة . وكانت امرته على الصلاة - اما الخراج فكان لاحمد بن خالد الصريقيني وجعل عنبسة على شرطته ابا احمد محمد بن عبد الله القمى .

وكان عنبسة على مذهب الخوارج ، فأمر عماله بمجرد وصوله أن يرودا المظالم ، وان ينصفوا الناس غاية الانصاف وأظهر من الرفق والعدل بالرعية والاحسان اليهم ما لم يسمع في زمانه . وكان يتوجه ماشيا الى المسجد الجامع بدار الامارة بالمعسكر . ونحن نعجب ان يصف أبو المحاسن وأمين باشا سامى رجلا هذا سلوكه في الحكمة بأنه على مذهب الخوارج ، مع ان تاريخ الخوارج على الضد من هذه المكارم .

غارة الروم على دمياط :

وفي أيامه نزل الروم على ثغر دمياط في ثلثمائة مركب فاستولوا عليها ونهبوا واحرقوا وسبوا .

وكانت دمياط لسوء الحظ خالية من الجند عندما دهمها الروم فقد كان الأمير عنبسة قد استدعاهم في عيد الاضحى ليشهدوا احتفالا اقامه . ولكن أهالى دمياط اخرجوا من الجند مقدما بدعى أبو جعفر بن الاكشاف وقادوه زعامتهم ، وتصددوا لحرب الروم فدحروهم واجاؤهم عن البلد ، فانصرف الروم عن المدينة مهزومين ، وقد حاولوا ان يغيروا مدينة تنيس فلم يقدروا عليها فانسحبوا الى بلادهم .

وعندما وصل عنبسة وجهشه الى دمياط لم يجد مايفعله الا ان يعمل على اصلاح شأن دمياط وازالة آثار ما اصابها قدر استطاعته .

٨٥٥ م - ٢٤١ هـ : أهالى النوبة يعلنون العصيان :

امتنع أهالى النوبة عن دفع الجزية التى اعتادوا اداءها منذ أيام عبد الله بن أبى السرج ، والمؤلفة من العبيد والجوارى والحيوانات الوحشية وأشياء أخرى .

فعهد الخليفة المتوكل الى محمد بن عبد الله القمى بتولى الشرطة وبحرب أهل الصعيد الاعلى أو البجة كما اطلق عليهم الطبرى ، فاستطاع القمى أن يؤدى المهمة وأن يقمع الفتنة ويرد سكان النوبة الى طاعة الخليفة .

وفاة الامام احمد بن حنبل :

وفى حاضره الائمة توفى الامام الحنبل صاحب المذهب المشهور ، أحمد بن حنبل ، وهو كأصحابه الثلاثة الآخرين أصحاب المذاهب المشهورة الحنفية والمالكية والشافعية قد كتبت في مناقبة المجلدات الكثيرة من اتباع مذاهبهم ، ولكن أحمد بن حنبل ينفرد من بين أصحابه بعنف المحنة التى تعرض لها وثبت .

ولقد زاد من ورعه أن المتوكل حاول بعد أن رفع عنه المحنة : وأفرج عنه من السجن أن يتآلف قلبه بالمال والهدايا والعطايا ، فكان يعتذر عن قبول ذلك بتحريزا لدينه .

وقد ألف أحمد بن حنبل المسند في أحاديث الرسول وقد بلغ من ضخامة هذا العمل ، أن اعتبره بعض معاصريه وتابعهم بعض أهل العلم ، أنه من أئمة الحديث لا الفقه .

وكانت سن أحمد بن حنبل عندما مات سبعا وسبعين سنة .

٨٥٦ م - ٢٤٢ هـ : أماره يزيد بن عبد الله على مصر :

عزل المنتصر عن أمرة مصر عنبة بن اسحق وولى على صلاتها يزيد بن عبد الله فوفد اليها في ٢٠ رجب من هذه السنة .

ويقول عنه أبو المحاسن أنه :

أقام الحرمة ومهد أمور الديار المصرية ، ومنع النداء على الجنائز وأبطل الرهان الذي كان لسباق الخيل ، ثم تتبع الروافض وأبادهم ، ثم التفت الى العلويين فجرت عليهم منه شدة وأخرجهم من مصر .

وفي هذه السنة زلزلت الأرض في مصر .

٨٥٩ م - ٢٤٥ هـ : غارة الروم على دمياط :

عادت الروم للاغارة على دمياط ، ويدل تكرار هذه الغارات ، على غلبة الأسطول البيزنطى في هذه الفترة على شرق البحر الأبيض .

على أن هذه الغارة الجديدة كسابقتها لم تزد على النهب والسلب والفرار .

زلازل :

ولامر ما تكرر وقوع الزلازل في شدة وعنف عبر مصر كلها ، ولكن يبدو أن مركزه كان في مدينة بلبيس فقد قتل فيها عدد كبير بسببه .

٨٦١ م - ٢٤٧ هـ : بناء مقياس الزويزة :

تهدم مقياس الزويزة الذى أقامه أسامة بن زيد عام سبع وتسعين ، فأعيد بناؤه وترميمه أيام يزيد بن عبد الملك وفي عهد خلافة المتوكل وظل هو المقياس المعتمد للنيل لعدة قرون تالية .

وفاة الخليفة المتوكل :

في الخامس من شوال من هذه السنة قتل الخليفة المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم . وكان الدين قتلوه هم ممالك الأتراك بتحريض من ابنه المنتصر .

وكان المتوكل قد طلب من ابنه المنتصر أن يتنازل عن ولاية العهد لأخيه المعتز ، فأبى المنتصر أن يفعل ذلك ، فعمد أبوه إلى أساءة معاملته وتحقيره على رؤوس الأشهاد مما أحفظ قلبه عليه فدبر مقتله .

وكانت خلافة المتوكل أربعة عشر عاما وعشرة أشهر وأيام وكانت سنة يوم قتل حوالى أربعين سنة .

وبقتله بهذا الأسلوب ، تدهورت هيبة الخلافة وما فتئت بعد ذلك تتدهور حتى أصبح الخلفاء العوبة في يد الجند .

ام المتوكل :

وتقترون أيام حكم المتوكل ، باسم والدته التي كان يطلق عليها اسم السيدة ، اشتهرت بقوة شخصيتها وكثرة صدقاتها .

خلافة المنتصر بالله محمد :

ولى الخلافة بعد مصرع المتوكل ابنه محمد وأطلق عليه اسم المنتصر بالله . . ويبدو أن شبح الجريمة التي أقدم عليها بالتحريض على قتل والده قد جثمت على ضميره فأرقتة ، فلم يهنأ بالحياة ، ولم يلبث أن فارق الحياة بعد ستة أشهر فقط من خلافته بما وصف بأنه ذبحه في الحلق . . وذكر الدكتور على إبراهيم حسن أن ممالك الأتراك قد تأمروا عليه بالاتفاق مع طبيبه بن طيفور فدس له السم فمات مسموما .

وام تزد سنة عند موته على خمس وعشرين سنة .

٨٦٢ م - ٢٤٨ هـ : خلافة المستنصر بالله :

لم يشأ قادة الجند ورجال الحاشية الأتراك أن يولوا عليهم أحد أبناء المتوكل حتى لا يطالبهم بدم أبيه وهو يرجح القول بأنه مات مقتولا ، فاجتاروا للخلافة أحد أبناء المعتصم وهو أبو العباس أحمد وأطلقوا عليه اسم المستنصر بالله وكانت سنة يوم بويع ثمانى وعشرين سنة .

وكان أول ما فعله هو أن فرق ما كان في بيت المال من أموال على الجنود والقواد . وكان يقدر بألف ألف دينار . ولكن ذلك لم يشفع عندما أراد أن يباشر السلطة ، فقد انقلبوا عليه ، ثم قتلوه بعد ذلك .

٨٦٦ م - ٢٥٢ هـ : خلافة المعتز بالله الزبير :

كان السبب في مقتل المستعين بالله ، أنه خشي على نفسه من سلطان الترك فحاول أن يحد من سلطانهم فأمر بقتل باغر التركي الذي قتل المتوكل ، فاضطرب امرأه الأتراك لذلك وبادروا بخلع المستعين بالله ، وسعوا إلى المعتز بن المتوكل وكلن محبوبا في حجرة صغيرة هو وأخوه إبراهيم ، فأخرجوه من سجنه وبايعوه بالخلافة ، فهرب المستعين بالله ودارت بينهم وبينه معارك انتهت بهزيمته والقض عليه ثم قتله .
وكان سن المعتز بالله عندما ولي الخلافة عشرين سنة فكان بذلك أصغر من ولي الخلافة حتى ذلك التاريخ .

٨٦٧ م - ٢٥٣ هـ : إمارة مزاحم بن خاقان التركي على مصر :

عزل الخليفة المعتز يزيد بن عبد الله عن إمارة مصر بعد أن وليها لعشر سنوات وثمانية أشهر وهي أطول مدة حكمها وإلى على مصر أيام الدولة العباسية التي كانت تكثر من تغيير الولاة ، وكأنها كانت ارتباطا بما ستؤول إليه مصر بعد قليل على يد أحمد بن طواون عندما استقل تماما عن الدولة العباسية إلا من رباط اسمي .

وولي الخليفة على إمارة مصر مزاحم بن خاقان التركي واقتصرت امرته على الصلاة فقط ، وجعل على شرطته أرخوز . وقد كثرت الاضطرابات في عهد مزاحم بن خاقان في مختلف أرجاء البلاد ، فكان عليه أن يخوض معارك ضد أهل الحوف ، ثم في البحيرة ثم في الفيوم وقد سقط في هذه المعارك كثير من الضحايا .

شغل مزاحم بعد ذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأوعز إلى أرخوز رئيس شرطته أنه بمنع النساء من الخروج من بيوتهن للتوجه إلى الحمامات أو المقابر . ونهى عن شق الثياب على الميت وتشويه الوجه والصياح والندب . . وغير ذلك من الأمور الخاصة بإحسان الصلاة فشق ذلك كثيرا على الناس ، لولا أن عاجله المرض ، لاستخلف ابنه مزاحم على إمارة مصر ، ثم أدركته الوفاة .

٨٦٨ م - ٢٥٤ هـ : إمارة أحمد بن مزاحم على مصر :

أقر الخليفة المعتز إمارة أحمد بن مزاحم على مصر . . وقد جعل على شرطته أرخوز كما كان الشأن في أيام أبيه .

إمارة أرخوز بن أولوغ على مصر :

لما أن حضت الوفاة أحمد بن مزاحم استخلف أرخوز بن أولوغ طرخان التركي صاحب الشرطة على إمارة مصر ، فأقر الخليفة المعتز هذا الاختيار وولاه عارم صلاة مصر وخزنها كما كانت لمزاحم وأبيه من قبل ودام على إمارة مصر إلى أن صرف عنها بالأمير أحمد بن طولون في شهر رمضان من هذه السنة فكانت ولايته على مصر خمسة أشهر ونصف .

الفصل العاشر

الدولة الطولونية

٨٦٨ م - ٢٥٤ هـ : اماره احمد بن طولون على مصر :

ولى امره مصر احد القادة الاتراك وهو الامير باكباك ، فأناب عنه على صلاة مصر ابن زوجته احمد بن طولون فوصل الى مصر يوم الأربعاء ٢٣ رمضان من هذه السنة .

وكانت سن احمد بن طولون التركى عندما جاء الى مصر أربعاً وثلاثين سنة . وكان أبوه طولون أحد موالى أنوح بن سد عامل بخارى وخراسان ، فأهداه نوح الى الخليفة المأمون فرباه المأمون حتى أصبح من جملة الأمراء . . وولد له ابنه أحمد فى مدينة سرمن راي سنة ٢٢٠ هـ وكانت أم احمد جارية تدعى فاسم .

وقد نشأ احمد بن طولون نشأة دينية فقد حفظ القرآن واتفقه وكان يرتله فى صوت جميل وذلك بالإضافة الى بقية علوم الدين الأخرى التى نهل منها الكثير وتفقه على مذهب الامام أبى حنيفة .

ولما مات طولون فوض الخليفة المتوكل لاحمد كل ماكان لابييه ، وراح يتدرج فى شتى الوظائف الى ان ولى امره الثغور ، ثم امره دمشق وأخيراً ديار مصر .

وليس هناك ما يكشف عن شخصية احمد بن طولون وما تحلى به من كريم الصفات التى اهلته الدور الذى لعبه فى حياة مصر والدولة العباسية ، من أن قواد الاتراك عندما خاعوا المستعين بالله وأبعدوه الى واسط ، بعثوا معه أحمد بن طولون ليكون مرافقاً له خلال منفاه ، فأحسن صحبة الخليفة ، ولم يضيق عليه وأطلق له حرية الحركة والتنقل .

وعندما قرر قواد الاتراك قتل المستعين كتبوا لاحمد بن طولون أن يقتل المستعين وأن يولوه مكافأة على ذلك امره مدينة واسط، فرفض ابن طولون هذا العرض وكتب اليهم يقول . لا رأتى الله قتلت خليفة بايعت له أبدا . . فبعث الاتراك من ناحيتهم سعيد الحاجب فكان هو الذى تولى قتل المستعين .

٨٦٩ م - ٢٥٥ هـ قتل الخليفة المعتز :

طالب الجنود الأتراك الخليفة المعتز ببعض رواتبهم المتأخرة وكانت لا تزيد عن خمسين ألف دينار ، فطالب هذا المبلغ من أمه فبيحة فادعت أنها لا تملك هذا القدر ، واختفت من قصرها .

فما كان من الجند الا أن طلبوا من الخليفة المعتز أن يخلع نفسه بحجة عدم صلاحيته ، فأجابهم الى ما طلبوه منه ، ولكن ذلك لم يحل بينهم وبين تعذيبه بعد ذلك ثم قتله . . ومن عجب أن قادة الترك قبضوا بعد حين على أمه وصادروا أموالها ، فبلغ عدة ما صادروه ثلاثة ملايين دينار ، وهى التى أبت أن تشتري حياة ابنها بخمسين ألف دينار تقدمها له . . فدل ذلك على تسميتها بقبيحة كان رمزا لما انطوت عليه نفسيتها من قبح .

وكانت خلافة المعتز فى قول الطبرى أربع سنوات وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوما . وكانت سنة يوم قتله أربعاً وعشرين سنة .

وفاة الجاحظ أعظم كتاب العربية :

وفى هذا العام على ما يقول ابن كثير فى البداية والنهاية مات الجاحظ المتكلم المعتزلى ويمضى فى وصفه قائلا :

« وكان شنيع المنظر سىء المخبر ردىء الاعتقاد ينسب الى البدع والضلالات » على أنه لا يلبث أن يزيد على ذلك « وكان بارعا فاضلا قد اتقن علوما كثيرة وصنف كتباً جما تدل على قوة ذهنه وجودة تصرفه . ومن أجل كتبه كتاب الحيوان وكتاب البيان والتبيين » .

وأشهد أن الجاحظ هو من بين كتاب العرب الأقدمين الذى أخذ يلبي قوة أسلوبه فى الكتابة ، ووضوح عبارته وحرارتها وتدققها حتى لكأنه كان فحلا من كتاب العصر الحديث .

خلافة المهتدى بالله محمد :

فى الثانى من شعبان من هذه السنة بعد وفاة المعتز بويع عبد الله ابن الخليفة الواثق ولقب بالمهتدى وكان المهتدى من أحسن خلفاء بنى العباس سيرة وورعا وأكثرهم تقوى وعبادة . . واتخذ من شخصية عمر بن عبد العزيز أماما ونبراسا وكان يقول انى لأستحيى أن يكون فى بنى أمية مثله ثم لا يكون من بنى العباس . . فكان يجلس لسماع مظالم الرعية وشكاويها ، ويحكم بالعدل والقسطاس المستقيم .

على أن العهد كان قد تغير وأصبحت السيادة الحقيقية للجنود الأتراك فبدأوا يتآمرون عليه ، فلما أن قبض على كبيرهم باكباك وقتله انقض عليه جنود الترك وحاربوه وحاربهم بمن وقف الى جواره من أجناس الجند الأخرى . . ولكن الدائرة لم تلبث أن دارت عليه فقبضوا عليه وحملوه على خلع نفسه ثم قتلوه بعد ذلك ، وكان قتله فى الثالث عشر من شهر رجب ، وكانت سنة يوم قتله أربعين سنة .

٨٧٠ م - ٢٥٦ هـ : خلافة المعتمد على الله :

في يوم الثلاثاء الثالث عشر من شهر رجب بويع للمعتمد على الله أحمد بن المتوكل بالخلافة . . ولم يلبث أخوه الموفق أن غلبه على أمره فسلب منه السلطان الفعلي على الدولة بحيث لم يبق للخليفة سوى الاسم فقط .

وفد كان هذا الخلاف بين الأخوين هو الذي استغله أحمد بن طولون ليزيد من استقلاله وسلطانه في إدارة شئون مصر والشام ، وذلك بأن وقف في وجه أوامر الموفق بدعوى أنه يدافع عن حقوق الخليفة الشرعي .

المستولون يستولون على جزيرة مالطة :

استطاعت بحرية الأغلبية ملوك افريقيا (تونس والقيروان) ان يستولوا على جزيرة مالطة وبهذا أكدت سيادة البحرية الاسلامية على المضائق الواقعة بين صقلية والشاطئ الافريقي .

وفاة الامام البخارى :

وفي ليلة عيد الفطر من هذه السنة مات في قرية بالقرب من مدينة سمرقند الامام الحافظ أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى صاحب الصحيح من احاديث رسول الله ، وهو أشهر من أن يعرف وحسبه أن كتابه الجامع للاحاديث قد اجمع علماء الأمة الاسلامية على أنه أصح كتاب بعد القرآن الكريم .

٨٧٣ م - ٢٥٨ هـ : أحمد بن طولون يوطد سلطانه في مصر :

في الوقت الذي كان فيه الخلفاء يتهاونون واحدا اثر الآخر عن عرش الخلافة كان أحمد بن طولون يوطد حكمه في مصر، وكانت الحوادث كلها تعمل على تدعيم حكمه ، فاذا كان باكباك الذي ولاه امرة مصر قد قتل ، فان أمير مصر ياركوج التركي الذي حل محله كان والد زوجته أحمد بن طولون فلا عجب اذا هو اطلق يد أحمد بن طولون اكثر مما كان عليه ، وضم اليه بعض المناطق التي كانت لا تزال خارجة عن سلطانه كمدينة الاسكندرية ، فأسرع لاستلامها وان كان لفرط حكمته قد ابقى واليها القديم ليحكمها باسمه ونياية عنه . . وعكف على دور صناعة السفن فأعادها الى سابق نشاطها وزودها بكل ما يمكنها من بناء عدد كبير من السفن لتكون أسطولا لأحمد بن طولون يعتمد عليه فيما اعتزمه لنفسه من الدفاع عن سلطانه في مصر .

وقد ظل أحمد بن طولون حياته معنيا بالأسطول وتدعيمه حتى بلغ عدد وحدات هذا الأسطول عند وفاة أحمد بن طولون على ما روى الكيخوى كاتب سيرته ، مائة مركب كبيرة ومائة مركب حربية سوى الصلابيات والحمائم والقاربات والصنادل .

ولاية الخراج والثغور :

وحدث أن أرسل اليه الخليفة المعتمد يستحثه على جمع الأموال المقررة على مصر ، فرد عليه أحمد بن طولون معذرا عن عدم قدرته على تنفيذ هذا الأمر لأن

ولاية الخراج كانت بيد أحمد بن المدبر صاحب السطوة والنفوذ في مصر منذ أمدهيد
فما كان من الخليفة المعتمد إلا أن ولي أحمد بن طولون على خراج مصر، وزاد على ذلك
فولاه على ثغور الشام . وهكذا تكاملت بين يدي أحمد بن طولون عناصر السلطة
والموارد المالية ، فشرع يعمل على تحقيق ما كان يدور في نفسه من آمال عريضة في
الاستقلال بشئون مصر، وذلك لا يكون إلا بإنشاء جيش قوى يدين له شخصيا بالولاء.

بناء الجيش :

وكان أحمد بن طولون قد استطاع منذ وفد الى مصر أن يرفع من هيئته في البلاد
بما أظهر من شجاعة وعزم ومضاء في القضاء على الفتن التي أشعل نارها من يسمى
بغا الصغير والذي دعا الى نفسه باعتباره من نسل العاويين أو تلك التي نشبت في
الصعيد وقتل رؤوس الفتنة . ولكن فرصته الكبرى لإنشاء الجيش قد واثته عندما
استنجد به الخليفة المعتمد ضد عامله على فلسطين ، والذي توقف عن بيعه الخليفة
واستولى على خراج مصر وهو في طريقه الى بغداد .

فطالب أحمد بن طولون من الخليفة أن يأذن له في تكوين جيش للقيام بهذه المهمة
فلم يقف الخليفة عند حد الاذن له ، بل وأصدر أوامره الى عامل الخراج أحمد بن
المدبر قبل عزله بأن يضع الأموال اللازمة تحت تصرف أحمد بن طولون . وشرع
أحمد بن طولون في تكوين جيشه ولكنه لم يجعله وقفا على جنس واحد . بل ألفه
من السودانيين والعرب الى جوار الأتراك بل وألفه من المصريين أنفسهم .

بناء مدينة القطائع :

وكان لا بد لكى تظهر شخصية أحمد بن طولون ، أن يؤسس لنفسه دار حكم
جديدة ، بل مدينة جديدة غير الفسطاط والعسكر ، لتكون تعبيرا عن العهد الجديد.

فاختار المنطقة التي تقع عند سفح جبل المقطم ، حيث يوجد ميدان صلاح الدين
في الوقت الحاضر (بالقلعة) وأنشأ قصرا والحق به حديقة بلغ من ضخامتها واتساع
وقعتها أن أطلق عليها اسم الميدان . . ولم يلبث هذا القصر أن أصبح نواة لما عرف
في التاريخ باسم مدينة القطائع والتي كانت تشغل المسافة بين قلعة الجبل الى موقع
جامع ابن طولون الحالي ، كما كانت تمتد من أول الرملة الى الموضع الذي يعرف الآن
بزين العابدين وقد أطلق عليها اسم القطائع ، نظرا لاسم الحارات والسكك التي
أعطيت لمختلف أجناس الجند ليقيموا ويبنوا فيها .

فثمة قطعة للسودان وأخرى للروم وهكذا ، ولم تلبث القطائع أن غصت بالمباني
الجديدة وعمرت بالسكك والأزقة، وامتلات بالمساجد والطواحين والحمامات والأفران
والخوانيت والشوارع ، ولم تلبث عمارتها أن امتدت حتى اتصلت بالفسطاط .

الدينار الطولوني :

كان أحمد بن طولون ككل مؤسسي الدول الذين مروا علينا يعرف ان لا سبيل
لبناء دولة قوية الا باعتماد على مالية وفيرة وهو مالا يتحقق الا بالاقتصاد القوى الذي
لا يعنى شيئا سوى وفرة الانتاج. ولا ازدهار للانتاج الا في ظل الأمن والثقة والعدل.

فأما الأمن وتوطيده فقد كان عمله الأول منذ جاء الى مصر . . . وأما الثقة فهي التي سعى الى تحقيقها بمجرد أن جمع أزمة الساطرة في يده فأصدر أمره بصك دينار طولونى جديد ، كان يمتاز بثقل وزنه وخلوه من الفن والنساء ، فاستعاد الثقة بعملة البلاد .

ثم عمد الى الضرائب الباهظة التي كان احمد بن المدبر قد اثقل بها عاتق المصريين ، مما اثار سخطهم وتشجع على اندلاع الفتن التي واجهته بمجرد حضوره ، فأصدر أمره بإلغاء هذه الضرائب فتنفست البلاد الصعداء .

ثم انتقل بعد ذلك الى مختلف ميادين الانتاج ليزيل العوائق ويتشجع على الازدهار والنمو .

في الزراعة :

فأما في الزراعة فقد راح يعمر من جديد قرى مصر ويصلح جسورها وقناطرها ويحفر خابجانها ويظهر ترعها فأحدث ذلك أثره المتوقع في تحسين الري وزيادة الانتاج بالتالى .

وعمد من ناحية الى زراعة كل الأراضى البور والتي لم يكن لها صاحب وذلك لحسابه وعلى نفقته فدان من اثر هذه الاصلاحات المتعددة في دنيا الزراعة ، أن عم الرخاء وكثر محصول القمح ، حتى ان كتب التاريخ تتحدث كلها عن هذا الرخاء ، وكيف وصل سعر العشرة أراذب من القمح بدينار .

في الصناعة :

وازدهرت الصناعة في مصر على اثر ازدهار الزراعة فعادت صناعة النسيج التي اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور الى سابق مجدها ، واشتهرت من جديد مدن تنيس والاسكندرية والبهنسا واشمونين ودمياط بالأنسجة الفاخرة التي تنتجها مصانع الدولة من ناحية والمصانع الخاصة من ناحية أخرى ، وعادت صناعة الزجاج والخزف والأخشاب الى نشاطها ورواجها كما أن انشاء الجيش الكبير قد استلزم قيام مصانع الأسلحة .

كما عادت للظهور صناعات الترف والتي ستتجلى آثارها في جهاز قطر الندى فيما بعد .

التجارة :

واذا كانت البحرية الاسلامية قد أصبحت مسيطرة على جنوب البحر الأبيض ، فقد انتقلت التجارة بين الشرق والغرب الى يد تجار المسلمين من المغاربة وأهل الامة من اليهود ، وكان طبيعيا أن تصبح مصر كما كانت في عصورها القديمة هم المعبر لهذه التجارة الآتية من الشرق وابن خروادبة على ما نقلت عنه الدكتور سيدة

اسماعيل كاشف يعطينا صورة صادقة لذلك النشاط التجارى العظيم الذى شهدته مصر فى العصر الطولونى - خصوصا ذلك النشاط الذى يقوم به الوسطاء اليهود الرهمانية ، الذين يتقنون كل لغات الأرض - العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاسبانية. وكان هؤلاء يبحرون من غرب أوربا ومعهم الخدم والجوارى والفلماني والديباچ والخمر والفراء والسمور والسيوف ، حتى اذا نزلوا عند الفرما نقلت متاجرهم بالقوافل حتى مدينة القلزم ، ثم استقروا السفن فى البحر مارين بموانى بلاد العرب ، ومنتهين الى اسواق الهند والصين ، ثم يعودون من أسواق الصين بالمسك والعود والكافور والتوابل سالكين نفس الطريق فيرسون عند القلزم (السويس) ومنها الى الفرما . ثم ينتقلون بالسفن الى القسطنطينية او الى اسواق غرب أوربا .

وهكذا تضافر الازدهار الزراعى والصناعى والتجارى لاعادة بناء الرخاء المصرى ، وتمكين أحمد بن طولون من انشاء الدولة التى يرجوها لنفسه .

٨٧٥ م - ٢٦١ هـ : وفاة الامام مسام بن الحجاج صاحب الصحيح :

فى هذه السنة مات الامام مسلم الحسن القشبرى النيسابورى صاحب الصحيح الذى يلى صحيح البخارى عند أكثر العلماء ، ولكن بعض العلماء وخاصة من المغاربة يقدمون صحيح مسام على صحيح البخارى ، ونحسب ان هذه الاشارة تفنى عن الكثير فى الاشادة بمسلم أو التعريف به .

٨٧٧ م - ٢٦٤ هـ : بناء مسجد ابن طولون :

فى هذه السنة اتم ابن طولون مسجده الكبير الذى قل أن يوجد له نظير فى اتساعه فى أرجاء العالم الاسلامى كله (باستثناء الحرم المكى وخاصة بعد التوسيعات الحديثة) وهو منفرد بين مساجد الدنيا كلها فى أنه لم يستعمل الأعمدة الرخامية والجرانيتية فى بنائه ، وانما استعمل الآجر فى بناء أعمدة واكتاف تحمل فوق رؤوسها العقود التى ترفع سقف المسجد . وقيل أن السبب فى ذلك ان المهندس الذى صممه واشرف على تنفيذه وهو سعيد بن كاثب الطرغانى ، وكان قبطيا خشى أن يهدم ابن طولون كنائس مصر ليستخلص منها الأعمدة اللازمة لبناء هذا المسجد ، فابتكر هذا الأسلوب الفريد لاقامة الجامع بغير حاجة الى الأعمدة التقليدية . وقد قبل ابن طولون الاقتراح وعهد الى المهندس القبطى باقامة المسجد فجاء على هذا النحو الفريد فى الضخامة والمساحة ، والمئذنة التى تدور سلالها حولها من الخارج على خلاف المؤلف فى كل المآذن التى انشئت فى مصر من قبل أو بعد .

ولم يستطع المعاصرون لأحمد بن طولون أن يدركوا كيف استطاع أن يدبر الأموال اللازمة لبناء هذا الصرح الضخم فقالوا أنه عثر على كنز به مليون دينار ، ولو قالوا

لنا أنه عشر على بعض الكنوز الفرعونية أو الرومانية ، لما كان في الخبر كبير غرامة ، أما أن يكون الذي حصل عليه هو دنائير ذهبية فهذا هو الذي يجعل الأمر محل شك . على أن الذي أثبتته المؤرخون هو أنه انفق على بناء الجامع مائة ألف دينار ، وأنه نفح المهندس القبطي بجائزة قدرها عشرة آلاف دينار مكافأه له على عمله العظيم .

مؤسسة اجتماعية وثقافية :

ولم يكن جامع ابن طولون كما اراده صاحبه ومنشئته مجرد مكان للعبادة ، وإنما ليكون فوق ذلك دار علم وبر وعلاج في آن واحد ، فقد رتب له جماعة من العلماء والفقهاء وأجرى عليهم الرواتب ، لالقاء الدروس في شتى فروع العلم في المسجد . وكان للعاملين في المسجد راتب يومي من الطعام والخبز والحلوى والفاكهة . وكان يصرف على المسجد من الرواتب للعاملين فيه والصدقات للمتبردين عليه كل يوم ألفا ومائتي دينار على ما روى ابن اياس .

البيمارستان :

كما الحق بالمسجد بيمارستان (مستشفى) لمعالجة المرضى وايواء العاجزين ، وشرط أن لا يعالج به جندي أو مملوك حتى يكون خالصا لعامة الشعب . وقد حفظ التاريخ لنا اسم كبير اطباء هذا البيمارستان وهو سعيد بن ثوفيل القبطي ، كما كان من أشهر اطبائه الحسن بن زيرك . ولا يزال المسجد قائما حتى اليوم في شموخ ينطق بما وصلت اليه مصر في عهد انشائه من استقرار سياسي واجتماعي واقتصادي (١) .

٨٧٨ م - ٢٦٥ هـ : ابن طولون يتوجه الى الشام :

كان الأمير ماجور التركي أمير الشام يقف سدا منيعا في وجه ما يطمح اليه ابن طولون من توسيع رقعة سلطانه فلم يكد يموت حتى أسرع ابن طولون زاحفا الى الشام بجيوشه غير آبه لابن ماجور الذي عينه الخليفة مكان أبيه على ما يقول ستانلي لين بول ، وان كان من رأى الدكتور سيدة اسماعيل الكاشف انه لم يقدم على هذه الخطوة الا بعد أن حصل من الخليفة على موافقة بتوليته اماره الشام .

وكيفما كان الأمر ، فقد وصل ابن طولون بجيوشه الى الشام فتلقاه الجميع بالترحاب بما في ذلك ابن ماجور الوالى السابق الذي أقره ابن طولون على امرة بلده الرملة ، كما دخل الى دمشق فتلقاه ولائها بالطاعة والخضوع ، وواصل تقدمه عبر بلاد الشام شمالا حتى وصل الى طرسوس ، وليس الا سيما الطويل في مدينة

(١) من عجب أن يكون مسجد ابن طولون هو أحد مراكز ثورة الشعب عام ١٩١٩ .

انطاكية من حاول ان يقاومه ، ولكن ابن طولون تغلب عليه وصرعه واستولى على المدينة في سبتمبر من هذه السنة ، ثم استولى على ثغرى المصيصة واذنة .

واصبح سلطان ابن طولون يمتد من الفرات غربا والحدود والشغور المتاخمة لبيزنطة شمالا ومدينة أسوان في الجنوب وبرقة في الغرب .

وقد كان باستطاعة أحمد بن طولون ان يواصل في حملته هذه زحفه الموفق نحو الشرق فيدخل الى بغداد ويضع الخليفة تحت رعايته ، او ان يحمله معه الى مصر ، وربما كان هذا في عزمه بالفعل . لولا انه فوجيء باعلان ابنه العباس ، الذي خلفه وراءه في مصر ، الثورة والتمرد عليه فاضطر الى ان يعود ادراجه الى مصر .

٨٧٩ م - ٢٦٥ هـ : ثورة العباس على ابيه ابن طولون :

انهز العباس بن احمد بن طولون فرصة استخلافه على مصر وغياب ابيه ، فأعلن خلعه لطاعته والتفت حوله بعض عناصر الجيش والحاشية .

ولكن أحمد بن طولون كر راجعا صوب مصر فخارت اعصاب العباس ، وقرر الفرار بمن معه من انصار وجنود بلغت عدتهم عشرة آلاف جندي سوداني وثمانمائة فارسي ، الى الاسكندرية وبرقة ليكون لنفسه ملكا في هذا الجانب ، ولم يدع مصر الا بعد ان أخذ معه كل ما في بيت المال من اموال وما في مخازن الحرب من اسلحة على انه ماكان لمثل هذه الحركة الفادرة ان تنجح ، ولذلك فقد انهزم العباس ومن معه في خاتمة المطاف . . . وجيء به ومن معه من اقواد اسرى ، فقتل ابن طولون الكثير من القواد الذين ثبت انهم حرضوا ابنه عليه . اما العباس نفسه فقد قال بعض المؤرخين انه جلد مائة سوط ولكن الأمر المحقق انه زج به الى السجن .

٨٨١ م - ٢٦٨ هـ : النزاع بين ابن طولون والأمير الموفق :

كان اخو الخليفة الأمير ابو احمد الموفق والذي كان يحكم الجزء الشرقي من الدولة العباسية ، ولكنه خول لنفسه سلطة حكم القسم الغربي كذلك ، جامعا في يده سلطة الخليفة الفعلية ينظر الى استقرار احمد بن طولون في مصر وتزايد سلطانه بعين الازدراء بل والسخط ، وكان من المحقق ان الأمر لابد صائر بينهما نحو الاصطدام . وبدأ الصدام الفعلي عندما ارسل الموفق يطالب احمد بن طولون بارسال اموال الخراج ليستعين بها في حربه ضد ثورة صاحب الزنج فبعث اليه احمد ابن طولون بمليون ومائتي الف دينار فأستقل الموفق هذا المبلغ وبعث اليه بكتاب اظهر له فيه الجفاء ، فاستاء منه احمد بن طولون وبعث الى الموفق برد حفظته كتب التاريخ وهو من اروع الوثائق التي تكشف عن شخصية احمد بن طولون وحرصه على كرامته واستقلاله ، حتى ليشهد على الموفق ويهدده من طرف خفي في الوقت

الذى يظهر فيه انطاعة والامتثال . فما كان من الموفق الا ان استصدر امرا من الخليفة بعزل أحمد بن طولون وتولية غيره من الأمراء ، ولكن احدا من هؤلاء لم يجسرؤ على الاقتراب من مصر فباءت هذه المحاولة الجديدة بالفشل ، فجمد النزاع مؤقتا

ولكن مايفل يد الموفق عن متابعة الهجوم على أحمد بن طولون هو اشتغاله بثورة الزنوج التى كانت لا تزال مشتعلة الاوار .

على ان النزاع لم يلبث ان تجدد عندما تمرد أحمد بن طولون عامه على الرقة وشمال سوريا (حلب وقنسرين وديار مصر وحمص) فانضم الى الموفق وسلم اليه مليون دينار كانت تحت يده .

وخطا أحمد بن طولون خطوة جديدة تأكيذا لاستقلاله وسلطانه فجعل من نفسه مدافعا عن حقوق الخلافة بالسيف وقوة السلاح ، فأعلن على الملأ أن الموفق يسئ معاملة اخيه الشرعى ويستبد بالملك دونه وكتب الى الخليفة يستقدمه اليه ، وهذا الخطاب وثيقة اخرى تكشف عن سياسة أحمد بن طولون ورغبته فى تحويل الخلافة الى مصر لتكون تحت سلطانه واليك بعض ما جاء فى هذا الخطاب .

« قد منعنى الطعام والشراب خوفا على أمير المؤمنين — اطل الله بقاءه . من مكر بلحقه . وقد اجتمع عندى مائة الف عنان مؤلفة قلوبهم ، ومجتمعه آراؤهم ، شديد بأسهم . وانا رى سيدى أمير المؤمنين — ادام الله عزه بانصر والتمكين — الانحداب الى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ، ولا يكن ما يخافه فى كل لحظة منه اليه » .

وقد رحب الخليفة بهذه الدعوة واستجاب لها ، وتوجه بالفعل نحو الرقة منظاهرا بالصياد ليقابل أحمد بن طولون الذى كان قد سار على رأس جيشه الى الشام ، ولكن اخاه الموفق علم بما اعتزمه الخليفة المعتمد فأرسل الى ابن كنداج أمير الموصل يأمره برد الخليفة الى سامرا ، ونفذ ابن كنداج الأمر حتى لقد قبض على الخليفة ومن معه واعادهم مقبوضا عليهم .

ابن طولون يخلع الموفق :

ورد ابن طولون على هذا الاجراء العنيف ضد الخليفة باجراء لا بقل عنفا ، فمفد مؤتمرا من الفقهاء والقضاة فى دمشق واستصدر من المجتمعين قرارا بخلع الموفق من ولاية العهد لأنه نقض البيعة بعدوانه على الخليفة وبعث بهذا القرار الى كل المدن والعواصم التابعة له ليتلى على المنابر كما أمر باسقاط اسمه من الخطب ومحو اسمه من الطرز .

بكاربن قتيبه قاضى مصر :

وسجل التاريخ لقاضى مصر بكاربن قتيبة شجاعته الأدبية فى هذا الموقف التاريخى فعلى الرغم من انه كان من اقرب المقربين الى ابن طولون وكان يجرى عليه ألف دينار شهريا على ما يقول ابن خلكان ، فقد كان هو الوحيد الذى رفض ان ينصاع الى ابن طولون فى خلع الموفق على أساس انه لم يشهد الوقائع المنسوبة الى الموفق ، كما انه لا يرى من حقوق ابن طولون استصدار مثل هذا القرار .

ولم يثنه الزج به فى السجن عن رايه .

الموفق يأمر بلعن ابن طولون :

وقد رد الموفق على قرار خلع له ، بأن أمر عماله وولاته بلعن احمد بن طولون على المنابر وكانت صيغة اللعنة : « اللهم العنه لعنا يقل من حده ويتعس جده واجعله مثالا للغابرين انك لاتصلح عمل المعسكرين » .

صالح الموفق مع ابن طولون :

ولكن هذه الاجراءات لم تفد الموفق شيئا فى زعزعة مركز ابن طولون داخل مصر وان اثرت عليه فى بعض الاطراف فهزم له جيش فى مكة . . ورأى الموفق ان من حسن السياسة ان يساير ابن طولون ، فبدأ باطلاق سراح الخليفة المعتمد الذى كان مسجوناً ، ووسط بعض من يكاتب ابن طولون للتقريب بينهما . واذا كان ابن طولون من ناحيته لا يحرص على شىء حرصه على الوفاق ، فقد التفت رغبة الطرفين فى التصالح . وهكذا خرج ابن طولون من هذا انصراف منتصرا فى تأكيد سلطانه الفعلى وان ظل يعترف بالتبعية الروحية للخلافة ، وهو ما لم يكن يفكر فى انكاره أى انسان فى ذلك الوقت مهما عظم سلطانه .

٨٨٣ م ٢٦٩ هـ : ابن طولون ينتصر على الروم :

وبلغت قوة ابن طولون ذروتها ، عندما انتصر عامه على مدينة طرسوس على جيوش الروم انتصارا باهرا حتى لقد قبل ان عدد قتلى الروم بلغ ستين ألفا وراقت غنائم الذهب والفضة والأحجار الثمينة قدرا لا تقوم . وذلك كله بالاضافة الى خمسة عشر ألف حصان ، وقد ذكر هذا الانتصار الساحق بمعارك الاسلام الكبرى فى صدر الاسلام . على ان بعض حركات التمرد التى قادها يازمان الخادم حملت ابن طولون على يذهب بنفسه لقمع هذا التمرد واعادة سلطانه على مدينة طرسوس وثغور الشام ، واذا كان الوقت شتاء والبرد قارصا فقد مرض ابن طولون ، وان لم يقعه المرض عن متابعة المعركة حتى كسر شوكة المتمردين ، بل وأرهب المتربصين .

٨٨٤ م - ٢٧٠ هـ : وفاة أحمد بن طولون :

عاد أحمد بن طولون الى مصر مريضا ، وعجز كبار الأطباء وعلى رأسهم الحسن ابن زبيرك عن علاجه ويقص علينا صاحب السيرة الطولونية عن هذه الفترة من حياة مصر - فيقول :

فاضطرت أحوال مصر بسبب مرضه وخرج الناس عن بكرة أبيهم الى الصحراء وفعلوا مثل مايفعلون في صلاة الاستسقاء ، فكان المسلمون يسيرون حفاة الأقدام وعلى رؤوسهم المصاحف ، والنصارى على رؤوسهم الأناجيل واليهود وعلى رؤوسهم اثوراة ، وخرج الاطفال من المكاتب وعلى رؤوسهم الاواح وخرج سائر العلماء والصلحاء يدعون الله تعالى له بالعافية والسفاء ، ولكن اذا كان لكل أجل كتاب ، فقد وافى الاجل في يوم الاثنين الثامن عشر من ذى القعدة من هذه السنة . ولم يمت أحمد بن طولون الا بعد ان اكد استقلاله بشئون مصر ، فأمر ان يبايع ابنه ابو الحسن خماروية بالملك من بعده .

وكانت سن أحمد بن طولون عند موته خمسين سنة لمن قال ان مولده كان عام ٢٢٠ هـ وكانت مدة امارته على مصر منها ست عشرة سنة ، وتكن ابن اياس يجعل هذه المدة اثنتى عشرة سنة فقط .

واذا كانت الارقام هى خير مايفصح عن الدلالات ، فان كتب التاريخ تسجل ارقاما لبعض ما خلف ابن طولون وراءه من ثروات ، تكشف عن مدى ما وصل اليه من غنى . فيقول ابن وصيف شاه وغيره ان أحمد بن طولون ترك وراءه :

دينار	١٠٠٠٠٠٠٠
مملوك ابض وقدرهم البعض الآخر بعشرة آلاف	٧٠٠٠
من الارقاء السود الذين كانوا يؤلفون حرسه الخاص	٢٤٠٠٠
فرس	٧٠٠٠
جمل وقدرها البعض الآخر بعشرة آلاف	٢٧٠٠
بغل وحمار	٦٠٠٠
سفينة بحرية وحرية وشوالى	١٠٠٠

وخلف من اللؤلؤ والجواهر والىواقيت مائة صندوق ومالا يحصى من التحف والفرش .

وبلغ خراج مصر في ابامه اربعة ملايين وثلاثمائة الف دينار مع وجود الرخاء وانخفاض اسعار الغلال وعدم التجائه للقسوة في جمع الضرائب .

ويستوقفنا هذا الرقم الاخير المقدر للخراج وقدره اربعة ملايين من الدنارات باعتباره مظهرا على ازدهار مصر ايام ابن طولون بالنسبة الى ماسبقها من احوال طوال القرن الماضى .

ومع ذلك فان الانسان لا يملك نفسه من المقارنة بين هذا المبلغ وما كان عمرو
ابن العاص يجمعه من خراج والذي قدر باثنى عشر مليون دينار .

ويلخص لنا ابن اياس حكم ابن طولون وشخصيته في العبارات التالية :

« وكان الامير احمد ملكا عادلا في الرعية كريما سخيا منقادا الى الشريعة ، يحب
العلماء والصلحاء وكان يصلى على من يموت في البلد فقيرا كان او غنيا بنفسه ،
ويحضر دفنهم ويحب فعل الخير - كثير البر والصدقات . وكان له اشتغال بالعلم
وطلب الحديث . وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة ، حكم في ايام ولايته من مصر الى
الفرات ومن مصر الى بلاد المغرب وعم العدل منه سائر الجهات ، حتى خيره على
خلفاء بغداد وكانت افعاله جميلة » . وعلى عادة هؤلاء المؤرخين القدماء الذين يحرصون
العبارات المتناقضة احيانا دون محاولة لتمحيصها فانه بعد هذا الثناء العريض على
ابن طولون ، يضيف قائلا :

« ولكنه سفاكا للدماء شديد الغضب ، سىء الخلق قيل مات في حبسه ثمانية
عشر ألف انسان » .

ويستعمل ابو المحاسن نفس هذه العبارة في كتابه انجوم الزاهرة ، ويصحح
المشرفون على طبع الكتاب هذه العبارة بما يخفف من وطأتها فيقولون ان صحتها انه
« مات وفي حبسه ثمانية الف انسان » .

امارة خماروية على مصر والشام :

في العاشر من ذى القعدة من هذه السنة ، ولى امرة مصر والشام وبرقة الابن
الثاني لآحمد بن طولون وهو ابو الحسن خماروية بناء على بيعة ابيه له وبدون
انتظار لاذن الخليفة . ويقول ستاتلى لين بول ان سن خماروية عندما ولى الحكم
عشرين سنة ، لكن صاحب النجوم الزاهرة يجعل مولده عام ٢٥٥ هـ ويكون معنى ذلك
ان عمره كان خمس عشرة سنة فقط عند امارته ، وكيفما كان الامر فقد ولى الحكم
وهو شاب صغير .

واذا كان اخوه ابو العباس قد تمرد من قبل على ابيه فلا عجب اذا رفض مبايعة
خماروية على الرغم من انه كان لا يزال في السجن . ولذلك فقد السرع خماروية
بالتخلص منه فأمر بقتله .

٨٨٥ م - ٢٧٢ هـ : تشييت سلطان خماروية على الشام :

انتبهز الامير ابو احمد الموفق فرصة وفاة احمد بن طولون ، لى يستعيد سلطان
الخلافة او بالاحرى سلطانه على مصر والشام وبرقة ، خاصة وانه كان قد فرغ
نهائيا من امر الزنج والاستقامت له الامور .

فأعلن أن ولاية خمارويه على مصر ومن ولاية أبيه نفسه غير شرعية . وأن الوالي الشرعي هو اسحق بن كنداج الذي عين من قبل أميرا على مصر ولم يستطع أن يدخلها . وجعل الموفق اسحق بن كنداج على رأس جيش للاستيلاء على الشام ومصر وسار معه حليفه محمد بن أبي الساج .

كما أرسل الموفق ابنه أبو العباس على رأس جيش آخر لاحتلال الشام كذلك . فلما علم خمارويه بمسير هذه القوات إلى الشام ألف جيشا بقيادة كاتب أبيه عبد الله أحمد الواسطي وعززه بأسطول قوى من البحر ، ولكن الواسطي على ما يقول المقرئ سرعان ما خان سيده وانضم إلى الموفق ، وعلى ذلك فقد سقطت الرقة وقنسرين وبقية مدن الشام الكبرى في يد قواته المختلفة .

فسار خمارويه على رأس جيش جديد إلى الشام لمحاربة القوى المتألبة عليه . وإذا كانت هذه فيما يبدو أول مرة يشهد فيها قتالا ، فقد انهزم هزيمة منكرة وفر يصحبه الجزء الأكبر من جيشه إلى مصر . على أن أحد قواده وكان يدعى سعد الأيسر ويسميه البعض سعد الأعر لم يعلم نبأ هزيمة خمارويه وانقض من ناحيته على جيش الموفق المنتصر والذي كان مشتغلا بجمع الأسلاب ، فهزمه واضطره الفرار ودخل سعد الأيسر إلى دمشق وبعث بالنبأ لخمارويه .

وكان لهذا الحادث فعل السحر في شخصية خمارويه فقد أعاد إليه رباطة جاشه ووجدناه يعود إلى الشام من جديد على رأس جيشه ، ويخوض سلسلة من المعارك الناجحة في بسالة وشجاعة فهزم الجيوش المتحالفة تحت قيادة ابن كنداج وراح يتعقب الجيوش المنحدرة حتى جاوز حدود الشام ودخل العراق ، ووصلت طلائع جيوشه إلى مدينة سر من رأى نفسها .

وقد كان هذا نصرا مؤزرا على جيوش الموفق التي كانت قد فرغت لتوها من حروب الزنج بالانتصار الرائع ، فأذهل هذا النجاح الذي أحرزه خمارويه معاصرة من الأعداء قبل الأصدقاء وكان أول ما استسلم لسلطانه ابن كنداج نفسه فرضى أن يعمل تحت إمرة خمارويه وأن يدعو له على المنابر .

٨٨٦ م ٢٧٣ هـ : خمارويه أمير على مصر والشام ثلاثين سنة :

ومن جديد لم ير الموفق من سبيل إلا التصالح مع خمارويه ، وكانت هذه رغبة الخليفة المعتمد . وعلى ذلك فقد تم الصلح على أساس الاعتراف لخمارويه وأولاده من بعده بامارة مصر والشام لمدة ثلاثين عاما مقابل أن يدفع مائتي ألف دينار سنويا عن المدة السابقة وثلاثمائة ألف دينار سنويا عن مقبل الأيام .

٨٨٨ م - ٧٢٥ هـ : خمارويه يصير أميراً على الموصل :

شجع خمارويه ما أحرزه من نجاح عسكري لكي يمد سلطانه الى بلاد الموصل ، فأستولى بجيوشه على مدينة البرقة ، وأسرع الخليفة المعتمد بالاعتراف بأمارته على الموصل فدعا له على منابرها ، وعين خمارويه أميراً من قبله على الموصل أحد خصومه القدماء ابن أبي ساج ، الذي لم يابث أن تمرد على خمارويه ووجد محاولة الاستيلاء على الشام ، فما كان من خمارويه إلا أن سار من جديد على رأس جيش لتأديب ابن أبي ساج . وفي معركة طاحنة بالقرب من دمشق ، أثبت خمارويه من جديد قدرته العسكرية ، فانتصر انتصاراً ساحقاً على جيوش ابن أبي ساج ، فراح يطارده حتى وصل الى نهر دجلة في بعض الروايات وفي روايات أخرى نهر الفرات . وهناك بنى لنفسه على ما تقول مختلف الروايات عرشاً جالس عليه لبشهادته احتفالات النصر ، مما يذكرنا بفعل بعض الفراعنة من قبل .

٨٩٠ م - ٢٧٧ هـ : الدعاء لخمارويه في مدينة طرسوس :

أحدث هذا النصر العسكري الباهر أثره في يازمان الخادم حاكم مدينة طرسوس الذي أعان التمرد في ختام عهد ابن طواون ، أن يعان ولائه لخمارويه وراح يدعو له على منابر طرسوس وأرسل اليه خمسين ألف دينار تمثل الخراج المستحق عليه . واذ كان يازمان يمثل قوة الاسلام التي تواجه الروم فقد وجد في خمارويه القوة الحقيقية التي تستطيع أن تدعمه في قتاله ضد الروم . ولم يخب خمارويه ظنه فقد راح يمدّه بالمال والرجال والاسباطيل مواصلة الحرب ضد الروم - فأستطاعت الجيوش الاسلامية ان تتوغل من جديد في بلاد الروم ، كما لم تفعل منذ سنوات وسنوات .

٨٩١ م - ٢٧٨ هـ : ظهور القرامطة :

في هذه السنة بدأ ظهور إحدى الحركات الهدامة في تاريخ الدولة الاسلامية والتي اشتهرت باسم القرامطة نسبة الى قرمط بن الأشعث ، وهم وأن اظهروا الاسلام الا انهم في حقيقتهم ، على ما يقول مؤرخوا الاسلام القدامى ، إحدى فرق الزنادقة والملاحدة من الفرس الذين يدينون بدين زرداشت وكانوا يبيعون المحرمات . وكانت المنطقة التي بدأوا منها نشاطهم هي منطقة هجر والبحرين ، ولكنهم لم يابثوا ان اغاروا على مكة والشام ، وكانوا أحد العوامل التي تؤدي الى سقوط الدولة العباسية

٨٩٢ م ٢٧٩ هـ : وفاة الخليفة المعتمد :

في ليلة الاثنين التاسع عشر من شهر رجب مات الخليفة المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل ، كانت سنه يوم وفاته خمسين سنة حكم منها ثلاث وعشرين سنة ، وان كان حكما كما رأينا أسميا ، ذلك أنه كان أخا لهو وأنهماك في المالدات : فولى أخاه الموفق أمور الحكم فلم يلبث أن استبد بها . وكانت وفاة المعتمد فجأة حتى قيل أنه قتل بالسم وقيل أنه خنق .

خلافة المعتضد بن الموفق :

كان أبو أحمد الموفق أخو المعتمد قد مات قبل أخيه وكان الخليفة المعتمد قد جعل ولاية العهد لابن أخيه المعتضد بعد أن خلع ابنه منها : وفوض للمعتضد كل ما كان لأبيه من الأمر والنهي .

تثبيت خمارويه في حكم مصر والشام وبرقة :

استهل المعتضد سلطانه بأن جدد عهد خمارويه على امرة مصر والشام وبرقة لمدة ثلاثين عاما له ولأولاده من بعده وأن يكون له كل السلطان من صلاة وخراج وقضاء وسائر الاعمال . له جدال في أن الهدايا التي بعث بها خمارويه للخليفة الجديد ، والعروض المالية التي عرضها عليه كانت هي الحافز لتجديد هذا العهد . وكان على رأس عروض خمارويه للخليفة أن يزوج ابنته قطر الندى من ولي عهد الخليفة ، فقبل الخليفة العرض على أن يكون الزواج لنفسه بدلا من ابنه . وكان معنى هذا الزواج أن خمارويه قد أصبح ندا للخليفة ، وصهرا له .

٨٤٥ م - ٢٨٢ هـ : زفاف قطر الندى :

في الثامن من محرم من هذه السنة وصات قطر الندى ابنة خمارويه الى بغداد لتزف الى الخليفة المعتضد في صحبة أبي عبد الله الخصاص . وقصة زواج قطر الندى بالخليفة المعتضد وما انفق على جهازها أشبه ما يكون بالأساطير لكثرة ما حوت من مبالغات ولكن من المحقق أن الخليفة قد اشترط في جهاز قطر الندى شروطا محددة ، ويذهب بعض المؤرخين الى أن المعتضد قصد الى افقار خمارويه باللدات تمهيدا للقضاء عليه .

ومما يقال عن هذا الجهاز انه كان يحتوي على مائة هون من الذهب وبالغ الذهبى فقال بل ألف هون وكان من بين الجهاز دكة (مقعد) يتألف من أربع قطع من الذهب وعليه قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك قرط معلق به حبة من جوهر لا يعرف له قيمة .

وكان من بين ملابسها الداخلية ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار . ويقول المقرئى انه لم يبق تحفة من كل لون الا جعلت في جهاز ابنة خمارويه .

ويلخص البعض أمر المهر في هذا الزواج وما أنفق على الجهاز في أن المهر كان مليون درهم ونفقات الجهاز مليون دينار ، ولم يكتف خمارويه بذلك بل أعطى ابنته مائة ألف دينار لتشتري من العراق ما قد تحتاج اليه مما يتعذر وجوده في البلاد المصرية (١) .

قصور على الطريق :

ولم يقف الانفاق على هذا العرس عند حد الجهاز ، بل أن خمارويه قد أنشأ على طول الطريق من مصر الى بغداد قصرا على رأس كل مرحلة سيتوقف عندها ركب ابنته ، حتى اذا نزلت الى القصر وجدت فيه كل ما اعتادت أن تجده في قصر أبيها من وسائل الترف .

حفلة الزفاف :

ولقد أقيم لقطر الندي عند وصولها الى بغداد حفلة زفاف تتناسب وما أحاطها أبوها من دوى ، فكانت حفلة على ما يقول المؤرخون لم تشهد لها بغداد مثيلا من قبل .

وقد فرح الخليفة بعروسه فرحا منقطع النظير وأحبها حبا شديدا لجمال صورتها ووفرة أدبها . وإن كان سنها عندما دخل بها لم يكن يزيد على اثني عشرة سنة .

أحلام خمارويه :

ولا شك أن خماروية كان يخطط بهذا الزواج لمشروعات سياسية واسمعة المدى ولكن سر هذه المشروعات قد طوى في نفسه فلن يلبث أن يموت .

٨٩٤ م ٢٨١ هـ : خمارويه يستأنف الجهاد ويغزو الروم :

وليس أدل على طموح مشروعات خمارويه أنه لم يكذ يسمع نبأ استشهاد بازمانه الخادم في أحد معاركه مع الروم ، حتى أرسل بدلا عنه طفح بن جف ، وكلفه بمواصلة غزو الروم في عقر ديارهم ، فتوجه الى طرسوس وقصد منها الى مدينة طرابزون ، في الوقت الذي سير فيه خمارويه أسطوله البحري ليشد أزر الجيش المهاجم . فاستطاع طفح بن جف أن يفتح مدينة ملورية ، وقد كان لهذه الانتصارات أثرها على الروم إذ حماتهم على طلب الصلح ، ولكن كان مقدرا لخمارويه أن لا يعيش حتى يرى ثمرة جهاده .

(١) السيوطي : « حسن المحاضرة » . محمد جمال سرور : « الدولة الفاطمية في مصر » .

٨٩٥ م - ٢٨٢ هـ : مصرع خمارويه :

ذبح خمارويه على فراشه في قصره الذي أنشأه في دمشق بسفح جبل قاسيون وذلك في منتصف شهر ذي الحجة من هذه السنة ، وقيل بل في الثالث من ذي الحجة ، أما سبب ذبحه فقد ترددت فيه شتى الاقاويل ، وأظهر الروايات أن بعض خدمه أولع بجارية له فهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع عشيقها على قتله ، فتعاون مع بقية الخدم على فعلته .

وكان الأمير طنج بن جف مع خمارويه (١) في هذه الليلة : فلما بلغه الخبر قبض على خدم القصر وكانوا نيفا وعشرين فذبّحهم وصلبهم وحمل خمارويه في تابوت الى مصر . فكان لدخوله يوم عظيم اذ استقبله الجوارى والغلمان بالصراخ والنحيب وشقوا عليه الثياب ، على ما يروى المعاصرون . وكانت مدة ملكه على مصر والشام اثنتى عشرة سنة وأيام .

من صفات وأعمال خمارويه :

وكان خمارويه على الرغم من صغر سنه كما يصفه المؤرخون طويل القامة اذا ركب جوادا بدا كما لو كان قطعة جبل ، وكان مهيبا ذا سطوة محبا للصيد فكان يخرج لصيد السباع واتخذ لها في حديقة قصره حظائر خاصة ، ولم تكن الحديقة قاصرة على السباع ، بل ضمت شتى صنوف الحيوانات والطيور ، وأنواع النباتات النادرة التي استجلبت من شتى بقاع الارض .

ولن تكمل صورة حياة خمارويه ، وما هيا له المجتمع المصري من أسباب الترف ، الا اذا نقلنا بعضا مما أفاض فيه المؤرخون في وصف قصر خمارويه وحديقته وبركة الزئبق الخالدة .

بستان خمارويه :

يقول أبو المحاسن :

لما ملك خمارويه الديار المصرية بعد موت أبيه أقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه محاسن كثيرة ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه المجاور للجامع فجعله كاله بستان وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورود ، وزرع ، فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء

(١) هو والد الأمير محمد بن طنج الذي سيشتهر باسم الاخشيذ .

بتدبير معين ، فكان الماء يخرج من تضاعيف قائم النخل على شكل عيون ، فينحدر الى مساك معموله ، ويفيض الماء منها الى مجار تسعى سائر البستان ، وغرس أرض البستان من الريحان المزروع على صورة نقوش معموله ، وكنابات مكسوبة يتعهد بها البستاني بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة لئلا تشكل قراءتها على القارىء .

وكان له في هذا البستان مجلس سماه دار الذهب ، اذ طليت حيطانه كلها بالذهب والارورود في احسن نقش وجعل في حيطانه مقدار قامة ونصف ، صور بارزه من خشب معمول على صورته (أى صورة خمارويه) ، وصور حظاياها والمفنيات اللاتى تغنيته في احسن تصوير وأبهج تزويق (١) ، وجعل على رؤوسهن الاكاليل من الذهب والجواهر المرصعة ، وفي آذانها الاقراط الثقال . . ولونت أجسامها بأصناف تشبه الثياب من الاصباغ العجيبة فكان هذا القصر من اعجب ما بنى في الدنيا .

بركة الزئبق :

وجعل بين يدي هذا القصر فسقية مלאها زئبقا وكان طولها خمسون ذراعا وعرضها كذلك . ومائت بالزئبق وقد انفق على ذلك أموالا عظيمة . وكان الاطباء هم الذين أشاروا عليه بعملها حتى يتغلب على الارق الذى كان يعيبه فكان ينام على حشية تملأ بالهواء وتوضع على الزئبق فتظل تتأرجح وهو فوقها في هواده ولين حتى يدركه النوم .

وكان لبركة الزئبق في الليالى القمرية منظر عجيب وقد ظل الناس يستخرجون الزئبق كلما حفروا في الارض بعد خراب هذه البركة بزمن طويل .

قمة الازدهار :

وهكذا يعتبر عهد خمارويه ذروة ما وصلت اليه الدولة الطولونية من القوة والسيادة في شتى الميادين ، سواء ميادين الفتح والغزو ، أو اتساع رقعة الحكم والنفوذ ، أو فرط الغنى والأسراف ومظاهر الترف .

وحسبه انه فاق أباه في علاقته بالخليفة ، فحيث كان أبوه ينظر للخليفة نظرة التقديس ، فقد نظر خمارويه الى الخليفة نظرتة الى زوج ابنته .

غير أن خمارويه لم يلحق أباه في التقوى والورع والاهتمام بالعلم والادب ، ولا شك ان نقطة الضعف في سيرته هي حياته الشخصية التى أدت الى نهايته المفجعة .

امارة ابو العساكر جيش :

في السابع عشر من ذى القعدة من هذه السنة حكم مصر ابن العساكر جيش بن خمارويه ولم يكن عمره يوم ولى لحكم أكثر من أربعة عشر عاما ، فأقام بدمشق أياما

(١) استوحى خمارويه هذا اللون من الرسوم التسجيلية من آثار الملوك الفراعنة ممن سبقوه في

حكم مصر .

ثم عاد الى مصر ، وأقبل على الشراب واللهو ومخالطة بعض من وصفهم المؤرخون القدامى « بالعامية والأوباش من يحملون الحجارة الثقيل والعمد الحديد ويعانون الصراع » (١) ، فحسّنوا له قتل عمه فقبض عليه وأودعه السجن ، فكان طبيعيا أن ينقم عليه الناس فانفض كبار القواد من حوله ، وهاجر بعضهم الى بغداد أما قواد الشام فقد خلعوا طاعته .

٨٩٦ م - ٢٨٣ هـ : مصرع أبى العساكر جيش :

طالب الساخطون من رجال الجيش الطواغيت أبى العساكر باعتزال الحكم ليولوا عمه نصرا بدلا منه فما كان من أبى العساكر إلا أن دخل السجن حيث كان يوجد عمه نصر وأمر بقطع رقبته ، وبقتل عم آخر كان له وقذف برأسيهما الى المتمردين قائلا لهم هذا هو أميركم .

فأهاج هذا الصنيع الجند فهاجموا على أبى العساكر وقتلوه وقتلوا أمه معه ونهبوا داره وأحرقوها .

وقد تعددت الروايات في كيفية خلعه وموته ولكنها كلها تدور حول هذه الوقائع . وكانت مدة حكمه قرابة ستة شهور .

أماره هارون بن خماروية :

في العاشر من جمادى الثاني ولى حكم مصر هارون بن خماريه بعد مقتل أخيه ، وقد بايعه الجند بالرغم من أنه كان أصغر من أخيه ، وفي غير مقابل ، أى بدون أن يقبضوا الرواتب المعلومة عند كل تولية أمير جديد ، ويعلق أبو المحاسن على ذلك أنه من الفرائب وقد بايعه الجنود جماعات جماعات لم يتخلف منهم أحد ، وعينوا من بينهم أبى جعفر بن أبى ليكون وزيرا له ومدبرا لأموره . وقد أشرك أبو جعفر ثلاثة من زملائه القواد فأصبح الحكم شركة بينهم .

وقد حاول ربيعة بن أحمد بن طولون عم هارون أن يخلع بيعته وأن ينادى بنفسه أميرا على مصر وشجعه على ذلك فريق من الناس ، ولكن رجال الجيش كانوا يؤثرون صبيا صغيرا في الحكم ليظل النفوذ والسلطان بأيديهم ولذلك فقد تصدوا لربيعة : وتغلبوا عليه وقيل أنهم قتلوه ضربا بالسياط .

٨٩٩ م - ٢٨٦ هـ : تثبيت هارون بن خماروية في أماره مصر :

طلب هارون بن خمارويه من الخليفة المعتضد أن يجدد له الولاية على مصر

(١) من الواضح أن المقصود بهذا التعبير هم من نسميهم في العصر الحديث الرباعين « حملة الحديد والمصارمين » .

والشام في مقابل أن يدفع المعتضد ٤٥ ألف دينار كل عام ، فأجابه الخليفة الى طلبه ، وبعث اليه تقليدا بذلك .

ومجرد التقدم بهذا العرض يدل على تدهور الاحوال في مصر ، وفقدانها استقلالها فقد كانت الثلاثون عاما التي تم الاشتراط عليها ايام خمارويه لم تنته بعد .

ويظهر تدهور الاحوال بالاكتر في أن حكم هارون بن خمارويه على الشام لم يكن الا اسما فقط ، فان طفج بن جف حاكم الشام بدأ يحكمه حكما مستقلا كل الاستقلال عن مصر ، حيث يتجه في التماس التوجيه صوب بغداد لا القطائع .

٩٠٢ م - ٢٨٩ هـ : وفاة الخليفة المعتضد :

في الثاني والعشرين من ربيع الثاني مات الخليفة المعتضد عن سبع وأربعين سنة . وكانت مدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وایام . وقد وصف المعتضد بأنه كان شجاعا مهيبا أسمر نحيفا معتدل الخلق ظاهر الجبروت حتى قيل أنه كان يتقدم على الاسد وحده . وتعتبر أيامه بمثابة صحوة في خلافة بنى العباس فقد استعاد الخليفة نفوذه وسلطانه الفعالي فراح يمارس السلطات الادارية والعسكرية بنفسه ، ولم يمنعه من تفويض آخر ظل لاستقلال الطولونيين الا محافظته على العهد الذي قطعه على نفسه لخمارويه ، وحرصه على ارضاء زوجته قطر الندى التي ماتت قبل موته بفترة قصيرة .

خلافة المكتفى بالله :

في جمادى من هذه السنة ولى الخلافة أبو محمد على المكتفى بالله ابن المعتضد بعهد من أبيه . وكانت سنة يوم ولى الخلافة احدى وثلاثين سنة . وكان يضرب بحسنه المثل في زمانه ، اذ كان على ما يقول معاصروه معتدل القامة وردى اللون اسود الشعر حسن اللحية جميل الصورة ، وامه ام ولد تسمى خاضع .

٩٠٣ م - ٢٩٠ هـ : القرامطة يحاصرون دمشق :

كان خطر القرامطة الذين اشرنا الى مبدا ظهورهم قد استشرى في عهد زعيمهم الجديد أبو سعيد القرمطي الذي ضم اليه الاعراب المحيطين بالبحرين ، وراح يقتل سكان القرى المجاورة ، ممن لا يؤمنون بايمانه ولا يخضعون لطاعته ، ولكي يعطى لدعوته قوة ادعى لنفسه نسبا علويا وانه حقيق بالخلافة . ولكي يحيط نفسه بجماهير من الناس ، نزع منزعا اجتماعيا واقتصاديا اقرب ما يكون الى صورة المذاهب الفوضوية الحديثة التي تدعو الى شيوع الاموال والنساء .

وفي هذه السنة قصد سعيد الفرملطى بجيشه الى بلاد الشام ، فروع سكانه ، وأستولى على بعض مدنه ، ولم يستطع طفج بن جف امير الشام ان يرد عاديتهم بل لفد وصلوا الى حد محاصرته في دمشق نفسها . فأرسل طفج بن جف امير الشام يستعين بهارون بن خمارويه فاستجمع هارون بن خمارويه او بالاحرى قواده آخر ما عندهم من موارد وفوى وبعثوا اليه بجيش على رأسه بدر الحماني لقتال القرامطة ، ولكن القرامطة تغلبوا على هذا الجيش ودحروه .

الخليفة المكتفى يتولى حرب القرامطة :

كان طبيعيا وقد فشل الطولونيون في صد القرامطة عن الشام . ان يسقطهم الخليفة من حسابه وأن يعتمد على جيوشه . فعهد الى محمد بن سليمان الكاتب ان ينصدي لحرب القرامطة ، وأن يتولى امرة الشام وكل ما كان بيد الطولونيين من أعمال .

وانصر محمد بن سليمان انتصارا رائعا على القرامطة وساق عددا كبيرا من أسراهم الى بغداد حيث قتلوا فيها .

وقد نسجع هذا النصر الخليفة المكتفى فعهد الى محمد بن سليمان ان يمضى الى مصر ليكون أميرا عليها وأن يسقط الطولونيين . ولم يكن محمد بن سليمان هذا الا احد رجال احمد بن طولون .

٩٠٥ م - ٢٩٢ هـ : سقوط الدولة الطولونية :

تضافرت الظروف كلها لانهاء الدولة الطولونية ، فهذا العجز عن رد غارة القرامطة عن الشام ، وما أدى اليه الخلاف بين أبناء الأسرة الواحدة من انفضاض قواد الجند من حولهم والتجائهم الى بغداد للتعاون معها . فقد ابى هارون بن خماروية الا ان يعجل بالنهاية عندما توقف عن دفع ما تعهد بدفعه سنويا لدار الخلافة وهو ٥٠٠٠٠ ر.هـ دينار - فكان هذا القرار بعزل هارون بن خمارويه عن امرة مصر وتولية محمد بن سليمان عليها ، وتكليفه بالزحف بجيشه الى مصر .

وقد بعث محمد بن سليمان بانذار الى هارون يطلب منه التنازل عن الامارة ، والذهاب الى بغداد لبضع نفسه تحت تصرف الخليفة .

ولكن هارون بن خماروية ، او بالاحرى حاشيته وبطانته من القواد والجند وأفراد الاسرة ، قرروا الدفاع عن حقهم . فجمع هارون ما لديه من قوات برية وسار بهم حتى بلدة العباسية على أطراف الحدود الشرقية استعدادا لمواجهة طليعة جيوش الخليفة الزاحفة والتي كانت قد تخطت مدينة الفرما . وفي ذات الوقت أبحر الأسطول الطولوني في النيل تحت قيادة وصيف القطرميز ، ليواجه أسطول الخلافة البحرى الذى كان يرأسه دمبان البحرى .

وجرى الصدام البحرى قبل البرى ، فقد التقى الاسطولان عند مدينة تنيس ، فانهزم الأسطول المصرى وسقطت المدينة . وحاول الاسطول المصرى أن يقف مرة أخرى عند دمياط ولكنه انهزم مرة أخرى ، واستولى اسطول الخلافة على مراكب المصريين وأسر من فيها من الرجال والمقاتلة ، كما سقطت مدينة دمياط فى أيديهم . وزحف الأسطول العباسى حتى وصل مقابل الجيزة وجزيرة الروضة ، ولكنها وقفت عاجزة عن أن تفعل شيئاً فى انتظار مقدم الجيش البرى .

مصرع هارون بن خمارويه :

وإذا كان القدر قرر مصير الدولة الطولونية ، فقد كانت هذه اللحظة الخطيرة هى التى اختارها شيبان بن أحمد بن طولون ، ليستولى على الملك من ابن أخيه هارون ، فتم أمر مع بعض خدم هارون فأدخلوه عليه وهو يغط فى نومه فى خيمته وسط جيشه الذى أعده للملاقاة جيش الخليفة ، فدبحه شيبان فى فراشه .

ونادى بنفسه ملكاً على مصر ، وانسحب بالجيش من العباسية متراجعا نحو القسطنطينية والعسكر والقطائع ليعد وسائل المقاومة .

وكانت مدة حكم هارون بن خمارويه ثمانى سنوات وثمانية أشهر وأيام .

امارة شيبان بن أحمد بن طولون :

عجل هذا الاجراء الذى أقدم عليه شيبان بنهاية الدولة الطولونية ، فقد انحسرت القواد الطولونية بعد مصرع هارون الى جيش محمد بن سليمان الزاحف فزاده قوة على قوة . كما انضم اليه الحسين بن أحمد المازناتى العارف بأحوال البلاد المالية . وما هى الا أيام قليلة حتى كان جيش محمد بن سليمان يضرب الحصار على القسطنطينية والقطائع من البر والبحر .

ولأمر ما قررت الجيوش الطولونية التسليم أن لا تستسلم وأن تدافع حتى النهاية ، ولكن الخور دب الى نفس شيبان ومن بقى معه من آل بيته وخاصته فبعث الى محمد بن سليمان يعلن استعداده لتسليم نفسه مقابل المحافظة على حياته وحياة من معه ، فأجابه ابن سليمان الى طلبه . فخرج شيبان سرا وسلم نفسه ومن معه منها بذلك حكمه الذى بدأه بالجريمة والذى لم يدم سوى بضعة أيام ، وكانت جيوشه لا تعرف بما حدث ، وظلت على تعبئتها للقتال . وعندما عرف الخبر ، فان الفرسان بادروا بالتسليم ، ولكن الجيوش البرية من المشاة وكثرتهم الغالبة من السودانيين ، أبوا إلا أن يشبثوا ويواصلوا الحرب والقتال : ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله جنود لا قائد لهم . ولذلك فسرعان ما انكسروا . وبدأت الفرسان تقبض عليهم ويقودونهم بين يدي محمد بن سليمان لكى يذبحوا كما تذبح الشاة .

ودخل محمد بن سليمان القسطنطينية من غير أن يمنعه مانع أو يعترضه معترض فى يوم الخميس آخر صفر .

خراب القطائع ونهاية الدولة الطولونية :

وبدا محمد بن سليمان صفحة من أسود صفحات التاريخ الاسلامى فى مصر ، اذ يقول لنا أبو المحاسن « ان جيش محمد بن سليمان هجم على دور الناس فنهبوها ، وأخذوا أموالهم وسبوا حريمهم ، وفتكوا فى الرعية وافتضوا الأبقار وأسروا الممالك بل والأحرار من النساء والرجال ، وفعلوا فى مصر ما لا يحله الله من ارتكاب المآثم . ثم تعدوا الى أرباب الدولة فأخرجوهم من دورهم وسكنوها كرها وفعلوا فى المصريين ما لا يفعلونه فى الكفرة .

وأصدر محمد بن سليمان أحكامه فى الكثيرين من أهل مصر بضرب اعناقهم وقطع أيديهم وأرجلهم وتمزيق ظهورهم بالسياط وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال .

وأمر فى خاتمة المطاف بحرق القطائع التى كانت حول المدن ، ولم يعف الا الجامع وهكذا تحولت هذه المدينة المزدهرة الى خراب وبياب كأن لم تكن بالامس ، وزالت دولة بنى طولون وكان لم تكن .

ويرثى أبو المحاسن الدولة الطولونية فبصفها بأنها كانت من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام .

كما رثاها عشرات الشعراء الذين تغص كتب التاريخ بمختارات من أشعارهم . وقد استمرت الاسرة الطولونية ٣٧ سنة وأربعة شهور واستعادت فيها مصر أهميتها القديمة ووصات عاصمتها الى درجة من الازدهار والثروة والترف لم تعرفها منذ الفتح الاسلامى .

مؤرخو الدولة الطولونية :

وكان طبيعيا وقد كان عصر الدولة الطولونية هو عصر ازدهار أن يخلد لنا بعض مؤرخيها المعاصرين ذكراها . وعلى رأس هؤلاء أبو جعفر أحمد بن يوسف الشهرى باسم ابن الداية ، والذي قربه اليه أحمد بن طولون وخمارويه من بعده ، فأشبهه أن يكون المؤرخ الرسمى للدولة . وقد بقى من كتبه لحسن الحظ « سيرة أحمد بن طولون » وكتاب المكافاة . والمطالع لهذه الكتب يدرك أن ابن الداية لم يكن مجرد مؤرخ فحسب بل كان عالما دارسا للهندسة والفلك ، وكان فوق ذلك ذا نظر ثاقب يغوص فى صميم المجتمع المصرى ويعرض لجوانبه بعين الناقد الفاحص . كما يكشف كتاباه عن شيوع فلسفة افلاطون والمعارف الاغريقية بين المثقفين فى عصره .

أما المؤرخ الثانى فهو أبو محمد عبد الله بن محمد الدينى المشهور باسم « اكيكوى » وقد حفظ لنا بين مؤلفاته « سيرة أحمد بن طولون » وهو أكثر الكتب تفصيلا عن هذه الحقبة من تاريخ مصر . وهو يلقي ضوءا على صناعة الطب ، فيحدثنا كيف كان للأطباء ازياؤهم الخاصة وكان لكل طبيب أعوانه ومساعدوه من الشاكرية

ومهمتهم دق العقاقير وعجن الادوية ونفخ النار . وكانت للأطباء وسائلهم في الفحص والعلاج فيجسسون النبض أو يفحصون الفضلات . وكانوا يحددون للمريض أنواع الأطعمة التي يأكلها ، وكان بعضهم يمارس علم النفس في علاج مرضاه (١) .

مصر اسلامية لهما ودما :

واذا كانت مصر قد اعتبرت جزءا من الدولة الاسلامية منذ الفتح . واذا كانت الصبغة الاسلامية قد بدأت تنفذ اليها بالتدريج كما رأينا ، فان الاتفاق على أن العهد الطولوني لم يكد يظل البلاد حتى كانت أغلبية سكان مصر قد أصبحت تدين بالاسلام ، بكل ما ترتب على ذلك من تغير في العلاقات الاجتماعية وخاصة ما اتصل منها بالروابط العائلية .

المسيحية المحترمة :

على أن تحول مصر الى مجتمع اسلامي ، لم يعن أن الاقلية المسيحية قد شقيقت في ظل هذا المجتمع ، فقد ظل المسيحيون يشكلون جانبا محترما من المجتمع ، وليس أدل على ذلك من أن الدولة ظلت تشترك على أوسع نطاق في الاحتفالات والاعياد المسيحية . كيوم أحد التسمانيين وخميس العهد - ويوم الفطاس - وعيد الشهداء . وبدأ الأقباط من ناحيتهم يتحدثون اللغة العربية ، وبدأت معاملاتهم تجري بها ولدينا من هذا العصر عقود زواج تمت بين الأقباط باللغة العربية (٢) .

٩٠٥ م - ٢٩٣ هـ : انتفاضة طولونية :

لم يكد محمد بن سليمان يغادر مصر ويبعث الخليفة المكتفي بأبي موسى عيسى بن محمد النوشري ليكون أميرا على مصر ، حتى انفصل عن جيش محمد بن سليمان أثناء عودته الى العراق قائد سابق في الجيش الطولوني يسمى محمد بن علي الخلنجي ، وعزم على احياء الدولة الطولونية ، فيمم سطر مدينة الرملة في فلسطين وهزم واليها وأمر بالدعوة على منابرها للخليفة ومن بعده ، لابراهيم بن خمارويه بوصفه أميرا للبلاد ومن بعدهما لنفسه بوصفه نائبا عن ابراهيم بن خمارويه ، وسرعان ما لقيت دعوته ترحيبا وحماسة وخاصة في مصر فقد عز على أهل البلاد أن يعودوا من جديد ليحكموا من خارج الحدود لحساب ولاية وامراء لم يطاؤا أرض مصر . . وكان يضاعف في مراتهم ضد الحكم العباسي . ما ارتكبه محمد بن سليمان من فظائع وما صبه على أهل مصر من ويلات .

ولذلك فقد تسارع الكثيرون الى تأييد دعوة الخلنجي ، مما جعله يزحف بمن التف حوله نحو مصر . وعندما تصدى له عيسى بن النوشري بجيشه عند غزة دارت

(١) كتاب الدكتور سيدة اسماعيل كاشف ص ٢٣ .

(٢) كتاب الدكتور سيدة اسماعيل كاشف ص ١٠٤ .

الدائرة على عيسى ، وانهزم عيسى وجيشه هزيمة منكرة عندما حاول من جديد أن يتصدى لجيش الخلعجي الزاحف والذي استولى على مدينتي الفرما والعريش ، وجلا عيسى النوشري عن القسطنطينية تحت ضغط أهلها فيما يبدو فدخلها محمد الخلعجي في السادس والعشرين من ذي القعدة وسط الترحيب والأفراح .

وكن قلة الاموال في يد الخلعجي جعلته يتشدد في جمعها من الاعيان والقادرين ، مما احفظهم عليه - ويقول أبو المحاسن بصدد حركة الخلعجي : وأمر محمد هذا من اعجب العجائب ، فقد أراد أن يأخذ بثأر بني طولون والانتصار لهم على ما وقع من محمد بن سليمان فوقع منه أضعاف ما وقع من محمد بن سليمان . ولذلك فعندما بعث الخليفة المكتفي بجيش جديد جمعت عساكره من العراق وسوريا وفلسطين ، فقد انفضت عساكر الخلعجي عنه اذ ايقنوا بقرب هزيمته . وانتهى أمره بأن قبض عليه . بعد أن دام ما وصف بأنه عسيان وتمرد سبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً .

٩٠٥ م - ٢٩٣ هـ : اماره عيسى النوشري الثانية على مصر :

في الخامس من رجب عاد عيسى النوشري الذي كان طوال المدة السابقة مرابطا في الصعيد ، ببعض جنوده وبصحبته الحسين الزرداني ، فدخل القسطنطينية مبتدئا بذلك امارته الثانية على الصلاة ، والمازرداني على الخراج . وكانت احوال مصر خلال هذه المدة قد ساءت وتدهورت نتيجة ما أصابها على يد محمد بن سليمان من حرق لمدينة القطن وقتل وتشريد ، وما أعقب ذلك من حركة الخلعجي

٩٠٧ م - ٢٩٥ هـ : وفاة الخليفة المكتفي :

في شهر ذي القعدة من هذه السنة مات الخليفة المكتفي بالله أبو محمد على بن المعتضد ، وكانت سنه عندما مات احدى وثلاثين سنة ، حكم منها ست سنوات ونصف . وقد خلف وراءه في بيت المال خمسة عشر مليون دينار ، وهذا الرقم ان دل على شيء فانما يدل على أنه تابع الصحوة التي بدأت في عهد أبيه .

الخليفة جعفر المقتدر :

بويق بالخلافة بعد موت المكتفي أخوه جعفر المقتدر ولم تكن سنه يوم بويق بالخلافة تزيد على ثلاثة عشر عاما فكان بذلك أصغر من ولي الخلافة منذ تأسست .

٩٠٩ م - ٢٩٦ هـ : عزل الخليفة المقتدر وعودته ثانية :

الم يرض بعض القواد عن صغر سن الخليفة ، وما ظهر على الفور من تسلط أمه على شئون الحكم فقر قرارهم على خلعه وتولية عبد الله بن المعتز شاعر بني العباس

المشهور ، فوافقهم على ذلك شريطة أن يتم الأمر بغير انقلاب أو سفك دماء وعن رضا واجتماع حكمة ، فأجابوه الى شرطه وبايعوه .

ولكن نونا الخادم أحد القادة ، لم يوافق على خلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز ولذلك فقد قبض عليه هو ومن ساعده على تولى الخلافة وقتله في نفس اليوم ، فكانت مدة خلافته على ما يقول الطبرى يوما بل نصف يوم ، وهى أقصر مدة حكمها خليفة أو ملك - وأعيد الخليفة المقتدر لمباشرة سلطانه الاسمى .

٩١٠ م - ٢٩٧ هـ : اماره بن عبد الله على مصر :

مات في هذه السنة عيسى النوشرى أمير مصر فولى الخليفة المقتدر تكين بن عبد الله الحربى الصلاة فى مصر ، فدخلها فى الثانى من ذى الحجة من هذه السنة .
وكانت مهمته الاولى بمجرد وصوله الى مصر أن يعمل على اتقاء هذا الخطر الجديد الذى بدأ يهدد مصر من الغرب ، ونعنى به خطر الفاطميين .

ظهور الدولة الفاطمية :

خرج عبيد الله المهدي الفاطمى متخفيا من بلاد الشام ، مضمرا فى نفسه أن يدعو وأن يخلع حكم العباسيين فوفد الى مصر فى بادىء الأمر واستقر بها يدعو لنفسه فوصل نبأه الى الخليفة العباسى ، فبعث الى أمير مصر أن يقبض عليه ، ولكن عبيد الله استطاع أن ينجو بنفسه ، وسار الى برقة وشمال أفريقيا حيث كان عبد الله الشيعى يدعو له ويهده الطريق لقيام حكم شيعى . وقد استطاع عبد الله الشيعى أن يقهر آخر ملوك الاغالبية فى القيروان ويستولى عليها ، عام ٢٩٦ هـ .
وجاء عبيد الله المهدي من سلجماسه من المغرب الاقصى ونزل فى القيروان ، ونادى بنفسه خليفة للمسلمين وتلقب بالمهدى وهكذا قامت الخلافة الفاطمية .

ولم يكد عبيد الله المهدي يستقر فى القيروان حتى شرع يضع الخطط لغزو مصر .
ورأى تكين أمير مصر أن يبادر المهدي فبعث اليه من برقة التى كانت تابعة لمصر بجيش تحت قيادة أبو اليمن لمحاربته والقضاء عليه ، ولكن حباسة بن يوسف قائد المهدي هزم أبا اليمن واستولى على برقة وبذلك أصبح على حدود مصر .

٩١٤ م - ٣٠٢ هـ : هجوم الفاطميين الاول على مصر :

واصل حباسة بن يوسف الزحف على مصر بجيشه الذى انتصر به ، فوصل الى مدينة الاسكندرية على رأس مائة ألف مقاتل . فبعث تكين بجيش جديد ليحارب الجيش الزاحف . . ولكن الجيوش الفاطمية انتصرت مرة أخرى ، فدخلت جيوش المهدي الى مدينة الاسكندرية فى الاول من محرم من هذه السنة .

ووصل مدد من الخليفة المقتدر الى تكين ، فسار على رأس الجيش وحارب حباسة بن يوسف فهزمه واجلاد عن الاسكندرية وبرقة كلها . وعاد حباسة ومن بقى من عساكره مهروما في اسوا حال الى المهدي ، فقله المهدي عقابا على هزيمته .

٩١٥ م - ٣٠٣ هـ : اماره ذكا الرومي على مصر :

كان مؤنس الخادم قد وفد على مصر على سبيل النجدة لتكين ، ولكنه لم يكد يصل الى مصر ، حتى كان تكين قد احرز نصره المؤزر على الفاطميين ، ولم يعد في حاجة لعون مؤنس الخادم . ويبدو ان توشا الخادم نعص على تكين ما حصل عليه من نصر ، او كائنه تخوف من ان يثير هذا النصر في نفس تكين الاطماع ، فاقترح على الخليفة عزل تكين عن امرة مصر ، فاجابه الى طلبه وعزل تكين - وعين بدلا منه ذكا الرومي ، فوصل الى مصر في الثاني من شهر صفر من هذه السنة اميرا على الصلاة . اما الوالي على الخراج فقد ظل هو ابو الحسين بر احمد المازراني المعروف بأبي زنبور وهو الذي نكث بيعته للطواغيت وانضم الى محمد بن سليمان . وكان اهم ما عني به ذكا هو الكشف عن عيون الفاطميين في مصر ومن يكاتبونهم من سكانها ، فقبض على الكثير منهم وفعل بآخرين بان قطع ايديهم وارجلهم باعتبارهم مفسدين في الارض .

كما عني باعادة تحصين مدينة الاسكندرية ، بعد ان اظهرت التجربة السابقة سهولة استيلاء الفاطميين عليها .

بناء مدينة المهدي :

على ان الفاطميين انفسهم كانوا يزدادون قوة وسلطانا ، وانتقلت اليهم السيادة على جزيرة صقلية وسائر الجزر التي تفصلها عن الساحل الافريقي ، ولذلك فقد اقدموا وهم مطمئنون على بناء عاصمة ملكهم المهدي على شاطئ البحر مباشرة والى اصبححت تحميها اساطيلهم .

وفاة الامام النسائي صاحب السنن :

ومات في هذه السنة الامام عبد الرحمن النسائي صاحب السنن والذي تعد سننه داخل كتب الحديث الخمسة صاحبة الاعتبار والتي تبدأ بالبخارى كما قدمنا ويظهر ان النسائي اقام بمصر مدة طويلة حتى اصبح ينسب اليها فالدار قطنى على ما روى ابن كثير في البداية والنهاية يقول عنه انه دفن مشايخ مصر في عصره . وقد بارح مصر عام ٣٠٢ هـ وقام بالرملة في فلسطين حيث مات بها ، ولكنه دفن في بيت المقدس (ابن كثير) .

١٩١٩ م - ٣٠٧ هـ : اماره تكين الثانية على مصر :

مات ذكا الرومى امير مصر بعد ان كانت العلاقات قد ساءت بينه وبين الرعية فقد أوتر عنه أنه يسب الصحابة ، ويسب السلطان وعاود الفاطميون غارتهم على مصر اذ بعث الخليفة عبيد الله المهدي بجيش جديد تحت قيادة ابنه أبى القاسم لاحتلال مصر . فنجح فعلا فى احتلال الاسكندرية اذ دخلها فى الثامن من شهر صفر من هذه السنة ، فأصيب الناس بالهلع ، ولكن الخليفة اعاد تكين اميرا على مصر ، فاطمأنت الخواطر .

ودارت معركة طاحنة بين تكين وقواته وبين جيش الفاطميين تحت قيادة أبى القاسم : فانتصر تكين ، ولكن فلول الفاطميين الاذت بالصعيد وتمكنت من احتلال النيسوم .

٩٢١ م - ٣٠٩ هـ : اماره أبو قابوس محمود على مصر :

أوفد الخليفة مؤنس الخادم على رأس جيش الى مصر لمحاربة الفاطميين : واستطاع تكين بهذا المدد الجديد ، ان ينجح فى طرد فلول الفاطميين بعد عديد من المعارك من الاراضى المصرية : وأنسحب أبو القاسم محمد بن المهدي بعساكره من برقة .

وعلى الرغم من هذا النجاح ، فقد عاود مؤنس الخادم عدم اطمئنانه لتكين ، او غيرته منه : فعزله للمرة الثانية عن امرة مصر وعين عليها ابا قابوس محمود فى يوم الاحد العاشر من ربيع الاول .

فاستاء المصريون من هذا التصرف : وحذر قواد الجند مؤنس الخادم من مغبة هذا الامر ، فأسرع الى عزل قابوس من الامارة واعاد لها تكين ، فلم تزد اماره أبو قابوس عن ثلاثة أيام .

امارة تكين الثالثة على مصر :

عاد تكين للامارة للمرة الثالثة ، ولكن مؤنس الخادم لم يعده الا على مشص ، ولكى يكسب وقتا يدبر فيه عملية اخراج تكين من مصر كلها - ولذلك فلم يكديحكم تدبيره باتفاق مع قادة الجند ، حتى عزل تكين للمرة الثالثة لم يكن مضى على امرته الجديدة سوى أربعة أيام . وبعث به صحبة أربعة آلاف جندي الى بغداد ، وكتب الى الخليفة يبلغه بما اتخذه من اجراءات ، ولم يكن الخليفة يملك الا الموافقة فبعث الى مصر اميرا جديدا هو هلال بن بدر .

امارة هلال بن بدر على مصر :

ولى الخليفة المقتدر الامير أبو الحسن هلال بن بدر على مصر ، فدخلها فى يوم الاثنين السادس من ربيع الثانى من هذه السنة ، وكانت امرته على الصلاة : وجعل

على شرطه ابن طاهر . وقد حمل هلال بن بدر معه كتابا من الخليفة الى مؤنس الحادم يدعو فيه الى العودة الى بغداد ، فقادر مصر بعد أيام من وصول ابن بدر .

٩٢٢ م - ٣١٠ هـ : وفاة أبي جرير الطبرى :

مات فى هذه السنة العالم المشهور صاحب التاريخ الخالد ، والتفسير الجامع محمد بن جرير أبو جعفر الطبرى ، وكانت سنة يوم مات ستا وثمانين سنة .

وقد وصفه أبو المحاسن أنه كان أحد أئمة العلم : يحكم بقوله ويرجع الى رايه ، وكان متفنا فى علوم كثيرة ، وكان واحد عصره ، قال عنه أبو بكر الخطيب : جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظا لكتاب الله ، بصيرا بالمعانى : فقيها فى أحكام القرآن ، عالما بالسنن وطرفها صحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفا بأقوال الصحابة والتابعين ، بصيرا بأيام الناس وأخبارهم - له الكتاب المشهور فى تاريخ الامم وكتاب التفسير وله فى الاصول والفروع كتب كثيرة .

ذلك ما قاله عنه الاقدمون ، ومن ناحيتى فطالما اعتبرت الطبرى آية من آيات الشموخ الانسانى ، وحسب الانسان فقط ان ينظر الى تاريخه ليسائل نفسه كيف وجد من الوقت والقدرة ليخطه بيمينه : فكيف والكتاب هو بعض ما ألف .. هو ليس مجرد كتابة ، وانما هو موسوعة علم التاريخ فى عصره .

٩٢٣ م - ٣١١ هـ : اماره أحمد بن كيلغ الاولى على مصر :

لم تستقر الاحوال فى مصر خلال اماره هلال بن بدر . فقد كان المصريون فيما يبدو يتعاقون بتكين .. وبدأوا يأنفون من تبديل الولاة وتغيرهم بهذه السرعة فأعلن فريق منهم التمرد على هلال بن بدر ، وانضم اليهم فريق من الجند واجتمعوا على قتاله ، فدارت رحى معارك فى أرجاء البلاد بين خصومه ومؤازريه ، وكانت هذه المعارك على حساب أهل البلاد ، اذ كثر النهب والسلب من هذا الجانب وذلك ، ونشأ الفساد وقطع الطريق ، فضج المصريون بالشكوى من هلال بن بدر ، وانصاع الخليفة الى شكائهم فعزله وبعث اليهم بأحمد بن كيلغ أميرا على الصلاة . ومحمد ابن الحسين المازرانى عاملا على الخراج .

ولكن أحمد بن كيلغ لم يكن بأوفر حظا من سابقه ، فقد ثار الجند فى وجهه . واضطر الى الهرب من القسطنطينية والاقامة فى مدينة 'فاقوس' ، وظل مقيما بها حتى عزل من امرته هذه المرة .

ولم يجد الخليفة المقتدر بدا فى خاتمة اللطاف من ان يعيد الى مصر الرجل الوحيد الذى يرضى به المصريون والذي نشأت الفتن بسبب عزله وهو الامير تكين .

٩٢٤ م - ٣١٢ هـ : اماره تكين الرابعة على مصر :

وصل تكين الى مصر يوم عاشر ربيع من هذه السنة ولم تلبث ان ظهرت مقدرته ومهارته في ادارة دفة الامور ، فبدأت احوال البلاد تستقر من جديد ، ويعود اليها الامن والنظام . وتبدل سلسلة التغييرات التي اجراها تكين في متولى الشرطة ، على مدى حساسيته من ناحية الادارة ، ووضع الرجل الصالح في المكان الصالح ، حيث لم يتردد في عزل ابنه فرائكين بعد ان كان قد ولاه هذا المنصب عندما وجده غير قادر على شغله كما عزل من قبله ومن بعده كل من لم يجده صالحا .

٩٢٩ م - ٣١٧ هـ : خلع الخليفة المقتدر للمرة الثانية وعودته للخلافة :

انقلب مؤنس الخادم على سيده المقتدر في الخامس عشر من المحرم من هذه السنة فخلعه من الخلافة ، وجيء بمحمد بن الخليفة المعتضد فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالقاهر . ووقع النهب في دار الخلافة ، واختبأ المقتدر عند أمه . على ان الخليفة الجديد عجز عن تدبير الاموال اللازمة للجند في مثل هذه الظروف ، فتأروا عليه واخلعوه ولم يحكم سوى ثلاثة ايام ، واعادوا المقتدر للمرة الثالثة : وليس هذا بأغرب على ما يقول أبو المحاسن من خلعه في المرة الاولى عندما عزل نصف نهار .

فتنة أبو طاهر القرمطي في مكة :

وفي ذي الحجة من هذه السنة وقع هذا الحادث المؤسف في تاريخ الدولة الاسلامية ، وكم فيها من الحوادث المؤسفة ، عندما قصد أبو طاهر القرمطي الى مكة في موسم الحج فقتل الحجاج في يوم الدينونة وملا بجثثهم مكة وساحة الحرم المكي نفسه ، وقتل ابن محارب أمير مكة : وعري الكعبة من استارها كما قلع باب الكعبة ، وزاد على ذلك كله فأقتلع الحجر الأسود من مكانه وسلبه ، وطرح القتلى في بئر زمزم ليردمها بالجنث - وعاد بعد ان خضب ارض البلد الحرام في الشهور الحرام بدماء المسلمين ، الى مقر حكمه في هجر مصطحبا معه الحجر الأسود ، حيث ظل في منفاه : الى ان رد الى مكانه في خلافة المطيع كما سيأتي .

ويعتبر هذا الاعتداء هو منتهى ما وصل اليه أبو طاهر من سلطان لم ينله أبوه أو جده من قبل .

ولقد جرت بينه وبين عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي المراسلات ، فبدأ أبو طاهر يدعو لعبيد الله ليضفي على نفسه وعلى أعماله صفة شرعية .

٩٣٢ م - ٣٢٠ هـ : مصرع المقتدر :

كان لابد الصراع بين مؤنس الخادم وبين الخليفة المقتدر ان ينتهي بموت أحدهما ، ولكن الغلبة كانت لمؤنس الخادم ، اذ تغلب على الخليفة في المعركة التي

دارت بينهما في بغداد وقتل الخليفة وقطعت رأسه وحملت على رمح للتشهير بها .
وكانت سنة يوم قتل ثمانية وثلاثين سنة ونهرا وأياما حكم منها خمسا وعشرين
سنة ، وإن لم يكن له في أكثرها من الحكم سوى الاسم إذ كان أغلب التصرف هو
لمؤنس الخادم كما رأينا .

ويوصف عهد المقتدر في التاريخ بأنه العهد الذي غلبت عليه النساء . فقد كانت
أمه « شغب » صاحبة سلطان وصل إلى حد أن عينت إحدى قهرماناتها للجلوس
للناس مجلس القضاء لتنظر في المظالم ونقضي فيها . وكان دخلها من أملاكها على
ما يقول ابن كثير مليون دينار في العام ، فكانت تتصدق بالجزء الأكبر منه - ويصفها
بأنها كانت في غاية الحشمة والرياسة ونفوذ الكلمة .

وتفيض كتب التاريخ الأوربية بالإشارة إلى المقتدر وإلى مدينة بغداد في عصره وما
كانت عليه من عظمة وغنى وازدهار اقتصادي وعلمي - ذلك أن سفارة بيزنطة وفدت
إلى بغداد في عهد المقتدر فاستقبلت استقبالا حافلا ، حرص فيه الخليفة على التأثير
في البيزنطيين باظهارهم على مدى قوة المسلمين وغناهم ، فكان هذا الاستقبال الذي
تسهب عشرات من صفحات الكتب الأوربية في وصفه .

الخليفة القاهر بالله :

بويح محمد بن المعتضد بالخلافة بعد مصرع المقتدر في الثامن والعشرين من
شوال وهو ابن خمس وثلاثين سنة . ولم يكن عليه يوم أحضر للبيعة الا قميصان
ورداء ، فطلب أن يلبس من الثياب التي تناسب الجلوس للعمامة وسيف ومنطقة -
فلم يوجد عنده ما يصلح لذلك ، فنزع بعض الحاضرين ملابسه ليرتديها الخليفة .

٩٣٣ م - ٣٢١ هـ : إمارة محمد بن طغج الأولى على مصر :

مات تكين في ربيع الأول من هذه السنة بعد أن ظل أميرا على مصر هذه المرة
تسع سنوات وأربعة أشهر . ولا بد أن يكون المصريون قد حزنوا عليه ، فقد كان على
ما يصفه معاصروه أميرا شجاعا على دراية بالحرب وفي نفس الوقت صاحب سياسة
وكياسة ورفق بالرعية . وقد عهد قبل موته بإمارة الصلاة لابنه محمد بن تكين .
ولما مات تكين حمل في تابوت إلى بيت المقدس فدفن فيه . وكان العامل على الخراج في
هذه الفترة أبو بكر محمد بن علي المزرائي ، وكان قد بلغ من السلطة والنفوذ إلى الحد
الذي جعله يقوم على إدارة البلاد كلها تقريبا ، فشغب عليه الجند وأحرقوا داره ودور
أهله ، ولكن أبو بكر كان قد بلغ من قوة السلطان ما جعله بالرغم من ذلك
يطلب من محمد بن تكين أن يبارح مصر ، وإن ينصاع محمد بن تكين لطلبه فينسحب
إلى دمشق .

وعين الخليفة في هذه الأثناء على أمرة مصر محمد بن طغج بن جف ، فورد الخبر
بذلك إلى مصر في السابع من رمضان من هذه السنة فدعى له على منابرها ، ولكن
اضطراب الأحوال في مصر لم يتيح له فرصة دخولها ، فعزل بعد اثنين وثلاثين يوما .

امارة محمد بن كيفلغ الثانية على مصر :

اعاد الخليفة القاهر احمد بن كيفلغ على امرة الصلاة في مصر ، فوصل رسوله بهذا الأمر في التاسع من شهر شوال واستخلف أبا الفتح بن عيسى النوشري على مصر نيابة عنه ولكن الجند شغبوا عليه في طلب ارزاقهم واشتدوا في طلبهم على المازراني صاحب خراج مصر فاستتر منهم ، فأحرقوا داره للمرة الثانية ودور اهله ، ووقعت في البلد فتنة عظيمة ومعارك قتل فيها جماعة كثيرة من المصريين .

٩٣٤ م - ٣٢٢ هـ : محمد بن تكين يحاول الاستيلاء على السلطة :

انتهز محمد بن تكين فرصة هذه الأحداث الجارية في البلاد لكي يكون اميرا على مصر ، فوفد عليها من فلسطين في الثالث عشر من جمادى الأولى ، ولكن المازراني صاحب خراج مصر والذي كان مختفيا ، سرعان ما ظهر وتصدى لمحمد بن تكين منكرا عليه امرته غير الشرعية على مصر فانقسم المصريون الى حزبين ، حزب يدعو لمحمد بن تكين ، وحزب يدعو لأحمد بن كيفلغ ، واستمر القتال بين الحزبين حتى وصل الى مصر أحمد بن كيفلغ في الثالث من شهر رجب ، فقوى الحزب المناصر له ، وانفض الكثيرون من حول محمد بن تكين . وفي هذا الوقت جاء الخبر بخلع الخليفة القاهر ومبايعة أبو العباس الراضي ، فعاد محمد بن تكين للظهور واعلن أن الخليفة الراضي قد ولاه مصر ، فنشب القتال من جديد بينه وبين أحمد بن كيفلغ ودارت الدائرة على محمد بن تكين ، فقبض عليه ، وجيء به الى أحمد بن كيفلغ الذي نفاه الى الصعيد .

خلع الخليفة القاهر بالله :

في الثالث من جمادى الأولى من هذه السنة ، خلع الخليفة القاهر بالله بعد أن سملت عيناه حتى سالتا على خديه ، وكان السبب في خلعه وسمل عينيه هو خوف قادة الجند منه ، فعلى قصر المدة التي ولى فيها الخلافة ، فقد قتل الكثيرين ممن رفعوه الى العرش وعالى رأسهم مؤنس الخادم الذي كان قد شارف التسعين عند قتله . فخافه كل من حوله ، وراح الوزير ابن مقله يحرض الكافة على التخلص منه . فكان أن هاجمه الجند وقبضوا عليه وفعلوا به ما أشرنا اليه .

يقول الصولي : كان القاهر أحمر سفاكا للدماء محبا للمال قبيح السيرة كثير التلون والاستحالة مدمنا على شرب الخمر فاذا شربها تغيرت أحواله وذهب عقله .

خلافة الراضي بن المقتدر :

بويع بالخلافة بعد خلع القاهر ابن أخيه الراضي بالله أبو اسحق محمد بن الخليفة المقتدر . وقد اسندعى فور توليه الخلافة ابن مقله فولاه الوزارة ، ثم ولى الراضي ابنه على المشرق والمغرب ، على أن يكون ابن مقله وزيرها فعظم شأنه حتى استقل بشدبير الدولة .

وفاة الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي :

وفي هذه السنة مات مؤسس الدولة الفاطمية أبو محمد عبيد الله المهدي - فقام بأمر الخلافة من بعده ولده أبو القاسم ولقب بالخليفة القائم بأمر الله .

وقد اختلف في نسب المهدي ، نتيجة للعداء بين السنة والشيعة : وبين العباسيين والفاطميين ، فالعباسيون ومن كتبوا لهم يصفونه بالتزوير والادعاء ، حتى ليجعلوا أباه يهوديا كان يشتغل بحرفة الصباغة . أما دعاة الفاطميين فهو عندهم عبيد الله بن الحسين محمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب .

انقسام الشيعة :

وقد كانت الشيعة على اتفاق فيمن يلي الخلافة من أبناء علي بن أبي طالب جيلا بعد جيل ، فكان الحسن ثم الحسين ، ثم علي زين العابدين ثم محمد الباقر ، ثم جعفر الصادق .

وبوفاة جعفر الصادق انقسمت الشيعة الى فرق كثيرة ولكن كان أهمها وأكبرها فرقتين :

فرقة جعلت الإمامة في ابنه موسى الكاظمي ثم في الأئمة من بنيه الى الإمام الثاني عشر الحسن العسكري وهذه الفرقة تعرف بالإمامية الاثني عشر ومعظم اتباعها الآن في إيران والعراق . والفرقة الثانية جعلت الإمامة بعد وفاة جعفر الصادق في ابنه اسماعيل ثم في ابنه محمد بن اسماعيل ثم ابنه جعفر الصادق ثم ابنه محمد الحبيب : والى هذا الأخير ينسب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية ، ولذلك سموهم بالاسماعيلية نسبة إلى راس فرعهم اسماعيل بن جعفر الصادق .

الفصل الحادى عشر

الدولة الأخشيدية

٩٣٥ م - ٢٢٣ هـ : اماره محمد بن طفيح الثانية على مصر :

دخل محمد بن طفيح الى مصر في الرابع والعشرين من رمضان من هذه السنة ليكون أميراً على مصر . ولم يكن أمر توليه الامارة هينا . او عملاً روتينياً . فقد نصدي له محمد ابو بكر المازرائي الذي كان حاكماً فاعلماً على مصر من خلال توليه أمر الخراج . وحرص محمد بن كيغلغ على ان يحول بين محمد بن طفيح ودخول مصر . وهذا العمل يكشف عن مدى نمو الروح الاستقلالية في امراء مصر ، وضعف الخلافة .

وفد سار احمد بن كيغلغ بجيشه حتى وصل مدينه الفرما ولكن محمد بن طفيح استطاع ان يهزم هذا الجيش ويحمله على التراجع ، في الوقت الذي كان محمد بن طفيح قد سير اسطولا بحرياً في نهر النيل كما فعل محمد بن سليمان من قبل فوصل الى القسطنطين . وهكذا وصل محمد بن طفيح بجيشه البري والبحري معا الى القسطنطين . فاستسلم احمد بن كيغلغ واعتذر عن موافقه بحجة ان الجنود غلبه على أمره . واختفى أبو بكر محمد بن المازرائي صاحب الخراج من وجه محمد بن طفيح في الوقت الذي أظهر فيه ابنه الحسن بن محمد المازرائي خضوعه لمحمد بن طفيح . وهذا العمل يكشف عما وصفت اليه اسرة المازرائيين سواء في مصر أو بغداد نفسها من دهاء ومكر ليطلوا مشاركين في الأحداث مهما تغيرت الظروف والأحوال .

محمد بن طفيح يوطد دعائم حكمه :

كان دخول محمد بن طفيح بهذا الأسلوب على رأس جيش برى وبحرى . ابداناً بأنه يدخلها دخول الفاتح . لا الأمير التابع فشرع منذ اللحظة الأولى يعمل على توطيد سلطانه مستخدماً حسن السياسة والتدبير ، وكان له من قدرته الحربية وشخصيته القوية ، ما غرس مهابته في قلوب المحبطين به . مما جعله يصبح الحاكم الفرد والوحيد النهائي في كل ما يهمل بمصر .

٩٣٦ م - ٣٢٤ هـ : غارة جديدة للفاطميين على مصر :

لجأ فريق ممن هربوا من مصر عقب انتصار محمد بن طفج الى الخليفة الفاطمي وزينوا له فتح مصر ، فبعث معهم بجيش لفتحها فوصل الجيش الى الاسكندرية ، ولكن محمد بن طفج بادر بارسال جيش تحت قيادة أخيه الحسن بن طفج لصدّهم . وقد تلاقى الجيشان عند قرية من قرى البحيرة فدارت الدائرة على الفاطميين ، وفرت فلولهم عائدة الى برقة .

وغير الخليفة الفاطمي من أسلوبه مع الأخشيدي بعد ان رأى شدة بأسه ويقظته ، فاصطنع معه سياسة الود والصدقة ، فكتب اليه يحسن له الانسلاخ من الخليفة العباسي والدعوة له .

وقابل محمد بن طفج هذا العرض بما في طبعه من دهاء ، فهو وان ظل شديدا الرغبة في أن يقطع علاقاته مع بغداد ، فقد كان حريصا كذلك على مداراة هذه القوة الفاطمية الصاعدة . ولذلك فقد رد على الود بود مثله حتى لقد عرض على الخليفة

الفاطمي أن يزوج ولي عهده من ابنته .
٩٣٨ م - ٣٢٧ هـ : لقب الأخشيدي :

كان لانتصار محمد طفج على الفاطميين وردهم عن مصر دويا بالغا في بغداد ، وقد كان له فيها حليفا ونصيرا وصهرا وهو الوزير العباسي الفضل بن جعفر بن الفرات . فرأى الخليفة تحت تحريضه ان يعترف لمحمد بن طفج بمركزه الممتاز الذي أحرزه ، فأرسل الخليفة الراضي مع ابنه الفرات الى محمد بن طفج بالخلع السنية اظهارا لفضله ، مع الاذن له بأن يتسمى باسم الأخشيدي وهو لقب باللغة الفرغانية التي ينتسب اليها اجداد ابن طفج وتعنى كلمة الملك كما تعنى كلمة كسرى في الفارسية وقيصر في الرومية وفرعون في المصرية .

منشأ الأسرة الأخشيديّة :

كان جف التركي جد محمد الأخشيدي ممن استجلب للمعتصم من المماليك الأتراك ، فجعله من بين قواده ، ولما مات جف اتصل ابنه طفج بالأمير احمد بن طولون فكان من اكابر قواده ، وقد ولاه امرة الشسام . فلما قتل خماروية سار طفج الى الخليفة المكتفى ، فأكرمه في بادئ الامر ، ولكنه لم يلبث ان انقلب عليه فأودعه السجن هو وابنه محمد ، فلما مات طفج خرج محمد من السجن فاتصل عمله بنكين القائد التركي ووفد معه الى مصر وولى له بعض الأعمال ، وابلى الى جواره بلاء حسنا في مدافعة الفاطميين عن البلاد ، وظل يتدرج في المناصب حتى أصبح اميرا على الشسام ثم اضيفت له امرة مصر .

بناء جيش مصرى :

ولما كان الأخشيدي قد اتخذ من ابن طولون الذى كان معجبا به نبراسا ، فانه احتلدى خطاه فى تكوين جيش يكون ولاؤه له ، ويبالغ المؤرخون فيجعلون عدة هذا الجيش أربعمائة ألف مقاتل . وهو رقم يدل على أية حال على أن الأخشيدي قد بنى لنفسه جيشا قويا كبير العدد والعدة .

ومضى الأخشيدي بعد ذلك يحيط نفسه بمظاهر الملك فى مجلسه وملبسه ومركبه وموكبه .

وبنى لنفسه قصرا سرعان ما أصبح بلاطا كبلاط الخليفة يفص بالكبراء والشعراء والعلماء والأدباء والأطباء .

٩٢٩ م - ٣٢٨ هـ : اصطدام الأخشيدي بابن رائق أمير الأمراء :

كان الخليفة الراضى قد رفع محمد بن رائق الى مرتبة أمير الأمراء ، فتطلع ابن رائق الى وضع يده على دمشق التى كانت فى سلطان الأخشيدي ، فوقع الصدام بين الرجلين وجرت بينهما معارك لم تكن حاسمة . وقد قتل فى احد هذه المعارك الحسين بن طنج أخ الأخشيدي فانتهاز ابو رائق هذه الفرصة لكى يحسن علاقته مع الأخشيدي فكفّن الحسين بن طنج وجهازه احسن جهاز وبعثه مع ابنه الى الأخشيدي معبرا له عن عظيم اسفه لمصرع اخيه ، ويعرض عليه دم ابنه ليكون فداء للامير المقتول ، فرد الأخشيدي على هذه التحية بأحسن منها ، وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين . وانتهت بتقسيم الشام بين ابن رائق والأخشيدي ، فيكون لابن رائق القسم الشمالى ويحتفظ الأخشيدي بالجزء الجنوبى بما فى ذلك دمشق على ان يدفع الأخشيدي مائة واربعين الف دينار سنويا لابن رائق . ولتوطيد دعائم هذا الصلح ارتبط الطرفان برباط المصاهرة فتزوج مزاحم بن محمد بن رائق من فاطمة بنت الأخشيدي .

٩٤١ م - ٣٢٩ هـ : وفاة الخليفة الراضى :

فى الخامس عشر من ربيع الاول توفى الخليفة الراضى بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله ، وكان عمره يوم مات احدى وثلاثين سنة وعشرة أشهر حكم منها ست سنوات وعشرة أشهر وعشرة ايام . وكان أسمر رقيق السمرة اسود الشعر قصير القامة نحيف الجسم . وكان فصيحاً بليغاً جواداً ممدوحاً . وقد اعتبر آخر الخلفاء الذين انفردوا بتدبير الجيوش والأموال . وآخر من خطب من الخلفاء على المنابر يوم الجمعة وآخر خليفة له شعر وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل اليه الندماء وكانت نفقته وجوائزه وعطاياه وجراياته ومخازنه ومطابخه وخدمه واصحابه وأموره كلها تجرى على ترتيب المتقدمين من الخلفاء .

خلافه المتقى بالله :

لما أن مات الراضى جمع الأمير بجكم امير الامراء الفضساء والاعيان في دارة
يوشاوروا فيمن يولون عليهم ، فانفق رأيهم على المتقى ، فأحضروه في دار الخلافة
وأرادوا مبايعته فصلى ركعتين صلاة الاستسحارة وهو على الأرض ثم صعد على الكرسي
بعد الصلاة وبأبىه الناس يوم الأربعاء ٢٠ ربيع الأول وكان المتقى كلقبه كثير الصيام
والتعب . وقال بمجرد أن ولى الخلافة : « لا أريد جليسا ولا مسامرا حسبي المصحف
نديما . فانقطع عنه الجلساء والسما والتمسعاء والوزراء والسفوا على الأمير بجكم .

٩٤٢ م ٣٣٠ هـ : احتلال الأخشيدي للشام :

انتهز الأخشيدي قتل محمد بن رائق أمير الامراء وتولى بجكم امير للامراء ، لكي
يسترد الشام فزحف عليه بجيوشه فأم بعرضه معترض وأسرع ولادة المدن باظهار
الطاعة له وهي ما بدل على مدى ما كان الأخشيدي قد وصل اليه من القوة .

٩٤٣ م ٣٣١ هـ : مبايعة أبي القاسم اتوجور وليا على عهد مصر :

ومضى الأخشيدي في ممارسة مظاهر الاستقلال الفعلي وان ظل كابن طولون من
قبله متمسكا بالرباط الرسمي مع الخلافة في بغداد . فدعا الى ولاية العهد لابنه أبو
القاسم اتوجور من بعده على مصر والشام بدون أن يرجع في ذلك الى الخليفة .

٩٤٤ م ٣٣٢ هـ : الأخشيدي والخليفة يلتقيان على نهر الفرات :

كان الخليفة المتقى قد عين توزون التركي اميرا للامراء في بغداد بعد بجكم الذي
كان قد مات عام ٣٣٠ م . ولم تلبث العلاقات ان ساءت بين المتقى وتوزون ، فبعث
المتقى بالله يستنجد بالأخشيدي ويعلمه انه سائر للالتقاء معه في مدينة الرقة ، فخرج
الأخشيدي على رأس جيش للافاء الخليفة . وقد التقى الرجلان على نهر الفرات ،
ولكن الأخشيدي الحذر أوعز الى الخليفة أن يكون هو الذي يعبر النهر اليه . ولم يك
الخليفة يقدم على هذه الخطوة ، حتى حرص الأخشيدي من ناحيته على اظهار منتهى
الخضوع للخليفة . في الوقت الذي غمره فيه بالأموال والهدايا النفيسة من الجواهر
والطبى والنسيجات والدواب ، مما سر خاطر الخليفة وأوجعاه بقرر استمرار ولاية

الأخشيد بد على مصر لمدة ثلاثين عاماً . مع إعطائه الحق في استحلاف ابنه أتوجور .
ولم يكن ذلك في الواقع إلا اعترافاً من الخليفة بالأمر الواقع .

ويذكرنا ذلك بالعهد الذي منح لخماروبه بمثل هذه المدة .

وطالب الأخشيدي من المتقي أن يسير معه إلى مصر ليحظى بالأمان والسلام والنفوذ ، ولكن المتقي بالله لأمر ما رفض هذا العرض ، مع أنه كان هو الساعى إليه وفضل أن يعود إلى بغداد ، ولعله تصور أنه بهذا اللقاء الجافل مع الأخشيدي قد عزز جانباً في الصراع بينه وبين توزون .

المسعودى في مصر :

وفي هذه السنة وصل إلى مصر الشيخ الجغرافى والمؤرخ العلامة أبو الحسن المسعودى مؤلف كتاب مروج الذهب . وقد ظل مقبلاً في مصر لعدة سنوات ، وعلى الرغم من أنه شغف أثناء مقامه في مصر بالآهرامات وآثار مصر فلم يخل كتابه من لمحات تصور لنا حياة مصر في هذه الفترة ومن ذلك وصفه أحد احتفالات عيد الغطاس حيث يقول :

« وليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها ، وهى ليلة إحدى عشرة تمضى من طوبة وسنة من كانون الثانى . وقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر والأختييد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمخارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل مطيف بها وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب القسطنط الف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر بالنيل في تلك الليلة مئات آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون ، ويحضرون كل ما يمكنهم احتضاره من المأكول والمسارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والطرف والقصف . وهى أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سروراً ، ولا تغابق فيها الدروب وبغطسي أكثرهم في النسل ويعزيمون أن ذلك من المرضي ومبرىء من الداء . »

٩٤٤ م - ٣٣٣ هـ : خلع الخليفة المتقي بالله :

عاد المتقي إلى بغداد، وكان قبل عودته إليها قد كتب إلى توزون التركى مستامناً منه فأمنه وجدد له الموائيق والعهود بالطاعة والخضوع . يقول المسعودى : فلما وصل الخليفة المتقي إلى مشارف بغداد استقبله توزون مترجلاً وقبل الأرض بين يديه ، فأمره المتقي بالركوب فلم يفعل ومشى بين يديه إلى المخيم الذى ضرب له . علي أن الخليفة لم يكذب يترجل عن فرسه حتى قبض عليه توزون (واكحله) أي

سمل عينيه . وادخل المتقى الى بغداد مخلوعا من الخلافة مسمول العينين . وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وخمسة أشهر وقيل بل عشرة أشهر .

وعندما سمع القاهر بالله المخاوع من قبل والذي كان اول من سملت عيناه وكان لا يزال عائشا بما جرى على المتقى قال : صرنا اثنين ونحتاج الى ثالث يعرض في ذلك بالمستكفى الذى بويع للخلافة .

خلافة المستكفى بالله :

استدعى توزون التركى عبد الله بن الخليفة المستكفى بالله وبايعه بالخلافة واطلق عليه لقب المستكفى بالله وكان عمر المستكفى يوم بويع واحد وأربعين سنة ، وقد جرى بالمتقى بين يديه فبايعه وسلمه البردة والقضيب . وكان من اول أعمال المستكفى اقرار الأخشيذ على امرة مصر تسليما بالأمر الواقع .

٩٤٥ م - ٣٣٤ هـ : الحرب بين الأخشيذ وسيف الدولة :

كان بنو حمدان أمراء الموصل قد بداوا يرنون بأبصارهم الى امتلاك الشام ، فارسل ناصر الدولة الحمدانى اخاه سيف الدولة الحمدانى الى الشام لامتلاكه . وقد استطاع سيف الدولة أن يستولى بالفعل على مدينة حلب وقنسرين وحمص وانطاكية وبقية الثغور الشامية وأقام الدعوة للمستكفى الخليفة وأخيه ناصر الدولة الحمدانى ثم لنفسه من بعدهما .

فكتب الأخشيذ الى المستكفى شاكيا سيف الدولة ، ولكن الخليفة لم يفعل شيئا وقيل أنه قال لهما أن الشام لن يستطيع أن يأخذها منهما بحد سيفه ، وعلى هذا الأساس وقع الصدام بين الأخشيذ وسيف الدولة ، فكان النصر فى المرحلة الأولى لسيف الدولة الذى استطاع أن يدخل دمشق فسار الأخشيذ بنفسه على رأس جيشه ، فاستطاع أن يخرج سيف الدولة من دمشق ثم حمص وقنسرين . وعند هذه المدينة الأخيرة نشبت بين الطرفين موقعة كبيرة ولكنها لم تكن حاسمة . وبدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين ، فأخذ الأخشيذ كماداته جانب اللين والتسامح فتم الاتفاق على أن يكون لسيف الدولة حلب وانطاكية وحمص وماوالاها ، وأن يكون باقى الشام بما فيها دمشق فى سلطان الأخشيذ ، على أن يدفع مبلغا سنويا لسيف الدولة .

وتدعيما للصلح لجأ الأخشيذ الى أسلوبه المفضل أسلوب المباهرة فزوج فاطمة ابنة أخيه عبيد الله بن طنج لسيف الدولة .

وفى رأى الدكتور حسن أحمد محمود أن الأخشيدي ، رضى بهذا الصلح ورحب به ليجعل من الحمدانيين قوة حاضرة بينه وبين البيزنطيين (١) .

القبض على الخليفة المستكفي بالله وخلعه وظهور دولة بنى بويه :

فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة خلع معز الدولة بن بويه الديلمى الذى كان الخليفة قد جعله أمير الامراء ولقبه بمعز الدولة ولقب اخاه ابا الحسن بعماد الدولة واخاه الثالث بركن الدولة ، وامر بكتابة القابهم على الدراهم والدنانير . وكان ذلك هو مبدأ ظهور دولة بنى بويه الديلمية فى بغداد بعد ظهورها .

ورأى المعز أن يؤكد سلطانه الجديد بخلع المستكفي وتنصيب خليفة من صناعه.

خلافة المطيع لله :

احضر معز الدولة بن بويه : ابا القاسم الفضل بن المقتدر الذى كان متخفيا من وجه المستكفي فبايعه بالخلافة وأطلق عليه لقب المطيع لله . وبايعه الامراء والاعيان والعامه وكان أمر الخلافة قد وصل الى الحضيض فلم يعد للخليفة امر أو نهى أو وزير . وأصبح امر الدولة كلها يرجع الى معز الدولة . وسمح للخليفة بأن يكون له كاتب ينظر فى شئون اقطاعه الخاص .

وفاة الخليفة الفاطمى القائم بأمر الله :

وفى هذه السنة توفى بالمهدية فى المغرب الخليفة الفاطمى الثانى القائم بأمر الله أبو القاسم بن محمد بن عبد الله المهدي وولى الخلافة بعده المنصور اسماعيل .

وفاة الأخشيدي محمد بن طفج أمير مصر :

وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى الحجة ، مات الأخشيدي . فى مدينة دمشق بعد مرض ألم به ، وكانت سنه يوم مات ستا وستين سنة ومدة حكمه على مصر والشام إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وبومان ونقل من دمشق ودفن فى بيت المقدس .

شخصية الأخشيدي وأعماله :

وشخصية الأخشيدي ككل الشخصيات القوية تجمع المتناقضات فبينما يصفه البعض بالشجاعة ، يصفه بعض آخر بالافراط فى الجبن . وحيث كان متصفا بالهدوء والاتزان ، فإن الغضب كان يستبد به أحيانا فيثور ثورة لا حد لها .

ولكن الذى اتفق عليه هو وصفه بالبخل ولذلك لم يكن محبوبا من الرعية . وقد استن سنة جمع الأموال عن طريقة مصادرة أموال الأثرياء وكبار الموظفين ، وان كان

(١) قارن ذلك بحرص أحمد بن طولون ومن بعده خمارويه على مجاهدة البيزنطيين بالفعل .

تحرصنا في ذات الوقت على ان لا يعذب من مصادر امواله ، وكثيراً ما كان يعطف عليهم بعد ذلك ويقربهم اليه .

وكان الاخشيدي بصفة عامة مبكياً ميلباً لا يسمح لعقبه من اى نوع ان ينفذ في سبيل وصوله الى اطمانه وكان يعرف باللين وشراجع اذا لزم الامر حتى لا يتكسر ونضيع مهماته وكان شديد الاعجاب بابن طولون حرصاً على الشبهة به في بلاطه ومواكبه . وقد قرب اليه الكثيرين من الطولونيين وجعل اكثر صلاته في جامع بن طولون .

وكان قصره يفض بالجوارى والفتيات ، وكانت بعضهن تشترك في الشؤون العامة .

اما بلاطه فكان مجتمعا للعلماء والأدباء .

وكان نقيماً بحب الصالحين ويركب اليهم ويسرك بعديتهم وقد امر في وقت من الاوقات بهدم المواخير ودور القمار والقبض على من كان بها .

وقد امتد سلطان الاخشيدي الى الحجاز واليمن اذ خطب له هناك حسبما اشار الاختيبي الى ذلك في خطابه الى امبراطور بيزنطة عام ٣٢٥ وان كان هذا السلطان اسماً على الارجح .

النقود الاخشيدية :

تشهد النقود المضروبة على عهد الاخشيدي بتطور العلاقات بين مصر في عهده وبين الخلافة . فالدينار المضروبة باسم الراضي في سنة ٣٢٣ - ٣٢٨ هـ وبعض الدينار المضروبة باسم المتقي (٢٢٩) تشهد بأن الاخشيدي يدبر بالطائفة المطلقة الخليفة العباسي ، او على الاقل بنظائر بذلك عهد ان اسم الخليفة هو وحده الذي ينقش على السكة اما ابتداء من عام ٣٢٩ فان اسم الاخشيدي كان ينقش على النقود مع اسم الخليفة . بل لقد وصل اليها دينار من سنة ٣٢٩ هـ وليس عليه الا اسم محمد بن طنج وحده (١) :

وقد تكون نفسه حذنه بقطع السله مع خلافة بغداد في هذه السنة ثم عدل عن هذه الفكرة .

ولاجدال في رايانا ان الذي جعل الاخشيدي بمسك بروابطة مع خلفاء بغداد . هو ظهور قوة الفاطميين في الغرب وطمعهم في امتلاك مصر . ولا بد ان الاخشيدي كان يؤثر ان تكون علاقته مع خليفة ضعيف مغلوب على امره ، من ان تكون مع هذه الدولة الجديدة القوة الطموحة .

ويقول الدكتور حسن احمد محمود ان المراجع التاريخية لا تتحدث اطلاقاً عن مقدار الخراج الذي كان يحمل من مصر الى بغداد (ص ١٥٨) ومع ذلك فان المقرئ قد ذكر في خطه ان خراج مصر في عهد الاخشيدي كان مليوني دينار (ص ١٦٠) بخطه جزء ١ .

(١) الطولونيون - ص ١٥٢ .

امارة ابو القاسم انوجور :

في يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة ولى امره مصر بعهد من ابيه ابو القاسم انوجور بن الاخشيد وانوجور معناها باللغة محمود . ولما كانت سن انوجور عندما ولى الامارة خمسة عشر عاما فان عمه الحسن بن طنج طمع في ان يكون هو الأمير لابن اخيه الصغير ، ولكن ابا بكر محمد بن على المازرائي صاحب النفوذ الكبير في البلاط اخذ جانب الأمير الصغير ، فانهى الامر بانصباع الأمير الحسن بن طنج لراى الجماعة فبايع لابن اخيه وسار في ركابه عند ذهابه للصلاة اول مرة في الجامع العتيق (عمرو بن العاص) .

وصاية كافور الاخشيدى على انوجور :

وكان للاخشيد عبد خصى حبشى الاصل ، انس اليه ورباه لما لاحظه عليه من فطنه واخلاص ، فجعل منه في نهاية الامر مريسا لولديه انوجور وعلى ويبدو انه خاف من اخيه الحسن اذا جعله وصيا على ابنه ، فجعل الوصاية لكافور . ولكن كافور سرعان ما جمع خيوط السلطة كلها في يده وكف عنها انوجور مخصصا له اربعمائة الف دينار في كل عام لينفق منها ويلهو ويمرح متصرفا هو بعد ذلك في باقى مالية الدولة .

الخليفة المطيع يقر انوجور على امره :

وقد اقر الخليفة المطيع لله ، انوجور في ولايته على مصر والشام وكل ماكان لابيه من اعمال بما في ذلك امرة الحرمين .

٩٤٨ م - ٣٣٦ هـ : انوجور يحارب سيف الدولة :

انتهاز سيف الدولة مغادرة كافور الاخشيدى الشام الى مصر لىولى مهام الدولة لى يستولى على دمشق ويبسط سلطانه عليها .

ولكن انوجور ، او بالاحرى كافور سار على راس الجيش الاخشيدى من مصر واشتبك مع جيش سيف الدولة في مدينة الرملة ، فانهزم سيف الدولة وانسحب الى الشام فطاردته الجيوش المصرية فتركها الى حلب والجنود المصرية في اثره فتركها الى مدينة الرقة في الموصل ، حيث بدأت مفاوضات الصلح بين الطرفين لعودة الحال الى ماكانت عليه ايام الاخشيد فيختص سيف الدولة بحلب وما والاها حتى مدينة حمص . على ان تكون دمشق وما بقى من الشام تحت امرة مصر ، على ان يبطل ماكانت مصر تدفعه كل عام من اموال لسيف الدولة .

وتظهر هذه المعاهدة ذكاء الدبلوماسية الكافورية الاخشيديية فعلى الرغم من أن جيوش مصر قد انتصرت انتصارا باهرا على سيف الدولة ، فقد رأى أن المصلحة تستوجب عودة سيف الدولة الى حلب لاقرار السلام بين مصر والحمدانيين من ناحية ، ولتظل دولة سيف الدولة حاجزا بين مصر وبين الروم وقد ساد السلام بالفعل بين الحمدانيين والاخشيديين منذ هذا التاريخ ٣٣٦ هـ .

ثورة غلبسون :

انتهرز والى منطقة الاشمونين المعروف باسم غلبون فرصة وجود الجيوش الاخشيديية فى الشام لمحاربة الحمدانيين ، فأعلن التمرد واستولى على السلطة فى دائرة عمله وما يجاورها . وعندما بعثت اليه الحكومة بجيش لمحاربته استطاع أن يضلل الجيش فلا يقابله ، وسار من طريق آخر فوصل بقواته الى القسطنطين واستولى عليها وراح يدير أمور الدولة منها .

على أن انوجور لم يكذب بعود من الشام حتى اخمدت هذه الحركة وقبض على غلبون وأعدم .

٩٤٩ م - ٣٣٧ هـ : ولاية ابو المظفر الحسن بن طنج على دمشق :

فى هذه السنة عين انوجور عمه ابا المظفر الحسن بن طنج اميرا على الشام ، ولابد أن كافور اشار على انوجور بهذه الخطوة ، استرضاء للحسن من ناحية وإبعادا له عن مركز السلطة فى مصر من ناحية أخرى .

٩٥١ م - ٣٣٩ هـ : رد الحجر الأسود الى الكعبة :

فى هذه السنة رد الحجر الأسود الى مكانه من الكعبة بعد أن دفع فيه للقرامطة خمسين ألف دينار ، وهكذا عاد الحجر الأسود بعد سربه اثنى عشر سنة ، وهو حادث فريد فى حياة الكعبة .

وفاة ابو نصر الفارابى :

وفى هذه السنة مات بدمشق كبير الفلاسفة من المسلمين ابو نصر الفارابى التركى الفيلسوف ، والذي قيل انه اذا كان ارسطو هو المعلم الاول فان الفارابى هو المعلم الثانى . وقد كانت كتبه هى التى تعلم منها ابن سينا . وقد كان من اعلم الناس بالموسيقى والف فيها . وحكى عنه انه كان اذا عزف ان شاء ابكى السامعين او اضحكهم او انامهم .

٩٥٢ م - ٣٤١ هـ : الدعوة لكافور على المنابر :

قوى شان كافور الذى كان قد اصبغ يطلق عليه اسم الاستناذ فاضدنه امره ان يدعى له يوم الجمعة على المنابر بعد الدعاء للخليفة وانوجور باعتباره مدير الدولة

٩٥٣ م - ٣٤١ هـ : وفاة الخليفة الفاطمى الثالث :

فى آخر شوال من هذه السنة توفى المنصور أبو طاهر اسماعيل ابن القائم بأمر الله - فخلفه ابنه وولى عهده أبو تميم سعد الملقب بالمعز لدين الله والذي سيكون على يديه دخول الفاطميين الى مصر .

٩٥٤ م - ٣٤٢ هـ : وفاة الأمير الحسن بن طنج :

مات فى هذه السنة الأمير حسن بن طنج الاخشيذ أمير الشام ودفن بالقدس ، وقد كان أميراً شجاعاً مقداماً جليلاً . وبوفاته صفى الجو نهائياً لكافور ليزداد استئثاراً بالسلطة مما أدى الى قيام النزاع بينه وبين انوجور :

٩٥٤ م - ٣٤٣ هـ : النزاع بين انوجور وكافور :

بلغ انوجور فى هذه السنة سن الرشد فطمح الى ان يستولى على السلطة الفعلية، وراحت بطانته تحرضه على الخلاف مع كافور الذى استولى على الاموال وانفرد بتدبير الجيوش وكان انوجور معه مقهوراً مغلوباً على امره . فدبر انوجور ان يسير الى بلدة الرملة فى فلسطين ثم يعلن خلع كافور وراح يتظاهر بالتفرغ للهو والصيد لينفذ خطته ، ولكن ام انوجور التى كانت تعرف قدرة كافور وان ابنها ليس ندا له ابلغت الامر الى كافور ، وتدخلت للصلح بينهما وقد تم الصلح بينهما على أن تستمر الاحوال على ما هى عليه . ولكن هذا الخلاف قد ترك اثره فى صفوف الجند الذين انقسموا الى طائفتين الكافوريون ويناصرون كافور وأغلبهم من السودان والأخشيديون ويناصرون انوجور .

٩٥٥ م - ٣٤٤ هـ : غارة ملك النوبة على اسوان :

اغار ملك النوبة فى شهر ذى الحجة من هذه السنة على مدينة اسوان وقتل جمعاً

من سكانها فخرج اليه الجيش وعلى رأسه محمد بن عبد الله الخازن فاستطاع ان يهزم النوبيين وأن يرسل اسراهم الى القسطنطينية فغلبت أعناقهم . ومضى الجيش بعد ذلك في مطاردة النوبيين فافتتح مدينته بريم وعاد الى مصر في منتصف جمادى الاولى من السنة التالية ومعه كثير من الاسرى .

٩٥٦ م - ٣٤٥ هـ : وفاة ابو بكر محمد المازرانى :

توفى في هذه السنة ابو بكر محمد المازرانى في الثامنة والثمانين من عمره فانطوت ذلك صفحة المازرانين الذين احتكروا ادارة شئون مصر المالية سبعين سنة وكانوا في اكثر من مرة حكام مصر الفعليين وقد بلغ من شأن هذه الاسرة ان خصهم ابن زولاق المؤرخ العصرى بكتاب خاص .

وكانت لهم الضياع الواسعة ، ويتخذون الحجاب تشبها بالامراء وكانوا يجرون الارزاق على المحتاجين الذين قدر عددهم بستين الفا .

وكثيرا ما صادر الاخشيد اموالهم ، وحرق العامة والجنود دورهم ولكنهم كانوا ينهضون من جديد الى سابق مكانتهم وثروتهم .

وفاة المسعودى :

وفى هذه السنة مات كذلك العلامة ابو الحسن المسعودى صاحب مروج الذهب وكتاب ذخائر العلوم ، وكتاب المقالات فى اصول الديانات ، وهو احد من يعتز بهم التاريخ الاسلامى .

٩٥٧ م - ٣٤٧ هـ : المتنبى فى مصر :

وليس هناك ما يكشف عما وصل اليه كافور الاخشيدى من قوة ونفوذ فى هذه السنوات ، اكثر من التجاء المتنبى اليه عندما خرج من حلب مغاضيا لسييف الدولة فكانت اولى قصائده لدى مقدمه الى مصر .

فواصل كافور توارك غييره
فجاءت بنا انسان بين زمانه
ومن ورد البحر استقل السواقيا
وخلت بياضها خلفها وماقيا

وقد اقام المتنبى مدة طويلة فى بلاط كافور وهو يفرقه بالهدايا والاعطيات وقد افرد له دارا كبيرة ليقوم فيها بالقسطنطينية ولكن المتنبى كان يريد ما هو اكثر من ذلك وهو ان يولى كافور بعض الولايات كما يتطوع بذلك البيت التالى :

إذا لم تنط بي لمسيعة أو ولاية
لجودك يكسوتى وشفتك يسلب
فلما طال المدى بالمتنبى دون أن يتال مبتغاه اظهر تفلا صبره في نصيدته التى
جاء فيها :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة
وما انا بالبغى على الحب رشوة
وما شئت الا ان ادل عواذلى
واعلم قوما خالفونى فشرقوا
على ان الوقت الذى اخفق فيه المتنبى عن تحقيق امنيته لم يلبث ان جاء فغادر
مصر خائب الامل ، فقال نصيدته التى مطلعها :

عيد بأية حال عدت يا عيد
واسرع فى هجو كافور فافحش وكان من قوله :
فلا ترج الخير عند امرى
مرت يد النخاس فى راسه

٩٦٠ م - ٣٤٩ هـ : وفاة ابو القاسم انوجور :

فى يوم السبت سابع او ثامن من ذى القعدة مات ابو القاسم انوجور بعد ان حكم
اسميا اربع عشرة سنة وعشرة ايام . وكان عمره يوم وفاته خمسا وعشرين سنة على
التقريب .

والأورخون على اتفاق انه لا يمكن الحكم على ابى القاسم انوجور فى فترة حكمه
فلم تكن لديه فرصة لظهار شخصيته فقد كان الحل والعقد كله بيد كافور . على ان
هذه الحقيقة كافية للحكم عليه بضعف الشخصية ، والا فقد كان باستطاعته وخاصة
بعد ان بلغ سن الرشد . ان يوقف كافور عند حده ، وقيل ان وفاته لم تكن طبيعية
وان كافور دس له السم للتخلص منه .

وقد نقل جثمانه الى بيت المقدس ليدفن الى جوار ابيه .

٩٦٠ م - ٣٤٩ هـ : اماره على بن الاخشيد :

فى يوم السبت عشرين من ذى القعدة من هذه السنة اقام كافور الاخشيدى ابن
سيده على بن الاخشيد على ملك مصر بالاتفاق مع رجال العاشية والجند . واقمر
الخليفة المطيع ذلك . وكانت سنة يوم جلس على الامارة ثلاثا واربعين سنة اذا
كان ميلاده كما يقول ابو المحاسن عام ٣٠٦ هـ فان سنة يكون يوم ولى ثلاثا واربعين
سنة ، وتتابعه على هذا القول امين سامى .

وكيف يتفق هذا مع تولية أنور جور قبله والذى لم يكن سنه يتجاوز الخامسة عشرة ، فلا بد أن يكون فى تاريخ الميلاد خطأ من ناحية ما ، ويقول لين بول ويتابعه الدكتور حسن أن سنه يوم ولى الحكم كانت ثلاثا وعشرين سنة . وهو غير مقبول باعتباره أصغر من أخيه الذى مات وعنده خمس وعشرون سنة ولذلك قال لين بول ويتابعه الدكتور حسن : يقولون أن سنه يوم ولى كانت ثلاثا وعشرين وهو القول الأصح ، ولابد أن يكون حكاية ولادته عام ٤٠٦ خطأ . وقد جمع له الخليفة كل ما كان لأبيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفيين . على أن حظه من الامارة كان كأخيه من قبله لا يعد مجرد التسمية . فقد كان كافور هو المتولى تدبير المملكة والمتصرف فيها : وقد زادت قوته بعد موت أنور جور . على أنه قد ترك لعلى الإخشيد هذه الأربعمائة الف دينار التى كان يدفعها سنويا لأخيه من قبله .

وفاة صاحب الإندلس الناصر لدين الله - أمير المؤمنين :

وفى هذه السنة مات أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن الاموى ، ملك الإندلس والذي وصلت الحضارة الاسلامية على يديه فى الإندلس ذروتها ، بحيث أصبحت قرطبة ومدينة الزهراء التى بناها أعظم مراكز الحضارة فى اوربا والتى لم تلبث أن تنساب منها اشعة لتضىء ظلمات معظم أوربا الوسطى .

وقد حكم خمسين سنة وستة اشهر وكان له من العمر يوم توفى ثلاث وسبعون سنة .

وقد تلقب بأمر المؤمنين بعد بدئه بثلاث وعشرين سنة بعد أن رأى الخليفة الفاطمى أن يطلق على نفسه هذا اللقب . وهكذا أصبح فى العالم الاسلامى ثلاثة أمراء للمؤمنين الخليفة العباسى والخليفة الفاطمى والخليفة الإندلسى .

أما قيل ذلك فقد كانت امارة المؤمنين لواحد فقط فى كل العالم الاسلامى .

٩٦١ م - ٢٥٠ هـ : وفاة الأمير فائق الإخشيدى :

توفى الأمير فائق الإخشيدى المجنون ابو شجاع الذى كان يمثل المنافس الوحيد لكافور وكان يعمل له ألف حساب . وقد كان رفيقا لكافور ، فلما صار كافور مدير مملكة أولاد الإخشيد : انف فائق من المقام بمصر كيلا يكون كافور أعلى منه مرتبة فانتقل الى اقطاعية بالفيوم واقام بها ، يمثل الإقطاع فى أعلى مظاهرة وهو الأمير المتحكم على الأرض والناس فى اقطاعه . وكان كافور يداريه بحسن السياسة والكيانة : ويخزل له الغطاء ليأمن جانبه وعندما وفد المتنبى الى مصر ، وصله فائق بالاعطيات ، فطلب المتنبى من كافور أن يأذن له بمدح فائق فأذن له فمدحه بقصيدته التى استهلها بقوله :

لا خيل عندك تهديها ولا مال . فليسعد النطق ان لم يسعد الحال

وفاة الكندى (مؤلف الولاة والقضاة) :

ومات فى هذه السنة ابو عمر محمد بن يوسف الكندى الذى يمثل مرحلة النضوج فى المدرسة التاريخية المصرية فى العصر الاسلامى الاول . وقد ألف فى الخطط وقد اعتمد المقرئزى عليه فى كتابه الشهير ، على أن معظم كتب الكندى قد فقدت ولكن من حسن الحظ أن وصل إلينا أحسنها وأهمها على الإطلاق وهو كتاب « الولاة والقضاة » والذى يؤرخ فيه لولاة مصر وقضاتها من أيام عمرو بن العاص إلى أنوجور بن الأخشيد .

سقوط جزيرة كريت فى ايدى الروم :

وفى هذه السنة نجح البيزنطيون نتيجة تفوقهم الساحق فى الاسطول أن يستولوا على جزيرة كريت ، وعلى معقلها الحصين فى مدينة كندية .

٩٦٢ م - ٣٥١ هـ : سوء العلاقة بين كافور والأخشيد :

فى هذه السنة حاول على الأخشيد فيما يبدو أن يقاوم سلطان كافور ، خاصة وقد بدأت أحوال مصر المعاشية تسوء وتضطرب لنقصان فيضان النيل مما سبب غلاء الاسعار وارتفاع شكوى الرعايا . ولكن ضعف شخصية على الأخشيد وقلة انصاره جعلت الغلبة لكافور ، بحيث اصدر امره بمنع اجتماع الناس بعلى بن الأخشيد ولم يسمح له الا بأن ينكب على ملذاته وشهواته ، وان كان يعدل عنها من حين لآخر ليتفرغ للعبادة وتلاوة القرآن .

٩٦٢ م - ٣٥٢ هـ : غارات القرامطة على الشام والنوبيون على الصعيد :

وتحالف مع القسطنطين والفلاء الذى بدأ يسود مصر هجومات القرامطة على بلاد الشام حتى لقد استولوا على قافلة الحجاج وكانت تتألف من عشرين ألف جمل . كما اغار ملك النوبة على الصعيد حتى وصل إلى مدينة اخميم ونهب وسلب واحرق .

وتتوحد هذه الأحداث زلزال عزم خرب ١٧٠٠ بيت فى مدينة الفسطاط وحدها . كما واصل البيزنطيون هجومهم البحرى فاستولوا على جزيرة قبرص بعد أن قضوا على آخر ظل للاسطول المصرى (١) .

(١) القوى البحرية والتجارية من ٢٩٦ .

فلا يحجب، إذا صرخ الناس بالشكوى ، ويبدو أن ذلك هو الذى جعل صوت
على الاخشيدي يرتفع كما اشرنا ولكن كافور كان مسيطرا على البلاد مهيمنة كاملة :
فلا نسمع عن قيام فننة او اضطراب فى اى جزء من اجزاء البلاد وهو ما يشير
دهشة ابن بول .

٩٦٥ م - ٣٥٤ هـ : وفاة المتنبى :

وفى هذه السنة قتل المتنبى نجم الشعر العربى الاسلامى ممثلا فى شخص
المتنبى وهو اشهر من ان يعرف فمئات الكتب قد ألفت عليه (١) ويقول عنه
ابو المحاسن انه ولد سنة ثلاث وثلثمائة واكثر المقام بالبادية لاقتباس اللفظ فى
فنون الادب ونعاطى قول الشعر فى صغره حتى بلغ الغاية ، وفاق اهل زمانه ،
وسار شعره فى الدنيا ومدح سيف الدولة بن حمدان وكافور الاخشيدي . وأشعاره
سرى مسرى الحكم والامثال منذ شدا بها كقوله :

أنا الفريق فما خوفي من البلل - وقوله : وربما صحت الاجسام بالعلل
ومن أشعاره :

واذا كانت النفوس كبارا	تعبت فى مرادها الاجسام
ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى	عدوا له ما من صداقته بد
واذا غامرت فى شرف مبروم	فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى امر حقير	كطعم الموت فى امر عظيم
وله فى الوصف والتشبيب :	
كشفت ثلاث ذوائب من شعرها	فى ليللة فارت لبالى اربعها
واستقبلت قمر الزمان بوجهها	فارتنى القمرين فى وقت سها
ويقول يفتخر بنفسه وشعره :	
ما نال اهل الجاهلية كلهم	شعرى ولا سمعت بسحرى بابل
واذا أتتك مذمتى من ناقص	فهى الشهادة لى بانى كامل

٩٦٦ م - ٣٥٥ هـ : وفاة على الاخشيدي :

فى الحادى عشر من شهر المحرم مات على الاخشيدي وقيل ان كافور دس له
السم كما فعل بأخيه من قبل . ومما لا شك فيه أن المؤرخ حتى بعد هذا الزمن
الطويل من وفاة ولدى الاخشيدي لا يسعه الا أن يقف طويلا متشككا امام هذه الظاهرة
التي جعلت ولدى الاخشيدي كلاهما يموتان فى شرخ الشباب .

وقد حمل جثمانه من مصر الى بيت المقدس حيث دفن الى حوار ابيه وأخيه .

(١) افرأ مع المتنبى لطف حسين .

امارة كافور الاخشيدي على مصر :

وفي السادس والعشرين من شهر المحرم أى بعد خمسة عشر يوما فقط (١) ورد الى مصر كتاب الخليفة المطيع بتولية كافور الاخشيدي امرة مصر والشام والحرمين على الصلاة والخراج والحرب وكل ما كان للاخشيدي من قبل . وهكذا تحقق لكافور العبد المخلص الحبشي ما ظل طول حياته يعمل لتحقيقه ، مما يقطع بقوة الارادة الانسانية التي تستطيع دائما أن تحقق له ما يبدو من المستحيلات .

فقد تجمعت من الاسباب الطبيعية والخلقية والاجتماعية ما يجعل تسلم كافور أى منصب من المناصب مهما كان صغيرا وتافها من الأمور المستعصية : فكيف به يصبح ملكا على مصر فالمؤرخون يقولون عنه :

كان كافور عبدا أسود خصيا قبيح الشكل بطيئا معتل البدن ، قبيح القدمين ، مشقوب الشفة السفلى . جلب الى مصر من الحبشة وسط صفقة من العبيد وبيع لتاجر من تجار الزيت واشتراه سيده ابو بكر محمد الاخشيدي بثمانية عشر دينارا .

من هذه البداية المتواضعة المسرفة في التواضع بالنسبة لاي انسان بدأ كافور ارتقاء السلم ، ولابد أنه قد أظهر من الخضوع والاخلاص والذكاء لسيده ما لفت اليه نظره ، حتى أنه بدأ يعلمه ويربيه . ولا بد أن ملكة الحفظ والفهم كانت قوية عنده الى درجة جعلته يتفوق فيما يلقي من علوم : حتى ليصبح بعد حين مريضا لأولاد الاخشيدي ومعلما . حتى ليطلق عليه اسم الأستاذ بينما كانت مواهبه العسكرية فيما يبدو لا تقل عن مواهبه العقلية اذ تراه بعد قليل في مقدمة قواد الجيش . وتصل ثقه سيده به الى الحد الذي يجعله وصيا على أولاده بعد موته .

وليس هناك ما يكشف عن مواهب كافور الاخشيدي من استطاعته وقد وصل الى مركز السلطة ان يستديم ذلك بضعا وعشرين سنة ، وسط مجتمع عسكري تركي وشعب عربي وخلافة عباسية في الشرق وفاطمية في الغرب .

ويكشف لنا المنصب عن قدرة كافور السياسية عندما يقول لنا أن بحسب الانسان أن يتأمل كافور في بعض جلساته ليكون أستاذا في السياسة والكياسة .

إذا منعت عنك السياسة نفسها . فقف وقفة أمامه تتعلم

وحيث اشتهر سيده الاخشيدي بالبخل فقد اشتهر كافور بالكرم والجود وحسن معاملة الناس مما تحفل به كتب التاريخ .

(١) يدل ذلك الوقت القصير في وصول خبر موت الاخشيدي الى بغداد وورود كتاب الخليفة الى الفسطاط بآمر كافور ، على سرعة المواصلات بين الفسطاط وبغداد وانتظام عملية البريد بحيث لا يحتاج الأمر لغير أقل من اسبوع .

٩٦٧ م - ٣٥٦ هـ : وفاة أبو الفرج الأصبهاني صاحب الاغانى :

وفى يوم الاربعاء الرابع عشر من ذى الحجة من هذه السنة مات العلامة أبو الفرج الأصبهاني مؤلف كتاب الاغانى الذى يعتبر أول موسوعة الادب والشعر والاغانى والاساطير والقصص والخرافات العربية ولا يزال حتى اليوم هو المرجع المحيط لكل ما يتصل بحياة المسلمين وخاصة امرأؤهم وشعراؤهم وأدباؤهم وجواريتهم الخاصة . ولا جدال أنه يحوى الكثير من الدش والخط ولكنّه يبقى احدى وثائق تاريخ المجتمع الاسلامى فى القرن الرابع وما سبقه .

وفاة سيف الدولة الحمدانى :

كما مات فى هذه السنة فى حلب سيف الدولة الحمدانى . وامراء بنو حمدان يمثلون صفحة زاهية من صفحات التاريخ العربى الاسلامى ، فى فترة بدأ التصدع السياسى يصيب الخلافة الاسلامية . وكان بلاطه يضم الشعراء والنحاة والفلاسفة والأطباء . وحسبه أن لمعت فيه أسماء المتنبى وأبو فراس والفارابى فيلسوف المسلمين الاول وصاحب الموسيقى .

٩٦٨ م - ٣٥٧ هـ : وفاة كافور الاخشيدي :

فى يوم الثلاثاء عشرين من جمادى الاولى مات أبو المسك كافور الاخشيدي وكان عمره يوم مات بضعا وستين سنة كان حاكم مصر والشام الفعلى منها اثنتين وعشرين سنة ، ومنها سنتان وأربعة أشهر كان فيها الحاكم الفعلى والرسمى معا . وقد خطب له على منابر مصر والشام والحجاز والثفور مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما وحمل تابوته الى القدس ليدفن الى جوار سيده وابناء سيده . أما ابن اياس فيقول أنه دفن بالترافة الصغرى بمصر .

بلاط كافور وجهه للعلم والادب :

يقول الذهبى : وكان كافور يدنى الشعراء ويحييهم . وكانت تقرا عنده كل ليلة السبر وأخبار الدولة الاموية والعباسية وكان له نظر فى العربية والادب والعلم . وكان قويا شديدا الساعد لا يكاد أحد يمد قوسه له شهرة فى القتال اشار اليها الشعراء فى مدائحهم حتى لقد فخر الفاطميون فيما بعد باحتفاظهم بسيفه فى خزانهم .

وكان يداوم الجلوس غدوة وعشية لقضاء حوائج الناس ويتهجد ويمرغ وجهه ساجدا ويقول اللهم لا تسلط على مخلوقا . وكان عظيم الحرمة وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف بحيث زاد ملكه على ملك مولاة الاخشيدي . وكان كريما كثير الخلع والهبات خبيرا بالسياسة فطنا ذكيا جيد الفعل داهيته .

وكان يهادى المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه . وفى نفس الوقت يدين بالطاعة لبني العباس ، ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وبقي لاكمال صورة الحياة فى عهد كافور أن نضيف ما قاله شمس الدين الذهبى من أن راتب مطبخه كان على الوجه التالى :

الفا رطل من اللحم البقرى ، وسبعمئة رطل من لحم الضأن ومائة طير اوز وخمسمائة طير دجاج وألف طائر حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار وخمسون خروفا رميسا ومائة جدى سمين .

أما الحاوى فقد كان له خمسمائة صحن فى كل صحن عشرون رطلا ، ومائتان وخمسون طبق فاكهة وألف كور تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وألف كماجة ، وخمسة انواع من القيولات وعشرة أفراد من النقل وكان يحضر على سباطه الخاص والعام .

وكان يوجد فى بلاطه ألف وسبعون من الغلمان الترك والفان من الغلمان الروم ، وغلمان آخرون من السود .

وخلف فى خزائنه بعد وفاته ما قيمته مليون دينار من الجواهر والثياب والسلاح والامتعة . وكان يرسل كل عام المال والطعام والثياب الى الحجاز لتوزع على الاشراف من سلالة رسول الله فى موسم الحج .

تولى احمد بن الاخشيد على مصر :

أجمع قواد الجند ورجال البلاط على تولية احمد بن الاخشيد اميرا على مصر قبل أن يدفن كافور . واتفق على أن يكون الحسن بن عبيد الله بن طفج ابن عم أبيه والذي كان اميرا على الرملة ، ولى العهد من بعده ، وأن يكون أبو الفضل جعفر بن الفرات وزيرا له وأن يشترك معهما فى تدبير أمور الدولة شمول الاخشيدى مدير العسكر .

٩٦٩ م - ٣٥٨ هـ : دخول الفاطميين الى مصر :

لم تدم هذه الترتيبات من تولية احمد بن الاخشيد الا بضعة أسابيع ريثما يصل خبر موت كافور الى الخليفة الفاطمى ، ويعد الجنود لدخول مصر ، فقد رأينا كيف أن استيلاء الفاطميين على مصر كان أحد اهدافهم الثانية - بعد أن أسسوا ملكهم فى شمال افريقيا ، وانهم فشلوا فى تحقيق ذلك أكثر من مرة . . . فلم يكد كافور يموت ، حتى كان كل شىء مهيا لتحقيق حلمهم ، وقيل ان يعقوب بن كلس الوزير اليهودى المصرى الذى أسلم هرب من مصر بعد أن أساء اليه الفضل جعفر بن الفرات والتجأ الى بلاط المعز لدين الله الفاطمى وحسن له احتلال مصر .

ويقول ابن اياس : لما مات الأمير كافور اضطربت أحوال الديار المصرية غاية الاضطراب ، وطمع أهل القرى فى الجند ، وامتنعوا عن دفع الخراج ، فعند ذلك كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمى - وكان ببلاد المغرب - بأن يحضر الى الديار المصرية

ويتسلم المدينة ويتولى عليها . وفي شهر شعبان من هذه السنة على اختلاف طفيف في اليوم وصل جوهر الصقلي قائد الجيوش الفاطمية واستولى على مصر فانتهمت بذلك الدولة الاخشيدية وكانت مدة حكمها اربعا وثلاثين سنة وعشرة اشهر واربعة وعشرين يوما .

وبانتهاء الدولة الاخشيدية وابتداء الدولة الفاطمية فان تبعية مصر للدولة العباسية التي استمرت خمسا وعشرين ومائتي سنة والتبعية للدولة الاسلامية بعامة حيث تنقل مركز الحكم فيها بين ثلاث عواصم المدينة فدمشق فبغداد والتي استمرت تسعا وثلاثين وثلثمائة سنة . تكون قد انتهت . لتبدأ مصر صفحة جديدة في ظل الحكم الفاطمي تتحول فيه مصر الى مركز الدائرة ومحور الحياة الاسلامية النشيطة .

الفصل الثاني عشر

الدولة الفاطمية

٩٦٩ م - ٣٥٨ هـ : اماره جوهر القائد الرومى (الصقلى) المعزى على مصر :

٣٥٨ هـ فى يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، بدأ سير حملة جوهر الصقلى من المهديّة عاصمة الدولة الفاطميّة للاستيلاء على مصر ، وكان سيده المعز لدين الله الفاطمى قد أعد الأهبة لهذه الحملة منذ سنوات طويلة ، فعبد الطرق التى ستجتازها فى شمال إفريقيا ، وحفر الأبار ليتمكن الجيش الزاحف من الحصول على الماء اللازم له ، وكانت عدّة الجيش الذى سار مع جوهر يبلغ المائة ألف ، أغلبهم من قبيلة كتامة البربرية وقد وصل جوهر بالجيش الى الاسكندرية دون أن يعترضه معترض ، بل ودخل المدينة نفسها فى سلام ، وقد نجح جوهر فى أن يعصم جنوده من الاعتداء على أحد من السكان أو نهب شىء من متاعه ، باعتباره قد جاء صديقاً ومخلصاً ، لا فاتحاً أو غازياً ، ثم نزل بجيوشه فى طريقه الى القاهرة عند قرية تروجه وأرسل الى أهل مصر يعلمهم بقدومه ، وأنه ما جاء الى مصر الا للإصلاح وعمل ما فيه خير المساميين ، فجرت مفاوضات بينه وبين المصريين انتهت الى وثيقة فذة لم يسبق مثلها فى التاريخ يجب اعتبارها أول دستور مفصل لحكم وعقد بين الحاكم والمحكومين على التزام وجوه الإصلاح وأجراء العدل ، واليك فقرة مما جاء فى هذا العهد التاريخى :

« ولكم على أمان الله التام العام ، الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام ، وكر الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم ، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنّى عليكم متجنّ ، ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى انكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويلذب عنكم ، ويمنع منكم ، فلا يتعرض الى اذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قوياتكم ، فضلاً عن ضعيفكم وعلى أن لا ازال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل اليكم خيره .

واكم اسقاط الرسوم الجائرة التى لا يرتضى صلوات الله عليها بائباتها ، وأن اجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، واضع ما كان يؤخذ من تركاته موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وأن تقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والايقاء . وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم وأدرها عليهم ، ولا أقطعها عنهم - ولا أوقعها الا من بيت المال لا باحالة على من يقبض منهم » .

عدم التعرض لمذهب المصريين :

« وبالنسبة لأمور التمسك ذكرها في كتاب أمانكم ، فأذكرها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متعبة وهى اقامتكم على مذاهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم فيه من أداء الفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم ، وقيامكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعون بعدهم . وفقهاء الأمصار الذين جرت الاحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته » (نظم الحكم ص ٣٩٦) .

رفض الاخشيديين للعهد :

واذا كان الشعب المصرى ، قد وجد في هذه الوثيقة ما يرضيه في الحكم الجديد ، فإن رجال الأسرة الاخشيدية ، اختلفوا في قبوله ، ولم تلبث أن اجتمعت كلمتهم على وجوب قتال جوهر .

وجرى القتال بين الاخشيديين والفاطميين في الجيزة في الحادى عشر من شعبان من هذه السنة ، ولكن الدائرة دارت على الاخشيديين فأرسلوا يطالبون الأمان من جوهر فلم يتردد جوهر في تأمينهم وحضر رسوله ومعه رايات الأمان فطاف في مدينة الفسطاط ومنع النهب فسكن الناس وفتحت الأسواق ، ودخل جوهر من الغد الى الفسطاط في طبوله وبنوده ، ونزل بالمناخ (١) وهو موضع القاهرة اليوم وكان مكان القاهرة قبل تأسيسها صحراء مغطاة بالرمل يمر بها الناس أثناء مسيرهم من الفسطاط الى عين شمس ، ولم يكن بها عند نزول جوهر سوى بستان الاخشيد المعروف بالستان الكافورى ، ودير النصرى يعرف بدير العظام ، وبناء يعرف بقصر الشوك ، وبات المصريون في أمان ، فلما أصبحوا وحضروا لتهنئة جوهر اذا بهم يفاجأون بأنه حفر أساس القصر الكبير الذى سينزل فيه الأئمة الفاطميون بالليل .

انشاء مدينة القاهرة :

ولم يكن أساس القصر الذى بدأ جوهر بوضعه عشية وصوله الا الخطوة الاولى نحو تأسيس مدينة القاهرة التى اريد بها أن تكون بمثابة حصن للجيش الجديد الوافد ، وبناء مقر جديد لسكنى الخليفة الفاطمى . ولذلك فبعد أن خطط أساس القصر الشرقى الكبير لنزول المعز لدين الله حتى شرع في تخطيط الأحياء لنزول فرق الجيش المختلفة التى كانت معه ، واحاط القصر والأحياء الجديدة بسور كبير للدفاع عنها . وقد أطلق على هذه المدينة في بادىء الأمر اسم المدينة المنصورية ، وظلت تعرف بهذا الاسم حتى جاء المعز لدين الله فسميها القاهرة . وهناك قصة طريفة تدور حول السبب في تسمية المدينة بالقاهرة ، والدكتور جمال الدين الشيبان لا يرضى عن هذه

(١) كانت كلمة المناخ لا تزال اسما على الشارع المتفرغ من ميدان الأوبرا والمسما اليوم بشارع ثروت .

القصة ويعتبرها أسطورة ، وعندنا أن التاريخ لا يعد تاريخا اذا خلا من الاساطير ، فهي جزء لا يتجزأ منه لأنها تمثل اعتقادات الناس في أمر من الامور ، وليس في القصة التي تروى عن سبب تسمية القاهرة بهذا الاسم شيء يخرج عن المألوف أو ينكره العقل . وفحوى هذه القصة أن جوهر لما قصد اقامة السور وبناء القاهرة جمع النجمين وأمرهم أن يختاروا طالعا احفر الأساس ، وطالعا لرمى حجارته ، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب ووصلوا بينها بحبال عاقت فيها الأجراس ، ليرمي البناءون ما في أيديهم من اللبن والحجارة ساعة أن تدق الأجراس فحدث أن غرابا وقف على خشبة من هذه الخشبات فتحركت الأجراس فظن الموكلون بالبناء أن النجمين حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة في الأساس فصاح النجمون . . لا . . لا . . القاهرة في الطالع (والقاهرة هو المريح) ولم يتفألوا بهذا الطالع ، ولكن المعز عندما سمع هذه القصة عند حضرة الى مصر فهم منها ما لم يفهموه ، واطلق على المدينة الجديدة اسم القاهرة .

وكانت القاهرة وقت انشائها تحد من الشمال بموقع باب النصر . ومن الجنوب بموقع باب زويلة ، ومن الشرق بما يعرف في أيامنا بالدراسة ومن الغرب بباب سعادة وما يليه حتى النيل .

وكان لها عند انشائها أربعة أبواب ، وهي باب النصر وباب الفتوح ، وبابان في الناحية القبليّة هما بابا زويلة . ويقدر على مبارك في كتابه الخطط أن كل جانب من جوانب القاهرة عند أول تأسيسها لم يكن يزيد على ألف ومائتي متر وان مساحتها كانت ٣٤٠ فداناً يشغل منها القصر خمس هذه المساحة أي سبعين فداناً وبستان كافور يشغل عشر المساحة ٣٤ فداناً والميدان المد لعرض الجند يشمل ٣٥ فداناً أما الباقي وقدره قرابة مائتي فدان فقد خصص لنزول فرق الجيش المختلفة .

وقد تضمن كتاب الخطط للمقريزي تفصيل أسماء الحارات والدروب التي كانت تتكون منها القاهرة يوم تأسيسها .

اتخاذ مصر مقراً للخلافة الفاطمية :

استطاع جوهر أن يكسب قلوب سواد الشعب المصري ليس فقط بأسلوب اللين الذي اتبعه في تصرفاته ، بل بأسعاف الناس من ضيق المجاعة التي أضرت بهم في أخريات عهد الحكم الأخشيدي ، وذلك عن طريق السفن التي جاء بها من المغرب محملة بالقمح والتي أغرق بها السوق بمجرد وصوله : فلما لم تفلح هذه الحركة في تخفيض الأسعار كلف جوهر المحتسبين أن يضربوا بشدة على أيدي التجار ، فظهرت الاقوات المخبأة ، وبدأت الأحوال العامة في التحسن .

ولم يضع جوهر وقتاً في اصلاح شئون ما اضطرب من أحوال البلاد وخاصة في الناحية العمرانية ، فأصلح ما فسد من جسور النيل وطهر قنواته واعادة بناء قناطره ، واعاد في الدرجة الأولى تطهير ترعة أمير المؤمنين التي تربط النيل بالبحر الأحمر لاعادة سير التجارة بها .

وعمد الى اصلاح العملة بسك نقود جديدة باسم الخليفة المعز لدين الله .
ثم منع لبس السواد باعتباره شعار العباسيين وأحل محله لبس البياض شعاع
الفاطميين وأصبح نص الدعاء الذى يتلى على المنابر : اللهم صل على محمد المصطفى
وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول
الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، صلى الله على الأئمة الطاهرين آباء
أمير المؤمنين المعز لدين الله . وهكذا مهد الطريق لتحقيق حلم خلفاء الفاطميين وهو
تحويل مركز الخلافة الى مصر باعتبارها قلب العالم الاسلامى الخفاق لموقعها من
تأحية ، وثروتها من ناحية أخرى .

الدعاء للمعز في مكة والمدينة :

ولما كان المعز لدين الله قد اتبع قبل وصول جيشه إلى مصر سياسة ناجحة مع
ولاة الحرمين ، حيث كان يقدح عايتهم الاموال ويواليهم بالهدايا : فلم تكذب جيوشه
تصل الى مصر ويستقر جوهر بها حتى بادر حسن بن جعفر الحسنى شريف
الحرمين بالدعاء للمعز في مكة والمدينة .

الدعاء للمعز في حلب :

كما سارع الامير الحمدانى في حلب بالاعتراف بسلطان المعز عليه ، فدعا له في
المساجد بدلا من الخليفة العاسى .

٩٧٠ م - ٣٥٩ هـ : فتح دمشق :

على أنه اذا كانت إمارة حلب تحقيقا لمصالحها قد رأت أن تعترف بالخلافة
الفاطمية ، فان فلسطين وسوريا الجنوبية بما فيها دمشق ، ظلت ترفض الاعتراف
بالحكم الفاطمى في مصر ، ذلك ان الامير عليها كان هو الحسن بن عبيد الله الاخشيدى
والذى اتخذ من مدينة الرملة معقلا يقاوم فيه زحف الفاطميين على الشام .

ولكن جوهر الصقلى ، أرسل أحد كبار معاونيه وقادة الجيش وهو الامير جعفر
ابن الفلاح على رأس قوة لفتح الشام . وقد استطاع جعفر بن الفلاح بالفعل أن
يهزم الحسن الاخشيد وأن يقبض عايتة هو ومن بقى على قيد الحياة من أسرته ،
وبعث بهم الى جوهر القائد الذى أرسلهم بدوره الى المعز لدين الله ، حيث ساد
المفاوض الطريقة التى انتهت بها حياتهم .

٩٧١ م - ٣٦٠ هـ : استيلاء القرامطة على دمشق :

كان القرامطة قد فرضوا على الاخشيديين دفع ثمانية ألف دينار سنويا مقابل
بقائهم في دمشق ، فلما استولى جعفر بن الفلاح على دمشق ، منع عنهم ارسال

ما اعتادوا أن يأخذوه ، فأغضبهم ذلك : ولم يحل اتفاق القرامطة مع الفاطميين في المذهب كما كانوا يدعون أن يشنوا الحرب على جعفر بن انقلاب وجيشه ، فسقط جعفر قتيلا وانهزم الجيش ، واستولى القرامطة على دمشق ، ووضعوا على رأسها لخد رجالهم . ولكن القرمطي لم يكد يرجع الى هجر حتى ثاروا عليه وطرده من دمشق شر طرده .

القرامطة يدخلون الى مصر :

عاد القرامطة بقوة اكبر فأعادوا احتلال دمشق ، ثم قدروا أن يهاجموا مصر نفسها ، فوصلوا الى عين شمس في أكتوبر من هذه السنة الميلادية ٩٧١ وضربوا الحصار على القاهرة ، حيث كان جوهر يتربص بهم داخلها ، وواصل القرامطة الحصار على القاهرة شهرين ، وفي النهاية استطاعوا أن يقتحموا خندقها وسورها ، فاذا بجوهر المتربص بهم والذي كان قد أعد الشعب للقتال ، يهزمهم شر هزيمة ، ففر القرامطة مذعورين ولم ينجمهم من خطر الإبادة الا حلول الليل ، وهكذا تحولت المغامرة القرمطية التي كادت تنهى الحكم الفاطمي في مصر ، الى نصر كبير ثبت أركانه نهائيا إذ استقرت بهذا النصر أحوال البلاد الداخلية نهائيا ، وقطع دابر الفتنة .

٩٧٢ م - ٣٦١ هـ : بناء الجامع الأزهر :

في رمضان من هذه السنة أكمل جوهر بناء الجامع الأزهر ليكون مقرا للشعائر على المذهب الشيعي الفاطمي ، حتى لا يتعرض للمصريين في المساجد القائمة بتغيير في الشعائر .

وقد اقيمت في السابع عشر من رمضان أول صلاة ، وكان يطلق على الجامع في بادئ الأمر اسم جامع القاهرة ثم أصبح يطلق عليه اسم الأزهر لازدهار العلوم به كما يرى البعض أو نسبة الى فاطمة الزهراء في قول آخر وهو ما نرجحه ، ثم غلب اسم الجامع الأزهر في خاتمة المطاف . وكان الجامع الأزهر عند أنشائه يتوسط العاصمة الفاطمية الجديدة .

٩٧٣ م - ٣٦٢ هـ : وصول المعز لدين الله الفاطمي الى مصر :

في شعبان من هذه السنة (مايو) وصل المعز لدين الله الفاطمي الى مدينة الاسكندرية ، منتقلا الى مصر نهائيا ومتخذاً منها عاصمة لملكه ولذلك فلم تأت جيوشه وكل اقاربه الاحياء فحسب ، بل لقد جاء برفات آبائه واجداده الموتى .

كما حمل معه كل ما كان يملك من اموال وذخائر وتحف وكنوز مما اوفى على ما يقولون خمسمائة بعير . وما اعتبر النواة لكنوز الفاطميين الشهيرة التي استرعت

الانتباه، وشغلت أذهان من عاصروا الدولة الفاطمية ، وستظل تشغل المفكرين والكتاب والمؤرخين ما بقى فكر وكتابة وتاريخ . وقد استقبل جمهور الناس من الاعيان والعامة المعز لدين الله في الاسكندرية احسن استقبال ، ولم يضع المعز وقتا للحصول على محبة الشعب الذى وفد عليه ، فقد قام فى الناس خطيبا عند منارة الاسكندرية الشهيرة ، واتقى خطابا يقول عنه المؤرخون انه ابكى السامعين ، وقد أكد من جديد ما جاء فى وثيقة جوهر من قبل من انه لم يدخل الى مصر طمعا فى مال أو جريا وراء زيادة فى الملك ، وانما كل الذى يهدف اليه هو اقامة الحق والعدل والجهاد فى سبيل الله وان يختم حياته بالاعمال الصالحة ، طبقا لما أمر به الله وحب رسول الله . . . ومضى يعظ السامعين . ولم يفته بعد ذلك أن خلع على الكثيرين ، واحسن الى الاكثر عددا ثم سار المعز بجيوشه وكنوزه قاصدا القاهرة ، فوصل فى ٥ رمضان (١٣ يونيو) الى الجيزة ، وعندما حل المعز بالقصر الكبير الذى بناه له جوهر ، خر ساجدا لله ، ثم نهض وصلى ركعتين ، فاقتدى به كل من حضر .

نسب المعز :

ولقد اشرنا من قبل الى ما اثير من جدل حول نسب الفاطميين وكيف لم يجد العباسيون ما يحاربون به الفاطميين الا ان يطعنوا فى نسبهم ، ويعتبرونهم مدعين . ولقد ظلت مسألة النسب هذه تثور فى وجه الفاطميين منذ أسسوا ملكهم فى شمال افريقيا ، وازدادت القضية الحاحا بعد ان استقروا فى مصر . فيحدثنا ابن خلكان ، ان المعز لما قرب من البلد وخرج الناس للقاءه : اجتمع به بعض الاشراف فسأله . واحد منهم : الى من ينتسب مولانا ، فقال له المعز سنعتقد لكم مجلسا ونسرد عليكم نسبنا، فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس فى مجلس عام وجاس لهم ثم قال : هل بقى من رؤسائكم احد ، فقالوا لم يبق معتبر لم يحضر ، فسل المعز عندئذ سيفه وقال هذا نسبى ، ثم نشر عليهم ذهباً كثيرا وقال : وهذا حسبى ، فقالوا جميعا سمعنا واطعنا (١) .

ويعلق أبو المحاسن على هذه القصة فيقول : وفى نسب المعز اقوال كثيرة اضررت من ذكرها خوف الاطالة ، والظاهر انه ليس بشريف وانه مدع والله اعلم ونحن نشك فى هذه القصة والتى نعتسرها من تقولات العباسيين . واهل السنة على المعز : ولو انهم قالوا ان المعز ذكر نسبه المدعى ثم عزز ذلك الاعد والاعد لاستقامت القصة بعض الشيء ، اما ان يبدأ المعز حياته فى مصر بانكار ان يكون له نسب أو حسب إلا السيف والمال ، فهذا ما لا يقبله المنطق بسهولة .

ورحم الله المقرئ الذى تصدى لمناقشة قضية نسب الفاطميين فى تمحيص علمى وخلص من بحثه الى النتيجة التالية :

وهذه الاقوال ، ان انصفت تبين لك انها موضوعة ، فان بنى على بن ابي طالب

٠ ٠ (١) انبنى على هذه القصة الحكمة الشائعة : سيف المعز وذهبه .

رضى الله عنه قد كانوا اذ ذاك على غاية من وفرة العدد وجلالة القدر عند الشيعة ،
فما الذى يحمل الشيعة على أن يعرضوا عنهم ويدعوا لابن مجوسى أو ابن يهودى ،
فهذا مما لا يفعله أحد ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف ، وانما جاء ذلك من قبل
ضعفه خلفاء بنى العباس عندما عجزوا عن مقاومتهم ، فلاذوا بتنفير الكافة عنهم
باشاعة الطعن فى نسبهم ، حتى اشتهر ذلك فى بغداد ، وشهد الشاهدون على
السماع ، فنقل الاخباريون وأهل التاريخ ذلك كما سمعوه ورددوه حسب ما تلقوه
من غير تدبر الحق من وراء ذلك .

مواكب الفاطميين فى مصر :

وبدخول المعز لدين الله القاهرة واقامته بها ، بدأت دنيا المواكب والاحتفالات
الدينية التى تميز بها العصر الفاطمى ، حيث كان الخليفة يشق مدينة القاهرة فى
ذهابه الى الجامع الأزهر ، او الى أبعد من ذلك فى مسجد عمرو بن العاص ، وهو
مسبق ومحاط بفرق حيشه ، وامراء دولته وكبار الموظفين ، على تفصيل وترتيب
سجلته كتب التاريخ بكل دقة (١) .

وفاة ابن هانى الشاعر الاندلسى :

وفى هذه السنة مات الشاعر الاندلسى محمد بن هانى الذى استصحبه المعز من
بلاد القيروان الى مصر ، وكان يمثل على ما يقول أبو المحاسن فى بلاد المغرب ما مثله
المتنبى فى المشرق .

وقد خلف لنا عديدا من القصائد التى تصف حفلة جوهر على مصر ودخول المعز ،
وقد ألف عددا من القصائد فى مدح المعز لدين الله وبلغ فى مدائحه له الى الحد الذى
وصمه عند الكثيرين بالكفر والالحاد وخاصة فى بيته المشهور :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار . فاحكم فانت الواحد القهار

٩٧٤ م - ٣٦٣ هـ : تجدد الخطر القرمطى على مصر :

كان أول ما واجهه المعز بمجرد وصوله الى مصر هو تجدد خطر القرامطة الذين
لم يكتفوا هذه المرة بسيطرتهم على الشام ، بل قرروا أن يجددوا غزو مصر ونفسها ،
وأن يصفوا حسابهم مع الفاطميين . وقد اراد القرمطى أن يسبغ على غزوه لمصر صفة
شرعية ، فطلب من الخليفة العباس (المطيع) أن يوليه مصر والشام ليقضى على
المعز ويعيد مصر الى طاعته ، ولكن الخليفة العباسى على ما يقول المؤرخون رفض
هذا الطلب : فليس عنده القرمطى بخير من الفاطمى ، ولكن القرمطى وجد التشجيع
عند البويهى اذ زوده بالمال ، فسار القرمطى الى الشام ناشرا الرايات السود شعار

(١) ارجع الى كتاب الخطط للبكري ، والنجوم الزاهرة لابی المحاسن وصبح الاعشى للقلقشندي .

العباسيين وهو يعلن ان الخليفة ولاء الشام ومصر ، ودخل دمشق مرة اخرى واعاد الخطبة فيها للخليفة العباسي ولعن المعز على المنابر .

ثم واصل زحفه نحو مصر ، فاجتاز الحدود بغير مقاومة حتى وصل الى مشتول ، وحصلت بينه وبين المعز مندوشات تفهقر المعز على اثرها وانحاز الى القاهرة .

يقول ابو المحاسن : وظل المعز محصورا بالقاهرة الى ان ارضى القرمطى بمال وخدمه وعاد الى الشام ومات بالرملة في شهر رجب وأراح المسلمين وصفا الوقت للمعز . ولكن لين يقول غير ذلك : ان المعز لم ينجح في ابعاد خطر القرامطة الا بعد ان اشترى شيخ قبيلة بن طى حليف القرامطة فدفع له مائة ألف دينار ، صنعت خصيصا له فانسحب بقواته ، فضعف مركز حسن رئيس القرامطة وفر هاربا ونهب معسكره وقتل ألف وخمسمائة من رجاله ، وارسل المعز جيشا قوامه عشرة آلاف جندي لمطاردة القرامطة الى الشام ، حيث كان الخلاف قد دب بين صفوفهم وراح بعضهم يوقع بالبعض الآخر ، حتى وصل الامر الى ان وضع أحد قادتهم هو وابنه في قفص وأرسلوا الى القاهرة .

وهكذا فشلت محاولة القرامطة الثانية لغزو مصر والسيطرة على الشام . وبهذا استتب الامر نهائيا للمعز لدين الله ، وللفاطميين بصفة عامة .

اول تدريس في الازهر :

في صفر من هذه السنة ، جلس على بن النعمان القاضي بالازهر واملى مختصر ابيه في الفقه عن اهل البيت وكان جمعا عظيما ، واثبت اسماء الحاضرين . فكانت هذه اول حلقة للتدريس في الجامع الازهر ، ثم تتابعت حلقات بن النعمان بعد ذلك لتدريس المذهب الشيعي .

٩٧٦ م - ٣٦٥ هـ : وفاة المعز لدين الله :

في يوم الجمعة ١٧ ربيع الاول من هذه السنة ، توفي المعز لدين الله الفاطمي وله من العمل ست وأربعون سنة ، حكم منها ثلاثا وعشرين سنة وبضعة شهور . أما مدة حكمه في مصر فكانت ثلاث سنوات .

واذا كان حكم الخلفاء الفاطميين في المغرب الذين سبقوا المعز قد اتصف بالخشونة والقسوة وضروب من البربرية ، فيمقدم المعز الى مصر ، دخل الحكم الفاطمي في مرحلة جديدة . ذلك ان المعز قد ولد سياسيا بالفطرة ، قادرا على استغلال فرص النجاح التي تهبأ له . وكان الى جوار ذلك قادرا على التعلم والثقف ، بحيث لم يكن يكتب اللغة العربية ويتذوق الادب فحسب ، بل كان ينظم الشعر ، وكان فوق ذلك يتقن اللغة البربرية لغة قبائل المغرب وكان يدرس اللغة الاغريقية ، بل وقيل انه توفّر على دراسة اللغة السلافية ليتفاهم مع صبيده من شرق أوروبا .

والى جوار قدرة المعز كسياسى ، وتفوقه الفكرى والعلمى ، فقد أضاف فضيلة الكرم مع حب شديد للعدالة ، فلا عجب وهذا شأنه أن يمتد سلطانه الرسمى والفعلى على رقعة الأرض من الشام والحجاز حتى المحيط الأطلسى ، وتذكر كتب التاريخ أن جوهر القائد قبل وصوله الى مصر كان قد نجح فى ازالة كل عقبة فى طريق سلطان المعز الى المحيط ، حتى لقد اصطاد له سمكا ووضع فى أوعية مليئة بالماء ليظل حيا حتى يصل به الى المعز .

وكانت جزيرة صقلية تحت حكمه المباشر ، وتحقق له كما رأينا عن طريق السياسة والكياسة والدعاية ، ما لم يتحقق لغيره بقوة الجيوش اذ دخل مصر ، ودعى له على منابر الحجاز بغير حاجة الى استعمال العنف أو القوة .

وقد تضمنت كتب التاريخ من سيرة المعز ، ونصائحه (١) لقواده ودعوته اياهم للتعلم وانتثقف والتقشف والقصد فى رضاء الشهوات والاقتصار على الزواج بامرأة واحدة ، وانتسامح والبعد عن التعصب ، مالا نظن أنه قد سبق اليه ، وما يضعه فى صف أعظم الملوكة والحكام وقادة الدول والشعوب .

خلافة العزيز نزار على مصر :

ولى الخلافة بعد موت المعز ابنه نزار أبو منصور والذي لقب بالعزيز بالله ، وكانت سنه يوم ولى الخلافة اثنتان وعشرون سنة .

ويلخص أبو المحاسن عهد العزيز بالله فى العبارات الشاملة التالية : وملك مصر وخطب له بالشام والمغرب والحجاز وحسنت أيامه وكان العزيز كريما شجاعا سيوسا وفيه رفق بالرعية ، ثم ينقل عن المسبحى المؤرخ المعاصر قوله فى وصف شخصيته : وكان أسمر أصهب (٢) الشعر أعين أشهل بعيد ما بين المنكبين ، حسن الخلق ، قريبا من الناس ، لا يحب سفك الدماء ، وكان يهوى الصيد ، وكان أديبا فاضلا .

وفى أيامه بنى قصر البحر بالقاهرة (والذي أطلق عليه اسم القصر الغربى مقابل القصر الشرقى) ولم يكن لهذا القصر الذى بناه العزيز مثال فى الشرق أو فى الغرب .

عهد الوزراء من المسيحيين واليهود :

وقد اتسم طابع حكم العزيز بالله منذ اليوم الأول بالاعتماد الكلى فى ادارة البلاد على الوزراء من اليهود أو المسيحيين والذين أسلموا أو الذين ظلوا على دينهم . وقد كان التسامح الدينى بصفة عامة هو شعار الحكم الفاطمى منذ جاء الى مصر ، ليس فقط مع المسلمين من أهل السنة الذين تركت لهم مساجدهم وشعائر مذهبهم التى القوها بل مع أهل الذمة من اليهود والمسيحيين على أن هذا التسامح اخذ طابعا غير مألوف فى هذه الأزمان عندما اخذ العزيز جانب أهل الذمة ويفسر لين بول ذلك

(١) راجع الخطبة يكماها فى خطط المقرئى .

(٢) أى أخمره .

الى تأثره بزواجه المسيحية من أصل روسي ، واستدل على وجهة نظره بأن العزيز عين أخو هذه السيدة بطريركيين ملكانيين أحدهما في الاسكندرية والثاني في بيت المقدس .

كما استطاع بطريرك الأقباط ان يحصل منه على اذن باعادة بناء كنيسة ابي سيفين خارج مدينة القسطنطينية وبتشجيع من العزيز دخل ساويرس اسقف الاشمونين في مناقشة حول العقائد مع قاضي القضاة ابي نعمان الشهير الذي يعتبر أحد دعائم الحكم الفاطمي .

٩٧٧ م - ٣٦٦ هـ : تولية يعقوب بن كلس الوزارة :

وقد بدأ العزيز هذه السلطة من الوزراء ، بتولية يعقوب بن كلس الوزارة في هذه السنة ، على أن يعقوب وان كان يهودي الأصل ولكنه دخل في الاسلام ، ولكننا سنرى كيف أن العزيز لن يلبث بعد موت ابن كلس أن يعين مكانه عيسى بن نسطوروس المسيحي في الوقت الذي كان يقوم فيه على مالية الشام منشأة اليهودي ومن المحقق أن العزيز لم يعتمد على هؤلاء معاونين الا لما اظهروه من كفاءة فنية في أعمالهم ، وقدرة على ادارة الأعمال وجمع الأموال ، وربما كان العزيز في اتخاذه هذا الطراز من الوزراء بعيد النظر ، فلم يحدث ان واحدا من هؤلاء حدثه نفسه أن يستبد بالسلطان كما فعل الوزراء من بعد عندما أصبحوا يختارون من طبقة قادة الجيش وكبرائه .

على أية حال ، فقد أحفظ اعتماد العزيز على أهل الدمة الناس في عهده ، وقد كان الدين يؤلف محور حياتهم ، ولذلك فان كتب التاريخ تحفظ لنا أن امرأة كتبت إليه تقول :

بالذي أمر اليهود بمنشة والنصارى بابن نسطوروس واذل المسلمين بك هلا نظرت في أمري .

فكان لهذا التقرير أثره في نفس العزيز ، حتى لقد قبض على اليهودي والنصراني، وصادر أموالهما . وان كان قد أعاد ابن نسطوروس الى الوزارة فيما بعد .

٨٩٠ م - ٣٦٩ هـ : الوزير يعقوب بن كلس يدرس في الأزهر :

على إن عهد الوزراء من غير المسلمين قد جاء في أخريات عهد العزيز ، أما في هذه الفترة الأولى فقد كان الوزير لا يزال مسلما وان كان من أصل يهودي ولم يكن يعقوب ابن كلس مجرد مسلم ، بل كان متفقا في الفقه الشيعي على مذهب الاسماعيلية ولذلك فقد شرع في رمضان من هذه السنة في لقاء دروسه في الأزهر فكان يحضر دروسه الفقهاء والقضاة وكبار رجال الدولة . . . كما هو الشأن بالنسبة لابن نعمان .

٩٨٣ م / ٣٧٢ هـ نفوذ العزيز يصل الى داخل بغداد :

وبلغ نفوذ العزيز ، الى بغداد نفسها حيث استنجد به عضد الدولة البويهى صاحب السلطان على فارس والعراق ، ليعاونه على حرب الروم ، ويثبت أبو المحاسن رد العزيز على عضد الدولة وجواب عضد الدولة على هذا الرد .

حيث سجل فيه اعترافه بفضل أهل البيت ويقر للعزيز أنه من أهل تلك النسبة الطاهرة ، وأنه فى طاعته يخاطبه بالحضرة الشريفة .

ويبدى أبو المحاسن دهشته من أن يكتب عضد الدولة مثل هذا الخطاب للعزيز ، خصوصا وأنه لا يمكن أن يكون قد كتبه إلا بعد « أن فرأه فى حضرة الخليفة الطائع ، وأرسله بعلمه . وهذا من أعجب العجب » .

ومع أنه ليس هناك ما يدعو لهذا العجب ، فالبويهيون كما هو معروف كانوا شيعة . وكان الخليفة العباسى معهم لا سلطان له . وقد كان الموقف موقف استعانة بجيوش مصر لدفع خطر الروم على العراق .

٩٨٥ م / ٣٧٥ هـ كتاب المهلبى فى الطرق والمسالك :

فى هذه السنة ألف المهلبى كتابا فى الطرق والمسالك أهداه للعزيز ، وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفا دقيقا حيث كان علماء الجغرافيا لا يعرفون من أخبار السودان إلا قليلا (حضارة الاسلام فى القرن الرابع) .

٩٨٦ م / ٣٧٦ هـ وفاة المستنصر صاحب الأندلس

فى هذه السنة مات الحكم بن عبد الرحمن الخليفة الأندلسى ولقبه المستنصر ، وكان العزيز بالله على ما يقول بعض المؤرخين قد مد بعينه صوب الأندلس ، فأرسل كتابا الى المستنصر يهدده فيه ويسبه ويهجو ، فبعث المستنصر الى العزيز برده بليغ استهله على ما يقول ابن اياس بأبيات من الشعر جاء فيها :

السنا بنى مروان كيأت تقلبت بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منّا تهلت له الأرض واهتزت اليه المنابر

ثم قال العزيز : وبعد فقد عرفتنا فهجوننا ، واو عرفناك لهجوننا والسلام .
يعرض بذلك بنسب الفاطميين . يقول ابن اياس فأسكت العزيز ولم يعد لها .

٩٨٧ م / ٣٧٧ هـ - العزيز يدعى له فى جامع القسطنطينية :

دارت رحى المعارك بين جيوش العزيز فى شمال سوريا وبين جيوش الروم ،

وكانت جيوش العزيز تحت قيادة متجوثكين ، وقد انتصر متجوثكين على جيوش الروم . ثم قرر العزيز أن يعد العدة على أوسع نطاق لغزو الروم ، فشرع يجهز مراكب الأسطول ويهيئ الجيوش للغزو ، ويبدو أن أخبار هذا الاستعداد قد وصلت إلى مسمع الروم ، وأفزعهم الحديث عن الشوانى (المراكب الحربية الكبيرة) ذات القلاع والأبراج التى توشك أن تهاجم القسطنطينية فى البحر ، حيث تغزوهم الجيوش من البر ، فأرسلوا وفدا إلى العزيز يلتمس الصلح ، وحمل الوفد معه الكثير من الهدايا والنفائس . وقد قبل العزيز إبرام هدنة لمدة سبع سنوات يسود فيها السلام بين البلدين ، على أن لا يبقى الروم فى دولتهم أسيرا مسلما واحدا وأن يقسموا على ذلك . وأن يخطب للعزيز فى جامع القسطنطينية كل جمعة . وأن يحصل الروم للعزيز فى كل سنة قدرا معيناً من أمتعة الروم وقد استجاب الروم إلى هذه الشروط كلها ، وهكذا تم الصلح بين العزيز والروم .

٩٨٨ م / ٣٧٨ هـ - اتخاذ الأزهر مدرسة للعلم :

ذكرنا فيما سبق أن القاضى النعمان ، والوزير يعقوب بن كلس ، قد اتخذا من الأزهر مكانا لالقاء دروسهما فى الفقه الشيعى ، ولكن فى هذه السنة استأذن الوزير يعقوب بن كلس الخليفة العزيز ، فى أن يحول الأزهر إلى معهد للدراسة المنظمة ، فجرى تعيين خمس وثلاثين فقيها أجريت عليهم الأرزاق الشهرية ، وبنى لهم مسكنا خصص لهم بجوار الجامع الأزهر (١) ، وعهد اليهم بالدرس والقراءة فى أوقات منظمة مستمرة على أن تعقد حلقاتهم فى الأزهر كل يوم جمعة من بعد الصلاة حتى العصر . وكانت هذه هى النواة التى ستزدهر طوال الحكم الفاطمى ، فيزيد طلابه وأساتذته ، وتكثر أرواقه وحلقات التعليم فيه فتنبو به الدراسة وتزدهر بحيث تجتذب الطلاب والعلماء من الخارج ، وهكذا بعثت فى العهد الإسلامى ، ما اشتهرت به مصر فى عهد البطالسة والرومان من علم يتمثل فى جامعة الاسكندرية . ومن سبقه ذلك من شهرتها فى العام ممثلا فى جامعة عين شمس .

٩٩٠ م / ٣٨٠ هـ - وفاة يعقوب بن كلس :

توفى أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس رجل الدولة الأول فى حكم العزيز ، وقد كان فى الأصل يهوديا من أهل بغداد ثم انتقل إلى الرملة فى فلسطين وعمل سمسارا فانكسر عليه مال فهرب إلى مصر ، وتاجر الكافور الاخشيدي ، فرأى منه فطنة فقال : لو أسلم لصلح للوزارة . فأسلم . وكان الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات يحسده ويعاديه ، فلما مات كافور قبض على يعقوب بن كلس فأمر بيزل يتوسل ويبذل الأموال حتى أفرج عنه . فلما خرج من الاعتقال فر إلى بلاد المغرب لجأ إلى المعز لدين الله

(١) ظل هذا هو النظام المعمول به حتى عصرنا الحاضر « نظام الأروقة » .

الفاطمي . وكان ممن عملوا على خدمته لانجاح مشروع فتح مصر ، وظل يترقى في المناصب الى أن أصبح وزيراً للعزیز فاستقامت أمور العزیز بتدبيره . ويذكر لين بول أن العزیز غضب عليه أكثر من مرة وأودعه السجن ، ولكنه كان لا يلبث أن يحس بالفراغ في غيابه فيفرج عنه ويعيده أكثر قوة ونفوذاً .

ولما أشرف على الموت عاده العزیز وحزن من أجله حزناً شديداً وقال له : وددت أنك تباع فأشتريك بملكى أو تفتدى فأفديك بولدى فهل من حاجة توصى بها . فبكى ابن كلس وقبل يده وجعلها على عينيه ثم أوصى العزیز بوصايا وماتم . فصلى عليه العزیز والحدّه في قبره بيديه في قبة كان العزیز قد بناها لنفسه وأغلق الدواوين عدة أيام حداداً عليه .

يقول أبو المحاسن : وقيل انه حسن اسلامه وقرأ القرآن والنحو وكان يجمع العلماء والفضلاء ، وقيل انه كفن وحنط بما قيمته عشرة آلاف دينار ورثاه عند موته مائة شاعر .

وقد وجد في تركته من الجواهر ما قيمته ٤٠٠.٠٠٠ دينار ومن الملبوس والركوب ما قيمته ٥٠٠.٠٠٠ دينار ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام . وسكنه بالمنطقة التي عرفت باسم الوزيرية ، حيث لم يكن يقيم بها سواه ومماليكه وحاشيته .

٩٩١ م / ٣٨١ هـ - الشروع في بناء مسجد الحاكم :

في هذه السنة شرع العزیز في بناء الجامع الذي سيتمه ابنه الحاكم من بعده فيطلق عليه اسمه ، والذي سيكون داراً للعلم والحكمة ويرمز ارقى العلوم في عهد الفاطميين .

وفاة جوهر القائد :

في العشرين من ذى القعدة من هذه السنة مات جوهر الصقاي مؤسس حكم الفاطميين في مصر ومنشئ القاهرة والجامع الازهر . وقد فقد سلطانه الفعلى بعد وصول المعز لدين الله الفاطمي الى مصر ، وان ظل محاطاً بأعلى درجات التكريم فكان يعد اميراً للأمراء ، وظل ذلك حاله أيام العزیز ، وان كانت سلطة الوزارة والتدبير قد أصبحت ليعقوب بن كلس .

وينتبهز المؤرخون القدامى ذكر وفاة جوهر لكي يسرفوا في ذكر مدى ما خلف من اموال والتي يدرك المطالع لأول وهلة أن لابد أن قد اعتورها خطأ في الاملاء أو في النقل فهم يقولون انه خلف من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ولا بد أن تكون هنا ألف زائدة ، فلو خلف ستمائة ألف دينار فقط الى جوار ما ترك فان هذا يكون شبيهاً جسيماً - كما يقولون انه خلف من الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ومن الأولاد الكبار واليواقيت أربعة صناديق ومن القصب الزمرد ألف قصبة ومن الثياب والديباج

سبعون ألف قطعة . ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهى مرصعة بالذهب والياقوت تقوم ما بها من الجواهر باثنى عشر ألف دينار . ووجد فى داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمامة ذات لون خاص ، ووجد عنده من الملاعق الذهب والفضة ثلاثة آلاف ملحقة ، ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صينية وبللور وفضة . . . الى ان يقولوا وهذا كله خارج عن البغال والجمال والخيول والعبيد والجوارى والفرش والاملاك والضياع وغير ذلك .

ولقد نقلنا هذه الرواية بهذا التفصيل ، لأنها تصور مدى البذخ والفنى الذى كان عاينه الأمراء والكبراء فى العصر الفاطمى .

٩٩٥ م - تخريب دار صناعة السفن :

فى هذه السنة وقع حادث غريب فى مصر اذ شب حريق فى دار الصناعة التى كانت تبني مراكب الاسطول على ضفاف النيل عند المقس ، وقد عزی حرق دار الصناعة الى مؤامرات بيزنطة فقبض على مائة من التجار اليونانيين واعدوا . يقول ارشيبالد . ر . لويس فى كتابه القوى البحرية والتجارية : وليس هناك ما ينطق بتفوق الفاطميين وقدرتهم البحرية من هذه الحقيقة الهامة وهى أنهم انزلوا للماء بعد ثلاثة شهور فقط منذ الحريق سفنا من خير انواع السفن وظهر فى المياه الشرقية للبحر المتوسط اسطول جديد اقوى من كل ما سبقه ترفرف عليه راية خلافة القاهرة .

ان يلبث ان يهزم الاسطول البيزنطى بعد ثلاث سنوات ، اى (٩٩٨ م) .

٩٩٦ م / ٣٨٦ هـ - وفاة العزيز بالله :

وفى يوم الثلاثاء النامن والعشرين من رمضان من هذه السنة طويت صفحة العزيز أبو منصور نزار بن المعز خامس الخلفاء الفاطميين ، وكانت سنه يوم مات اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر حكم منها احدى وعشرين سنة .

ويروى لنا المختار المسبحى المؤرخ المعاصر ان الحاكم ابن العزيز قال له : استدعانى والدى قبل موته وهو عارى الجسم وعليه الخرق والضماد (اى أنه كان فى الحمام) فاستدعانى وقبلنى وضمنى اليه وقال : والهفى عليك يا حبيب قلبى ودمعت عيناه ، ثم قال امض ياسيدى فالعب فانا فى عافية ، قال الحاكم فمضيت والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب الى ان نقل الله تعالى العزيز اليه . وأبو المحاسن الذى نقلنا عنه القصة السابقة يعتبر العزيز احسن الخلفاء الفاطميين بالنسبة لابيه المعز ولابنه الحاكم . واذا صح تفضيل العزيز على ابنه الحاكم ، فليسنا نعرف علام يفضلاه أبو المحاسن على ابيه المعز، الا ان يكون من حيث طول مدة الحكم واتساع

رقعة سلطانه فوق رقعة سلطان أبيه حيث دعى له على منابر اليمن ، وفي جامع القسطنطينية على ما ذكرنا ، فوق ما دعى فيه لأبيه من الحرمين حتى الأطلس .

على أن المتفق عليه أن عهده كان عهد بناء وإنشاء وتعمير فبنيت في عهده المساجد ، ودور الصناعة لإنشاء الأسطول الذي وصل في عهده إلى الدروة ، كما وصل ما بداه أبوه من العناية باصلاح الريف المصرى ليدر الخيرات فازدهرت الزراعة والصناعة في عهده .

وكان العزيز أول من خصص المرتبات الشهرية للموظفين والاتباع ، وخصص لكل منهم ملابس خاصة به .

اعتماد العزيز على الأتراك :

على أن العزيز بدأ هذه الخطوة ، التي ستكون بعد حين الصخرة التي يفقد فيها الفاطميون سلطانهم الفعلى ولا يبقى لهم سوى الاسم ، ثم تنتهى بزوال دولتهم من أساسها ، وذلك هى الاعتماد على الجند والقواد من الأتراك ، بدلا من قبائل كتامة التي قامت على اكتافها الدولة . ولا شك أن العزيز قد قصد بذلك كسر شوكة القبائل ، واحداث توازن فى القوى العسكرية .

صور من الحياة فى عهد العزيز

ولعله ليس هناك ما يصور لنا طبيعة الحياة فى ذلك الزمان ، من أن نشير إلى ما يسمى دار الفطرة التي أنشأها العزيز ، وهى مطبخ ضخيم لصنع الحلوى طوال شهر رمضان لتوزع على الناس على قدر مراتبهم الكبير والصغير والقوى والضعيف وكان التوزيع يبدأ من أول رجب حتى آخر رمضان . وقد تضمنت كتب التاريخ تفاصيل المواد الأولية التي كانت تستهلك فى هذا المصنع الضخم لعمل الحلوى .

وام يكن هذا المصنع الا نموذجا لما كان الخليفة الفاطمى يوزعه على الناس من الأطعمة والحلوى والاكسية والنقود فى شتى المناسبات .

خزائن القصر :

وقد حفظ لنا المقرئى وصفا مفصلا لما كان يحتوى عليه قصر الخليفة من خزائن كان بعضها فى الحقيقة أشبه ما يكون بالمصانع ، ويضيق بنا المجال عن تعداد هذه الخزائن ومحتويات كل منها ، وحسبنا أن نذكر أسماءها ليرجع إلى المراجع من يريد الاستزادة من تفصيل ما كان يوجد بكل منها .

فقد كانت هناك :

— خزانة الكسوة .

— خزانة الجواهر والطيب والطرائف .

— خزائن السلاح .

- خزائن الفرش والأقنعة .
- خزانة السروج .
- خزانة الشراب .
- خزانة الطعام .
- خزانة الخيام .
- خزانة البنود والأعلام .

خزانة الكتب :

على أن ما يعنيها من هذه الخزائن كلها ، هو خزانة الكتب فقد اقترنت باسم العزيز كثيرا . حيث يحدثنا السبكي أن كتاب العين للخليل بن أحمد ذكر في حاضرة العزيز فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من الكتاب أحداها بخط الخليل بن أحمد نفسه . وحمل اليه رجل نسخة من كتاب الطبرى اشتراها بمائة دينار فأمر العزيز الخزان فأخرجوا من الخزينة ما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى أحداها بخطه وهكذا ما ذكر الا وكان في خزائنه عدة كتب .

وكان يوجد بالقصر أربعون خزانة وكان في إحدى الخزانات ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة .

مجالس العلم والأدب فى الفسطاط :

وإذا كان الخلفاء الفاطميون قد عنوا بتدريس مذهبهم فى الأزهر ، وجعل القاهرة هى مركز العلم ، فإن الفسطاط التى تمثل قلب الشعب الخفاق ، كانت بدورها فى أوج نشاطها العلمى والأدبى ، وقد حفظ لنا المقدسى الذى زار مصر فى هذه الحقبة من أخريات القرن الرابع ، صورة لما كان عليه النشاط العلمى والأدبى فى الفسطاط بهجامع عمرو حيث يقول :

« وبين العشائين (١) جامعههم يفص بحلقات الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة . وحلقة مع جماعة من المقاوسة ، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين :

ودوروا وجوهكم الى المجلس ، فنظر فاذا نحن بين مجلسين ، وعددنا فيه مائة وعشرة مجالس وعلى هذا جميع المساجد فاذا صلاوا العشاء أقام البعض الى ثلث . ولا نرى أجمل من مجالس القراء به (٢) .

شعر فى وصف مصر :

وكتاب الخطط للمقريزى يحوى أشعارا ممتعة فى وصف مصر فى هذه الفترة ، تشير الى مباهج العصر .

ومناطق اللهو والنزهة ، لإبراهيم بن القاسم الملقب بالرشيد عند ما غادر مصر عام ٣٨٦ هـ .

(١) العشائين : المغرب والعشاء .

(٢) تاريخ مصر الاسلامية - جمال الشيال - ص ١٣٧ .

٩٩٦ م - ٣٨٦ هـ : خلافة الحاكم بأمر الله :

في يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر رمضان ولى أبو على منصور ابن العزيز بالله الملقب بالحاكم . وكان أبوه قد عهد اليه بالخلافة من بعده قبل موته بثلاث سنوات (عام ٣٨٣ هـ) وجعل من الأمير أبو الفتوح بن برجوان قائد الجيوش التركية وصيا عليه ومدبرا لأموره . وكانت سنة يوم ولى الخلافة إحدى عشرة سنة ونصف . والحاكم بأمر الله هو ذلك الحاكم الذي أصبح يضرب به المثل في طول العالم الاسلامي وعرضه في التحكم والاستبداد والشذوذ الذي يؤدي اليه الحكم المطلق والسلطان غير المقيد . فقد راح الحاكم يتأرجع بين أقصى ضروب الظلم وأرحب صور العدل ، بحيث أصبحت حياته صورة فلة من التناقض الذي ينبعث من انقسام الشخصية التي كشف عنها العلم الحديث (١) .

يقول صاحب مرآة الزمان على ما نقله عنه أبو المحاسن :

وكانت خلافته متضادة بين شجاعة واقدام ، وجبن واحجام ومحبة للعلم ، وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح وقتل الصالحاء . وكان الغالب عليه السخاء ، ومع ذلك فقد يبخل بما لم يبخل به أحد قط . وأقام يلبس الصوف سبع سنين (أى متصوف) وامتنع عن دخول الحمام ، وأقام سنين يجلس (فى ضوء) الشمع ليلا ونهارا ، ثم عن له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة . وقتل من العلماء والكتاب والأماثل ما لا يحصى . وكتب على الجوامع سب أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وعمرو بن العاص رضى الله عنهم في سنة ٣٩٥ م ، وأمر بقتل الكلاب وبيع القفاح ثم نهى عن ذلك . ورفع الضرائب عن البلاد وعما يباع فيها . ونهى عن النجوم وكان ينظر فيها . ونفى المنجمين وكان برصدها ، ويخدم زحل وطالع المريخ ولذلك كان يسفك الدماء ، وبنى جامع القاهرة (وهو الجامع الذى شرع فيه أبوه) وجامع راشدة على النيل ومساجد كثيرة ، ونقل اليها المصاحف المفضضة والستور الحرير وقناديل الذهب والفضة ، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها ، وقطع الكروم ومنع بيع العنب ، ولم يبق في أمارته كرما . وأراق خمسة آلاف جرة من العسل في البحر مخافة أن تصنع نبيدا . ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلا ونهارا وجعل لأهل الدمة علامات يعرفون بها ، وألبس اليهود العمائم السود ، وأمر الا يركبوا مع المؤمنين في سفينة والا يستخدموا غلاما مسلما ، ولا يركبوا حمار مسلم ولا يدخلوا مع المسلمين حماما ، وجعل لهم حمامات على حدة ، ولم يبق في ولايته ديرا ولا كنيسة الا هدمها . وأبطل الصلاة عليه في الخطب والمكاتبات ، وجعل مكان الصلاة عليه : السلام على أمير المؤمنين ثم رجع عن ذلك وأسلم في أيامه خلق كثير من أهل الدمة خوفا منه ، ثم ارتدوا وعادوا الى دينهم وأعاد الكنائس على حالها .

(١) لعل قصة دكتور جيكل ومستر هايد ، هي خبر تقريب لشخصية الحاكم الى الازمان .

وقد اخترنا لك هذا التلخيص ليصور حياة الحاكم ، وليس أدل على صدقها من أنها ذكرت حسناته الى جوار سيئاته مما يدل على أن المؤرخين قد رصدوا أعماله بدقة . .

على أن تفسير أمر الحاكم يهون اذا نذكرنا أنه كان صبيا صغيرا عندما تقلد الحكم ، وقد أبى بعد حين الا أن يباشر السلطة بنفسه ، فزاولها شابا في عنفوان الشباب ونحن نعلم ماذا تفعل المراهقة في الشباب حتى اتصل بهم الى حد الجنون .
وسمة السباب بصفة عامة عدم الاستقرار على حال .

٩٩٧ م / ٣٨٧ هـ : عزل ابن نسطورس من الوزارة وتولية ابن عمار :

أشرنا من قبل الى تضرر المسلمين من وزارة ابن نسطورس المسيحي ولذلك فلم تكد الأمور تستقر للحاكم ، حتى تقدم الكتاميون وهم عصب الخلافة الى الحاكم وطلبوا منه عزل الوزير ابن نسطورس ، وتولية زعيم الكتاميين أبو محمد الحسن ابن عمار ، فأجابهم الحاكم الى ما طلبوا وتقلد ابن عمار الدولة بعد ان أطلق عليه لأول مرة اسم أمين الدولة . وكان هذا أول تاقيب للوزراء ، وستظل هذه الألقاب تتصاعد كما سنرى الى أن يلقب الوزير بالملك .

وكان طبيعيا أن لا يرضى برجوان الوصي على هذا التصرف فراح يؤلب زعماء الجند من الأتراك على ابن عمار ، وانتهى الأمر بأن ضيق الأتراك على ابن عمار فلم يسعه الا أن يهرب مع جماعة من أتباعه . وهكذا خلا الجو لبرجون فانفرد بالسلطة .

وفاة الحسن بن زولاق المؤرخ المصرى :

وفي أواخر ذى القعدة من هذه السنة توفي الحسن بن زولاق ، وهو أبو محمد المصرى الحافظ الذى صنف كتابا فى قضاة مصر ذيل به كتاب الكندى ووصل به الى عام ٣٨٦ هـ وهى أيام محمد بن النعمان قاضى الفاطميين .

وقد عاصر بن زولاق الدولة الأخشيديّة ، وأدرك صدرا من الدولة الفاطمية ، و ألف عددا كبيرا من الكتب فى هذا الفن منها سيرة الأخشيد وسيرة كافور وسيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وسيرة الماذرائيين وزراء الأخشيد كما ألف سيرة خاصة لصديقه وزميله فى الدراسة سيبويه المصرى - وهو عالم نحوى عاش فى الفسطاط فى أواخر العصر الأخشيد وجرت له مساجلات مع المتنبى عند زيارته لمصر . وهذا الكتاب الأخير هو وحده الذى وصل الينا وقد فقدت كتبه الأخرى ، ولكن المؤرخين اللاحقين عليه وخاصة المقرئى قد نقلوا عنها الكثير .

١٠٠٠ م / ٣٩٠ هـ : مقتل الأمير برجوان الوصى :

لم يعجب الحاكم تصرف برجوان فى طرد ابن عمار والاستئثار بالسلطة ، حتى

لقد أصبح الحاكم محجورا عليه . وقد كان رغم صغر سنه تواقا الى ممارسة السلطة . وقد زاد في حنقه على برجوان أن هذا الأخير قد منعه من الاتصال المباشر برجال الدولة . ولذلك فقد كاد له الحاكم بأمر الله ودبر له من قام بقتله ورفع الى الوزارة حسين بن جوهر الصقلي ، ولقبه بقائد القوات .

وتصول كتب التاريخ القديمة وتجول فيما خلفه برجوان وراءه من ثروة يقولون عنها انها فاقت ما خلفه جوهر الصقلي نفسه .

الحاكم يزاول مظاهر السلطة :

ولم يكد الحاكم يتخلص من برجوان ، حتى بدأ يشرف بنفسه على حكم البلاد وادارتها ، فكون مجلسا يضم كبار الموظفين لبحث شئون الحكم كما حرص على التجول ليلا في المدينة للوقوف على أحوال الناس ، ولكي يتيسر له تحقيق هذه الغاية أمر الناس بتعليق مصابيح على جميع الحوانيت والمحال المختلفة في جميع الطرقات القاهرة والفسطاط . فترتب على ذلك تغير كبير في نظام الحياة المصرية ، حيث أصبحت الأعمال والمعاملات تجري ليلا . . فكان ذلك أول ما اعتبر من شذوذ الحاكم . .

وبدا المصريون يطلقون نكاتهم التقليدية والتي أخذت طريقها الى بطون كتب التاريخ .

١٠٠٥ م ٣٩٥ هـ - انقلاب الحاكم ضد الذميين :

انقضت السنوات العشر الأولى من حكم الحاكم في سياسة التسامح التي اتبعها أبوه وجده من قبله مع أهل الذمة من سكان البلاد ، حيث كانوا يتمتعون بحريتهم الدينية ويشاركون في الحياة العامة بكل سبيل ، فلما كانت هذه السنة ، انقلب الحاكم على أهل الذمة فحتم على اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامى الخشب على صورة العجل حيث تزن القرمة خمسة ارطال مصرية وان يلبسوا العمائم السود وان يعلق النصراني الصليبان في أعناقهم على أن يكون طول الصليب ذراعا وزنته خمسة ارطال مصرية . ولا يكتروا بهيمة مسلم ، وان يدخلوا الحمام بالصليبان . وأمر النصراني بعدم الاحتفال بعيد النيروز على شواطئ النيل لابطال ما كان يقترب بها من ملاحى باذخة .

ثم زاد على ذلك فأصدر أمره بهدم جميع الكنائس والاديرة في القطر المصرى ومصادرة الأوقاف المرصودة عليها وضمها الى الديوان .

وقد أدت هذه السياسة الى دخول الكثيرين من أهل الذمة الى الاسلام ، كما هاجر البعض الآخر الى دولة الروم والحبيشة والنوبة ، بعد أن سمح لهم الحاكم بهذه الهجرة وأباح لهم حمل أموالهم .

اضطهاد المسلمين :

ولم يكن اضطهاد الحاكم لاهل الذمة منبعثا من تعصب ديني بقدر ما كان منبعثا من امتهانة للانسانية في مجموعها ، وليس ادل على ذلك من أنه في هذه السنة نفسها اصدر امره بسب الصحابة وان تنقش الفاظ السب على جدران المساجد وفي الاسواق والشوارع والدروب - كما اصدر امره بتعميم المذهب الشيعي والفاء المذهب السنني وما يترتب على ذلك من حظر صلاة الضحى والتراويح في رمضان وازافة حى على خير العمل في الاذان وغير ذلك . مخالفا نص العهد الذى قطعه جوهر للمصريين ، وسار عليه العمل في ايام المعز والعزيز وهو ان لا يتعرض للمصريين في مذهبهم . وفي هذه السنة ايضا على ما يقول المقرئى كان حظر الحاكم على المصريين اكل الملوخية والجرجير وذبح الابقار السليمة ومنع بيع القفاح - ولا يباع شىء من السمك بغير قشر .

١٠٠٧ م - ٣٩٧ هـ : ثورة ابي ركة والقضاء عليها :

كان طبيعيا وقد بدأت تصرفات الحاكم تثير الاضطراب ، ان ينتهز اعداء الخلافة الفاطمية الفرصة لمحاولة تقويض سلطتها . وكانت ثمة خلافتان تقومان على شرق الخلافة الفاطمية وغربها . فاما اولاهما فهي الخلافة العباسية في بغداد ، والثانية هي الخلافة الاموية في الاندلس . . وكانت الخلافة الفاطمية شجا في حلق الخلافة الاندلسية ، حيث كانت تحتل الشاطئ الافريقي المقابل . فحركت الخلافة الاموية احد رجالها في برقة والصحراء الغربية وكان يدعى ابو ركة فادعى الانتساب الى بنى امية ، ونادى بالخروج على الحاكم وحربه فانضمت اليه قبائل الكتامية المغربية ، التي اوترها الحاكم بطرد زعيمها ابن عمار . واستطاع ابو ركة بجيشه وحلفائه ان يستولى على برقة وان يهاجم حدود مصر الغربية ، فأرسل الحاكم جيشا لمقاتلته ، ولكن هذا الجيش قد اندحر ، ولما ارسل اليه جيش ثان ، هزم بدوره .

ولكن الحاكم وفق اخيرا الى قائد لجيوشه وهو الفضل بن صالح فاستطاع ان يهزم ابا ركة وان يوقع مذبحة في جنوده وقبض على ابي ركة نفسه وسيق الى القاهرة ، حيث شمر به ثم اعدم وصلب جسده للعبرة .

١٠٠٨ م - ٣٩٨ هـ : هدم كنيسة القيامة :

ذكرنا من قبل ان الحاكم اصدر امره بهدم جميع الكنائس والاديرة في مصر . . . وفي هذه السنة ذهب الى ابعد من ذلك فأصدر امره بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس غير ملق بالا لقداستها عند مسيحي الدنيا كلهم ، واباح للعمامة نهب ما فيها من اموال وذخائر نفيسة وامتعة .

ويقول الدكتور سرور ان هذا الحادث يعتبر بمثابة البذرة الاولى لايقاد نار الحرب الصليبية التى لن يلبث ان يدعو لها بابا روما .

ومن عجب ان وزير الحاكم الذى اشرف بنفسه على تنفيذ هذا التصرف الخطير كان مسيحيا وهو ابن عبدون . وقد دفع جزاء ذلك ، ان قتله الحاكم فى العام التالى . وكان الحاكم قد امتاد على ان يقتل وزراءه احسنوا ام اساءوا ، اصابوا ام اخطاوا .

١٠١٠ م - ٤٠٠ هـ : الحاكم يعالج اخطاءه ويكفر عنها :

وانتابت الحاكم موجة صحو فيما يبدو ، واحسن بموجة السخط التى عمت البلاد فراح يلغى كل ما أصدره من اوامر صدمت مشاعر الناس ، فلأوقف سب الصحابة الذى كان قد أمر به ، وأمر بمحو النقوش والكتابات الخاصة بسبب أبو بكر وعمر وعثمان . واعاد التصريح بصلاة الضحى والتراويح وغير الاذان وجعل مكان حى على خير العمل - الصلاة خير من النوم (التى لاتزال يؤذن بها حتى الآن) .

وركب بنفسه الى جامع عمرو بن العاص وصلى به الضحى وظهر الميل الى مذهب الامام مالك - وأهدى المسجد العتيق الكثير من الهدايا النقدية والعينية من التحف والثريات التى تصفها لناكتب التاريخ بدقة .

وفعل ما هو اكثر من ذلك فأظهر التقشف والنسك ، وحيث كان ابوه وجده لا يسيرون الا فى مواكب ترتج لها القاهرة فقد أصبح لا يركب سوى الحمار ويسير فى غير صخب او حاشية ومنع من ان يخاطب بمولانا ، او ان يقبل الارض بين يديه .

وقرر دفع الرواتب لمن يأوى الى المساجد من الفقراء والغرباء ابناء السبيل واجرى لهم الارزاق .

وفعل ما لم يفعل له احد من قبله ، حيث راح يحمل الطيب والبخور والشموع بنفسه الى المساجد .

ومضت سنوات وهو على هذا المسلك الحميد .

انشاء دار الحكمة :

على ان اعظم ما قام به الحاكم فى هذه الفترة المشرقة من حياته هو انشاء دار الحكمة او دار العلم ، اذا جهزها بالفرش اللازم ثم نقل اليها امهات الكتب العظيمة واختار لها شيخين من كبار علماء اهل السنة يعرف أحدهما بأبى بكر الانطاكى وترك لهما اختيار باقى الفقهاء والمحدثين بالمعهد الذى لم يقف التدريس فيه عند حد تدريس الفقه والشريعة ، بل تجاوزه الى تدريس علوم اللغة والأدب والشعر والفلك والطب ، بحيث اشبه المعهد ان يكون جامعة عصرية بكل ماتحويه الجامعات الحديثة من علوم .

١٠١١ م - ٤٠١ هـ : الدعاء الحاكم في مساجد الموصل والانبار والمدائن :

استطاع الحاكم عن طريق المكاتبات والهدايا والاعطيات ان يمد نفوذه في الشرق الى ما وراء الحرمين ، والشام ، اذ حمل امير الموصل معتمد الدولة مزواش بن مقلد ان يدعو له في صلاة الجمعة على منابر الموصل وتوابعها كالانبار والمدائن ، وان يثنى عليه وعلى آله المكرمين الثناء الجم .

ولقد حفظت لنا كتب المشارفة ، نص اول خطبة القيت بهذه المناسبة .

وقد انزعج القادر الخليفة العباسي لهذا الانقلاب ، واصدر امره باعداد الجيوش لمحاربة معتمد الدولة ، ولكن هذا الأخير لم يكذب يسمع بذلك حتى اعتذر عن فعلته واوقف الخطابة للحاكم واعادها للخليفة العباسي .

١٠١٢ م - ٤٠٢ هـ : طعن العباسيين في نسب الفاطميين :

كان طبيعيا ان يشير هذا الحادث ثائرة الخليفة العباسي ضد الحاكم ، واذا كان اضعف من ان يسير اليه جيشا يردعه فقد لجأ الى سلاح الدعاية ، فجمع عددا من علماء بغداد وقضاتها وعلى راسهم الشريف الرضي (١) ، واخوه المرتضى ومن الفقهاء أبو حامد الاسفراييني وأبو عبد الله البيضاوي وكتبوا محضرا طعنوا فيه في النسب الفاطمي وأعلنوا فيه ان الحاكم واسلافه : ادعياء خوارج لا نسب لهم في اولاد علي بن أبي طالب ، وانما هم كفار فسقة فجار ، ملحدون زنادقة ، معطلون للاسلام جاحدون ولمذهب المجوسية والثنوية معتقدون ، وقد عطلوا الحدود وأباحوا الفروج ، واحاوا الخمر ، وسفكوا الدماء وسبوا الانبياء ، ولعنوا السلف ، والدعوا الربوبية .

وليس هناك ما يظهر زيف هذه الدعاوى ، الا مامر بنا من سيرة المعز وابنه العزيز من أهل مصر حيث ازدهر بها الاسلام ، اما ما وقع فيه الحاكم من انحرافات ، فهي اخطاء شخصية قد ترى في مثلها كثير من الحكام في مختلف العصور على ما مر بنا .

١٠١٣ م - ٤٠٤ هـ : الحاكم يعتق الارقاء ويحرر العبيد :

وانتابت الحاكم صحوة من صحواته المحيرة فاذا به يصدر امرا بعثت كل ما كان يملكه من الرقيق بالقاهرة ومصر في سائر ارجاء الدولة ، وان يصبح كل عبيده وامائه احرارا ، على ان يصبح ملكا خاصا كل ما كان تحت ايديهم من اموال وهم في حالة الرق .

(١) جامع كتاب نهج البلاغة والشاعر المشهور .

الحاكم يغير نظام الوراثة الاسماعيلية ويعين ولي عهده :

وفي هذه السنة أقدم الحاكم على اجراء من شأنه ان يقوض نظام الوراثة كما هو في العقيدة الاسماعيلية . فالمذهب الاسماعيلي يقوم على ان الخلافة ، او كما يعبرون عنها بالأمانة لا يمكن ان تكون الا في نسل على بن أبى طالب ، وان تنقل بالوراثة كما تنقل باقى الصفات الأخرى الخلقية . . وبدلا من أن يعهد الحاكم بالخلافة من بعده الى ابنه على ، اذا به يتجاوزها الى تعيين ابن عمه عبد الرحيم بن الياس وليا للعهد ، وامر ان يخطب له على المساجد ، وان يضرب اسمه على النقود وينقش على البنود والطراز ، كما أمر ان ينوب عنه في الخطبة والصلاة والنظر في المظالم وان يسايره في المؤاخذ . وقد أحدث هذا التصرف في البيت الحاكم بلبلة ، لن تلبث ان تؤدي الى مصراع الحاكم كما سوف نرى .

١٠١٤ م - ٤٠٥ هـ : منع النساء من الخروج في مصر :

كانت هذه هي السنة التي اقدم فيها الحاكم على احد تصرفاته الشاذة . فأصدر امره على مايروى ابن كثير بمنع النساء من الخروج من منازلهن ، او ان يطلعن على اسطح المنازل ، او ينظرون من النوافذ ومنع صانعي الاحذية من صنع الاحذية لهن ، ومنعهن من الخروج الى الحمامات ، وقتل بعض النساء لمخالفتهم هذه الاوامر ، وهدم بعض الحمامات على من فيها من النساء . وجهاز مايمكن اعتباره اول جهاز للمخابرات في العالم الاسلامي فاعد حشدا من النساء العجائز وكلفهن بالاستعلام عن احوال النساء من منهن تعشق ومن هم عشاقهن وان يبلغنه بأسماء هؤلاء وهؤلاء . ليوقع بهم . وراح بنفسه يكثر من الدوران ليل نهار بحثا وراء ذلك واغرق عددا من الرجال والنساء والصبيان ممن اطلع على فسقهم . . وضاق الحال واشتد على النساء والفساق ولم يتمكن احد منهن ان يصل الى احد الا نادرا ، ويبدى ابن كثير ارتياحه لهذا التصرف من الحاكم .

وقد استغل الحاكم جهاز مخابراته الذي راح يطلعه على مايجرى في البيوت وما يقع من احداث . . لكي يتظاهر امام رجال دولته بأنه يعرف الغيب ويطلع على الاسرار .

١٠١٤ م - ٤٠٥ هـ : ثورة الجماهير على الحاكم :

كان طبيعيا ان ترتفع موجة السخط ضد الحاكم ، وراحت جماهير المصريين تعبر عنها بأسلوب المصريين التقليدي ، وهو السخرية والتنكيت ، وارسال الرقاع التي تختم بالدعاء عليه والسب له ولاسلافه اليه . ثم وصل الامر بهم الى حد ان اصطنعوا تمثالا من الورق على هيئة امرأة ، ونصبوها في أحد الطرق التي اعتاد الحاكم ان يمر

منها ، ووضعوا في يدها الممدودة رقعة ورق باعتبارها ظلامة ترفعها للحاكم . وبالفعل اقترب منها الحاكم اثناء جولاته واخذ من يدها العريضة ، فلما شرع في مطالعتها ، استعظم ما جاء فيها ولا بد انه كان سببا ولعنا ، فطلب ممن حوله ان يتقصوا شأن المرأة ، فاذا بهم يكتشفون انها ورق ، وانها صنعت للسخرية من الحاكم .

وكانت هذه مناسبة ليتجلى جنون الحاكم في اعنف صورة اذ عاد على التو الى القاهرة ، واستدعى القواد وعرفاء الجيش الى قصره وامرهم ان يسيروا الى الفسطاط ، وان يقتلوا من ظفروا به من اهلها ، وينهبوا ماشاءوا ان ينهبوا من اموال سكانها .

وهب الشعب يدافع عن نفسه بقوة السلاح ، وخف الاثرak والكتاميون الى نجدة الشعب ووقفوا الى جواره . ودارت الحرب بين الشعب وحلفائه وجنود الحاكم ثلاثة ايام دمر فيها عن طريق الحريق ما يقرب من ثلث الفسطاط . . ولكن قوى الشعب بدأت تتغلب على جنود الحاكم ، واوشكت الدائرة ان تدور عليهم ، فلأسرع الحاكم الى الفسطاط ووقف بين المتنازعين ليفرق بينهم ، وهو يقسم انه برىء مما فعله عبيده .

١٠١٨ م - ٤٠٩ هـ : الجهر بتأليه الحاكم :

كان قد وفد الى مصر بعض دعاة الشيعة من بلاد الفرس واعتنقوا المذهب الفاطمي ، ولكنهم طُردوا في معتقداتهم ، وخرجوا على تعاليم المعتدلين من الاسماعيلية وكان على رأس هؤلاء الدعاة تأثيرا في اخريات عصر الحاكم - حمزة بن علي الزوزني وحسن بن حيدرة المعروف بالأخرم ومحمد بن اسماعيل البخاري الدرزي .

وقد بدأ هؤلاء الثلاثة يبشرون بالدعوة لتأليه الحاكم سرا ثم لم يلبث حمزة بن علي الزوزني أن جهر بتأليه الحاكم ، وتابعه الأخرم الذي جهر بالدعوة في جامع عمرو بن العاص نفسه ، فما كان من جماهير الشعب المسنين الا ان تعقبوه وقتلوه ، ولكن محمد بن اسماعيل الدرزي حل محله ، ووضع رسالة في تأليه الحاكم رفعها اليه ، مبينا بها ادلة مذهبه واصوله ، وكان ممن يقولون بالتناسخ ففرح الحاكم بهذه الرسالة ، وقرب الدرزي اليه وأجزل له العطاء وعهد اليه بالاشراف على شئون الدولة بحيث أصبح الوزراء والقواد اصحاب الحاجات يقفون على بابه حيث لم يكن يقضى عمل الا على يديه .

وتماذى الدرزي فأعلن دعوته في الجامع الأزهر .

ومن جديد اهاج هذا التصرف المصريين من اهل السنة ، بل ومعتدلى المذهب الشيعي ، فراحوا يتعقبونه لقتله كما قتلوا صاحبه من قبل ولكن الدرزي لجأ الى قصر الحاكم فذهب الجموع وعلى راسها فرق من الجيش واحاطت بقصر الحاكم وراحت تطالب بتسليمه . ونفى الحاكم للجند والشعب ان يكون الدرزي في قصره

وراح يدبر لتهريب الدرزي من مصر ، على أن يذهب الى الشام وينشر دعوته بين الجبال وزوده بالاموال اللازمة وقد نجح الدرزي بالفعل في الوصول الى بلاد الشام واستطاع أن يجمع حوله العديد من الانصار الذين أصبحوا يعرفون منذ هذا التاريخ باسم الطائفة الدرزية .

١٠٢٠ م - ٤١١ هـ : الحاكم ينتقم من الشعب :

على أن الحاكم أبى الا ان يأخذ بثأره من جماهير الشعب التي أحاطت بقصره غاضبة مهددة ، فقد أطلق جنوده من السودانيين على أهل القسطة من جديد ، لكي ينهبوا ويقتلوا ويخربوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

ويعيد الحرية الدينية لأهل الذمة :

وكأنه أراد أن يقيم شيئاً من التوازن في سياسته حتى يضم اليه بعض عناصر الشعب ، فقد أطلق في هذه الفترة نفسها حرية ممارسة الشعائر الدينية للنصارى واليهود ، ورد ما أخذ منهم من أوقاف الكنائس والأديرة ، وسمح للمسيحيين أن يجددوا بناء كنائسهم وأديرتهم . وذلك كله في مرسوم ، احتفظ بنصه حتى بن سعيد الأنطاكي في تاريخه .

ست الملك أخت الحاكم تنفذ البلاد منه :

ورأت ست الملك أخت الحاكم ، أن تضع حداً لتصرفات الحاكم المجنونة والتي شقيت منها البلاد والعباد بقتله . وقد فصل المؤرخون الكيفية التي انتهت بها حياة الحاكم وقد استعرض أبو المحاسن هذه الأقوال : وقد اخترنا منها قول ابن الصابئ لوضوحها وتكاملها ، يقول :

لما بدت من الحاكم هذه الأمور الشنيعة ، استوحش منه الناس - وكانت له أخت يقال لها ست الملك من أعقل الناس وأحزمهن ، فكانت تنهاه وتقول له يا أخي : احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك : فكان يسمعها غليظ القول ويتهددها بالقتل وبعث اليها يقول : رفع الى أصحاب الأخبار أنك تدخلين الرجال اليك وتمكينهم من نفسك ، وعمل على انقضاء القوافل لاستبرائها ، فعلمت انها هالكة معه .

فاتفقت مع سيف الدولة بن رواش شيخ كتامة على قتله . وكان قتل الحاكم من أيسر الأمور ، ذلك أنه دأب على أن يذهب الى المقطم كل ليلة (١) راكباً حماراً غير مصطحب كبير حرس . ولذلك فقد تربص به نفر من العبيد الذين أعدهم ابن رواش ، وقتلوا الحاكم ، وحملوا جثته لسيدهم .

فلما طال غياب الحاكم عن العودة ، بحث عنه أرباب الدولة فوجدوا حماره

(١) كان الحاكم قد أنشأ فوق جبل المقطم مرمدا لرصد النجوم .

مقتولا : ووجدوا أنار أقدام فتتبعوها حتى وصلوا الى بركة حاوان فوجدوا فيها ثيابه وبها اثر ضرب السكاكين فتيقنوا من قتله .

وتمضى القصة بعد ذلك ، فتحدثنا عن دهاء ست الملك وكيف استطاعت ان تتخلص بعد ذلك من ابن رواش وكل من كانت له يد في قتل الحاكم ، حتى يظلا سرها مدفونا .

وبهذا انطوت صفحة هذا الحاكم العجيب الذى جمع المتناقضات والذى يعتبر صبر المصريين على احكامه الشاذة احدى خصائصهم التى امتازوا بها وهى قوة الاحتمال والصبر ،

ويقول الدكتور سرور ان يحيى بن سعيد الانطاقي الذى بدأ فى كتابة تاريخه سنة ٤٠٥ هـ تحدث عن مصرع الحاكم دون ان يذكر شيئا عن صلة اخته بهذا الحادث وان المقرئى قال ان اتهام ست الملك بقتل اخيها جاء من كلام مشسارقة المؤرخين ، وزاد على ذلك فروى رواية تتلخص فى ان رجلا من احد بلاد الصعيد ظهر عام ٤١٥ هـ ، أى بعد اختفاء الحاكم بأربع سنوات وادعى انه قتل الحاكم ، وكون سعيد الانطاقي لم يذكر شيئا عن علاقة ست الملك بمقتل الحاكم ، فتفسير ذلك واضح من القصة نفسها وهو ان الامر قد تم سرا ، وأن ست الملك قد احكمت خططها فقضت على كل من اشتركوا فيها . ومثل هذه الامور بطبيعتها لا تعرف وتشاع الا بعد مدد طويلة ، حيث تتسرب الحقائق بالتدريج . واما القول بأن أساننا ما ادعى بأنه قاتل الحاكم ، فهذا ليس بشيء .

وانما الذى يقطع بأن نهاية الحاكم قد تمت على الصورة التى توارثت بها اقوال المؤرخين كما قدمناها ، هو الدور الكبير الذى لعبته ست الملك بعد مقتل الحاكم ، وهى تنزع من ولاية العهد عبد الرحيم بن الياس ، وتحمل القواد والجند على مبايعة ابن الحاكم ، وتوليها الوصاية عليه وتدير ملكه . فليس ما يفسر اضطلاعها بهذا الدور الخطير ، الا ان تكون هى التى وضعت حدا لحياة الحاكم ، فأصبح من حقها وفي قدرتها تنظيم الحكم من بعده .

وكانت وفاة الحاكم فى يوم الاثنين ليلة السابع والعشرين وكان عمره يوم قتل ستا وثلاثين سنة وسبعة أشهر حكم منها خمسا وعشرين سنة .

يقال الذهبى على ما نقله عنه ابن اياس : ولما قتل الحاكم صار جماعة من الجهال المقتلين من وادى التيم من نواحي الشام يعتقدون حياة الحاكم الى الآن ، ويقولون لابد ان يظهر فى آخر الزمان ويعود الى الخلافة ، وانه هو المهدي لا محالة . ويجانفون الى الآن بغيبة الحاكم .

اما ستانلى لين بول فيقول لنا : وحتى اليوم يعبد الدروز فى لبنان « الحكمة الالهية » كما تمثلت فى شخصية الحاكم الشاذة غير الجديرة بالاعتبار ، ويعتقدون انه فى يوم من الايام سيعود فى جلال ليظهر الحقيقة ويحكم بالعدل .

عبد الرحمن بن يونس :

ولن يكمل تاريخ عصر الحاكم دون أن نشير الى شخصيتين ترمزان الى انه وسط حياة الحاكم العاصفة ، فقد شجع بعض العلماء وعلى رأس هؤلاء عبد الرحمن ابن يونس اعظم فلكي ظهر في تاريخ مصر الاسلامية . وقد كان العزيز هو اول من قدر شأنه فبنى له مرصدا خاصا جنوب الفسطاط ليقوم برصد الكواكب واجراء بحوثه . وقد سجل عبد الرحمن بن يونس بحوثه فيما اشتهر باسم الزيج الحاكم والذي بدأه في عهد العزيز واتممه في عهد الحاكم . ويقول الاستاذ حافظ قدرى طوفان ان ابن يونس قد سبق غاليليو بستة قرون في اختراع بندول الساعة .

الحسن بن الهيثم :

كما وفد على مصر في عهد الحاكم (الحسن بن الهيثم) المهندس والعالم الاسلامي الرياضي الكبير . وقد نقل عنه مرة قوله : لو كنت بمصر لعمت في نيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص . ووصل الى علم الحاكم هذا القول ، وكان يغرم بهذا اللون من الابحاث العلمية فأرسل لحسن بن الهيثم مالا ورغبة في الحضور الى مصر . وعند وصوله خرج الحاكم بنفسه للاقائه خارج القاهرة وزوده بما طاب من مال وعمال ومساعدين . وتنقل ابن الهيثم في مصر حتى وصل الى جنادل أسوان (١) .

ولا نعرف ماذا فعل ابن الهيثم بعد ذلك او قال ، ويبدو انه لم يوفق لتنفيذ مشروعه فخشي بأس الحاكم ، فتظاهر ابن الهيثم بأنه أصيب بالجنون . فحجز في منزله وظل على ذلك الى أن قتل الحاكم فأظهر العقل ثانية وخرج من داره .

١٠٢٠ م - ٤١١ هـ : خلافة الظاهر لاعزاز دين الله :

قدمنا القول أن ست الملك تجاهلت ولي العهد الذي كانت ولايته تعتر خروجا على المذهب الاسماعيلي واستطاعت أن تجمع القواد والامراء حول تولية أبي الحسن على بن الحاكم ولقب الظاهر لاعزاز دين الله وكانت سنة يوم ولي الخلافة ست عشرة سنة وثمانية اشهر . واختلف في يوم توليته فقيل أنه ولي في السابع والعشرين من شوال وقيل بل كانت توليته يوم النحر ، لأن رجال الحاشية وقواد الجند ظاوا يترقبون ظهور الحاكم فترة من الزمان ، حتى تحقق لهم موته .

وقد امتد سلطان الظاهر على المنطقة من الفرات حتى المحيط الأطلس ، وضربت باسمه الدنانير التي لا يزال بعضها موجودا حتى الآن في مدن مصر والاسكندرية والمنصورة والمهديّة وزويلة وفلسطين وعكا وصقلية .

(١) مجرد توقف ابن الهيثم عند أسوان ، يدل على انه أدرك بحاسته الفنية أن مشروعات النيل

يجب أن تكون مندها .

ست الملك تحسن تدبير الملك :

وقد قامت عمة الظاهر ست الملك بتدبير المملكة أحسن تدبير فبدلت العطاء للجند وساست الناس أحسن سياسة . ووجهت الظاهر الى الغاء كل ما كان الحاكم قد أصدره من أوامر وقيود واجراءات شاذة . وأصدر أمانا لأهل الذمة أعلن فيه حريتهم في عقائدهم وشمسائهم وأنه لا إكراه في الدين ، وأن من أحب منهم أن يدخل الإسلام اختيارا وهداية من الله فليفعل مقبولا مبرورا ، ومن أثار البقاء على دينه فله ذمته . وأعاد للاقباط احتفالاتهم الدينية وخاصة الاحتفال الكبير بليلة الفطاس التي كان المعز قد أمر بإبطالها لما كان يجري فيها من منكرات . وقيل أن الظاهر قد سمح بعودتها ليتفرج على ما كان يجري فيها .

١٠٢٣ م - ٤١٤ هـ : الظاهر يبرأ من دعوة الألوهية :

كان قد وقع في موسم الحج لعام ٤١٣ هـ حادث كان له صدى عميق في العالم الإسلامي ، حيث اعتدى رجل من أتباع الحاكم من أهل البصرة - وكان في ركب الحجاج المصريين - على الحجر الأسود بأن ضربه بدبوس ثلاث ضربات متوليات فطارت منه بعض الشظايا وهو يقول الى متى نعبد هذا الحجر وأضاف على ما يقول ابن كثير :

ولا محمد ولا على بمنعنى مما أفعله ، فأثني أهدم اليوم هذا البيت . فتكاثر الناس عليه وقتلوه وقتلوا كل من كان ضائعا معه من الحجاج المصريين . وكادت أن تقع فتنة كبيرة لولا تدخل العقلاء واستطاعوا تهدئتها في الوقت المناسب .

وعندما وصلت هذه الاخبار الى الظاهر : أصدر بيانا تبرأ فيه من هذا الحادث ، وانتهز الفرصة ليندد بالذين غالوا في تأليه على بن أبى طالب ، ووصفهم بأن شأنهم في ذلك شأن النصارى الذين ألوهوا المسيح ثم قال : ونجمت من هؤلاء الكفرة فرق سخيصة العقول ، ضالة يجهلها عن سواء السبيل ، تغلو فينا غلوا كبيرا وقالوا في أجدادنا وآبائنا منكرات من القول ونورا ، نسبونا بفلوهم الأشنع وحبهم المستفطع ، الى ما لا يليق بنا ذكره ، وانا نتبرأ الى الله تعالى من هؤلاء الكفرة الفجرة .

ثم يمضى البيان معددا الاجراءات التي اتخذت للضرب على أيدي هذا النفر وتشريدهم .

١٠٢٤ م - ٤١٥ هـ : وفاة ست الملك :

ماتت الاميرة الجليلة ست الملك بعد أن ساست الدولة أحسن سياسة ، ووطدت أركان الحكم لابن أخيها . وقد ذكر أبا إياس أنها خلفت وراءها ، كيفة أميرات البيت الفاطمي موجودات عظيمة من المال والجواهر والقماش والتحف مما لا يحصى لكثرته . وكان من بين ما تركته أربعة آلاف جارية بيضاء وسوداء مولدات وغير ذلك .

تولى على بن أحمد الجرجاني الوزارة :

استوزر الظاهر بعد وفاة عمته نجيب الدولة على بن أحمد الجرجاني : وكان الحاكم بأمر الله قد قطع يدى هذا الوزير من المرفقين ، ولذلك فقد كان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله القضاى .

امن الامانة والتقى قطعت يدك من المرافق

١٠٢٦ م - ٤١٧ هـ : وقوع مجاعة في مصر :

يقول ستانلى لين بول ، أن النيل قد قصر في هذه السنة عن أن يبلغ ارتفاعه المعتاد لرخاء البلاد ، فقلت الارزاق وعزت الاقوات ، وارتفعت بالتالى الاسعار : ولم يستطع عامة الشعب أن يحصلوا على اقواتهم الا ببيع ما لديهم من اثاث ، ولكنهم لم يجدوا مشترين ، فحاق بهم المرض ومات الكثيرون منهم . بينما تحول الاقوياء الى قاطعى طريق ينهبون كل ما تمتد اليه ايديهم : ولم يعفوا حتى قوافل الحجاج . واجتمعت السجماهير حول قصر الظاهر وهم يصيحون « الجوع الجوع يا امير المؤمنين ، لقد جرى ما لم يقع في عهد ابيك وجدك » .

ومن ناحية اخرى لم يقبض الجنود مرتباتهم فتحولوا الى جماعات وعصابات تنهب المواطنين ، فهب المواطنون ، وتسלحوا للدفاع عن انفسهم . واذن لهم الحاكم في قتل الجنود المعتدين .

ووقف الوزير الجرجاني عاجزا ، فحبس نفسه في بيته . ولم ينقد الموقف الا ان الحول كان قد حال بوعاد النيل بسخائه : فاختلفت المجاعة وباختفائها عاد الامن الى الاستتباب .

المحافظة على الثروة الحيوانية :

وكان يمكن أثناء القحط السابق أن تبنى الثروة الحيوانية من البلاد ، لولا أن الظاهر اصدر امرا بمنع ذبح البقر الخالى من العيوب والصالح للحرث وكان مما جاء في هذا الامر الذى قرىء على الناس ليعملوا به :

« ان الله تعالى بتتايغ نعمته وببالغ حكمته ، خلق ضروب الانعام ، وعمل منها منافع للناس ، فوجب أن نحمل البقر المخصوصة بعمارة الارض : المذلة لمصالح الخلق ، فان ذبحها غاية في الفساد واضرار للعباد والبلاد » .

١٠٢٧ م - ٤١٨ هـ : معاهدة مع بيزنطة لاعادة بناء كنيسة القيامة :

وفي هذه السنة مضى الظاهر في اصلاح ما افسده ابوه ، فأبرم معاهدة مع

امبراطور بيزنطة لاعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس . فى مقابل ان يدعى للظاهر فى جميع المساجد القائمة فى املاك الدولة البيزنطية وخاصة فى مسجد القسطنطينية .

١٠٢٩ م - ٤٢٠ هـ : ثورة صالح بن مرداس فى الشام :

خرج اسد الدولة صالح بن مرداس وحسان بن الفرّج بن الجراح فى الشام على سلطان الظاهر ، وجمعا الجموع واستوليا على مدن الشام ، وانتهيا الى مدينة غزة فجهز الظاهر لحربهما جيشا وضعه تحت امرة امير الجيوش التركى المعروف بالوزيرى فانتصر عليهم ودخل دمشق ، وبعث الى الظاهر يهنئه بالنصر مع رأس ابن مرداس ، ويصف له الملحمة التى خاضها .

١٠٣٦ م - ٤٢٧ هـ : وفاة الظاهر :

فى يوم الاحد النصف من شعبان توفى الظاهر وكان عمره يوم مات احدى وثلاثين سنة ، وكانت ولايته على مصر ست عشرة سنة وتسعة شهور .

يقول ابو الحسن : كان الظاهر جوادا ممدحا سمحا حلما محبا للرعية ولا بأس به بالنسبة لارائه وهو الذى بنى قصر الواوّة عند باب القنطرة وهو من القصور المعدودة فى القاهرة .

ويزيد المقرئى على قول ابى المحاسن ان الظاهر كان شغوفا باللهو محبا للغناء فتألق الناس فى ايامه فى مصر واتخذوا المغنيات والراقصات وبلغوا من ذلك مبلغا عظيما . وقد علم ممالكه أنواع العلوم وسائر فنون الحرب . واتخذ خزانة البنود واقام فيها ثلاثة آلاف صانع وراسل الملوك واستكثر من شراء الجواهر وكانت مملكته بافريقيا ومصر والشام والحجاز .

خلافة المستنصر بالله :

بويع للخلافة بعد موت الظاهر ابنه ابو تميم معد الملقب بالمستنصر . وكانت سنه لا تتجاوز سبع سنوات وسبعة اشهر ، وكان مقدرًا لهذا الخليفة الذى ولى الحكم بهذا الصغر ان يكون هو اطول من حكم من الملوك فى تاريخ الاسلام كله ، حيث جلس ستين سنة .

واذا كان النصف الثانى من حكمه الطويل ، قد شابته الفوضى بسبب القحط الذى عم البلاد سنوات متوالية واستبداد الوزراء بالامر ، فان النصف الاول من حكمه الطويل يمثل ذروة ما وصل اليه الحكم الفاطمى من الفنى والسلطان وانتشار النفوذ .

وكانت أم المستنصر جارية سوداء مملوكة لأبي سعد التستري اليهودي ، قبل أن تؤول الى الخليفة الظاهر ، فلما ان أصبح ابنها خليفة ، استعانت بسيدها القديم أبي سعد التستري فاتخذت منه وزيرا لها يساعدها على مزاولة السلطان الذى حياة لها صغر سن ابنها . كما استعانت من ناحية أخرى ببنى جنسها من عساكر السودان فاستكثرت منهم واعتزت بهم ، وتقوت بعصبتهم لها . على أن نفوذها الحقيقى فى ادارة الدولة لم يبدأ الا بعد وفاة الوزير الجرجرائى أبو القاسم على بن أحمد .

١٠٣٧ م - ٤٢٨ هـ : وفاة عالم الاسلام وفيلسوفه ابن سينا :

فى هذه السنة مات عالم الاسلام وفيلسوفه وطبيبه الحسن بن عبد الله بن سينا الملقب بالرئيس ، يقول ابن كثير كان بارعا فى الطب فى زمانه ، وأبوه من أهل بلخ وانتقل الى بخارى واشتغل بها مفسرا للقرآن واثقنه وهو ابن عشر سنين ، واثقن الحساب والجبر والمقابلة واقايدس والمجسطى ثم اشتغل على أبي عبد الله الناتلى الحكيم اى الطبيب : فبرع فيه وفاق أهل زمانه فى ذلك وتردد الناس اليه واشتغلوا عليه وهو ابن ست عشرة سنة وعالج بعض الملوك السامانية وهو الأمير نوح بن نصر ، فمنحه جائزة سنية ، وحكمه فى خزانة كتبه . . وهكذا بدأ فيض علمه - قال ابن خلكان : له نحو من مائة مصنف منها القانون والشفاء والنجاة والاشارات .

وقد نقلت كتبه الى اللغة اللاتينية ، تقول دائرة المعارف البريطانية أن كتب ابن سينا ظلت تدرس فى الجامعات الأوروبية عدة قرون وقد ترجم كتابه القانون (فى الطب) لأول مرة فى القرن الثانى عشر وكان مترجمه هو جيرار وقد طبعت هذه الترجمة خمس عشرة مرة قبل عام ١٥٠٠ م ثم أعيدت ترجمة الكتاب عام ١٥٢٧ م وتتابع بعد ذلك الطباعات من هذه الترجمة الجديدة .

ولقد قدر لى شخصيا أن اطالع كتاب القانون فى الطب فاشهد لقد بهرنى وأرائى الفارق بين طبيب اليوم وطبيب الأمس . فطبيب انيوم لا يستطيع أن يشخص مرضا الا بعد ساسلة من التحليلات والرسوم تقوم بها الآلات . . أما الطبيب ابن سينا ومن سار على مدرسته فكان عليه هو أن يعرف من خلال جس النبض ، وجس الحرارة ، ومتابعة الانفاس ورؤية البول وباقي الفضلات ، أن يشخص المرض . . وأن الانسان ليذهل عندما يرى كيف يقسم ابن سينا النبض على سبيل المثال الى عشرات من الحالات .

وسيظل ابن سينا واحدا من العمالقة الذين أثروا فى تكوين العلم الأوربى الحديث.

١٠٤٤ م - ٤٣٦ هـ : وزارة الفلاحى :

ولى الوزارة بعد موت الجرجرائى تاج الرئاسة أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاخى . وقد كان يهوديا واسلم . وقد تم ترشيحه للوزارة بناء على اقتراح أبي سعد التستري

اليهودى وزير ام المستنصر . ولكن الفلاحى لم يحفظ الجميل لصاحب النعمة عليه بل ضاق بسلطانه ومحاولته التساط على الحكم من خلاله ، فتخلص منه جريا على قاعدة هذا الزمان بأن حرض عليه جنود الاتراك فقتلوه .

١٠٤٨ م - ٤٤٠ هـ : مقتل الفلاحى :

وغضبت ام المستنصر لقتل وزيرها وسيدها القديم وراحت تدبر للانتقام من قاتله . . واذا كان جنود الاتراك هم الذين قتلوا التسترى ، فان جنودها السودانيين يستطيعون ان يقتلوا الفلاحى وقد تم لها ما أرادت . . وهكذا وقف الجنود السودانيون فى مواجهة الجنود الاتراك ، كل ينحاز الى الجانب الذى يراه يزيد فى سلطته . ومضت ام المستنصر فى خطتها من الاستكثار من جند السودان .

١٠٤٩ م - ٤٤١ هـ : رحلة ناصر خسرو الى مصر :

استقر الرحالة الفارسى ناصر خسرو فى مصر وتعلق قلبه بحبها كما لم يتعلق بأى من البلاد التى زارها فى الشرق أو الغرب . وقد وجد ناصر خسرو مصر فى هذه الفترة فى رخاء لا مثيل له فى كل البلاد التى زارها حتى لقد تصور أن مرجع ذلك لابد وأن يكون هو اخذها بالذهب الاسماعيلى ، ولذلك فقد اعتنق المذهب الاسماعيلى ابان وجوده فى مصر ، ولا بد أن علاقته بالخليفة المستنصر كانت على أتم ما يرام .

واهمية ناصر خسرو بالنسبة لنا ، أنه ترك لنا وصفا شائقا لأحوال مصر فى هذه الفترة ابتداء من مدينة تنيس فى أقصى الشمال حتى مدينة أسوان فى أقصى الجنوب ولا يكاد وصف ريف مصر فى هذه الأيام البعيدة يختلف كثيرا عن حالة القرى حتى فى عصرنا الحديث . . ولكن ما ذكره عن القاهرة وقصورها والفسطاط وتجارتها وموكب الخليفة جدير ان يشار اليه لاعطاء صورة حية عن هذا العصر الفاطمى وقد بلغ ذروته .

« ويوجد بالقاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان كلها ملك للسلطان ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير فى الشهر . وكان فيها من الخانات والحمامات ما لا يمكن حصره وهى كلها ملك للسلطان . وقد روى لى أن بالقاهرة والفسطاط عشرين ألف منزل يملكها الخليفة ويؤجرها مشاهرة .

قصر السلطان :

اما قصر السلطان نفسه فقد كان وسط القاهرة ، وبينه وبين الابنية المحيطة به فضاء يفضله عنها . وكان يحرسه فى الليل خمسمائة حارس من الفرسان وخمسمائة حارس من الرجال ، وكانت أسواره عالية ، فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة

بينما يبدو من خارجها كالجبل . وقد قدر المهندسون سعته بقدر مدينة ميفارقين كلها . وقيل لى أن عدد من يفيمون بالقصر ٣٠ الفا من بينهم ١٢ الف خادم .

وللقصر عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود الى ممر تحت الأرض يعبره الخليفة راكبا لى يصل الى قصره الآخر .

ابواب القاهرة :

وللقاهرة خمسة ابواب ، وهى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وباب القنطرة وباب الخليج . وليس للمدينة سور محصن (يبدو أن السور الذى بناه جوهر كان قد تهدم) ولكن أبيتها كانت أعلى من الأسوار المحصنة وفى كل منها خمس أو ست طبقات فكأنها القلاع الضخمة . وكانت البيوت فى المدينة مبنية بناء نظيفا محكما ، وكانت مفصولة عن بعضها بالحدائق التى تروىها مياه الآبار .

وايام اقامتى بالقاهرة كان اجر المنزل العادى ذى الأربع طبقات أحد عشر دينارا بالشهر . والمنزل الذى أقيمت به كانت فيه ثلاث طبقات مأهولة ، فطلب منى صاحبه خمسة دنائير فى الشهر أجرة الطابق الرابع .

وماء الشرب يؤخذ من النيل ويحمله السقاؤون على جمال يبلغ عددها ٥٢ الفا ويحمل الرجال القرب حيث يتعذر على الجمال الدخول .

وانتقل ناصر خسرو الى الفسطاط .

الفسطاط :

فى الفسطاط بيوت من أربعة عشر دورا وبعضها من سبع طبقات ، وقد سمعت ممن يوثق به ، أن ثمة رجلا أنشأ حديقة على سطح بيت ذى سبعة أدوار . وفى مصر دور كبيرة للتأجير تتسع الواحدة منها لثلاثمائة وخمسين شخصا ، وبعض أسواق مصر وشوارعها تضاء بها المصابيح باستمرار لأنها مسقوفة فلا يصل اليها ضوء الشمس .

الأسواق والحركة التجارية والأعياد :

ويسهب ناصر خسرو فى وصف الحركة التجارية الواسعة النطاق فى الفسطاط ، ومدى الازدحام بها ، وبهجة الأعياد فيها ويعاق على ذلك كله بقوله : لو وصفت هذه الأعياد لما صدقنى كثير من الناس ولرمونى بالمبالغة والاغراق .

فان حوانيت القصارين (الملابس) والصياغ والحوانيت الأخرى مفعمة بالذهب والحلى والبضائع والأقمشة من الحرير والقصب لدرجة أن لا يجد فيها المشتري محلا يجلس فيه .

البيع بأسعار محددة :

ومما لفت نظرى أن النجار كانوا يبيعون بأسعار محددة وان الذى يفش كانوا يركبونه جملا ويضعون فى يده جرسا عليه أن يدقه بنفسه ويطوفون به البلد ، وهو يصيح بأعلى صوته : لقد كذبت وها أنذا القى عقابى ، جزى الله الكاذبين .

ركوب الحمير :

وكان التجار يركبون الحمير التي توجد في كل مكان لتأجيرها وكان عدد الحمير في القسطنطينية يبلغ خمسين ألفا .

الصناعة :

وتحدث ناصر خسرو عن صناعة القيشاني ، وصناعة الزجاج وصناعة الزيوت والنسيج .

حفلة قطع الخليج :

وقد شاهد ناصر خسرو الخليفة المستنصر في أحد مواكبه وهو يركب لحفلة قطع الخليج فقال لنا عنه : انه شاب صغير لطيف المحيا حليق الذقن يرتدى في بساطة قفطانا ابيض وعمامة وعلى رأسه مظلة مرصعة بالجواهر الثمينة والآلئ يحملها كبار الموظفين ويتبعه ٣٠٠ جندي من الفرس الديلم مترجائين وهم مسلحون بالبلط ، والخصيان على الجانبين يطلقون البخور من مجامر في أيديهم .

وكان القاضي يسير وراء الخليفة هو وحشد من الأطباء وكبار الموظفين . وبعد ذلك تجيء فرق الجيش وأولها كتامة البربرية وعددهم عشرون ألف جندي . ثم جيش قبيلة باتله وهم مغاربة استوطنوا مصر قبل قدوم المعز وعددهم خمسة عشر ألفا .

وتأتى بعد ذلك المصامدة وهم جنود السودان وعددهم عشرون ألفا . ثم المشاركة وهم جنود الترك والفرس وعددهم عشرة آلاف هيئة فخمة . ثم يأتى بعد ذلك عبيد الشراء وهم الرقيق المشتري في السوق ويقدر عددهم بثلاثين ألفا .

ويذكر ناصر خسرو فرقا أخرى يقدر عددها بعشرات الألوف ، ولا شك ان الذي كان يمر في الموكب هو قطاعات من هذه الفرق وليست كلها ، كما يحدث في العصر الحديث ، وان هذه الأرقام انما تتحدث عن مجموع قوة الجيش بفرقة المتعددة .

السفراء والزوار الأجانب :

ويضيف ناصر خسرو انه كان يسير في موكب الخليفة أمراء وضيوف وزوار من المغرب واليمن والنوبة والحبشة - والروم ومن سلافونيا وجورجيا ومن التتار الذين جاءوا من التركستان وأولاد ملك دلهي .

يخشى ان لا يصدق احد :

ويختتم ناصر خسرو وصفه لما شاهدته في مصر من ثروات وأموال غزيرة ، انه يخشى ان لا يصدق احد من بلاد العجم اذا هو حاول وصفها .

١٠٥٠ م - ٤٤٢ هـ : وزارة البازورى :

فى هذه السنة تقلد الوزارة قاضى القضاة أبو محمد البازورى ، ولقب بسيد الوزراء خطير الملك وهكذا بدأت القاب الوزراء تتفاقم ، وان ظلت الظاهرية التى تسودها أنها وقف على أهل القلم لا السيف . وأنها وزارات تنفيذ ، حيث كان مرجع السلطة كلها هو الخليفة- .

وقد اشتهر البازورى بأنه كان يأخذ بمذهب الشورى فيشاور ثقائه وأصفياه فى شتى الأمور .

الدعوة للمستنصر فى اليمن :

وفى هذه السنة (على خلاف بين المؤرخين) دعا على بن محمد المصلى فى اليمن للخليفة المستنصر وبعث إليه بالاموال والهدايا الثمينة ، فبعث له المستنصر بالرايات وعقد له الولاية على اليمن ، فطوى البلاد طيا وفتح الحصون والتهائم ، ولم تخرج سنة ٤٥٥ حتى كان قد فتح مكة نفسها .

١٠٥١ م - ٤٤٣ هـ : المعز بن باديس الصنهاجى يستقل بالمغرب :

على أن هذا النجاح فى المشرق ، قابله تدهور فى المغرب حيث رغب المعز بن باديس الصنهاجى فى الاستقلال عن مصر . فقطع الخطبة عن المستنصر ودعا للقائم بأمر الله العباسى واعتنق المذهب السنى .

وقد أرسل المستنصر قبائل بنى هلال لمحاربة المعز بن باديس ، فاحتلت برقة وطرابلس ، واستقرت بها منتصرة على ابن باديس فى أكثر من معركة ، ولكنه ظل صامداً فى مدينة المهدية سادا بذلك الطريق على الفاطميين والوصول الى الغرب ، متيحاً بذلك الفرصة لسقوط جزيرة صقلية بعد حين .

١٠٥٢ م - ٤٤٤ هـ : بغداد تعود الى حرب الدعاية والتشهير :

ومرة أخرى لم تجد بغداد ما ترد به على اعتراف اليمن بسلطة الخليفة الفاطمى الروحية ، الا أن تعود للتشهير بنسب الفاطميين ، فجمع الخليفة القضاة والفقهاء والأشراف ، وكتبوا محضرا أنكروا فيه نسبة الفاطميين الى على بن أبى طالب ، وبعثوا بهذا المحضر الى الآفاق .

١٠٥٤ م - ٤٤٧ هـ : قصور فيضان النيل :

قصر النيل فى هذه السنة لرباع مرة عن بلوغ الغاية ، فلا عجب اذا اكفهر جو مصر وانتشرت بها المجاعة ويبدو أن هذا الجفاف والقحط كان عاما فى منطقة الشرق

الأوسط ، اذ يقول لنا أبو المحاسن ، عم الوباء مصر وبغداد والشام والدنيا كلها ،
وكان الناس يأكلون الميتة وبلغ سعر الرمانة والسفرجلة ديناراً وكذا الخيار وانقطع
ماء النيل بمصر وكان يموت بها كل يوم عشرة آلاف .

على أن ذلك لم يكن إلا إرهاصاً لما ستعانيه مصر بعد قليل مما سيطلق عليه اسم
الشدة العظمى .

١٠٥٧ م - ٤٤٩ هـ : وفاة أبو العلاء المعري :

في يوم الجمعة الثالث عشر من ربيع الأول مات الشاعر الكفيف المشهور صاحب
اللزوميات أبو العلاء المعري في بلدته المعرة في شمال الشام . ولم يشر شاعر عربي
ما أثاره أبو العلاء من الجدل ، فثمة قوم يغفلون في حبه واعزازه حتى ليجعلون منه
شاعر العربية الأكبر والأوحد (١) .

وهناك من لا يرون في المعري إلا كافراً زنديقاً ، ويقولون أنه حاول في كتابه
« الفصول والغايات » أن يتحدى القرآن ومعارضته بالسور والآيات .

وينقل ابن كثير بعض أشعاره تدليلاً على كفره ننقل منها بدورنا :

إذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً وترزق أحمقاً
فلا ذنب يارب السماء على امرئ رأى منك ما لا يشتهي فترندقا
أو قوله :

فلا تحسب مقال الرسل حقاً ولكن قول زور سطره
فكان الناس في عيش رفيد فجاءوا بالمحال فكدره

على أن أعداء أبي العلاء ومحبيه ، يتفقون على زهده وتقشفه وكيف عاش خمسا
وأربعين سنة لا يأكل اللبن أو البيض ولا يتقوت إلا بالنبات . كما يجمعون على ذكائه
المفرد . ولأبي العلاء مكانة خاصة عند الأوربيين وقد كتبت بعض الرسائل في أن دانتي
في كتابه الشهير « الجحيم » - إنما تأثر برسالة الغفران التي ألفها أبو العلاء (٢) .

ولا جدال عندنا في أن أبا العلاء يرمز لما كان المجتمع الإسلامي قد وصل إليه من
تطور وتعقيد ، بعد امتزاج الحضارات الإغريقية والمسيحية والهندية واليهودية وغيرها
في بوتقة الحضارة الإسلامية .

(١) كان على رأس هؤلاء من اخواننا المعاصرين الأستاذ كامل الكيلاني ، ويعتبر الدكتور طه حسين -
لظروفه الخاصة - أول من أثار الاهتمام في العصر الحديث بأبي العلاء المعري .

(٢) عبد الرحمن بدوي - دور العرب في تكوين الفكر الأوربي (المستشرق الأسباني أسين بلايوس) .

١٠٥٨ م - ٥٠ هـ : الخطبة للمستنصر في بغداد والعراق :

دخل ارسلان التركي المشهور باسم البساسيري بغداد في يوم الأحد الثامن من ذى القعدة وهو يحمل الرايات البيض المصرية وعلى رأسه اعلام مكتوب عليها اسم المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين ، فاستولى على بغداد وأذن للصلاة بحى على خير العمل وخطب في المساجد على المنابر للخليفة المستنصر وضرب السكة الذهب والفضة باسمه .

وهكذا تكللت ثورة البساسيري التي كان قد أعلنها على الخليفة العباسي وسلاطين آل بويه منذ عام سابق الى ذروتها .

ويجمع المؤرخون على أن البساسيري سار في حكمه مسيرة حسنة أرضى بها الشيعة والسنة .

وقد أرسل البساسيري الى الخليفة المستنصر ثياب الخليفة العباسي القائم وعمامته وغير ذلك من الاموال والتحف . فارتجت مصر لهذا الحدث ، واهيحت الاحتفالات العامة في أرجاء البلاد احتفالا بهذا النصر .

وقد غنت للمستنصر إحدى جواريه بمناسبة هذا النصر فقالت له :

يا بنى العباس صدوا	مالك الأمر معد
ملككم كان معسارا	والعواري تسترد

فطرب المستنصر لهذا الشعر والغناء ، حتى لقد وهبها أرضا بمصر على سبيل الجائزة ، وكانت هذه الأرض تعرف حتى زمن أبى المحاسن بأرض الطباله ، وكانت على ما يقول بالقرب من بركة الرطللى .

وقد واصل البساسيري انتصاراته ، فخطب باسم المستنصر فى المدصل والبصرة وواسط وغيرها من بلاد العراق .

ولكن المستنصر الذى فرح بالنصر فى بادىء الأمر ، ثم وقف منه بعد ذلك موقفا يحير المؤرخين ، فقد قبض يده عن البساسيري ولم يمهده بالجيش أو الاموال .

طفرلك السلجوقى يقضى على البساسيرى :

استثناء الخليفة العباسي بالسلطان طفرلك التركى السلجوقى الذى كان قد ملك على بلاد فارس وإيران ، مبتدئا بذلك عهد السلاجقة المزدهر . فخف طفرلك الى نجدة الخليفة ودخل بغداد ولم يستطيع البساسيري مقاومته فقضى عليه وبذلك انتهى هذا الانتصار الفاطمى الذى لم يزد على عشرة شهور .

وقد أعاد طفرلك السلجوقى الخليفة العباسي الى العرش والى ما كان عليه مجردا من كل ساطة فعلية ، وان كان السلاجقة على خلاف البويهيين أحاطوا شخص الخليفة بكثير من التكريم .

مقتل البازورى الوزير المصرى :

وفى هذه السنة قبض على الوزير وقاضى القضاة البازورى وقتل بمدينة تنيس بعد أن كان قد استقر فى الوزارة لمدة ثمانى سنوات ، قام فيها بالكثير من الاصلاحات لتحسين احوال البلاد الاقتصادية .

وكان محبا للعلم والفنون ، على أن لين بول يتهمه بأنه لم يكن محبا للنصارى وانه اضطهدهم وحبس البطريك وكثيرا من القساوسة وفرض عليهم مبلغا كبيرا من المال . وباختفاء شخصية البازورى لم يستقر منصب الوزارة لأحد ، وبدأ عديد من الأشخاص يتداولون المنصب ويعفون منه ثم يعودون اليه ، بعد أن رأى أن لا لزوم لقتلهم .

١٠٦٣ - ٤٥٧ هـ : بدء الشدة الكبرى فى مصر :

بدأ انخفاض النيل فى هذه السنة انخفاضاً شديداً على خلاف المعتاد ، وظل انخفاضه يتوالى طوال سبع سنوات ذكر المصريين بما ذكره القرآن عن السبع السنوات العجاف أيام يوسف الصديق . فقد تضافر القحط مع اختلال الأمن الذى نشأ من عراك أجناس الجيش المختلفة .

فقد أجلى نصر بن حمدان رئيس الجيش بمساعدة العناصر التركية ، الجنود السودانية الذين كان عددهم قد بلغ الخمسين ألفا وطردهم من القاهرة والفسطاط فالتجأوا الى الصعيد وراحوا يعيشون فيه فسادا ويمنعون وصول الغلات الى مصر . ولم تكد العناصر العسكرية تتخلص من السودانيين حتى استبد ناصر الدولة بن حمدان بالأمر ، واستخدم سلطانه الجديد فى سلب الخزانة العامة ، واغداقها على الجنود الأتراك ، فارتفعت مرتباتهم من ٢٨ ألف دينار فى الشهر الى أربعمئة ألف دينار فى الشهر .

واستطال ابن حمدان على بقية زملائه ، فحرضوا الخليفة على عزله واستطاع الخليفة المستنصر بالفعل فى حركة شجاعة أن يطرد ابن حمدان من القاهرة ، فانسحب الى الاسكندرية حيث تزوج من عرب لواته وعقد معهم معاهدة ، فأصبح له جيش من أربعين ألف مقاتل ، سطر بهم على الوجه البحرى ، ومنعوا بدورهم الأرزاق والغلات عن الوصول الى القاهرة والفسطاط ، وهكذا أحكم عليها الحصار من الشمال والجنوب .

١٠٧٠ م - ٤٦٢ هـ : ذروة الشدة :

واتفق مع قيام هذا الحصار ، أن مضى القحط بصفة عامة يفترس البلاد ، فكانت هذه المجاعة المخيفة التى عمت سكان القاهرة والفسطاط .

يقول أبو المحاسن : وقد جلا عن مصر خاق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد ، والجوع الذى لم يعهد مثله فى الدنيا . فمات أكثر أهل مصر وأكل بعضهم بعضا وظهر على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها ، واكلت الدواب بأسرها ، بحيث لم يبق للخليفة المستنصر سوى ثلاث افراس بعد أن كانت عشرة آلاف . وبيع الكلب بخمسة دنائير والسنور بثلاثة دنائير .

ونزل الوزير أبو المكارم وزير المستنصر على باب القصرين على بفلته وليس معه الا غلام واحد ، فجاء ثلاثة وأخذوا البغلة منه ولم يقدر العلام على منعهم لفرط جوعه ، فذبحوا البغلة وأكلوها . فقبض عليهم وصلبوا فأصبح الناس لم يروا الا عظامهم اذ أكل الناس فى تلك الليلة لحومهم .

وباع رجل داره وكان قد اشتراها بتسعمائة دينار فى مقابل عشرين رطلا من الدقيق ، وبيعت البيضة بدينار وأردب القمح بمائة دينار فى بدء الازمة ثم عدم القمح جملة وكان السودانيون يقفون فى الازمة يخطفون النساء بالكلايب ويشرحون لحومهن ويأكلونها .

وغير ذلك من حكايات وقصص لا تخلو من المبالغات كما هى العادة ، ولكنها تدل على مدى الشدة التى لم تشهد مصر مثيلا لها من قبل .

كنوز الفاطميين تنهب وتباع :

وكان من آثار هذه الشدة أن نهب القواد ورؤساء الجند كنوز الفاطميين التى كانت مودعة بالقصر كما باع الخليفة ما بقى منها ليستطيع أن يبقى على حياته وسلطانه .

وقد سجل لنا المقرئى وابن ميسر محتويات القصر التى نهبت أو بيعت - وفى عصرنا الحديث نشر الدكتور زكى حسن مجلدا فخرما أطلق عليه اسم كنوز الفاطميين مما يضيق المجال عن نشر ملخص له وحسبنا أن نذكر أن من بين ما قيل أن أحد الدالين الذين اشرفوا على بيع هذه التحف ذكر أن مابيع خلال اسبوعين بأبخس الاثمان ، اذ تقاضاه القواد والجنود كبعض مستحققاتهم كان يساوى ٣٠ مليون دينار من التحف والجواهر والدخائر والملابس .

تبديد المكتبة :

والكن كارثة العلام تتجلى فيما صارت اليه مكتبة القصر التى كانت مجلداتها تزيد على مائة ألف ، حيث عملت من جلودها أحذية فى بعض الأحيان ، وذهب أكثرها طعمة للنيران للتدفئة .

قطع الخطبة عن المستنصر فى الحجاز :

وكان طبيعيا وهذا مدى ما كانت تعانيه مصر من مجاعة أن تعجز عن إرسال ما اعتادت على إرساله كل عام من أموال وأرزاق الى مكة والمدينة ، ولذلك فقد اسقطت الخطبة عن المستنصر ودعى للخليفة العباسى بدلا عنه .

١٠٧١ م - ٤٦٣ هـ : استيلاء النورمان على صقلية :

وبدأت الشدة الطاحنة التي المت بالخليفة الفاطمي يظهر أثرها في سائر أرجاء الدولة . . . فقطعت الخطبة للمستنصر في شمال افريقيا كله ، وإذا كانت هذه البلاد لم يخسرها الاسلام ، إذ استبدلت اسم الخليفة الفاطمي بالخليفة العباسي . فان جزيرة صقلية خرجت نهائيا عن الدولة الاسلامية باستيلاء النورمان عليها في هذه السنة .

ويقول أبو المحاسن أن سبب استيلاء النورمان على صقلية ان المستنصر بعث يطالب الوالي على الجزيرة بالمال المستحق عليه وكان عاجزا عما طلب منه فبعث الى الافرنج وفتح لهم باب البلد فدخلوه وقتلوا الوالي وملكوا الجزيرة .

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت جزيرة صقلية دولة نصرانية . ولكنه لم يحدث فيها ما حدث في الأندلس حيث أبعد المسلمون أو حملوا على مغادرة البلاد . فقد ظل المسلمون يعيشون في ظل حكامهم الجدد والاجماع على ان جزيرة صقلية كانت أحد المعابر الهامة التي انتقلت منها الحضارة الاسلامية العربية الى أوروبا .

ولقد مر الرحالة بين جبر بصقلية سنة ٥٨٠ هـ أي بعد ست وتسعين سنة من انتهاء الحكم الاسلامي الفاطمي من صقلية فتحدث عن اعتماد الأمير النورماني (غليام) جيوم على العناصر فقال : أنه عجيب في حسن السيرة واستعمال المسامين وأنه كثير الثقة بهم . وساكن اليهم في احواله والمهم من اشغاله ، وله الأطباء والمنجمون منهم وهو شديد الحرص عليهم » .

سنرى فيما هو آت كيف ان ملوكهم ظلوا يحسنون اللغة العربية (١)

انتصار السلاجقة على الروم في معركة ملاذكرد :

وبينما كان ملك الفاطميين يتهاوى على هذه الصورة كانت قوة الأتراك السلاجقة السنيين ، تتصاعد حتى وصلت ذروتها في هذه السنة بانتصار السلجوقيين انتصارا ساحقا على البيزنطيين فيما يسميه مؤرخو العرب معركة الزهدة ويسميه الأوروبيون وقعة ملاذكرد أو مائزيكرت .

وكان رومانوس امبراطور الروم قد زحف بجيش قوامه أكثر من مائة ألف مقاتل صوب أرمينيا لاحتلالها ، فتصدى له السلطان ألب أرسلان بن طغرل بك ، ولم يكن جيشه يزيد على عشرين ألفا ومع ذلك فقد انتصر على الجيش البيزنطي ووقع رومانوس نفسه أسيرا ، ولكن ألب أرسلان أطلق سراحه مقابل فدية كبيرة وعامله باحترام وتوقير ولكنه لم يكد يرجع الى القسطنطينية حتى وجد مواطنيه قد خلعوه ثم لم يلبث أن قتل . . .

وقد فتح النصر الذى أحرزه السلاجقة فى موقعة ملاذكرد طريق آسيا الصغرى لهم ، فاجتاحتها جيوشهم حتى وصلت الى بحر مرمرة ، والفوا فى آسيا الصغرى (الأناضول) دولة اسلامية جديدة جعلوا عاصمتها مدينة قونية . وأصبحت القسطنطينية مرة أخرى تحت رحمتهم مما اضطر الامبراطور البيزنطى أن يدفع لهم الجزية .

ولكنه من ناحية أخرى، أرسل يستغيث بابا روما جريجورى السابع ، ليساعده فى إيقاف هذه الموجة الجديدة من الزحف الإسلامى. ولئن يلبث المدد الأوربى أن يجرى فى صورة الحروب الصليبية بعد حين .

١٠٧٣ م - ٤٦٥ هـ : ناصر الدولة يدخل القاهرة والفسطاط :

لم يجد المستنصر ومن معه سبيلا لوضع حد للمجاعة التى أوشكت أن تفنى سكان القاهرة والفسطاط إلا أن يتصالح مع ناصر الدولة نصر بن حمدان الذى كان يسيطر على الوجه البحرى . وليس هناك ما يصور مدى ما كان المستنصر قد وصل اليه من البؤس ، من أن جنود ناصر الدولة عندما دخلوا الى قصر الخليفة وجدوه يجلس فى قصره الخاوى على عروشه على حصيرة وحوله ثلاث جوارى . وكانت إحدى السيدات المحسنات ترسل له رغيقين كل يوم ليعيش عليهما .

زوال الشدة :

على أن فيضان النيل عاد فى هذه السنة الى سابق عهده ومع الفيضان جاء الخصب والثمار والرخاء . . فانتهت تلقائيا المجاعة التى أوشكت أن تفنى الشعب المصرى .

قتل ناصر الدولة :

على أن النجاح الذى أحرزه ناصر الدولة لم يدم طويلا . . فقد خشي زملاؤه من قادة الأتراك على أنفسهم ، خاصة وأنه كان يرأسل الخليفة العباسى للاستيلاء على مصر ، وقيل انه دعا له على المنابر فى مساجد الاسكندرية والوجه البحرى . ولذلك فقد دبرت له مؤامرة قتل فيها .

١٠٧٤ م - ٤٦٦ هـ : تولية بدر الجمالى وزارة مصر :

لم يكن لمقتل ناصر الدولة بن حمدان ، وانتقال السلطة الى قاتله الدكر التركى أى اثر فى تحسين الأحوال العامة أو احوال المستنصر الخاصة .

فراى المستنصر أن يلجأ الى الرجل الذى كان قد اظهر شجاعة وبراعة فى التدبر فى بلاد الشام وهو الامير بدر الجمالى والى عكا ، فأرسل اليه يستدعيه الى مصر

ليستعين به في أعمال الوزارة ، فلبى بدر الجمالى الدعوة وجاء الى مصر على ظهر اسطول في زمن الشتاء على خلاف نصيحة رجاله ، ووصل الى الاسكندرية فكان مجرد وصوله بهذا الأسلوب مظهرا على قوته وصلابته .

وزراء التفويض :

وكان أمر تعيين بدر الجمالى في الوزارة ، يتضمن صيغة لم يسبق لها مثيل ، حيث فوض اليه المستنصر كل سلاطانه ليباشره نيابة عنه فيقول له بعد ان حلع عليه لقب امير الجيوش :

« وقد قللك امير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر في كل ما وراء سريره ، فباشر ما قللك امير المؤمنين من ذلك مدبرا للبلاد ، ومصالحا للفساد ، ومدمرا لاهل العناد » .

وبدا العهد الجديد من الوزراء الدين أصبحوا هم مستودع السلطان ، ولم يبق معهم للخليفة سوى الاسم (١) .

الاستكثار من الجنود الارمن :

وقد جاء بدر الجمالى الى مصر وفي معيته عدد كبير من جنود الارمن ، ومنهم من كان لا يزال على نصرانيته . وبدأ بدر الجمالى يستكثر من الارمن ، ليكونوا سندا له ضد جيوش الترك والسودان والمغاربة . وهكذا دخل الميدان عنصر جديد ليزيد من وهن الدولة ، ولكن شخصية بدر الجمالى قد حجبت ذلك ما بقى حيا . . بل أن عهده سرعان ما يتحول الى عهد ازدهار .

اعادة الامن والنظام :

كان هم بدر الجمالى بطبيعة الحال هو اقرار الامن والنظام في الدرجة الاولى ، ولذا فقد بدأ بالضرب بشدة على قبائل لواته المغربية التي كانت تسيطر على الاسكندرية والوجه البحرى . ثم توجه الى الصعيد ليستخلصه من يد السودانيين واحلافهم الاعراب . . واعاد سلطان الخليفة وافر الامن حتى اسوان

أما في القاهرة فقد قتل كل من يتصور أنه عقبة في سبيل الاستقرار مبتدئا بالدكر التركى وغيره من رموس الفتنة .

وكان مظهر نجاحه الاول ، هو استطاعته ان يسترد الكثير من منهوبات القصر .

تحسين أحوال الفلاحين :

ومع عودة فيضان النيل واستتباب الامن ، عاد الرخاء الى بلاد الريف فأحسن الفلاحون في ظل قيادة بدر الجمالى العادلة الحازمة المصلحة ، بما افتقدوه خلال

(١) يشبه ذلك مع الفارق ما يجرى في المجتمعات الملكية الديمقراطية ، حيث يملك الملك ولا يحكم ، ويكون الحكم الفعلى بيد رئيس الوزراء المختار من الشعب .

عشرات السنين السابقة ، فأقبلوا على اعمالهم بجهد وتفاؤل وامل ، وسرعان ما ظهرت هذه البلاد احدى خصائصها .. اذ تغلبت على الازمة التى اوشكت ان تطحنها .. وظهر اثر ذلك فى ايرادات الدولة ، فحيث لم يكن دخل مصر يزيد على ٢ مليون دينار فى العام .. فاذا عم الرخاء كان الايراد ٢٨٠٠.٠٠٠ دينار على الاكثر فقد وصل الايراد بطريقة عادية الى ٣١٠٠.٠٠٠ دينار

١٠٨٧ م - ٤٨٠ هـ : بناء سور القاهرة :

ليس هناك ما يكشف عن تحسن الاحوال الاقتصادية فى اى من العصور الماضية ، اكثر من أن تتابع منشآته ولذلك فباستطاعتنا بعد تسعة قرون ان ندرك ان بدر الجمالى استطاع ان ينقذ مصر من الفوضى والفقر والمجاعة ، وان يردها من جديد الى الازدهار ، من خلال المبانى التى انشئت فى عهده .. فمسجد العطارين القائم الآن بالاسكندرية وهو من بنائه وانشائه (١) . ولم يكن ذلك الا ابدية .. ففى هذه السنة التى نتحدث عنها اعاد بدر الجمالى بناء اسوار القاهرة وهدم ابواب النصر والفتوح وذويلة واعاد انشاءها على الصورة الرائعة التى لا تزال توجد عليها حتى الآن كتحفة من أعظم التحف الاسلامية . ويشير لين بول الى ان بعض المهندسين البيزنطيين هم الذين صمموا هذه الابواب ولذلك فان الطراز البيزنطى يتجلى فيها: ولكننا لم نعثر على ذلك فى مصادرنا العربية .

١٠٩٠ م - ٤٨٢ هـ : جيوش مصر تستعيد ثغور الشام من السلاجقة :

كان للشدة العظمى التى انتابت مصر من ناحية ، وازدياد قوة السلاجقة النامية من ناحية اخرى ، اثره على زعزعة سلطان الفاطميين فى الشام وفلسطين . وكان ملكشاه اول سلاطين السلاجقة فى بغداد قد ارسل جيوشه عام ٤٦٢ هـ فتمكنت من فتح مدينتى الرملة وبيت المقدس . ولكنها عجزت عن فتح دمشق فى ذلك الوقت ، على ان الجيوش السلجوقية لم تلبث ان عادت لها عام ٤٦٧ هـ فنجحت فى الاستيلاء عليها ، وحذف الدعاء للمستنصر من مساجدها واعادت اسم الخليفة العباسى المهتدى . وحاولت جيوش السلاجقة أن تتجه صوب مصر نفسها ، ولكن بدر الجمالى استطاع ان يوقف زحفها وان يردها على اعقابها .

ولم يكد بدر الجمالى يوطد الامور داخل مصر على الصورة التى رايناها ، حتى بدأ يمد بصره الى الشام ، لاستعادة سلطان مصر على ثغورها ، لحاجة الاسطول اليها من ناحية ، ولتفوق مصر على السلاجقة بقوة الاسطول .

(١) يرى الدكتور جمال الشيال ان بدر الجمالى لم ينشئ هذا المسجد وانما جددّه ويستند فى ذلك الى اللوحة التذكارية الموجودة على جدران المسجد حيث تشير الى انه كان خرابا فعمره .

وبالفعل استطاع ان يستولى على موانئ صور وصيدا وعكا وبعابك واعيدت
الخطبة للمستنصر في هذه البلاد .

١٠٩٤ م - ٤٨٧ هـ : وفاة بدر الجمالى :

في ربيع الثانى أو جمادى الاولى على ما يقول المقرئى : وفى شهر ذى القعدة
من هذه السنة على ما يقول أمين سامى مات أمير الجيوش بدر الجمالى ، والارجح
هو ما يقوله المقرئى ، لانه من المتفق عليه ان المستنصر مات فى نفس السنة ، وانه
قد انقضت شهور بين الرجلين وكانت سن الجمالى عند موته تناهز الثمانين .

وقد سمي بالجمالى لانه كان مماوكا ارمنيا للامير جمال الدولة بن عمار ، ثم اخذ
يترقى فى المناصب لما أظهره من كفاية خلال الحروب التى قامت فى بلاد الشام ،
حتى ولى اماره دمشق من قبل المستنصر عام ٤٥٦ هـ واخذ يحارب الاتراك فى تلك
البلاد ، واثبت أنه من اقوى قواد الفاطميين ثم تقلد نيابة عكا عام ٤٦٠ هـ حتى
استدعاه منها المستنصر كما ذكرنا .

ويقول عنه المقرئى : انه حكم مصر حكم الملوك خلال احدى وعشرين سنة لم
يكن للمستنصر معه امر ، واستبد بالامور فضايتها احسن ضبط ، وكان شديد
الهيبة وافر الحرمة مخوف السطوة ، وقد عمر البلاد واصلاحها بعد فسادها وخرابها
بائلاف المفسدين من اهلها .

وكانت له محاسن منها انه اباح الارض للمزارعين ثلاث سنوات حتى ترفهت
احوال الفلاحين واستغنوا فى ايامه ، ومنها حضور الشجار الى مصر لكثرة عدله بعد
نزوحهم منها ايام الشدة ومنها وفرة كرمه . وهو اول وزراء السيوف الذين
حجروا على الخلفاء بمصر .

وقد بايع قبل موته لابنه ابو القاسم ليكون مدبرا للمملكة واطلق عليه لقب
الافضل شاهنشاه ، ولم يكن باستطاعة المستنصر الا ان يقر هذا التعيين ففرض اليه
كل ما كان لابييه من سلطان .

موت الخليفة المستنصر :

وعلى الرغم من انه حكم ستين سنة وهو ما لم يسبقه اليه ملك فى الاسلام (١) ، فان
سنه عند وفاته لم يتجاوز سبعة وستين سنة الا بضعة شهور ، فقد ولى الخلافة
طفلا كما قدمنا .

(١) راجع حكم رمسيس .

والمؤرخون يقسمون حكمه الى فترتين : الثلاثين سنة الاولى من حكمه وقد بلغت فيها الدولة الفاطمية ذروة نفوذها السياسى . اما نصفها الثانى فقد كان عهد تدهور النفوذ الفاطمى فى كل مكان كما رأينا . الا انه من المحقق ان احوال مصر الداخلية ، وخاصة بعد ايام الشدة العظمى قد تحسنت تحسنا كبيرا على يد بدر الجمالى كما رأينا كذلك .

خلافة المستعلى بالله :

فى الثامن عشر من ذى الحجة بويح بالخلافة لابن المستنصر واسمه أحمد وكنيته أبو القاسم ولقب بالمستعلى بالله . وكانت سنة يوم ولى الخلافة أربعت على العشرين سنة وقد أدت تولية المستعلى الخلافة الى أحداث أول وأكبر انشقاق فى صفوف الاسماعيليين . ذلك ان أحمد لم يكن هو أكبر أبناء المستنصر ، وانما كان الابن الاكبر هو نزار . وكان المستنصر قد نص على خلافة نزار من بعده ، وهو الشرط الاساسى للخلافة عند الاسماعيلية ولكن الافضل شاهنشاه رأى ان يخرق هذه القاعدة ، وأن يختار بنفسه الخليفة من أبناء المستنصر ليكون ذلك أكثر ضمانا لسلطانه ، واستطاع ان يحمل كبار القواد والامراء على مبايعة المستعلى .

طائفة النزارية :

لم يرتض نزار صاحب الحق الشرعى بهذا الاجراء ، وفر هاربا الى الاسكندرية يحيط به من يشايعه من الامراء والقواد ونودى بنزار فى الاسكندرية خليفة . ودارت المعارك بين مؤيديه وجيوش الافضل ، وانتهت المعارك بانتصار الافضل ، ولكن انصار نزار لم يعترفوا بذلك ، وانقسمت الاسماعيلية منذ ذلك الحادث الى مستعلية ونزارية ولى يلبث ان يصبح على رأس الاسماعيلية النزارية حسن الصباح الفقيه والداعية الاسماعيلية الشهير ، الذى سيؤسس للنزارية مملكة فى قلعة الموت ثم فى الشام ، وسيظل اتباعه شجبا فى حلق الدولة الفاطمية حتى نهايتها ثم فى حياة صلاح الدين والدولة الايوبية من بعدها .

١٠٩٥ م - ٤٨٩ هـ : استعادة المصريين للقدس :

لم يكد السلطان ملكشاه الذى وصل فى هذه السلجوقيون وعلى يديه الى ذروة قوتهم ، يموت حتى اختلف ابناؤه الاربعة ، وقسموا عليهم الدولة ثم راحوا يتقاتلون فيما بينهم على السلطان ، فأدى ذلك الى ما يؤدى اليه دائما وهو انهيار ملكهم فى منطقة النزاع وما حولها وقد كانت هذه المنطقة هى الشام الامر الذى مهد لانتصار الصليبيين كما سنرى . وقد استفل الفاطميون من ناحيتهم تدهور مركز السلاجقة فى بلاد الشام وفلسطين فاستطاعوا ان يستردوا مدينة القدس ويعيدوها الى سلطانهم ولكن ذلك تم بعد فوات الاوان ، اذ كانت موجة المد الصليبي بدأت تغمر العالم الاسلامى .

قيام الحروب الصليبية (١)

١٠٩٦ م - ٤٩٠ هـ :

استقر بيت المقدس في ايدي المسلمين قرابة خمسة قرون ، نعم فيها المسيحيون بالامن والاستقرار والتسامح ، وعندما آل حكم الشام الى الفاطميين وهم على ما ذكرناه من التسامح الدينى ، ازداد ازدهار المسيحيين في بيت المقدس ، باستثناء الفترة المؤقتة الشاذة لخلافة الحاكم ، وقد راينا كيف أعيد بناء كنيسة القيامة كخير مما كانت .

ثم جاءت موجة السلجوقيين العاتية فأوشكت ان تجتز الامبراطورية البيزنطية من اساسها فاستغاث اليكسى الامبراطور البيزنطى ببابا روما اربان الثانى الذى وجد في هذه الاستغاثة فرصته لبسط سيادته الروحية على الكنيسة الشرقية ، وعلى اوروبا كلها . وقد تصادف ان كان من المقرر في هذه الفترة عقد مجمع كليرمونت الدينى ، فذهب اليه اربان الثانى وقد كان من اصل فرنسى ، وراح يخطب في المجتمعين بحماسة الهبت السامعين ، واشاد بامجاد فرنسا الحربية ، وشنع على المسلمين الذين وصفهم بأنهم كفار ، وبحث تخليص بيت المقدس من ايديهم ، وأشار اشارات صريحة الى فرص الربح والنجاح المادى في تكوين الامارات والممالك . فهتف الحاضرون « هذا ما اراده الله » وقد أصبحت هذا الصيحة هى شعار الصليبيين . وقام اربان الثانى بعد خطبته فوزع الصليبان على الحاضرين .

حملة بطرس الناسك الصليبية :

وعلى الرغم من ان اشغال الحروب الصليبية يجب ان يعزى الى البابا اربان الثانى فان الرجل الذى ذهب في التاريخ باعتباره موقد نارها الحقيقى هو بطرس الناسك ، وهو راهب مسيحي كان قد عاد لتوه من حج بيت المقدس ابان الحركة النى قامت في فرنسا تدعو المسيحيين الى الحج الى بيت المقدس .

وقد ساء بطرس الناسك ما وجدته في بيت المقدس من خشونة السلجوقيين ضد

(١) نشر الدكتور عمر كمال توفيق استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية آداب جامعة الاسكندرية كتابا جعل موضوعه مقدمات العدوان الصليبي وهو موضوع رسالته ، والمطالع للكتاب لا يرى فيه الا محاولة من احد اباطرة بيزنطة وهو يوحنا كومنينوس ، ان يسترد بعض املاك بيزنطة من الدول الاسلامية . وهو ما لا علاقة له بالحروب الصليبية التى وصفت بهذا الاسم ، والشئ مؤلف زحف حرب اوروبا لأول مرة في التاريخ على بلاد الشرق .

الحجاج . فراح عند عودته يندب حظ المسيحيين في الشرق من اضطهاد المسلمين الذين أطلق عليهم اسم الكفار . وراح يدعو لاستخلاص بيت المقدس من الكفار . وهكذا توافقت دعوة البابا الرسمية للأمراء والفرنسان مع دعوة بطرس لابناء الشعب ، وكان الشعب أسرع استجابة لقائده فرسم على صدورهم الصليب وساروا خلف بطرس الناسك سيرا على الاقدام لتخليص بيت المقدس من الكفار .

وكان عدد الزاحفين يتزايد أثناء سيرهم عبر أوروبا الشرقية حتى اربى عددهم على عشرين ألفا ، سساروا في غير نظام أو تدريب ، أو تموين . فسرعان ما انقلب امرهم الى فوضى ، اذا راحوا يقتلون اليهود وينهبون القرى فتصدت الشعوب لحماية نفسها منهم ، فأفنت عددا كبيرا . ولما وصلت هذه الجموع في خاتمة المطاف الى القسطنطينية ، خاف منهم الامبراطور البيزنطى على شعبه ودولته ، فأسرع بنقلهم بحرا الى الاناضول حيث كانت تقوم الدولة السلجوقية . فما كان من الب ارسلان ساطان قونية الا أن فاجأ هذه المجموع غير المدربة ولا المستعدة على حين غرة . فأوشك أن يبيدهم عن بكرة أبيهم ، ولم يكن حظ الذين فروا احسن حالا فقد غرق الكثير منهم في البحر .

ونجا بطرس الناسك بما يشبه الاعجوبة حيث التقطته سفينة بعث بها اليكسى من الشاطئ ، وهكذا طويت أول صفحات الحروب الصليبية بهذا الفشل الدريع .

جيوش الامراء والفرسان الصليبية :

على ان الحملة الشعبية اذا كان قد قضى عليها بهذا الاسلوب ، فان حظ الحملة العسكرية التى تألفت من الأمراء الفرسان بناء على دعوة البابا اربان الثانى لم يكن كذلك . وكان قوام هذه الحملة العسكرية خمسة جيوش اولها من اللورين في فرنسا تحت قيادة جودفرى دى بولون بلدوين ، والثانى من بلجيكا تحت قيادة الأمير فلاندر ، وجيش ثالث راسه ريمون دى سانت جيل وجيش رابع من الطليان والنورمان تحت قيادة بوهمند ، وجيش خامس من وسط وغرب فرنسا بقيادة روبير أمير نورمانديا . وكان يرأس هذه الجيوش الخمسة من الناحية الروحية نائب البابا دى . مار دى مونتيل ، على أنه بحكمته وشخصيته سرعان ما تحول الى رأس الحملة المفكر .

وقد تجمعت هذه الجيوش الخمسة خلال الاشهر الاخيرة من عامى ١٠٩٦ ميلادية او مطلع سنة ١٠٩٧ حول القسطنطينية واوجس منهم امبراطور بيزنطة خيفة ، بالرغم انه كان هو الذى استغاث بهم . وطلب منهم ان بقسموا له بمين الولاء وان يتعهدوا بتسليم المقاطعات التى سيستولون عليها من السلاجقة اليه .

وقد كان تخوف الامبراطور في محله . . فقد كانت الافكار التى تراود رؤوس الامراء ، غير تلك التى تراود الامبراطور . . ومع ذلك فنظرا لحاقتهم الى مساعدة الامبراطور ، فقد اقسام له البعض اليمين الذى طلبه منهم في تردد ، بينما امتنع البعض الآخر .

وكانت مدينة نيقية أول ما استولوا عليه .

١٠٩٧ م - ٤٩١ هـ : الاستيلاء على مدينة انطاكية :

كان أول نصر أحرزه الصليبيون هو استيلاؤهم على مدينة انطاكية .. ولم يكن استيلاؤهم عليها امرا سهلا فقد ظلوا على حصارها ثمانية أشهر ، وهى صامدة لا تستسلم ، ولولا الخلافات بين امراء السلاجقة وبينهم الفاطميين فى مصر ، لأمكن الاطباق على الصليبيين الذين كانوا مخنئين فيما بينهم . ولكن هذه النجدة لم تصل فى الوقت المناسب .

وفى هذه الاثناء كان أحد سكان المدينة ويدعى فيروز ، وقد كان أرمنيا مسيحيا ثم أسلم وكان يتولى حراسة أحد الابراج : فاتصل بأحد الامراء الصليبيين واتفق معه على ان يمكنه من الدخول من أحد النوافذ الى البرج الذى يقوم بحراسته . ودخل الصليبيون فى نفر قليل الى داخل البرج ، وصاحوا صيحتهم المألوفة : هذا ما اراده الله ..

ولكى يتم قضاء الله ، دب الفرع والهلع فى قلب أمير المدينة ، وتصور أن المدينة كلها احتلت باصليبيين . مع انه كان من أيسر الأمور ان يحاصر هذه القلة التى نفذت الى البرج وببيدهم ، فاذا به يخرج هالعا من المدينة : مقوضا بذلك نظام الدفاع عنها .. ففتحت ابواب المدينة ودخلها الصليبيون ، ويقول مؤرخو الحملة الصليبية من الافرنج انهم قتلوا من النساء والاطفال فى انطاكية ما لا يدركه حصر .

امراء المسلمين يحاصرون انطاكية :

كان طبيعيا ان يحدث سقوط انطاكية رد فعل فى صفوف امراء المسلمين من آل سلجوق وغيرهم ، فقد أنهوا خلافاتهم وأسرعوا بجيوشهم الى مدينة انطاكية وتحول الصليبيون الذين كانوا يحاصرون المدينة الى محاصرين فيها . وقد اشتد الحصار على الصليبيين حتى ساءت احوالهم واوشكوا على الاستسلام : لولا ان عاد اليهم الايمان والحماسة بخدعة قام بها أحد الرهبان ، اذ أوهمهم ان المسيح قد زاره فى المنام ودله على مكان الرمح الذى طعن به وانه متى صار الى ايديهم فسوف يتصرون به . وكان الراهب قبل ان يفشى حيله (المزعوم) قد خبا رمحا قديما فى مكان معين ، وهو الذى زعم ان المسيح حدده له فى الرؤيا .. فلما ان عشروا على الرمح بالفعل ، ثارت حميتهم ، وجاش ايمانهم ، فخرجوا من المدينة : وباغتوا الجيوش المحاصرة ، والى كانت أكثر عددا وأقوى عدة فهزموهم شر هزيمة .

١٠٩٩ م - ٤٩٢ هـ : الاستيلاء على بيت المقدس :

سار الصليبيون بعد هذا النصر الاخير من انطاكية قاصدين الاستيلاء على بيت المقدس وقد اشتد عزمهم بما فتحوه من مدن اثناء زحفهم . وقد اتخذ الصليبيون فى زحفهم طريق الساحل ليكونوا على صلة مستمرة بأساطيلهم . ويقول المؤرخون العرب أن عدد الجيوش الصليبية كان ألف ألف مقاتل منهم خمسمائة ألف فارس

ومن المحقق أن هذه الأرقام قد ذكرت لتبرير الهزيمة التي حاقت بالمسلمين، فالمصادر الفرنجية تحدد جيوش الصليبيين الوافدين من أوروبا بثلاثين ألفاً : ولا شك أن هذا العدد قد تزايد بما أضافه إليه البيزنطيون : ولكن من المحقق أن العدد كان محدداً لا يتجاوز المائة ألف بحال .

وكانت مدينة القدس في هذه الفترة في حوزة الفاطميين بعد أن استولوا عليها عام ٤٨٩ هـ - ١٠٩٥ م كما قدمنا ولكن بعض المؤرخين يجعل استرداد الفاطميين للمدينة عام ١٠٨٩ م أي بعد بدء الحروب الصليبية .

واستمر حصار القدس أربعين يوماً لم تصل فيها النجذات من مصر ولا من بغداد ، فسقطت المدينة في خاتمة المطاف ، ولا جدال أن الخلاف بين العباسيين والفاطميين ، أو بالأحرى بين السنيين والشيعة ، كان من أكبر العناصر التي أدت إلى سقوط المدينة المقدسة .

فظائع الصليبيين :

وبينما يوجز المؤرخون المسلمون فيما حل بسكان المدينة في العبارات التالية :
وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى واجتمعوا بهما ، فهجموا عليهم وقتلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم ، وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء وأخذوا من الأموال ما لا يحصى .

وهذه العبارة بنصها كثيراً ما تتكرر عند ذكر سقوط مدن أخرى .

ونذلك فإن مراجع الصليبيين في هذه الناحية هي التي تصور لنا طرفاً مما حدث .

يقول فنك برنتانو المؤرخ الفرنسي في كتابه « الحروب الصليبية » : « حين سقطت المدينة أخذ المسلمون يفرون من الشوارع الضيقة ، ولجأت طائفة كبيرة منهم إلى هيكل سليمان وهو المكان الذي اتفقوا فيه مع طنكرد (أحد قواد الصليبيين) أن يلجأوا إليه ، فوعدهم بالدفاع عنهم وسلمهم رأيتهم ليكرزوها هناك دلالة على حمايته لهم . وغض المكان بأوف اللاجئين حتى ضاق بهم فصعد الكثيرون منهم على السطح . وحين احتل الصليبيون المدينة انقضوا على المسلمين وأخذوا يذبحونهم ذبح الشاء غير ملقين بالآلة إلى راية طنكرد ، فسالت الدماء في المعبد وملأته حتى بلغت ما يوازي ارتفاع اليد . وقد ذبح أيضاً المسلمون الملتجئون إلى السطح ثم رموا إلى أسفل البسنة ، فكانت جماجمهم تنفلق وعظامهم تنكسر .

واجباً المسلمون إلى جامع عمر بن الخطاب رجلاً ونساء وأطفالاً وهم بحالة جزع وفزع من الدماء التي ملأت المسجد وارتفعت حتى ركبتي الفارس الصليبي على ما أكدته الكثير من الصليبيين . وبقطع النظر عن استثناءات نادرة ، فإن المدينة نظفت

من سكانها المسلمين رجالها ونساءها وأطفالها وكانت الشوارع تعج بجماجم الموتى وأذرعهم وأرجلهم المقطعة ، وكان الصليبيون يتفننون في تعذيب وامانة هؤلاء المساكين . وبعد الانتهاء من قتل المسلمين وأحراقهم ونهب بيوتهم تذبذبه القوم الى انهم جاءوا لاداء واجب ديني فهرعوا الى كنيسة القيامة وأخذوا يتعبدون وعيونهم تفيض بالدمع فرحا واستبشارا بما كسبت أيديهم لاعلاء كلمة الفادي المخلص يسوع المسيح اله الحب والرحمة ورمز السلام » (١) .

الأفضل شاهنشاه يصل بعد فوات الوقت :

وكما وصل امراء السلاجقة بعد فوات الوقت لانقاذ انطاكية ، فقد وصل الأفضل شاهنشاه بجيشه المؤلف من عشرين ألف مقاتل بعد سقوط القدس . وكان طبيعيا ان يتصدى له الصليبيون الذين كانوا سكرى بنشوة النصر ، وان يهزموا جيشه عند مدينة عسقلان وينفتح بذلك لهم الطريق للاستيلاء على مدن الساحل ، ولكن مدينة عكا استطاعت ان تقاوم هجماتهم . . فانصرفوا عنها وعادوا الى بيت المقدس لتنظيم ملكهم .

دولة الصليبيين الاقطاعية في الشرق :

انتخب جود فرى دى بولون ملكا واتخذ لنفسه لقب حامى القبر المقدس . والف الامراء الصليبيون حكومة ملكية اقطاعية وليست دينية يهيمن عليها البابا . يقول وليم لانجر صاحب موسوعة تاريخ العالم : كانت مملكة بيت المقدس اقطاعية بكل ما لهذا اللفظ من معنى ، فقد كان الملك سيدا اقطاعيا لا ملكا ، في الوقت الذى سيطر كبار الاقطاعيين على المملكة سيطرة تامة . وأسس بلدوين في مدينة الرها كونتية تعتبر من الناحية التاريخية أولى الممالك الصليبية تأسسا . وأسس بوهمند امارة في انطاكية ، وأسس ريموند دى تولوز (كونتية طراباس) فيما بعد ، وأصبحت هذه الاقطاعيات تابعة لمملكة بيت المقدس .

١١٠١ م - ٤٩٥ هـ : وفاة الخليفة المستعلى بالله :

في يوم الثلاثاء تاسع صفر من هذه السنة مات المستعلى بالله وكان عمره يوم وفاته سبعا وعشرين سنة حكم منها سبع سنوات وشهرين وأياما .

يقول أبو المحاسن الذى لا يخفى كراهيته للفاطميين وتسميتهم بالروافض : وكان المستعلى بالله حسن الطريقة في الرعية جميل السيرة ملازما للقصر كمادة أبيه مكتفيا بوزيره الأفضل شاهنشاه في كل ما يريد ، ومع تقاعده عن الجهاد وتهاونه في اخذ البلاد ، متغاليا في الرفض والتشيع وكان يقع منه الامور الشنيعة في ماتم عاشوراء

(١) ارجع الى كتاب الحروب الصليبية للأستاذ رفيق التيمى - وتاريخ الانسانية للمؤلف .

حيث يبالغ في النوح والمأتم ويأمر الناس بلبس المسوح وغلق الحوانيت والاطم والبكاء
زيادة عما كان يفعل آباؤه .

خلافة الأمر بأحكام الله على مصر :

ولى الخلافة بعد موت المستعلى ابنه منصور أبو على وكان عمره يوم ولى الخلافة
خمس سنوات ولقب بالأمر بأحكام الله . وزاد بذلك سلطان الأفضل شاهنشاه حيث
لم يكن الخليفة الا غلاما .

١١٠٣ م ٤٩٧ هـ : سقوط عكا في يد الصليبيين :

جدد الصليبيون محاولاتهم لافتتاح عكا فهاجموها برا وبحرا بأسطول مؤلف من
تسعين مركبا ، وهكذا حاصروها من جميع الجهات ، ولم يخف الأسطول أو الجيش
الفاطمي لنجدتها فسقطت في شهر رمضان واستولى عليها الصليبيون .

وحاول الصليبيون في هذه السنة أن يستولوا على آخر مدينة كبرى على
الساحل في شمال الشام وهى مدينة طرابلس ولكن المدينة لم تصمد لحصارهم
فحسب ، بل خرج جنود المدينة وعلى رأسهم فخر الدين محمد بن عمار ، فشنت
شمل الجيوش المحاصرة وانتصر عليهم فابتعدوا عن المدينة .

١١٠٩ م - ٥٠٣ هـ : سقوط مدينة طرابلس :

على أن الصليبيين ظاوا في حرب متصلة مع مدينة طرابلس ، هذه الحرب التى
استغرقت عشر سنوات . وقرروا في نهاية الأمر أن يطبقوا عليها بكل قوتهم .

ومرة أخرى لعب الخلاف بين بغداد واثقاهرة دوره في وقوع المأساة . فقد لجأ
أمير المدينة ابن عمار الى بغداد ليستنجد بها فأرسل الفاطميون الى المدينة حاكما من
قبلهم ، لم يستطيعوا اغائته بالأسطول والمدد في الوقت المناسب . فانتهى الأمر
بسقوط طرابلس يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة . وفعل الصليبيون بالمدينة
ما اعتادوا فعله من قتل الرجال وسبى النساء والأطفال ، ونهب الأموال، ثم استولوا
على مدينة جبلة بعد طرابلس بعشرة أيام ، ثم استولوا على مدينة بيروت ، ووصل
الأسطول الفاطمي بعد قوات الوقت . فالتجأ الى مدينة صيدا وأفرغ حمولته .
فمكن المدينة من مقاومة الصليبيين في بسالة . فظل ذلك هو الموقع الوحيد في
الشمال (١) كما ظلت عسقلون في الجنوب .

١١١٢ م - ٥٠٥ هـ : وفاة الغزالي :

في هذه السنة مات أحد اعلام الاسلام في زمنه وفي كل زمان وهو الامام أبو حامد
الغزالي مؤلف كتاب الاحياء وعشرات الكتب .

(١) ذكر امين سامى أن مدينة صيدا في سقطت في يد الصليبيين عام ٥٠٤ هـ ولكن المراجع الاخرى
لم تذكر ذلك .

يقول ابن كثير : برع في علوم كثيرة وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة ، فكان من أذكى العالم في كل ما يتكلم فيه . وساد في شببته حتى انه درس بالنظامية ببغداد ولم يكن سنه يتجاوز أربعاً وثلاثين سنة فحضر عنده رءوس العلماء فعجبوا من فصاحته واطلاعه ، ثم خرج عن الدنيا بالكلية وأقبل على العبادة وأعمال الآخرة ، وكان يرتزق من النسخ ورحل الى الشام فأقام بدمشق وبيت المقدس مدة حيث صنف كتابه « احياء علوم الدين » .

والامام الغزالي ككل الأعلام تفرق حوله الآراء . . فحيث يعتبره الكثيرون حجة الاسلام يجرحه الكثيرون بسبب ما ورد في كتابه الاحياء من احاديث غير صحيحة . وتبقى الحقيقة من أنه من أكبر فحول العالم الاسلامي . وفي مكتبتي مجلدات ضخمة من البحوث حول الامام الغزالي بمناسبة مهرجانه ، او حول الكتب التي ألفها ، والأثر الذي أحدثه لا في العالم الاسلامي فحسب بل في العالم الأوربي نفسه (١)

وممن حمل على الغزالي من زاويته الخاصة الأستاذ رفيق التميمي في كتابه الحروب الصليبية حيث يقول : انه بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره في اعداد الخطب وتحبير الرسائل لبحث أهل أوربا على امتلاك اقطار المسلمين ، كان الغزالي وهو المدعو بحجة الاسلام غارقاً في خلوته منكبا على أوراده الصوفية لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة الى الجهاد والدفاع عن بلاد الاسلام المقدسة . والأكى من هذا كله والأدهى والأمر ان حجة الاسلام سكت سكوتاً مطبقاً عن هذه الحرب الطاحنة التي شنها الغرب على الشرق ولم يذكر عنها شيئاً في كتبه (٢) .

١١١٥ م - ٥٠٩ هـ : الوزير الأفضل يصالح بالديون ملك الصليبيين :

عندما أدرك الأفضل شاهنشاه مدبر المماكة المصرية انه عاجز عن مناوأة بالديون ملك القدس والذي يسميه مؤرخو العرب بردويل ، أبرم معه عقد صلح ، يعتبر أول اتصال سياسى بين مصر والصليبيين واعتراف بهم وذلك على اثر مهاجمة بالديون لقافلة من قوافل الحجاج .

١١١٧ م - ٥١١ هـ : بالديون يحاول مهاجمة مصر :

على ان هذا الصلح لم يكن الا مؤقتاً ريثما يستعد بالديون لغزو مصر ، ولذلك فلم يمض عامان حتى قصد مصر في جيش كبير فدخل مدينة الفرما وأحرق مساجدها ، وليس الا المرض ما حال بينه وبين مواصلة السير ، ولم يلبث ان مات ، فما كان من أصحابه - على ما يقول أبو المحاسن - الا ان شقوا بطنه لكي يصبروه

(١) اقرأ لعبد الرحمن بدوى « دور العرب في تكوين الفكر الأوربي » .

(٢) لم يتسع لنا البحث لتمحيص هذه النقطة فنتركها للمختصين .

(اى يحنطوه) ورموا احشاءه فى السبخة الموجودة هناك ، فأصبح يطلق عليها اسم سبخة بردويل (١) واعتاد الناس أن يرموها الى ايام أبى المحاسن .
وهكذا نجت مصر من أول غارة مباشرة عليها .

١١٢١ م - ٥١٥ هـ : مقتل الأفضل ساهنشاه :

فى الثالث والعشرين من شهر رمضان قتل أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى بناء على ايعاز من الأمر بأحكام الله الذى كان قد بلغ أشده فى هذه الفترة . وكان الأفضل يضيق على الأمر فى حياته الخاصة ويحول بينه وبين الانكباب على شهواته وملذاته . ولا جدال فى أن الهزائم التى منيت بها مصر فى الشام وفلسطين ، قد ساعدت على اضعاف مركز الأفضل ، فوقع الخلاف بين الرجائين وراح كل منهما يعمل على الخلاص من الآخر . وقيل ان الأفضل حاول ان يقتل الأمر بالسّم ولكنه فشل ، ونجحت مؤامرة الأمر على الأفضل ، اذ تربص له نفر من المنّامرين وانتهزوا فرصة ركوبه فى غير موكب فوثبوا عليه وقتلوه .

ويقول أبو المحاسن ان الأفضل خلف من الأموال والنقود والقماش والمواشى ، ما يستحى من ذكره لكثرتة .

وكانت سنه يوم قتل سبعا وخمسين سنة ، ومدة وزارته ٢٨ سنة ونصفا .

وهناك اجماع على أنه بالرغم من حدوث كارثة الصليبيين فى أيامه ، وسقوط فلسطين بأيديهم ، فان مصر قد نعمت فى مدة وزارته بالأمن والاستقرار . وحسن الإدارة ، وأنه كان حاكما عادلا حسن السيرة ، وقد بنى وانشأ وعمر عدة عمائر منها الفرج والسبع وجوه وعدة مناظر بالروضة وبظاهر مصر واليه تنسب قيسرية أمير الجيوش (مرجوش) .

تعيين المأمون البطائجى وزيرا :

فوض الأمر بالله شئون الوزارة بعد مقتل الأفضل ، أبا عبد الله بن فائق البطائجى ولقب بالمأمون . وزادت الالقاب والصفات التى أصبح يوصف بها درجات فهو : « السيد الأجل تاج الخليفة وجيه الملك فخر الصنائع أمير الجيوش ، ناصر الامام وسيف الاسلام كافل قضاة الدين هادى دعاة المؤمنين نظام الوجود خالصة أمير المؤمنين أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه لخدمة أمير المؤمنين وعضده بسموه ثقة الدنيا والدين ادام قدرته وأعاه كلمته » .

واكن ذلك كله لم يجد نفعا فى أن يجعل من البطائجى وزيرا مرموقا ، فقد كان على الضد من سلفه . فأساء التدبير وظلم .

مسجد أبى بكر الطرطوشى :

وفى أيامه ألف أبو بكر الطرطوشى كتاب سراج الملوك وأهداه للمأمون فأكرمه وخالع عليه . وعرض الطرطوشى على المأمون عزمه على بناء مسجد فى الاسكندرية بظاهر

(١) تقع هذه السبخة شرق بور سعيد ، وهى تعرف اليوم باسم بحيرة بردويل .

الثغر على البحر ، فرأى المأمون ان تكون نفقات هذا المسجد من مال ديوانه . وقد ذكر المقرئى هذا الحادث فى كتابه اتعاظ الخلفاء على ما نقله عنه الدكتور جمال الشيال ، وجعل تاريخها عام ٥١٠ هـ مع ان المأمون لم يصبح وزيرا الا فى عام ٥١٥ هـ كما رأينا .

وعلى أية حال فان الدكتور الشيال يقول لنا ان هذا المسجد من المساجد التى زالت وعفت آثارها .

مسجد المؤتمن أخى المأمون البطائجى :

وفى سنة ٥١١ هـ على ما يقول المقرئى ايضا ، بنى المؤتمن أخو الوزير المأمون البطائجى مسجدا آخر عندما عين واليا على الاسكندرية والأعمال البحرية .

١١٢٤ م - ٥١٨ هـ : سقوط مدينة صور :

فى هذه السنة سلم أهل مدينة صور مدينتهم بالأمان للصليبيين ، بعد ان عجز الصايبيون عن اخذها عنوة خلال ما يقرب من ربع قرن ، وقد جلا عن المدينة من أراد الجلاء عنها ، وبقي من اختار البقاء تحت حكم الصليبيين . وهذا يعطينا صورة واضحة عن مدى ما وصل اليه أمراء المسلمين فى ذلك الزمان - وبخاصة حكام مصر - من ضعف وهوان .

١٢٥ م - ٥١٩ هـ : مقتل الوزير المأمون البطائجى :

فى هذه السنة قتل الأمر بأحكام الله وزيره أبا عبد الله البطائجى ، هو وأخوته وصلبهم واستولى على كل أموالهم ، كما استولى على أموال الأفضل من قبلهم .

١١٣٠ م - ٥٢٤ هـ : النزارية يقتلون الأمر بأحكام الله :

فى يوم الثلاثاء ثالث ذى القعدة ، قصد الخليفة الأمر جزيرة الروضة وكان قد أقام بها قصرا لللدائه واسكن به عشيقته له أخذت بلبه ، فانقض عليه جماعة من الاسماعييين النزارية وهو يعبر الجسر المؤدى الى الروضة ، وضربوه بسبوفهم ، ولكن حرس الأمر تكاثروا عليهم وقتلواهم ، وعاد الأمر مشحنا بالجروح ، ولكنه لم يلبث ان مات متأثرا بجراحه .

ويجمع المؤرخون على ان الأمر بأحكام الله كان قبيح السيرة ظلم الناس واخذ أموالهم ، وسفك الدماء وارتكب المحظورات واستحسن القبائح ، ولذلك فقد ابتهج الناس بقتله . ويندد به أبو المحاسن لتقاعده عن الجهاد حتى استولى الصليبيون

(الفرنجة) على غالب السواحل والحصون في أيامه . وكانت سنة يوم قتل خمسا وثلاثين سنة . حكم منها ثلاثين سنة .

خلافة الحافظ لدين الله على مصر :

بويح بالخلافة من الخاصة بعد وفاة الأمر بأحكام الله : الحافظ لدين الله أبوالميمون عبد المجيد . أما لماذا كانت بيعته من الناحية الشكلية ، فذلك أنه ليس ابنا للأمر بأحكام الله وإنما هو ابن عمه ، وقد أشرنا من قبل أن الإمامة لا تكون إلا لابن الإمام من صلبه وأن يعهد إليه على سبيل التخصيص . وقد حال دون ذلك وفاة الأمر دون أن يترك وراءه عقباً ، وإنما ترك إحدى نسائه حاملاً ، ومن هنا اختار قواد الجيش عبد المجيد ابن عم الأمر ليلى السلطة من الناحية الشكلية ريثما يجيء المواد فان كان ذكراً ، أصبح هو الخليفة ، وكان عبد المجيد ابن عمه كفيلاً له . كما عين قادة الجيش الأمير أبو على أحمد بن الأفضل شاهنشاه ليكون أميراً للجيش ووزيراً . والراى الغالب بين المؤرخين ، أن المولود الذى جاء كان انثى ومن هنا استمر الحافظ خائفة شكلاً وعملاً .

على ان ابن ميسر مؤلف كتاب تاريخ مصر قال ان الأمر قبل وفاته بشهور كان قد ولد له ابن سماه الطيب واحتفل بمولده احتفالاً عظيماً ، وأعلنه ولياً لعهد . وأرسلت السجلات بتولية الطيب ولاية العهد الى اليمن . والمقرىزى على هذا الراى، ويتابعهما عليه الدكتور جمال الشيال .

وزارة أمير الجيوش أحمد بن الفضل :

لم يكد أحمد بن الفضل يستقر يوم الخميس السادس عشر من ذى القعدة فى منصب الوزارة ، حتى كان أول ما قام به من عمل أن أحاط بالحافظ وسجنه فى إحدى خزانات القصر فيما بين الأيوان وباب العين ، ثم استولى على جميع مافى القصر من أموال وذخائر بدعوى أنها أموال أبيه .

ولم يكن الوزير أبو على اسماعيل المذهب، وقال عنه أبو المحاسن وبعض المؤرخين أنه كان سنياً كأبيه ، أما المقرىزى فيقول عنه أنه كان امامياً متشدداً (الفرع الآخر من الشيعة) فالتفت عليه الامامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب الامامى .

وإذا كان الخلاف يدور حول مذهبه فان الاتفاق قد تم على تصرفه ، وهو اسقاطه أسماء حلفاء بنى عبيد الفاطميين والدعاء لهم من الخطبة ، وأسقط بصفة خاصة اسم اسماعيل بن جعفر الصادق الذى ينتسب اليه الاسماعيلية ، وجعل الخطبة والدعاء للمهدى المنتظر ، وصك النقود باسم المهدى المنتظر ونقش عليها « الله الصمد - الامام محمد » ، كما أبطل من الأذان « حى على خير العمل » . وأمر بأن يدعى له على المنابر باعتباره « ناصر الحق وهادى العصاة الى اتباع الحق ، مولى الامم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم » .

١١٣١ م - ٥٢٥ هـ : تعيين أربعة قضاة في مصر :

عين الوزير في هذه السنة لأول مرة في تاريخ البلاد أربعة قضاة رئيسيين جعل اثنين منهم من الشيعة أحدهما إمامي والآخر اسماعيلي ، والاثنين الآخرين من السننيين أحدهما شافعي والآخر مالكي وترك لكل منهم إصدار الأحكام وفق مذهبه.

١١٣٢ م - ٥٢٦ هـ : مقتل الوزير أحمد بن الأفضل :

نارت الطبقة الحاكمة من الاسماعيلية على أمير الجيوش أحمد بن الأفضل فكمثوا له في العشرين من المحرم من هذه السنة . في ملعب الكرة الذي اعتاد ان يذهب اليه ويلعب بالكرة . وحمل عليه أحد مماليك الحافظ فطعنه بالخنجر وقتله ثم قطعوا رأسه .

واسرعوا باخراج الحافظ من خزانة القصر حيث كان أشبه بالسجين وجددوا بيعته .

الحافظ يعان نفسه خليفة :

اعتبر الحافظ يوم نجاته من سجنه وتوليهِ السطة ، عيداً أطلق عليه اسم عيد النصر وصار يعمل به في كل سنة . والنصر لم يكن له فحسب بل للدولة الاسماعيلية كلها ، فلو ظل أحمد بن الأفضل طويلاً لقضى عليها .

على أن المشكلة الشرعية المذهبية كانت لا تزال قائمة بالنسبة له وهو أنه ليس ابناً للإمام السابق ولذلك فقد ظل رجال الدولة وشيوخ المذهب يعاملونه على أنه كفيل للطفل المختفى .

يقول المقرئ : فاجتمع الناس واخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لم يذكر اسمه . وقد عُثر على عملة ضربت في الاسكندرية في سنة ٥٢٦ هـ كتب عليها : أبو الميمون عبد المجيد ولي عهد المسلمين .

على أن الدكتور محمد جمال الدين سرور ، يعود فينقل لنا روايته المفصلة عن ابن ميسر وهو أن الحافظ أمعن في البحث عن ولد الأمر فلما اهتدى الى محل اقامته - بعد شهرين من عودته ولما للعهد - أسرع الى القبض عليه وقتله ثم أعلن نفسه خليفة ، وقرىء سجل بامامته في ٣ ربيع الآخر من هذه السنة . وأمر الحافظ أن يدعى له على المنابر بهذه العبارة : اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد ان رام الأعداء دثورة ، وأقررت به الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره آية لمن تدبر بباطن البصيرة ، مولانا وسيدنا وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي ميمون وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين صلاة دائمة الى يوم الدين .

انقسام الاسماعيلية الى حافضية وطيبية :

وكيفما كان الأمر وهل كان للطيب وجود حقيقى أم لا ، فان الاسماعيلية انقسمت من جديد الى اسماعيليين حافضية واسماعيليين طيبية .. وقد وجد الآخرون في اليمن ، بل وفي الهند نفسها .

وزارة الأمير يانوس الأرمنى :

كان على رأس المتآمرين لقتل أحمد بن الأفضل ، الأمير يانوس الأرمنى ولذلك فقد رفع الى منصب الوزارة ، ولكن مدته في الوزارة لم تطل اذ أنه مات بعد تسعة أشهر وقيل أنه قتل بالسم .

الحافظ يباشر السلطة بنفسه :

وعلى أثر تخلص الحافظ من يانوس الأرمنى ، قرر أن يباشر أعمال الدولة بنفسه فلا يفوض أمرها الى وزير ، واتخذ من ابنه وولى عهده سليمان معاونا له لمباشرة الأعمال التى اعتاد الوزراء أن يقوموا بها . الا أن سليمان ولى العهد لم يلبث أن مات بعد شهرين من تعيينه وليا للعهد . وكان الحافظ لا يرتاح لابنه الثانى الحسن ولذلك فقد تجاوز أبوه فى ولاية العهد وقلدها لابنه الأصغر منه والمسمى حيدر . فأغضب هذا التصرف الحسن بن الحافظ وشرع يتآمر على أبيه علنا ويجمع حوله بعض أمراء الجيش وقواده لخلع أبيه ، وانقسم الجيش تبعا لهذه الفتنة ، فكانت هذه الواقعة ثلجا ياقول المقرئ « أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها . وقد حاول الحافظ أن يخمد الفتنة باسترضاء ابنه فكتب سجلا بتوليته العهد وأرسله اليه فقرر على الناس ، ولكن ذلك لم يزد الحسن الا جرأة على أبيه وافسادا له . » .

على أن هذه الثورة انتهت بالاخفاق ، ولجأ الحسن الى قصر أبيه الذى كان على استعداد أن يسامحه ، لولا أن الجيش احاط بقصر الخليفة وطلب منه تسليم الحسن لقتله وهددوه ان لم يفعل أن يقتلوه هو نفسه .

وتقول القصة ان الحافظ خرج من هذا الحرج ، بأن حمل أحد الأطباء على دس السم لابنه ، وهكذا مات الحسن ولم يطمئن الجنود الى موته الا بعد أن أرسلوا مندوبين من قبلهم للتأكد من هذه الحقيقة .

وقد رج هذا الحادث الدولة رجاً فأسرع بتصديدها .

١١٣٤ م - ٥٢٩ هـ : وزارة بهرام الأرمنى :

ما كان للفتن اذا اشتعلت الا أن تظل مشتعلة ، ولذلك فقد استطاع بهرام الأرمنى والى الغربية أن يأتى بجنوده فى جمادى الثانى من هذه السنة وأن يحاصر بها القاهرة ويطلب من الحافظ أن ينصبه وزيرا للدولة . ولم يستطيع الحافظ الا أن يرضخ للطلب ، فعين بهرام وزيرا على الرغم من أنه كان نصرانيا وظل على نصرانيته .

وتعصب بهرام لبنى جنسه ووفق بين الأرمن والمسيحيين فحشدتهم فى جميع المناصب الرئيسية حتى بلغ عدد الأرمن فى جيشه ٣٠ ألفا . وأكثر من بناء الكنائس والأديرة ، حتى صار لكل أمير من الأرمن كنيسة خاصة به .

وجار الناس بالشكوى فاستغاثوا بمن حل محله فى ولاية الغربية وهو رضوان ابن ولخشى فاستجاب للدعوة وجاء بجنوده وانضم اليه الجند المسلمون فى جيش بهرام ، ونجا بهرام بجأده ففر من القاهرة ، ويقول لنا لين بول نقلا عن أبى صالح أن بهرام قد اختفى فى احد الأديرة وأصبح راهبا .

رضوان يتولى الوزارة ويلقب بالملك :

دخل رضوان القاهرة وتولى الوزارة ، وزاد فى القابله نفمة جديدة وهى التسمى بالملك ، فأصبح يلقب بالسيد الأجل والملك الأفضل . وأصبحت تسمية الوزير بالملك سنة من بعده .

ولجا رضوان الى اضطهاد الأرمن والمسيحيين من ناحية ، كما لجا الى النكاية بالخليفة الحافظ من ناحية أخرى ، حتى هم بخلعهم بدعوى أنه ليس اماما وانما هو كفيل عن امام لم يوجد .

وتحول الخلاف بين الرجلين الى معارك ، امتدت لبضع سنوات بين مد وجزر لصالح الحافظ تارة ولصالح رضوان تارة أخرى . وانتهى الامر بمقتل رضوان ،

١١٣٩ م - ٥٣٢ هـ : ميلاد صلاح الدين :

ووسط هذه الفتن والخلافات ، والظلام الذى ران على العالم الاسلامى فى هذه الفترة بسيطرة الصليبيين على بيت المقدس وفلسطين . ولد الرجل الذى سيكون مقدرا له ان يسترد بيت المقدس من الصليبيين وان يعيد الأمن والنظام الى مصر ويوجد بينها وبين بلاد الشام . ذلكم هو يوسف صلاح الدين بن نجم الدين ايوب . وكان مولده فى قلعة تكريت من أعمال الموصل .

١١٤٤ م - ٥٣٩ هـ : عماد الدين زنكى يستولى على مدينة الرها :

لم يكن مولد هذا الطفل يوسف صلاح الدين ، الا رصيذا لمواصلة موجة المد التى بدأ العالم الاسلامى يجيش بها ، نفى هذه السنة سنة ٥٣٩ هـ كان الاتابك عماد الدين زنكى أمير الموصل يقوض أول دولة صليبية انشأها الصليبيون فى الشرق الاسلامى وهى دولة الرها وذلك بالاستيلاء على هذه المدينة المحصنة بعد عديد من المعارك التى شنها على الافرنج وانتصر فيها كلها .

وعلى خلاف ما فعله الصليبيون بالمدن الاسلامية التى احتلوها فان عماد الدين زنكى كتب الى النصارى امانا وأحسن اليهم .

١١٤٧ م - ٥٤٢ هـ - الحملة الصليبية الثانية :

احدث سقوط مدينة الرها و امارتها بيد عماد الدين زنكى ، وما عقب ذلك من ضغطه بشدة على اماره انطاكية ، ان استحوذ على الصليبيين الدعر والهاع ، فأمطروا البابا وسائر ملوك اوربا بسيل من الاستغاثات يطلبون النجدة بأسرع ما يمكن . واراد البابا يوجين الثالث ان يجعل من نفسه اربان الثانى ، فراح يصرم من جديد نار الدعاية فى ارجاء اوربا للقضاء على الاسلام والمسلمين . وكأن التاريخ يعيد نفسه فحيث اعتمد اربان الثانى على بطرس الناسك ليكون لسانا متحركا يلهب الجماهير . فقد وجد يوجين الثالث فى شخص برنار الراهب ما يؤدى دور بطرس الناسك وقد استجاب للدعوة هذه المرة كونراد الثالث امبراطور الدولة الغربية ولويس السابع ملك فرنسا .

وعلى الرغم من الجماع المؤرخين على ان هذه الحملة كانت أكثر نظاما واحسن قيادة من الحملة الاولى ، حيث كانت كلها تتألف من البارونات الفرسان ، فقد اخفقت اخفاقا ذريعا وذلك بسبب الخلافات التى دبت بين الملكين من ناحية ، وبينهما وبين امبراطور بيزنطة من ناحية أخرى . ولذلك فقد استطاعت جيوش السلاجقة ان تنفى الكثير من قوة هذه الجيوش أثناء اجتيازها الأناضول .

١١٤٨ م - ٥٤٣ هـ - محاولة استيلاء الصليبيين على دمشق :

لخصت الجيوش التى وصلت الى فلسطين مهمتها فى الاستيلاء على مدينة دمشق ، على الرغم من ان مجير الدين أمير دمشق كان فى تحالف مع الصليبيين ، ضد القوتين الاسلاميتين فى المنطقة بغداد فى الشرق ، والقاهرة فى الجنوب . فكانت هذه على مايقول المؤرخون الأوروبيون اكبر غلطة ارتكبتها الحملة الصليبية الثانية . وعبثا حاول مجير الدين أن يذكر الصليبيين بأنه حليفهم ، وان قضاءهم عليه فيه اضعاف لمركزهم ، فلما أصموا آذانهم . . التجأ الى هذا النجم الصاعد فى سماء المنطقة وهو نور الدين زنكى .

من هو نور الدين زنكى :

قدمنا ان امير الموصل وحلب عماد الدين زنكى ، وهو الذى اخذ على عاتقه محاربة الصليبيين وراح ينتصر عليهم وينتزع حصونهم ومواقعهم الواحد تلو الآخر . ثم شاءت سخرية التاريخ ان يقتل هذا القائد الذى تعلق به آمال المسلمين فى حادث غامض على يد بعض غلمانه ، لم يستطع التاريخ ان يستجلى غوامض هذا الحادث .

غير ان عماد الدين زنكى لم يفارق الحياة الا وكان قد ترك للدنيا ابنا له يدعى نور الدين وعالي الرغم من أنه ترك أبناء آخرين ، فان نور الدين هو الذى ورث عزم ابيه فى محاربة الصليبيين والقضاء عليهم . وشاءت الاقدار ان يكون اكثر من ابيه

صلاحية للمضى في هذا الطريق ، فحيث لم يعرف عن أبيه إلا أنه عسكرى جسور قوى الشكيمة فان ابنه نور الدين كان يضم اليه ذلك ورعا وتقى وزهدا وكانت نفسه تفيض بالاحساس بالعدل ، والاحسان الى الناس ولذلك ، فقد واصل الانتصار على الصليبيين في عديد من المعارك ، التي جعلت شهرته تطبق الآفاق ، فلما ان اسقط في يد مجير الدين . . استنجد بنور الدين زنكى . . ولم يكن نور الدين ينتظر الا هذه الفرصة الذهبية فشرع في الزحف بجيوشه على دمشق فلم يكد الصليبيون يسمعون بزحفه ، حتى اسرعوا بالانسحاب رافعين الحصار عن المدينة . . ولم يجد الصليبيون الذين جاءوا من أوروبا الغربية ما يفعلونه بعد ذلك فعادوا ادراجهم (بخفى حنين) على ما يقول لين بول . أما وليم لانجر فيلخص الحملة الصليبية الثانية بأنها لم تفعل شيئا يذكر ، وشنعت سمعتها في أرجاء أوروبا .

١١٤٩ م - ٥٤٤ هـ - وفاة الحافظ لدين الله :

مات الحافظ لدين الله في جمادى الثانى من هذه السنة بعد أن مرض وكانت سته يوم مات خمسا وسبعين سنة ومدة حكمه تسع عشرة سنة ولم يكن ساطانه يوم وفاته يتجاوز اسوار قصره . وبموته اندلعت من جديد نيران الفتن بين مختلف قرق الجيش الأرمنية والسودانية والتركية . . حتى أصبحت شوارع القاهرة غير آمنة ، وعاش من فيها في رعب وفزع مما يحل بأرواحهم وأموالهم في أى لحظة .

خلافة الظاهر بأمر الله :

وفي نفس الشهر بويع لابن الحافظ أبو منصور اسماعيل ولقب بالظاهر بأمر الله ، وكان عمره سبع عشرة سنة وأشهر وكانت أمه جارية (أم ولد) تدعى سبت الوفاء وقيل ست المنى - وكان الوزير الذى تولى تدبير المملكة هو الأمير نجم الدين ابن مصال المغربى ولقب بالسيد الأجل المفضل أمير الجيوش .

١١٥٠ م - ٥٤٥ هـ - تولى ابن سلار الوزارة :

لم يرض ابن سلار والى الاسكندرية والبحيرة عن تولى نجم الدين بن مصال الوزارة . وتابعه على عدم رضائه ربيبه (١) عباس بن باديس الصنهاجى والى الغربية فلما ترامى الى سمع ابن مصال نبأ اتفاق الرجلين عليه ، وأحس بأن الخليفة الظاهر يقف منه موقفا سلبيا ، أثر أن يغادر القاهرة ، ولما يمض عليه فى الوزارة شهرا وانترك المنصب شاغرا وقصد الى الصعيد .

فوصل ابن سلار الى القاهرة ودخلها وتقلد وزارتها وتلقب باسم العادل ، وبعث بربيبه عباس الصنهاجى على رأس جيش لمحاربة ابن مصال فى الصعيد فظفر به وقتله ، وهكذا استقر الأمر لابن سلار فى الوزارة وتدبير الملك .

(١) كان ابن سلار قد تزوج أم عباس فأصبح بذلك ربيبا له .

١١٥١ م - ٥٤٦ هـ - إنشاء مدرسة للشافعية في الاسكندرية :

كانت إحدى الظواهر التي تدل على قرب تداعى الدولة الشيعية ، اتجاه الوزراء من حين آخر الى المذهب السننى وتعزيزه . فقد أنشأ ابن سلار فى هذه السنة وقد كان سنيا مدرسة للمذهب الشافعى فى الاسكندرية ، وعهد بإدارتها الى الحافظ السلفى الفقيه الشافعى تمهيدا لاعادة المذهب السننى الى مصر .

١١٥٣ م - ٥٤٨ هـ - مقتل ابن سلار وتولى عباس الصنهاجى الوزارة :

فى السادس من المحرم فتل ابن سلار ، وكان قاتله هو نصر ابن ربيبه عباس الصنهاجى وذلك بايعاز من الخليفة الظافر الذى ضاق بسطان ابن سلار والذى يدا يوجهه لاعادة المذهب السننى .

وتولى الوزارة والد نصر عباس الصنهاجى ولقب بالمظفر والأفضل أمير الجيوش .

سقوط مدينة عسقلان :

قدمنا أن مدينة عسقلان ظلت هى الموقع الأمامى الوحيد فى فلسطين بيد مصر . وكان طبيعيا وهذا مدى الاحداث التى كانت تجرى فى مصر ، أن يسقط هذا الحصن فى خاتمة المطاف بيد الصليبيين ، وأن يكون سكان المدينة هم الذين يسلمونها بالامان للصليبيين بعد أن يئسوا من نجدة مصر لهم ونجدة بقية امراء المسلمين . ذلك أن نور الدين زنكى وهو الأمير الوحيد الذى كان مستعدا لنجدتهم ، وتوجه بالفعل اليهم قد حال بينه وبين الوصول اليهم خلاف مجير الدين صاحب دمشق عليه التى رغم ما تعرضت له من الصليبيين ، فقد ظل صاحبها مجير الدين يخشى على نفسه من نور الدين ويستقل بثئونه عنه ويحبط ما استطاع من توسعاته وانتصاراته .

وعلى ذلك فقد دخل الصليبيون الى مدينة عسقلان واستولوا على كل ما كان بهيئاً من ذخائر وحولوا مسجدها الكبير الى كنيسة تحمل اسم القديس بولس .

فرجة من صقلية ينهبون مدينة تنيس :

وكان طبيعيا وقد سقطت عسقلان ، أن يتجرا الصليبيون على مصر نفسها . فجاءت مراكب حربية من جزيرة صقلية محملة بالفرنج فنهبوا مدينة تنيس وخربوها .

١١٥٤ م / ٥٤٩ هـ - مقتل الخليفة الظافر :

فى ليلة الخميس آخر المحرم من السنة الهجرية قتل الخليفة الظافر على يد صاحبه وخدنه وخليفه نصر بن عباس الذى كان أداته فى قتل ابن سلار . وكانت العلاقة بين الخليفة الظافر ونصر بن عباس قد وصات الى حد أن أصبح الظافر مستقلا

بها عن أى علاقة أخرى ، فانتشرت الاشاعات والأقاويل عن هذه العلاقة التى أشبهت أن تكون زواجا . وخاف عباس أبو نصر على نفسه من ابنه أن يقتله بتحريض الخليفة كما قتل ابن سلار ، فراح يحرض ابنه على قتل الظافر حتى يرىء نفسه من الشبهات التى ثارت حوله ، واتصاع نصر لتحريض أبيه فتربص بالظافر عند حضوره اليه كعادته كل ليلة ولم يكن معه الا خادمان ، فقتله وقتل أحد الخادمين بينما فر الآخر ، والبقى بجثتيهما فى بئر وسد عليهما .

وكانت سن الظافر عند قتله واحدا وعشرين عاما وتسعة اشهر امضى منها فى الخلافة اربع سنوات وثمانية اشهر امضاها كلها فى اللهو واللعب .
وان كان الأمر لم يخل من انشائه كعادة هذا الزمان على ما يقول أبو المحاسن الجامع الظافرى المعروف بجامع الفاكهيين .

الوزير عباس يتهم أخوى الظافر بقتله :

ذهب الوزير عباس الى دار الخلافة صبيحة مقتل الظافر ووجه الى أخوى الخليفة يوسف وجبريل تهمة قتل الظافر ، وقتلهما على الفور ظلما وعدوانا لتغطية جريمة ابنه ثم استحضر ابن الظافر وكان طفلا لا يتجاوز عمره خمس سنوات وكان يدعى عيسى ونادى به خليفة مكان أبيه واطلق عليه اسم الفائز بنصر الله .

استيلاء نور الدين على دمشق :

على أنه فى الوقت الذى كان فيه ملك الفاطميين يتهاوى فى الداخل والخارج ، كانت موجة المد فى نقاهة العالم الاسلامى كما أصبح يمثلها نور الدين زنكى تواصل ارتفاعها ، ففي ابريل من السنة الميلادية ١١٥٤ كان نور الدين يستولى على مدينة دمشق بناء على طلب أهلها ، الذين ضاقوا بأمرهم مجير الدين حليف الفرنج ، والعقبة فى سبيل تجميع المسلمين . فكتبوا نور الدين ليقدم الى المدينة ووعدوه أن يساموها اليه . وعلى الرغم من أن مجير الدين قد تحصن فى القلعة ، فقد انتهى الامر باستيلاء نور الدين على دمشق ، ولم يشأ أن يعامل مجير الدين فى عنف بما جنت يده . بل اكرمه وعينه واليا على احدى البلاد فى سلطانه ، على أنه لم يلبث أن أثر الالتجاء الى خليفة بغداد .

وبدخول دمشق فى سلطان نور الدين انفتح الطريق نحو فلسطين ومصر لادخالهما فى نطاق التجمع ضد الصليبيين .

خلافة الفائز بنصر الله على مصر :

ذكرنا من قبل أن عباس قد ولى أبا القاسم عيسى بن الظافر الذى لم يكن سنه يتجاوز الخامسة خليفة على مصر ولقبه بالفائز بنصر الله . ويقول الحافظ الذهبى أنه بعد أن قتل عباس الوزير أخوى الظافر ، دخل الى الحريم وجاء بالطفل الصغير وحمله على كتفه ووقف فى صحن الدار متظاهرا بالحزن والكآبة وأمر أن يدخل الامراء

فقال لهم هذا ولد مولاكم وقد قتل عماء مولاكم ، وقد قتلناهما كما ترون وأشار الى جثتي القتيلين ، والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل ، فقالوا كلهم سمعنا وأطعنا وضجوا ضجة واحدة بذلك ففزع الطفل ومال على كتف عباس من شدة الفزع ، وسموه الفائز ثم سيروه الى أمه وقد اختل عقله من تلك الضجة فيما قبل . فصار يتحرك في بعض الأوقات ويصاب بالصرع ، وقال آخرون بل كان اختلال عقله نتيجة رؤيته المقتولين غارقين في الدماء .

ويغني عن أبي المحاسن معلنا : وعلى كل الأقوال اختل عقل الفائز .

هرب عباس الصنهاجي وابنه نصر :

نارت الجماهير الفاضحة على عباس الصنهاجي وما ارتكبه من جرائم بشعة حتى قيل أن النساء رحن يقدفن عليه الأحجار من البيوت ، فانفض الكثير من الاتباع من حوله . ومن ناحية أخرى فقد كاتب سكان القصر من النساء والجواري طلائع بن زريك الأرمني وكان واليا على منية بن خصيب وأرسلوا اليه شعورهم إشارة الى استصراخهم به . فابى طلائع بن زريك هذا الاستنجاد وتحرك بما معه من قوات عسكرية طلبا لثأر الخليفة الظافر . وهكذا وجد عباس نفسه معزولا عن الجماهير وغالبية الجند ، فجمع كل ما قدر عليه من أموال وسار بجميع أفراد عائلته قاصدا الشام .

مقتل عباس وابنه :

يقول أبو المحاسن أن أخت الظافر التي آلت على نفسها أن تثار لأخيها كاتبت الصليبيين الذين كانوا يحتلون عسقلان وأرشدتهم الى مسير عباس وما يحمل من أموال ، وحرضتهم على قتله مقابل مكافأة كبيرة حددتها لهم فوق ما سبغتمونه من أمواله . واستطاع الصليبيون بالفعل أن يقبضوا على عباس ومن معه وأن يقتلوه ويغنموا كل ثروته . وأرسلوا ابنه نصر في قفص من حديد لأخت الظافر ليتاقصوا ما وعدتهم به .

ويحدثنا المؤرخون بعد ذلك عن تفاصيل الميثة البشعة التي قتل بها نصر بن عباس ..

الملك الصالح طلائع بن زريك في الوزارة :

دخل الملك الصالح طلائع بن زريك القاهرة وهو يرتدى السواد حدادا على من ماتوا ، فكان ذلك ارهاصا بما أصبح وشيك الوقوع من العودة الى السواد شعار العباسيين .

وكان أول ما فعله بعد أن استقر في قصر الوزارة أن قصد الى بيت نصر الدين الذي قتل فيه الخليفة وأخرج جثته وشيعت في جنازة اشترك فيها الشعب كله ثم راح بعد ذلك يتعقب المجرمين ويفتص من القواد والجند الذين روعوا القاهرة خلال السنوات السابقة باذلا جهده لاعادة حكم القانون واستتباب الأمن والنظام .

١٥٨ م / ٥٥٣ هـ - ابن زريك والصليبيين :

على أن أعظم ما يسجل لابن زريك ، هو أن جيوشه تحت قيادة ضرغام استطاعت أن تحرز أول انتصارات للجيش المصري على الصليبيين بالقرب من غزة .

وأسرع ابن زريك عقب هذا النصر فدخل في مراسلات مع نور الدين يطلب منه توحيد حدود الدولتين للقيام بعمل مشترك ضد الصليبيين .

وقد سجل لنا اسامة بن منقذ هذه الرسائل التي تم تبادلها على يديه اذ كان يتردد على الملكين .

غير أن نور الدين الذي كان يتصرف بحذر من ناحية ، وكان من ناحية أخرى يكره الشيعة ، جعل رده على ابن زريك في عبارات غامضة مطاطة لا يقطع فيها ولا يوصل . ولكن ابن زريك لم يكف عن مواصلة مساعيه حتى لقد أوفد سفارة الى نور الدين في دمشق وحماتها الكثير من الهدايا والتحف ، وعرض على نور الدين سبعين ألف جنيه التمويل الحملة المشتركة ضد الصليبيين .

١١٦٠ م / ٥٥٥ هـ - وفاة الخليفة الفائز :

في الحادى والعشرين من شهر المحرم . مات الخليفة الفائز على ما يقول ابن خلكان أما أبو المحاسن فيجعل هذه الوفاة في رجب وكانت مدة حكمه الاسمية ست سنوات وستة أشهر وأيام ، وعمره يوم وفاته إحدى عشرة سنة وشهور . ومات دون أن يكون له ولى عهد متفق عليه .

خلافة القاصد لدين الله :

في الثامن من رجب بويج بالخلافة أبو محمد ولقب بالقاصد وهو ابن الأمير يوسف بن الخليفة الحافظ بالله الذى قتله عباس الصنهاجى بتهمة قتل أخيه الظافر .

وكانت سنه يوم بويج له إحدى عشرة سنة وشهور وكان الملك الصالح بن زريك هو الذى اختاره واليا يناب الخلافة وبايعه فتابعه بقية الناس .

وقد عمد ابن زريك الى تزويج ابنته من القاصد أملا فى أن يرزق منها بولد : لنجتمع الخلافة والملك لبني زريك .

ويقول ابن كثير أنه جهز ابنته بجهاز عظيم يجلس الوصف وقد عمرت ابنة الملك الصالح بعد وفاة زوجها العاضد ورات زوال دولة الفاطميين .

١١٦١ م / ٥٥٦ هـ - وفاة الملك الصالح طلائع بن زريك :

في يوم الاثنين التاسع عشر من شهر رمضان ، قتل الملك الصالح طلائع بن زريك بمؤامرة دبرت له فى القصر .

وقد اشتهر الملك الصالح بأنه كان أديبا محبا للادباء وكان يعقد مجالس الادب وقد قصده اهل العلم من سائر البلاد فلم يخيب رجاء قاصد منهم .

وكان هو نفسه يقرض الشعر الجيد الذى يتناقله الناس .

... وان كان بعض المؤرخين يقولون أن اشعار ابن زريك هي من شعر ابن الزبير القاضى المهذب .

وقد انشأ الجامع المنسوب اليه والمشهور باسم جامع الصالح ليكون مقبرا لرأس الحسين الشهيد الذى نقلت في أيامه من عسقلان خوفا عليها من الصليبيين . ولكن الخليفة اعترض على ذلك وبنى المشهد الحالى المعزوف .

وقد استعرض الجيش في أيامه فكانت عدة عساكر القاهرة خمسين ألفا من مختلف الاجناس . وكان يحمل في كل عام لاهل الإحرمين سائر ما يحتاجونه من المؤونة والكسوة وغيرها حتى كان يحمل لهم ألواح الصبيان التى يكتب فيها والأقلام والمداد وآلات البناء . وكانت آخر كلماته قبل موته ابداء الأسف على أنه لم يستعد بيت المقدس ويظهره من الفرنجة .

ثم نصح ابنه أن لا يتعرض لشاور حاكم الصعيد العربى بالعزل وعليه أن يبقيه في منصبه .

وكان ابن زريك شأن وزراء هذا الزمان قد استبد بالأمور كلها . ثم أصيب على ما يقول البعض - بالشرية في جمع الأموال ، حتى وصل به الأمر الى بيع الولايات للأمراء وجعل لكل ولاية سعرا محددًا ، كما كانت مدة الولاية لا تزيد على ستة شهور ، مما أثار الناس عليه .

١١٦٣ م - ٥٥٨ هـ : تولى العادل زريك الوزارة ثم شاور :

تولى زريك بن الصالح الوزارة بعد مقتل أبيه ولقب بمجد الاسلام ، وسار على سيرة أبيه في الاستئثار بالسلطة ، فلم يعجب ذلك الخليفة العاضد فعمد الى التخلص من العادل بآثاره أطماع شاور حاكم الصعيد بتولى الوزارة اذا هو خلصه من العادل زريك .

يقول ابو المحاسن فتحرك شاور بن مجيد السعدى من بلاد الصعيد وجمع أوباش الصعيد من العبيد والأوغاد وقدم الى القاهرة لمحاربة زريك ، فانهزم زريك وتدخل شاور القاهرة وملكها وأخرب دور الوزارة ودور بنى زريك وقد نجح الوزير زريك في الاختفاء في بادئ الأمر ولكن شاور لم يلبث أن ظفر به وقتله .

ضرغام يسقط شاور :

ولى العاضد شاور الوزارة ، ولكنه لم يلبث بعد قليل ان احس بالندم ، فاذا كان زريك وابوه من قبله يضيقان عليه ، فعلى الأقل فقد كانا يحسنان تدبير المملكة .
اما شاور ففوق اساءته للرغبة ، واساءته التدبير ، فقد راح يعامل الخليفة اسوأ معاملة واقبحها .

ولذلك فقد حرض أحد قواد الجيش وهو ضرغام ضد شاور فجمع ضرغام قوة من الجيش واستطاع أن يخرج بها شاور من القاهرة . على أن ضرغام بدوره لم يلبث أن أساء السيرة وراح يقتل الكثيرين من الأمراء لتخلو له البلاد .

١١٦٤ م - ٥٥٩ هـ - شاور يحرض نور الدين على فتح مصر :

لجأ شاور بعد هربه من مصر الى نور الدين زنكى فى الشام واستنجد به وراح يهون له فتح مصر على أن يتولى شاور حكمها نيابة عنه ، وان يقدم ثلث خراجها .
ولما كانت خطة نور الدين تقوم على توحيد القوى الاسلامية لمواجهة الصليبيين ، وكان أخشى ما يخشاه من ناحية أخرى أن يؤدي التدهور المستمر فى احوال مصر الداخلية الى سقوطها فى يد الصليبيين ، فقد استجاب لنداء شاور وأرسل معه جيشا رأسه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الذى جاء فى معيته ، وكان ذلك أول دخول لصلاح الدين الى مصر .

شخصية صلاح الدين :

وهناك عديد من الكتب القديمة والحديثة التى كتبت فى شخصية صلاح الدين ، وهى لا تقدم لنا الكثير عنه فى أيامه الأولى وشبابه ، الا أنه تفرس فى عمليات القتال فى المعارك التى خاضها فى الجيش النورى ، كما تفرس بأعمال الادارة عندما تولى ادارة الشحنة فى دمشق .

على أن الخط الحقيقى لشخصية صلاح الدين يبدو منذ حضر الى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه ، حيث يقول المؤرخون أن شخصيته كانت فى ذلك الوقت قد نضجت وشجاعته قد اشتهرت ، بحيث كان أسد الدين شيركوه لا يبرم أمرا الا بعد استشارة صلاح الدين رغم حداثة سنه .

مقتل ضرغام وعودة شاور الى الوزارة :

خرج ضرغام على رأس جيش لمقابلة أسد الدين شيركوه ، ولكن الدائرة دارت عليه وسقط قتيلا فى المعركة ، وهكذا عاد شيركوه لتولى منصب الوزارة .

شاوور ينكث بالعهد مع نور الدين :

ولكن شاوور لم يكذب يترفع في دست الوزارة ، ويجمع رجاله القدامى حوله ، حتى رأى ان من صالحه أن يكون مع الخليفة العاضد المغلوب على أمره من ان يكون تابعا لنور الدين القوى ، ولذلك فقد اصطلح مع العاضد . وقلب ظهر المجن لأسد الدين شيركوه فبعث اليه يطلب منه مغادرة مصر الى الشام بعد أن تمت مهمته .

واستبان صلاح الدين من شاوور عين الغدر فأشار على عمه بالانسحاب بجيشهم الى مدينة بلبيس ، فأصاح شيركوه لهذه النصيحة ، ولم يكادوا يتجاوزون الى بلبيس حتى ظهر غدر شاوور الذي كان قد راسل الصليبيين في هذه الاثناء ، وطلب منهم الحضور الى مصر لمقاومة جيش نور الدين .

واسرع الصليبيون لانتهاز الفرصة ، وجاء جيشهم الى مصر وانضم الى جيش شاوور ، وحاصر الجيشان جيش أسد الدين شيركوه . الذي قاوم الحصار ببسالة ولم يستطيعوا أن ينالوا منه منالا رغم طول الحصار الذي استمر ثلاثة أشهر . وخف نور الدين الى مساعدة جيشه في مصر بالهجوم على الامارات الصليبية ، فخاف الصليبيون على بلادهم وقرروا الانسحاب من مصر فدخلوا في مفاوضات مع أسد الدين شيركوه ، لكي يجلو جيش نور الدين كما يجلو جيش الصليبيين من مصر في آن واحد .

وقد تحقق هذا الاتفاق ، ولكن بعد أن كان الطرفان نور الدين من ناحية والصليبيون من ناحية أخرى قد أدركا مدى ما أصبحت عليه مصر من عجز للدفاع عن نفسها . ومدى ما يفيد المسيطر عليها من القوة .

١١٦٧ م - ٥٦٢ هـ - الخليفة العاضد يستنجد بنور الدين :

استبد شاوور بالخليفة العاضد بعد أن خيل اليه أن الأمور قد استقرت له ، وراح يسرف في قتل من يتصور أنه يمكن ان يقاوم سلطانه ، فاستنجد الخليفة العاضد هذه المرة بنور الدين ليخلصه من شاوور . وكان نور الدين ينكر على شاوور غدره السابق ونكثه العهد وادخله الصليبيين الى مصر ، ولذلك فقد لبى نداء العاضد وبعث بجيش جديد الى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه على أن عدة هذا الجيش لم تكن تتجاوز الألفين . . ومرة أخرى دخل صلاح الدين الى مصر في معية عمه أسد الدين شيركوه .

شاوور يستنجد بالصليبيين :

واسرع شاوور يستنجد بالصليبيين فأوفدوا له قوة تزيد أضعافا مضاعفة على جيش نور الدين وبينما كان جيش أسد الدين يقف قبالة الجيزة على الضفة الغربية للنيل . كان الصليبيون قد وصلوا في مواجهته الى الضفة الشرقية ولم يستطع أى من الطرفين أن يعبر النيل ليواجه الآخر .

ولم يلبث شيركوه أن انحدر الى الصعيد . . وكذلك الصليبيون .

وعند بلدة البابين على بعد عشرة أميال جنوبى المنيا الحالية فى ١٨ أبريل من هذه السنة الميلادية ، جرت إحدى المواقع الفاصلة التى أظهرت مواهب صلاح الدين وشجاعته وحسن تدبير عمه لتكتيك المعارك (١) .

فعلى الرغم من ضالة جيش شيركوه بالنسبة للجيشين المتحالفين (الصليبي والشاورى) فقد انتصر شيركوه وعاد الصليبيون الى القاهرة مهزومين .

اتجه شيركوه بعد انتصاراته شمالا حتى وصل مدينة الاسكندرية فدخل برضاء أهلها وعين صلاح الدين واليا عليها ، وعاد أدراجة الى الصعيد ليوطد سلطانه هناك وأسرع الصليبيون يهاجمون الاسكندرية برا وبحرا .

ولاقت صلاح الدين الأمرين فى هذه الحرب التى عاناها من الصليبيين ، حتى ليزكرها فيما بعد كسبب يجعله يكره العودة الى مصر .

ومن جديد دارت المفاوضات بين شيركوه والصليبيين على أن يجاؤ الطرفان عن مصر وكان ذلك أعظم ما يمكن لشيركوه أن يحققه بجيشه الصغير ، ولذلك فقد قبل الاتفاق وأسرع بتنفيذه .

أما الصليبيون فقد تلكأوا فى التنفيذ الا بعد أن يبرموا مع شاور معاهدة كان من أهم شروطها أن يكون لهم بالقاهرة شحنة (أى قوة بوليس) صليبية . وأن تكون أبواب القاهرة بيد فرسانهم حتى يمتنع نور الدين عن انفاذ عسكر اليها وعلى أن تدفع مصر للصليبيين مائة ألف دينار سنويا .

وكان معنى هذه الاتفاقية هى بلفة العصر الحديث اعلان الصليبيين الحماية على مصر ضد نور الدين .

وصف لقصر الخليفة الفاطمى :

وقد كان إبرام هذه المعاهدة ، ورغبة الصليبيين فى التأكد من موافقة الخليفة العاضد عليها . فرصة لكى يحفظ لنا التاريخ وصف المراسم التى كانت تتبع عند مقابلة السفراء الأجانب للخليفة ، والاثر الذى كانت تتركه فخامة القصر وحدائقه فى نفس الأوربيين .

يقول غليوم رئيس اساقفة صور الذى ينقل عنه هذا الوصف :

« سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه الى قصر له رونق وبهجة عظيمان ، وفيه زخارف أنيقة نضيرة وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حوالهم جد التأثير دون أن يتطرق الى نفوسهم أى خوف أو رهبة .

(١) انظر كتاب التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين .

ووجدوا في هذا القصر حراسا عديدين ، وسار الحراس في طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة ، وقد قادوا الفرنج في ممرات طويلة ، وضيقا وأقبية حالكة الظلام لا يستطيع الإنسان أن يتبين منها شيئا . وربما كان المقصود من ذلك بعث الهيبة الى قلوبهم ، وزيادة التأثير فيهم ، فلما خرجوا الى الفور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة ، كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام ، ثم وصل الموكب الى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة وأرضية مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان وفيها تذهيب خارق للعادة بنضارته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة .

وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة الى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة في الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة اعجابا بها . وهنا استأذن في الرجوع الحراس الذين كانوا يسرون في معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت ، وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين الى الخليفة .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أقبية جديدة أشد جمالا وابداعا ، ثم الى حديقة لطيفة غناء ، لم تكن الحديقة الأولى شيئا بجانبها ، زاد فيها من أنواع الحيوانات ، ما يتهم المرء بالكذب اذا وصفها ، فان الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات .

وبعد ان عبروا أبوابا عديدة أخرى وساروا في بقاع كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة واعجابا .

وصل الفرنج الى القصر الكبير حيث يقطن الخليفة ، وفاق هذا القصر كل ما رآوه قبل ذلك ، وكانت أقبية تفيض بالمحاربين المسلمين مقلدين أسلحتهم وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز .

وأدخل المبعوثون في قاعة واسعة ، تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحريير المختلف الألوان ، وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية ، وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن في هذه القاعة أحد . ولكن شاور خر راکما كمادته فور دخوله ، ثم نهض واقفا ، ثم قبل الأرض ثانية وخابع السيف الذي كان يلبسه في عنقه ثم خر ساجدا مرة ثالثة في ذلّة وخشوع كأنه يسجد لله . وارتفعت فجأة الحبال وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة ، وظهر الخليفة الطفل « القاصد » لأعين الفرنج المبعوثين ، وكان على وجهه هذا الأمير حجاب يخفيه تماما ، وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة (١) .

(١) « كنوز الفاطميين زكي محمد حسن ... »

١١٦٩ م ٥٦٤ هـ : الصليبيون يجددون المحاولة للاستيلاء على مصر :

كانت كل الدلائل تدل على أن الصليبيين قد اعتزموا احتلال مصر ، ولابد أن جنودهم الذين خلفوهم وراءهم في مصر ، وحراس ابواب القاهرة ، لم يكن لهم عمل الا تحقيق هذا الاستيلاء .

ولذلك فقد أعد امليريك (امورى) ملك القدس حملة كبيرة في هذه السنة للاستيلاء على مصر . .

واستطاع ان يجتاز الحدود وأن يقترب من القاهرة دون أن يجد مقاومة من أى نوع كان . .

وعاد شاور الى لعبته القديمة وهى الاستغاثة بنور الدين ، وكان العاصد هو الذى قام بهذه الاستغاثة ، ولكى يزيد في تأثيرها ، فقد أرسل شعور نسائه الى نور الدين مع تعهد بالنزول عن ثلث دخل البلاد المصرية . وعلى أن يقيم اسد الدين شيركوه هو وجيشه في مصر على سبيل الدوام وأن تكون مرتبات هذا الجيش خارج ثلث الخراج الذى خصص لنور الدين .

شاور يحرق مدينة الفسطاط :

وريشما تصل هذه الاستغاثة الى نور الدين ، لم يجد شاور ما يعطل به زحف الصليبيين الا أن يحرق الجسور القائمة على النيل ، ويحرق مدينة الفسطاط حتى لا ينتفع الصليبيون بما فيها من اقوات وارزاق واموال فأمر اهل المدينة باخلائها على عجل ، فحملوا أقصى ما يمكن أن يحملوه من طعام ومتاع ، ثم أشعل شاور النيران في هذه المدينة العظيمة ، وليس أدل على عظمتها من أن النار ظلت مشتعلة بها أربعة وخمسين يوما دون أن تأنى عليها . . ولا تزال آثار هذه الحرائق ظاهرة حتى عصرنا الحديث في الخراب الباقية من الفسطاط (١) .

ويصف المقرئى الناس عندما أمرهم شاور باخلاء المدينة وقد هاجوا وماجوا كأنما خرجوا من قبورهم الى المحشر لا يعبا والد بولده ، ولا يلتفت أخ الى أخيه . اشتد بهم أمر النقلة الى القاهرة ، حتى بلغ كراء الدابة بضعة عشر دينارا ، وكراء الجمل الى ثلاثين دينارا ، ونزلوا بمساجد القاهرة وحماماتها وعلى طرقاتها مطروحين بنسائهم وأطفالهم في انتظار ما سيفعله العدو معهم بعد ان علموا بمسلكه مع بلبيس وأهلها . فرق شاور على المدينة عشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار لاحراقها وخرج العبيد ورجال الأسطول الى منازلها فنهبوا وأمعنوا في طلب الخبايا »

(١) يذكر هذا التفكير العجيب بافدام الروس على حرق مدينة موسكو لتعجيل نابليون من احتلال بلادهم ولكن شتان بين الموقنين .

نور الدين ينجد مصر بشيركوه وصلاح الدين :

أسرع نور الدين الى انجاد مصر ، وبعث جيشا هذه المرة من خاصة حرسه التركمانى وكان عدده يناهز الستة آلاف : وجعل أسد الدين شيركوه قائدا للجيش ، وضم اليه هذه المرة عددا كبيرا من الامراء ، ويجمع المؤرخون نقلا عن صلاح الدين انه كره هذه المرة السير الى مصر ، لولا ان الح عليه عمه وأمره نور الدين بحزم أن يسير مع عمه .

ولم يكد جيش نور الدين يدخل البلاد حتى آثر الصليبيون أن ينسحبوا من مصر بغير قتال . رنزل شيركوه بالمقس خارج القاهرة فى السابع من ربيع الثانى من هذه السنة (٨ يناير) .

مقتل شاور :

استقبل العاضد وامراء الدولة وجماهير الشعب : جيش نور الدين وأسد الدين شيركوه ، استقبال المنقذين بالفرح والترحاب والتهليل والتكبير ، وخلع الخليفة العاضد على شيركوه وأحاطه بكل مظاهر التكريم ، فتخوف شاور من عواقب ذلك على نفسه فراح يتراسل من جديد مع الصليبيين واقترح عليهم أن يكون مجيئهم هذه المرة بحرا عن طريق دمياط .

وتسرب نبا هذه الخيانة الجديدة الى رجال شاور ، فهاجوا عليه وكان أشد المهاجرين ابنه الذى هدده . وانتهى الامر بأن قبض صلاح الدين على شاور عندما جاء لزيارة شيركوه . . وعندما أعلموا الخليفة العاضد بالقبض عليه أرسل يطلب شيركوه برأسه ، وهكذا اسدل الستار على حياة هذا الرجل العاصفة .

أسد الدين شيركوه يصبح وزيرا :

فرح الخليفة العاضد بمقتل شاور ، وأرسل على الفور منشورا لتولية أسد الدين شيركوه الوزارة كان مما جاء فيه :

هذا عهد لم يعهد الى وزير بمثله ، فتقلد ما أراك الله أهلا بحمله وخذ كتاب امير المؤمنين بقوة ، وأسحب ذيل الافتخار بخدمتك بيب النبوة ، والزم حق الامامة تجدد الى الفوز سبيلا ، ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا .

ولقب أسد الدين شيركوه بالملك المنصور :

على أنه لم يمض سوى شهرين فقط على تولى أسد الدين شيركوه الوزارة حتى أدركته المنية ليحقق الله قدره فى بزوغ نجم صلاح الدين ، فقد أوصى أسد الدين شيركوه بالوزارة من بعده الى ابن أخيه صلاح الدين .

وكانت وفاة أسد الدين شيركوه فى يوم السبت ١٢ جمادى الثانى . .

الملك الناصر صلاح الدين يلى وزارة مصر :

أقر العاضد وصية أسد الدين شيركوه فى تولية صلاح الدين الوزارة ، فقد تصور أن فى هذا التعيين فائدة له . ذلك أن صلاح الدين كان أضعف من فى الجيش الشامى من أمراء ، وقدر أن بقية الأمراء ستختلف مع صلاح الدين فىكون هو المرجع ولقد كان هذا ما جعل صلاح الدين نفسه يتخوف من عاقبة توليه الوزارة ، فكره توليها لولا أن العاضد ألح عليه . وهكذا كان صلاح الدين يساق إلى قدره الموعود وهو كاره : فقد كره أن يدخل مصر هذه المرة ، حتى ضغط عليه ، وكبره أن يلى الوزارة حتى ضغط عليه .

ووتقلد يوسف صلاح الدين الوزارة فى العشرين من جمادى الثانى من هذه السنة وألقب بالملك الناصر .

وقد صبح ما توقعه إذ أزور عنه أمراء الجند الذين جاءوا معه من الشام ، بنفاً فى ذلك بعض أفرابه الذين كانوا يرون أنفسهم أكبر سناً وأقدم خدمة وأولى منه بالوزارة .

وبدأت مهارة صلاح الدين تتجلى فى معالجة القلوب ، فقد راح يستميل كل أمير على حدة ، ويحسن فى المعاملة ويتواضع للجميع ، حتى ظفر برضاء الأغلبية من قواد الجند . .

ولكن أقلية رفضت التعاون معه ، فعادت إلى نور الدين ، حيث بدأت تدرس عنده إصلاح الدين .

وكانت الخطبة فى مصر للخليفة العاضد ومن بعده للملك نور الدين ثم للملك الناصر صلاح الدين .

يقول معاصرو صلاح الدين : « وقوى شأنه ، وزادت محبة الناس له . . » .

رجال القصر يتآمرون :

كان صلاح الدين يمثل نور الدين فى مصر ، وكان نور الدين ملكاً سنياً ضد المذهب الشيعى ، ولابد أن طموح صلاح الدين جعله يشرع فى جميع مقاليد السلطة كلها فى يده . ومن هنا فكان الاصطدام بينه وبين القصر الفاطمى لابد واقع . ولكنه من ناحيته سار بحذر ودهاء فلم يتعرض للخليفة أو لشئون القصر ورجاله ، ولكن رجال الخليفة كانوا هم البادئين فى إشعال نار الاصطدام ، فقد بدأ أحد كبار رجال القصر وهو نجاح مقدم جند السودانيين وكان يطلق عليه اسم مؤتمن الخلافة ، شرع يرأس الصليبيين للاستعانة بهم ضد صلاح الدين . ولكن رسول مؤتمن الخلافة إلى أمورى ملك الصليبيين وقع فى يد صلاح الدين فشدد الرقابة على مؤتمن الخلافة ، ولم يلبث أن بعث إليه من اغتاله .

معركة السودانيين :

وكان مقتل مؤتمن الخلافة بمثابة المفجر للاصطدام المحتم ، فتد نار الجنود

السودانيون وكان عددهم يناهز الخمسين ألف جندي ضد صلاح الدين وجنوده من الاتراك والاكراد .

وقامت معركة طلائع في منطقة ما بين القصرين . . أبلى صلاح الدين وأخوه توران شاه بلاء عظيما . وكان الخليفة العاضد يشجع السودانيين . فأصدر صلاح الدين أمره باحراق المكان الذي كان يجلس فيه . . فخاف على نفسه ، وأعلن انكاره لفعل السودانيين . . فكان لهذا الفعل أثره في انخدالهم . واشعلت النيران في حيههم ، فجلا السودانيون عن القاهرة ولاذوا بالصعيد كما فعلوا من قبل .

وهكذا فقد الخليفة العاضد آخر سند كان يستند اليه في مقاومة سلطان صلاح الدين ، الذي أصبح بعد هذا النصر أقوى قوة في البلاد .

١١٦٩ م - ٥٦٥ هـ : الصليبيون وبيزنطة يحاولون غزو مصر :

على أن صلاح الدين لم يكذب يفرغ من هذا الخطر الداخلي حتى كان يجابه خطرا بخارجيا أشد عنفا ، فقد كان الصليبيون قد تحالفوا مع البيزنطيين ليمدوهم بأسطول قوى يفتحون به مصر ، وقد استطاعت هذه القوة الغازية أن تنزل الى أرض مصر عند مدينة دمياط يوم الجمعة ٣ صفر من هذه السنة (أكتوبر) وأن تحاصرها حصارا شديدا وكان صلاح الدين يبعث الى المدينة قبل وصول الحملة وبعد وصولها بالامدادات ، ولكنه ظل مرابطا بنفسه في مدينة القاهرة خوفا من أن يعود السودانيون لاحتلالها . فأرسل يستنجد بنور الدين ويبين له خطورة استيلاء الصليبيين والبيزنطيين على مصر ، ولم يكن نور الدين في حاجة الى من يظهر له هذا الخطر ، ولذلك فقد أسرع لنجدة صلاح الدين بارسال الجنود اليه من ناحية وبالهجوم على حصون الصليبيين في فلسطين من ناحية ثانية .

ووقف العاضد الى جوار صلاح الدين يمدده بالاموال ، مما جعل صلاح الدين يثنى عليه .

وحاربت الطبيعة الجيوش الغازية . . اذ هطلت الامطار تباعا حتى اغرقت معسكر الصليبيين .

واخيرا وبعد حصار دام خمسة وخمسين يوما انسحب الصليبيون والبيزنطيون بعد أن فقدوا ثلثمائة مركب اغرقتها العواصف البحرية ، ويقول ابن الاثير في وصف هذه الحملة أنها كالنعامة خرجت نطلب قرنين بلا اذنين (١) .

صلاح الدين يوطد سلطانه :

كان لنجاح صلاح الدين في دفع الغزو الصليبي عن مصر أعظم أثر في توطيد

(١) انظر سعداوى : التاريخ الحربى المصرى .

سلطانه نهائيا في مصر ، ولذلك فقد ارسل الى نور الدين يطلب منه ان يبعث اليه بأبيه وآل بيته ، ولم يتردد نور الدين في ارسالهم اليه بعد ان شرط عليهم طاعته والقيام في أمره ومساعدته ، فوصلوا في جمادى الاولى من هذه السنة ، فازداد صلاح الدين بهم قوة ، وأسند اليهم المناصب الهامة ، واقطع أخوته الأراضى ، وجعل أباه قيما على بيت المال .

٥٦٦ هـ - انشاء مدرسة شافعية في الفسطاط :

وكان أول مظهر لشعور صلاح الدين بسلطانه في مصر ان اقدم في هذه السنة على انشاء مدرسته الناصرية في مدينة الفسطاط لتدريس المذهب الشافعى تمهيدا بذلك لتقويض المذهب الشيعى .

١١٧٢ م - ٥٦٧ هـ - قطع الخطبة عن العاضد ووفاته :

كتب نور الدين في أول هذه السنة الهجرية الى صلاح الدين يأمره بقطع الخطبة من العاضد وبنى عبيد وان يخطب لبنى العباس .

وهنا يتجلى حرص صلاح الدين فقد خشى ان تكون هذه الخطوة سابقة لاوانها وان تؤايب عليه المصريين وتثير فتنة ، فكتب الى نور الدين يلح في ارجاء الاقدام على هذه الخطوة ، واحس نور الدين في هذا التصرف من جانب صلاح الدين ببذور الرغبة في الاستقلال ، ولذلك فقد اشتد عليه القول والزمه بوجوب تنفيذ أمره .

وحدث ان مرض العاضد فجمع صلاح الدين الامراء والكبراء واستشارهم في امر قطع الخطبة عن العاضد والدعاء لبنى العباس . فمنهم من وافق ومنهم من عارض فأعاد صلاح الدين الكتابة الى نور الدين ، الذى عاد اسد حزما والزاما ، بحيث لم يبق امام صلاح الدين الا ان ينفذ الامر او يصبح متمردا على سيده ، واذا كان صلاح الدين لم يزل يتردد في تحديد موقفه من نور الدين ، فقد انصاع الى تنفيذ الامر ، وخطب لبنى العباس في أول المحرم .

واخفى اهل العاضد النبأ عنه ، وقيل ان النبأ بلغه وارسل العاضد الى صلاح الدين ليوصيه فخاف صلاح الدين ان يكون في الامر خدعة وامر يدبر له ، فلم يلب النداء .

ولكن العاضد لم يلبث ان مات بالفعل في يوم الاثنين العاشر من المحرم .

وقد حزن عليه كل من كان في مصر من الشيعة ، فقد كانوا يدركون ان المذهب الشيعى قد قضى عليه بوفاته وكذلك الحكم الفاطمى من اسنائه .

وكانت سن العاضد عند موته احدى وعشرين سنة حكم منها عشر سنوات ونيفا .

انتهاء الدولة الفاطمية :

ويموت العاضد انتهت الدولة الفاطمية التي حكمت مصر مائتين وثمانى سنوات ولكن مدة الحكم الفاطمى فى مجموعه تناهز ٢٨٠ سنة .

ويشيع المؤرخون من أهل السنة الدولة الفاطمية فرحين مهلين ، وهم يصمونها بأسوأ الوصمات ، فيقول ابن كثير :

انهم كانوا أجبر الحلفاء واطلمهم ، وانجس الملوك سيرة واخبثهم سريرة ظهرت فى دولتهم البدع والمنكرات ، وكثر أهل الفساد ، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد ، وكثر بآرض الشام النصرانية والدرزية والحشيشية وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله ، حتى أخذوا القدس ، ونابلس وعجلون والنور وبلاد غزة وعسقلان والكرك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد وطرابلس وانطاكية » .

واما أن الحكام فى العصر الفاطمى الاخير يتحملون مسئؤليتهم عن انتصار الصليبيين فى أيامهم والاستيلاء على ما استولوا عليه من بلاد العرب والمسلمين ، فمسئولية لا يستطيع أى انسان ايا كان مذهبه وفكره أن يحلهم منها . ولعل ذلك ما يفسر البغض الذى اعتاد المؤرخون فى العهد الثانى أن يظهروه نحو الفاطميين ، ولكن من التجنى أن يخص الفاطميين بالمسئولة عن الهزيمة فى الحروب الصليبية . فقد كان الشام فى هذه الفترة قد أصبح فى حكم السلاجقة الذين كانوا يقفون للفاطميين بالمرصاد ، ولقد كان السلاجقة هم الذين احدثوا الظروف التى أدت الى الحروب الصليبية .

حتى اذا بدأت الفارة . كان الخلاف قد دب بينهم الى الحد الذى أدى الى ما حدث .

اما ما وصف به ابن كثير احوال مصر والشام فى عهد الفاطميين من حيث الفساد وانتشار البدع والفتن . . الى آخر ما قاله . . فقد كانت الاحوال فى بغداد والعراق أشد سوءا .

عناية الفاطميين بالعلم والفن :

وأيا ما يقال عن العهد الفاطمى فى مصر ، فانه يتسم بثلاث سمات لا يجدها أكثر الناس تعصبا ضد الفاطميين .

فأما السمة الأولى فهي عناية الفاطميين الكبيرة بالعام طوال عهدهم . فهذا ابن كثير نفسه الذى يقول فى الفاطميين ما يقول : ووجد للفاطميين خزانة كتب ليس لها فى مدائن الاسلام نظير ، نستعمل على ألف مجلد .

ونحن من ناحيتنا نرى فى هذا الرقم مبالغة ، وربما كان أدق منه ما قاله الصماد الكاتب من أن عدد الكتب كان مائة وعشرين ألف مجلد . وقد تجمع هذا العدد بعد فناء المكتبة الأولى الكبير فى حكم المستنصر أيام الشدة العظمى .

الاحتفالات والمهرجانات الشعبية :

وئمة طابع تان للحياة الفاطمية ، وهو كثرة الاحتفالات الدينية والمهرجانات الشعبية : وربما كانت هذه الاحتفالات بعض ما يأخذه البعض على الفاطميين ويعتبرونه من نوع البدع والمنكرات . .

ولكن الذى لا شك فيه أن هذه الاحتفالات والمهرجانات كانت فرصة للشعب لا ليفرح ويلهو ويتسلل فحسب ، بل ولينال الكثير من بر الخليفة والأمراء مما كانوا يفيضونه على الشعب فى هذه المناسبات .

فقد كانت الموائد « الاسمطة » تمتد على أوسع نطاق . وكانت هذه الاحتفالات تقام فى أبهة عظيمة ويشترك فيها الخليفة بموكبه ، وكانت تقام فى عيد الفطر وعيد الاضحى ورأس السنة الهجرية ومولد النبى صاوات الله عليه ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد ولد به الحسن والحسين ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء ، ويوم عاشوراء وذلك الى مواسم أخرى كليلة أول رجب ، وليلة نصفه وليلة أول شعبان ونصفه ، وكانت هذه الليلة الأخيرة تعرف باسم لبالى الوقوف ، وكانت تضاء فيها جميع المساجد بعد غروب الشمس وتبدو القاهرة فى حلل بديعة من الانوار ، ويخرج الناس الى الأزهر الذى تضاء جوانبه بالمشاعل ويعقد فى صحنه مجالس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة .

وكان شهر رمضان من أهم المواسم الدينية التى عنى الفاطميون باحيائها ، فيحتفل بأول رمضان بخروج الخليفة فى موكبه الرائع وكذلك فى الجمع الثلاث الأخيرة الى جوامع الحاكم بأمر الله والأزهر وعمرو بن العاص .

ولقد أشرنا من قبل الى الاحتفال بوفاء النيل .
وفى كل هذه الاحتفالات كان الخليفة الفاطمى :

— يوزع الكساوى والنقود على المقربين والمحناجين .

— ويمد اسمطة ضخمة يبلغ طولها ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع وتقدم فيها كل صنوف الفطائر والحلوى الشهية وتفتح أبواب القصر على مصاريحها ليهرع الناس من جميع الطبقات الى السماط الخليفى .

— وكان الخليفة يوزع طرال سير موكبه نقودا على الطريق الذى كان يجتازده .

زهار الاقتصادى :

وباستثناء السنوات التى كان النيل فيها يقصر عن بلوغ الغاية من الفيضان
وات متسالية ، فان المؤرخين يجمعون على ان مصر كانت فى حالة ازدهار اقتصادى
سنة اكل ما حولها من البلاد .

وقد اعتنى الفاطميون بالزراعة فى مصر باعتبارها اهم مصادر الروه ، كما فعل
الملوك المصالحين من قبلهم .

ولا تزال قناطر ابو المنجا ارثا خالدا لهذا الخليج الذى اشرف على حفره ابو المنجا
لى دبوان جهات الدلتا فى عهد وزارة الافضل بدر الجمالى ، حيث كان الخليج
رج من النيل ليروى الاراضى الواقعة شرق فرع دمياط .

وقد انفرد الفاطميون بمعاملة الفلاحين معاملة تنطوى على الرعاية فلم ينزعوا
ال مدة حكمهم ارضا من اصحابها .

كما ازدهرت فى ايامهم مرة اخرى الصناعات التى اشتهرت بها مصر من اقدم
صور وهى صناعة النسيج بأنواعه الكتانية والصوفية والحريرية وتفوقت صناعة
ججاج والخزف . ولا تزال المشكاة الزجاجية المصنوعة فى مصر من ذلك العهد اعظم
حرف التى تعتز بها متاحف الدنيا كلها .

وبلغ من انتشار صناعة الخزف أن البقالين كانوا يضعون ما يبيعونه فى اوان من
خزف بدلا من الورق .

واتسع شأن التجارة الخارجية فى عهد الفاطميين مع البلاد الآسيوية والأوروبية
قامت بين مصر والمدن الايطالية وبخاصة جنوة والبندقية علاقات تجارية .

وعلى الرغم من المنازعات العسكرية والسياسية بين مصر وبيزنطة فان العلاقات
تجارية بينهما لم تنقطع فكان البيزنطيون يستوردون المنسوجات المصرية من مصانع
بيس ودمياط .

على أن عظمة الحركة التجارية التى بلغتها مصر مع الأوروبيين فى هذه الفترة
تتجلى فى أمر مثل تجليها فى سماح الحكومة الفاطمية للأوربيين بإنشاء الفنادق
لخاصة بهم ، فكان لكل جالية اجنبية فى الاسكندرية فندق يقيم فيه التجار ويحفظون
ضائعهم .

كما اقيمت للتجار القادمين من العراق والشام الوكالات التى لا تزال آثارها
نائمة حتى الآن .

وذلك بالاضافة الى الابنية التى اطلق عليها اسم القياسر جمع قيسارية وهى
مجموعة من المباني العامة وبها حوانيت . . ومصانع ومخازن ومساكن .

الفصل الثالث عشر

النوالة الأيوبية

١١٧٢ م - ٥٦٧ هـ : عودة الخلافة العباسية الاسمية الى مصر :

انتهت الدولة الفاطمية بوفاة العاضد رسميا وعمليا ، اذ أعيدت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بالله الذي بعث الى صلاح الدين بخاتمة الوزارة ، باعتباره أحد اتباع السلطان نور الدين .

وقد استولى صلاح الدين على قصر الخليفة الفاطمي ، ومرة أخرى تتهيا الفرصة للمؤرخين ليحدثونا عن كنوز الفاطميين ، والتي ظل يبيع فيها عشر سنوات كاملة ، بعد أن أرسل جزءا كبيرا منها الى متبوعه السلطان نور الدين ، وأرسل جزءا آخر الى الخليفة العباسي ، ثم وزع الجزء الأكبر على الأمراء والجنود والأتباع غير مبق لنفسه منها شيئا . وقد ظل هذا دأب صلاح الدين طوال حياته : أن يوزع كل ما يصل الى يديه على أمرائه وجنوده ورعاياه غير مستبق لنفسه شيئا .

الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين :

وقد تحدث ابن الأثير المؤرخ المعاصر والشديد التعلق بنور الدين عن قيام وحشة في هذه الفترة بين السلطان نور الدين وصلاح الدين ، ولا يرضى المرحوم جمال الدين الشيبان عن هذا القول ، ويعزوه الى كراهية ابن الأثير لصلاح الدين ، ويروح يفند الأدلة التي ساقها ابن الأثير على قيام هذه الوحشة .

وعندنا أن قيام الوحشة - أو فلنسماها البرود في العلاقات - بين صلاح الدين والسلطان نور الدين في هذه المرحلة هي أمر طبيعي جدا . فلقد علا تلجم صلاح الدين واصبحت كل تصرفاته تتجه نحو توطيد سلطانه الشخصي في مصر وتأكيد استقلاله ، وغنى عن البيان أن السلطان نور الدين لا يمكن أن يكون سعيدا بذلك وعندنا أنه لم يحل دون اصطدام الرجلين ، الا فرط حذر كل منهما من أن ينتفع العدو المشترك بأي خلاف يقع بينهما ، ولذلك فقد دارى كل من الرجلين الآخر ما وسعه الجهد ، فاكتفى نور الدين من صلاح الدين بمظاهر الخضوع الشكلي الذي كان يبديه له صلاح الدين ، واعتذاراته عن الاجراءات التي لم تعجب نور الدين . كما أن صلاح الدين من ناحيته لم ير سببا يدعو له خصمة نور الدين سيده القديم وسلطانه ، ما دام أنه مطلق التصرف بالفعل في مصر يعمل فيها كل ما يريد في توطيد سلطانه .

١١٧٣ م - ٥٦٨ هـ - توران شاه أخو صلاح الدين يفتح النوبة :

تجمع السـودانيون الذين فروا من مصر بعد ثورة مؤتمن الخلافة في جنوب الصعيد وزحفوا شمالا ، لاستعادة سلطانهم ، والانتقام لأنفسهم من صلاح الدين وإعادة الدولة الفاطمية ، فعهد صلاح الدين الى أخيه شمس الدولة توران شاه بمحاربتهم وجهزه بجيش كبير ، وزحف به على بلاد النوبة نفسها وفتح قلعة بريم بعد ثلاثة أيام من حصاره لها وغنم جميع ما كان فيها . وبهذا الانتصار امن صلاح الدين حدوده الجنوبية بعد تأمينه حدوده الشمالية .

على ان توران شاه قدم تفريرا لصلاح الدين عن بلاد النوبة يحيطه بفقر هذه المنطقة وانها لا تستحق كبير عناء .

موت نجم الدين أيوب :

وفي هذه السنة مات نجم الدين أيوب والد صلاح الدين واكبر أمراء السلطان نور الدين وصاحب الحظوة لديه .

وقد ذكر مؤرخو صلاح الدين أنه عرض على أبيه عندما وفد عليه في مصر ان ينزل له عن سلطان مصر ، فقال له أبوه :

انت أولى .

ولقد مات نجم الدين أيوب أثناء اشتغال صلاح الدين بالحملة التي شنّها على حصن الكرك الصليبي المنيع ، فحزن صلاح الدين لوفاة أبيه وعدم تمكنه من حضور جنازته .

وقد حاول بعض المؤرخين أن يردوا نسب نجم الدين أيوب الى العرب وليس الاكراد ، ولكن صلاح الدين انكر هذا القول عندما ذكر أمامه .

١١٧٤ م - ٥٦٩ هـ : فتح بلاد اليمن :

كان اليمنيون شيعة على مذهب الفاطميين ، ولم يكفوا عن محاولتهم لاعادة ملك الفاطميين ، وخشى صلاح ان يهاجموا مصر من الجنوب بمساعدة النوبيين ، فاستأذن السلطان نور الدين في أن يبعث بجيوشه الى اليمن للاستيلاء عليها فأذن له : وهو ما يدحض قول القائلين بأن صلاح الدين فكر في الاستيلاء على اليمن لتكون ملجأ له اذا فكر نور الدين في عزله عن مصر ومرة أخرى استعان صلاح الدين بأخيه الكبير توران شاه ليقوم بهذا العمل ، فكرر نجاحه في بلاد النوبة اذ فتح مدينة زبيد حيث كان يقيم بها عبد النبي بن مهدي رجل الفاطميين وحاكم اليمن وان يفتح صنعاء وبقية مدن اليمن في اقصر مدة .

وأن يعيد الخطبة على المنابر للخليفة العباسي المستضيء . وهكذا أقام الحكم الأيوبي في اليمن وقد دام أكثر من خمسين سنة .

اخفاق المؤامرة الكبرى ضد صلاح الدين :

انتهزت العناصر التي خسرت بزوال الدولة الفاطمية ، فرصة الشغال الجزء الأكبر من قوات صلاح الدين في اليمن ، لكي تقوم بحركة لانتهاء حكم صلاح الدين . بل لقد قيل ان مشروع فتح اليمن كان من تخطيط وتدبير رؤساء هذه الحركة ، اذ كانوا الذين خوفوا صلاح الدين مما يجرى في اليمن ، وأوعزوا اليه وحرصوه على ارسال هذه الحملة اليه ، لكي يخلو لهم الجو في مصر ويضربوا ضربتهم .

واتصل المتآمرون بالصلبيين في بيت المقدس والافرنج في صقلية لكي يزحفوا على مصر بجيوشهم وأساطيلهم في الوقت الذي يقومون فيه بثورتهم ، كما اتصلوا من ناحية أخرى بالاسماعيلية الحشيتية في الشام ، ليشتركوا بفدائيتهم في الحركة للقضاء على صلاح الدين .

ولعب القدر دوره لانقاذ صلاح الدين من هذه المؤامرة المحكمة فتسرب خبرها قبل الشروع فيها اليه ، فقبض على قادة المؤامرة وكان رئيسهم الشاعر عمارة اليمنى ، واستفتى العلماء فيما يكون عليه جزاؤهم فأفتوه بالقتل فقتلهم . وهكذا قضى على القسم الداخلي من المؤامرة .

وعندما وصل الى علم الصليبيين في بيت المقدس ، نبأ القبض على المتآمرين وفشل المؤامرة ، توقفوا عن القيام بدورهم في الخطة .

وليس سوى افرنج صقلية الذين لم يسمعوا بما حدث وقاموا بدورهم المرسوم في الخطة فوصلوا الى الاسكندرية في شهر يوليو من هذه السنة في أسطول ضخم ، ونزلوا بالفعل على البر خارج أسوار الاسكندرية وشرعوا يهاجمونها ، ولكن الاسكندرية وقفت في وجههم وردتهم عن الأسوار مدحورين ، وانتظر الأفرنج اندلاع الثورة الموعودة أو مقدم صليبي بيت المقدس ، فلم يتحقق شيء من ذلك ووصلت الأنباء بأن صلاح الدين في طريقه الى الاسكندرية على رأس جيش عظيم ، فارتفعت معنوية المحاصرين داخل الأسوار في الوقت الذي ضعفت فيه معنوية الأفرنج فأثروا الانسحاب الى سفنهم بعد أن تكبدوا خسائر فادحة في الرجال والعتاد والسفن ، وهكذا نجا صلاح الدين من أعظم خطر تعرض له في مطلع حكمه الجديد كسلطان لمصر .

وفاة السلطان نور الدين زنكي :

في يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من هذه السنة ، توفي السلطان العادل نور الدين زنكي عن ثمانية وخمسين عاما .

ونمتلىء صفحات التاريخ بالحديث عن عظمة السلطان نور الدين وفضائله ،
ونقواه . وشجاعته ، وكرمه ، بحيت يقول أبو الفدا المؤرخ : ان كتابه المختصر
لا يحتمل ذكر فضائله ، وهذا الكتاب المختصر الذى لا يتسع لذكر فضائل نور الدين
مؤلف من ألف صفحة .

أما ابن الأثير الذى كان مخلصا ومحبا للبيت الزنكى فهو يقول لنا :

انه لم يكن بعد عمر بن عبد العزيز مل الملك نور الدين تحرييا للعدل والانصاف
نم يخصص صفحات كثيره لذكر وقائع عن عدله وأخرى عن زهده ، وشجاعته وعلمه ،
ومبانيه ، وأهمها المارسنان ، الذى بدمشق وليس له فى البلاد نظير ومن شرطه أنه
وقف على الفقراء والمساكين ، ولا يمنع عنه الأغنياء اذا عز وجود الأدوية الا فيه .

وأبو المحاسن الذى ألف كتابه فى أسنى عشر مجلدا يقول : ان المجال يضيق من
ذكر فضائله وهى أشهر من ان تذكر .

وقد رأينا أن نختار مما يروى عنه بعض ما يذكرنا بعمر بن الخطاب فليس الا هو
فى كل تاريخ الاسلام من كان ينصرف بهذا الأسلوب وحسب نور الدين أن يقرن
اسمه الى عمر بن الخطاب .

فقد كان نور الدين على ما أثبتته أمين باشا سامى لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف
الا من خالص ملكه الذى اشتراه من سهمه من الغنيمة ، فشكت زوجته ذات مرة
من الضائقة فأعطها ثلاثة دكاكين فى حمص كانت له وكانت تدر عشرين دينارا فى
السنة ، فلما استقلتها زوجته قال لها : ليس الا هذا ، وجميع ما فى يدي أنا فيه
خازن المسلمين ، ولا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك .

وهكذا تلالا هذا الحكم من جديد فى سماء الاسلام ليعيد اليه بهاءه ومجده
الروحى ، وليس صلاح الدين فى الحق الواقع الا نبت من قرس نور الدين ، واستمرار
لعمله ومنهجه .

وقد أكرم الله المسلمين للأمر الذى يريده ، فجعل وفاة نور الدين فى نفس السنة
التي يكاد المؤرخون يجمعون على أنه كان قد قرر فيها أن يدخل مصر ، وهو لو قد
فعل لاصطدم حتما مع صلاح الدين وربما تغير التاريخ الذى نعرف .

١١٧٥ م - ٥٦٠ هـ : صلاح الدين يستولى على دمشق :

بموت نور الدين انهار آخر السدود والقيود التى كانت تحول بين صلاح الدين
وبين تدفق نشاطه نحو الشمال . . نحو بلاد الشام .

وكان امراء البيت النورى قد ولوا عقب وفاة نور الدين ، ابنته الملك الصالح

وكان صبيا صغيرا لا قدرة له على مباشرة الحكم . فأصبح العوبة في يد من جوله من الأفارب والقواد .

فأسرع صلاح الدين وأعلن أنه أحق الجميع أن يكون وصيا على الملك الصغير وأن يكون مدبر أمور مملكته المسئول عن رعايته وحمايته وتربيته معا . فلما أن نقل الأمراء الملك الصغير الى حاب ليكون تحت سلطانهم ، انتهز صلاح الدين هذه الفرصة لكي يزحف على الشام فدخل دمشق في أمن وسلام في ربيع الثاني من هذه السنة بعد أن سلمها اليه نائبها شمس الدين بن مقدم واستولى على قلعتها ، فاجتمع اليه الناس فرحين مستبشرين ، فأحسن اليهم ، ورفع عنهم الضرائب والمكوس التي قررت عليهم بعد وفاة نور الدين .

ومن دمشق توجه قاصدا مدينة حلب فاستولى في أثناء سيره اليها على مدينة حمص « دون قلعتها » وكان ذلك في جمادى الأول .

ثم تسلم مدينة حماة من صاحبها عز الدين بن جبريل ، وطلب منه صلاح الدين أن يكون له سفيرا لدى الحلبيين . ولكن الحلبيين رفضوا التفاهم مع صلاح الدين وأبوا إلا أن يحاربوه ، فزحف عليها في آخر جمادى الثانية .

وانزعج الأمراء النوريون من صلاح الدين فحشدوا جيوشهم لمقاومته فأرسل سيف الدين غازي صاحب الموصل جيشا الى ابن عمه الملك الصالح واتجهوا صوب صلاح الدين للاصطدام به ، ومرة أخرى حاول صلاح الدين أن يتفادى الحرب والقتال وطلب أن يفاوضوه فرفضوا وأصرروا على القتال رغبة منهم في أن يخلصوا منه نهائيا .

ودارت رحى القتال عند قرون حماة في التاسع عشر من رمضان ، فدارت الدائرة على جيش الحلبيين والموصلين وانتصر صلاح الدين ولكنه لم يشأ أن يتعقب الفارين وطلب التصالح فأجيب اليه هذه المرة ، على أساس أن يترك حلب وما حولها للملك الصالح اسماعيل ، على أن تكون المنطقة جنوب حلب ملكا لصلاح الدين فأصبحت المعرة وكفر طاب ، وماردين فضلا عن حماة وحمص ودمشق وأعمالها في سلطان صلاح الدين .

الخلافة العباسي يولى صلاح الدين مصر والشام :

وأسرع الخليفة العباسي باقرار صلاح الدين سلطانا على مصر والشام فبعث اليه بالتقليد والتشريفات المعتادة والخلع والأعلام السود .

١١٧٦ م - ٥٧٢ هـ : عودة صلاح الدين لحصار حلب :

لم يكن رضاه أمراء البيت النوري بالاتفاق السابق الا رضاه مؤقتا ريثما يعدوا أمرهم للتخلص من صلاح الدين ، فدخلوا في مراسلات مع الصليبيين في بيت المقدس

ليكونوا عوناً لهم على صلاح الدين كما اتصلوا بالاسماعيليين ودبروا معهم اغتيال صلاح الدين .

فلما ترامى ذلك الى علم صلاح الدين عاد بجيشه الى الشام للاستيلاء على حلب ، وبدأ لضعاف المدينة يستولى على الحصون والقلاع المحيطة بها . وفي هذه الفترة قام الاسماعيلية بتنفيذ مؤامرتهم فانتفض بعض فدائييهم على صلاح الدين لقتله ، وكان من الممكن أن يصرع صلاح الدين في هذا الحادث لولا أن حمته اندرع التي كان يلبسها ، فلم يصب الا بخدش . . وقتل الفدائيون . ولم يتحرك الصليبيون لانجاد حلفائهم فسعى الحلبيون للصلح مع صلاح الدين عن تجديد الصلح السابق وهو أن تظل حلب وأعمالها بيد الملك الصالح اسماعيل وما عدا ذلك من بلاد الشام ومصر فتظل بيد صلاح الدين . واستجاب صلاح الدين للصلح توفيراً للجهود .

واستناب على دمشق والشام أخاه توران شاه الذي كان قد عاد من اليمن بعد انتصاره بها .

صلاح الدين يتزوج أرملة نور الدين :

رأى صلاح الدين أن يتقرب الى أسرة نور الدين ، وأن يزيد في مكانته الأدبية فتزوج أرملة السلطان نور الدين السيدة خاتون عصمة الدين .

صلاح الدين يقتص من الحشاشين :

وقبل أن يعود صلاح الدين الى مصر، رأى أن ينتزع من جنبه شوكة الاسماعيلية وأن يقتص منهم لمحاولتهم المتكررة قتله . فأتجه بجيشه الى حصونهم وقلاعهم ، فهدم الكثير من هذه القلاع وقتل الكثيرين منهم ، حتى أوشك أن يجهز عليهم لولا أن وسط الاسماعيليون خال صلاح الدين الأمير شهاب الدين فشجع لهم وتعهد عنهم بحسن السير والسلوك .

انشاءات صلاح الدين الكبرى في مصر :

عاد صلاح الدين الى القاهرة بعد أن استتب سلطانه على سوريا . وبدأ يضع الخطط لتحقيق حلمه الكبير وهو اجلاء الصليبيين عن الشرق . وادرك أن ذلك لن يتحقق الا بقوة القاعدة لهذا الجهاد وهي مصر ، ولا قوة للقاعدة الا باحكام شئونها العسكرية والاقتصادية ، وهو ما أخذ صلاح الدين على نفسه تحقيقه في مصر ،

سور القاهرة :

كان من أهم ما عنى به صلاح الدين منذ وطأت أقدامه أرض مصر ، أن يحيط القاهرة الفاطمية والفسطاط القديمة بسور واحد حصين فعهد ببنائه الى رجله الأكبر بهاء الدين قراقوش الخصى فترع في هذا العمل منذ عام ٥٦٦ هـ . فلما رجع صلاح الدين من الشام هذه المرة استحثه لاتمام هذا العمل ففرغ منه في هذه السنة ، وكان السور مبنيا كله من الحجارة . وكان شماله يبدأ عند قلعة المقس المطلة على النيل ، ويظل يطوف بالقاهرة والفسطاط حتى ينتهى عند النيل ايضا جنوب الفسطاط ويقول المؤرخون ان محيط السور كان ٢٩٣٠٢ ذراع .

قلعة الجبل :

ومن ناحية أخرى رأى صلاح الدين على ضوء تجاربه في الشام والموصل أن يزود القاهرة بقلعة تكون سكنا للحكام ، وملجأ للشعب في ساعة الضرورة وتقوم بالدفاع عن العاصمة ضد الغزو الأجنبي كما هو الشأن في قلاع حلب ودمشق والموصل .

فأصدر أمره بالشروع في انشاء قلعة الجبل في موقعها الحالي فوق جبل المقطم وقد كان يوجد محلها ما أطلق عليه قبة الهواء . وجعلت تصمد أسوارها أمام القذائف المعروفة في ذلك الوقت بحيث يقوى الموجودين فيها على مقاومة الحصار .

ولما كان الماء هو أهم ما يحتاجه المحاصرون فقد حفر في أساس القلعة بئرا لإمدادها بالماء ، ولا يزال هذا البئر موجودا حتى الآن ويسميه العامة بئر سيدنا يوسف ، وهو في حقيقته بئر يوسف صلاح الدين .

الاهتمام بالاسكندرية ودمياط والأسطول :

وسارع صلاح الدين الى مدينة الاسكندرية ودمياط ، يقوى دفاعهما ويرمم أسوارهما وقلعتهما ويحشد فيهما الجنود .

ولما كان الأسطول المصري قد تهدم وضرب ، فقد نفخ فيه الحياة من جديد ، وانشأ ديوانا اسمه ديوان الأسطول ووضع تحت يد القائم على الديوان كل الامكانيات اللازمة لاعادة انشاء الأسطول . واعداده للغزو والقتال .

الاصلاحات المدنية - المدرسة الناصرية :

في الوقت الذي كانت المهمة تبذل لتقوية دفاع مصر وجيشها وأسطولها كان

العمل كذلك يجرى على قدم وساق على إعادة البلاد الى المذهب السننى. ولما كانت العقائد لا تغير بالمراسيم والقوانين وانما بالعلم والافناع فقد قرر صلاح الدين اقامة مدرسة جديدة ضخمة لتدريس المذهب الشافعى الذى كان صلاح الدين يدين به ، وقد سميت بالمدرسة الناصرية . ورتب صلاح الدين للمدرسة شيخا لتدريس الفقه وجعل فيها مساعدين للاسناد الكبير وعددا من طلبة العلم يتوفرون على تحصيله ورتب للجميع الرواتب الشهرية وأوقف على المدرسة الاوقاف الكثيرة للانفاق عليها .

ويقول المؤرخون انه بانشاء هذه المدرسة حدث تطور جديد فى نظام التعاليم ، فالى ما قبل هذه المدرسة كان التعليم يجرى فى المساجد ، أما اقامة المدارس خديعما لتدريس الفقه والعلوم الشرعية ، فنظام بدأ على يد صلاح الدين .

وهذا القول يخالف الواقع فقد مر بنا أن الحاكم قد انشأ دار الحكمة التى كانت جامعة بكل ما تعنيه هذه الكلمة من جامعة فى عصرنا الحديث بحيث لم يقنصر التدريس فيها على العلوم الفقهية والدينية بعامة وانما تناول الى جوار ذلك علوم الطب والفلك والرياضيات .

البيمارستان :

وامر صلاح الدين باتخاذ دار فى القصر الفاطمى لتكون بيمارستانا (١) للمرضى أى مستشفى .

العناية بالرى والزراعة :

ولم يكن اهتمام صلاح الدين بتحسين احوال البلاد من حيث الرى والزراعة بأقل من اهتمامه بالمناسط الأخرى ، فعهد الى رجل الدولة الأول القاضى الفاضل والعلماء والكتاب بالاشراف على تطهير الترع القديمة وتقوية الجسور وانشاء القناطر واصلاح النظام الضرابى بما ينسجم الفلاحين على العمل والانتاج .

حتى اذا تصور صلاح الدين انه أحسن تنظيم الأمور . . بدأ يخطو نحو هدفه الأعظم وهو محاربة الصليبيين والقضاء عليهم . .

١١٧٧ م - ٥٧٣ هـ : اصطدام صلاح الدين بالصليبيين وهزيمته فى قرملة :

خرج صلاح الدين بجيش مصر قاصدا الساحل الصايى وكان كله بيد الصليبيين ، وبدأ حربه بمدينة عسقلان فحارب وانتصر وتفرق أفراد الجيش من حوله يجمعون الأسلاب والغنائم ، فانتهر الصليبيون هذه الفرصة وانقضوا بهم

(١) كلمة فارسية مؤلفة من : بيمار ومعناها مريض ، سان ومعناها مكان .

على صلاح الدين وكان مع قلة من الرجال ، فأوشكوا أن يقضوا عليه ومن معه ولم ينج منهم الا بأعجوبة ، تم انقضوا على أفراد الجيش المبعثرين فكادوا أن يفتنوههم .

وكانت هذه اقصى هزيمة لقيها صلاح الدين في حياته كلها .

يقول ابن الأثير انه طالع ك نابا بخط صلاح الدين يقول فيه لأخيه توران شاه أمير دمشق يصف له هذه الواقعة بقوله :

« لقد اشرقنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الا الله لأمر يربده سبحانه وتعالى » .

١١٧٩ م - ٥٧٥ هـ : صلاح الدين يسترد قوته ويهزم الصليبيين :

على ان صلاح الدين لم يستكن للهزيمة، بل سرعان ما استعاد فونه ونظم صفوفه، وقصد الى بلاد الشام واتخذ من دمشق قاعدة قرب الصليبيين الذين طمعوا فيه فزحفوا اليه بجموعهم حول حصن قوى أطلقوا عليه اسم « مخاضة الأحزان » ولقيهم صلاح الدين بجيشه في مرج عيون ، فانتصر عليهم انتصارا حاسما وأسر عددا كبيرا من أمرائهم وقادة جندهم ، ثم فتح حصن الاحزان نفسه وأسر كل من كان فيه من المقاتلين ، ثم حرقه وعفى على آثاره وهكذا استعاد صلاح الدين هيئته، ومسح آثار هزيمة الرملة .

ومضى يعد لخطوته الثانية ، ولكن كان عليه قبل ذلك أن يعود الى مصر ليكمل استعداده للمرحلة الثانية .

١١٨١ م - ٥٧٧ هـ : صلاح الدين في الاسكندرية :

نرى صلاح الدين في هذه السنة وقد عاد الى مدينتي دمياط والاسكندرية ليشراف على ما تم انجازه من تحصين أسوارهما ، ومدى ما بلغه الأسطول من قوة وفاعلية ، فقد كان صلاح الدين يدرك أنه لا يكاد يصطدم بالصليبيين على أوسع نطاق ، حتى تكون الاسكندرية ودمياط هدفا للأعدوان .

صلاح الدين يتأق في دروسا في الفقه :

وبنتهز صلاح الدين فرصة اقامته في مدينة الاسكندرية ، لكي يستزيد من العلم في الفقه فيقول لنا العماد الكاتب الذي كان مصاحبا لصلاح الدين :

ونوجه السلطان بعد شهر رمضان (٥٧٧ هـ) الى الاسكندرية عن طريق البحيرة ، وخيم عند السواري ، وشاهد الأسوار التي جددتها والعمارات التي مهدها ، وأمر بالاهتمام والاتمام ثم قال لنا :

نفتنم حياة الشيخ الامام ابى طاهر بن عوف ، فحضرنا عنده وسمعنا عليه موطأ مالك رضى الله عنه - بروايته عن الطرطوشى - فى العشر الأخيرة من شوال ، وتم له ولأولاده ولنا به السمع » .

ولا تفوت هذه المناسبة القاضى الفاضل ، فبعث الى صلاح الدين مهنئاً بهذا العمل الجليل .

وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين :

وفى هذه الأثناء كان الملك الصالح بن نور الدين قد مات ، فانفتحت بموته المنافسة على ملك حلب بين امراء الأسرة النورية وبعضهم من ناحية ، وبينهم وبين صلاح الدين من ناحية أخرى .

وكان الامر قد استقر بين اسرة نور الدين أن يكون حكم الموصل والجزيرة بيد الأمير عز الدين مسعود وان تعطى حلب لعماد الدين .

ورأى صلاح الدين أن يضع حدا لهذا الصراع على السلطة لما فيه من ضرر على القضية العامة ، فقرر الاستيلاء على حلب والموصل .

١١٨٣ م - ٥٧٩ هـ : استيلاء صلاح الدين على حلب والموصل :

توجه صلاح الدين من دمشق الى مدينة الموصل ، واذا كانت المدينة من أحصن المدن ، فقد رأى أن يبدأ بالاستيلاء على القلاع المحيطة بها لضعفها فاستولى على سنجار وآمد وتل خالد وعينتاب ثم استولى على مدينة حلب بالاتفاق مع صاحبها عماد الدين زنكى فى مقابل أن يعطيه سنجار ويكون تابعاً له فيها . ومضى فى قتاله ولكنه لم يستطيع الاستيلاء على مدينة الموصل هذه المرة .

اسطول صليبي يحاول غزو الحجاز :

استغل البرنس الرناط صاحب حصن الكرك فرصة انشغال صلاح الدين بهصار مدينة الموصل لكى يضرب المسلمين ضربة لم يفكر فيها صليبي من قبل وهى الاستيلاء على مكة والمدينة وتخريب قبر الرسول .

ونجح القسم الأول من خطته التى وضعها لتحقيق هذا الهدف ، اذا استولى على مدينة ايلة (١) على خليج العقبة ، ومنها ارسل اسطوله الذى أعده لهذا الغرض للاستيلاء على مكة والمدينة .

(١) هى ايلات الاسرائيلية .

وسار هذا الأسطول الصليبي بمحاذاة الشاطئ المصري للبحر الأحمر وفاجأ المسلمين مفاجأة شديدة ، فلم يسبق لهم ان توقعوا اساطيل معادية في هذا الجزء من البحر ، ولذلك نجح الصليبيون في تخريب وتدمير ما قصدوا تدميره ومن ذلك ميناء عيذاب المصري واستولوا على كل ما وجدوه في طريقهم من سفن الحجاج . ثم تحولوا الى الشاطئ الشرقي للبحر شاطئ الحجاز فأغاروا على ميناء رابغ وأغرقوا إحدى سفن الحجاج في مياهها .

حسام الدين لؤلؤ يسحق الصليبيين :

وكانت مصر في هذا الوقت تحت اداره الملك العادل سيف الدين اخى صلاح الدين فانتدب الأمير حسام الدين لؤلؤ قائد الأسطول المصري ، فاستعاد حسام الدين مدينة ايلة ، ثم وصل بالأسطول المصري الى ثغرة الحوراء بالقرب من ينبع حيث كان الأسطول الصليبي مرابطا فحطمه عن آخره وقبض على كل من كان فيه من بحارة ومقاتلة فقتلهم عن بكرة أبيهم ، وقيل انه بعث ببعض هؤلاء المعتدين ليذبحوا في منى أربابا للصليبيين وعقابا لهم على هذا التفكير الأثيم .

وكان من شأن هذا الحادث ، أن سجد صلاح الدين عزيمته لانقاذ العالم الاسلامي من خطر الصليبيين المعلق على رؤوسهم . .

والى على نفسه ان ينتقم من البرنس ارناط لهذه الفعلة الأثيمة وان يقتله بنفسه اذا مكنه الله منه ، وقد بر بقسمه كما سوف ترى .

١١٨٣ م - ٥٧٨ هـ : رحلة ابن جبير الى مصر :

وصل ابن جبير الى الاسكندرية فادما من غرناطة في أول ذي الحجة وترك لها صورة حية من حياة مصر في هذه الفترة الدقيقة من حياتها فيقول :

أول ما شاهدناه في الاسكندرية طلوع أمراء من قبل السلطان (صلاح الدين) الى المراكب لتقييد جميع ما جلب فيها فاستحضر جميع من كان في المركب من المسلمين واحدا واحدا وكتب اسماءهم وصفاتهم واسماء بلادهم وسأل كل واحد عما لديه من سلع لبؤدى زكاة ذلك واستدعى احدا احمد بن حسان ليسأل عن انباء المغرب وعما تحتويه المركب من سلع ، فطيف به على عدد من اهل الديوان وحاشية السلطان وفي كل مرة يستفهم منه ويقيد قوله ثم يخلى سبيله . وأمر المسلمون بتنزيل اسبابهم وما فضل من ازودتهم ، وعلى ساحل البحر اعوان يتوكلون بهم . وحمل جميع ما انزلوه الى الديوان ثم استدعوا واحدا واحدا وأحضر ما لكل واحد من الاسباب والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الاسباب مادي منها وما جل . واختلط بعضهم ببعض وأدخلت الأيدي الى أوساطهم بحثا

عما عسى أن يكون فيها ثم استحلّفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا .
ثم اطلقوا بعد موقف الذل والخزي العظيم ، وهذه لا محالة من الأمور المألوس فيها
على السلطان الكبير المعروف بصلاح الدين ، إذ لو علم بذلك عانى ما يؤثر عنه من
العدل وإيثار الرفق لازال ذلك .

ونحسب أن أدق « ريبورتاج » تحقيق صحفى فى العصر الحديث لن يطور لنا
مضايقات الكشف عن جوازات السفر وتفتيش حوائج المسافرين فى الجمرك بالبلغ
من هذا الذى سجله ابن جبير فى القرن السادس الهجرى .

وغنى عن البيان أن ما تعرض له هؤلاء القادمون على مصر كان بسبب مجيئهم
على إحدى مراكب الاقرنج وقد كانوا فى حالة حرب مع مصر ، وكان لابد من الحذر
من الجواسيس والمؤامرات .

ثم يصف لنا ابن جبير احوال الاسكندرية فيقول :

ومن الغريب من احوال هذا البلد أن الناس تتصرف فيه بالليل كتصرفهم بالنهار
فى جميع احوالهم . وهو من أكثر بلاد الله مساجد ، حتى ليقول البعض أن بها
أثنى عشر ألف مسجد والمقل يجعلها ثمانية آلاف . وبالجمله فهى كثيرة جدا تكون
منها الأربعة والخمسة فى موضع واحد ولكل منها أئمة مرتبين من قبل السلطان
يتقاضى الامام منهم خمسة دنائير فى الشهر .

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة الى سلطانه ، المدارس المقامة لأهل الطب
والتعبد . . فيفقدون من الاقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه
ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه . واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئین
حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتساجوا الى ذلك ، ونصب لهم
مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم اطباء يتفقدون احوالهم ، وتحت أيديهم
خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . وقد رتب
ايضا فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان
المذكور من الغرباء خاصة ، وينهون الى الأطباء احوالهم ليتكلفوا بمعالجتهم ، ومن
أعظم الأعمال فى هذه الناحية ايضا أن عين السلطان لأبناء السبيل من المغاربة خبزتين
لكل ايسان مهما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم انسانا أميناً من قبله فقد ينتهى
الى ألف خبزة أو أزيد بحسب القلة والكثرة .

وعلى هذا الفرار يمضى ابن جبير فى رحلته ، يصف لنا مدينة القاهرة والفسطاط
وما استوقفه منها ، والطريق من قوص الى عيذاب مما لا يتسع المجال الا لمجرد
الإشارة اليه .

العلاقات بين المسلمين والصليبيين فى الأرض المحتلة :

على أننا لانستطيع الا أن ننقل عن ابن جبير صورة أخرى حية عن نوع الحياة

التي كان يحييها سكان البلاد الدين وقعوا تحت حكم الصليبيين ، وكيف كانت تسير الحياة اليومية ونوع العلاقات بين المسلمين والصليبيين فيقول :

ومن اعجب ما يحدث ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقى الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . شاهدنا ذلك في جمادى الاولى (٥٧٩ هـ) عندما خرج صلاح الدين يجمع عساكره لمنازلة حصن الكرك وهو من اكبر حصون النصارى ، والمعرض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر ، بينه وبين القدس مسيرة يوم وهو عظيم الاتساع متصل العمارة حتى ليشمل اربعمئة قرية ، فنازله السلطان صلاح الدين وضيق عليه وطال حصاره ، واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكا كذلك . وتجار النصارى لا يمتنع احد منهم بغير حق ، وللنصارى على المسلمين جزية يؤدونها في بلادهم . وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم . والاتفاق بينهم الاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب .

هذه سيرة اهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا ولا التجار . . فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلما او حربا . وشأن هذه البلاد في ذلك اعجب من ان يستوفي الحديث عنه .

١١٨٥ م - ٥٨١ هـ - دخول الموصل في سلطان صلاح الدين :

اعاد صلاح الدين في هذه السنة الحصار على مدينة الموصل للاستيلاء عليها وضاق عز الدين مسعود صاحب الموصل بهذا الحصار فعرض على صلاح الدين ان يبايعه ويصبح تابعا له ويدعو له على المنابر ويضرب السكة باسمه ، وينزل لصلاح الدين عن كل ما وراء نهر الزاب من بلاد الجزيرة ، وان يكون تحت امره وجنوده ، اذا ندبه لقتال الصليبيين .

وقيل ان صلاح الدين قد رفض هذا الصلح في بادىء الامر بناء على مشورة تواده ، الدين ابوا الا ان يكون التسليم بدون قيد او شرط ، ولكن صلاح الدين لم يكن يرى في هذه الحروب الداخلية الا سبيلا لجمع الكلمة لمواجهة المهمة المقدسة ، وقبل الصلح وابرمه .

توحيد الجبهة الاسلامية :

وهكذا تحقق على يد صلاح الدين ، ما سعى الى تحقيقه عماد الدين زنكى وابنه نور الدين من بعد ، وهو توحيد الجبهة الاسلامية لمواجهة قوى العدوان الصليبية .

مرض صلاح الدين :

لم يكن صلح الموصل يحقق وحدة الدولة الإسلامية تحت لواء صلاح الدين ، حتى أصيب بمرض أوشك أن يودي بحياته ، ويقول المؤرخون الذين كانوا يحيطون بصلاح الدين في هذه الفترة انه نذر الى الله ، لئن شفاه الله من مرضه ، أن يجعل كل همه قتال الا فرنج ولا يقاثل مسلما أبدا وأن يجعل مهمته المقدسة هي فتح بيت المقدس ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه من أموال وذخائر .

واستجاب الله الدعاء فبرىء صلاح الدين من مرضه ، وأصبح عليه أن يفى بنذره .

١١٨٧ م - ٥٨٣ هـ : البرنس أرناط ينقض الهدنة ويشعل النار الحرب :

كان يحول دون انقضاء صلاح الدين على الصليبيين ، ابرامه هدنة بينه وبينهم مدتها أربع سنوات ، وكان صلاح الدين ممن يحترمون العهود والمواثيق .

وشاء القدر أن يهيء لصلاح الدين فرصته ، دون أن يكون هو الناكث بالعهد فقد تحرك البرنس أرناط صاحب مشروع غزو مكة والمدينة ، تشارك في حماقة تجعل كل مؤرخي الصليبيين ينددون به ويحملون عليه ، إذ كان هو من شعل نار الحرب التي انتهت بهزيمة الصليبيين الساحقة .

فقد انقض أرناط على قافلة تجارية مسلمة كانت في طريقها من مصر الى الشام (١) . وقد رأينا كيف أشاد ابن جبير بحالة الأمن التي كان يتمتع بها التجار حتى في أثناء الحرب ، فكيف وقد كانت هناك هدنة بين المسلمين والصليبيين .

لم يأبه أرناط لذلك كله ، واستولى على القافلة وكل من فيها وراح يقول لضحاياه الذي اختار أن يقتلهم : أين محمدكم . . أين رسولكم ، دعوه يأتى لنصركم .

وغضب صلاح الدين لهذه الفعلة ، وكانت كافية لكي تلحله من عهده مع الصليبيين ، ولكنه لم يشأ أن يتسرع الا بعد أن ينذر ويكتب الى أرناط يعنفه على هذا التصرف ، ويطلب منه الإفراج عن الأسرى ، ورد الأموال المنهوبة ، وتعويض القتلى ولكن أرناط أصم أذنيه عن سماع صوت العقل ومضى في نَحْدِيهِ فلم يبق سبيل غير الحرب .

(١) قال بعض مؤرخي الصليبيين ، أن أخت صلاح الدين كانت في هذه القافلة ، ولكن هذه الواقعة

لم يشر اليها أى من معاصري صلاح الدين وملازميه .

موقعة حطين :

جمع صلاح الدين جيوشه من مختلف أطراف المملكة وزحف بهم في أوائل هذه السنة نحو مدينة طبرية لستولى عليها ليضطر الصليبيين للمجئء الدفاع عنها ، فاستدريجهم بذلك الى المكان الذي اختاره للدخول معهم عليه في المعركة ، والاجماع منعقد بين مؤرخي الصليبيين على اطراء قدرة صلاح الدين ومهارته العسكرية في اختيار مكان موقعة حطين ونجاحه في استدراج الصليبيين اليها ،

واستولى صلاح الدين على مدينة طبرية « دون فاعتها » كما نقضى خطته وبدأ يحصص الموقع الذي اختاره لتدور الموقعة فيه فجعل طبرية الى ظهره ، ثم اتجه نحو الغرب فأفسد كل مياه الآبار في هذه المنطقة ، حتى يعانى الصليبيون الظماً اذا فكروا في الانتقال اليه .

وكان الصليبيون عندما سمعوا بحشد صلاح الدين لجيوشه ، قد حشدوا قواتهم بدورهم عند مدينة صفورية تحت قيادة ارنات صاحب الكرك وجى ملك بيت المقدس وريموند صاحب طرابلس .

وقد حملوا معهم صليب الصليبوت المقدس ليكون عدتهم وسلاحهم في المعركة الفاصلة التى قرروا أن يخوضوها مع صلاح الدين .

وعندما وصل اليهم نبأ استيلاء صلاح الدين على طبرية ، انقسموا الى رأيين فكان رأى البعض أن يظاوا حيث هم في صفورية حتى يكون صلاح الدين هو البادئ بالهجوم عليهم فيقطع المسافة بين طبرية وصفورية وهى صحراء جرداء فتصل قواته منهوكة متعبة ، ولكن ارنات المتحمس ، وفرسان الداوية والاسبثالرية ابوا الا أن يكونوا هم المهاجمين ، وأن يباغتوا صلاح الدين عند طبرية ، قبل أن يستكمل استعداداته وتصل اليه الامدادات التى كانت تترى عليه .

وبدأت الجيوش الصليبية مسيرتها من صفورية قاطعة ستة عشر ميلا وكان الوقت صيفاً (شهر يوليو) وقد عز الماء لدى الصليبيين ، فلما وصلوا الى تل حطين بالقرب من طبرية كان السير قد أنهكهم ونال الظماً منهم فأسرعوا الى الآبار الموجودة في غرب المنطقة فوجدوها كلها مخرّبة ولا ماء فيها فحاولوا الاقتراب من بحيرة طبرية بالليل فصدمتهم الجيوش الاسلامية .

وبدأت المعركة صبيحة اليوم التالى ٢٥ ربيع الثانى (٥ يوليو) وقد بلغ الجهد بالصليبيين مبلغه اذ اجتمع عليهم الانهك والظماً والقلق وأحرق صلاح الدين الحشائش الجافة التى تحيط بمعسكرهم فأحاطت بهم النيران وزادت من خطورة موقفهم ، فانهازوا الى تل حطين ، ولكن جيوش صلاح الدين لاحقتهم عند التل فأوقعت بهم مذبحة عظيمة ، بحيث لم ينج منهم أحد الا بالوقوع فى الأسر ، بحيث يقول ابن الأثير ان من كان يرى القتلى كان يتصور أنه لم يكن هناك أسرى ، ومن يرى الأسرى يتصور أنه لم يكن هناك قتلى .

ووقع كل رؤساء الصليبيين وقادتهم في الأسر ، لم ينج منهم سوى ريموند ملك طرابلس ، والذي هيا له المسلمون في بادئ المعركة فرصة الخروج من الحصار فأسرع الى مدينته تاركا أصحابه وزملاءه يصلون حر المعركة ، ومما برمز لهزيمة الصليبيين الساحقة ، سقوط صليب الصليبوت في أيدي المسلمين وكان ممن وقعوا في الأسر الملك جلي صاحب بيت المقدس ، وارئاط صاحب الكرك ، وجرى بالرجلين أمام صلاح الدين ، فراح صلاح الدين يذكر ارناط بأفعاله الأثيمة ، وسخريته بمحمد وقال له ها أنذا أنتصر وأنذره انه قد أقسم اذا أمكنه الله منه ان يقتله بيده ..

وها هي الفرصة جاءت ، ولكنه يستطيع أن ينجو بنفسه اذا هو آمن برسالة محمد ، ولكن ارناط رد عليه في صلف وتعال ، فقتله صلاح بيده .

ويقول المؤرخون المعاصرون ان الملك جلي ارتعدت فرائصه وظن أن دوره قادم ، ولكن صلاح الدين هدا روعه ، وأفهمه أن ارناط قد تجاوز كل عهد وحد ، أما هو فليس له عند صلاح الدين الا كل اكرام .

الاستيلاء على مدن الساحل :

وأسرع صلاح الدين يستغل هذا الانتصار الساحق الذي حصل عليه قبل ان يفيق الصليبيون من الضربة المذهلة ، فأسرع الى مدن الساحل ليستولي عليها قبل أن تخف اليها الامدادات ، فاستولى على عكا في شهر جمادى الأول وبقية مدن الساحل من يافا جنوبا حتى بيروت شمالا ، وكان من شدة حرص صلاح الدين على الاستيلاء على المدن في سرعة أنه كان يجيب من فيها الى شرطهم الوحيد للتسليم ويسمح لهم بالتوجه الى مدينة صور ، وهكذا تجمع الصليبيون الناجون من معركة حطين ، والذين جلوا عن المدن الصليبية الأخرى ، فتكون منهم جيش كبير بحيث لم يستطع صلاح الدين أن يستولى عليها عندما اقترب منها ، وآثر أن لا يضع الوقت أمامها ، فتركها واتجه جنوبا فاستولى على مدينة عسقلان . وهنا يقف ابن الأثير ليندد بصلاح الدين وتركه لمدينة صور ، وسماحه للصليبيين بالتجمع فيها بدلا من ابادتهم ، فلم تلبث صور أن تصبح رأس الجسر الذي يشب منه الصليبيون من جديد .

وبعد أن فرغ صلاح الدين من مدن الساحل ما عدا صور ، انتقل للداخل فراح يستولى على قلاع الداوية والاسبتارية . وقد ساعد صلاح الدين في الاستيلاء على هذه المدن وهذه القلاع ، انه كان يستولى عليها بغير قتال في مقابل الافراج عن ملوك الصليبيين ورؤسائهم من الأسر ، وكان صلاح الدين يأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يعودوا لحربه فيقسمون بأغلظ الايمان ، ولكنهم لا يكادون يعودون الى الحرية ، حتى يسرعوا الى مدينة صور متأهبين للحرب والقتال من جديد فييد صلاح الدين .

استعادة بيت المقدس :

وفي أواخر جمادى الثاني من السنة « ٥٨٣ هـ » اتجه صلاح الدين بجيوشه نحو هدفه الأكبر وهو بيت المقدس . بعد أن قطع على المدينة طريق النجفات التي تأتي من مدن الساحل أو من وراء البحار ، ولاتقاء هذا الخطر الأخير أصدر صلاح الدين أوامره لقائد أسطول حسام الدين الأول أن يتولى حراسة الشواطئ ومنع أية سفن من الاقتراب منه .

ولم يحتج حصار القدس واضطرار المدافعين عنها للتسليم كبير وقت فقد كانت معنوياتهم في الحضيض ، ويثسوا من وصول أى نجفات لانقاذهم فتم الاتفاق بينهم وبين صلاح الدين على تسليم المدينة بالشروط التالية :

— أن يدفع الفرتج عشرة دنانير عن كل رجل وخمسة عن كل امرأة ودينارين عن كل طفل في خلال أربعين يوما ، فمن دفعها خرج آمنا بنفسه وماله ، ريتجه في سلام وأمان الى مدينة صور . أما من يبقى في المدينة بعد ذلك فانه يؤسر .

— يستثنى من هذا الشرط مسيحيو البلاد الأصليون ، فلهم حق البقاء كرعايا للدولة . وفي ليلة الاسراء والمعراج السابع والعشرين من شهر رجب وكان يوم الجمعة دخل صلاح الدين وجيشه الى بيت المقدس وهم يتلون آيات القرآن « سبحان الذى اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » .

واكرم صلاح الدين رجال الدين ، حتى لقد سمح للبطريرك أن يخرج من المدينة مصطحبا معه كل أموال الكنيسة وذخائرها ، فلما حاول الحراس أن يمنعه ، أبى صلاح الدين إلا أن ينفذ شرطه ، وخرج البطريرك بهذه الكنوز دون أن يدفع الا عشرة دنانير كأي صليبي آخر فقير .

وكذلك فعل بالنسبة للكنيسة المقدس فسمح لها أن تصحب كل أموالها بالرغم من أن زوجها الذى كان قد لحق بصور نكث بعهده وراح يؤلب على صلاح الدين . بل أن زوجة ارناط نفسها قد عوملت هذه المعاملة السميحة .

ولقد كان هذا الاسلوب الذى اتبعه صلاح الدين ، مشار سخط معاصريه الذين كانوا يريدون ان يكيلوا للصليبيين بالكيل الذى كآوه للمسلمين عندما فتحوا بيت المقدس ، ونسوا أن صلاح الدين كان بهذه الروح العظيمة يطلع الصليبيين على روح الحضارة الاسلامية ، هادما بذلك كل المزايم التي كانوا يشيعونها ضد المسلمين لتأليب الأوروبيين عليهم . . .

وصلاح الدين كان يتأسى في ذلك ، بسيدنا محمد صلوات الله عليه عند فتحه مكة التي عذبته واشقتبه ، عيبيها عفا عن أهلها وقال لهم كلمته الخالدة :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » ...

ولندع الآن رانسمان أحد مؤرخى الحروب الصليبية من الانجليز يصف لنا هذا الموقف :

« كان المنتصرون معقولين وانسانيين ، فبينما خاض الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين عاما فى دماء ضحاياهم نجد فى هذه المرة أنه ما من بناء نهب ، وما من انسان أصابه أذى .

وتنفيدا لأوامر صلاح الدين ، انبث الحراس بخفرون الطرق والأبواب ويمنعون أى اعتداء قد يصيب المسيحيين .

وتقدم نساء الفرنج اللائى افتدين أنفسهن الى صلاح الدين والدموع تملأ عيونهن ويسألنه فى استرحام ، ابن يستطعن الذهاب بعد قتل أزواجهن أو آبائهن أو وقوعهم فى الأسر ، فأطلق صلاح الدين كل من كان من أزواجهن فى الأسر ، أما الأرامل واليتامى فقد منحهن منحا تتناسب مع مكائتهن من أمواله : لقد كان عفوه ولطفه يتباين تباينا واضحا مع أفعال المسيحيين الفزاة فى الحملة الصليبية الأولى .

وأعاد صلاح الدين الى مدينة القدس طابعها الاسلامى وأصدر أوامره بترميم ما تصدع من مؤسساتها الاسلامية ، وخاصة بيت المقدس ، وحمل الى المسجد العظيم محرابا كان السلطان نور الدين قد أعده ليضعه بنفسه فى المسجد الأقصى ، وأنشأ بالمدينة المدارس الدينية ، كما أنشأ بها بیمارستانا لعلاج المرضى .

حتى اذا فرغ مما يجب عمله لاهياء المدينة المقدسة كأحد مراكز الاشعاع الاسلامى ، عاد يستأنف تحرير البلاد من بقايا الصليبيين

تطهير عدد من البلاد :

استولى صلاح الدين بمجرد استئنافه لنشاطه العسكرى على مدن جبلة ، واللاذقية ، وصهيون ، وحصن كوكب ، وحصن الكرك العتيد ، وكل ما جاوره من قلاع ، كما استولى على قلعة صفد بحيث لم يبق للصليبيين سوى موقع واحد هو مدينة صور وكان من الممكن أن يسقط بدوره ان عاجلا أو آجلا لولا أن أوروبا الغربية (الصليبية) جاءت تخف للنجدة صليبي الشرق .

١١٩١ م - ٥٨٧ هـ : الحملة الصليبية الثالثة :

أحدث سقوط بيت المقدس دويا فى أوروبا المسيحية وتحمس القوم حماسا شديدا لضرورة استرداد بيت المقدس بأى ثمن ، وفرض ملوك أوروبا على رعاياهم ضريبة اشتهرت باسم ضريبة صلاح الدين ، أى لتجهيز حملة ضيد صلاح الدين .

ونألفت الحملة في نهاية الأمر ، على أن المؤرخين يقرون أن عاملا سياسيا قد اشترك في تأليفها فوق العامل الدينى ، إذ وجد فيها كل ملوك أوروبا فرصة لتحقيق أهداف سياسية خاصة .

وقد اشترك في هذه الحملة الصليبية الثالثة ، ثلاثة من أعظم ملوك أوروبا في هذه الفترة وهم : فردريك بربروسا ملك المانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وقد انفرد كل من هؤلاء الملوك الثلاثة بالعمل ، مما أضعف فاعلية هذه الحملة على قوتها وضخامتها وخطرها على الاسلام .

— فردريك بربروسا ، امبراطور الدولة الرومانية المسيحية وتسميه المراجع العربية « ملك الألمان » وقد اشترك في الحرب بصفته امبراطورا وزعيما تقليديا للعالم المسيحي في الحرب :

وقد تحرك الامبراطور فردريك بربروسا على رأس جيش ضخم منظم أحسن تنظيم ومسلح أقوى تسليح ، والمراجع الأوروبية تقدر قوة هذا الجيش بمائة ألف مقاتل ، ولكن المراجع العربية ، تقدر هذا الجيش بمليون ، والتقدير الأول هو الأصيح بطبيعة الحال وليست كثرة العدد التى تنسبها المراجع العربية للجيش الألماني ، الا احدى صور الفزع والهلع الذى استولى على المسلمين في ذلك الوقت عندما تسامعوا بزحف هذا الجيش .

بل ان امبراطور بيزنطة كان أشد وجلا من المسلمين أنفسهم من جراء هذا الجيش حتى لقد وجد من مصلحته أن يحالف صلاح الدين ضده فكتب له يتبرا من أن يكون ضالعا مع هذا الجيش ، واكد أنه سوف يحول بينه وبين المرور داخل بلاده .

واظهارا للود والتحالف بين الطرفين ، اتفق على ان يسلم صلاح الدين كنيسة القيامة في بيت المقدس لرجال الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية ، في مقابل أن يصبح لصلاح الدين حق الاشراف على الجالية الاسلامية في القسطنطينية وعلى جامعها ولذلك فقد بادر بارسال خطيب ومؤذن للمسجد فكان دخولهما القسطنطينية يوما عظيما من أيام الاسلام .

فشل حملة بربروسا :

على أن المقادير شاءت ان يخذل فردريك بربروسا فلا يصل الى أرض المعركة إذ مات وهو يحاول عبور أحد انهار آسيا الوسطى ، فأدى موته الى تبدد جيشه فلم يصل منه الى أرض فلسطين الا اعداد لا يؤيه بها ...

وهكذا تولى الله عن المسلمين تصفية هذا الجيش الضخم الذى توجسوا منه .. بحيث لم يكن سوى صلاح الدين الذى احتفظ بهدوئه وبيقينه أبان هذه الازمة .

جيش فيلب أغسطس :

أما باقى ملوك أوروبا الذين اشتركوا في هذه الحملة فهم فيلب أغسطس ملك

فرنسا ، وكانت المنافسة بينه وبين ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا في ذروتها بعد أن زاد في حدتها تلاقيهما في جزيرة صقلية ، مما حدا بملك فرنسا أن يسبق ريتشارد إلى الشرق فوصل إلى مدينة عكا في مرحلة حاسمة قلبت ميزان الحوادث والحرب .

كان الصليبيون كما ذكرنا قد انجازوا جميعا وتجمعوا في مدينة صور ، وعندما وصل اليهم جى ملك القدس بعد أن أطلق سراحه قادهم إلى استرداد مدينة عكا ولكن المدينة الحصينة وقفت في وجههم وجاء صلاح الدين لفرض حصارا على الجيش الصليبي المحاصر للمدينة فأصبح الصليبيون محصورين بين نارين نار المدافعين عن المدينة من الداخل ، وجيش صلاح الدين من الخارج .

واستمر الوضع على هذا الحال طوال عامين ، أوشك فيهما الصليبيون على التراجع والانهيار ، فجاء مقدم لويس أغسطس بمثابة نجدة جديدة قوت من عزائمهم وشدت أزرهم .

ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا :

وتسمية الكتب العربية الانكثير أو الانكثار ، أو الإنكلتير . وقد أدت منافسته لفيليب أغسطس لأن يتخلف عنه ثم سار في أسطول انجليزى بحرى قاصدا مدينة عكا في فصل الربيع من هذه السنة وقد استولى في الطريق إليها على جزيرة قبرص ، ولم يلبث أن باعها لملك القدس السابق جى دي لوزيان ، فلأصبحت مركز دولة القدس الصليبية وظلت منذ ذلك التاريخ تلعب دورا في الحروب الصليبية حتى بعد أن انتهت في فلسطين والشام .

سقوط مدينة عكا من جديد بيد الصليبيين :

في السابع عشر من جمادى الثانية من هذه السنة « ١٢ يوليو سنة ١١٩١ » سقطت مدينة عكا بيد الصليبيين ، بعد أن وصل إليها ريتشارد بأسطوله الضخم الذي أحكم الحصار على المدينة من ناحية البحر في وجه الأسطول الاسلامى .

وتفص كتب التاريخ بتفصيل ملحمة القتال التى دارت حول مدينة عكا خلال حصارها الطويل وكيف أبدى الطرفان من ضروب الشجاعة والفداية ما لم يسمع بمثله .

وكان من بين هذه المواقف البطولية ، أن أرسل صلاح الدين فى أجد المراكب ستمائة وخمسين رجلا على إحدى المراكب ليكونوا أمدادا للمقاتلين فى المدينة مع كمية ضخمة من الأسلحة والذخائر والمؤن ، فأجابت بهم مراكب الأسطول الانجليزى فلما أيقن القوم أنه لم يعد أمامهم مناص من التسليم آثروا ، أن يثقبوا سفينتهم وأن يفرقوها بكل ما فيها ومن فيها وهكذا ذهب إلى قاع البحر هذا العدد الكبير من الشهداء حتى لا يقعوا فى يد العدو وليحرموه مما فى السفينة من أسلحة ومؤن .

كما احتفظ التاريخ بأسماء أبطال من الشعب مثل « عيسى النعوم » والذي كان يخترق حصار الأساطيل الانجليزية وينفذ الى المدينة المحاصرة ويخرج منها حاملاً منها واليها الرسائل والأنباء .

واستسلمت المدينة في خاتمة المطاف بعد أن عجز صلاح الدين عن فك الحصار عنها وخاصة بعد وصول جيوش فرنسا وإنجلترا .

١١٩٢ م - ٥٨٨ هـ صلح الرملة :

استمرت الحرب بعد سقوط عكا قاسية عنيفة ، وكانت سجالات بين الطرفين ينتصر الصليبيون فيها حيناً وصلاح الدين حيناً آخر ، ولم يلبث الخلاف بين فيليب أغسطس وريتشارد أن أحدث أثره في تفكيك الجبهة الصليبية فانسحب فيليب أغسطس الى فرنسا معتبراً أنه أنهى مهمته بالاستيلاء على عكا .

وبقى ريتشارد قلب الأسد زعيماً للقوى الصليبية المحاربة . وتفص انباء هذه الفترة بأحداث المفاوضات والمناورات والملاحظات بين صلاح الدين وريكاردوس ، حيث كانا يتهاديان ويسأل كل منهما عن صحة الآخر ، حتى ليعتد صلاح الدين بطبيب لعلاج ريكاردوس كما أرسل له فواكه على سبيل الهدية .

على أن قمة الدبلوماسية في هذه المرحلة لا تتجلى في أمر قدر ما اقترحه ريتشارد لسوية النزاع بطريقة سليمة ، وملخص هذا الاقتراح أن يتزوج العادل أخو صلاح الدين الأميرة جوانا أخت ريتشارد وأرملة ملك صقلية ، على أن يقوم الزوجان بحكم دولة فلسطين بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية .

ومن عجب أن هذا الاقتراح الجريء قد حظي بموافقة العادل وصلاح الدين نفسه وكان يمكن أن يتحقق لولا أن الأميرة جوانا رفضت تحت ضغط وارهاب رجال الدين الذين خوفوها بعذاب جهنم وبئس المصير إذا هي تزوجت بمسلم كافر .

ولعل مجرد صدور هذا الاقتراح من ملك إنجلترا ، يدل على الشوط الكبير الذي قطعه التقارب بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي وإن الفضل في ذلك إنما يرجع في الدرجة الأولى لشخصية صلاح الدين وروحه السريحة التي عامل بها أعداءه .

وكانت هذه المحاولات الدبلوماسية والمفاوضات والمناورات تتخلل الجهود المستمرة التي يبذلها الطرفان في المعارك التي لم تتوقف ، استطاع صلاح الدين خلالها أن يستولى على مدينة يافا بعد حروب لم تدم سوى ثلاثة أيام مما أذهل الصليبيين على أنهم لم يلبثوا أن استردوها .

وفي معركة عند مدينة أرسوف كاد صلاح الدين نفسه أن يهلك حيث تفرق عنه أغلبية جيشه وبقي في قلعة من أصحابه فأدى ثباته الى عودة الجيش وانتصاره .

• تمكننا اضطراب صلاح الدين لتخريب أسوار عسقلان وتدمير المدن حتى لا تقع في يد الصليبيين كما قلت من ناحية أخرى كل المحاولات التي بذلها ريتشارد للاستيلاء على بيت المقدس .

وطالت غيبة ريتشارد عن بلاده ، ووصلته الأنباء من إنجلترا عن تأمر أخيه عليه ، فأرسل إلى صلاح الدين يحثه على وجوب التوصل إلى صلح وكانت الجيوش الإسلامية من ناحيتها قد تعبت من استمرار القتال بلا انقطاع ، وهكذا تلاقحت إرادة الطرفين في الصلح وعلى ذلك تم عقد صلح الرملة في يوم الثلاثاء ٢١ شعبان من هذه السنة ٥٨٨ هـ - ٢١ سبتمبر سنة ١١٩٢ على الشروط الآتية :

- يحتفظ الفرنج بمنطقة الساحل من عكا إلى يافا .
- يسمح للحجاج المسيحيين بزيارة بيت المقدس .
- تكون عسقلان بعد تخريبها وما يليها جنوبا بيد صلاح الدين .

الموقف بعد صلح الرملة :

يلخص لين بول الموقف بعد صلح الرملة على الوجه التالي :

لقد استمرت الحرب المقدسة خمس سنوات ، وقبل المعركة الحاسمة في حطين « يوليو سنة ١١٨٧ » لم تكن هناك بوصة واحدة من أرض فلسطين غرب نهر الأردن في يد المسلمين ، أما بعد صلح الرملة فكل فلسطين أصبحت إسلامية ماعدا شريط ضيق على الساحل من صور إلى يافا ، ولاسترداد هذا الشريط الساحلي قامت أوروبا كلها بحمل السلاح ، وسقط مئات الألوف من الصليبيين والنتيجة لانسواي الثمن الذي دفع منها .

أما صلاح الدين فقد خرج من الناحية الأخرى وقد تأكد سلطانه الذي لم يتزعزع وكأنت الامبراطورية التي يتربع فوقها والمؤلفة من أمراء واتباع ورعايا من الأكراد والتركمان والسوريين . والعرب والمصريين الذين اندمجوا كلهم في جيوشه يقفون خلفه ويدعمونه في إخلاص ووفاء ويترقبون أصغر إشارة منه لكي يندفعوا لتنفيذها

وعندما انتهت الحرب كان صلاح الدين يحكم بغير منازع من جبال كردستان حتى الصحراء الليبية ، ووراء هذه الحدود كان ملوك جورجيا وكاثوليك أرمينيا ، وسلطان قونيا ، وحتى امبراطور بيزنطة شديدي الحرص على محالفته .

لقد عاش حتى رأى انتصاراته وحلم حياته وهو طرد الصليبيين من المدينة المقدسة وإعادة الوحدة إلى الإسلام .

١١٩٣ م - ٥٨٩ هـ : نهاية بطل :

في يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر (١ مارس) بعد صلاة الصبح لفظ صلاح الدين انفاسه الأخيرة .

يقول ابن شداد : وكان يوم مونة يوما لم يضرب الإسلام والمسلمون بمثله . فقد خلفاء الراشدين « رضى الله عنهم » . وغشى القلعة والدنيا كلها وحشية لا يعلمها الا الله تعالى . ولقد كنت اسمع من الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم . وكنت اتوهم ان هذا على ضرب من التجوز والترخص حتى ذلك اليوم ، فقد علمت من نفسى ومن غيرى انه لو قبل الفداء لفديناه بانفسنا .

ويمضى ابن شداد ليقول : .

وقد مات صلاح الدين ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرية ، ودرهما واحدا ذهبيا ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا قرية مزروعة .

وصية صلاح الدين لابنه :

ولست احسب ان هناك ما يضر لنا شخصية صلاح الدين وداخلية نفسه ودستوره في الحكم ، واعجب من ذلك كله كراهيته للعنف وهو الرجل الذى عاش طول عمره في الجهاد والحرب من وصيته لابنه كما سجلها ابن شداد :

« أوصيك بتقوى الله فانها رأس كل خير ، وأمرك بما أمر الله به فانه سبب نجائك . واحذر من الدماء والدخول فيها والتعلق بها فان ادم لا ينام وأوصيك بحفظ قلوب الرعية والنظر في احوالهم فانت أمين وأمين الله عليهم . وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء ، وأرباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت الا بمداواة الناس ولا تحقد على احد فان الموت لا يبقئ على احد ، وخذار ما بينك وبين الناس ، فانه لا يغفر الا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره بتوبتك اليه فانه كريم . »

حلمه وعفوه :

ولا محل للحديث عن تدينه وصومه وصلاته وورعه ونقواه فحياته كلها حديث عن ذلك وانما الذى يقف الانسان امامه مذهولا مدى ما يضر به المصورون حلمه وعفوه فيقول لنا معاصروه ان الناس كانت تتزاحم عليه في بعض المناسبات لتعرض عليه شكايتها فكانوا يدوسونه على اطراف ثنابه ، والمرتبة التى يجلس عليها بأقدامهم دون ان يتأثر من ذلك .

ووصل الأمر الى حد ان احد رجاله ذات على يده وهو يقدم له عريضة ويطلب منه ان يوقع له عليها فيرد صلاح الدين عليه بقوله :

وكيف أستطيع ان اوقع لك واثت تدوس على يدي ..

ملك العالم الاسلامى لا يستطيع ان يحج :

وبقى لكى تكمل صورة صلاح الدين ان نذكر هذه الواقعة التاريخية المحققة وهى ان الجهاد شغل صلاح الدين طول حياته عن ان يحج فلما ان عقد صلح الرملة بدأ يتجهز لكى يحقق حلمه فى الحج ، ولكن خزانته كانت فارغة من المال اللازم لكى يحج بما يليق بمثله وما يتوقعه الناس من احساناته فى هذه المناسبة ، فأرجأ ذلك الى العام التالى ولكن لم يكن هناك عام تال فقد حرم القضاء .

وبعد :

فان الحديث عن صلاح الدين ذا سعة ، وما قاله خصومه الذين حاربهم من الصليبيين فى فضائله ومزاياه يفوق ما قاله المسلمون . ذلك ان الرجل العظيم تحاك حوله الاقاصيص والاساطير .

ولقد كتبت عن سيرة صلاح الدين عشرات من الكتب ليس اقلها كتاب أخى الشهيد الدكتور مصطفى الوكيل فليرجع اليها من اراد المزيد اما الآن فحسبنا ان نسجل ما عندنا من ان صلاح الدين مات عن سبع وخمسين سنة ، ملك مصر فيها اربعا وعشرين سنة ، وملك الشام مع مصر تسعة عشر عاما .

وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وبنتا واحدة وكان اكبر اولاده الذكور الملك الأفضل نور الدين والذي يليه العزيز عثمان القائد الظاهر .

١١٩٣ م - ٥٨٩ هـ الموقف بعد صلاح الدين :

مات صلاح الدين فى مدينة دمشق ودفن بها وكان ابنه الاكبر الأفضل نور الدين ملكا على دمشق ، وهو الذى اشرف على تجهيز جنازة والده ، وجلس يتقبل العزاء فى ابيه وحوله كبار أمراء الدولة .

على ان اخاه الثانى الملك العزيز عثمان ، كان يتربع على عرش مصر نيابة عن ابيه ، ومن حوله جمهور العسكر الصلاحية والاسدية والاكراذ وفى حلب وما يحيط بها الملك الظاهر غياث الدين الابن الثالث لصلاح الدين .

وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية اخو صلاح الدين الملك العادل سيف الدين .

وباقى اجزاء الدولة ولايات صغيرة او ممالك كما كانت تسمى يحكمها افراد من مختلف فروع الأسرة وكان أهمها مملكة حمص وكان يليها افراد من أسرة أسد الدين شيركوه ، ومملكة حماه ويليها افراد من أسرة تقي الدين عمر بن شاهنشاه . وكان اشد ما يهدد العالم الاسلامى ان تقع الفرقة بين افراد الأسرة الواحدة ، وتضيع مع الخلافات مصالح الدولة .

وكتب التاريخ تتحدث كثيرا عن حكمة القاضي الفاضل وزير صلاح الدين في مصر ، وعن اخلاصه وافتدائه ، وليس هناك ما يكشف عن شخصية القاضي الفاضل وانه كان نعم المستشار لصلاح الدين ، من أنه عندما مات صلاح الدين بعث الى ابنه الملك العزيز عثمان في مصر خطابا صور له هول الفاجعة التي ألمت بالمسلمين بوفاة صلاح الدين . . ثم ختم خطابه بالعبارة المينة التالية :

« واما لائح الأمر فانه ان وقع اتفاق فما عدتم الا شخصية الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائب المقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم » .

دب الخلاف بين أولاد صلاح الدين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين عمهم العادل ، وأوشكت الدولة الإسلامية الموحدة أن تتمزق وتتفرق ، ولم يحل دون وقوع الكارثة الا أن هيبة صلاح الدين بعد موته وعظمة شخصيته ظلت تفرض نوعا من التوجيه على امرائه ورجاله وأبنائه .

فقد كان من حسن المقادير أن عقد صاح الرملة قبل وفاته مباشرة وانصرف رينشارد قلب الأسد عائدا الى بلاده إنجلترا ، فوقع أسيرا في الطريق ، وكان الصليبيون الذين ظلوا في الشريط الساحلي من الضعف والهوان ، بحيث لم يكن باستطاعتهم أن يستفيدوا من الاضطراب الذي ساد الموقف بعد موت صلاح الدين واختلاف أبنائه . .

ومن حسن المقادير أيضا ، ان كان هناك الملك العادل اخو صلاح الدين ، حيث تدخل لانقاذ الموقف ، عندما بدأت الأحوال تبلغ أشد درجات السوء وتهدد بانحلال الدولة .

وسوف نرى كيف توصل العادل الى ذلك من خلال الدهاء والصبر واستعمال الحيل والمناورات السياسية ، وأقصى ما يمكن أن توصل اليه الدبلوماسية .

سلطنة العزيز على مصر :

كان العزيز عثمان سلطانا على مصر في حياة أبيه بالنيابة ، فلم يكد صلاح الدين ينمى ، حتى بادر أمراء مصر وقضاها وأعيان الدولة بمبايعة العزيز عثمان خلفا لأبيه . وكان عمره وقتذاك اثنين وعشرين عاما .

وكان هناك اجماع على أن مصر هي الدولة الأم ولذلك فقد اعتزت سائر الأطراف بهذه السلطنة على الأقل من الناحية الشكلية وأصدرت دمشق عملة في هذه السنة ٥٨٩ هـ وعليها اسم العزيز عثمان كسلطان للدولة كلها .

على أن الملك الأفضل كان يعتبر نفسه الملك الفعلي لدمشق والشام .

وقد حدث بمجرد المنادة بالعزيز عثمان سلطانا على مصر أن أغار الصليبيون على بلدة جبلة واحتلوها .

فخرج العزيز عثمان بجيشه من مصر بحجة التصدي لحرب الصليبيين ، ولكن هدفه الحقيقي كان هو الاستيلاء على دمشق وضمها الى ملكه وتعيين نائب عليها من طرفه. وحاصر العزيز عثمان دمشق بجيشه بالفعل وكاد الاصطدام يقع بين العزيز عثمان وأخيه الأفضل الذي استغاث بعمه وبقية اخوته ..

ونجح الملك العادل في الصلح بين الأخوين .

واعاد العزيز عثمان بجيشه الى مصر ، بعد أن زوجه ابنته .

يقول أبو الفدا في تاريخه : واقتبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلا ونهارا .

١١٩٥ م - ٥٩١ هـ : الملك العادل يصبح وزيرا للعزيز في مصر :

لم يتم الصلح بين الأخوين الا على دخل ، فقد كانت حاشية كل من الأخوين تحرضه على أخيه تحقيقا لمآربها ، وبذلك فقد زحف العزيز عثمان مرة أخرى على دمشق في هذه السنة بجيوشه ، ومرة أخرى استنجد الملك الأفضل بعمه ، ومرة أخرى تدخل الملك العادل بمناورات ، فاستطاع أن يوقع الفرقة في جيش العزيز عثمان ، فانخلت عنه الفرق الاسدية (نسبة الى أسد الدين شيركوه) فاضطر العزيز عثمان أن يعود منخلدا الى مصر .

فسار وراءه الملك الأفضل بجيشه حتى وصل مصر واستطاع أن يستولى على مدينة بلبيس . ولكن العادل أقنع الملك الأفضل أن يصطليح مع أخيه واقترح أن يتم الصلح على يدى القاضى الفاضل الذى كان قد اعتزل الحياة العامة لعدم رضائه عن الخلافات التى وقعت بين أبناء صلاح الدين .

وخرج القاضى الفاضل من عزلته واستطاع أن يتوصل الى حل يحقن به الدماء ويراب الصدع ، وهو أن يعود الملك الأفضل بجيشه الى دمشق ملكا عليها وأن يكون ملك مصر العزيز عثمان على أن يدير شؤنه الملك العادل باعتباره وزيرا للعزيز عثمان .

وهكذا سار الملك العادل خطوة جديدة نحو تحقيق أهدافه .

١١٩٦ م - ٥٩٢ هـ : استيلاء الملك العزيز على دمشق :

بعد أن أصبح مرد الأمور كلها الى الملك العادل ، فقد بدأ يحرض العزيز عثمان على أخيه الأفضل ، لما تواتر عنه في تهاونه في شئون الدولة واقباله على اللهو تاركا الحكم لوزيره ضياء الدين بن الأثير الذى أساء السيرة في الناس .

ولم يكن للملك الأفضل قبل بمقاومة العزيز عثمان بعد أن أصبح العادل يشد أزره ، ففتحت لهما أبواب دمشق في يوم الأربعاء ٢٦ رجب . وسلم العزيز عثمان دمشق لعمه الملك العادل ليكون نائباً للسلطان عليها وعاد هو إلى مصر في الرابع والعشرين من شعبان .

١١٩٨ م - ٥٩٤ هـ : الملك العادل يعيد فتح يافا :

حاول الصليبيون أن يستغلوا عوامل الخلاف بين خلفاء صلاح الدين فجاءت جموع منهم إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت .

ولكن الملك العادل تصدى لحربهم ، وواتته النجيدات من مصر فهجم على مدينة يافا فاستطاع أن ينتزعها من يد الصليبيين وأن يستولى عليها وكان هذا هو ثالث فتح لمدينة يافا .

ورد الصليبيون بالهجوم على مدينة نيفين بعد أن توافرت لديهم النجيدات ، فسار العزيز عثمان من مصر على رأس جيشه لنجدة عمه ، فلما أن علم الصليبيون بمقدمه انسحبوا خائبين إلى قاعدتهم مدينة صور ، فترك العزيز عثمان قيادة الجيش إلى عمه ، وفوض إليه أمر الصلح والقتال مع الإفرنج ، وعاد هو إلى مصر . حيث استقبله الشعب بالاحتفالات والمهرجانات .

وآثر الصليبيون الصلح على الحرب ف عقدوا هدنة لمدة ثلاث سنوات عاد على إثرها الملك العادل إلى دمشق ، وقد ازداد سلطانا وعزة .

١١٩٩ م - ٥٩٥ هـ : وفاة السلطان العزيز عثمان :

في السابع والعشرين من المحرم ، مات العزيز عثمان ، وكان عمره يوم مات سبعا وعشرين سنة وأشهرًا، ومدة ملكه ست سنوات إلا شهرا. وقد انفرد ابن إياس من بين المؤرخين بالحملة على العزيز عثمان ومدة حكمه . فقال عنه أنه : أعاد المكوس الذي كان أبوه قد أبطلها وزاد في شناعتها ، وجاهر بالمعاصي وأقام الضرائب الثقيلة على الحشيش والمسكرات ، ووقع في أيامه غلاء بسبب توقف النيل . واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصي .

ولكن سائر المؤرخين يقولون عكس ذلك ، فهذا ابن واصل يقول عنه ، كان في غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والاحسان إليهم ، فكان الرعية يحبونه محبة شديدة ، وفجعوا بموته فجيفة عظيمة ، وعندما هزمه عمه وأخوه الفاضل ، وأشرف ملكه على الزوال بذلت له الرعية أموالها ليذب عن نفسه فامتنع مع شدة حاجته إلى المال .

ويقرر هذا القول أبو المحاسن ، ويقرر أن أمور مصر استقامت في أيامه وعدل في الرعية وعف عن أموالها .

وقال مثل ذلك ابن خلكان .

تولى المنصور محمد بن العزيز عثمان ملك مصر :

اتفقت كلمة الأمراء بموافقة القاضي الفاضل على أعمال وصية العزيز عثمان بتولية ابنه محمد عرش مصر ، على الرغم من أن سنه لم تكد تزيد على تسع سنين إلا بضعة أشهر ، ولقب بالملك المنصور .

كما تم الاتفاق على أن يكون عمه الملك الأفضل مدبرا للملك (أتابك) وكان يقيم في مدينة صرخد فبعثوا إليه فوصل إلى مصر وتولى إدارة المملكة .

وكان الملك العادل في ذلك الوقت يحاصر مدينة ماردة . فاقترح الملك الظاهر أخ الملك الأفضل وكان يحكم مدينة حاب كما قدمنا ، أن ينتهز فرصة غياب الملك العادل عن دمشق ويزحف ويستولى عليها ووعد بالمساعدة .

واستجاب الأفضل إلى تحريض أخيه الظاهر فقصده دمشق بالجيش المصري ولكن العادل كان أسرع منه للوصول إلى دمشق فدخلها قبل وصول الأفضل وأغلق أبوابها فلم يبق أمام الأفضل إلا أن يحاصرها ، ثم خف الملك الكامل ابن الملك العادل لنجدة أبيه واستطاع العادل أن يوقع بين الأخوين (الأفضل والظاهر) ففشل الحصار وانسحب الأفضل إلى مصر .

ولكن الملك العادل وقد تقوى بجيوش ابنه ، أسرع في أعقاب الملك الأفضل الذي تفرقت عنه الجيوش بمجرد مقدم عمه . وتم الاتفاق على أن يدخل الملك العادل إلى مصر ، وأن ينسحب منها الأفضل في مقابل أن يلي حكم بعض البلاد في شمال الشام (ميانافيه وسمسياط) وفي الحادي والعشرين من ربيع الآخر ، دخل الملك العادل إلى القاهرة أتابكا ومدبرا لشئون الملك الصغير على مصر والشام .

وفاة القاضي الفاضل :

وفي ذات الليلة التي كان العادل يدخل فيها إلى القاهرة ، كانت جنازة القاضي الفاضل تسير به نحو لحدده . . وكان ذلك استجابة لدعاء دعا به إلى الله أن لا يدعه تحت رحمة العادل ، فقد كان العادل قد أضمر به شرا عندما اقترح أن يكون الأفضل هو مدبر شئون الملك المنصور .

والقاضي الفاضل هو أبو علي محيي الدين عبد الرحيم من مواليد مدينة عسقلان عام ٥٢٩ هـ أرسله أبواه إلى ديوان الانشاء بالقاهرة في أواخر العهد الفاطمي فاشتغل بالأدب وحفظ القرآن ، ووصل بنبوغه إلى حد أن أصبح متولى ديوان الجيش الفاطمي على عهد الخليفة العاضد ، ثم نقل إلى ديوان المكاتبات فلما تولى أسد الدين شيركوه الوزارة الفاطمية واحتاج إلى كاتب أرسل إليه القاضي الفاضل . وعندما

تولى صلاح الدين الملك عهد اليه بديوان الانشاء فأخلص في تعليم صلاح الدين أسرار الحكمة وقواعد الادارة ، وقدم اليه أجل الخدمات . فاتخذ منه صلاح الدين وزيراً له وناصحاً ومستشاراً ، فأخلص العمل واصدقه .

وتعتبر كتاباته التى تملأ مئات المجلدات (على ما قيل) أو بالأحرى ما بقى منها من اكبر مصادر تاريخ هذه الفترة من حياة مصر والشرق العربى .

خلع المنصور وتسلطن العادل :

خطا الملك العادل خطواته الأخيرة التى عمل لها جاهدا منذ وفاة أخيه صلاح الدين وهو أن يكون وريثه ، فجمع الأمراء والقضاة والفقهاء وقال لهم أنه : قبيح به أن يكون اتابكا لصبى صغير مع شيخوخته وتقدمه والملك ليس بالارث ، وإنما هو ابن غلب .

ولقد كان يجب ان يكون هو السلطان بعد وفاة أخيه صلاح الدين . ولكنه ترك ذلك اكراما لأخيه ورعاية لحقه . فأما وقد حصل ما حصل من خلافات تهدد بخروج الملك ككلية من أسرة صلاح الدين فلم يبق الا ان يقوم هو بالحكم وينهض بأعبائه . فأقره المجتمعون على قوله . . وفى الحادى والعشرين من شوال من هذه السنة قطع العادل الخطبة عن المنصور بن العزيز ، خالعا اياه من الملك الذى لم يدم الا سنة وتسعة أشهر وداعيا لنفسه .

١٢٠٠ م ٥٩٧ هـ : مجاعة وقحط في مصر :

على ان الأقدار عيسيت في وجه السلطان العادل ، فقد استهل اتفراده بالحكم بفترة من المجاعة والقحط وتحالف معها الزلازل الذى أصاب البلاد فانتهى ذلك الى كارثة مخيفة يفيض المؤرخون على عاداتهم فى وصف أهوالها فيقول لنا المقرئى أن العادل وحده كفن فى مدة يسيرة مائتين وعشرين ألفا من الموتى .

عبد اللطيف البغدادى :

واذ كان عبد اللطيف البغدادى الرحالة الشقة قد عاش فى مصر فى هذه الفترة فقد رأينا أن ننقل بعض ما قاله لتصوير نوع ما كانت تتعرض له البلاد فى هذه الحقبة من التاريخ ، اذ تخلف النيل عن الفيضان بعض سنوات متعاقبة ، فكادت البلاد تغرب ليس فقط نتيجة من يموتون بل نتيجة من يهاجرون منها بالجملة ويدعونها خراباً . يقول عبد اللطيف البغدادى :

« كانت القرية تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسمة تمر عليها فتراها دمنه (أى خراب) وربما وجد فيها أحد وربما لم يوجد . أما مصر فخلا معظمها ، وأما بيوت الخليج وزقاق البركة والمقس وماتاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلاً ، بعد

ما كان كل قصر منها قدر مدينة مزدحمة بالناس . وحتى الرباع والمساكن والدكاكين التي في سرة القاهرة أصبح أكثرها خاليا وخرابا . وأن ربعا في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى أربعة بيوت أسكنت بمن يحرس الموقع .

ولا يفوت عبد اللطيف البغدادي أن يحدثنا عن الظاهرة الاقتصادية والاجتماعية الخالدة وهي أن مصائب قوم عند قوم فوائد فيقول :

وبما يقص به العجب ان جماعة من الذين مازالوا مجددين سعدوا في دنياهم في هذه السنة ، فمنهم من أثرى بسبب متجره في القمح . ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالأرث ، ومنهم من حسنت أحواله لغير سبب معروف ، فتبارى من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته بسط .

من حوادث الجوع :

ثم يروح عبد اللطيف البغدادي يصور لنا بعض الحوادث المتكررة التي رآها بعيني رأسه :

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظهر معها (طفل) صغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ويقبلون على شئونها وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره . فعاد تعجبي أشد وما ذلك إلا لكثرة تكراره على أحاسيسهم حتى صار في حكم المألوف الذي لا يستحق أن يتعجب منه .

اختلال الأمن :

وأما القتل والفتك في النواحي فكثير فاش في كل فج ، ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية . وقد كان بطريق الفيوم ناس في مراكب يرخصون الأجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطريق ذبحوهم واقتسموا أسلابهم .

وظفر الوالى منهم بجماعة فمثل بهم وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذي خصه دون رفاقه ستة آلاف دينار .

جثث الموتى في الطرقات :

أما عن موت الفقراء هزالا وجوعا فأمر لا يحيط بعلمه إلا الله سبحانه وتعالى ، والذي شاهدناه بمصر (أي الفسطاط) والقاهرة ، أن الماشي ابن كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت - ويرفع من القاهرة خاصة إلى الميضاة كل يوم ما بين مائة إلى خمسمائة .

وأما ممر (الفسطاط) فليس لوتها عدد ، ويرمون ولا يواريون . وفي الآخر عجز عن رميهم فبقوا في الأسواق بين البيوت والدكاكين . بحيث قد يوجد الميت ، والى جانبه الشواء والخباز ونحوه .

وهذه الصورة التي برسمها لنا عبد اللطيف البغدادي على بشاعتها تتسم بالدقة ، كما يبدو من سياقها ، أما غيره من المؤرخين فيعممون الكلام ويرسلونه رسالا ، ويسردون من الوقائع ما يقف الانسان أمامه حائرا لا يعرف كيف تستمر الحياة بعد هذا الذي يقواونه : من ان الرجل كان يذبح ولده الصغير وأمه تساعد في طبخه ونسيه .

أو أن الرجل كان يدعو أعز الناس لديه ثم يذبحه ويأكله : وان ذلك — كان عاما وشائعا .

وفاة بهاء الدين قراقوش :

وفي هذه السنة توفي بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الاسدي الخام الخصي وهو الذي بنى قلعة الجبل والصور على مصر والقاهرة والقنطرة التي عند الاهرام وغير ذلك .

وكان صلاح الدين يثق به ويعول عليه ، ولما فتح عكا سلمها اليه ، ثم لما استولوا عليها وأخذوه أسيرا فاداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار ، وقيل ستين ألف دينار .

يقول ابن خلكان : والناس ينسبون اليه أحكاما عجيبة : ابان توليه نيابة مصر عن صلاح الدين : حتى ان أسعد بن محاتى الشاعر ألف عليه كتابا لطيفا سماه « الفاشوش في أحكام قراقوش » وفيه أشياء يستبعد وقوعها منه : والظاهر أنها موضوعة ، فان صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفاءته ما فوضها اليه .

وفاة العماد الكاتب :

كما مات في هذه السنة بمدينة دمشق عماد الدين الكاتب محمد بن عبد الله ابن حامد الاصفهاني الذي كتب لنور الدين ومن بعده لصلاح الدين ولازمه في السلم والحرب وحضر معه معركة حطين واستعرض الاسرى واحدا واحدا ، وكتب البشارة بالفتح الى سائر الجهات .

وقد لزم داره بدمشق بعد وفاة صلاح الدين وعكف على التأليف . . فآلف خمسة مؤلفات تاريخية أشهرها « الفتح القسي في الفتح القدسي » وخصصه لسيرة صلاح الدين منذ عام ٥٨٣ هـ حتى انتهى به في عام ٥٨٩ هـ عند وفاته كما ألف كتابا في الادب اسماه خريدة العصر صور فيها أعمال صلاح الدين وحروبه تصويرا ادبيا رائعا .

١٢٠١ م — ٥٩٨ هـ — خروج العادل الى الشام لحرب أبناء صلاح الدين :

لم يرض أبناء صلاح الدين ، الملكان الأفضل والظاهر استئثار عمهما العادل بملك مصر والشام : فاتفقا على أن يخلعاه عن ملك الشام بالاستيلاء على دمشق فقصدا المدينة وحاصراها ، وأوشكا أن يستوليا عليها ، ولكن العادل استطاع كفا

هو دأبه ، أن يوقع من جديد بين الاخوين ، فارتدا عنها قبل وصول الملك العادل
نفسه الى دمشق : وعاد الملك الافضل الى صرخد ، بينما عاد الملك الظاهر الى
دولته في حلب .

ومع ذلك فقد قصد السلطان العادل الى دمشق فدخلها واستقر بها ثم توجه
نحو حلب لحرب الملك الظاهر بها ، حتى اذا وصل الى حماه ، تدخل الويسطاء
ف عقد الصلح بين السلطان العادل وابنى صلاح الدين .

غارات الصليبيين :

ولكن هذه المنازعات شجعت الصليبيين على شن سلسلة من الهجمات على
القواعد الاسلامية في الشام ومصر ، فأغار أسطول صليبي على مصر ودخل فرع
النيل برشيد حتى وصل الى مدينة فوه فنهبها وقتلوا من قدروا عليه من سكانها ،
وظلوا مرابطين في المدينة خمسة أيام : حتى اذا - سمعوا باقتراب الجيش منهم
انسحبوا من المدينة .

وفعلوا مثل ذلك بأكثر من بلد من بلاد الشام وفلسطين ، فجنح السلطان العادل
الى مصالحتهم وعقد هدنة معهم ، وتمت الهدنة بالفعل (٦٠١ هـ) على أساس
أن ينزل العادل للصليبيين عن مدينة يافا التي فتحها ونصف مدينتي اللد والرملة .

وبعد أن أبرم العادل هذا الاتفاق عاد الى مصر .

١٢٠٤ م - ٦٠١ هـ - الحرب الصليبية الرابعة :

انتهت الحرب الصليبية الثالثة كما رأينا بصلح الرملة الذي اعتبره المؤرخون
الاوربيون انتصارا ساحقا لصلاح الدين وفشلا ذريعا للحملة الصليبية الثالثة ،
ولذلك فقد عمل البابا انوسنت الثالث على أن يشعل نار حرب صليبيه رابعة ،
ليستعيد سيطرة البابا على الحركة الصليبية أملا منه في توحيد الكنيستين
البيزنطية (الارثوذكسية) واللاتينية (الكاثوليكية) ولكن انوسنت الثالث لم يلق
إذنا صاغية هذه المرة من الملوك فقد كان لدى كل منهم ما يشغله ، فالنزاع بين
فيليب الثاني ملك فرنسا ، وحناء الثاني ملك انجلترا ، كان يستنفد كل جهودهما . .
وكانت الحالة السياسية في المانيا شديدة الاضطراب . وملوك اسبانيا المسيحيين
كانوا في شغل بحربهم مع مسلمي الاندلس .

وهكذا لم يستجب للبابا سوى الاقطاعية الفرنسية ممثلة في بعض الامراء .

مفاوضات مع البندقية وانحراف الحملة :

وكأنت تجارب الحملات الصليبية السابقة قد دلت الاوربيين على أن مصر هي
العقبة في سبيل استيلائهم على بيت المقدس ، فأصبح هدفهم الاول هو الاستيلاء
على مصر ، ولما كان الوصول الى مصر لا يتم الا بحرا ، فقد دخل قادة هذه

الحملة في مفاوضات مع جمهورية البندقية لتقدم مساعدتها البحرية مقابل ٨٥ ألف مارك ذهبي ، فضلا عن النزول لها عن نصف الغنائم المنتظرة .

ولكن قادة الحملة عجزوا عن تقديم المبلغ الذي تعهدوا به ، فرضيت أن تقوم بتعهداتها في نقل الحملة الى مصر ، اذا استولت على مدينة زارا الخارجة عليها والتي أصبحت تحت حماية ملك المجر . فاستجاب قادة الصليبيين لهذا الطلب واستولوا على مدينة زارا وخربوها .

وقد أهاج هذا العمل الشائن غضب البابا أنوسنت الثالث فأصدر قرار حرمان على الحملة الصليبية الرابعة مخرجا أياها من رحمة الكنيسة .

استيلاء الحملة على القسطنطينية :

تصادف أن قام نزاع في هذه الفترة بين أفراد الأسرة الحاكمة على عرش بيزنطة ووصل أحد الأفراد المتنازعين على العرش الى البندقية بحثا عن أى قوة ترفعه الى العرش ، فاستغل دوج البندقية (داندولو) هذه الفرصة وقد كان بينه وبين بيزنطة منافسات تجارية وسياسية عنيفة ، فأقنع قادة الحملة الصليبية أن يغيروا وجهتهم للاستيلاء على القسطنطينية بدلا من مصر .

واستطاعت الحملة الصليبية الرابعة بالفعل أن تستولى على القسطنطينية وهو أول استيلاء عليها في التاريخ ، وارتكبوا من الفظائع وأعمال التخريب والتدمير والنهب والقتل : ما تفص به كتب التاريخ .

وانشأ الصليبيون امبراطورية لاتينية في الشرق ، حلت محل الامبراطورية البيزنطية ، واستمرت قرابة خمسين عاما (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) وكان بلدوين دى فلاندرز هو أول امبراطور لهذه الدولة . وحل بطريك لاتيني من البندقية محل البطريرك البيزنطي وانتهى بذلك الانفصال الكنسى من الناحية النظرية ، ولكن البيزنطيين أفسدوا جميع المحاولات للتوحيد بين الكنيستين الارثوذكسية والكاثوليكية .

وكان للبندقية ثلاثة ائمان القسطنطينية : فضلا عن مدن أدرنة وغاليبول وجزيرة كريت والجزر الايونية كلها .

وقد روعت هذه الحوادث أوروبا كلها : وانزعج البابا أنوسنت الذى كان السبب في قيامه هذه الحملة الصليبية الرابعة ، فاذا بها تنحرف هذا الانحراف العجيب ، وتصبح نقمة على المسيحيين وليس على المسلمين .

وقد اهتز مركز البابوية وتلطخت سمعة الحركة الصليبية كلها . وكان لذلك كله الأثر الأكبر : في النجاح الذى لن يلبث أن يحرزه الإنجليز وحفهم غربا .

هل كان للعادل أثر في هذا التحول ؟

ويقول بعض المؤرخين أن سياسة العادل كان لها دور في تحويل هذه الحملة الرابعة عن مصر والشام ، فقد أرسل خلال هذه المدة سفارة الى البندقية تحمل بعض الهدايا ووعد بأن تمنح القاهرة البندقية مزايا استثنائية اذا بذل اللوج نفوذه لابعاد الحملة عن مصر . وشك مؤرخون آخرون في هذه الرواية ، ولكن الدكتور الشيبال يرجح صحتها . خاصة وان العادل يعقد بالفعل عام ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) معاهدة مع البندقية يمنحها فيها كثيرا من المزايا التجارية في الاسكندرية مقابل التعهد بمنع أى حملة صليبية من التوجه الى مصر .

١٢٠٧ م - ٦٠٤ هـ - الملك العادل يعيد الوحدة الصلاحية :

في هذه السنة بعث الخليفة العباسي التقليد بولاية مصر والشام والموصل وخلط للسلطان العادل ، وخطب السلطان العادل بشاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين .

وقد اقيمت بهذه المناسبة احتفالات لم يسبق لها مثيل في دمشق ، وصفها لنا بتفصيل ابن واصل في كتابه مفرج الكروب .

اتمام بناء قلعة الجبل واستقرار الكامل بها :

وفي هذه السنة اتم الملك الكامل ابن السلطان العادل والذي كان متوالى حكم مصر نيابة عن أبيه : بناء قلعة الجبل التي بدىء بانشائها في عهد صلاح الدين وانشأ بها مقرا لاقامته وتحول اليها من دار الوزارة بالقاهرة ، فكان أول من سكنها من ملوك مصر .

١٢١٢ م - ٦٠٩ هـ - حملة الأطفال الصليبيين :

يقف المؤرخ أى مؤرخ مبهورا أمام الحادث العجيب في حياة أوروبا والذي يعكس ويصور مدى ما كانت عليه ، من جهل وتعصب وإيمان بالخرافات ، فقد ادعى في فرنسا صبي من الرعاة يدعى استيفن الفندومي ، أن المسيح أمره بقيادة حملة من الأطفال لانقاذ بيت المقدس فاستجاب له الأطفال والصبيان الذين فروا من أمهاتهم وآبائهم : وتجمع حوله ثلاثون ألف طفل خليط من الأولاد والبسات اللواتي لبسن لباس الأولاد وكان عمر الاكثرين منهم في الثانية عشرة أو ما يقرب منها .

ووصل هذا الحشد الى مرسيليا في طلب سفن توصلهم الى الشرق ففرر بهم التجار وأصحاب السفن من أهل مرسيليا وحملوهم الى الشغور الإسلامية وخاصة الاسكندرية حيث بيعوا فيها بيع الرقيق .

أما الأحسن حظا من هؤلاء فقد غرقت بهم السفن واستقروا في أعماق البحر حيث أقيم نصب لتخليد ذكراهم في إحدى الجزر الغربية من الشاطئ الفرنسي .
ويقال انه بينما كان ذلك يجري في فرنسا ، فان حركة مماثلة تماما قامت في ألمانيا حيث حشد صبي آخر يدعى نيقولا الكولدن جيشا من الأطفال ووصل بهم الى الشواطئ الإيطالية ، ولكن هؤلاء كانوا أسعد حظا من زملائهم الفرنسيين ، فقد طردهم الإيطاليون وأعادوهم الى بلادهم وأسرهم .

١٢١٧ م - ٦١٤ هـ - الحملة الصليبية الخامسة :

دعا البابا انوسنت الثالث الى الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة في المجمع البابوي الرابع ، وذلك لابقاء الفكرة الصليبية حية ، فاستجابت لندائه جموع كثيرة تحت قيادة ملك المجر ، وعند مرورهم بجزيرة قبرص ، اصطحبوا معهم ملكها الذي كان يعتبر نفسه ملكا المقدس ونزلوا على مدينة عكا ، ومن هناك زحفوا بقيادة ملكي المجر وأورشليم على بلاد الشام .

فأسرع الملك العادل الى الشام لمواجهةهم ، ولكنه أثر التريث كما هو دأبه ريشما تصل اليه نبذات ملوكه وأمرائه ، ولذلك فقد بدأ خطته بالانسحاب من أمام الصليبيين الذين لم يجدوا امامهم اى مقاومة ، فانساحوا في بلاد الشام يقتلون وينهبون ويسرقون ويسبون . .

فزع المسلمون وراحوا يستغيثون بالعادل ، فكان يسكن روعهم بقوله : ان الخلاف سيقع قريبا في جيش الصليبيين ، وليس هذا الجيش سوى سحابة ستنقشع بأقل ريح تهب عليها .

وصدقت تقديرات الملك العادل جزئيا ، فعندما حل فصل الشتاء تضرر الصليبيون ، ولم ينته الشتاء الا وكان القسم الأكبر من جيشهم حيث كان ملك المجر قد يئس من الوصول الى نصر حاسم فعاد الى بلاده بعد أن أقام في فلسطين ثلاثة أشهر ، أما ملك قبرص لوزينا فقد مرض ولم يلبث أن مات .

وهكذا كان يمكن أن يؤدي ذلك الى انتهاء الحملة الصليبية الخامسة دون أن تحقق أشياء ولكن الجيوش ما فتئت تنهال من وراء البحار حتى تجمع للصليبيين في عكا جيش ضخم جديد سرعان ما سوف يتلجه اتجاهها جديدا .

١٢١٨ م - ٦١٥ هـ - تحول الحملة الصليبية الى مصر :

يقول ابن واصل في كتابه مفرج الكروب ، شارحا هذا الاتجاه الجديد للحروب الصليبية :

لما طالت مدة اجتماع الفرنج بمرج عكا اجتمعوا للمشاورة فيما يبدءون بقصده فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا وقالوا : ان الملك الناصر صلاح الدين انما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه دينار مصر وتقويه برجالها ، فالمصلحة أن نقصد مصر أولا ونملكها ، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع من أخذ القدس وغيرها من البلاد .

واستقر الرأي على أن يكون الاستيلاء على مصر هو هدف الحملة ، فركبوا البحر وقصدوا بحمولهم الديار المصرية فوصلوا في شهر صفر من هذه السنة ونزلوا على الضفة الغربية للنيل وكانت تسمى (ضيرة دمياط) فأصبح بينهم وبين مدينة دمياط نهر النيل . وكان يقوم على النيل برج منيع وفيه سلاسل من حديد غليظ كان يمد على النيل فيمنع المراكب الواصلة من البحر الأبيض للدخول الى الديار المصرية . ويقول المؤرخون المسلمون أن عدة من نزل من الصليبيين الى شاطئ النيل الغربي سبعون ألف فارس وأربعمائة ألف راجل .

وعندما وصل نبأ نزول الصليبيين مقابل دمياط الى الملك الكامل نائب السلطان ، أسرع بجيشه من القاهرة متجها نحو الشمال ، في الوقت الذي أرسل فيه الأساطيل الى دمياط ، ونزل ببلدة العادلية قرب دمياط وعسكر بها . وذلك في الوقت الذي بدأ أبوه مده بالنجدة والامدادات من عسكر الشام فبدأت تصله بالتتابع .

وبعد حرب دامت أربعة أشهر استطاع الصليبيون أن يستولوا على البرج الخامس لدخل النيل ، فاستطاعوا بعد ذلك أن يدخلوا أسطولهم من البحر الى النيل ، وعلى الرغم من عظم هذا النصر العسكري باستيلائهم على البرج . فقد ظلت مدينة دمياط مستعصية يحميها جيشها من الداخل ، وجيش الملك الكامل من الخارج .

وقد عالج الملك الكامل سقوط البرج ونزع السلسلة ، باغراق عدة سفن في مجرى النيل لتحول دون نفوذ الأسطول الصليبي الى داخل البلاد .

وفاة الملك العادل في الشام :

حزن السلطان العادل حزنا شديدا عندما سمع بسقوط البرج في يد الصليبيين وأدى به الحزن الى المرض ، ولم يلبث أن أدركته المنية في السابع من جمادى الثاني من هذه السنة في بلدة عالقين .

وكان عمر العادل يوم مات خمسا وسبعين سنة ، وكان الحاكم الاوحد لكل مملكة صلاح الدين من برقة الى مصر بلاد النوبة واليمن حتى الموصل شمالا لمدة تسع عشرة سنة .

وكان الملك العادل قد قسم البلاد قبل وفاته بين اولاده ، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية ، والملك المعظم عيسى البلاد الشامية ، وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية ، والملك الأوحد مدينة خلاط وقد توفي في حياة والده .

ويعتبر حكم العادل استمرارا لحكم صلاح الدين وسياسته ، فقد كان العادل زائلا صلاح الدين طوال حياته وناصحه ومستشاره .
تولى السلطان الكامل ملك مصر وسقوط دمياط :

بويع السلطان الكامل بالملك على مصر بعد وفاة أبيه ولكن عماد الدين أحمد بن المشطوب أحد رؤساء الجند أراد أن يستغل الموقف الدقيق الذي تجتازه البلاد ليستأثر بالنفوذ فتآمر مع بعض زملائه القواد وأمرأء الجند على خلع الكامل وتولية أخيه الملك الفائز إبراهيم . وعلم الكامل بنباء المؤامرة ، فخشى على نفسه وهجر معسكره بالعادية في الليل وانسحب جتوبا الى أشمون طناح .

فلما أصبح الجند وجدوا أنفسهم بغير سلطان ، ففرقوا منهزمين تاركين أثقالهم وخيامهم وأسليحتهم وأموالهم .

١٢١٩ م - ٦١٦ هـ - سقوط دمياط :

انفتح الطريق أمام الصليبيين ليعبروا الى الشاطئ الشرقى دون أن تصادفهم أى مقاومة ، فتم ذلك في يوم الثلاثاء السادس من ذى القعدة ، ووقعت في أيديهم هذه الغنيمة التى لم يكونوا يحلمون بها ، وهى معسكر الجيش المصرى بأكمله وبكل ثروته وقد كان شيئا يجلب عن الوصف على ما يقول المؤرخون المعاصرون .
ثم شرعوا يحاصرون دمياط .

ولكن أهل المدينة وحمايتها استبسلاوا في الدفاع عنها بحيث ظلوا يقاومون الحصار طوال ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . دون أن يستطيع الكامل أن يمد يدا لانقاذهم ، فقد كان الصليبيون قد أنشأوا حول جيشهم المحاصر الخنادق والحصون التى تحول دون الاقتراب منهم ، وكان البحر مفتوحا أمامهم ترد منه عليهم الامدادات والتموين .

وانتشرت المجاعة داخل دمياط ، حتى غصت شوارعها بالموتى ولم يبق أمامهم الا التسليم على أن يتعهد الصليبيون بحماية ارواحهم .

وفي الخامس والعشرين من شعبان من هذه السنة دخل الصليبيون المدينة فنكثوا بالعهد الذى قطعوه على أنفسهم بحماية الأرواح ، ووضعوا السيف فيمن وجدوه في المدينة ، وبناتوا ليلتهم الأولى يفجرون في مسجد المدينة بالنساء ويغتصبون الفتيات ، وأخذوا المنبر والمصاحف ورعوس القتلى وبعثوا بها الى بلادهم ، وحولوا الجامع الى كنيسة .

السلطان الكامل يعيد بناء قواته :

لم يتقدم الصليبيون الى داخلية البلاد عقب استيلائهم على دمياط ، فقد تريثوا ريثما تصلهم نجدات جديدة ، وبالفعل وصل اليهم جيش المانى .

حتى اذا استكملوا عدتهم بدأوا في زحفهم ، وقد تضاعفت روحهم المعنوية بما
أحرزوه من نصر في دمياط .

وكان هذا التلكر الذي وقع فيه الصليبيون هو فرصة الكامل للكى يقضى على
المؤامرة التى دبرت له ، ولكى يعيد تنظيم جيشه وكان قد اتخذ له موقعا قرب مدينة
طلخا عند مخرج بحر أشمون طنّاح (البحر الصغير) وأمر بإنشاء الدور والفنادق
والحمامات والأسواق فى هذا الموقع الذى تحول إلى مدينة ، لن تلبث أن يطلق عليها
اسم المنصورة ، لما أحرزه عندها الكامل من نصر .

وكان اخوة الكامل ملوك الشام ، قد تمكنوا من الوصول بجيوشهم لآلجاده ، حتى
بلغ عدة فرسانه أربعين ألفا ، مما قوى معنوية المسلمين ، وزاد فى حماسة أفراد
الشعب الذين لم يدخروا وسعا فى تقديم العون والخدمات لهذا الجيش .

مفاوضات الكامل من أجل الصلّاح :

وبدأ الكامل سلسلة من المفاوضات مع الصليبيين فى مقابل الجلاء عن مصر ،
فعرض عليهم أن يعيد لهم البلاد التى فتحها صلاح الدين وهى القدس وطبرية
واللاذقية وجبلة ، وجميع بلاد الساحل ولم يستثن سوى حصنى الكرك والشوبك .
فانقسم الصليبيون ازاء هذا العرض ، فالملك يوحنا دى برايانا ملك القدس رأى أن
يقبل هذا العرض ، ولكن وكيل البابا عارض فى قبوله وكان يؤيده فرسان المعبد
(الداوية) والاستيالية وكان لكل مصلحته فى الرفض والقبول .

فملك القدس سيعود الى عاصمة ملكه . أما مندوب البابا يؤيده العناصر
الاطالية فقد كانوا يطمعون فى ثروة مصر وتجاريتها ، وأما فرسان الداوية والاستيالية
فكانوا لا يرغبون النزول عن قلعتى الكرك والشوبك ومن هنا فقد رفضوا العرض .

ورضى أخيرا السلطان الكامل أن ينزل لهم عن الكرك والشوبك ، فأبى الصليبيون
الا أن يدفع لهم فوق ذلك ثلثمائة ألف دينار كتعويض عن تخريب أسوار القدس ،
حيث كان الملك المعظم أخو السلطان الكامل قد خربها فى هذه الفترة خوفا من أن تقع
فى يد الصليبيين .

وعند هذه النقطة تعثرت المفاوضات .

ولن نستطيع أن نفهم عروض الكامل السخية الا فى ضوء الظروف التى كانت
تحيط به فى ذلك الوقت . فقد كان الشقاق بينه وبين بقية أفراد البيت الأيوبرى قد
بلغ ذروته وأصبح كل ما يهم السلطان سلامة أراضى مصر .

ولكن الدكتور نظير سعداوى فى كتابه القيم : الحرب والسلام زمن العدوان
الصليبي ، يحاول أن يعطى تفسيراً لتصرف الكامل فى هذا الموقف وفى مواقفه المقبلة
كلها ، وهو تقدير السلطان الكامل للخطر المغولى الذى سنتحدث عنه والذى أصبح
يهدد الكيان الإسلامى بأكثر مما يهدده الصليبيون .

المنصورة المنصورة :

لم يبق امام الكامل الا الحرب والقتال ، فاستغل تفوق المصريين في معرفة طبيعة بلادهم ، وأرسل أسطولاً من السفن المصرية تحت قيادة بدر الدين حسون ، عن طريق بحر المحلة وهو أحد فروع النيل الذي كان يخرج منه قرب مدينة بنها ليتصل به ثانياً شمال المنصورة ، فوصلت هذه السفن الى النيل شمال موقع الصليبيين : وترصدت لسفن الصليبيين التي ترد عليهم بالمؤونة واستطاعت ان تنصر عليها وتفرق بعضها وتأسر بعضها ، بينما ارتد الباقي الى دمياط من حيث جاءوا ، وهكذا ضاق الخناق على الصليبيين .

ومن ناحية أخرى أطلق المصريون ماء النيل وكان في أيام الفيضان فغمرت الاراضى المحيطة بمعسكر الصليبيين ، بحيث لم يبق ما يصلهم بدمياط سوى شريط ضيق من الأرض . . وحاصر المصريون هذا الشريط من الأرض فجالوا بين الصليبيين وبين الارتداد الى دمياط . . وانهالت عليهم السهام وناوشهم الاعراب وسكان البلاد ، في الوقت الذي قلت فيه اقواتهم ، وهكذا تحرح موقفهم وانقلب رأساً على عقب .

١٢٢١ م ٦١٨ هـ : عقد الصلح وانسحاب الصليبيين من دمياط :

وبعد ان كان الصليبيون يرفضون عروض الصلح ، بدأوا هم الذين يقدمون العروض ، فعرضوا ان ينسحبوا من مصر كلها ومن دمياط في غير مقابل وان تعقد بين الطرفين هدنة لمدة ثمانى سنوات .

واختلفت الآراء في معسكر السلطان الكامل ، فكان من رأى البعض ان لا صلح معهم بعد ان أصبحت أبادتهم مسألة زمن . واذا كان ولا بد من عقد الصلح فيجب ان ينزلوا عن الشريط الساحلى الذى لازال بأيديهم فى أرض فلسطين .

ولكن خوف السلطان الكامل ، من ان تصل الى الصليبيين نجدات جديدة فتغير الموقف ، جعله يبادر بقبول هذا العرض .

وانسحب الصليبيون من دمياط فى التاسع عشر من شهر رجب سنة ٦١٨ هـ - التاسع من سبتمبر ١٢٢١ م . وتسلمها السلطان الكامل الذى دخل الى دمياط فى يوم مشهود وحواله اخوانه الملوك وقواده وعساكره ، والشعب يضيح بالتهليل والتكبير . . وتبارى الشعراء فى ازجاء الثناء على الكامل وأخوته .

وكانت مدة نزول الصليبيين على دمياط حتى انسحابهم منها ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة عشر يوماً .

ظهور التتار وجنكيز خان :

وفي الوقت الذي أصيب فيه المسلمون بهذه الكارثة كانت الانبياء ترد من الشرق البعيد بوفود خطر أكثر وحشية وعنفا : وان بدا في ذلك الوقت انه لا يزال في بلاد بعيدة .

يقول ابن الاثير في حوادث هذه السنة (٦١٧ هـ) :

لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استغظا لها كارها للذكرها ، فانا أقدم رجلا وأوخر أخرى فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، 'قياليت أمي لم تلدني ، وياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

ان قوما خرجوا من اطراف الصين ، فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاد سايجون ، ثم منها الى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما فيملكونها ويفعلون بأهلها ما سوف نذكره ، ثم تعبر طائفة منهم الى خراسان فيفرغون منها ماكا وبخريبا وقتلا ونهباً ، ثم يتجاوزونها الى الري وهمدان وبلاد الجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ، ثم يقصدون بلاد اذربيجان وأرمينية فيخربونها ويقتلون أكثر أهلها ، ولم ينج منهم إلا الشريد القادر ، وذلك كله في أقل من سنة وهو ما لم يسمع بمثله . ولم يلبث أحد من البلاد التي لم يطرقوها الا وهو خائف يتوقعهم ويتربص وصولهم اليه ، ثم انهم لا يحتاجون الى مزة ومددا يأتيهم قنان معهم الاغنام والبقر والخيول وغير ذلك من الدواب يأكلون لحمها .

واما دوابهم التي يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل من عروق النبات ولا تعرف الشعير ، فهم اذا نزلوا منزلا لا يحتاجون لشيء من خارجها .

ولقد حكى عنهم حكايات يكاد يسمعها السامع فيكذب بها وذلك من الخوف الذي القاه الله سبحانه وتعالى في قلوب الناس ، حتى قيل أن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو الدرب وبه الجمع الكثير من الناس فلا يزال يقتلون واحدا واحدا لا يتجاسر أحد أن يمد يده الى هذا الفارس .

ولقد بلغني أن انسانا منهم أخذ رجلا ولم يكن مع التتري ما يقتله به ، فقال له ضع رأسك على الارض ولا تبرح مكانك ، فوضع رأسه على الارض ومضى التتري فأحضر سيافا قتله به .

ونحن نعرف اليوم أن هؤلاء الاقوام هم المغول الذين استطاعوا تحت قيادة جنكيز خان ، أن يستولوا على الصين شرقا ، ثم يزحفوا غربا ليستولوا على كل هذه البلاد التي عددها ابن الاثير . . وكان أعظم الملوك الاسلاميين الذين يواجهونهم هو الملك محمد خوارزم شاه الذي قوض ملك السلاجقة في المشرق وأقام دولة تركية

خوارزمية محتلهم في بلاد فارس وخراسان ، فهزموه هزيمة شنيعة واستولوا على بلاده .

وهكذا يعتبر عام ٦١٧ هـ من أسوأ الاعوام التي مرت على مسلمي ذلك الزمان ، فحيث الصليبيون يهددون مصر في الغرب وقد استولوا على دمياط ، كان المغول قد بدأوا يطحنونهم من الشرق .

١٢٢٥ م - ٦٢٢ هـ : انشاء المدرسة الكاملية :

أصبح من حق الكامل ، وقد انتصر على الخطر الصليبي أن يفرغ لشئون مصر الداخلية ، وكان من أكبر ما اتصف به الكامل هو شغفه بالعلم والعلماء ، وعلم هذا الزمان كان هو في الدرجة الاولى علوم الدين ، ولذلك أنشأ مدرسة لتكون خاصة بعلم الحديث : فبنى لها دارا عظيمة أوقفها على المشتغلين بالحديث النبوي ومن بعدهم على فقهاء الشافعية .

١٢٢٧ م - ٦٢٤ هـ - وقوع الخلاف بين الكامل والظاهر :

في هذه السنة تفاقم النزاع بين الملك الكامل وأخيه الملك الظاهر ملك دمشق ، فقطع الظاهر الخطبة عن أخيه الكامل ، واتصل بالسلطان جلال الدين بن الملك محمد خوارزم شاه الذي خلف أباه على بلاد فارس وخراسان بعد موته ، وكان قد استعاد هذا الملك من التتار بعد عودة جنكيزخان الى بلاد الصين وطلب الملك الظاهر من جلال الدين أن يكون حليفا له ضد أخيه الكامل اذا حاول أن يتعرض له في مقابل أن يخطب له على المنابر ويدعو له .

فاتصل السلطان الكامل من ناحيته بالامبراطور فردريك الثاني امبراطور المانيا وايطاليا وصقلية عارضا عليه نوعا من التحالف والتعاون ، وترددت السفارات بين سلطان مصر وامبراطور المانيا وهما يتبادلان الهدايا .

وأوشك الاصطدام أن يقع بين الكامل والظاهر ، بكل ما يستتبع ذلك من تصدع في الجبهة الاسلامية ، لولا أن عاجلت المنية الملك الظاهر فتولى من بعده ابنه الملك الناصر داود ، فتم الاتفاق بينه وبين عمه على تسوية حالت دون وقوع الصدام في اخرج الاوقات .

١٢٢٧ م - ٦٢٤ هـ - وفاة جنكيزخان :

وفي هذه السنة توفي الملك جنكيزخان طافية التتار ومالكهم الأول ، بعد أن خرب البلاد والعباد ، ولم يكن للتتار ذكر من قبله ومن عجب أن جنكيزخان لم يكن مجرد

سفاح ، يقدر ما كان رجل دولة ، فقد كان هو الذى وضع دستور الحكم للمفسول
اطلاق عليه اسم الياساق ، وهو باللغة المغولية سى يسا ، والتي تحولت الى كلمة
سياسية .

١٢٢٨ م - ٦٢٥ هـ - الحرب الصليبية السادسة :

لم يكن للبابوات عمل فى هذه الحقبة من التاريخ الا ازكاء روح الحرب الصليبية
كلما خبت ، فلانكاد احدى الحملات تبوء بالفشل ، حتى يتربص البابوات بعض الوقت
ريثما ينسى الملوك والشعوب حديث فشلها ويدعون الى القيام بحملة جديدة .

ولكن كان من المحقق أن روح الحماس الدينى الطاغى الذى صاحب قيام الحرب
الصليبية قد انتهى : وحل محلها جشع مادى استعمارى ، يدل على ذلك تحول
الحملات الصليبية عن بيت المقدس الى مصر ، وقد أشرنا من قبل الى أن الملك المعظم
انخ الملك الكامل قد خرب أسوار مدينة القدس ، فأصبحت مدينة مفتوحة : ومع
ذلك فلم يتقدم جيش صليبي لاحتلالها .

وبدا البابا يستحث فردريك الثانى امبراطور المانيا على ان يقوم بحملة صليبية
جديدة يسترد بها بيت المقدس ، وخاصة بعد أن أصبح فردريك وارثا للملكة ايزابيلا
التي كانت تعتبر الملكة الاسمية لمملكة القدس .

ومع شديد رغبة فردريك الثانى أن يسترد بيت المقدس لما فى ذلك من تدعيم
لسلطانه وهيبته : فان السفارات التي كان يبعث بها السلطان الكامل اليه ، قد
جعلته يؤثر أن يحصل بالدبلوماسية على ما لم تحصل عليه الحملات الصليبية
السابقة بالقوة فتقاعس عن تجهيز حملة عسكرية مما أحنق البابا عليه فأصدر ضده
قرار حرمان ومن عجب أن فردريك الثانى قد استطاع ان يسترد للصليبيين بيت
المقدس دون أن تراق نقطة دم واحدة .

الكامل وفردريك :

ولن نستطيع أن ندرك كيف تم ذلك الا اذا استحضرنا شخصية هذين الرجلين
الكامل وفردريك الثانى وكيف كان كل منهما يمثل شخصية الحاكم الادارى - المثقف
الذى يعنى بالاصلاح ونشر العلم ، وانشاء المدارس والمعاهد ويؤمن بحرية الفكر
والتسامح الدينى بأكثر من ايمانه بالحرب .

ويقول لنا كانتوروفتر مؤرخ فردريك الثانى واصفا السلطان الكامل ، كان الملك
الكامل صورة شرقية من الامبراطور ، أن لم يكن أقرب الى الصيحة أن نقول أن
الامبراطور فردريك كان صورة غربية من السلطان الكامل .

وكان الامبراطور فردريك باعتباره ملكا لجزيرة صقلية : أصبح آمينا على تراث
الجزيرة الاسلامى الذى احتفظ به ملوك النورمان .

وكان كاسلافه يجيد اللغة العربية ، ويكرم علماء المسلمين ، وكان لديه فرق إسلامية أنشأ لأفرادها جامعا يؤدون فيه صلواتهم . ضارباً بذلك مثلاً أعلى في التسامح ولكن ذلك كله كان سابقاً لأوانه في أوروبا التي كانت غارقة حتى أذناها في التعصب الدينى .

ولكن هذه الأخبار التي كان ينقلها سفراء الكامل بعد عودتهم من سفاراتهم لدى فردريك الثانى : كان لها أثرها فى نفس السلطان الكامل ، حتى لقد عرض عليه على يد الأمير فخر الدين ، وهو يفوضه ليكسب صداقته ويحقق الدماء ويتخذ منه حليفاً يعاونه فى منازعائه ضد أخيه أن يعطيه بيت المقدس صلحاً على أن يظل المسجد الأقصى بيد المسلمين تقوم به الشعائر الإسلامية .

وجاء فردريك الثانى الى مدينة عكا فيما أطلق عليه اسم الحملة الصليبية السادسة ، ولكن فردريك الثانى لم يصطحب معه سوى ستمائة فارس : مما يدل على أن الأمر قد سوى بينه وبين السلطان الكامل بالفعل . وتم توقيع معاهدة بين الرجلين على الشروط التالية :

— يسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها قد آلت اليه بحكم الوراثة باعتباره ملك بيت المقدس شريطة أن لا يقيم الصليبيون بها حصونا أو قلاعاً وأن تكون مدينة منزوعة السلاح : وتبقى منطقة المسجد الأقصى بيد المسلمين يمارسون شعائرهم الدينية بالمسجد شريطة أن لا يحملوا سلاحاً .

— يأخذ الإمبراطور مدينة بيت لحم والناصرية وطريق الحج من بيت المقدس حتى يافا على الساحل .

— يطلق السلطان الكامل من يده من أسرى المسيحيين .

— يتمتع فردريك الثانى بمخالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتى لو كانوا مسيحيين صليبيين .

— يضمن الإمبراطور عدم وصول امدادات صليبية الى الإمارات الصليبيتين الأخرين أنطاكية وطرابلس .

— تسرى هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات .

١٢٢٩ م - ٦٢٦ هـ - دخول فردريك الى القدس :

فى الثامن من ربيع الأول من هذه السنة نودى فى مدينة القدس بخروج المسلمين من المدينة (ماعدا منطقة المسجد الأقصى) وتسليمها للفرنجة . يقول المقرئى فى المخطط : فكان أمراً مهولاً من شدة البكاء والصريخ ، وخرجوا بأجمعهم فساروا الى مخيم الكامل وأذنوا على بابه فى غير موعد الاذان ، فزجرهم الكامل وأشتد عليهم .

وعظم الأمر على المسلمين ونثر الأثكار على الكامل وشنت المقاتلة فيه .
وكانت هذه فرصة الملك الناصر ملك داود للتشنيع على عمه فأستغل الحادث
أكبر استغلال : وحرض المؤرخ الشهير والواعظ الكبير الشيخ سبط بن الجوزي على
استنكار تصرف الكامل : فخطب في المسجد الاموي في فضائل بيت المقدس وراح
يعدد ما حل بالمسلمين من المصائب بسبب تسليم المدينة المقدسة للصليبيين ، فارتفع
بكاء الناس وعلا الضجيج .

وام يكن الحال في الجانب الآخر ، جانب فردريك والعالم المسيحي بأحسن حالا
من موقف الكامل — فقد غضب البابا على فردريك الثاني بسبب هذه المعاهدة :
وأصدر قرار حرمان على مدينه القدس نفسها حتى لا يصل اليها مسيحي . ولذلك
فعندما دخلها فردريك الثاني لم يجد قسيسا واحدا يقبل أن يتوجه ملكا على بيت
المقدس : فأضطر أن يضع التاج بنفسه على رأسه .

وكان المؤنسون الوحيدون للملك فردريك هم سفراء المسلمين الذين عينهم الملك
الكامل لمصاحبة فردريك في المدينة والسهر على راحته .

وتعويض كذب التاريخ في تفاصيل هذه الراحة والتي وصلت الى حد أن طلب من
المسلمين في بيت المقدس أن لا يؤذنوا للصلوات حتى لا يعكروا مزاج الامبراطور ،
فلما علم الامبراطور بذلك أظهر أسفه ، وقال أنه كان من أكبر أمانيه أن يسمع
أذان المسلمين في المسجد الاقصى .

دفاع عن الكامل :

ومرة أخرى وجد الكامل من يدافع عن تصرفه بسبب الخطر المغولي فقد
اتجهت الدبلوماسية الصليبية كلها ، وتلخصت جهود بابا روما في عمل اتصال مع
المغول لوضع خطة موحدة للهجوم على العالم الاسلامي وسحقه من المغول من
الشرق والصليبيين من الغرب . . فأفسد السلطان الكامل هذه السياسة
بتصالحه مع الصليبيين .

الملك الكامل يستولي على دمشق :

هيأت المعاهدة مع الصليبيين ، لكي يتفرغ السلطان لتصفية الخلافات الداخلية
فزحف على دمشق وكان أخوه الملك الاشرف يحاصرها ، فأستولى عليها وسلمها الى
أخيه الملك الاشرف ليكون نائبه عليها وأخرج منها ابن أخيه الملك الناصر ، وأعطاه
حصون الكرك والشوبك والقلعاء والسلط والاغوار على سبيل التعويض ، على أن
هذه الحروب بين أفراد الأسرة ، لم تنقطع طوال سنوات حكم الكامل ، فكان يبارح
مصر من حين لآخر ليخوض حربا هنا أو هناك ، ضد هذا الأمير ، أو للاستيلاء على
هذا الحصن الذي تمرد عليه .

١٢٣٠ م - ٦٢٨ هـ - معاودة التتار الهجوم ووفاة السلطان جلال الدين :

استأنف التتار في هذه السنة زحفهم غربا للاستيلاء على دول المسلمين ، وكان السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه الذي تصدى لمقاومتهم قد اضطربت احواله ، وبدلا من ان يتحالف مع خليفة بغداد و السلطان مصر ، كان ينتهز فرصة سكوت التتار عنه وبغير على أرض الخليفة العباسي ، فينهب ويقتل ويسلب ، وقد اصطدم حول مدينة خلاط بالملك الأشرف أخ السلطان الكامل ، فلما استأنف المغول هجومهم الساحق ، عجز جلال الدين عن مواجعتهم وفر وحيدا الى إحدى القرى الكردية فقتل بها وحيدا طريدا شريدا .

وهكذا لم يبق ما يحول بين المغول وبين الهجوم على العراق .

١٢٣١ م - ٦٢٩ هـ - الكامل يتوجه الى الموصل لمحاربة التتار :

لم يكد التتار يستولون على كل بلاد فارس بعد مصرع جلال الدين بن خوارزم شاه الا وبدأوا يطوقون الموصل والجزيرة وهران فقتلوا وسلبوا ، فخرج السلطان الكامل من مصر لحربهم ، وانضم اليه أخوه الملك الأشرف موسى صاحب دمشق وتداعى اليه ملوك الايوبيين وأمرائهم ، وقصدوا الى ديار بكر ، ولكن التتار كانوا قد تراجعوا الى بلادهم قبل وصول السلطان الكامل ، وهكذا تأخر هذا الصدام الحتمي بين قوة التتار الزاحفة ، والقوة الوحيدة التي لاتزال قادرة على التصدي لهم ، قوة مصر .

على ان السلطان الكامل التهمز فرصة وجوده في هذه النواحي ، فانتزع مدينة آمد وما حولها من صاحبها الملك مسعود لاساءته السيرة في حكمه ، ومنحه اقطاعا في مصر تعويضا له .

وجعل ابنه الصالح نجم الدين أيوب ملكا على آمد وما حولها ليقف في وجه التتار اذا حدثتهم انفسهم بالهجوم مرة ثانية .

١٢٣٤ م - ٦٣٢ هـ - وفاة القاضي بهاء الدين بن شداد :

مات في صفر من هذه السنة مؤلف أحد مراجعنا الرئيسية لتاريخ صلاح الدين ، وهو القاضي بهاء الدين شداد وكان قد بلغ من العمر ثلاثا وتسعين سنة ، أي أنه عاش بعد موت صلاح الدين أربعين سنة ، وترجع أهمية كتبه كمصدر أساسي لتاريخ صلاح الدين انه كان قاضي عسكر صلاح الدين ، فصحبه بهذه الصفة في كل معاركه .

١٢٣٧ م - ٦٣٥ هـ - وفاة الكامل في دمشق :

في الحادى والعشرين من شهر رجب من هذه السنة مات الملك الكامل في مدينة دمشق ، وكان قد خرج اليها بعد وفاة أخيه الملك الأشرف ليسلمها لمن يشاء من الأمراء فتعرض له عمه الصالح اسماعيل ، ولكنه سرعان ما هزم ، وتسلم السلطان الكامل المدينة ، ولكنه لم يكد يستقر بها حتى مرض ثم لم يلبث أن مات ، وكان عمره يوم مات ستين سنة . ملك مصر منها أربعين سنة ، منها عشرين سنة في حياة أبيه ، وعشرين سنة بعد وفاة أبيه ، فأشبه ذلك على ما يقول أبو الفدا موقف معاوية بن أبي سفيان من حكم الشام ، حيث كان نائبا عليها عشرين سنة ، ثم خليفة عشرين سنة أخرى .

يقول ابن خلكان : واتسعت مملكة السلطان الكامل ، وقد خكى لى من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة أنه لما وصل الخطيب الى الدعاء للسلطان الكامل قال : سلطان مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وضناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ورب العلامتين وخادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين .

ويقول عنه المقرئى : كان ملكا مهابا حازما سديد رأى حسن التدبير عفيفا عن الدماء . وكان يباشر أمور مملكته بنفسه من غير اعتماد على وزير أو غيره ، ولم يستوزر بعد الصاحب صفى الدين بن شكر احدا ، وانما كان يندب من يختاره لتدبير الأشغال وقد عمرت أرض مصر على أيامه عمارة جيدة ، وكان يخرج من زكاة الاموال التى تجبى من الناس سهمى الفقراء والمساكين ويعين مصرف ذلك لمستحقه ويعززا منه معالم الفقهاء والصلحاء . وكان يجلس كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم يجتمعون عنده للمناظرة .

ومن أعماله انه أقام على كل الطرق خفراء لحفظ المسافرين .

البهاء زهير :

وفي عهد السلطان الكامل نبغ في مصر الشاعر الكبير البهاء زهير والذي لا يلبث أن يصبح من اكبر رجالات الدولة في عهد ابن الصالح نجم الدين ايوب .

سلطنة الملك العادل ابو بكر على مصر :

لما مات السلطان الكامل بدمشق كان ابنه العادل نائبا على مصر فاتفق الأمراء على تولية العادل ابى بكر ليكون سلطانيا على مصر وأقاموا الجواد يونس ابن عمه ، نائبا عن السلطنة في دمشق . على أن يبقى أخوه الملك الصالح نجم الدين ايوب على ممالك الشرق كما هو .

وكان عمر العادل لا يتجاوز يوم ولى السلطنة ثمانية عشر عاما في الوقت الذى كان فيه أخوه الصالح نجم الدين ايوب يكبره في العمر ، فلما وصل اليه النبأ لم يرض به ، وسعى لأن يكون هو السلطان .

١٢٣٩ م - ٦٣٧ هـ - سلطنة الصالح نجم الدين أيوب على مصر :

لم يستطع الملك الصالح أيوب أن يحقق ارادته في أن يكون سلطان مصر عندما أعلن رغبته في ذلك ، بل لقد تنكب به حفله ، حتى أوشك أن يفقد حياته ، ثم اعتقله الملك الناصر داود في حصن الكرك . . ولكن المقادير لم تلبث أن هيأت له السبيل لتحقيق هدفه ، فدخل الى مصر يوم الاثنين ٢٥ من ذى الحجة ، وخلع أخاه العادل واعتقله وحمل بقية الأمراء وقادة الجند على مبايعته سلطانا ، وهكذا لم تزد مدة سلطنة أخيه على عام واحد وشهرين وبضعة أيام .

١٢٤٠ م - ٦٣٨ هـ - انشاء قلعة الروضة ونظام المماليك :

بوصول السلطان الصالح نجم الدين أيوب الى الحكم في مصر ، كان الخلاف والتنافس بين أمراء الأسرة الأيوبية قد وصل ذروته ، وبدأ يعمل عمله في انحلال هذه الأسرة . ولذلك فقد فكر الصالح نجم الدين أيوب أن يتخذ لنفسه جندا من نوع جديد عليهم ويكونوا محل ثقته ، ليحلوا محل الأكراد والعناصر التي قامت عليها الدولة الأيوبية .

فاقدم على شراء المماليك من الترك وبعض القبائل المغولية ، ممن كانوا يسمون في ذلك الوقت (الخطائية) نسبة الى مملكة الخطا .

واتخذ من هؤلاء المماليك جندا وأمراء بعد عتقهم . وبنى لهم قلعة خاصة بهم في جزيرة الروضة . وكانت جزيرة الروضة قبل ذلك بستانا ومنزها للملوك ، فحولها الى دار حكم وأقام بها بعد أن انتقل من قلعة الجبل .

وسرعان ما تحولت قلعة الروضة - على ما يقول المقرئ - الى مدينة صغيرة اقيمت فيها الدور والقصور ، وكان يحيط بها ستون برجا .

وكانت عدة المماليك الذين بدأ بهم الصالح جيشه الخاص ، ألف مملوك أطلق عليهم اسم المماليك البحرية ، وذلك بسبب أنهم أصبحوا يسكنون في جزيرة وسط النيل ، ولكن الدكتور جمال الدين الشيال يعترض على أن يكون هذا هو الأصل في التسمية ، وعنده أنهم إنما سموا كذلك لأنهم كانوا يجلبون عن طريق البحر ، ولكن الرأي الأول هو الأشهر والمتعارف عليه ، وفي أمور التاريخ يصبح الأشهر هو المعول عليه .

وكان الصالح نجم الدين يشتري الأرقاء المجلوبين من وراء النهر (سيجون وجيجون) من العناصر التركية ، ويتعهدون بالتربية الدينية والعسكرية من نعومة اظافرهم فمن يبدى منهم استعدادا ونباهة يحرره سيده ويعهد اليه بوظيفة من

وظائف الحاشية ، وكلما أبدى استعدادا للنقد والتطور ، رفع سيده مكانته الى مقدم عشرة أى أن يتبعه عشرة جنود ثم مقدم مائة أى يكون فى خدمته مائة جندى ، وفى هذه الحالة يقود مثل هذا الأمير ألف جندى فى حالة الحرب .

وهذا الأمير الجديد ، يشرع بدوره فى تكوين أتباعه الخاصين به فيشتري الرقيق من ماله ، ويتبع معهم نفس الأسلوب الذى اتبع معه .

وأصبح قدر أى أمير من أمراء الممالك يقاس بقوته وشجاعته الشخصية ومدى ما يملكه من أتباع يحرسونه بعناية ويذودون عنه .

وبدأت قوة هؤلاء الممالك ، من أنهم يتربون من صغرهم ، وهم لا يعرفون ولاء الا لآسيادهم وزملائهم ، ولا عمل لهم الا التدريب على الحرب وحمل السلاح والقتل والفتك .

ولن يلبثوا وهذا شأنهم أن يتحولوا الى القوة الحاكمة الحقيقية فى البلاد كما حدث دائما فى التاريخ على ما فصلناه فيما سبق وآخر ما مر بنا من ذلك فى العهد العباسى عندما شرع المعتصم فى تكوين جيش منهم .

الأيوبيون فى الشام يخرجون عن الطاعة ويستعينون بالصليبيين :

رفض أمراء الأيوبية فى الشام أن يكون للصالح نجم الدين أيوب سلطان عليهم . وكان على دمشق الملك الصالح ، فاتفق مع الناصر داود صاحب الكرك أن يكونوا حلفاء ضد نجم الدين ، واتصلوا بالصليبيين وتحالفوا معهم ضد الصالح أيوب ، فى مقابل أن ينزلوا للصليبيين عن مدينتى العسقلان وطبرية ، فاستولى عليهما الصليبيون ، وأعادوا تعمير قلعتيهما كما سلموا اليهم كذلك منطقة المسجد الأقصى ، التى كان مقررا بموجب المعاهدة مع الكامل أن تظل للمسلمين .

ويحدثنا ابن واصل ، أنه مر بالقدس فى ذلك الوقت متوجها الى مصر فرأى القساوسة وقد وضعوا على الصخرة زجاجات الخمر على سبيل قربان . . وقد علا نجم الشيخ عز الدين بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء فى هذه الفترة ، حيث انكر على ملك دمشق الصالح اسماعيل تحالفه مع الصليبيين ضد المسلمين فقبض عليه واعتقل ولكن ذلك لم يجعله يغير موقفه .

١٢٤٤ م - ٦٤٢ هـ : الصالح نجم الدين يدحر الصليبيين ويسترد بيت المقدس :

تصدى السلطان الصالح أيوب لهذا الحلف غير المقدس بين الأمراء من آل أيوب والصليبيين .

وكان السلطان الصالح منذ أقامته فى الشرق فى مدينة آمد وحسن كيفا ، قد استمال قلوب الجنود الخوارزمية الذين فروا من وجه التتار بعد مقتل ملكهم جلال

الدين الخوارزمي ، وحبيب اليهم أن يعملوا معه ولحسابه ، وظلت هذه الصلة قائمة بينه وبينهم بعد وصوله إلى عرش مصر ، فما أن خرج أمراء الشام عن طاعته ، وتحالفوا مع الصليبيين أرسل الصالح أيوب إلى جيش الخوارزمية أن يزحفوا على الشام في الوقت الذي بعث من مصر بقوة يرأسها ركن الدين بيبرس البندقداري (وهو غير الظاهر بيبرس) .

وكان الصليبيون من ناحيتهم قد تجمعوا تحت زعامة ملك النافار ودوق برجندى وكونت سيمون دي منتفرات ، يشد أزهرهم أمير دمشق وأمر حمص .

معركة غزة أو حطين الصفري :

وعند مدينة غزة تم اللقاء بين القوى الصليبية ومخالفاتها من أمراء المسلمين وبين جيش الصالح أيوب ، فهزم الصليبيون ومخالفوهم من أمراء المسلمين هزيمة منكرة ، وإذا كان الأمراء من الصليبيين وخلفائهم المسلمين نجوا بأنفسهم ، فإن الجنود الصليبيين قد وقعوا جميعا قتلى أو أسرى بحيث أطلق على هذه المعركة اسم حطين الصفري . . وقد استولى جيش الملك الصالح أيوب على أثرها على مدينة غزة والساحل ، ومدينة القدس وأرسلت البشارة بالفتح في الخامس عشر من جمادى الأولى (٦٤٢ هـ) فأمر بتزيين القاهرة وقلعتي الجبل والروضة ، ويبلغ المصريون في الزينة ،

ثم جاءت رؤوس القتلى وجماعات الأسرى لتزيد إلى بهجة الاحتفال .

١٢٤٥ م - ٦٤٣ هـ : استيلاء الملك الصالح أيوب على دمشق .

وإم يكن من الطبيعي أن تبقى دمشق بعد الذي حدث من تعاون الصالح اسماعيل مع الصليبيين وهزيمته معهم . تحت سلطانه فقد دخلت عساكر الملك الصالح أيوب تحت قيادة معين الدين بن الشيخ وتسلمها من يد الصالح اسماعيل الذي كان محصورا بها مع الأمير ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص . بعد أن تم الاتفاق على أن يسلموا بدل بلديهما بلادا أخرى .

القضاء على الخوارزمية :

تصور الخوارزمية بعد أن أسهموا في الحصول على النصر ضد الصليبيين والأمراء الخوارج والاستيلاء على دمشق : أن أراضي الدولة ستقسم عليهم ، فلما لم يتحقق ذلك ، أعلنوا ثورتهم وتمردهم على الصالح أيوب ، وأعلنوا عزيمتهم على الاستيلاء على البلاد لحسابهم .

فأدى هذا الخطر إلى عودة التعاون والاتحاد بين أمراء البيت الأيوبي فوقفوا صفا واحدا ضد الخوارزمية واستطاعوا أن يدحروهم وأن يبددوا شملهم ، فقتل منهم من قتل وفر إلى الشرق ومن فر ليعمل في خدمة التتار، بينما تفرق عدد منهم على شكل أفراد ، توزعوا في أنحاء البلاد وعاشوا مع النبايس وذابوا فيهم .

١٢٤٨ م - ٦٤٦ هـ : الحملة الصليبية السابعة :

أحدث سقوط مدينة القدس مرة أخرى في أيدي المسلمين رد فعل في أوروبا ، لا يقل عن رد فعل سقوطها المرة الأولى بيد صلاح الدين ومن جديد دعا البابا انوسنت الرابع الى حرب صليبية جديدة .

وجمع مجلسا روحيا في مدينة ليون ١٢٤٥ م تقرر فيه أن يؤلف لويس التاسع ملك فرنسا ، حملة سابعة لتخليص القدس .

الملك القديس :

وقد كان الملك لويس التاسع مخلصا لدينه متفشفا متواضعا ، يخالط الفقراء ويعطف عليهم ، وكان محبوبا من رعيته وسائر المسيحيين .

وعندما شرع في تجهيز الحملة الجديدة ، أقام مهرجانا دينيا كبيرا في دير سان دنيس ، اشترك فيه الألوف من الفرسان والعامة ورجال الدين وفي هذا المهرجان تسلم لويس علم الدبر المقدس ، ثم ارتدى ملابس الحجاج السوداء ، فاقتدى به سائر فرسان الحملة ومشاتها .

وأبحر لويس التاسع من مياه فرنسا على رأس أسطول ضخم يقولون ان عدة سفنه بلغت ١٨٠٠ سفينة تحمل ثمانين ألف مقاتل ومعهم عدتهم ومؤونتهم وخيولهم .

مصر هدف الحملة :

وكانت مصر هذه المرة هدف الحملة بعد ان زاد اقتناع أوروبا الصليبية أن لا سبيل للاستيلاء على بيت المقدس الا بعد هزيمة مصر أولا أو هكذا كانوا يقولون : ولكن الحقيقة ، أن الاطماع المادية هي التي أصبحت تسير الحملات الصليبية لا المبادئ الروحية ، فقد أصبح غنى مصر وثروتها هو المطمع وليس فلسطين الفقيرة ، بما فيها القدس . ووصلت الحملة في هذه السنة الى جزيرة قبرص قاعدة الهجوم على مصر لتمضية أشهر الشتاء بها .

فكان ذلك على ما يقول المؤرخون أول أخطاء هذه الحملة ، فلو أنها بادرت الى دمياط لاتيح لها أن تفاجئ الجيش المصري قبل أن يستعد، ولكن الحوادث ستكشف أن مصر لم تستفد من هذا التأخير .

لويس التاسع يدعو التتار للتعاون على القضاء على المسلمين :

استغل لويس التاسع اقامته في جزيرة قبرص لكي يدخل في مفاوضات مع المغول في الشرق لكي يهاجموا المسلمين من الشرق في نفس الوقت الذي سيهاجمهم فيه الصليبيون من الغرب، وقد تضمن كتاب الدكتور نظير سعداوي « الحرب والسلام

زمن العدوان الصليبي « تفاصيل السفارات المختلفة التي تبودلت بين لويس التاسع والتتار ، ولكن إرادة الله شاءت أن لا تصل هذه المباحثات الى اتفاق .

الصالح أيوب يعود الى مصر من الشام :

تلقى السلطان الصالح نجم الدين أيوب نبأ الحملة الصليبية الجديدة قبل وصولها ، اذ أنبأه بها الامبراطور فردريك الثاني طبقا للمعاهدة المبرمة بينه وبين السلطان الكامل والد الصالح أيوب وكان السلطان الصالح نجم الدين في الشام عندما تلقى هذا الخبر ، وكان مريضا بمرض خطير يعوقه عن ركوب فرسه . فأمر أن يحمل في محفة وعاد مسرعا الى مصر ، ونزل عند قرية الشمووم طنح .

وبدا يتخذ الاستعدادات العسكرية لملاقاة الصليبيين ، فأصدر أوامره أن تشحن دمياط بالأسلحة والجنود ومواد التموين التي تمكنها من الصبر على حصار طويل . كما أرسل قائد الجيش الأمير فخر الدين على رأس جيش كبير ليعسكر على الشاطئ الغربي للنيل ليحول بين الصليبيين وبين النزول الى البر .

١٢٤٩ م - ٦٤٧ هـ : وصول الفرنسيين الى مصر واستيلائهم على دمياط :

على الرغم من استعداد المصريين الكامل لملاقاة الصليبيين فقد نزل الصليبيون الى البر ، وان كانوا نزلوا في مكان يقع الى الغرب من موقع الجيش المصري . ثم وقعت بعض المناوشات بين طلائع الجيشين ، دون أن يقع اصطدام على نطاق واسع . وحدث أن الأمير فخر الدين على ما تقول بعض الروايات أطلق الحمام الزاجل الى السلطان الصالح نجم الدين ليبلغه بنزول الصليبيين الى البر وحدث بعض المناوشات ، ولكنه لم يتلق ردا على رسائله ، ولما كان فخر الدين يعلم بمرض السلطان فقد تصور أن لابد أن يكون السلطان قد مات . ولذلك فقد انتظر حتى وافي الليل ، فانسحب بجيشه من الشاطئ الغربي الى الشاطئ الشرقي ، وأعمته اللفة على اتمام الانسحاب فلم يدمر الجسر الواصل بين شاطئ النيل فتركه قائما وأسرع يفل السير جنوبا تاركا دمياط وراءه .

وكان لهذا الانسحاب غير المتوقع اثره النفسي في حامية دمياط نفسها فتخلوا عن الدفاع عن المدينة وتركوا مواقعهم : وأسرعوا بدورهم يفرون فلم يبق أمام الاهالي وقد راوا تخلي الجيش عنهم الا أن يفروا بدورهم مدعورين هالعين ، تاركين بيوتهم وأموالهم وأسلحتهم ومدينتهم .

وفوجيء الصليبيون عندما أصبح الصالح بالطريق المفتوح أمامهم الى دمياط وتصوروا أن في الأمر خدعة ، فتربشوا بضع ساعات : حتى استبان لهم حقيقة الموقف ، فعبروا الجسر المقام على النيل ، ودخلوا الى دمياط المفتوحة الأبواب ، وأدهلهم ما عثروا عليه في المدينة من ثروات وأسلحة وأغذية ، وكل ما يحتاجون اليه

لفتح مصر . واعتبروا ان ذلك كله نصر من الله ونوفق اد سلمهم المدينة التي استقت اسلافهم ستة عشر شهرا ، في يوم واحد وبدون أن يضربوا ضربة واحدة .

ونستطيع ان نتصور غضب السلطان الصالح أيوب على فخر الدين قائد جيشه وعلى قواد حامية دمياط الذين تخلوا عن واجبهم المقدس في الدفاع عن المدينة ، حتى قيل أنه شنق خمسين من هؤلاء القادة ولم ينقذ فخر الدين من هذا المصير الا قوة نفوذه وحروجة الموقف وحاجة الصالح اليه .

لويس التاسع يفقد فرصته :

ومرة أخرى يقول المؤرخون أن لويس التاسع قد فقد فرصته الذهبية في الحصول على النصر ، فلو أنه بمجرد سقوط دمياط تابع زحفه لاستغل الحالة السيئة التي سادت الجيش المصري وهو يتراجع بغير انتظام والسلطان يشنق قادته ، والشعب في حالة فزع للسقوط دمياط .

ولكن مفاجأة الاستيلاء على دمياط بهذه السهولة أذهلت الصليبيين أنفسهم وشغلهم عن كل شيء الا التمتع بالكنز الذي حصاوا عليه في سهولة ، فضلا عن أن الريح كانت قد فصلت سبعمائة سفينة من أسطول لويس التاسع ، فلم تصل مع بقية الأسطول وقرر لويس ان لا يتقدم حتى تصل هذه السفن ، فلما وصلت متأخرة بضعة شهور بدأ من جديد الزحف .

والاجماع بين المؤرخين ، على أن الفرنسيين لم يستفيدوا شيئا من حملتهم الصليبية السابقة والتي فشلت فشلا ذريعا ، وذلك في الوقت الذي كان المصريين قد تعلموا منها كل شيء ، ففي الوقت الذي كرر فيه الفرنسيون كل أخطائهم الماضية ، كان المصريون يستغلون العوامل التي أدت الى انتصارهم في المرة السابقة . ولذلك فلم يكذ لويس التاسع يبدأ في زحفه ، حتى تراجع السلطان الصالح بجيشه الى مدينة المنصورة ، حيث جرت الموقعة الاولى التي انتهت بالنصر .

موت الصالح نجم الدين أيوب :

في ليلة الاثنين وكانت ليلة النصف من شهر شعبان من هذه السنة ٦٧٤ هـ (٢٢ نوفمبر ١٢٤٩) مات السلطان نجم الدين أيوب .

وكان موته في هذه الظروف يؤلب ضربة ساحقة للمصريين والمسلمين وقد رأينا كيف سقطت دمياط بدون قتال لمجرد الوهم بأنه مات ، فكيف وقد مات حقا ، ولكن هنا حدثت معجزة من معجزات التاريخ . ولم تكن هذه المعجزة الا شجرة الدر زوجة الصالح أيوب ، والتي قررت بحكمتها عدم اعلان وفاة السلطان على الجيش والبلاد في حالة المعركة ولما كانت هي الوحيدة التي تمت الوفاة بحضرتها ، فقد تكتمت الخبر ولم تعلنه ، وأمرت بأن يحمل في محفة سرا ، ويوضع في إحدى السفن فتسير به الى قلعة الروضة . وعهدت الى الاما فخر الدين بقيادة الجيش ، وكان كل الذي أصبح يملك عليه حياته هو أن يكفر عن خطئه الذي أدى الى ضياع دمياط .

ورنبت الأطباء بحيث يدخلون كالعادة الى حجرة السلطان وكانهم يعودونه ، كما كانت الأوامر الرسمية تدخل الى نفس الغرفة ونخرج ممهوراً بتوقيع السلطان وعلامته ، وكانت شجرة الدر قد حذقت تقليد الخط والعلامة وان كانت هناك روايات أخرى تقول أن الذي كان يقلد الخط هو خادم يسمى سهيل .

وأرسلت شجرة الدر رسلها الى الملك المعظم توران شاه ابن السلطان نجم الدين أيوب ، وكان مقيماً في حصن كيفا (بالوصل) تستدعيه الى مصر ليجلس على عرش أبيه ويقود المعركة .

بهذا الأسلوب الحكيم الملم ، حالت شجرة الدر دون تدهور الموقف وحفظت للجيش وقيادته سلامته ووحدته وتماسكه وروحه المعنوية بوجود سلطانه على رأسه . وكان عمر السلطان الصالح نجم الدين عندما مات أربعاً وأربعين سنة وكانت مدة سلطنته على مصر تسع سنين وسبعة أشهر وعشرين يوماً . ولم يكن له عقب يخلفه سوى ابنه توران شاه .

ويصور المؤرخون صورة قاتمة للملك الصالح من حيث بطشه وجبروته وان معظم الناس لم يحزن عند سماع نبأ موته .

ويعلق أبو المحاسن على أقوال المؤرخين بهذا الصدد بالعبارات التالية التي نوافق عليها .

وعندي أنه من أعظم ملوك بني أيوب وأجلهم رأياً وتديراً ومهابة وشجاعة وسؤدداً بعد صلاح الدين ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلداً على مقابلة العدو بالمنصورة وهو بتلك الأمراض المزمنة المذكورة وموته على الجهاد والذب عن المسلمين - الله برحمه ما كان أصبره وأغزر مروءته .

رثاء البهاء زهير :

وكان من حظ الصالح أيوب أن يحفظ لنا تاريخ الأدب مرثية البهاء زهير الرائعة له والتي جاء فيها .

ولقد سميت الى العلا بعزيمة	ففضى لسعي انه لا يحقق
وسريت في ليل كان نجومه	من فرط غيرتها الى تحديق
حتى وصلت سرادق الملك الذي	تقف الملوك ببابه تسترزق
ووقفت من ملك الزمان بموقف	الفيت قاب الدهر فيه يخفق
فاليك يانجم السماء فأنى	قد لاح نجم الدين لى متألق
الصالح الملك الذي لزمانه	حسن يتيه به الزمان ورونق
ملك تحدث عن أبيه وجده	نسب لعمرى في العلا لا يلحق
سجدت له حتى العيون مهابة	او ما تراها حين يقبل تطرق

كوبرى الملك الصالح :

ولا يزال سكان القاهرة حتى في عصرنا الحديث يعبرون جسر الملك الصالح الذى كان هو أول من أنشأه ليربط جزيرة الروضة بالفسطاط آية على أن الرجال الكبار لا بد وأن يظل اسمهم يتردد عبر السنين والقرون ويجرى على كل الألسنة .

١٢٥٠ م - ٦٤٨ هـ : هزيمة الصليبيين الساحقة :

تسرب نبأ وفاة الملك الصالح الى الصليبيين فوجدوا في ذلك فرصتهم لاستئناف زحفهم نحو الجنوب ، ناسين أن جيش المماليك وجموع الشعب قد أصبحت تقف لهم بالمرصاد . فراحوا - يناوشونهم ويتخطفونهم .

وكان الجيش المصرى في هذه الحقبة من التاريخ قد أصبح يحرق استعمال النار الافريقية التى طامأ صلى بحرهما والتى رأينا كيف كان لها الفضل في دحر الأساطيل الإسلامية .

وبدأ الصليبيون يتجرعون حر هذه النار ولهيبها .

وقد ترك لنا مؤرخ فرنسى وهو أحد الأمراء الصليبيين الذى كان يصاحب الملك لويس باعتباره أمير بلاطه وكبير أمنائه وهو جوانفيل، وصفا لآثر هذه النار في صفوف الفرنسيين ، وكأنه يصف غارة جوية في عصرنا الحديث فيقول :

كانت النار ترسل في انطلاقها الأضواء الباهرة التى تملأ رحاب المعسكر فيبدو وكأنه في وضوح النهار ، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليلة ثلاث مرات ، كما أطلقوها من قيسهم أربع مرات وكان الملك القديس ، كلما سمع أن النار الأفريقية قد صوبت نحونا ، انتصب واقفا على سريره ورفع يديه الى السماء وبدأ في الصلاة وعيونه مخضلة بالدموع وهو يقول : أبها الآله الطيب احفظ لى شعبى .

وقد خاض الفرنسيون بعض المعارك التى انتصروا فيها . والتى قتلوا في أحداها قائد الجيش الأمير فخر الدين ، وكان حتفهم في هذا النصر إذ أن القائد الفرنسى المنتصر وهو الكونت أرتوا قد هزه النصر فاندفع الى مدينة المنصورة قبل أن يدركه باقى الجيش ، وسار داخل شوارعها حتى وصل الى مقر الملك ، حيث كان المملوك ركن الدين بيبرس (الظاهر) يقف لحراسته فاستطاع أن يصمد هجمة الفرنسيين وأن يتحول من الدفاع الى الهجوم فيطاردهم في شوارع المدينة التى كان الأهالى قد سدوها في وجههم بالتاريس فاشتبك فرسان المماليك مع فرسان الفرنسيين ، بينما كان أهالى المدينة يلقون من النوافذ والأسطحة الحجارة على الفرنسيين : فلم ينته النهار الا وفرقة الفرسان التى اقتحمت المدينة قد أبعدت عن بكرة أبيها بما في ذلك قائدها نفسه الكونت أرتوا .

فكان لهذه الهزيمة الساحقة اثرها البعيد المدى في نفس الملك لويس التاسع وجيش الصليبيين .

توران شاه يشرف على المعركة :

وفي هذه الاثناء كان توران شاه قد وصل الى مصر واستقر في قصر الملك بالمنصورة يوم الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة .

واشرف على توجيه المعركة ، فأعاد خطة جده الكامل في - انزال اسطول مصرى شمال مواقع الفرنسيين لتقطع عليهم الامدادات وخط الرجعة . . واستطاع هذا الاسطول ان يستولى على مراكب الصليبيين التي جاءت تحمل لهم المؤونة والمدد، وكان عددها ٥٢ مركبا سقطت كلها في يد المسلمين ، فأسقط في يد الفرنسيين ، وقرروا التراجع الى دمياط حتى لا يضربهم الحصار .

ولكن الجيش المتراجع لم يكد يصل الى مدينة فارسكور حتى لحقت به الجيوش المصرية واحاطت به واوقعت بالجيش الصليبي هزيمة لم يسبق لها مثيل ، حتى قيل ان عدد من مات من فرسان الجيش عشرة آلاف ، وان عدد من اسر من باقى الجيش مائة الف . وقد يكون الرقم الاخير فيه شيء من المبالغة ولكن اهم من ذلك كله ان الملك لويس نفسه ومعه كل امرائه وفواده وقساوسته قد وقعوا جميعا في ذل الأسر وسيقوا الى مدينة المنصورة ، حيث أودع الملك لويس سجيننا في دار ابن لقمان التى لاتزال بقاياها قائمة حتى اليوم ، ووكل بحراسته الطواشى صبيح .

وقد حفظ التاريخ وصفا دقيقا لوقائع هذا الحدث العظيم اذ كتب الملك المعظم توران شاه لنائب السلطنة على دمشق جمال الدين بن يغمور رسالة يعلن فيها بشارة النصر ويصف ما حدث .

« الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، واما بنعمة ربك فحدث ، وأن تعدو نعمة الله لاتحصوها .

فبشر المجلس السامى الجمالى ، بل فبشر الاسلام كافة بما من الله به على المسلمين ، من الظفر بعدو الدين : فانه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ويئس العباد من البلاء ، والاهل والأولاد فنودوا « ولاتياسوا من روح الله » الآية . ولما كان يوم الاربعاء مستهل السنة المباركة تم الله على الاسلام بركتها فتحنا الخزائن ، وبدلنا الاموال وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان المطوعة واجتمع خلق لا يحصيهم الا الله تعالى ، فجاء من كل فج عميق ومن كل مكان بعيد سحق . ولما رأى العدو ذلك ارسل يطلب الصلح على ماوقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل ابى بكر فأبيننا ، ولما كان الليل تركوا خيامهم واثقالهم واموالهم وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في أثرها وطلبين ، ومازال السيف يعمل فيهم عامة الليل ، ويدخل عليهم الخزي والذل والويل ، فلما أصبحنا نهار الأربعاء ، فلما منهم ثلاثين الفا غير من القى بنفسه في

اللجج ، وأما عن الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والسجاء الفرنسيون إلى المينة
وطلب (ملكهم) الأمان فأمناه ، واخذناه واكرمناه ، وتسلمنا دمياط (١) بعونه وقوته
وجلاله وعظمته » .

وقد خلد الناريخ قصيدة جمال الدين بن مطروح والتي أنشدتها بمناسبة هذا
النصر وهي وإن كانت لاتعتبر من عيون الشعر إلا أنها أصبحت تؤلف إحدى الوثائق
التاريخية (٢) .

مقال صدق عن قؤول نصيح
من قبل عباد يسوع المسيح
تحسب أن الزمر ياطبل ريج
ضاق به عندنا طربك المسيح
بعحسن تدبيرك بطن الضريح
الافتيل أو اسيرا أو جريح
لعل عيسى منكم يستريح
فرب تحسن أثر من يصيح
لأخذ تار أو لعقد صريح
والقيد باق والطواشي صبيح

قل للفرنسيس إذا جئتـه
أجرك الله على ما جرى
أتيت مصر تبغى ملكا
فسألك الحي إلى أدهم
وكل أصحابك أودعتهم
خمسون الفا لا ترى منهم
وفقك الله لأمثالهـا
إن كان بابكم بداراضيا
وقل لهم ان ظهوروا عودة
دار ابن لقمان على حالها

مقتل الملك المعظم توران شاه :

أدار هذا النصر الكبير عقل توران شاه ، ففقد توازنه ، وبدلا من ان يحفظ لشجرة
الدر جميلها إذا انتقلت الموقف وحافظت له على العرش ، راح يهددها ويطلبها بما لديها
من أموال أبيه ويتوعدها بأشر أنواع العقوبات .

وبدلا من ان يكرم ممالك أبيه ، وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس الدين كان
لبسالتهم أعظم الأثر في تحويل معركة المنصورة من هزيمة إلى نصر ، اذ به يهددهم
ويتوعدهم لغير سبب ، وكان اذا شرب وسكر راح يقطع بسيفه الشموع المضيئة من
حواله وهو يقول هكذا سوف افعل بممالك أبي ويروح يسمى اسماءهم ، وكان يفعل
ذلك تحت تحريض حاشيته التي جاء بها معه من حصن كيفا والتي كانت تعمل
بدورها على الاستئثار بالسلطة في ظله وقد بادر فقلدهم اكبر الوظائف .

فأدى ذلك كله إلى تأمر شجرة الدر والممالك عليه ، فهجموا عليه في التاسع
والعشرين من شهر المحرم من هذه السنة (٦٤٨ هـ) وضربوه بسيوفهم وكان الضارب
له بيبرس البندقداري فلم تقتله الضربات وإن كانت قطعت أصابعه ، وهرب منهم

(١) لسنا نعرف إذا كان هذا مزيدا من توران شاه ، أم من كاتب الرسالة فان دمياط لم يتم
سليمها إلا بعد وفاة توران شاه .

(٢) اعتاد المؤلف في شبابه ، كلما وقف ليخطب متحدثا عن تاريخ مصر وامجادها ان يكرر هذه
الآيات : قد حفظها عشرات الألوف من الشباب .

والنجا الى برج ائيم في فار سكور ليحتفل فيه بالنصر ، فأضرموا النار ، ففهر بنفسه
من البرج الى ماء النيل فطاردوه حتى غرق ، ويقول المقريزي . . وهكذا قتلوه
سيفا وحرقا وغرقا .

اولم تزد مدة حكمه على ثلاثة شهور :

وبقتل توران شاه على هذا الاسلوب ، كان طابع الدولة الجديدة التي لن تلبث
ان تقوم ونعنى بها دولة المماليك البحريةية يتقرر ويتحدد ، وهو أسلوب الفنك
بالسلطين . واتخاذ الغدر وعمليات القتل كأساس ونظام متبع للوصول الى الملك ،
وبعد الوصول اليه للاحتفاظ بالسلطان .

شجرة الدر تنفذ الموقف :

وكان يمكن ان يتحول مقتل توران شاه في الظروف التي كانت تجتازها البلاد الى
كارثة فلم يكن هناك وريث للعرش متفق عليه ، وكان يمكن ان يقع الخلاف بين امراء
المماليك فيمن يكون جديرا بالسلطنة ، فتقع حرب اهلية يستفيد منها فلول الصليبيين
الذين كانوا لابلون يلرذون بمدينة دمياط : وهنا برزت من جديد شخصية
شجرة الدر لانقاذ الموقف فقد كان لها فيما يبدو من التأثير والمهابة بين المماليك الى
الحد الذي جعلهم يقدمون على خطوة لاسابقة لها في الاسلام وهو ان يرفعوا الى مرتبة
السلطنة امرأة تكون لها الولاية العامة على المسلمين جميعا رجالا ونساء ، وان كانوا
قد اتفقوا في نفس الوقت ان يكون عز الدين ابيك التركمانى مدبرا للمملكة معها .

سلطنة الملكة شجرة الدر أم خليل على مصر :

يقول عنها ابو المحاسن : هي الملكة شجرة الدر بنت عبدالله جارية السلطان
الصالح نجم الدين الذي اعتقها وتزوجها فانجبت له ولدا اسمه خليل ، وهي من اصل
تركي ، وكان الصالح يحبها حبا شديدا ، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة
ابيه ، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك . وقاست معه
الاهوال والمحن ، ثم قدمت معه مصر لما تسلطن ، وعاش ابنها خليل بعد ذلك وتوفي
صغيرا .

وكان اليها لفرط عظمتها غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح
وفي مرضه وبعد موته وهي تدبر الأمور على اكمل وجه . ويضيف الصفدي في اوصافها
انها كانت بديعة الجمال .

وهكذا بويعت شجرة الدر وخطب لها على المنابر ، وكان الخطباء يقولون بعد الدعاء
للخليفة : واللهم احفظ الجهة الصالحة ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين ام خليل
المستعصمة صاحبة السلطان الملك الصالح . ونقش اسمها على النقود ، وكانت صيغة
النقش على النقود : المستعصمة الصالحة ملكة المسلمين والدة المنصور خليل .

وقد استهلت سلطانها بمكافأة امراء الممالك البحرية فخلعت عليهم الخلع السنية ووزعت عليهم الاموال الوفيرة ، وهكذا استقر بها الحال واستطاعت ان تخطو الخطوة العظيمة التالية .

استعادة دمياط واجلاء الفرنسيين عن مصر :

واستطاع هذا الاجراء السريع بتولية شجرة الدر ان يمكن المصريين من جنى ثمار النصر الذي احرزته الجيوش المصرية على الصليبيين فقد استعيدت دمياط بعد ان ظلت في ايدي الافرنج احد عشر شهرا وتسعة ايام .

واطلق سراح ملك فرنسا بعد ان دفع الدية التي تم الاتفاق عليها والتي تتأرجع قيمتها في كتب التاريخ بين اربعمائة ألف دينار ومائة ألف دينار والراجح انها تقرب من الرقم الأخير وهو مايساوى بالعملة الفرنسية وقتئذ العشرة ملايين فرنك .

ويرى ستانلى لين بول في تأريخه ، انه ماكان باسطةا الفرنسيين ان يجلوا في سلام عن دمياط ، الا بفضل حكمة شجرة الدر وحسن تصرفها فقد كان امراء الممالك وقد سكروا بخمر النصر يرغبون في عدم الأخذ بالاتفاق الذي جرى بين توران شاه وبين الفرنسيين ، ويميلون الى اباداة الفرنسيين عن بكرة ابيهم حتى لا تحدثهم انفسهم بالعودة الى مصر ولكن شجرة الدر هي التي قدرت عواقب ذلك الوخيمة وتمسكت بوجوب تنفيذ المعاهدة ، واطلاق سراح لويس التاسع بمجرد دفع زوجته الفدية عنه . . وقد أقسم لويس التاسع قبل اطلاق سراحه واعطى على نفسه العهد والميثاق ان لا يتصدى لحرب مصر مرة اخرى أو يؤلب عليها .

لويس التاسع يعهل على استرداد القدس ويفاوض التتار :

ولكن لويس جريا على عادة الصليبيين في هذه الفترة لم يكونوا يأخذون مواعيقتهم مع المسلمين (الكفرة) مأخذ الجد . ولذلك فانه لم يكد يطلق سراحه ويعود الى عكا ويشهد النزاع بين الأمراء والأيوبيين والحكام الجدد في مصر ، حتى بدايحاول الاستفادة من هذا النزاع باسترداد بيت المقدس .

واستأنف مفاوضاته القديمة مع المغول للهجوم على العالم الاسلامى وهو لايلبث ان يتحقق .

تخلى الملكة شجرة الدر عن السلطنة :

أدركت شجرة الدر بحكمتها ان روح العصر لا تتقبل ان تلى امرأة السلطنة وان وقوع الاختيار عليها لم يكن الا لانقاذ الموقف .

ويحدثنا ابن اياس ان الخليفة العباسى عندما بلغه نبأ سلطنه شجرة الدر ارسل الى امراء مصر يقول لهم : اعلمونا ان كان مابقى عندكم في مصر من الرجال من يصلح للسلطنة حتى نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم انه قال : لا أفلح قوم ولوا امرهم امرأة ، وانكر عليهم اشد الانكار وهددهم وامرهم بالرجوع عن ذلك .

ولكن هذه الرواية لم يوردها المقرئى ولا ابو المحاسن بهذا التفصيل وان كانت مراجع اخرى تشير الى انكار الخليفة على المصريين سلطنة شجرة الدر .

كيفما كان الأمر فقد خلعت شجرة الدر نفسها لصالح عز الدين ايبك بعد ان تزوجها وكان ذلك فى التاسع عشر من شهر ربيع الثانى على ما يذكر المقرئى . فكانت مدة ملكها ثمانين يوما ، ولكنها ثمانون يوما حاسمة فى تاريخ مصر .

ويتولى عز الدين ايبك زوج شجرة الدر السلطنة انتهى حكم الدولة الايوبية من مصر بعد ان ستمر حكمها احدى وثمانين سنة ، ويصر المؤرخون على انها انتهت بمقتل توران شاه على اساس انه آخر سلاله هذه الأسرة فى مصر ولكن الحق انه يجب اعتبار سلطنة شجرة الدر ، استمرارا للحكم الايوبى ، فقد رشحها للسلطنة كونها زوجة الصالح ايوب .

ومن الحق ان يقال ان حكم الدولة الايوبية قد ظل فى الشام لعدة سنوات اخرى . لم يلبثوا ان قدموا الى العرش احدى ابناء الأسرة الايوبية ولذلك فلم يبعد عن الحق كثير من يقولون ان دولة المماليك تبدأ بدايتها الحقيقية مع سلطنة الظاهر بيبرس . على ان التقليد التاريخى ان دولة المماليك البحرية ، قد قامت بسطنة عز الدين ايبك على مصر .

تقدير الدولة الايوبية :

ولن نجد ونحن نودع الدولة الايوبية تقديرا لدورها فى تاريخ مصر ادق من هذا الذى قدرها به ستانلى لين بول حيث يقول :

كانت مصر ابان حكم الدولة الايوبية مزدهرة من الناحية الاقتصادية بصفة عامة وملوكهم الثلاثة الاول الذين شمل حكمهم ٥٩ سنة ، كانوا اذكىاء اداريين اكفاء ، فقد قدروا قيمة الثروة الزراعية للبلاد ، واهمية استتباب الأمن والنظام وسيادة العدالة ، ومن هنا لم نسمع طوال تاريخ الدولة الايوبية عن ثورة قام بها الشعب ضد الحكام .

واما عن علو الثقافة ورفاهية الحكام الثلاثة العادل والكامل والصالح نجم الدين فلدينا عنها شهادة المعاصرين من امثال ابن خلكان وابن الاثير والبهاء زهير ، وان مجتمعا يضم امثال هؤلاء ويجمعهم هم وعبد اللطيف البغدادى فى القاهرة ، لمجتمع يتحدث عن مدى وقبه بنفسه .

الاتصال بأوروبا تجاريا وسياسيا :

ولقد كشف الملوك الايوبيون عن روح واقعية عملية ، ففتحوا مصر للنجارة الأوربية ، فترى السلطان العادل عام ١٢٠٨ م يمنح تجار البندقية تسهيلات خاصة لتجارتهم عبر مصر كلها ، وسمح لهم ببناء الأسواق والفنادق الخاصة في الاسكندرية كما منح تجار بيزا امتيازات مماثلة وارسلوا قنصلا لهم الى الاسكندرية . وقد تجددت هذه الامتيازات عام ١٢١٩ م .

وكانت الضرائب التي تجبى على التجار غير المسلمين تبلغ عشر قيمتها . أما عن علاقة السلاطين الايوبيين برعاياهم المسيحيين فقد كانت علاقات طيبة ، وظلت تتحسن مع مرور الزمن ، حتى ان الكنيسة المصرية تعتبر السلطان الكامل اكرم واعدل حاكم عاش في ظله المسيحيون في مصر . وبلغ من اعجابهم به الى حد تصور امكان تحويله الى الدين المسيحي . وعلى الجملة يجب اعتبار حكم الايوبيين في مصر ، سواء من ناحية اتساع الرقعة التي شملتها سيادة الدولة ، أو من ناحية الازدهار الداخلى ، والقدرة على مواجهة الفزو ، كأعلى ما وصل اليه المستندى في أى عصر من عصور الدولة قبل ذلك .

الفصل الرابع عشر

دولة ممالك الأتراك البحرية

١٢٥٠ م - ٤٦٨ هـ : تولبة الملك المعز عز الدين أيبك :

في يوم السبت التاسع عشر من ربيع الثاني من هذه السنة نربيع عز الدين أيبك بالملك وأطلق عليه اسم المعز .

وقد وقع اختيار المماليك عليه في بادئ الامر ليكون مديرا لشئون المملكة مع شجرة الدر : وليكون سلطانا بعد ذلك ، لانه كان يعتبر أقل الامراء خطرا على غيره من الامراء ، وكان يعتبر من أوسطهم شأنا ، وعرف عنه لين العريكة وسعة الصدر وسداد الرأي والندى فكان يلزم الصلاة ولا يشرب الخمر .

وبعد أن تولى السلطنة خطب له على المنابر كما هو التقليد المتبع وضربت السكة باسمه ، وقد زاد من مكانته وأمانه في تدبير شئون المملكة زواجه من شجرة الدر أرملة سيده وسلطانة مصر .

قيام المعارضة في وجه عز الدين أيبك :

على أن المعارضة التي قامت في وجه شجرة الدر باعتبارها امرأة سرعان ما قامت في وجه عز الدين أيبك باعتباره مملوكا سابقا ، أو بحسب تعبير ذلك الزمان ، (ممن مسهم الرق) وكان امراء البيت الايوبى لا يزالون بكل قوتهم في الشام . وماكانوا ليسكنوا على زوال ملكهم ، والعدوان ظلما على توران شاه ، وسلطنة واحد من مماليكهم السابقين . ولذلك فقد وحدوا كلمتهم وقرروا الهجوم على مصر لاستئصال شافة المماليك ، وإعادة مصر الى سلطان الايوبيين .

وكان لهذه العناصر مجتمعة رد فعل في صفوف المماليك البحرية أنفسهم فراوا من الاصلح بالنسبة لهم أن يشركوا في الحكم أحد سلالة الايوبيين على أن يكون لا حول له ولا طول ، فوقع اختيارهم على حفيد السلطان الكامل وكان صبيا صغيرا لا يتجاوز عمره ست سنوات في بعض اقوال (المقرئى) وعشر في اقوال (اخرى) وأطلقوا عليه اسم الملك الاشرف موسى .

وأصبح الحكم للسلطانين معا فكانت صيغة الاوامر والمراسيم تجري على الوجه التالى :

رسم بالأمر العالى المولى السلطانى الملكى الاشرفى والملكى المعزى .
واستمر الحال على هذا المنوال بعض الوقت ، وعز الدين أيبك هو المستولى على
التدابير وليس الاشرف معه سوى صورة .

وقد أراد عز الدين أيبك من ناحية أخرى أن يظهر امام الشعب مدى ولائه للأسرة
الايوبية فنقل جثمان سيده السابق الملك الصالح أيوب من مدفنه المؤقت الذى كان
قد دفن فيه خفية فى قلعة الروضة ، الى مدفن خصص له بين القصرين ، وانتهاز
هذه الفرصة فأقام جنازة كبيرة .

١٢٥١ م - ٦٥٩ هـ : انتصار المماليك على الايوبيين :

إذا كان لهذه المناورات التى قام بها المماليك فى مصر لتدعيم شرعية حكمهم اذا
التعب المصري من أثر فان ذلك لم يكن له أثر لدى الامراء الايوبيين فى الشام .
وتولى الملك الناصر صاحب حلب جميع قوى الايوبيين ، فبدأ بالاستيلاء على دمشق ،
وبذلك وحد الشام تحت زعامته وزحف بعد ذلك على مصر . ولم يفته أن يقوى
جبهته بالتحالف مع الصليبيين فوعدهم أن هم ساعدوه ضد ممالك مصر أن يسلمهم
بيد المقدس .

ولكن خوف الصليبيين على العدد الكبير من أسراهم الذين كانوا لا يزالون فى يد
المماليك جعلهم يقفون على الحياد .

مضى الملك الناصر فى زحفه على مصر فاستولى على مدينة غزة . ثم اجتاز
الحدود المصرية واشتبك مع المماليك فى معركة بالقرب من الصالحية ، فدارت الدائرة
فى بادىء الامر على المماليك حتى نهب معسكرهم ووصلت الاخبار الى القاهرة أنهم
هزموا ، ولما كان هوى المصريين مع الايوبيين فقد اقيمت الاحتفالات والزيينات للملك
الناصر الايوبى باعتباره سلطان مصر والشام .

ولكن المعركة لم تكن كد انتهت عندما فر قسم من المماليك، وظل ميزانها يتأرجح،
وانحازت طائفة كبيرة من المماليك التى كانت تحارب فى جيش الملك الناصر الى جيش
عز الدين أيبك باعتبارهم من جيش واحد ، فهزم الناصر وفر ناجيا بنفسه نحو
حلب ، بينما وقع فى يد عز الدين أيبك عدد كبير من قادة البيت الايوبى وملوكهم .
وعاد عز الدين أيبك الى القاهرة ، بعد أن ثبت هذا النصر الحاسم حكمه
وسلطانه على ديار مصر .

وكان أن عزل الملك الصبى الاشرف الايوبى وانفرد بالسلطان .

١٢٥٢ م - ٦٥١ هـ : الخليفة العباسى يتوسط فى الصلح :

دفع الخطر المغولى الذى أصبح بعد أن احتل التتار ديار بكر من ناحية ، والخطر
الصليبي المتربص من ناحية أخرى بالخليفة العباسى الى أن يتدخل تين ممالك مصر

والايوبيين في الشام ويوسط في عقد صلح بينهم وتم الصلح بالفعل على أساس ان يكون للسلطان المعز عز الدين ايبك ملك مصر والجزء الجنوبي من فلسطين بما في ذلك غزة والقدس وبلاد الساحل ، وان تكون الاجزاء الواقعة شمال هذه المنطقة في يد اصحابها من الايوبيين وان يطلق سراح من وقع في الأسر من رجال الملك الناصر والبيت الايوبي . ويعتبر هذا الاتفاق الذي تم باسم الخليفة العباسي ، انتصارا سياسيا للمماليك وبدءا رسميا للقيام دولتهم في مصر فقد اسنخ الصفة الشرعية على حكمهم .

ثورة الاعراب في مصر :

على ان اعترف الخليفة بشرعية الحكم على مصر ، لم يكن كافيا لاقتناع سكان مصر او على الاقل فريق منهم بهذه الشرعية ، فقد ارسلت القبائل العربية التي كانت تسكن مصر منذ الفتح العربي في الصعيد وفي مديريات الوجه البحري وخاصة في الشرقية والبحيرة ، الصيحة في طول البلاد وعرضها ان مصر للعرب وليست للترك . ووجد الاعراب زعيما لهم في شخص حصن الدين تغلب ، الذي استطاع ان يجتشد حشود العرب حوله حتى تجمع له جيش من اثنى عشر ألف فارس .

فارسل الملك المعز الامير فارس الدين اقطاي على رأس جيش لاختراع هذه الثورة ، فانتصر على حصن الدين بالقرب من ديروط . ثم تتبع المعز ايبك القبائل العربية في مديريات الوجه البحري فأنزل بهم الهزائم الكثيرة .

وارسل حصن الدين يطاب الامان من المعز فامنه وطلب منه الحضور اليه ليعطيه امارات واقطاعات . فلما وصل الى المعز وكان مقيما في بلبيس قبض عليه وعلى كل من كان معه وكانت عدتهم على ما يقول المقرري الفين وستمائة فارس . فشنعوا جميعا على طول الطريق من بلبيس الى القاهرة باستثناء حصن الدين الذي ارسل الى الاسكندرية ليسجن بها ، يقول المقرري ثم فرض المعز الضرائب الثقيلة على العرب ، وعوملوا بالعسف والقهر فذلوا وقلوا على ما هو عليه الحال في وقتنا (القرن الخامس عشر الميلادي) .

١٢٤٥ م - ٦٥٢ هـ : مصرع الفارس اقطاي :

نجح المعز ايبك في التغلب على الايوبيين والقضاء على ثورة الاعراب ولكن هذا النجاح في كلتا الحالتين قد نسب الى الفارس اقطاي ، باعتباره صاحب الدور الاكبر في كلا الانتصارين .

وصل الفارس اقطاي الى أعلى درجات العظمة والتف حوله المماليك البحرية وحدثته نفسه بالملك ، وكان من خشد اشيته (أي زملائه) أقطاب المماليك من أمثال بيبرس البندقداري ، وسنقر الاشقر وسيف الدين قلاوون . واذا كان أي سطر من سطور تقاليد المماليك ان يشب للحكم كل من يقدر عليه فان السطر الثامن ، كان ان

يقتل المالك كل من يتصور أنه قد يصبح منافسا له ، حتى ولو لم يكن قد وقع منه ما يؤاخذ عليه .

وعلى ذلك فقد قرر السلطان أيبك أن يتخلص من أقطاي ، أرسل اليه يستدعيه الى القلعة بحجة أنه يريد استشارته في أمر من الامور ، فلما وصل أقطاي الى القلعة أمر أيبك بفتح ابوابها في وجه مماليك أقطاي للحيلولة دون صعودهم معه ، ثم أصدر أمره بالقبض على أقطاي وقتله . وتسامع المماليك البحرية بقتل زعيمهم فأجتمع سبعمائه من أصحابه وحاصروا القلعة ، تصورا منهم أنه مقبوض عليه داخلها ، فما كان من المعز أيبك الا أن ألقى عليهم رأسه ، فلما تحقق المماليك البحرية من مصرعه أسقط في أيديهم ، وضعفت معنوياتهم وخافوا على أنفسهم ، فخرجوا من مصر هاربين وقصدوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب . واتجه بعضهم الى الملك المغيث صاحب الكرك ، والتجاء بعضهم الى الخليفة العباسي في بغداد ، أو الى الملك علاء الدين ملك السلاجقة الروم في آسيا الصغرى . على أن السلطان المعز أيبك لم يعد آمنا على سلطانه بعد مقتل أقطاي ، اذ انقسم المماليك وقام حزب قوى منهم معارض له في مصر والشام ففكر في أن يدعم سلطانه بالتحالف مع أمير من أمراء المسلمين عن طريق المصاهرة ، فاتصل بالأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، باعتباره أقوى شخصية في الشرق الاوسط وقتذاك ، وطلب منه يد ابنته للزواج .

١٢٥٧ م - ٦٥٥ هـ : مقتل السلطان المعز عز الدين أيبك :

لم يقدر السلطان المعز وهو يفكر في زواج ابنة صاحب الموصل لتدعيم سلطانه في مصر والشام ، ما تحدثه هذه الحركة من رد فعل عند شجرة الدر .

لقد خاعت شجرة الدر نفسها من السلطنة لحساب عز الدين أيبك زوجها ، واذ كانت بطبيعتها امرأة قوية فقد اعتبرت تصرف عز الدين أيبك جحودا وكنودا وادركت من ناحية أخرى أنه اذا تزوج ابنة صاحب الموصل فلا بد أن يتخلص منها ولا سبيل الى ذلك الا بالقتل فقررت أن تكون هي البادئة .

وكان السلطان المعز على خلاف مع شجرة الدر لاستبدادها بأمور المملكة ومنعها إياه من الاجتماع بأم ابنه : والزمته بطلاقها ، ولذلك فقد هجرها وأقام بمناظر اللوق اياما ، فلما أحكمت شجرة الدر كيدها بعثت اليه تسترضيه وتحلف له أن تكون طوع أمره ، وانخدع المعز وطلع الى قلعة الجبل في يوم الثلاثاء رابع عشر من ربيع الأول حتى اذا دخل الحمام ليلا كان في انتظاره خمسة من المماليك ، فشرعوا في خنقه فأسنغاث بشجرة الدر فرق له قلب شجرة الدر وطلبت منهم ان يطلقوه : فأفلظ لها كبير القتلة (محسن الجوجرى) وقال لها متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك . ثم قتلوه .

وكان عز الدين أيبك فى الستين من عمره يوم قتل ، وكانت مدة سلطنته سبع سنين تنقص ثلاثة ولاتين يوما . . . يقول عنه المقرئزى : كان ملكا حازما شجاعا سفاكا للدماء ، قتل خلقا كثيرا وشنق عالما من الناس بغير ذنب ليقوع فى القاسوب مهابته ، وحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده .

ولكن ابا المحاسن يقول عنه : كان شجاعا عاقلا سيوسا كثير البذل للأموال : اطلق فى مدة سلطنته من الاموال والخيول ما لا يحصى حتى رضى الناس بسيلطان مسه الرق . واما اهل مصر فلم يرضوا بذلك الى أن مات ، وكانوا يسمعون ما يكره ، حتى فى وجهه اذا ركب ومر بالطلعات ويقولون لا نريد الا سلطانا رئيسا مولودا على الفطرة .

وكان الملك المعز عفيفا طاهر الديل ، بعيدا عن الظلم والعسف كثير الإدارة لخشداشيينه والاحتمال لتجنينهم عليه وشر أخلاقهم .

ولا سبيل للنوفيق بين هاتين الصورتين المتضاربتين الا أن نقول أن واحدة منهما من وجهة نظر طبقة العاتمين : والثانية من وجهة نظر المحكومين . وقد بنى المعز المدرسة المعزية على النيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافا .

سلطنة الملك المنصور نور الدين :

فى يوم الخميس سادس عشر من ربيع الاول ، بويح بالسلطنة على مصر على ابن عز الدين أيبك وكان غلاما لا يتجاوز عمره خمسة عشر عاما (المقرئزى) . . وابن اياس بجعل سنة احد عشر عاما . . وقد لقب بالمنصور وجعل الأمير قطز نائبا للسلطان واتبكا للعسكر .

وسنة ذال المماليك طول حكمهم لا يؤمنون بنظام الوراثة ، ومع لك سنرى أن كل سلطان كان يأخذ العهد لابنه من بعده ويجيبه الامراء الى ذلك حتى اذا مات السلطان رفعوا ابنه بالفعل على العرش تحقيقا لميثاقهم ، ولكن الى المدة التى يصفى فيها الامراء الحساب فيما بينهم ويتفقوا على من يكون سلطانا عليهم ، فيعزلون الصبى الصغير ويولونه مكانه وينفى الصبى الصغير الى دمياط أو الاسكندرية وأحيانا الى خارج مصر كلها ، الى اراضى الدولة البيزنطية مثلا .

مقتل شجرة الدر :

كان من الطبيعى وقد أصبح ابن المعز سلطانا ، أن يبدأ عمله بالاقتصاص من قتلة ابيه وعلى رأسهم شجرة الدر ، وقد استطاع أن يقبض على القتلة بسهولة وأن يقتلهم ، ولكن شجرة الدر ظلت بعيدة عن متناول يده ، فقد تصدى لحمايتها طائفة من المماليك الصالحية ، فاكتفى المنصور بنقلها من دار السلطنة الى بعض أبراج القلعة ، حتى اذا استتب له الامر قبض عليها وأسلمها الى أمه التى أسلمتها بدورها الى جوارىها (على ما يقول المقرئزى) فقتلتها ضربا بالقباقيب ثم رمينها من فوق

أسوار القاعة ، حيث وجدت مقتولة في الحادى عشر من ربيع الثانى وليس عليها شىء يسترها ودفنت بالقرب من مشهد السيدة نفيسة حيث لاتزال موجودة حتى الآن

ويقول أبو المحاسن عنها : وكانت خيرة دينة رئيسة عظيمة فى النفوس ، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر معروفة بها (١) .

ولا نستطيع أن نحبس حزننا لمقتل شجرة الدر على هذه الصورة وهى التى انعدت مصر بلا مرء من الخطر الصليبي ، ولكنها كانت البادئة كما رأينا فحرضت على قتل توران شاه ثم قتلت زوجها . وسيظل هذا الشعور المزدوج يلازمنا حتى نهاية العصر المملوكى ، فالاعجاب بالأعمال العظيمة ، يسير جنباً الى جنب مع استنكار أعمال الفدر والقتل والفتك .

تجدد المعارك بين مصر والشام :

واستهل السلطان الجديد عهده بسلسلة من المعارك وقعت على حدود مصر الشمالية وعند مدينة غزة : ذلك أن المماليك البحرية الذين فروا الى الشام عقب مقتل الفارس اقطاي وعلى رأسهم الظاهر بيبرس وقلاوون ، وكانوا قد التجأوا الى الملك الناصر يوسف صاحب الشام ، ولم يلبث أن خاف منهم على نفسه ، فتركوه الى الملك المغيث صاحب الكرك : فأستولوا على مدينة غزة لحسابه ، وراحوا يحرضونه على الاستيلاء على مصر . فاستجاب لهم وزحف بجيشه يؤازروه المماليك البحرية الذين لجأوا اليه ، فتصدى لهم الجيش المصرى تحت قيادة قطز (٢) عند مدينة الصالحية فهزموهم هزيمة منكرة وفر المغيث الى الكرك ومعه بيبرس البندقدارى ، بعد أن نهب معسكره وقتل زهرة فرسانه .

١٢٥٨ م - ٦٥٦ هـ : سقوط بغداد بيد التتار :

فى العاشر من المحرم من هذه السنة وقعت الواقعة التى كان يمكن أن تكون خاتمة المطاف للإسلام . وهى سقوط بغداد فى يد هولاكو حفيد جنكيزخان .

وكان سقوط بغداد هو ختام هذه المرحلة من الزحف المغولى الجارف الذى بدأ عام ٦١٧ هـ كما أشرنا الى ذلك . والذى توقف ذاتئنا بوفاة جنكيزخان ، حتى اذا قسمت الدولة من بعده وأصبحت بلاد فارس وخراسان إحدى الدول المغولية الثلاث التى تجزأت اليها الدولة الكبيرة ، استأنفت صراعها للسيطرة على كل ما يحيط بها .

(١) ظل اسم شجرة الدر يتكرر فى مصر كل عام بمناسبة احتفالات المحمل . . فقد كان يقال لنا ان هذا الهودج الذى يتألف منه المحمل ، خاص بشجرة الدر .

(٢) أى انه فى المواجهة بين جيش فيه قطز وآخر فيه بيبرس انتصر جيش قطز .

وكتب التاريخ الاسلامية ، غاصة بالتفاصيل التي أدت مباشرة الى كارثة سقوط بغداد . وكيف كان الخلاف في بغداد بين أهل السنة وأهل الشيعة (١) وأهل السنة يسمونهم الرافضة) هو الحلقة الأولى من سلسلة الحوادث التي انتهت بدخول المغول بغداد ، فقد غضب الوزير العباسي مؤيد الدين بن العلقمي لما أصاب الرافضة ، وكان هو نفسه رافضيا فدخل في مراسلات مع هولاء وأطمعه في الاستيلاء على بغداد ، بينما راح من ناحية أخرى يثبط عزم الخليفة العباسي المستعصم عن الاستكثار من الجند ، وحشه على تسريح الجزء الأكبر من الجيش القائم فعلا ، بدعوى أنه بتوجيه بعض ما ينفق على الجيش ، لاستجلاب رضاء هولاء خير وأجدي ، ولذلك فقد كان زحف هولاء على بغداد هينا ، ولم تجر سوى معارك ضئيلة للدفاع عن المدينة الخالدة . فلما أحرق هولاء بغداد اقنع مؤيد الدين بن العلقمي الخليفة أن يستسلم لهولاء ، بل وأوهمه أن هولاء قد قبل أن يصهر اليه ويزوجه ابنته . وذهب الخليفة في أبهى حظه وحوله أمراؤه وقواده وكبار رجال دولته فقبض عليهم هولاء ، كما راح يقبض على الطوائف التي بدأت ترد اليه لحضور الزفاف ، وقتل الجميع (١) ، ثم اجتاز بجيشه بعد ذلك الى المدينة وأباحها هولاء لجنوده أربعين يوما ، فراحوا ينهبون ويسلبون ويقتلون ويحرقون . ويقدر المعتدلون عدد من مات في هذه الكارثة بثمانمائة ألف بينما يصل بهم البعض الى ألف ألف وثمانمائة ألف . على أن أعظم ما منيت به الحضارة الاسلامية بل الانسانية في هذه الواقعة ، هو اتلاف مئات الألوف من الكتب التي هي خلاصة التراث الانساني حيث جعل منها جسرا في نهر الدجلة . وبعد أن احترق من المدينة ما احترق وقتل من قتل ، أمر هولاء جنوده بالكف عن القتل وأن ينصرف كل الى عمله .

يقول ابن كثير : ولما نودي في بغداد بالامان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر كأنهم الموتى اذ نشروا من قبورهم ، وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ولا الاخ أخاه وأخذهم الوباء الشديد فقتلوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى .

وانصرف هولاء بعد ذلك عن مدينة بغداد وما حولها بعد أن فسد الهواء المحيط بها ، وأسلمها الى مؤيد الدين بن العلقمي الذي عينه حاكما عليها (٢) .

(١) تأخر قتل الخليفة بسبب الوقت ، والرواية الراجحة في مسله أنه وضع في غرارة وظل يرفس حتى مات وذلك حتى لا يراق دمه .

(٢) من اسخف ما قيل دفاما من بعض مؤرخي الشيعة عن مؤيد الدين العلقمي أن تسليم هولاء بغداد بعد قتل أكثر أهلها وكبرائها لمؤيد الدين العلقمي هو الدليل على أنه لم يكن خائنا ، ولم يتصل بهولاء من قبل والا لما وثق به وسلمه المدينة (انظر كتاب المغول في التاريخ) وما جاء فيه من دفاع ابن طباطبا عن مؤيد الدين ، والذي دحضه ورد عليه مؤلف الكتاب بالحجج الدامغة الدكتور فؤاد الرضاوي .

١٢٥٩ م - ٦٥٧ هـ : سلطنة الملك المنصور قطز على مصر :

استأنف هولاكو زحفه في بلاد الموصل فاستولى على قلاعها بعد حروب مريرة وحصار دام حول بعض المواقع (مينا فارقين) عامين كاملين أظهر فيها سكان المدينة من البسالة ما لا يوصف ثم انتهى أمرهم بالاستسلام فأبسدوا عن بكرة أبيهم . . وانطلق المغول بعد ذلك كالأعصار حتى وصلوا مشارف الشام .

وسقطت في أيديهم مدينة حلب ، فأرسل الملك الناصر صاحب الشام يستنجد بسلطان مصر ، بعد أن خابت مساعيه في التفاهم مع المغول على أن يكون حليفهم في فتح مصر . وخشيت دمشق أن يكون مصيرها مصير حلب فاستسلمت للتتار بعد أن خرج منها الملك الناصر قاصدا مصر .

وشاء القدر أن يهيبء للاستسلام بطلا ينقذ آخر قلاعهم وهى مصر ، وكان هذا البطل هو سيف الدين قطز عبد الله المعزى أحد مماليك المعز أيبك ، والذي كان في ذلك الوقت قد أصبح نائب السلطان ومدير المملكة .

ونساءت المقادير أن يكون قطز هو ابن أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه وأبوه ابن عم السلطان جلال الدين . وكان قد أسر في حرب التتار ، ثم أنجاه الله من أيديهم بالبيع فتقلبت به الأمور الى أن وصل ما وصل .

فلم تكذ أنباء ما حدث في بغداد تصل الى مسامعه ، حتى نهض للأمر في عزيمة جبارة ، بدأت تتجلى في كل تصرفاته وكان أول هذه التصرفات ، أن خلع الملك المنصور لصغر سنه وعدم جدارته : ففى هذا الوقت العصيب لابد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه الناس وينصب للجهاد وليس صبيا صغيرا لا يحسن التدبير .

ولما غضب لعزل المنصور مماليك أبيه ، قال لهم : أنى ما قصدت الا أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك ، فاذا خرجنا وكسرنا العدو فالأمر لكم تقيمون في السلطنة من شئتم .

وكانت خطوته الثانية تعبئة البلاد لمواجهة الخطر المغولى واعداد الجيش بالسلاح والعتاد والمؤونة فكان لابد من جمع الأموال اللازمة لذلك فعقد مؤتمرا لذلك من العلماء ليجيزوا له فرض الضرائب على الشعب . وهنا عادت شخصية عز الدين بن الإسلام سلطان العلماء للظهور ، حيث أفتى فتواه الخالدة :

إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله ، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تحضيره العسكر لدفع العدو ولكن بشرط الا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهب والفضة الكبابيش الزركش واسقاط السيوف الفضة وغير ذلك ، وإن كلا من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ويساوى في ذلك بين العامة وقت القتال - أما أخذ أموال التجار والرعية - مع وجود ما في بيت المال من السلاح والقماش - فلا يجوز لأنه من باب أخذ أموال الرعية بغير حق .

وكانت هذه الفتوى تعنى تجريد المماليك الحاكمين من معظم ثرواتهم التى تتدفق عليهم من بيت المال ، فكادوا يبطشون بعز الدين عبد السلام ، لولا أن حماه قطز الذى فعل بما أشار رغم معارضة أمراء المماليك .

١٢٦٠ م - ٦٥٨ هـ : هولاءكو ينذر قطز :

ولم يكد قطز يشرع فى تجهيزاته للملاقاة التتار ، حتى بعث اليه هولاءكو سفارة من بعض أمراء المغول يطلب منه الانقياد لطاعته وينذره ويحذرهم من سوء العاقبة والمصير ، ولن تجد أروع من هذا الخطاب ما يصور مدى ما كان المغول قد وصلوا اليه من جبروت ووطغيان وولع بسفك الدماء :

من ملك الملوك شرقا وغربا القان الاعظم باسمك اللهم باسط الارض ورافع السما يعلم الملك قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا وسائر امراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الاعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ، فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فأتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا امرکم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا . فلا تطبأوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فأى أرض تأويكم ، وأى طريقة تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم فما من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعدونا كالرمال . فقد انصفناكم اذ راسلناكم واينظناكم اذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من اطاع الهدى وخشى عواقب الردى واطاع الملك الاعلى .

فإنم يكن لقطز من رد على هذه الرسالة الا أن قتل سفراء التتار وعلق رؤوسهم على باب زويلة ، محددًا بذلك القضية فأما انتصار على التتار وأما فناء .

موقعة عين جالوت :

وبدأت الارهاصات تكشف عن طبيعة المعركة القادمة وتشبت من عزائم المماليك المصريين ، فقد مات خان المغول الاعظم مانجوخان ، فعاد هولاءكو بجمهرة جيشه الى الشرق ليكون على مقربة من الاحداث .

ولم يخلف فى الشام من جيوش المغول سوى عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة قائد جيشه الاول كتبغا .

ومن ناحية أخرى ، فإن المماليك البحرية الذين كانوا فى الشام وعلى رأسهم بيبرس وقلاوون : قد حز فى قلوبهم ما أصاب العالم الاسلامى على يد المغول ، فكتبوا

لقطر يطلبون منه أن يعفو عنهم لبقفوا معه صفا واحدا لقتال التتار فاستجاب لهم قطر وجاءوا الى مصر فكان لمقدمهم اثر كبير في رفع الروح المعنوية في الجيش .

فلم تكذ الأخبار تصل قطر بزحف كتبغا نحو مصر واسنيلاء طلائعه على غزة، حتى قرر قطر أن يخرج بالجيش المصرى لمواجهةهم فلما تردد بعض الأمراء في الخروج ، واقترحوا الانتظار حتى يقدم التتار . . . هددهم قطر أن يسير وحده ومن يريد لمحاربة التتار ، فاضطروا للانصياع لأمره .

وعين قطر بيبرس البندقدارى على رأس مقدمة الجيش فأسرع الى مدينة غزة ، وكانت عساكر التتار الموجودين بها قد أرسلوا الى أميرهم كتبغا يطلبون منه أن يوافقهم بالنجدة لئلا يستأنفوا الزحف على مصر ولكن بيبرس عاجلهم قبل وصول النجدة بالهجوم عليهم ، فأنزل بهم هزيمة وطاردهم حتى نهر العاص ، فكانت هذه أول هزيمة تلحق بالتتار الذين كان الرعب منهم يحمل جيوشا بأكملها على الاستسلام فكان ذلك أول الفتح فقوبت عزائم المسلمين ، وامتألوا بالأمل في هزيمة التتار .

ووصل قطر على رأس بقية الجيش ، وصحب بيبرس وسارا معا بحذاء الساحل الصليبي بعد أن نهج في حمل الصليبيين على الوقوف على الحياد ، ثم اتجهوا شرقا عبر الجبل الى الأردن لاسترداد دمشق من المغول .

وفي هذه الأثناء كان كتبغا كبير التتار قد علم بهزيمة رجاله عند غزة فأسرع بالحضور وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب . وهكذا التقى المغول بجيش مصر عند قرية عين جالوت بين بيسان و نابلس في أوائل سبتمبر .

وتتضمن كتب التاريخ تفاصيل سير المعركة وكيف تقلبت بين المد والجزر ، والذي يهمننا هنا أن نسجله أن بطل هذا اليوم كان هو قطر بلا مرأى ، فقد حدث أن فر المماليك من حوله أثناء سير المعركة فثبت في مكانه ، بل وخلع خوذته وقذف بها على الأرض وصاح صيحته الخالدة « وأسلاماه » وانقض على التتار بنفسه ، فكان لفعلته أكبر الأثر في إعادة الثقة الى المماليك الذين عادوا واستأنفوا القتال . . . وكرر قطر هذا الموقف مرة ثانية ، عندما أوشكت المماليك على الفرار مرة أخرى .

وهكذا حتى تم النصر النهائي ووقع كتبغا في الأسر ولم يلبث أن قتل ، وفرت جنود التتار لأول مرة في تاريخ حياتهم مدعورين ومن ورائهم فرسان المماليك وعلى رأسهم الظاهر بيبرس (١) فطاردهم وقتل منهم وأسر . بينما كان قطر ، ينزل عن حصاته ويمرغ وجهه على الأرض شكرا لله ، ولم يترك مكان المعركة الا بعد أن صلى ركعتين لله .

(١) كان الظاهر بيبرس بعد أن أصبح سلطانا شديدا الاحتفال بموقعة عين جالوت معتبرا نفسه صاحب الدور الأكبر فيها ، حتى لقد أقام بعد سلطنته نصبا في مكان المعركة ، لعله أول وآخر نصب من نوعه في تاريخ الدولة الإسلامية .

نتائج معركة عين جالوت :

ولسنا في حاجة للوقوف طويلا أمام تحليل النتائج التي أدت إليها معركة عين جالوت بالنسبة للإسلام بل بالنسبة للحضارة الانسانية كلها ، فالأورخون الأوربيون يعترفون بأن هذه المعركة لم تنقذ العالم الاسلامي وحده ، بل لقد أنقذت العالم المسيحي كذلك ، لأنه لم يكن في أوروبا المسيحية كلها وقتذاك ملك قوى يستطيع مقاومة المغول لو أنهم انتصروا على المماليك واستولوا على مصر . (المغول في التاريخ) .

نتائج المعركة بالنسبة للمماليك :

على أن أحد النتائج المباشرة لموقعة عين جالوت ، هي تثبيت حكم المماليك . فنهائية ، لأعلى مصر فحسب ، بل على مصر والشام ، فقد وصل قطز الى مدينة دمشق ، وسط الاحتفالات التي لم تشهد مثلها في ظل تاريخها ، وفي دمشق جاء حكام المدن الشامية من الأيوبيين مستسلمين لقطز وطائعين ، فأمنهم وأعاد كل منهم الى مركزه على أن يكون تابعا له .

أما الملك الناصر صاحب الشام ، فكان قد عاد الى ضلاله القديم ، فبعد أن استغاث بسultan مصر وغادر دمشق عند زحف التتار عليها ، متوجها الى مصر ، فقد عاد ادراجه ، واستسلم لهولاكو الذي اصطحبه معه ، فلما أن وصلت اليه أنباء هزيمة جيشه على يد قطز لم يجد مايفتأ به غضبه الا أن يقتل الملك الناصر .

وهكذا خسر الملك الناصر يوسف الدين والدنيا لشديد حرصه على الملك ، وفي الوقت الذي كان المماليك فيه قد أصبحوا في نظر العالم الاسلامي كله حماة ومنقذيه .

مصرع قطز :

على أن هذا النصر الذي لايزال قلب الانسانية يخفق لذكره ، سرعان ما شابهته شائبة مكدره ، اذ بينما كان قطز يتهيأ للعودة الى مصر ، وقد سبقته البشائر اليها فأقيمت الاحتفالات والزيينات في انتظار مقدمه ، لتجزيه عما فعل لمصر والإسلام، كان بيبرس البندقداري يدبر لقتله في الطريق ، فعندما وصل الجيش الى الصالحية ، أظهر السلطان قطز رغبته في الصيد فصحبه المتآمرون وعلى رأسهم بيبرس ، فلما فرغ السلطان من الصيد ، تقدم اليه بيبرس متظاهرا بتقبيل يده شكرا على منحه اياه جاريه تتريه كان قد أعجب بها بيبرس ، فلما أمسك بيده كانت هذه هي إشارة للمتآمرين فانقضوا عليه وأعمالوا فيه سيوفهم حتى أجهزوا عليه .

يقول الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مرددا قول الدكتور محمد جمال الدين سرور ، وكلاهما الف عن الظاهر بيبرس كتابا . أن السبب في فعلة بيبرس، هو رفض قطز إعطاء نيابة حلب لبيبرس وأنه بذلك : قد تنكر لجميل بيبرس ، وعدم إعطائه نيابة حلب لبيبرس قد أظهر قصر نظر قطز لأن المكانة التي أحرزها في ذلك الوقت كانت أعظم من أن يتجاهلها انسان ، ولو كان قطز حكيما لآلهى بيبرس بنيابة حلب

وبذلك بأمن منافسته له في مصر . ونحن من ناحيتنا لانرى في هذه الجريمة النكراء ما يقبل عدلا ولا حرفا ولا شفعا ولا وترا ، وانه شيء يجلب عن الوصف ، ان يقتل رجل من اعظم الرجال غداة انقاذه لمصر والعالم الاسلامي والانسانية من خطر داهم ، لغير سبب جناه ، فقد رأينا أن بيبرس كان عاصيا وخاض المعارك ضد جيوش مصر ، حتى اذا طلب العفو من قطر عفا عنه واتاح له فرصة الجهاد في سبيل الله ، والوقائع التي روينها عن مصرع قطر تثبت أنه كان قد جعل من بيبرس محل ثقة حتى صحبه معه في رحلة صيد ، وتثبت أنه منح بيبرس الجارية التي يريد لها ، حتى أن بيبرس تقدم له تحت ستار الرغبة في شكره .

ويذهب الأستاذ الكبير على احمد باكير في روايته التاريخية الفذة « واسلاماه » الى أن قطر كان منتويا أن يستخلف بيبرس سلطانا على مصر من بعده وهذا سبب اصطحابه له .

ولا جدال في أن بيبرس قد لعب بعد هذا الحادث في تاريخ مصر والشام والاسلام دورا عظيما جذبرا بكل تقدير واعظام ، ولكن هذا لا يمنع أن المقاييس الخلقية كلها تنكر هذا الذي اقدم عليه بيبرس والذي لا يسفر الا على ضوء نوع الحياة التي كان الممالك يحيونها ، والتي جعلت كلا منهم على استعداد أن يقتل أو يقتل في أى لحظة باعتباره مجرد آلة للفتك .

وكان مقتل قطر في يوم السبت السادس عشر من ذى القعدة من هذه السنة فلم تزد مدة حكمه كسلطان على سنة الا يوم . ولكنها كانت سنة بمئات السنين ، فقد كانت سنة فاصلة بين قدر وقدر .

سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى :

ينتمى بيبرس الى العائلة التركية وقيل انه من قبيلة القبيجاقي في جنوب روسيا، وقد اشتراه الأمير علاء الدين البندقدار أحد ممالك الملك الصالح أيوب أبان اعتقاله في دمشق ، واشتراه بثمن بخس ، وعندما أفرج عن الأمير علاء رجع الى مصر وفي صحبته بيبرس الذي انتسب كما هي العادة الى سيده فأصبح اسمه بيبرس البندقدارى ، ثم آلت ملكيته الى الملك الصالح أيوب فأعجب بذكائه وهمته فأعتقه وأصبح عنده من المقربين ، وقد مر بنا فعله بأبنة توران شاه عندما اشترك في قتله ، وكيف سارت حياته بعد ذلك حتى انتهى الى قتل قطر ، يقول المؤرخون انه بعد ان قتل المتآمرون قطر في الصيد عادوا الى بقية الجيش وكان قد شاع نبأ مقتل قطر، فسأل أمير الأمراء المتآمرين :

— من الذى قتل السلطان قطر ؟

قال بيبرس :

— أنا قتلتة .

فقال الأمير :

ـ ياخوئند اجلس فى مرتبة السلطان مكانه .

وهكذا أصبح بيبرس سلطانا ، ولقب فى بادىء الامر بالملك الناصر ثم استبدل ذلك بالملك الظاهر .

ودخل الظاهر بيبرس الى القاهرة وسط الزينات والمهرجانات التى اقيمت استعدادا لاستقبال قطر ، فراح المنادى ينادى الناس :

ترحموا على الملك المظفر قطر ، وادعوا بالنصر لسلطانكم الملك الظاهر بيبرس

١٢٦١ م - ٦٥٩ هـ : نقل الخلافة العباسية الى مصر :

يعتبر الكثيرون الظاهر بيبرس هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر ، فهو واضع الأنظمة التى جرى عليها العمل من بعده ٢٥٠ سنة . ونحن لانوافق على هذا الراى ، فالحكم المملوكى كان قد قام وتأسست أسسه وقواعده ، فاعترف به الخليفة العباسى فاخذ الصبغة الشرعية ثم جاءت موقعة عين جالوت فكرست الحكم من الناحية الواقعية والفعلية .

وحقيقة الامر ان الظاهر بيبرس طالت أيام حكمه ، فوضعت معالم الحكم المملوكى فى أحسن صورها .

وكان من أحكم ما أقدم عليه الظاهر بيبرس وما يشهد له بأنه رجل دولة ، فوق كونه فارسا مغوارا ، انه انتهاز فرصة تقوض الخلافة العباسية فى بغداد لكى يحييها فى مصر ، ولقد مر بنا مجاولات ابن طولون والأخشيذ من بعده لنقل الخلافة العباسية الى مصر فلم يهيا لهما ذلك ، فقد كانت بغداد لاتزال بكل ثقلها ووزنها وما ترمز اليه من عظمة وسؤدد فلما دالت دولة بغداد أصبح الطريق معبدا لهذه الخطوة . فلم يكذ يصل الى مصر شخص يدعى أبو القاسم أحمد وبصحبته جماعة من العربان وطواشى بغداد يشهدون بنسبة وأنه ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، حتى انتهاز الظاهر بيبرس هذه الفرصة الذهبية ، فجمع مجلسا من العلماء والفقهاء والقضاة ، وبايعوا الامام أحمد خليفة على المسلمين واطلقوا عليه لقب المستنصر بالله . ولم يكذ المستنصر يصبح من الناحية الرسمية خليفة حتى قلده بدوره حكم : الديار المصرية والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفرانية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا وثمدا . وفوض اليه أمر جندها ورعاها ، بعد ان أصبح بالملك فردا . وقد اورد المقرئى نص هذا التقليد فى كتابه السلوك وهو أشبه ما يكون بدستور مثالى لما يجب ان يكون الحاكم فى زمن السلم والحرب .

ويتهم البعض الظاهر بيبرس انه بعد أن حصل على إعادة الخلافة العباسية فى مصر على عادته ، فقد راى ان يتخلص من الخليفة نفسه حتى لا يتحول الى خطر عليه فأرسله الى بغداد مع بعض العسكر لاسترداد ملكه فكان فى ذلك نهايته حيث

قتله التتار ، ويقولون أن الظاهر بيبرس كان يعرف أن مثل هذه المهمة الجبارة لا ينهض بها الخليفة بهذا العدد القليل من الجند ، ولو كان جادا في هذه القضية ، لساار معه بنفسه بكل جيشه .

ولكن يرد على ذلك باحتمال أن يكون الخليفة العباسي الجديد هو الذى طلب من الظاهر بيبرس أن يقوم بهذه الحملة ، فلم يكن باستطاعة بيبرس إلا أن يجيبه إلى طلبه .

الخليفة الحاكم بأمر الله :

استنصر الظاهر بيبرس في العام التالى امبرا عباسيا جديدا ، وجعل منه خليفة بدلا من الخليفة الراحل ، ولقب باسم الحاكم بأمر الله . ويبدو أن الظاهر بيبرس في خلال هذه المدة ، كان قد راجع نفسه فيما يجب أن يكون عليه دور هذا الخليفة ، فتخطر عليه أن يظهر في المناسبات العامة ، وحظر عليه أن يقابله أحد إلا بأذن من السلطان فأصبح محجورا عليه في خلافة وصفها المفريزى بأنها : لا أمر فيها ولا نهى وحسيه إن يقال له أمير المؤمنين .

وأصبح المستفيد الوحيد من إعادة الخلافة العباسية هم سلاطين الماليك ، إذ أصبح لهم المقام الأسى على كل ملوك وحكام العالم الاسلامى . باعتبارهم حماة الخلافة المستتمتعون ببيعتها .

أصبحت القاهرة هى البلد الوحيد الذى يتطلع اليه العالم الاسلامى كله ويدين له بالولاء . حقا لقد كانت القاهرة مقر خلافة فاطمية كما تعرف ، ولكن كان ينازع هذه الخلافة العباسيون في الشرق ، والأمويون في الغرب ، أما في هذه الفترة من تاريخ العالم الاسلامى فلم يعد باقيا فيها إلا خلافة واحدة يستظل العالم الاسلامى كله بلوائها وهى خلافة عباسية في مدينة القاهرة .

وسرعان ما نهضت القاهرة الى مستوى المكانة التى رفعتها اليها الأحداث . فلم تلبث أن تكون هى حامية التراث الاسلامى ومنقلته من التبدد والضياع ، بنما سيؤلف فيها من موسوعات في شتى فروع المعرفة ، هى سبيلنا في الايام الحاضرة للاعاطة بالتراث الحضارى الاسلامى .

١٢٦٥ م - ٦٦٣ هـ : بناء المدرسة الظاهرية بين القصرين :

تم انشاء المدرسة الظاهرية في هذه السنة . وفي يوم الأحد الثالث عشر من صفر بدأ التدريس فيها . وقد خصص لها المدرسون في مختلف فروع العلوم الدينية ووقف عليها خزانة كتب ، وبنى الى جانبها مكتب لتعليم الأيتام وأجرى عليهم الخبز في كل يوم وكسوة الفصلين .

١٢٦٥ م - ٦٦٣ هـ : تعيين أربعة قضاة للمذاهب الأربعة :

في هذه السنة اوقف ماكان العمل جاريا عليه من تخصيص القضاة بالمذاهب الشافعية ، واقام نظام القضاة الأربعة بحيث كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية قاض مستقل يحكم على حسب فتوى مذهبه .

١٢٦٧ م - ٦٦٥ هـ : ابطال المنكرات في مصر :

وفي هذه السنة ابطال الظاهر بيبرس ضمان الحشيشة وأمر بأحراقها وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمر فأراقها ، ومنع الحانات من الخواطىء وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية ، والجهات الشامية .

وقد وصف لنا الشيخ شمس الدين بن دانيال صاحب كتاب طيف الخيال حالة مصر في هذه السنة : لما قدمت من الموصل الى الديار المصرية ، في الدولة الظاهرية ، سقى الله من سحب الانعام عهدا ، واعذب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة وارباب اللهو والخلانة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة ، وهزيم أمر السلطان ، جيش الشيطان ، وتولى والى القاهرة اوراق الخمر ، وأحراق الحشيش وشاعت بذلك الاخبار ، ووقع الإنكار واختفى المسطول في الدار وقد آذى الخلانة غاية الأذية ، وقد دعانى بعض اصدقائى الى محله واعتذر الى عن تقصيره في الاكرام ، اذ لم ياتنى بمدام ، وقال قد غلب على ظنى ان أبا مرة (ابليس) قد مات ، وعد من الرفات فقم بنا نبيكه ونصف الحالة ونرثيه فابتدأت وقلت في هذا المعنى . وقال ابن اياس الذى اورد هذه الرواية بقصيدة ضافية الذبول ينعون فيها ابطال الخمر والملاهى وسائر المنكرات .

جهاد بيبرس ضد الصليبيين :

امضى الظاهر بيبرس السنوات العشر التالية لاستقراره في الحكم في جهاد مستمر ضد التتار من ناحية وضد الصليبيين من ناحية اخرى ، حيث اتخذ هذا الجهاد الاخير في بادىء الامر صورة الغارات المتفرقة ثم تحولت الى معارك واسعة النطاق تنتهى بالاستيلاء على حصون وقلاع ومواقع هامة . ولكنه لم يتوصل الى ذلك ، الا بعد ان كان عليه ان يسوى حسابه مع التتار أولا .

ومن حسن حظ العالم الاسلامى ان احدى فرق المغول التى استقرت في الفجاج (وادى المغول) والتى كان يطلق عليها اسم « القبيلة الذهبية » قد اعتنقت تعاليم الاسلام ، واصبحت على خلاف مع تتار ايران الذين يهددون العالم الاسلامى .

وتبادل زعيمها (بركة خان) الرسائل والسفارات الودية مع الظاهر بيبرس : حتى بلغ عدد هذه السفارات تسعا في عهد حكم الظاهر بيبرس وحده ، وظلت

مستثمرة بعد ذلك مع خلفاء الظاهر . وقد كان لاسلام القبيلة الذهبية ، ولو قوف زعيمها بركة خان الى جوار المسلمين أثر في تخفيف الضغط الى حد ما ، عن العالم الاسلامي . بل ان لين بول يذهب الى حد القول انها هي السبب في انقاذ الاسلام من الفناء .

وكان انكسار حدة الخطر المفعول : هو الذي مكن الظاهر بيبرس ان يتفرغ لجهاد الصليبيين .

ولكنه قبل ان يقدم على حرب الصليبيين ، رأى ان يتابع سياسة الايوبيين في عزل صليبي فلسطين عن العالم المسيحي الخارجى ليسهل عليه الانقضاض عليهم . ولذلك فقد دخل في مفاوضات انتهت الى معاهدات واتفاقات مع امبراطور بيزنطة بعد ان نجح هذا الاخير في طرد الحاكم اللاتينى البندقى من القسطنطينية . كما أبرم معاهدة مع منفرد امبراطور الدولة الرومانية الغربية وقد سجل لنا ابن واصل (مؤلف مفرج الكروب) الذى قام بالسفارة بين الظاهر وبين منفرد ، تفاصيل بعثته ومهمته وما وجدته في صقلية وجنوب ايطاليا من مدن اسلامية .

حتى اذا اطمأن الظاهر بيبرس الى سلامة موقعه السياسى والعسكرى بدأ غزواته الموافقة ضد الصليبيين في فلسطين فراحت معاقلهم تتساقط واحدة بعد اخرى طوال السنوات الماضية - قلعة قيساوية (٥ مارس سنة ١٢٦٥) مدينة ارشوف (٢٦ أبريل سنة ١٢٦٥) واستسلمت له قلعة صفد (٢٣ يولية سنة ١٢٦٦) وسقطت مدينة يافا في يده (فبراير سنة ١٢٦٨) .

١٢٦٨ م - ٦٦٦ هـ : سقوط دولة انطاكية الصليبية :

في ٥ رمضان (٢٠ مايو) توج الظاهر بيبرس انتصاراته ضد الصليبيين بالاستيلاء على مدينة انطاكية مركز احدى دويلات الصليبيين القوية فأحدث سقوطها دويا في العالم الاسلامى والمسيحي معا ، فقد كانت انطاكية هي ثانى دولة صليبية انشئت في الشرق بعد دولة الرها ، وكانت تعتبر اكبر حصن للصليبيين في الشرق ، فهي مدينة قوية محصنة عجزت بيزنطة بكل قوتها ان تستولى عليها .

ولم يبق بعد سقوط انطاكية ، سوى مملكة طرابلس في الشمال وعكا وصور في الجنوب ، وقد عادت كلها فطلبت عقد الصلح مع الظاهر بيبرس ، فأجابهم الى هذا الصلح . ويقال ان الظاهر بيبرس دخل الى طرابلس متخفيا باعتباره احد اعضاء وفد المفاوضات ليعرف مداخل المدينة ومخارجها تمهيدا لفتحها في الوقت المناسب .

١٢٧٠ م - ٦٦٨ هـ : الحملة الصليبية الثامنة :

اهتزت اوربا كما هو دأبها لسقوط انطاكية ، وارتعد البابا اربان الرابع فدعا

لويس التاسع ملك فرنسا بعد أن أصبح يطلق عليه اسم الملك القديس ، ليعد حملة صليبية جديدة على أن أربان لم يلبث أن توفي وخلفه البابا كلميت الرابع فكتب الى ملوك أوربا يهيب بهم ويستحثهم لانقاذ الدولة الصليبية في الشرق ، فلم يستجب له سوى لويس التاسع ملك فرنسا ، ورغبة من البابا في تشجيع لويس على تدبير الحملة فقد أطلق يده في أموال الكنائس يأخذ منها ما يشاء ، فشرع لويس التاسع في تجهيز الحملة الصليبية الثامنة وكأنه يريد أن يثأر لما منى به من فشل في المرة السابقة ووصل نبأ الاستعداد لهذه الحملة الى الظاهر بيبرس فترك الشام الى مصر ليتخذ الاجراءات اللازمة لمواجهتها .

تحول الحملة الصليبية عن وجهتها :

رفضت البندقية أن تنقل جبوش هذه الحملة الى مصر أو الشام حرصا على اتفاتها التجارية وعلاقتها الودية مع مصر . فاستعان لويس التاسع بسفن جمهورية جنوا التي بدأت تنافس البندقية ، وعندما وصلت الحملة الى جزيرة صقلية ، استطاع شارل دانجو أخو لويس التاسع والذي كان قد أصبح ملكا على الجزيرة ، أن يقنع لويس التاسع بأن يتجه بالحملة صوب تونس للاستيلاء عليها أولا بدلا من مصر أو بيت المقدس مصورا له ان عملية الاستيلاء على تونس ستكون هينة لينة ذلك أن هوى سلطان تونس (على مازعم) مع المسيحيين وسيفتح للحملة ذراعيه . وان الاستيلاء على تونس هو خير طريق للاستيلاء على مصر من طريق شمال افريقيا .

واستمع لويس التاسع لهذا التوجيه ، فقصده بجيشه المؤلف من ستين ألف مقاتل الى تونس ، وانتهت الحملة بالاخفاق الدريع فقد قاومتهم تونس وانتشر الطاعون بين افراد الحملة ، ومات لويس التاسع نفسه ضحية للطاعون ، دون أن تكتحل عيناه برؤية ذهب تونس الموعود فضلا عن الوصول الى وادي النيل ، وحاول شارل ان يواصل الحرب ولكنه أخفق بدوره عن أن يحقق نصرا ، فدخل في مفاوضات مع المستنصر الحفصي سلطان تونس ، مبدئا الاستعداد للانسحاب بالحملة من تونس مقابل دفع مبلغ من المال على سبيل التعويض عما أنفق في الحملة . واشترى سلطان تونس السلام بدفع هذا المبلغ . وانسحبت فلل فرانسيس من تونس تجر أذيال الهزيمة والاخفاق . وكان ذلك آخر العهد بالحملة الصليبية الأوربية ، فقد كانت الريح بدأت تهب في اتجاه مفاير .

١٢٧٣ م - ٦٧٢ هـ : تصفية خطر الاسماعيلية (الحشاشين) :

وتنفس الظاهر بيبرس الصعداء ، ورأى ان يستعد للجولة الاخيرة لتصفية الصليبيين في فلسطين ، ولكنه رأى قبل ان يقدم على خطوته الاخيرة ، ان يخلص المجتمع الاسلامي من احدى البؤر التي كانت تهدده دائما بكثير من المخاطر والاضرار ، وتلك هي الطائفة الاسماعيلية ، التي طالما أرقّت بفدائيتها ابطال العالم الاسلامي ، والني أوشكت يوما ما أن تفجع المسلمين باغتيال صلاح الدين ، وكان خطرهم المميت

يتدخل أكثر منا يتجلى في تحالفهم مع الصليبيين ضد المسلمين في كل الغزوات التي قام بها الغنليبيون .

وكان نجم الاسماعيلية في افول ، بعد أن قضى عليهم جنكيزخان في بلاد فارس ، ومع ذلك فقد ظل لهم عدد من القلاع القوية في بلاد الشام . مثل مصياف والعلقة والتدمر والخراب والكهف والرصافة وغيرها .

وقرر الظاهر بيبرس أن يستولى على هذه القلاع كلها ، بالسلام والمفاوضة حيناً وبالقوة حيناً آخر ، حتى استولى على هذه القلاع كلها ، وسنير الاسماعيلية إلى مصر ، حيث أقطعهم بعض الإقطاعيات ، فلم يلبثوا أن زال خطرهم وذهبوا في شعب مصر المسالمة .

١٢٧٢ م - ٦٧١ هـ : هزيمة التتار على نهر الفرات :

في الخامس من جمادى من هذه السنة وصلت الأخبار إلى الظاهر بيبرس وكان مقيماً في دمشق ، أن التتار يحاصرون مدينة البيرة ويرابطون على شاطئ الفرات ليحولوا دون وصول النجيدات إليها . فسار إليهم الظاهر في جيشه واستطاع أن يهزم التتار وأن يجلبهم عن شاطئ النهر بعد أن عدها سباحة من فرسانه وأرند التتار عن مدينة البيرة مخلفين وراءهم معسكرهم وأثقالهم وأزوادهم ، ودخل الظاهر إلى مدينة البيرة فائزاً منتصراً .

١٢٧٥ م - ٦٧٤ هـ : فتح بلاد النوبة والسودان :

انتهر داود ملك النوبة المسيحي فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه ضد الصليبيين والاسماعيليين في الشام ، لكي يخرج إلى الظاهر بيبرس ويشن الغارات على مدينة أسوان ، وميناء عيذاب ونهب ما في البلدتين وأحرقهما ، فبعث إليه الظاهر بجيش هزمه هزيمة منكرة وطارده داخل بلاده وأستولى على كل بلاد النوبة حتى مدينة دنقلا ووضع على العرش النوبى شكندة الذي أخذ على نفسه أغلظ المواثيق أن يكون تابعا مخلصا أميناً لسلطان مصر . وأن يؤدي كل عام من العبيد والحيوانات والاموال ما جرى الاتفاق على تقديمه منذ أقدم العصور .

١٢٧٦ م - ٦٧٥ هـ : انتصار الظاهر على التتار :

قرر بيبرس أن ينزل خربة قاضية بالتتار الذين ما انفكوا منذ ولى السلطان يهاجمون أطراف مملكته ويستولون على بعض المدن الشمالية فلا يكاد يسرع إليهم حتى يتقهقروا متخللين عنها ، ورأى الظاهر أن يضربهم في معقلهم الجديد بأسية

الصغرى ، فقد كانوا قد استقروا بها بعد أن اخضعوا سلاجقة الاتراك لسلطانهم واصبح معيد الدين بروانه السلطان السلجوقى يحكم باسمهم تحت رقابة جيش مغولى كبير يربط فى بلاده . فزحف الظاهر بيبرس فى هذه السنة بجيشه الذى اصبح يتألف من أحد عشر الفا من المماليك المختارين المدربين ، وعند مدينة ألبلاخ . تم اللقاء بين التتار وجيش بيبرس ١١ ذى القعدة (١٦ ابريل) ودارت معركة من أعنف المعارك ، انتهت بهزيمة التتار وقتل قائدهم ، وبلغ عدة من جنود على أرض المعركة منهم تسعة آلاف قنبل ، أضاف اليهم الظاهر بيبرس الأسرى اذ أصدر أمره بقتلهم جميعا .

وقد قرر لابقاء ملك التتار أن يمر بأرض المعركة فلم يملك نفسه على ما يقول كنا مؤرخ المغول رشيد الدين الهمزانى ، من البكاء حزنا على رجاله .

اما الظاهر فقد دخل مدينة (قيساوية) قصرية عاصمة الاتراك السلاجقة . طوال المائتى سنة السابقة ، وجلس على عرش السلاجقة يتلقى ولاء الشعب . وبقية اقامت الصلوات باسمه فى المساجد ، وضربت السكة باسمه ، ووفدت اليه أمراء الاطراف والبنواحى يقدمون خضوعهم وتبارى الشعراء فى تخليد هذا الانتصار الرائع بقصائدهم التى لا تزال تحفظها كتب التاريخ .

١٢٧٧ م - ٦٧٦ هـ : وفاة الظاهر بيبرس :

فى يوم الخميس النامن والعشرين من المحرم مات الظاهر بيبرس فى مدينة دمشق بعد مرض استغرق أسبوعين .

وهكذا طويت صفحة بطل آخر من اكبر أبطال المسلمين ، واذا كان يشين بطولته من وجهة نظرنا عدوانه على قطر وغدره به ، فقد عاش بقية حياته بعد ذلك يحاول التكفير عن هذه الفعلة فقد كان شديد الحرص على أن يعرض المسلمين خسارتهم بفقدان قطر . فانتصر أكثر من مرة على التتار ، وشرع فى تقويض بنيان الدولة الصليبية .

عهد بناء وانشاء ونعيم :

وعلى الرغم من أن الصفة الغالبة على عهد الظاهر بيبرس ، هى انتصاراته العسكرية فإن منشآته المدنية والعمرانية كفيلة وحدها بأن تجعله على رأس من حكموا مصر . وتخصص كتب التاريخ صفحات عديدة لتعداد هذه المنشآت ونحسبنا أن نشير اليها ليدرك الباحث مدى اتساع نطاقها .

قناطر :

انشأ قناطر شبرامنت بالجيزة وعمر جسر القليوبية والقناطر على نهر

ابى المنجا - وقنطرة السباع ، وقنطرة مينا السبرج - وقنطرتين عند القصير على بحر أبراس بسبعة أبواب لكل قنطرة .

وانشأ فى الجسر الذى سلك فيه الى دمياط ست عشرة قنطرة وبنى على خليج الاسكندرية قنطرة عظيمة بعقد واحد .

الترع :

وانشأ من الترع والخنجان كما كانت تسمى : خليج اسكندرية الذى أعاده الى سابق قاعليته ، وحفر بحر أشموم وترعة الصلاح وخور منجا والمحارى والكافورى وأبو الفضل ، وبحر الصمصام بالقليوبية وبحر سردوس .

المدارس والجوامع والقصور :

انشأ المدرسة الصالحية ، وعمر الجامع الكبير الذى فى زقاق الكحل خارج الحسينية (والذى لا يزال قائما « بالظاهر ») وانشأ دار الذهب بقلمنة الجبل . ودورا وقصورا بظاهر القلعة . والبرج الكبير بقلعة الجبل .

كما جدد الجامع الانور والجامع الازهر وأعاد اليه الخطبة بعد أن كان خرابا منذ بدأت الدولة الايوبية . وبنى جامع العافية بالحسينية وانفق عليه أكثر من ألف ألف درهم .

وانشأ قريبا منه زاوية الشيخ فضل . وعمر بالمقياس القبة وانشأ بها عدة جوامع وعدة قلاع .

فى الاسكندرية ودمياط :

وعمر سور الاسكندرية ، وجدد المنائر التى بها وعمر منارا بشجر رشيد وردم فم بحر دمياط حتى لا تدخل اليه مراكب الافرنج .

الاسطول :

وعمر الشوانى (أى الاسطول) وأعاده الى سابق قوته بعد أن كان الاسطول قد بلغ نهاية ضعفه أيام الصالح أيوب فجدهه بيبرس حتى أصبح لدى مصر ما يزيد على أربعين سفينة حربية كبيرة مما كانت تسمى (الشوانى) وأضعاف هذا العدد من الجرار ويعود الطرائد ونحوها وكان ينزل بنفسه الى دار الصناعة بجزيرة الروضة ويشرف بنفسه على بناء السفن .

ولم يقلل من اهتمامه بالاسطول ، الاخفاق الذى منى به الاسطول عند محاولته فتح قبرص بسبب الريح التى أطاحت به ، فقد أعاد بناء الاسطول وأعاده الى اكبر من قوته الضائعة .

في بلاد الشام :

وبنى بالبلاد الحجازية والشامية ما لا يمكن حصره من القلاع والعمائر والمساجد .
يقول أبو المحاسن : وبالجملية فقد بنى أيامه بالديار المصرية ما لم يبن مثله
أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بني أيوب ، من الابنية والرباع والخانات والقواسير
والدور والمساجد والحمامات .

واضع نظم دولة الماليك :

وكان هو واضع درجات الوظائف الكبرى - كأمير السلاح وأمير المجلس ورأس
نوبة والحاجب والخازن دار وأمير آخور والسراخور والجمدار . وحدد لكل هذه
الوظائف اختصاصها الذي ظل متبعاً من بعده خلال قرنين من الزمان .
وهو الذي نظم البريد بحيث أصبح يمثل في عصره ذروة ما وصل إليه البريد
في كل تاريخ الدولة الإسلامية على ما يقرره الدكتور نظير سعداوى .

وحيث وصل نظام استخدام الحمام الزاجل الى ما يقرب من أسرع بريد في وقتنا
الحاضر . وحلت الاشارات الضوئية بأشغال النيران ، محل اللاسلكى في عصرنا
الحديث . فلا يكاد التتار يهاجمون حدود الدولة في الموصل ، حتى ينتقل الخبر في
ساعات الى مصر .

العلماء والأعلام :

ويزين عصر بيبرس عدد كبير من الرجال الاعلام في كل علم وفن ومجال . وعلى
رأس الجميع الشيخ عز الدين عبد السلام الملقب بسلطان العلماء والذي اشرنا الى
بعض مواقفه .

والقاضي ابن خلكان صاحب كتاب وفيات الاعيان الذي عينه الظاهر بيبرس
ناضيا لدمشق والذي ترك لنا مرجعا يعتبر من كنوز التاريخ . والمؤرخ جمال
الدين بن واصل .

وغص عصره بالشعراء وأهمهم شرف الدين البوصيرى صاحب المسجد المشهور
في الاسكندرية ومؤلف قصيدة البردة في مدح الرسول .

اشتداد تيار الصوفية :

ويزدان عصره بأسماء اقطاب التصوف الذين لا يزال الناس يبجلونهم حتى الوقت
الحاضر من امثال أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى والسيد أحمد البدوى
وابراهيم الدسوقي .

والقول على تيار التصوف في هذه الفترة : هو رد فعل ما حاق بالمسلمين
من تدمير بغداد في الشرق ، وتصعد الدولة الاندلسية في الغرب ، مما جعل ريح
الزهد والتقشف والعودة الى الله تتملك كثيرا من النفوس الحساسة .

بيبرس الأسطورة :

وبعد فقد استطاع الظاهر بيبرس أن يستولى على عقول معاصريه بحياته وأسلوكه ومعاركه وأسلوبه في الحكم ، وظهوره في كل مكان في أرجاء دولته حيث لا يتوقعون ظهوره ، فحيث يظن أنه في مصر إذا به في بلاد الحجاز يحج في خنوع ، ويترك آثاره المعمارية قائمة حتى اليوم ، وحيث يظن أنه في قلعة الجبل ، إذا به يعيش في إحدى القرى على صورة درويش يستطلع أحوال الشعب .

وهكذا ظلت الأساطير تنسج حوله ، فتلقف ذلك أديب مصري مجهول ألف لنا « سيرة الظاهر بيبرس » فكانت ملحمة للبطولة وظلت قرونا يتغنى بها الشعراء والقصاص في المقاهى ومجالس السمر فتثير الحماسة والنخوة في نفوس السامعين .

١٢٧٧ م - ٦٧٦ هـ : سلطنة الملك سعيد محمد بن الملك الظاهر :

في يوم الجمعة ٢٧ صفر من هذه السنة ببيع بالسلطنة محمد بن الملك الظاهر المدعو بركة خان وكان أبوه الظاهر قد أسماه بركة خان تيمنا باسم جده بركة خان زعيم مغول القبيلة الذهبية والذي تزوج الظاهر بيبرس ابنته فأنجب منها السلطان محمد المذكور . وقد لقب بالملك السعيد ناصر الدين .

وكان أبوه قد جعله ولي العهد من بعده عام ٦٦٢ هـ وزوجه ابنة كبير الأمراء سيف الدين قلاوون ليضمن ولاءه من بعد ، حيث كان يدرك ضيق المماليك به .

وإذا كان القول على أن الظاهر بيبرس هو واضع أسس النظام المملوكي فباستطاعتنا أن نجد في وصيته لابنه ، المبدأ الذي سار عليه كل سلاطين المماليك من بعده حيث قال له :

انك صبي وهؤلاء الأمراء الأكابر سيظلون ينظرون اليك باعتبارك صبي ، فأيمها أمير بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحققت من ذلك فاضرب عنقه فورا ، لا تعتقله ولا تستشر أحدا في هذا ، وافعل به ما أمرتك والا ضاعت مصلحتك .

ولم يجد السلطان الجديد نفعا من توصية أبيه له ، ولا زواجه من ابنة سيف الدين قلاوون ، فلم تكن له صفات أبيه وإنما كان شابا حدثا محبا للهو واقعا تحت تأثير أمه المغولية من ناحية ، وحاشيته العابثة من ناحية أخرى . وقد حرضته حاشيته على كبار الأمراء فعزل بعضهم وحبس الآخر ، فتآمر المماليك عليه وقرروا خلعهم .

١٢٧٩ م - ٦٧٨ هـ : خلع السلطان الملك السعيد :

كان الرجل الذي تصور الظاهر بيبرس وهو سيف الدين قلاوون أن يكون هو

سند ابنه من بعده ، هو العامل على خلعه ، ولا عجب في ذلك ، فقلالون كان أحد بناء حكم المماليك البحرية ، شهد الوقائع كلها الى جوار الظاهر بيبرس ، ولم يكن يرى أحد من ميزة عليه .

ولذلك فقد تزعم القرار بخلع السلطان سعيد ، فتم خلعه في اليوم السابع عشر من ربيع الثاني من هذه السنة .

ورعاية لكونه زوج ابنة قلاوون ، فقد ملكوه حصن الكرك وسار اليه مع زوجته ابنة قلاوون .

تولية السلطان الملك العادل سلامش على مصر :

عرض الأمراء كما هي عادتهم السلطنة على قلاوون باعتباره اقواهم وأقدمهم والساعي على خلع السلطان السابق ، ولكن حنكة قلاوون ودرسته رأت أن لا يتعجل الأمر ، فقد كان يحس بعض المعارضة الخفية في صفوف الأمراء ، ولذلك فقد قال لهم :

انا ما خلعت الملك السعيد طمعا في السطة ، والأولى أن لا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر . ورشح لهم بدر الدين سلامش بن الظاهر بيبرس الصغير الذي لم يكن عمره يتجاوز سبع سنوات ليكون سلطانا ، على أن يكون هو مدبر المملكة أو بلغة ذلك العصر (اتابكا) فتم ذلك في نفس اليوم الذي خلع فيه أخوه وأطلق عليه اسم العادل وعلى الوجه الآخر اسم قلاوون ، وخطب للثنين معا على المنابر .

سلطنة منصور سيف الدين قلاوون على مصر :

لم تكد تمضي ثلاثة أشهر على تولية السلطان الجديد ، حتى كان قلاوون قد دبر أموره هو الى جوار تدبير أمور المملكة ، فتخلص من بعض الأمراء الذين يخشى معارضتهم لسلطنته ، ووضع أهل ثقته في المراكز الحساسة ، حتى اذا اطمأن الى عمله جمع الأمراء وأعلنهم أن الملك لا يصالح مع وجود طفل صغير في السلطنة . فبالمملكة لا تقوم الا على اكتاف رجل كامل فوافقوه على رأيه وعزل سلامش وأبعد الى الكرك ليكون مع أخيه بركة . وعين الابن الثالث للظاهر بيبرس واسمه خضر نائبا على حصن الشوبك .

١٢٨٠ م - ٦٧٩ هـ : ثورة سنقر الأشقر بالشام :

لم يعجب هذا التصرف أحد اقطاب المماليك البحرية وهو سنقر الأشقر ، وكان قلاوون قد بعث به نائبا للسلطان على الشام ، فأعلن استقلاله بملك الشام ، وتلقب بالملك الكامل وحمل القضاة والأمراء والعامة على الاعتراف به ، وانضمت اليه قبائل البدو الشامية .

فبعث اليه قلاوون بجيش على رأسه الأمير علم الدين سنجر ، فاستطاع أن يهزم جيش سنقر الأشقر في مكان قريب من دمشق بعد أن خذلته بعض فرقه وانحازت الى علم الدين . ولكن سنقر الأشقر لم يستسلم واستطاع مع فريق من انصاره أن ينحاز الى بعض المواقع في شمال الشام وأن يتحصن بها ، وبعث برسله الى مغول فارس يحرضهم على غزو الشام وأنه سيكون عوناً لهم .

١٢٨١ م - ٦٨٠ هـ : هزيمة التتار في موقعة حمص :

لم يكن التتار يترقبون خيراً من هذه الفرصة لكي يحققوا ما عجزوا حتى ذلك الوقت عن تحقيقه وهو احتلال الشام تمهيداً لاحتلال مصر . وكانوا قبل هذا التمرد الذي قام به سنقر الأشقر ، قد أغاروا على مدينة حلب ونهبوها ، ولكنهم عادوا الى بلادهم خوفاً من تكتل جيش المماليك عليهم . أما هذه المرة فقد عقدوا العزم على خوض معركة حاسمة فجاءوا بقوة كبيرة .

وتسمع قلاوون بمقدمهم فخرج من مصر حاشداً كل ما استطاع حشده من قوى . وعندما وصل الى أرض الشام ، أدرك سنقر الأشقر أن لا قبل له بمعادة قلاوون ، أو لعل ضميره قد استيقظ ثانية على استقدامه للتتار ، فاتصل بقلاوون طالباً منه العفو والصالح فمنحه إياه على الفور .

وفي يوم الخميس الرابع عشر من شهر رجب ، تم اللقاء بين جيوش التتار تحت قيادة منكوتمر بن هولاكو على رأس جيش يتراوح عدده ما بين ستين وثمانين ألفاً . وجيش مصر يزيد على خمسين ألفاً ، وعلى ذلك فقد كانت معركة حمص تفوق معركة عين جالوت من حيث كثرة عدد الجند الذي اشترك فيها من الطرفين .

وبعد أن تقلب سير المعركة بين انتصار التتار في أولها على الجناح الأيسر للجيش المصري ، فإن بقية الجيش (الجناح الأيمن) استطاعت أن تتغلب على التتار وأن توقع بهم هزيمة منكرة ، فر على أثرها التتار وفرسان المماليك تتعقبهم قتلاً وأسراً ، حتى وصلت فلول المنهزمين من التتار الى نهر الفرات ففرقاً فيه عدد كبير منهم . وقد أصيب منكوتمر نفسه في المعركة ، ولكنه نجا بنفسه ليموت في العام الثاني متأثراً بأصابته وما أصابه في المعركة .

وهكذا كانت موقعة حمص تتويجاً لمعركتي عين جالوت وأبلستن وهي باتفاق المؤرخين أعظم هزيمة منى بها التتار .

وقد أعقبها ما يشبه الهدنة المسلحة التي دامت سبعة عشر عاماً لم يجروا خلالها مغول إيران على العدوان على حدود الدولة الإسلامية المصرية .

ومن حسن حظ الاسلام والبشرية ، أن دين الاسلام لن يلبث أن يأخذ طريقه

الى قلوب سلاطين التتار ، ولذلك فعندما يستأنفون هجومهم على الدولة الاسلامية
ان يكونوا خطرا ماحقا ولن يكرروا أساليبهم البربرية التي كانت دستورهم .

١٢٨٤ م - ٦٨٣ هـ : بناء القبة والمسجد والبيمارستان :

وفي هذه السنة أتم قلاوون مؤسسته الاجتماعية العظمى المثلثة الاغراض وهى
المدرسة والقبة والبيمارستان والتي غلب عليها اسم البيمارستان (المستشفى)
وقد قيل فى سبب بنائها على ما روى ابن اياس أن الملك المنصور أمر مماليكه ذات
يوم أن يضعوا السيف فى السوام لأمر أوجب تغير خاطره عليهم . فلما راق خاطر
السلطان ندم على فعلته بالناس وبنى هذا البيمارستان وفعل من أنواع الخير ما لم
يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس ، لعل الحسنات يذهبن السيئات
ولكننا لا نميل لهذا الرأى ، لما اشتهر به قلاوون من حبه للعدل وكرهيته لسفك
الدماء ، واذا كانت يد المماليك مبسوطة على بعضها فقلما كانوا يعترضون لعامة
الشعب ظلما وعدوانا .

ولذلك فنحن نرجح الرواية الأخرى التى ذكرها المقرئى من أن سبب بنائها ،
هو أن قلاوون مرض فى حياة الظاهر بيبرس وكان بدمشق فعالجه الأطباء بأدوية
أخذت له من بيمارستان نور الدين الشهيد فشفى . ثم زار البيمارستان فلما رآه
أعجبه ونذر أن اتاه الله الملك ان يبني ماريستانا مماثلا ، فلما تسلطن حقق نذره .
ولا جدال أن انتصاره الساحق على التتار ، قد قوى عزمه على المضى فى انشائه
واتمامه على أحسن وجه .

القبة :

أما القبة فقد بناها قلاوون لتكون جامعا ومسجدا ومدفنا له بعد موته ، وقرر
لها خمسين مقرئا يتناوبون قراءة القرآن ليلا ونهارا - ورتب لها اماما دائما لاقامة
الصلوات كما جعل رئيسا للمؤذنين يؤذنون فوق منارة (مئذنة) ليس فى مصر
أجل منها . ورتب بهذه القبة درسا لتفسير القرآن وعين له مدرسا ومعيدين
وثلاثين طالبا .

كما كان يدرس بها الحديث النبوى . وانشأ فى القبة خزانة كتب عامرة .

المدرسة :

أما المدرسة فقد أنشئت على نهج المدارس أصسبح انشاؤها مألوف فى مصر ،
لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ، وعين لها اماما وأميناً ، ومعلمين لتدريس المذاهب
الأربعة والحق بها ملجأ للايتام .

البيمارستان :

على أنه لا القبة ولا المدرسة هى التى خلدت منشآت قلاوون العمرانية بقدر

ما خلدها بيمارستانه الذى لا يزال يعمل حتى الآن بعد انقضاء خمسمائة عام على انشائه ، وهو اذا كان اليوم قد اقتصر على علاج العيون ، لقد كان عند انشائه أحد اعاجيب العصر ، كما قرر ذلك ابن بطوطة عندما زار مصر بعد انشائه بسنوات .

ويعصف لنا المقرئ بتفصيل دقيق نظام البيمارستان ، فيأخذنا العجب لهذا الوصف الذى ينطبق على أرفى المؤسسات العلاجية فى عصرنا الحديث حيث يقول :
وقد رتب فيه الأطباء والعقاقير وسائر ما يحتاج اليه من به لعلاج أى مرض من الأمراض .

وجعل فيه فراشين من الرجال والنساء للخدمة المرضى وقرر لهم لمعالم (أى المراتب) ونصب الاسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها فى المرض .
وأفرد لكل طائفة من المرضى موصفا ، فجعل أوامير المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها . وأفرد قاعة للرمم وقاعة للجرحى وقاعة للاسهال وقاعة للنساء ، ومكانا للمبرودين منقسم الى قسمين . للرجال وقسم للنساء . وجعل المساء يجرى فى كل هذه الأماكن .

وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال وغيرها . ومواضع لتخزن فيه الحواصل (أى المؤونة) وجعل مكانا تفرق فيه الأشربة والأدوية (العيادة الخارجية) ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء - لالقاء دروس الطب .

وكان القائم بعمارة وانشاء هذا العمل العظيم هو الأمير علم الدين بسنجار الشجاعى .

ويضيف لين بول فى أوصاف المستشفى وطرق العلاج به :
ان الموسيقى كانت تعزف للمرضى الذين لا يستطيعون النوم وتوج ذلك كله بتخصيص مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء دروس الطب (على مثال كلية الطب الملحقه بالقصر العينى) .

وكان المشرف على بناء هذا العمل العظيم هو الأمير علم الدين الشجاعى .

مؤسسة للملوك وعامة الشعب :

وبعد أن أوقف المنصور قلاوون على هذا المستشفى الأوقاف الجليلة التى تكفى لنفقائه السنوية والتى قدرت بألف ألف درهم خصص همدا العمل العظيم على من هو مثله (أى سسلطان) فمن دولته ، وجعله وقفاً على الملك والملوك والجندى والأمير ، الكبير والصغير ، والحر والعبد ، الذكور والاناث .

ونحسب أن ليس فى الدنيا كلها من مشرقها الى مغربها قبل أبام قلاوون أو بعده

في عصرنا الحديث ، أن كرسن مؤسسة لكل البشر على السواء والصغير الحر والعبد الذكر وانثى والمملك والجندي كما هو شأن هذه المؤسسة .

١٢٨٥ م - ٦٨٤ هـ : سقوط حصن المرقب الصليبي :

لم يكد قلاوون يخلص من الخطر المغولي بانتصاره الحاسم في معركة حمص ، حتى تفرغ لواصله ما بداه الظاهر بيبرس من تصفية الدويلات الصليبية والتي كان لا يزال باقيا منها :

— مملكة طرابلس في الشمال .

— مملكة القدس المستقرة في عكا .

وكان الى جوار هذين المركزين عدد من القلاع والمواقع المتناثرة هنا وهناك ، تقيم في بعضها فرسان الاسبتارية ، ويقيم في بعضها الآخر فرسان الداوية .

فبدأ عملياته الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على هذه المراكز والحصون المتفرقة ، فتوجه الى اقواها واحصنها وهو حصن المرقب والذي لم يستطع صلاح الدين ان يستولى عليه ، فحرب عليه الحصار ثمانية وثلاثين يوما ، استسلم بعدها حماة الحصن ، فتسلمه قلاوون في يوم الجمعة التاسع عشر من ربيع الاول من هذه السنة .

١٢٨٩ م - ٦٨٨ هـ : سقوط مملكة طرابلس :

وكان سقوط حصن المرقب مقدمة لعملية اوسع نطاقا وهي الاستيلاء على طرابلس . فلم يكد قلاوون يتلقى خطابا من نائبه بالشام يعلمه فيه ان افرنج طرابلس قد نقضوا الهدنة واعتدوا على التجار المسلمين . حتى خرج قلاوون بجيشه من مصر على رأس جيشه من منتصف المحرم قاصدا الشام للاستيلاء على طرابلس .

وفي يوم الثلاثاء الرابع من ربيع الثاني (ابريل) سقطت المدينة الحصينة العظيمة في يد قلاوون بعد حصار دام اربعة وثلاثين يوما .

وزيقت البشائر على الآفاق بهذا النصر العظيم ، وزينت المدن واحتفل الناس في أرجاء العالم الاسلامي وتبارى الشعراء في تخليد هذا العمل العظيم .

١٢٩٠ م - ٦٨٩ هـ : خرق صليبي عكا الهدنة :

ولم يبق بعد سقوط دولة طرابلس الصليبية الا دولة عكا .
واسنبا تدرى مدي لصحة فيما يقوله مؤرخو المسلمين من ان عكا بعد طرابلس

كانت هي البادئة بخرق الهدنة . فان العقل يستبعد بعد أن وصل الصليبيون الى ما وصلوا اليه من ضعف ، وانشغال أوربا عنهم ، وبعد أن رأوا قوة قلاوون ، أن يكونوا هم الذين يخرقون الهدنة .

وأغلب الظن أن خرق الهدنة كان يتخذ علة للهجوم عليها والفراغ منها . ومع ذلك فان للقدر أحكامه ، وليس هناك ما يمنع بالفعل أن يجعل العيش يستهوى عقول بعض المغامرين تعجيلا لنهايتهم ، فينقضون الهدنة ويعتدون على بعض تجار المسلمين . كيفما كان الأمر ، فقد خرج قلاوون بجيشه الى ظاهر القاهرة في أواخر شوال من هذه السنة ، استعدادا للسير نحو مدينة عكا والاستيلاء عليها ، ولكن المرض حل به فأقعه عن السير .

وفاة السلطان المنصور قلاوون :

في ليلة السبت السادس من ذى القعدة توفي السلطان الملك المنصور قلاوون وكان عمره يوم وفاته سبعين سنة ومده سلطنته على مصر إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوما ، وهو من هذا الرعيل الأول من المماليك البحرية الصالحة الأتراك أمثال قطز وبيبرس الذين أسهموا في قيام دولة المماليك ولذلك فقد سار على نهجهم ، واتبع أسلوبهم . سواء في شئون السياسة أو في الحرب ، أو في البناء والعمير الداخلي .

مؤسس المماليك البرجية :

وكما يعتبر الصالح نجم الدين أيوب هو مؤسس المماليك البحرية فان المنصور قلاوون هو مؤسس المماليك البرجية الذين ينتمون الى الجنس الشركسى : أما سبب تسميتهم البرجية ، فلانه بنى لهم أبراجا في القلعة وأنزلهم بها ، وكان عدة من أقاموا بهذه الأبراج على أيامه ثلاثة آلاف وسبعمائة .

ووضع لهم النظام الذي من شأنه أن يجعل منهم قوة فعالة ، فكانوا يستوردون من موطنهم وهم صغار السن ، ثم يتعهدونهم بالتربية الدينية والعسكرية ولا يسمح لهم بالنزول من القلعة الى المدينة .

ثم يتدرجون بعد ذلك حسب ما يظهرونه من نجابة واستعداد للترقى كما كان متبعها بالنسبة للمماليك البحرية .

ولن يابث المماليك البرجية أن يصبحوا هم القوة الحاكمة . وينشئوا لانفسهم دولة في مصر تعرف باسمهم .

سلطنة الملك الأشرف خليل على مصر :

على الرغم من أن قلاوون لم يشأ أن يوقع على المرسوم القاضي بتعيين ابنه الأشرف خليل سلطانا من بعده لعدم رضائه على سلوكه بعد أن جربه في نيابة

السلطنة ، فقد كان لله من قوة الشخصية ، والشهرة بين الأمراء ، ما جعلهم يبايعونه عندما جلس على أريكة الملك ولم يتخاف واحد منهم . وكان ذلك في يوم الاثنين الثامن من ذى القعدة .

١٢٩٠ م - ٦٩٠ هـ : سقوط مدينة عكا الصليبية :

مضى الأشرف خليل في تنفيذ عزم والده الذى مات قبل انجازه وهو تصفية آخر مراكز الصليبيين في فلسطين فخرج بالجيوش التى كان أبوه قد أعدها من مصر وكنب لنوابه في الشام ان يوافوه بجيوشهم حول مدينة عكا .

وفي الثالث عشر من شهر ربيع الأول من هذه السنة بدىء في حصار مدينة عكا وانصببت حولها المنجنيقات التى بلغ عددها ٩٢ منجنيقا وكان من بينهما ما يسمى بمنجنيقات افرنجية ، ومنجنيقات شيطانية وهى التى تقذف بالحجارة لتهديم الأسوار ، كما تقذف بالنيران .

واستنجد أهل عكا بصاحب قبرص الذى كان يعتبر ملكا لهم فخفف لنجدتهم ، ولكنه بعد أن وصل الى المدينة رأى من أحوالها وانقسام أهلها ما دله على أن نهاية المدينة أصبحت محتومة ، فلم يلبث أن انسحب عائدا الى جزيرته .

وفي يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأول (١٨ مايو) سقطت المدينة وان ظلت أربعة أبراج داخل المدينة تجمعت فيها فرسان الاسبتارية والداوية ، قاوم وترفض الاستسلام ، ولكنها سقطت في النهاية بعد أن مات أو جرح أكثر من فيها .

وقد سجل ابن بول في كتابه القيم تفصيلا رائعا للحظات الأخيرة في حياة الصليبيين في عكا .

تساقط بقايا المراكز الصليبية :

وبعد سقوط عكا ، تساقطت آخر الحصون والمراكز الصليبية في صور التى لو سقطت منذ مائة عام بيد صلاح الدين لتغير تاريخ المنطقة ، ثم سقطت على أثرها صيدا وبيروت وعنليت والطرسوس ولم يبق شبر واحد على أرض ما نسميه اليوم فلسطين أو لبنان في حكم الصليبيين .

وارتجت دمشق والقاهرة وجميع مدن العالم الاسلامى بالافراح والزينات لانهاء عهد الصليبيين في الشرق ، وعودة الأرض الى أصحابها .

ذهود الروح الصليبية :

ولم يثر استئصال شأفة الحكم الصليبي في الشرق ما اعتاده أن يشيره من قبل في أوروبا ، ولم يصل جندي واحد من أى بلد من البلاد التى اعتادت أن ترسل الحملات على سبيل النجدة . ذلك أن ريح تغير عميق كانت توشك أن تهب على

أوروبا ، حيث تخضع رداء طلعات العصور الوسطى ، لتدخل في نور نهضتها العظيمة التي لا تزال مستمرة حتى الآن ، وإن كان السلطان السياسي والعلمي قد تحول عنها إلى أمريكا والاجتماع بين المؤرخين منعقد على أن احتكاك الغرب الأدنى بالشرق الإسلامي هو أحد أسباب هذه النهضة .

يقول أحد المؤرخين الأوروبيين : لقد جاء الصليبيون إلى الشرق مخلفين وراءهم أوروبا التي كانت مؤلفة وقتذاك من قرى صغيرة تغص بالزرايب ومرابط الخنازير والفضلات المتعفنة وروائح الناس الذين ورثوا معارفهم وقبعتهم عن أجدادهم ، الذين لم يعرفوا قط نعمة الصابون ، حتى لقد غشي يوما ما على ملك فرنسا عندما كان ينظر من نافذة قصره من شدة نتن رائحة الخنازير التي كانت ترعى في شوارع باريس وكانت الأوبئة والطواعين والجدرى تفرى الناس فريا .

وعاد الصليبيون من الشرق بعد أن رأوا شمسهم وحضارتهم وجمال مدنه ، وتسامح أهله ، ناقلين معهم طائفة جديدة من المواد الغذائية والفواكه التي زرعوها ولا تزال حتى الآن تحمل أسماءها العربية . وعادوا بلبسون العباءات الفضفاضة من الحرير والقطن المصنوعة في الشرق (١) .

وليس هناك ما يؤكد الصلة بين نهضة أوروبا الحديثة واتصالها بالشرق الإسلامي ، أكثر من أنها بدأت في إيطاليا والمانيا وقد رأينا كيف كانت صقلية دولة إسلامية ، وكيف كان امبراطور المانيا يتكلم العربية ويحيط نفسه بعلماء المسلمين .

١٢٩٣ م - ٦٩٣ هـ : مقتل السلطان الأشرف خليل :

بخل البناء أن إحدى سنن الحكم المملوكي وتقاليدته هي قتل المالك غداة انتصاره ، وأينا ذلك بالنسبة لنوران شاه ، وقطر ، ولم يلبث أن لحق بهم الأشرف خليل . إذ انقض عليه الأمراء أثناء وجوده في رحلة الصيد بمديرية البحيرة عند كوم شروجه (أو المطامر حاليا) فقتلوه وكان ذلك في يوم السبت الثاني عشر من المحرم .

وكان على رأس قائله نائب السلطان بيدار الذي قال مدافعا عن نفسه عندما أحيط به بعد ذلك :

« ان رجلا كخليل يشرب الخمر في شهر رمضان ، والذي غرق في الشملوز الجنسي ، والذي حول عبيده إلى نبلاء ونكل بأمراء أبيه فقطع رقاب بعضهم بالسيف ، والقى بالبعض الآخر في الحبوس ، لا يصاح أن يكون حاكما للمسلمين » .

ولكن الذهبى المؤرخ المعاصر يرسم له في تاريخه صورة أكثر انصافا مع وصفه بأوصاف سلاطين المماليك المعتادة ، فيقول :

ولو طالت أبامه أو حياته لأخذ العراق وغيرها (من المغول) فإنه كان بطالا شجاعا مقداما مهيبا على الهمة بملا العين ويرجف القاب ، رأيت مرات ، وكان ضخما سمينا .

(١) قصة الجنس البشرى .

كبير الوجه بديع الجمال مستدير اللحية ، على وجهه رونق الحسن وهيبة السلطنة
وكان مخوف السطوة سديد الوطأة ، قوى البطش ، تخافه الملوك في امصارها
والوحوش في اجامها . اباد جماعة من كبار الدولة . وكان منهمكا في الملذات ، لا يعبا
بالتحرز لنفسه لفرط شجاعته ولا احسبه بلغ الثلاثين ، ولعل الله عز وجل قد عفا
عنه وأرجب له الجنة لكثرة جهاده واذلاله في الكفار . انتهى وكانت مدة حكمه ثلاث
سنين وشهرين وخمسة أيام .

وسمى يوم مات ثلاثون سنة .

الأمير بيدرا يعين سلطانا :

وقع اختيار المتآمرين الذين قتلوا الأشرف خلبل على كبير المتآمرين نائب
السلطنة الأمير بيدرا ليكون سلطانا وأسرعوا فلقبوه بالأوحد . ولكن أمراء الأشرف
الذين كانوا بالقاهرة وعلى رأسهم كتبغا وسنجر الشجاعى ، لم يعترفوا بسلطنة
بيدرا . واضطدم الفريقان في موقعة ، فانهزم فريق بيدرا وقتلوه هو نفسه .

وبموتهم فتحت مشكلة اختيار السلطان الجديد ، ولم يستطع أحد الأمراء أن
يتغلب على الآخرين ، فاستقر رأيهم على أن يسلطوا الابن الأصغر لقلاوون .

سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون :

كان عمر محمد بن قلاوون عندما اجلس على العرش تسع سنوات وكان جاوسه
على كرسي السلطنة يوم الاثنين الرابع عشر من المحرم ، وتعين الأمير زين الدين كتبغا
ليكون نائبا للسلطان بالديار المصرية ، والأمير علم الدين سنجر الشجاعى وزيرا
ومديرا للمملكة واتباعا للعسكر .

وسرعان ما دب النزاع بين الرجاءين الكبيرين وقامت المعارك الحربية بينهما ،
وانتهى الأمر بقتل سنجر الشجاعى ، وانفرد كتبغا بالسلطنة الفعلية . فأقدم على
الخطوة الأخيرة للوصول الى السلطنة .

١٢٩٥ م - ٦٩٤ هـ : خلع الناصر و سلطنة الملك العادل زين العابدين كتبغا :

في الثانى عشر من المحرم من هذه السنة استدعى كتبغا الخليفة العباسى والأمراء
والقضاة وانفق معهم على عزل السلطان فالبلا لا يحكمها صبي صغير .

فوافقوه على رآيه ، وخلع السلطان الناصر ، ونقل من قصر الحكم هو وامه الى
بعض القاعات بالقاهرة .

وتولى الملك كتبغا السلطنة ولقب بالملك العادل .

وينتد من بين سلسلة المماليك البحرية بأن أصله من القطار وقد سبى في معركة
حمص ، فأخذ منه الملك المنصور قلاوون وأدبه ثم اعتقه ورقاه حتى صار من
أكابر قواده .

وكان أول عمل قام به كتبغا بعد أن صار سلطانا ، هو تعيين صاحبه القديم الأمير حسام الدين لاجين المنصوري نائبا للسلطنة . وكان حسام الدين لاجين أحد الذين اشتركوا في قتل السلطان خليل ولكن كتبغا بسط عليه حمايته وظل يواليه برعايته حتى جعله نائبا له على السلطنة ، وقد قيل أن لاجين كان هو الذي حرض كتبغا للحصول على السلطنة ، فلما تم له الأمر كافأه بنبابة السلطنة .

١٢٩٦ م - ٦٩٥ هـ تفشى القحط والمجاعة في البلاد :

واجه كتبغا في ممالك حكمه عدة مشاكل اثارته عليه الرأي العام المصري ، ودفعت امراء الممالك للتآمر عليه .

أما المشكلة الأولى فهي قدوم عشرة آلاف مغولي الى الشام معانين رغبتهم في اعتناق الاسلام ، فبادر كتبغا بالترحيب بهم ليتخذ منهم درعا له وحصنا ، ووصل الى القاهرة مندوبون عنهم كانوا لا يزالون على وثنيتهم فكانوا يتجاهرون بالافطار في رمضان . وخاف جمهرة الممالك الذين لم يكونوا من أصل مغولي على انفسهم من هذه الواقعة الجديدة، ولكن الذي أهم الشعب المصري واحنقه على كتبغا، هو قصور النيل عن الفيضان الطبيعي فقحطت الارض وانتشرت المجاعة وعلت الاسعار فأصبح ثمن اردب القمح ١٦ درهما بدلا من خمسة وعشرين ، وكذلك اردب الفول . وبلغ ثمن رطل الخبز درهما ورطل اللحم بسبعة دراهم ، وكل سبع حبات من البيض بدرهم .

وفشا الموت في القاهرة ، واحصى من مات بها ودون اسمه في ديوان المواريث بسبعة عشر ألفا وخمسمائة . وهذا سوى ما لم يرد اسمه في ديوان المواريث من الغرباء والفقراء .

حاول كتبغا مواجهة الازمة قدر طاقته ، فاستورد القمح من الشام وفزق الفقراء على الممالك ليعولوهم .

ولكن ذلك كله لم يخفف نقمة الشعب على كتبغا ، واعتبر حكمه شؤما ، وراح يندد بغير كتبغا وعزله ابن سيده الناصر قلاوون .

١٢٩٧ م - ٦٩٦ هـ : خلع السلطان العادل كتبغا :

استغل لاجين نائب السلطنة وصديق كتبغا فرصة المصاعب التي قامت في وجهه كتبغا ، وتزايد السخط عليه لكي يتآمر مع بعض الأمراء على خلعهم . فانتهزوا فرصة وجوده في الشام وهجموا على خيمة كتبغا أثناء عودتهم في الطريق الى مصر وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع عشر من المحرم . فقتلوا بعض اتباعه ولكن كتبغا تمكن من الفرار والعودة الى دمشق حيث لجأ الى قلعتها واحتتمى بها .

واتفق الأمراء على خلعه وتولية لاجين بدلا منه سلطانا على مصر بعد أن اشترطوا عليه أن يكون كواحد منهم ولا ينفرد برأى دونهم ولا يسطر أيدي مماليكه ولا يقدمهم عليهم . وحلفوه على ذلك فحلف لهم أفاضل الأيمان .

سلطنة الملك المنصور لاجين على مصر :

في يوم الجمعة العاشر من شهر صفر من هذه السنة تمت مبايعة لاجين رسميا بالسلطنة . وقد كان لاجين أحد ممالك قلاوون اشتراه ورباه ثم أعتقه ، فلما تسلطن جعله نائبا بقلعة دمشق ثم زوجه إحدى بناته .

وكأن أن يهلك أيام الأشرف خليل ويقتل مع من قتل من أمراء ووصل الأمر إلى حد وضع الوتر بالفعل حول رقبتة لخنقه ولكن الوتر قطع ، وتشفع فيه الأمراء فأبقى عليه الأشرف خليل حيا . فلم ينس لاجين للأشرف ذلك الموقف ، ولذلك فقد سعى إلى قتله وكان من بين المتآمرين على قتله وكان يمكن أن يهلك لولا أن حماه كتبوا كما قدمنا .

تحول كتبغا إلى قلعة صرخد :

كان على لاجين أن يحل مشكلة كتبغا المتحصن في قلعة دمشق فكتب له يؤمنه على نفسه ، ويطلب منه أن يخرج من قلعة دمشق ويتوجه إلى قلعة صرخد ليكون نائبا للسلطان عليها بعد أن يقسم على أن لا يكتب أحدا أو يشاور أحدا ، فضلا عن أن يتآمر على السلطان فقبل كتبغا هذه الشروط ، وخرج من قلعة دمشق ونوجه إلى صرخد حيث عاش بها بقية حياته مغمورا منسيا لا يأبه به أحد ولا يحاول هو أن يذكر أحدا بنفسه . وهو ما جعل أبو المحاسن يعتبر أمره غربيا شاذا . وكانت مدة ساطنة كتبغا سنتين وسبعة عشر يوما .

إرسال الناصر قلاوون إلى الكرك :

وامعانا في إجراءات الأمن أخرج الملك السابق قلاوون وأمه من القلعة وأرسل ليقوم في قلعة الكرك ، بعد أن أقسم له السلطان لاجين أنه يحكم لحسابه ، وأنه لا يكاد يكبر في الحكم حتى ينزل له عن السلطان .

تحسن الأحوال العامة :

كان من حسن حظ لاجين ، أن النيسل عاد إلى وفائه ، فكثر الخير ورخصت الأسعار حتى أصبح ثمن أردب القمح عشرين درهما بدلا من (١٨٠) أما أردب الشعير فبعشرة دراهم ورطل اللحم بدرهم وربع . وأصدر لاجين أمره بمسامحة الفلاحين وسائر الرعايا بما عليهم من بواقي الخراج التي عجزوا عن دفعها .

وكان حسام الدين يحيى أثناء نيابته في دمشق حياة كلها لهو وانصراف إلى شرب الخمر والبحث عن الملذات حتى لقد بعث قلاوون إليه يهدده ، فلما أن ولي السلطنة ،

تاب عن ذلك كله وأقبل على العبادة ، وقرب اليه العلماء ، وبذل كل ما يستطيع من جهد لارضاء الشعب وحرص على أن يسود العدل بين الناس .

وتقرب الى عامة الشعب فكان يجالسهم ويشاركهم في طعامهم وأصدر كثيرا من الأوامر للمحافظة على أموال اليتامى .

وقام باصلاح جامع طولون اصلاحا عظيما ، وكان قد نذر ابان اختفائه به بعد مقتل السلطان خليل اذا أنجاه الله أن يصلحه .

وقرر فيه دروس الفقه والحديث والتفسير والنطب وغير ذلك . يقول ابو المحاسن :

ولولا الأوقاف التي أوقفها لاجين على مسجد طولون لتخرب .

١٢٩٨ م - ٦٩٧ هـ : عمل الروك الحسامي :

وفي هذه السنة رآك السلطان البلاد المصرية ، أى اعاد مسح أرضها الزراعى لتقدير الخراج المستحق عليها (وهو ما يسمى فى عصرنا الحاضر بعملية فك الزمام) وذلك هو الروك الحسامي .

وتكشف لنا هذه العملية عن ظروف الملكية الزراعية فى مصر فى هذه الفترة ، فقد كانت الأرض تعتبر مملوكة لبيت المال ، وقد قسمت ايراداتها الى أربعة وعشرين قراطا منها أربعة قرايط للسلطان ، و ١٠ قرايط للأمراء و ١٠ قرايط للجند .

وكان الأمراء يأخذون كثيرا من اقطاعات الجنود فلا يصل منها اليهم شيئا ، ويصير هذه الاقطاعات الى دواوين الأمراء فتحتمى بها قطاع الطرق وتثور بها الفتن وتمنع منها الحقوق والمقررات الديوانية ، وتصبح كلها مأكلة للأمراء وأعوانهم وتتحول الى مضرة بأهل البلاد التى تجاورها .

ورأى السلطان لاجين أن يبطل ذلك ويعيد تنظيم البلاد ، فأصدر أوامره للمباشرين بعملية اعادة مسح الأراضى المصرية وعلى رأسهم التاج الطويل وهو قبضى أسلم أن يجعل نصيب الأمراء والجند معا عشر قرايط (بدلا من عشرين) ثم زادهم قراطا فأصبح أحد عشر قراطا . على أن تكون الثلاثة عشر قراطا الباقية من نصيب السلطان يوجهها للخدمة العامة .

وغنى عن البيان أن مثل هذا العمل من شأنه أن يحرق عليه الأمراء فيعملون على قتله .

١٢٩٩ م - ٦٩٨ هـ : مقتل السلطان لاجين :

فى يوم الخميس العاشر من ربيع الثانى ، قتل السلطان المنصور لاجين وهو يالس يلعب الشطرنج مع بعض خواصه ومن بينهم قاضى القضاة وامام الصلاة .

وكان قاتله هو كبير المماليك البرجية الذى كان اقرب الناس اليه .

وقد احتج امراء المماليك عليه ، بأنه خالف الشرط الذى اشترطوه عليه وهو أن لا يقدم أحدا من مماليكه عليهم ، حيث جعل منكوتمر هو المتحكم فى كل الأمور والذى عامل بقية الأمراء فى غطرسة واستعلاء . وأوشك لاجين أن يجعل منه ولى عهده من بعده على أن الذى عجل بقتله من غير شك ، هو حرمانه الأمراء والجنود من نصف ما كانوا يحصلون عليه من موارد الدولة كما قدمنا .

وكان عمر لاجين يوم مات ثلاثا وسبعين سنة ، ومدة حكمه سنتين وثلاثة شهور . ويجمع المؤرخون وعلى رأسهم أبو المحاسن أنه كان فيه كل الخصال الحسنة ، لولا توليته مملوكه منكوتمر الأمور ومحبتة له فقد كانت السبب فى هلاكه . وقد الحق المتآمرون منكوتمر بأستاذة فقتلوه فى نفس الليلة .

ابن دقيق العيد - قاضى القضاة :

وعلى ذكر منكوتمر وغلبته على الأمور فان تاريخ هذه الحقبة يسجل لنا موقفا لقاضى القضاة ابن دقيق العيد ، يكشف عن سلطان رجال الدين ، وخوف السلاطين منهم . فقد حدث أن اختلف منكوتمر مع قاضى القضاة الذى رفض أن يأخذ بشهادته فى قضية ميراث الا أن يأتلى الى مجلسه وينشهد معه شاهد آخر .

ولما حاول منكوتمر أن يضغط على قاضى القضاة - قال لمن معه من القضاة : اشهدكم اننى عزلت نفسى باسم الله قولوا له يوالى غيرى تم انصرف الى داره وأغلق بابه عليه .

وبالرغم من حب السلطان لمنكوتمر فقد أنكر عليه موقفه وبعث الى القاضى يعتذر ويرجوه الحضور الى القلعة ، وابن دقيق يأتى ويعتذر وأخيرا ذهب الى السلطان الذى تلقاه بما يليق به من الاحترام ، وراح يرجوه أن يعدل عن استقالته ، حتى قبل . ولما هم ابن دقيق بالانصراف قال له السلطان :

يا سيدى هذا ولدك منكوتمر . خاطرك معه ، ادع له . فنظر اليه القاضى وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول : منكوتمر لا يخشى منه شيء وظل يكررها ثلاث مرات . ثم قام متجها الى منزله .

وتمضى كتب التاريخ فى تفاصيل هذا المشهد فتقول ان ابن دقيق كان قد فرش تحتة قبل أن يجلس منديله الذى كان صنعه باليد من الكتان وذلك مخافة أن يجلس فوق الحرير فلما انصرف من حضرة السلطان ناسينا وراءه منديله ، أخذه السلطان ليتبرك به ، وفرقه الأمراء بعد ذلك قطعة قطعة ليندخروها عندهم رجاء بركته .

السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون :

فى يوم الاثنين سادس جمادى الاول من هذه السنة ، بايع الخليفة العباسى والقضاة الأربعة والأمراء - السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطانا على مصر بعد

مقتل لاجين ، وعجز الأمراء على الاتفاق على من يتولى الملك منهم ، فراوا أن أسلم حل هو إعادة السلطان الناصر الى الملك ، فاستدعوه من قلعة الكرك حيث كان عمره قد بلغ الرابعة عشرة .

وجعل نائب السلطنة على ديار مصر سيف الدين سلار . وعين ركنى الدين بيبرس الجاشنكير استدارا أى متولى شئون أطعمة القصر وأشربته . فأصبح هذان الأميران هما أصحاب السلطان والنفوذ ، وبدأ الصراع بينهما على الانفراد بالسلطة .

١٣٠٠ م - ٦٩٩ هـ : غازان ملك التتار يغزو الشام :

كان السلطان لاجين قبل مصرعه قد خلف ثانية على الشام الأمير قبجق المنصور فلجأ الى غازان أو غازان ملك تتر ايران ، والذي كان قد اعتنق الاسلام وراح يحسن له فتح الشام . فاستجاب للتحرير وزحف بجيوشه على الشام .

ووصل الخبر الى مصر فصار السلطان على رأس جيشه لملاقاة التتار .

وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة تم اللقاء بين الجيوش المغولية والجيوش المصرية .

وكانت عدة المماليك على ما يقول المقرئى فى كتاب السلوك بضعة وعشرين ألف فارس والتتار فى مائة ألف ، وربما كان فى هذا الرقم الأخير مبالغة .

وقد بدأت المعركة بانتصار الجيش المصرى ، حتى أوشك غازان أن يفر ، لولا أن تنبه حليفه المملوكى قبجق ، فلم تلبث الدائرة أن دارت على الجيش المملوكى ، فهزموا هزيمة منكسرة وولوا الأدبار ولولا أن غازان توقف عن متابعتهم لكانت الكارثة أفدح .

وتسلم غازان مدينة دمشق بالأمان ، فسار اليها ودخلها ، ولكن قلعة المدينة رفضت التسليم ، بل رفضت أن تصفى لأى حديث عن التسليم . ومن المحقق أن أسلام غازان قد وقى مدينة دمشق مما كان يصحب غارات التتار من قتل وفتك وحرق ونهب .

وخطب لغازان على منابر يوم الجمعة رابع عشر من ربيع الثانى على منابر دمشق حيث وصف بأنه : مولانا السلطان الأعظم سلطان الاسلام والمسلمين مظفر الدنيا والدين محمود غازان .

على أن رفض قلعة دمشق التسليم ومقاومتها الحصار المفروض عايتها تحت قيادة أرجواش الذى ظل على ولائه للسلطان الناصر ، قد أحرق المغول ، فبدأوا ينهبون القرى المحيطة بدمشق ويفرضون عليها الاتاوات العظيمة التى بلغت ثلاثة ملايين وسثمائة دينار فى بعض الروايات ودرهم فى روايات أخرى (السلوك) .

وقد لعب شيخ الاسلام ابن تيمية دورا في هذه الأزمة فقام بمقابلة السلطان مرتين وطلب منه أن يكف يد جنوده عن النهب والسلب . وقد نقبل السلطان وساطته ، ولكنه أفهم أن لا بد من الاجتهاد في جمع المال المطلوب .

ورأى غازان بعد ذلك أن يعود الى بلاده فأقر الأمير قبجق نائب الشام السابق حاكما عليها من قبائه كما عين بعض أمراء المماليك نوابا عنه على حمص وحماة وحلب . وانسحب بجيشه من الشام مخلفا وراءه حامية صغيرة .

عودة الخطبة للناصر في دمشق :

لم يكد غازان ينسحب من المدينة ، حتى استطاع أراجواش الذي رفض تسليم قلعة دمشق أن يعيد سيطرته على المدينة ، وأعاد الخطبة الى السلطان الناصر . ولم يشأ الأمير قبجق أن يقاوم ذلك ، وآثر أن يعود لحظيرة السلطان قلاوون . فجهأ الى مصر تائباً معتذراً ، فقبل منه السلطان ، وعفا عنه .

١٣٠٢ م - ٧٠١ هـ : تمرد العربان وقمع التمرد :

هزت الصدمة التي منى بها الجيش في معركته مع التتار المشاعر في مصر ، وكان احد ردود الفعل لهذه الهزيمة المنكرة ، أن استخف العربان في الصعيد بالولاية ، وخرجوا عن الطاعة ومنعوا الخراج ، وأخرجوا من في السجون . وبدأوا يفرضون الضرائب على التجار وأرباب المعاش من أقصى جنوب مصر حتى مدينة أسيوط ومنفلوط . فسير اليهم الملك الناصر قلاوون أربعة جيوش مختلفة تحت رئاسة كبار قواده ، سلاز وبببرس وغيرهما بعد أن أذاعوا هذه الجيوش متوجهة نحو الشام ، لتباغت الأعراب وتأخذهم على غرة وأحاطت بهم من كل جانب ، حتى أهلكوهم عن آخرهم على ما يقول المقریزی .

وساقوا خيولهم ومواشيهم وأغنامهم الى مصر .

١٣٠٣ م - ٧٠٢ هـ : المفاوضات بين قلاوون وغازان :

لم ييأس قلاوون عقب هزيمته الأولى من التتار رغم صغر سنه ، بل انه شرع فدعا والى مصر عقب هذه الهزيمة ، أن يعيد تنظيم جيشه ويستعد لجولة جديدة مع التتار ، ولم يؤخره عنها الا وصول الأخبار بانسحاب غازان من دمشق والشام ، وقد رأينا كيف عاد سلطان الناصر قلاوون الى دمشق بمجرد انسحاب غازان . وكذلك تم الأمر بالنسبة لجميع أمراء الشام الذين اتابهم غازان على مختلف مدن الشام ، فقد استجابوا جميعا الى دعوة الناصر قلاوون الى عودتهم الى طاعته .

فلما وصلت هذه الأنباء لغازان ، رأى أن يدخل في مفاوضات للصلح بينه وبين قلاوون ، ليتعاونوا سويا باعتبارهما ملكين اسلاميين لما فيه خير المسلمين من نشر العدل وتوحيد الأمن وتشجيع التبادل التجارى بين الاقليتين .

فبعث برسالة الى قلاوون أثبتتها كتيب التاريخ ، وضمنها بأن طلب من قلاوون أن يبعث له بهدية لتكون عربونا على العودة : لنعلم بارسالها قد حصل منكم اجابتنا للصلح بحسن نية ، ونهدى اليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه اليكم والسلام الطيب عليكم ان شاء الله تعالى .

ولم يطمئن السلطان الناصر الى صدق طوية غازان ، ولم ير في الخطاب وفي طلب الصلح الا مراوغة لكي يشبط من عزيمة قلاوون في الاستعداد للحرب . ولذلك فقد رد عليه مناقشا ما جاء في خطابه ومفندا بعض ما قيل عن اسباب انتصار غازان وهزيمة قلاوون . وطلب في نهاية الخطاب أن يبعث غازان الى مصر رجلا من خواص دولته : اذا قطع بأمر وقفتم عنده ، أو فصل حكما انتهيتم اليه أو جزم أمرا عولتم عليه . وهو ما يسمى بلغة عصرنا مندوب مفوض مخول بكل السلطات . وذلك للتفاوض في موضوع الصلح .

اما بخصوص الهدية التي طلبها غازان فان : الديار المصرية لا تبخل بها عليه ومقداره عندنا أجل مقدار وجميع ما يهدى اليه دون قدره . وانما الواجب ان يهدى أولا من يستهدى ، لتقابل هديته بأضعافها ويتحقق صدق نيته واخلاص سريره .

انتصار قلاوون على التتار :

على أن هذه المفاوضات لم تسفر عن شيء ، ولذلك فقد زحف غازان من جديد بجيشه على الشام ووصل الى مشارف نهر الفرات ، وبعث بكبير جيشه فظلو شاه على رأس جيش مؤلف من ثمانين الفا ليعيد سلطان غازان على الشام ، وكتب الى أمراء الشام يدعوهم الى طاعته .

وفي يوم السبت الثاني من رمضان عام ٧٠٢ هـ ٢٠ ابريل سنة ١٣٠٢ تم اللقاء بين جيوش المغول تحت قيادة فظلو شاه والجيش المصرى تحت قيادة الناصر قلاوون عند بلدة شقجوب بمرج الصفر . واستمرت المعركة طوال يوم السبت ، ثم استؤنفت في اليوم الثاني (الأحد) دون التوصل الى نتيجة حاسمة ، واستمر القتال لثالث يوم (الاثنين) وفي هذا اليوم تم انتصار الجيش المصرى الساحق على التتار الذين فروا منهزمين ، والسيف يعمل في اقفيتهم بحسب تعبير ذلك الزمان ، فقد تعقبهم فرسان المماليك قتلا وأسرا . وانهارت معنويات التتار فاذا بهم يلقون بأسلحتهم ويستسلمون للقتل ، فراح الجنود المصريون يقتلونهم في غير مدافعة .

ويقول المؤرخون في تصوير مدى الهزيمة : حتى أن اراذل العامة والفلمان قتلوا منهم خلقا كثيرا وغنموا عدة غنائم . وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتر فما فوقها . بحيث أن فظلو شاه لم يعبر الفرات الا في قليل من أصحابه .

وعندما بلغ نبأ الهزيمة الى غازان ، أغتم غما عظيما : وفيل أنه خرج من انفه دم كثير حتى أشرف على الموت ، ولم يلبث أن مات حسرة وكمدا في العام التالي .

دور ابن تيمية في هذا النصر :

وكتب التاريخ طافحة بذكر الدور الكبير الذي قام به شيخ الاسلام ابن تيمية لتحقيق هذا النصر ، فقد كان على رأس السفارة الى أوفدها أهل الشام الى السلطان قلاوون يستحثونه على اعداد العدة والخروج بالجيش لملاقاة التتار ، حتى قيل انه اشتد على السلطان . وقد سار مع الجيش عند خروجه من مصر ، وقبل انه حارب بنفسه خلال المعركة . وعلى أية حال فالمحقق انه كان يلهب متسامر الجند بمواعظه وترديد آيات الجهاد (ابن تيمية من اعلام الحرب) .

احتفالات النصر في القاهرة :

وقد استعدت القاهرة لعودة الناصر قلاوون بالزيينات والاحتفالات كما لم يحدث في تاريخ حياتها ، فقد تفاخر الناس في الزينة ونصسوا القلاع (أى أقواس النصر) وأخرج الناس ما عندهم من الحلوى وجواهر وآلئ وأنواع الحرير فتزينوا بها ، واقامت أحواض ملئت بالسكر والليمون (١) ليشرب منها العساكر والناس . وفرشت الأرض بالحرير تحت أقدام السلطان ومن معه .

على ان زينة هذه الاحتفالات الكبرى حسب روح العصر على ما تقول كتب التاريخ كان هو منظر الألف وستمائة أسير وهم يسرون مقيدى الأيدي وقد علق في رقبة كل واحد منهم رأس واحد من قتلهم . وذلك بالإضافة الى ألف رأس أخرى كانت مرفوعة فوق الحراب .

١٣٠٤ م - ٧٠٣ هـ : افتتاح المدرسة الناصرية :

وفي هذه السنة أتم الناصر المدرسة الناصرية بين القصرين وأوقف عليها الاوقاف ورتب بها المدرسين للمذاهب الاربعة .

١٣٠٨ م - ٧٠٨ هـ : اعتزال السلطان الناصر الملك للمرة الثانية :

استحق السلطان الناصر قلاوون ، بعد انتصاره الباهر على التتار أن يزاول بنفسه دور السلطان ، ولكن الاميرين المتسلطين على شئون الدولة سلار وبيبرس حالا بينه وبين ذلك وضاعفا في اجراءات التشدد عليه . وضيقا عليه في النفقة ، حتى بلغ الامر بهما الى أن حالا بينه وبين ما يشتهييه من أصناف الطعام .

(١) لا يزال يوجد بفم الخليج حارة تسمى حارة السكر والليمون اشارة الى هذا الحادث .

وحاول قلاوون أن ينخلص منهما على عادة سلاطين المماليك في التخلص من الأمراء الأقوياء . فدبر لهما مؤامرة لقتلهما ، ولكن من سوء حظه أن المؤامرة انكشفت وتحرز الأميران على نفسيتهما ، وحاصرا السلطان في القلعة ، وكان يمكن أن يتغلبا عليه ويقتلانه لولا تدخل عنصر لا عهد للمماليك به من قبل حال دون تنفيذ ارادتهما وهذا العنصر هو الشعب المصري .

وقوف الشعب المصري اتى جوار الناصر قلاوون :

تفص كتب التاريخ بنفاصيل غضبه الشعب المصري ضد سلاله وببيرس ووقوفه الى جوار الناصر قلاوون ، وأجمعت جموع العامة كما تسميهم كتب التاريخ وراخوا يهتفون يا ناصر يا منصور الله يخون من يخون بن قلاوون . فحاول الأمراء في بادئ الأمر أن يرهبوا العامة بالضرب والايذاء ، فلم يزد ذلك الجماهير الا غضبا ، وقويت الحركة الى الحد الذي رأى فيه الأمراء أنه من الصالح أن يحاسنوا الجماهير . . وصالحوا السلطان وأعلنوا للجماهير أنه قد رضى عنهم . . ولكن ذلك كله لم يكن كافيا لتهدئة مشاعر الجماهير . فطلب الأمراء من السلطان أن يشق القاهرة في موكب ليراه الناس وبطمئنون وبهذا فقط هدأت الفتنة .

على أن السلطان الناصر ظل متخوفا على نفسه مما قد يفعله به الأميران سلال وببيرس الجاشنكير . ولذلك فقد أعلن أنه بنوى الحج ، وغادر مصر في الخامس عشر من رمضان بدعوى أنه مسافر للحجاز ، حتى اذا وصل الى حصن الكرك في العاشر من شوال ، التجأ اليه وأمر بأن يخرج منه اميره وأعلن أنه سيقوم بالحصن ولن يحج ، وأنه نزل عن السلطة للاميرين سلال وببيرس .

وكانت مدة سلطنة الناصر الثانية عشر سنين وأيام .

فلما وصل هذا الخبر الى الأمراء في مصر أسقط في أيديهم ، وبدأ النزاع يشتد بين سلال وببيرس حول من ينقلد منهم السلطة . وكانت المماليك البرجية تؤيد ببيرس ، أما باقي الأمراء فيؤيدون سلال : وهكذا أوشك الأمر أن يصل الى فتنة في صفوف المماليك لو ولى سلال السلطنة ، فحسم القضية بأن ترك لصاحبه ببيرس الجاشنكير السلطنة .

سلطنة الملك المظفر ببيرس الجاشنكير على مصر :

في يوم السبت الثالث والعشرين من شوال من هذه السنة : بويع ببيرس الجاشنكير ساطانا على مصر ولقب بالملك المظفر .

وأصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجية وهو جركسى الاصل ، ومن هنا يعتبره البعض أول المماليك البرجية الذين حكموا مصر ، لولا أن سلطانه لم يدم ورجع الحكم الى الناصر قلاوون ، وقد تدرج في الطريق المؤلف ، فقد اعتقه سيده المنصور قلاوون ثم جعله أميرا ، وفي عهد ابنه الأشرف خليل أصبح من كبار الأمراء ، فلما

تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون أول مرة جعله استدارا أى مشرفا على قصر السلطان وما يحتاجه من نفقة ومطالب ، وقد حاول سلار أن يستعفى من منصبه كنائب للسلطان ، ولكن الملك المظفر رفض استعفائه وأصر على أن يبقى فى منصبه نائبا للسلطان .

وبعث الى الناصر قلاوون ليقره على أمره الكرك .

وبعث الى أمراء الشام بقر كل منهم فى منصبه ويطلب منهم البيعة له .

وقد توقف الأمراء عن اجابته للبيعة فى بادىء الأمر ، ولم يبادر بها الا نائب السلطان فى دمشق ، ثم لم يلبث باقى أمراء حمص وحماة وحلب أن اجابوه الى البيعة ريثما ينظموا صفوفهم الانقضاى عليه .

١٣٠٩ م - ٧٠٩ هـ : وصول الناصر قلاوون الى دمشق :

شاء سوء طالع بيبرس ، أن يقصر النسل عن الوفاء فى هذه السنة ، نشحت الأقوات ، وارتفعت الاسوات بالشكوى ، ومرة أخرى ظهر الشعب المصرى على مسرح الحوادث ، اذ راح العامة يتظاهرون فى الشوارع وهم يهتفون .

سلطاننا ركين (أى ركن الدين بيبرس) .

وتأتينا دقيقين (يقصدون سلار وكانت لحيته خفيفة لا تزيد عن شعرات) تجينا الماء منين ؟

تجيبيوا لنا الاعرج (يقصدون الناصر قلاوون وكان به عرج خفيف) يجينا الماء ولدا حرج .

واصطنع المظفر بيبرس الشدة مع الشعب فأصدر أوامره بالقبض على عدد كبير من العامة وانزل بهم العقوبة الصارمة حتى لقد قطع السنة الكثير على ما يقول ابن اياس .

ومن ناحية أخرى استعمل الخشونة مع الملك الناصر قلاوون فبعث يطالبه بالاموال التى اخذها ، ويهدده اذا لم يبادر بأرسالها .

فكتب الناصر الى أمراء الشام يشكو اليهم ، وكانوا على اتصال به فالتفوا حوله كما خرج اليه من محضر كثير من الأمراء الذين (انقلبوا) على المظفر . فأجتمع حول الناصر قوة كبيرة من الأمراء والجنود ، فسار بهم الى دمشق ، فدخلها فى أمان بعد أن أخرج منها نائب السلطنة « الأمير الاقرم » .

ودعى له على المنابر يوم الجمعة ٢٢ شعبان باعتباره سلطان مصر والشام .

خلع السلطان المظفر بيبرس :

كان لهذه الانباء تأثير قوى فى مصر ، فقد زادت احوالها سوءا واضطرابا وعمتها الفوضى ، وسقطت هيبة بيبرس وشرع العامة يسبونهم : وعبثا حاول السلطان ان يردعهم بالقوة ، فلم يكن ذلك يزيد الموقف الا سوءا . فجمع المظفر واستشارهم فيما عليه ان يفعله ، فأنشأوا عليه بالتنازل عن العرش ، وأن يكتب للسلطان طالبا منه العفو فمدع بمشورتهم ، وبعث الى الناصر بخطاب يطلب منه العفو وقد جاء فى آخره :

.. فان سجنتنى عدت ذلك خلوة . وان نفيتنى عدت ذلك سياحة ، وان قتلتنى كان ذلك لى شهادة .

ثم أشهد الخليفة والقضاة الاربعة أنه خلع نفسه ، وأسقط اسمه فى اليوم التالى من قلعة الجبل : كما خطب فى الجوامع باسم السلطان الناصر يوم الجمعة ١٩ رمضان وكانت مدة سلطنة المظفر عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما .

العامه يشيعون بيبرس باللعنات :

وخرج بيبرس من مصر فى مماليكه البالغ عدتهم سبعمائه ، فكانما نودى فى الناس انه خرج هاربا فاجتمع القوم وراحوا يتابعونه بالصياح حتى خرجوا عن الحد ورموا بعضهم بالحجارة فشن ذلك على مماليكه وهموا بوضع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفر من ذلك : وأمر ان بنشر المال عليهم لينشغلوا بجمعته عنه ، فأخرج كل الممالك حقبنة من الذهب فلم يلتفت العامة الى ذلك وواصلوا العدو خلفه وهم يسبون ويصيحون فأشهر الممالك سيوفهم ورجعوا الى العامة فأنهزموا منهم .

وقصد بيبرس الى مدينة أطفيح فى الصعيد .

سلطنة الملك الناصر قلاوون الثالثة على مصر :

فى يوم الخميس الثانى من شوال ، بدأ الناصر قلاوون فى ممارسة سلطته للمرة الثالثة بعد أن وصل الى القاهرة : وطلع الى قلعة الجبل ، ثم جلس على العرش فى هذا اليوم ، وكان صبيحة وصوالة . وكان قد بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة وقد حنكته التجارب وقرر أن يباشر السلطنة بنفسه .

.. وكان أول ما فعله عفا عن الخليفة العباسى والقضاة الاربعة ، بعد أن بكتهم وعاتبهم على موقفهم منه وتحريضهم ضده .

ثم أصدر أمرا لبيبرس ، فلما جىء به اليه راح يؤنبه على ما فعله معه ويذكره بمنعه الطعام الذى تشتهيه نفسه عنه .

ثم أمر بقتله فى الخامس عشر من ذى القعدة .

وكان سلار قد استعفى من نيابة السلطنة وأنعم عليه الملك بقلعة الشوبك وبعد فترة من الزمن استدعاه اليه وسجنه ثم قتله . وكان سلار من التتار ، وقد أخصيت ثروته بعد قتله فكانت شيئا يجل عن الوصف ، وقد افرد ابن أياس صفحات عديدة لتسجيل جرد هذه الثروة وما كان يوجد منها يوما بعد يوم .

وليس هناك ما بصور حالة ما كان عليه المماليك ، وكيف كان كل أمر منهم أشبه بملك أكثر من أن نسجل بعض مفردات هذه الثروة .

ففي يوم الأحد عشر له على مائتي ألف دينار ذهب و ٤٧١ ألف دينار فضة .
وفي يوم الاثنين وجد له خمسة وخمسون ألف دينار ذهب ومن الفضة ألف ألف درهم .

وفي يوم الثلاثاء : وجد له خمسة وأربعون ألف دينار ذهب ومن الفضة ثلثمائة وثلاثين ألف درهم .

وفي يوم الأربعاء : وجد له من الذهب ثلاث ألف دينار ، ومن الفضة ثلاثمائة ألف درهم .

أما الملابس والجواهر وأطباق الفضة فكانت بالقناطير .
ووجد عنده من الخيول ثلثمائة رأس ، ومن البغال مائة وعشرين قطارا ومن الجمال مائة وعشرون .

وذلك كله خارج عما وجد له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجواري .

ووجد عنده من الأغنام والأبقار ما لا يحصى .

ووجد عنده من الغلال ثلثمائة ألف أردب في الشون .

١٣١١ م - ٧١١ هـ - سلطان الناصر يهتد إلى تونس :

في هذه السنة لجأ إلى مصر صاحب تونس أبو زكريا اللحياني - أحد ملوك الحفصيين - وطالب من الناصر أن يساعده على استرجاع عرشه على أن يكون نائبا له فبعث معه بعض مماليكه وعساكره ، فاسترد أبو زكريا عرشه ، وخطب للناصر قلاوون في مساجد تونس التي كانت تسمى في ذلك الوقت اترنبيا .

وفاة ابن منظور مؤلف لسان العرب :

وفي هذه السنة مات مؤلف أعظم موسوعة لغوية وهو لسان العرب . ذلكم الكتاب الخالد ، والذي جمع فيه مؤلفه بين كتب سنة وهي التهذيب للأزهري - والصحيح للجوهري - وحواش بن برى على الصحيح - والمحكم لابن سيده -

المخصص له كذلك والنهاية لابن الأثير ، وبلغت مواد اللغة في هذا المعجم ثمانية ألف سادة .

ولسان العرب هو نموذج لما وصفت به هذه الفترة الثقافية من حياة العرب والمسلمين من أنها كانت فترة الموسوعات ، حيث خشي على العلم الاسلامي من الضياع بعد ان حل ببغداد ما حل ، فأخذ التأليف صور الموسوعات ، لجمع أكبر قدر ممكن من المعارف والثقافات .

١٣١٥ م - ٧١٥ هـ - الروك الناصري :

أعاد الناصر مسح بلاد القطر المصري لاعادة توزيع حاصل خراجة على بيت المال والأمراء والأجناد بصورة أكثر عدلا .

وأنتهز هذه الفرصة لكي يخفض اقطاع الجندي فأصبح يتراوح من ثلاثة آلاف درهم إلى عشرة آلاف بعد ان كان أكثر من ذلك ، وكذلك اقطاع الأمير ، فأصبح يتراوح بين عشرة آلاف درهم إلى أربعين ألف درهم ، وكان في الأصل أكثر من ذلك بكثير .

ابطال العبيد من المكوس ((الضرائب)) :

وكانت هناك كثير من الضرائب « المكوس » تجبى لحساب الجنود وكانت تسبب للناس كثيرا من المتاعب والأضرار ، وتزيد في غلاء الأسعار فأبطلها . ومن ذلك على سبيل المثال مكس الفلال حين كان يؤخذ على كل أردب درهمين ونصف ، فلما ألغى هذا المكس رخص سعر الفلال بهذا القدر ، وكانت هناك ضريبة تؤخذ على الملح فألغاها . وألغى نصف ما كان السماسرة يتقاضونه عند التوسط في البيع والشراء ، حيث كانوا يتقاضون درهمين عن كل مائة درهم فجعلها درهما واحدا .

والغى ما كان يؤخذ من ضريبة على طرح الفراريج (أى الدجاج) .

وما كان يؤخذ على المعاصر . وما كان يؤخذ من المساجين ، حيث كان كل سجين يدفع ضريبة عن سجنه كل يوم .

كما ألغى الضرائب التي كانت تؤخذ من البغايا وبیوت الفواحش .

فكان لذلك كله أثره في تحسين حالة الشعب الذي قابل هذه الإجراءات بالفرح والابتهاج .

١٣٢٣ م - ٧٢٣ هـ - بناء الخانقاه في سرياقوس :

في هذه السنة أنشأ السلطان خانقاه سرياقوس بناء على اشارة تلقاها من رسول

الله صاوات الله عليه على حد قوله ، اذ زاره في المنام وطالب منه اقامتها لتكون بيتا للمتصوفة - فأنشأ هذه الخانقاة او الزاوية او الرباط - « وكلها بمعنى واحد » لتقيم فيها مائة من المتصوفة ، وعين الخانقاة شيخا ليشرّف على المقيمين بها .
ولا تعجب هذه الحركة ابن اياس ، فيسمى المتصوفة : جماعة من الافافية « أى الافاقيين » الذين لا حرمة لهم .

وسرعان ما أصبحت منطقة الخانقاة مدينة عامرة ، اذ اقيمت بها البساتين والقصور للأمراء ، وهى لا تزال باقية حتى اليوم وان كان اللفظ قد تحول الى الخانكا .
واقامة هذه الخانقاة هى بداية التطور الكبير للحركة الصوفية فى مصر .

عصر بناء وانشاء :

على ان هذه الخانقاه ، ليست الا رمزا لما يمكن ان يوصف به عهد الناصر قلاوون من انه اعظم عهد شهدته البلاد من حيث الانشاء والبناء والتعمير .

ففى عهده وبأمره أنشئت دور الأمراء بالقلعة ، وأنشئ القصر الكبير الابلق الذى تكلف وحده نصف مليون درهم ، والذى سمي بالابلق لأن واجهته بنيت بالأحجار الصفراء والسوداء على التوالي ، كما بنى الى جواره قصرين ، وعمر الايوان الكبير وعقد قبة عظيمة وشحها من الداخل بالقيشاني ومن الخارج بالرخام .

وقد أنشأ ميدانا تحت قلعة الجبل وأجرى فيه الميساه ، وغرس فيه انخل والأشجار وكان يلعب فيه بالكرة مع الأمراء وأولاد الملوك كل ثلاثاء .

وحفر الخليج الناصري ، خارج القاهرة حتى أوصله الى سرياقوس .

وانشأ فيه عدة قناطر - وأنشأ على جانبي هذا الخليج عدة بساتين وأعاد حفر خليج الاسكندرية من النيل عند مدينة فوة حتى الاسكندرية بعد أن كانت الرمال قد طمرت وتسلطت به الملاحه ، فنشطت مدينة الاسكندرية وزاد عمرانها وازدهرت تجارتها .

وانشأ عشرات من القناطر التى تذكر باسمها فى كتب التاريخ .

وكان للملك الناصر عناية كبيرة ببلاد الجيزة حتى انه عمل على كل بلد جسرا وقنطرة ، وكانت قبل ذلك نظرا لارتفاعها كثيرا لا تصل اليها المياه فأقام جسر ام دينار بارتفاع ١٢ قصبة فعمرت بلاد الجيزة بسبب ذلك .

واستجد فى ايام الملك الناصر عدة أراض بالشرقية ونواحى فوة وكانت قبل ذلك خرابا ، وأنشأ سد شبين فزاد بسببه خراج الشرقية ، وعمل جسرا خارج القاهرة رد به النيل عن منية السيرج فعمر بذلك عدة بساتين .

واحكم عامة اراضى مصر قبليها وبحريها بالثرع والجسور ، حتى اتقن أمرها فزاد فى أيامه خراج مصر زيادة هائلة .

٣٣ مسجدا :

وبلغ عدد المساجد التى بنيت فى ايامه بمعرفة أمراء دولته أكثر من ٣٣ مسجدا
لا يزال أكثرها باقيا حتى الآن يمثل ذروة ما وصل اليه الفن فى هذه الحقبة من
تاريخ مصر .

١٢٣٥ م - ٧٢٥ هـ : نفوذ مصر السياسى :

اجتمع فى مصر هذا العام على مايقول المقرئى فى كتاب السلوك رسل صاحب
اليمن - ورسل صاحب استنبول اى « بيزنطة » ورسل ملك سيسى « ملكة ارمينيا »
ورسل أبى سعيد خان منول ايران الذين أسلموا - ورسل ماردىن - ورسل
ابن فرمان « وهى دولة صغيرة ، قامت فى جنوب شرق آسيا الصغرى على انقاض دولة
سلاجقة الروم » .

ورسل ملك النوبة .
وكل هؤلاء كانوا يبذلون الطاعة للناصر قلاوون .

وقد اكد احياء الخلافة العباسية فى مصر ، زعامتها على كل الدول الاسلامية فقد
أرسل السلطان محمد بن طغلق احدى ملوك الهند الى الخليفة العباسى فى القاهرة يطلب
منه ان يصدر له تقليدا بتوليده السلطان على بلاده كما أرسل الى الناصر قلاوون
يطلب منه ان يتحالف على مهاجمة مغول ايران .

مع غرب افريقيا :

وقام لأول مرة علاقات ود وصداقة بين مصر والدول الاسلامية التى بدأت
تتكون فى غرب افريقيا ، كدولة الكاتم ، والبورنو ، والنكروز ، وقدم ملك النكروز
مسمى موسى بمصر فى طريقه لاداء الحج فقبل بكل ترحاب .

السفارات المسيحية :

كما وصلت الى القاهرة سفارات من البابا ومن ملك فرنسا وملك ارجونة
(اسبانيا) وامبراطور القسطنطينية وامبراطور الحبشة ، وكلهم يخطبون وده
وبرجونه ان يحسن معاملة رعاياه من المسيحيين .

وهذا ما كان يفعله السلطان قلاوون بصفة عامة .

وهكذا أصبح البلاط المصرى فى هذه الفترة مركز تطلع جميع دول العالم .

١٣٢٥ م - ٧٢٦ هـ - رخص الأسعار :

وليس هناك ما يقاس به ازدهار أى مجتمع أدق من مدى توفر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها .

ولذلك فان المؤرخين القدامى يعنون جد العناية بهذه الناحية فسجلوا لنا قائمة الأسعار فى عهد الناصر قلاوون ، ونحن ننقلها عنهم لتكون مرجعا للمقارنة لما سيكون عليه الحال بعد ذلك فثمن الأردب من القمح الصعيدي أصبح ثمانية دراهم . وأردب الفول او الشعير أربعة دراهم ، وبلغ ثمن الخبز العلامة العال « أى أفخر أنواع الخبز » ٢٠ رطلا بدرهم .

لكن يدلل المؤرخون المعاصرون على مدى ما وصلت اليه الأسعار من رخص وتوفر الأقوات فى ايدى الناس الا أن يقولوا : ورفض صعاليك الناس أعمال الكنس وسائر الأعمال الحفيرة لاستغنائهم .

ابن بطوطه فى مصر :

وفى هذه السنة وصل ابن بطوطه أعظم رحالة المسلمين الى مصر فدخل مدينة الاسكندرية فى اول جمادى الأولى « أبريل سنة ١٣٢٦ » .

ويقول عن مدينة الاسكندرية أنها من أعظم ما شاهده فى العالم من موانى وكانت منارة الاسكندرية لا تزال قائمة فى هذه الزيارة الا أنها كانت مهدمة فى أحد جوانبها - وسيعود اليها عام ٧٥٠ ليقول لنا أنها تخربت واصبح لا يمكن دخولها والصعود اليها - ثم يصف لنا ابن بطوطه طريقه من الاسكندرية حتى ميناء عيذاب على البحر الأحمر مارا ببلاد الصعيد - ويصور لنا عمران مصر وما كانت عليه من رخاء فيقول ومن هذه المدينة « سمنود » ركب النيل مصعدا الى مصر ما بين مدائن وقرى منظمة متصلة - بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك : والأسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى أسوان .

ويصف لنا الكثير من أحوال مصر الاجتماعية - ويشيد بعدل السلطان الناصر والذى كان يجلس يومين كل أسبوع يتلقى بنفسه الشكايات من الناس ويستمع لما يريدون أن يسمعه أياه من المظالم .

ويحدثنا عن انتشار الطريقة الشاذلية وغيرها من الطرق المنتشرة فى مصر .

ويقول عن مدينة القاهرة :

هى أم البلاد ، قرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد ، وهى كثيرة العمارة ، متباهية بالحسن والنضارة . يستطيع الضعيف والقادر أن يعيش

فيها ، ومجمع الصادر والوارد مصريين وعربا وغيرهم . وانك لتجد فيها العلماء الكبار والجهلة الكبار ، والجذ والهزل ، والحليم والسفيه والشريف والمشروف : والنبل والوضيع كالبحر بساكنيها – ويقال أن فيها اثني عشر ألف سقاء وأن فيها ثلاثين ألف مكارى « أى حمار » : بتشديد الميم .

وأن السفن التى تسير فى النيل ٣٦ ألفا – أما عن سكان القاهرة فهم أهل طرب وسرور ولهو يخرجون كثيرا الى منازلها وبساتينها .
يحدثنا عن سفر المحمل وعن تزيين القاهرة بمناسبة .

وفاة السلطان عثمان خان مؤسس الدولة العثمانية :

وفى هذه السنة مات السلطان عثمان خان مؤسس الدولة العثمانية عن سبعين سنة وولى عرش هذه الدولة الاسلامية الوليدة ابنة اروخان .

١٣٢٧ م – ٧٢٨ هـ – وفاة الامام ابن تيمية :

فى ليلة الاثنين والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة مات شيخ الاسلام نقى الدين بن تيمية الحرانى الدمشقى الحنبلى فى سجنه بقلعة دمشق وكان سجنه هذا هو احد مظاهر جهاده واجتهاده فى الدين ، فقد نقم عليه علماء عصره الفقهاء – اجتهاده فى أحكام الدين – فقد زعم الكل أن باب الاجتهاد قد أغلق ، كما نقم عليه أقطاب الصوفية – من الناحية الاخرى – انكاره لمذاهبهم على أساس أن لا دين يعتبر عمل الا على أساس من الشريعة .

وحسده الأمراء على ما وصل اليه من نفوذ وسلطان روحى بين الجماهير سواء فى مصر – أو فى الشام ونقم عليه السلطان – أنه اجترا على تحديه وعدم اطاعة أمره فقد حظر عليه أن يفتى بما انتهى اليه اجتهاده : فأفتى .

وقد اثنى الكثيرون من معاصري ابن تيمية على علمه ونقته واجتهاده ، لكن اذا كان أعظم الشهادة ما جاء على لسان الخصم – فقد اخترنا ما قاله عنه القاضى كمال الدين بن الزملكاني (وكان خصما له) فقال :

اجتمعت فيه شروط الاجتهاد وعلى وجهها ثم جرت له محن فى مسألة الطلاق ثلاث ، وشد الرحال الى قبور الانبياء الصالحين : وحجب للناس القيام عليه . وحبس مرة فى القاهرة والاسكندرية ، ودمشق : وعقد له مجالس بالقاهرة ودمشق وحصل له فى بعضها تعظيم من الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم انطلق وتوجه الى دمشق واقام بها الى أن ورد مرسوم شريف فى سنة ستة وعشرين وسبعمائة : بأن يجعل فى قلعة دمشق فى قاعة ، فجعل فى قاعة حسنة واقام بها مشغولا بالتصنيف والكتابة ، ثم بعد ذلك منع من الكتابة واخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا عنده دواة ولا قلم ولا ورقة .

والحق ان ابن تيميه بشخصيته المتعددة الابعاد ، سواء في ناحية التقوى والورع أو الجهاد : والكفاح ضد التتار ، أو بعماله الواسع وفقهه واجتهاده : واخيرا بتلميذه الكبير ابن القيم يعتبر بحق أحد مجددى شباب الاسلام العلمى ومن أعادوا الى الفقه الاسلامى نضارته .

١٣٣٢ م - ٧٣٣ هـ - الناصر يحج ويعمل بابا للكعبة :

كانت مكة والمدينة يقعان فى سلطان المماليك لا نتيجة الفتح أو الغزو ولكن نتيجة ارتباط الحجاز بمصر واعتمادها عليها قد أصبحت مركزا للسلطة والقوة ، فأصبح سلطان مصر هو فى نفس الوقت حامى الحرمين ، فكان يخطب له على منابرهما : وقد كان الظاهر بيبرس هو أول من حج واهتم بعمارة الحرم ولا تزال آثار سلاطين المماليك مسجلة ومنقوشة على منشآت الكعبة .

وكان الناصر قلاوون من أكثر المماليك احتفالا بالحرم المكى ومنسك الحج . فحج أكثر من مرة وقد سجل لنا الملك ابو الفدا صاحب حماة تفاصيل هذا الحج اذ كان مصاحبا لقلاوون - وفى هذه السنة ٧٣٢ هـ أهدى قلاوون للكعبة بابا جديدا من خشب السنت الاحمر المغلف بالفضة التى كانت تزيد على ثلاثين ألف درهم فرأى ان يسافر بنفسه لوضع الباب الجديد فى حضوره .

وفاة الملك المؤيد أبو الفدا المؤرخ :

وفى هذه السنة مات الملك المؤيد عماد الدين ابو الفدا ، صاحب حماة ، سليل الأسرة الايوبية : وقد أنعم عليه الملك الناصر بامارة حماة عام ٧٢٠ هـ وكان قد ولد عام ٦٧٢ وحفظ القرآن وبرع فى الفقه والأصول العربية والتاريخ والادب والطب والتفسير والمنطق والفلسفة مع الاعتقاد الصحيح .

وقد خلده تاريخه المشهور « المختصر فى أخبار البشر » وقد لخص فيه تاريخ الكامل لابن الاثير : ثم واصل تسجيل ما استجد بعد ذلك من الحوادث ، وبلغ تاريخه ذروة أهميته فى الفترة التى عاش فيها والتى أربت على نصف قرن . فهو مصدر من الدرجة الاولى لهذه الفترة وقد ظل يكتب التاريخ حتى هذه السنة : حيث أكمله مؤرخ آخر حتى أبامه هو مبتدئا بقوله : وفى هذه السنة مات السلطان المؤيد صاحب هذا الكتاب .

١٣٣٨ م - ٧٣٨ هـ : نفى الخليفة العباسى الى الصعيد :

كان الخليفة العباسى قد أصبح مجرد منصب رمزى لا حول له ولا طول : وكان الخلفاء العباسيون قد راضوا انفسهم على ان يقنعوا بالعيش الهنى فى رغد ، ملبين كل ما يطلبه منهم السلاطين ، ولكن الخليفة المستكفى تجاوز حده عندما رفعت اليه

ظلامه ضد قلاوون ، فأشر على العريضة وجوب حضور محمد بن قلاوون الى مجلس العرش : أو أن يوكل عنه وكيلًا : فغضب قلاوون لذلك وأصدر أمره بنفيه هو وعائلته الى قوص .

فعهد الخليفة المستكفي الى ابنه أحمد بالخلافة على يد قاضي قوص واستشهد بأربعين رجلا من العدول .

ولكن الملك الناصر لم يصدق على التفويض وجمع القضاة الأربعة ، وعقد مجلسا بسبب ذلك . فتمسك القضاة الأربعة بحكم قاضي قوص ووجوب ولاية أحمد ابن المستكفي بالخلافة ، ولكن السلطان قلاوون رفض ذلك وانقض المجلس بدون الوصول الى نتيجة .

وولى قلاوون بعد ذلك ابراهيم أخ المستكفي خليفة ولقب بالوائق بالله فكان العامة يلقبون الخليفة الجديد المستعفى بالله لقدارة نفسه وسوء تدبيره . وهكذا انحدرت الخلافة الى أخط دركاتنا : ولكن هذا الموقف يصور لنا كيف أن القضاة الأربعة قد خالفوا السلطان ولم يخشوا بأسه ، كما أن السلطان من ناحيته لم يغضب عليهم لتمسكهم بأحكام الشرع .

١٢٤١ م - ٧٤١ هـ : وفاة السلطان الملك الناصر قلاوون :

في يوم الخميس الحادي والعشرين من ذي الحجة من هذه السنة مات الناصر قلاوون . وكان عمره يوم وفاته سبعا وخمسين سنة واحد عشر شهرا وأياما . حكم فيها ثلاث مرات - على ما مر بنا - وكانت مدة حكمه الأخيرة اثنتين وثلاثين سنة وشهرين وخمسة وعشرين يوما وهى مدة لم تنهيا لأحد من سلاطين المماليك قبله أو بعده ولا نحسب بعد ما استعرضناه من وقائع حياته أننا فى حاجة للوقوف طويلا امام شخصيته والدور العظيم الذى قام به فى حياة مصر والاسلام فى هذه الفترة . وحسبنا أن نشير الى بعض اللمسات اللازمة لآكمال صورة شخصيته :

ففى أحد المرات عندما علم أن الأمراء يتلاعبون بأسعار القمح مما أدى الى ارتفاع سعره اشتد غضبه عليهم ، حتى لقد انتهر قوصون زوج ابنته وأقزعه عندما علم باشتراكه فى هذا التلاعب .

ولم يلبث أن رخص القمح وهبطت أسعاره .

وقد اشتهر بحبه لاقتناء المماليك وشاع فى اقطار الدنيا احسانه الى مماليكه فكان المغول يبيعون أولادهم للتجار ليحملوهم الى مصر ليحصلوا على السعادة . ودفع ثمننا لبعض المماليك أربعين ألف درهم .

كما شغف بحب الخيل واقتناء الجيد منها وخاصة الجياد العربية حتى لقد دفع فى فرس اسمها بنت الكرماء مائتى ألف درهم .

وعندما مات كان في اصطبلاته أربعة آلاف وثمانمائة فرس .

يقول عنه أبو المحاسن : وكان رحمة الله عليه في غاية الحشمة والرياسة وسياسة الأمور ، فلم يضبط عليه أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش في سدة غضبه ولا في انبساطه . وكان مفرط الذكاء يعرف جميع ممالك آبائه وأولادهم بأسمائهم .

وكان يكره شرب الخمر ويعاقب عليه ويبعد من يشربه من الأمراء وكان في الجود والكرم . غاية لا تدرك ، وهب في يوم واحد ما يزيد على مائة ألف دينار ذهب .

سلالة قلاوون على العرش :

وفي خلال الاحدى والاربعين سنة التالية تبوا كرسى السلطنة اثنا عشر سلطانا كلهم من سلالته،ثمانية من ابنائه واثنان من حفدته واثنان من ابناء حفدته ، وهكذا استطاعت قوة شخصية قلاوون وأثره الكبير أن ينشئ أسرة حاكمة وأن يوطد فكرة الملك بالوراثة في صفوف المماليك رغم عدم اعترافهم به .

١٣٤٢ م - ٧٤١ هـ : سلطنة الملك المنصور سيف الدين أبو بكر :

في يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى الحجة أى في يوم وفاة قلاوون جلس على تخت الملك بالابوان من قلعة الجبل سيف الدين أبو بكر ابن الناصر قلاوون بعهد من أبيه . وكان عمره يوم ولى السلطنة عشرين سنة وأطلق عليه اسم الملك المنصور .

واتفق الأمراء على أن يكون مدبر الملكة ورأس النورى هو الأمير قوصون الناصرى .

١٣٤٢ م - ٧٤٢ هـ : خلع السلطان منصور أبو بكر :

وفي يوم السبت ١٩ صفر من هذه السنة خلع السلطان منصور ثم قتل بعد ذلك فلم يكن تولية الأمراء لسيف الدين أبو بكر الا تنفيذا للعهد الذى قطعوه على أنفسهم لأبيه ولكن الأمراء ما كانوا ليهدأوا عن السعى للحصول على السلطة ، ولما كان السلطان المنصور كبيرا الى الحد الذى لا يستطيع قوصون معه أن ينفرد بالسلطة ويمكن أن يكون خطرا عليه وعلى الأمراء فقد جمع قوصون الأمراء ولما ينقض ثلاثة أشهر على تنصيب السلطان منصور وقال لهم :

« ان السلطان يريد أن يقتلكم ولا يبقى على أحد منكم » ، فالتف الأمراء حول قوصون ، والقوا القبض على السلطان وأبعدوه الى قوص وأصدر قوصون أمره الى متولى قوص بقتله فنفذ الأمر .

سلطنة الملك الأشرف علاء الدين كجك :

في يوم الاثنين الحادى والعشرين من شهر صفر اجلس على العرش السلطان الأشرف علاء الدين الابن الأصغر للسلطان الملك الناصر باتفاق الأمراء على اختياره بعد خلع أخيه ولم يكن عمره وقتئذ سوى خمس سنوات .

وهكذا أصبح قوصون نائب السلطان والحاكم الفعلى معا .

١٣٤٢ م - ٧٤٣ هـ : قتل الأمير قوصون :

غضب الشعب لما حل بالسلطان منصور ابن السلطان الناصر ، فراحوا يعبرون عن سخطهم بملاحقة ممالك قوصون بالسب فقبض على الكثيرين من أفراد الشعب وقتلوا وصلبوا فزاد من حقد الجماهير على قوصون .

وكان للناصر قلاوون ابن كبير يقيم فى حصن الكرك : وهو شهاب الدين أحمد فاستغل حنق أمراء الشام على فعلة قوصون ، وغضب الشعب المصرى ، لكى يعلن حقه فى تولى السلطنة ، فلم يكدها هذا النبأ يعلن ، حتى انفض الأمراء من حول قوصون ، وحاصروه فى القلعة ، وأباحوا للعامة نهب بيته وأمواله ، ونهبوها ، ولم يسع قوصون الا أن يستسلم فقبض عليه وأرسل الى الاسكندرية ليسجن بها . حيث قتل بعد ذلك .

خلع السلطان الأشرف :

وخلع أمراء المماليك السلطان الأشرف بعد أن دامت سلطته الاسمية خمسة شهور وعشرة أيام ، تمهيدا لمبايعة أخيه .

سلطنة الناصر شهاب الدين :

فى يوم الاثنين العاشر من شوال ، بويع شهاب الدين أحمد بعد أن وصل الى مصر وصعد الى القلعة ، وتمت مبايعته بمعرفة الخليفة والقضاة الأربعة ، وألقب بالناصر .

ولم يفعل فى مستهل حكمه الا أنه انتقم من قتلة أخيه ، ثم قرر أن يعود للاقامة فى حصن الكرك ولما يمضى عليه شهر واحد فى مصر ، وعندما اعتزم السفر الى الكرك دخل الى الخزائن السلطانية فأخذ منها ما قدر على أخذه من الأموال والتحف والذخائر الثمينة ، وألوف الأغنام والأبقار التى كانت لآبيه وساق ذلك كله معه وسار الى حصن الكرك ، وأعلن أن مقامه سيكون به .

١٣٤٢ م - ٧٤٣ هـ : خلع السلطان الناصر شهاب الدين .

استاء الأمراء من استقرار السلطان الناصر شهاب الدين في قلعة الكرك فاجتمعوا وتداولوا فيما بينهم وقالوا : ان احوال المملكة ضائعة والسلطان لا يلتفت الى شيء فأرسلوا يكتاتبونه في الحضور الى مصر ، فان حضر فذاك ، وان لم يحضر ولوا غيره . ولكن السلطان لم يأبه بأمرائه وكتب لهم يقول « أتني اقيم في الموضع الذي اشتهى ، واى وقت أردت حضرت اليكم » . .

فأستقر رأى الأمراء على خلعهم ، فخلعوه في يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شهر المحرم . فكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأيام .

سلطنة الصالح عماد الدين اسماعيل :

في يوم الخميس الثانى والعشرين من محرم جلس على تخت الملك والسلطان الملك الصالح عماد الدين بن الملك الناصر قلاوون بعد أن خلع أخيه باتفاق الأمراء على ذلك .

وبعد ان أخذوا عليه العهد والميثاق الا يقبض على أحد منهم بغير ذنب ولا يؤذى أحدا .

١٣٤٤ م - ٧٤٥ هـ : قتل الملك الناصر أحمد :

لم يكد الملك الصالح يلى السلطنة حتى شرع يناهض أخاه في الكرك ويطالبه بما استولى عليه من اموال ، فلم يجبه أخوه الى شيء من ذلك ، وأعلن تمسكه بسلطانه الكامل وعدم الاعتراف بخلعه . فبدأت الجيوش تخرج من مصر وتحاصر قلعة الكرك ، ودارت المعارك دون أن تصل الى نتيجة ، واستمر الحال على هذا المنوال أكثر من سنتين .

ولكن الحصار قد اضر في نهاية الامر بالملك الناصر ، وخاصة بعد ان انفق آخر ما كان متجمعا لديه من اموال : فانهى أمره بالاستسلام الى الجيش المصرى في يوم الاثنين الثانى عشر من شهر صفر . فقبض عليه ثم قتل .

١٣٤٥ م - ٧٤٦ هـ : موت السلطان الصالح اسماعيل :

في ليلة الخميس الرابع من ربيع الثانى مات السلطان الصالح اسماعيل وكان عمره يوم موته عشرين سنة ومدة ملكه ثلاث سنين وشهرا واثمانية عشر يوما .

سلطنة الملك الكامل شعبان :

في يوم الخميس الرابع من ربيع الثانى في نفس اليوم الذى مات فيه السلطان

الصالح بويج بالملك الابن الخامس المتاصر قلاوون وهو السلطان الكامل سيف الدين شعبان .

١٣٤٦ م ٧٤٧ هـ : قتل السلطان الكامل :

لم يكد السلطان الكامل يجلس على العرش حتى أقبل على حياة اللهو والمجون واشاعها في البلاد كلها وأهمل شئون الدولة ، فنفر منه الرأى العام فاجتمع الأمراء الموجودين في دمشق ، وعرضوا على نائب السلطان على دمشق ان يكتب له مذكرا ومنذرا فكتب يقول :

انى أحد الأوصياء عليك . وكان مما قاله لى أبوك ولغيرى من الأمراء فى وصيته اذا أقمتم أحدا من أولادى ولم ترضوا عن سيرته فجروا برجله وأخرجوه وأقيموا أحدا غيره .

وانت افسدت المماكة واقصيت الأمراء والأجناد . وقتلت أخاك ، وقبضت على اكابر أمراء السلطان وأنشغلت عن الملك ، والتهيت بالنساء وشرب الخمر . وذكروا له أمورا فاحشة عملها .

فلما وصل هذا الخطاب الى مصر اعتبره السلطان الكامل أنه بمثابة تمرد من نائب الشام ، وقرر أن يبعث اليه بالجيش لتأديبه .

وقبض على أخويه حاجى وحسين وأعد العدة لقتلهما . فلما تسامع الأمراء بذلك انفضوا من حوله ، وحاصروا القاعة ثم فبضوا عليه وأفرجوا عن أخويه ، وأجاسوا أحدهما وهو « حاجى » على العرش وقتلوا السلطان الكامل فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة . فكانت مدة سلطنته سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما .

سلطنة الملك المظفر حاجى :

فى يوم الاثنين أول جمادى الثانى اجلس على العرش الابن السادس للناصر قلاوون، وهو الملك المظفر زين الدين حاجى ، وقد ولد على ما يقول ابن اياس عام ٦٣٢ هـ عندما كان أبوه يحج ولذلك أطلق عليه حاجى .

ولم يكد يلى الملك حتى أقبل على اللهو واللعب ، وشغل نفسه بلعب الحمام مع « الأوباش » على ما يقول معاصروه . فى الوقت الذى قتل فيه عددا كبيرا من الامراء وهدد بقتل غيرهم عندما أنكروا عليه الاختلاط بالأوباش واللعب بالحمام . فبنادر الأمراء بالتآمر عليه لقتله .

١٣٤٧ م - ٧٤٨ هـ : مقتل السلطان المظفر حاجى :

ففى يوم الأحد ثانى عشر من رمضان ، أحاط الأمراء بالسلطان المظفر حاجى بعد

ان خاض معهم معركة فاشلة ، فقبضوا عليه وذبحوه فكانت مدة سلطنته على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وأربعة أيام .

١٣٤٧ م - ٧٤٨ هـ : سلطنة الملك الناصر حسن الأولى على مصر :

في يوم الثلاثاء رابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة بويع بالملك سابع أولاد الملك الناصر أبو المحاسن حسن بعد مقتل أخيه حاجي ، وكان عمره يوم بويع إحدى عشرة سنة على ما يقول أبو المحاسن ، وثلاث عشرة سنة على ما يقول ابن إياس .

ولقب بالملك الناصر . .

وتم الاتفاق بين الأمراء على أن يتولى تسعة منهم على رأسهم شيخون العمري مهمة التشاور فيما بينهم لتدبير أمور المملكة حسب ما يتفقون عليه .

١٣٤٨ م - ٧٤٩ هـ : وباء الموت الأصفر الذي غمر العالم ووصوله الى مصر :

وصل الى مصر في هذه السنة وباء الطاعون الذي اجتاح العالم في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي وأطلق عليه اسم الموت الأصفر .

وقد بدأ الوباء في أواسط آسيا ثم انتقل الى شبه جزيرة القرم ومنها انتقل الى جنوا عن طريق مراكب البحر ثم سرى في سائر انحاء أوروبا ووصل الى انجلترا عام ١٣٤٨ ف قضى على نصف سكانها .

يقول ابن إياس انه كان يخرج من القاهرة في كل يوم ما يزيد على عشرين ألف جنازة . وقد بلغ عدد من ماتوا في شهرى شعبان ورمضان نحو تسعمائة ألف .

وام يزرع من أراضى مصر في هذه السنة الا القليل بسبب موت الفلاحين وعدم وجود من يزرع ، فوقع الغلاء حتى بيعت الربعة من القمح بمائتى درهم وكادت مصر تخرب في هذه السنة .

يقول أبو المحاسن نقلا عن عاشوا بعد هذا الوباء :

فما أن أهل ذو القعدة الا والقاهرة خالية مقفرة لا يوجد بشوارعها مار بحيث يمر الانسان من باب زويلة الى باب النصر فلا يرى من يزاحمه لاشتغال الناس بالموتى . وعلت الأتربة على الطرقات ، وتنكرت وجوه الناس وامتألت الأماكن بالصياح فلا تجد بيتا الا وفيه صيحة ولا تمر بشارع الا وترى فيه عدة أموات .

وصلى في يوم الجمعة بعد الصلاة على الأموات في جامع الحاكم ، فصفت التوابيت اثنين اثنين من باب مقصورة الخطابة الى باب الجامع ، ووقف الامام على العتبة والناس خارج الجامع .

وخلت أزقة كبيرة وحارات عديدة من الناس وبقيت الأزقة والدروب المتعددة خالية .

واشتد الأمر فام يعد هناك مجال لعمل التوابيت والصلاة على المتوفى فحمل أكثر الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب وحفرت الحفائر وألقى فيها الموتى فكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون .

وكانت صفة الموت بالظاعون ، أن يبصق الإنسان دما ، ثم يصيح ويموت .

١٣٥٠ م - ٧٥١ هـ : ترشيده السلطان حسن :

اضطربت أحوال البلاد من جراء ما وقع فيها من فناء ، وضاعف في شدة الأمور قصور فيضان النيل ، فزاد البلاء بالناس : فاستغل السلطان هذه الفرصة ليتمرّد على الحجر الذي فرضه عليه الأمراء ، والذي بلغ الى حد تحديد مصروفه اليومي بمائة درهم لا يجوز له أن يتجاوزها .

فجمع السلطان القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، وطلب أن يعتبر رشيدا فأجيب الى طلبه ، وأصبح بيده الحل والعقد ، فأصدر أمره بالقبض على عدد من الأمراء .

١٣٥١ م - ٧٥٢ هـ : خلع السلطان حسن :

لم يرض الأمراء عن هذه الخطوة التي أقدم عليها السلطان حسن ولذلك فقد تأمروا عليه وقرروا خلعهم . فم لهم ذلك في يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة ، وقبضوا عليه وسجنوه في أحد الأمكنة داخل دور الحريم .

سلطنة الملك الصالح صلاح الدين :

في يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة تسلطن صلاح الدين الابن الثامن من أبناء الناصر قلاوون باتفاق الأمراء بعد خلع أخيه السلطان حسن ، ولقبوه بالملك الصالح . وزينت القاهرة وسائر بيوت الأمراء حسب ما هو متبع وكان المتصرف في شئون الدولة الأمير شيخون العمري والأمير صرغتمش والأمير طاز .

١٣٥٢ م - ٧٥٣ هـ : قيام الفتنة في الشام وقمعها :

أعلن أمير حلب يلغا أردس ، عصيانه على سلطنة القاهرة ونادى بنفسه سلطانا على الشام وزحف على مدينة دمشق وفرض عليها الحصار ، فخرج السلطان والأمراء من القاهرة ، فأصدا الشام ، فلم يكد أمير حلب المتمرد يسمع بقرب وصول السلطان

حتى رفع الحصار عن دمشق وانسحب عائدا الى حلب ولكن جيوش السلطان التي كانت قد وصلت لاحقته في فراره فلم يعد امامه الا ان يفر من البلاد كلها .

وعاد السلطان الى القاهرة في اواخر شوال ، فكان دخوله الى القاهرة يوما مشهودا لم يتفق لاحد من اخواته ، فزينت له الشوارع ، وحمل على راسه القبة والطيرا وهي « شعائر السلطنة » وفرشت له شقق الحرير من باب النصر الى القلعة وهو في غاية العز والنصرة والامراء متساءة بين يديه يلعبون قدامه بالغواشي والذهب، وينشرون عاياه الذهب والفضة والناس تصيح له بالدعاء .

١٣٥٤ م - ٧٥٥ هـ : خلع الملك الصالح واعادة السلطان حسن :

وفي يوم الاثنين الثاني من شوال من هذه السنة ، اتفق الامراء على خلع الملك الصالح صلاح الدين لغير سبب واضح الا الرغبة في التبديل لمجرد التبديل . فقبض عليه رحبس في بعض دور القلعة وكان عمره يوم خلعه واحد وعشرين عاما .

ثم تساوروا فيما بينهم عمن يكون سلطانا ، فانتهى رأيهم الى اعادة السلطان حسن الى العرش .

عودة السلطان حسن الى الملك :

في نفس اليوم الذي خلع فيه السلطان الصالح اخرج السلطان حسن من محبسه بالقلعة واجلس على العرش واقيمت الاحتفالات المعتادة بهذه المناسبات .

وكان القائم على امر الخلع والتولية هما الاميران شيخون العمري وصرفتمش . وقد تعين شيخون اتابكا للعسكر .

١٣٥٥ م ٧٥٦ هـ : جامع و خانقاه شيخون :

انم الامير شيخون في هذه السنة ، بناء مؤسسته الدينية العلمية الصوفية المؤلفة من جامعته المشهور و خانقاه ، ولا يزال الجامع و الخانقاه قائمين حتى اليوم بشارع الصليبية ، وتقام الشعائر الدينية في المسجد ، اما الخانقاه فتعتبر اكمل خوانق القاهرة حتى لا تزال بها مساكن الطلبة في دورين تشرف بشكلها المدرسي الجميل على صحن الجامع وان كانت شاغرة اليوم .

اما على عهد منشئها فقد كانت تغص بطلبتها من الصوفية الذين قرر لهم الخبز والطعام كل يوم والحلل العجيبة مرة كل شهر .

١٣٥٨ م - ٧٥٩ هـ : افتتاح مدرسة ومسجد السلطان حسن :

في هذه السنة تم بناء المدرسة التي شرع السلطان حسن في انشائها منذ ثلاث سنوات سابقة ، والتي تعرف اليوم باسم السلطان حسن ، والتي تواجه جامع الرفاعي بمنطقة القلعة .

وتعتبر مدرسة السلطان حسن فخر العمارة الاسلامية وأجمل ما بنى في مصر منذ دخلها الاسلام حتى الآن . ويقرر هذه الحقيقة كل المؤرخين الذين كتبوا عن هذا الأثر . وكل الرحالة الذين زاروا مصر من شرقيين وغربيين .

وكان يصرف على هذه المدرسة اiban بنائها عشرون ألف درهم في كل يوم أو ما يعادل ألف مثقال من الذهب .

وفي هذه المدرسة عجائب من فن البناء ، منها أن ذراع ايوانها الكبير ٦٥ ذراعا في مثلها ومن عجائب بنائها كذلك القبة العظيمة ، التي لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب مثلها وفيها المنبر الرخام الذي لا نظير له في الدنيا ، ومنها البوابة العظيمة . وقيل أن ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى انوشروان في الطول والعرض ، وهذه المدرسة تستعمل على أربع مدارس لكل شيخ مذهب مدرسة يختص بها . .

يقول أمين باشا سامي :

وبالجملة فهذا الجامع انشئ في أكبر قالب واحسن هندام واضخم شكل فلا يعرف في بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يماثله . .

ومن ناحيتي أنا ، فلقد طالما بهرنى مبنى مسجد السلطان حسن بأكثر مما بهرنى بناء الأهرام نفسه ، ولطالما وقفت أمامه مبهوتا ازاء شموخ جدرانه الضاربة في الفضاء قبل أن تعرف الدنيا ناطحات السحاب .

ولطالما أخذت رفاقي واصحابي لزيارة هذا المسجد العتيد ، ورحت أحضرهم عنه ، واضعا أيديهم على مغزى امكان المجتمع أن يقيم مثل هذا البناء ، الذي يكشف عن وفرة من كان به من الفنانين والمهندسين والبنائين ومختلف أنواع الحرفيين .

وفوق ذلك كله المديرون والمنظمون .

وفاة السلطان اورخان غازي العثماني :

وفي هذه السنة ٧٦١ مات السلطان اورخان غازي بعد أن بلغ من العمر ٨١ سنة حكم منها ٣٥ سنة ، وسع فيها رقعة الدولة العثمانية .
وتسلطن من بعده ابنه مراد خان الغازي .

١٣٦١ م - ٧٦٢ هـ : مقتل السلطان حسن :

حرص السلطان حسن أن يكون هو صاحب الملك الحقيقي فتخلص من كبار أمراء أبيه شيخون وصرغتمش ، وأنشأ لنفسه جيشا خاصا من المماليك الذين اشتراهم ودربهم ورقاهم الى أعلى المراتب .

وجعل الأمير يلغا العمرى رئيسا لهم .

فكان خلعه على يد الأمير يلغا الذى اشتبك مع سيده فى معركة ، فانهزم السلطان حسن ، وفر هاربا ولكنه لم يلبث أن قبض عليه ، وجيء به الى يلغا فلم يمهل وأرداه قتيلا .

وكان عمر السلطان حسن يوم مقتله ثلاثين سنة . ومدة ملكه فى سلطنته الثانية ست سنين وسبعة أشهر .

ومرة أخرى يعجب الانسان ، كيف استطاع فى هذه المدة القصيرة والظروف المضطربة التى كانت طابع الحياة المملوكة فى ذلك الوقت : أن ينشئ هذا المبنى الذى لا مثيل له فى العالم الاسلامى .

الحق ان هذا ان دل على شئ ، فعلى حيوية هذا الشعب وقدرته فى كل زمان ومكان أن يعبر عن طاقاته الفية وابداعاته الانشائية متى أتاحت له الفرصة .

سلطنة الملك المنصور محمد على مصر :

فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى من هذه السنة ، بويع السلطان ، الملك المنصور أبو المعالى ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المظفر حاجى ابن السلطان الناصر فلاوون ، فهو أول أحفاد الناصر ممن جلسوا على العرش .

وكان لا زال باقيا من أبناء الناصر قلاوون ابنه حسين ، ولكن يلغا العمرى أثر أن يولى سلطانا صغيرا ليكون أقدر على التحكم فيه .

وكان عمره على ما يقول أبو المحاسن أربعة عشر عاما ، وهو رأى الذى اخترناه ، من بين الأقوال الأخرى المتعددة .

وعين الأمير يلغا العمرى مديرا للمملكة فتزوج زوجة أستاذه السلطان حسن الذى قتله .

١٣٦٢ م - ٧٦٤ هـ - خلع السلطان الملك منصور محمد :

فى يوم الثلاثاء : خامس عشر شعبان من هذه السنة ، اتفق الأمراء وعلى رأسهم يلغا العمرى وطيبغا الطويل على خلع الملك المنصور محمد لما بلغهم عنه على ما يقول

أبو المحاسن من أنه كان يدخل الى نساء الأمراء وبمزح معهن وكان يعمل مكاريا للجواري ويركبن الحمار ويجرى وراء الحمار بالحوش السلطاني ، وأنه كان يأخذ زنبيلاً به كعك ويدخل بين النساء ويبيع ذلك الكعك على سبيل المجانة . وأنه كان يفسق في حريم الناس ويخل بالصلوات ويجلس على كرسى الملك جنباً وأشياء غير ذلك فانفق الأمراء على خلعه فخلعوه وقد عاش بعد ذلك خاملاً غارقاً في السكر واللهو الى أيام السلطان برقوق (١) .

وكانت مدة سلطنة الملك منصور سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام .

سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين على مصر :

في نفس اليوم الذي خلع فيه الملك منصور، اجلس على تخت الملك السلطان الملك الأشرف أبو المفاخر « على ما يلقبه بعض المؤرخين وأبو المعاطي على ما يلقبه البعض الآخر » زين الدين شعبان ابن الملك حسين ابن السلطان المنصور قلاوون .

وكان عمر الأشرف يوم توليه عشر سنوات .

واستقر الانابك يلبغا العمرى مديراً للمملكة ، ومعه خندانه « أي زميله » طيغنا الطويل اميراً على السلاح .

١٢٦٠ م - ٧٦٧ هـ : ملك قبرص ينهب الاسكندرية :

كان سقوط عكا على يد الأشرف خليل عام ١٢٩١ م هو آخر العهد بالصليبيين على أرض فلسطين ، ولكن بقايا الصليبيين الذين جلوا عن فلسطين والشام التجأوا جميعاً الى جزيرتي قبرص ورودس ، وسرعان ما تحولت هاتان الجزيرتان الى قلعة صليبية تعمل بالليل والنهار على استعادة بيت المقدس من ايدي المسلمين .

وقد استغل بطرس لورنيان ملك قبرص ، اضطراب الأحوال في مصر ، وعدم استقرار سلاطينها فحاول أن يهيب بأوروبا لتشن حرباً صليبية جديدة على مصر ، ولكن الجدوة الدينية ، كانت قد انتهت نهائياً في أوروبا ، ومع ذلك فقد امدوا ملك قبرص ببعض العون الذي جعله يتجراً على مهاجمة اسكندرية بسبعين مركباً من المراكب الحربية المشحونة بالمقاتلين .

وبدلاً من أن يتربص بهم والى المدينة داخل أسوار مدينته الحصينة ريشما يصل

(١) حرصنا على ثبات خلع الملك المنصور كما كتبها أبو المحاسن تفرى بردى لأنها أمظم شهادة لهذا المؤرخ الفقيه الأمين ، وتجرده بحياته بالنسبة لما يكتب ، ذلك أن أبا المحاسن يقول لنا في تاريخه أن أباه تزوج ابنة هذا الملك أيام السلطان برقوق ، وكانت هذه الصلة جديرة بأن تجعل أبا المحاسن يغفل ذكر هذه التفصيلات المشينة عن رجل صاهره أبوه ، ولكن روح المؤرخ غلبت عليه فكتب كل ما نقل اليه من الرجل .

الخبر الى القاهرة ويأتيه منها المدد ، استخف بالجيش المهاجم ، وخاض معهم معركة خارج أسوار المدينة فدارت عليه الدائرة وفر مذعورا ومن معه مسجها نحو دمنهور لا القاهرة مخلفا وراءه المدينة مفتوحة الأبواب خالية من أى دفاع فدخلها القبرصيون وانبشوا في شوارعها ينهبون متاجرها وبيوتها ومساجدها وكنائسها ويقتلون من يعترضهم ويخربون ويحرقون مالا يقدرون على سرقة ، وظلوا على هذا الحال ثلاثة أيام وهم ينقلون الى سفنهم كل ما وصل الى أيديهم .

حتى اذا وصل الى سمع القبرصيين تحرك السلطان الأشرف شمسعبان من القاهرة ، أسرعوا الى سفنهم لائذين بالفرار بغنيمتهم ، تاركين وراءهم الاسكندرية قاعا صافصافا .

ويصف النويرى سلوك بطرس اورنيان ملك قبرص انه جاء الى المدينة لصا وخرج منها لصا .

وغنى عن البيان ان هذه الهزيمة العسكرية ونهب مدينة الاسكندرية على هذه الصورة هي حصلة سوء الأحوال التى انتهت اليها البلاد والساطين العوبة فى بد الأمراء بعينون من يتساءون ويعزلون من يشاعون ويقياون من يشاعون ، لا لمصاحبة عامة ولكن لتحقيق أغراض شخصية .

وقد سجل ديوان الشعر المصرى هذه النكبة التى حلت بمدينة الاسكندرية على لسان الشيخ شهاب الدين أحمد بن جحاة ، حيث يقول فى قصيدة طويلة :

الا فى سبيل الله ما حل بالانفر على فرقة الاسلام من عصابة الكفر
اتأها من الافرنج سسبعون مركبا وضأقت بها العربان فى البر والبحر

١٣٦٦ م - ٧٦٨ هـ : مقتل يلبغا العمرى :

وقع الاصطدام المألوف بين الملك الأشرف شمسعبان وبين صاحب الساطة الحقيقى يلبغا العمرى ، وكانت مماليك يلبغا هى التى حرقت الساطان عليه والزمته بمحاربته بسبب الشدة التى كان يعاملهم بها يلبغا .

فحاول يلبغا ان يساطن ملكا جديدا وهو « انوك » أخو الساطان الأشرف ولكنه خاب فى مسعاه .

وغلب على أمره وقبض عليه مماليكه وخربوه وشهروا به وقطعوا رأسه ، وهكذا شرب من نفس الكأس التى أشربها لسيده من قبله .

:

١٣٧٢ م - ٧٧٤ هـ : وفاة الحافظ ابن كثير :

في يوم الخميس السادس والعشرين من شعبان من هذه السنة مات الشيخ الامام الحافظ المؤرخ عماد الدين بن كثير القرشي الشافعي صاحب التاريخ الشهير « البداية والنهاية » وصاحب التفسير الجليل للقرآن .

قال عنه القاضي العيني : كان قدوة العلماء ، والحفاظ وعمره أهل المعاني والالفاظ وسمع وجمع وصنف دروسا ، وحدث ألف وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ واشتهر بالضبط والتحرير .

وبالنسبة لى انا ، فان كتابيه العظيمين البداية والنهاية ، وتفسير القرآن : يؤلفان أعظم ذخيرة فى مكتبتي بعد أن أصبحت كثير الاعتماد عليهما سواء فى كتابه التاريخ او فى تفسير القرآن .

١٣٧٣ م - ٧٧٥ هـ : اضطراب فيضان النيل واشتداد الفلاء :

اضطرب فبضان النيل فى هذه السنة ، وشح ماؤه فأمر السلطان الناس بالخروج الى الصحراء ليصلوا صلاة الاستسقاء فى يوم الخميس الثانى من ربيع الثانى ، فاجتمع فى الصحراء الجمع الغفير من العلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والأطفال وطائفة اليهود ، وطائفة النصارى ، وحضر الخليفة العباسى المتوكل والقضاء الاربعة والسلطان .

ولكن النيل هبط فى هذه الليلة هبوطا جديدا .

فبدأ الفلاء يشتد فى مصر ، حتى باع ثمن اردب القمح مائة وششرين درهما وأردب الشعير ثمانين درهما . وبلغ ثمن الرغيف الخبز أربعة دراهم ، وبلغ ثمن رطل اللحم الضانى درهمين ونصف ، وبلغ ثمن رادية الماء خمسة دراهم .

ومات فى تلك السنة أكثر الدواب من قلة العلف .

فلما اشتد الأمر وجهدت البلاد رسم السلطان أن يجمع الفقراء وبوزعون على الأمراء واعيان التجار ، ورسم السلطان أن يعطى لكل فقير رغيفين وما يشاكل ذلك من الطعام .

واستمر الحال على ذلك سنة بغير أن يتراجع السعر أو ينحط حتى صار الناس يأكلون خبز الفول وخبز النخالة الذرة .

١٣٧٩ م - ٧٧٨ هـ : مقتل الملك الأشرف :

في ليلة الثلاثاء نالت ذى القعدة من هذه السنة قتل الملك الأشرف شمعان خنقا إذ وثب عليه بعض أمراءه أثناء ذهابه إلى الحج فقتلوه وكان عمره يوم مات أربعاً وعشرين سنة ، ومدة حكمه في مصر أربعة عشر عاماً .

يقول ابن أياس ، وكان الملك الأشرف شمعان من محاسن الزمن في العدل والحلم وكان مالكا هبنا لنا محبا للناس منقادا للشرعية ويحب أهل العلم ، وكان كثيرا البر والصدقات على الفقراء والمساكين .

وكان محسنا لأقاربه وأبناء عمه بخلاف من يقدمه من بنى قلاوون . .
وكانت الدنيا في أيامه هادئة من الفتن .
وساس الناس في أيامه أحسن سياسة .
وكانت الناس عنه راضية حتى مات .

وقد فتحت في عهده مدينة سيس « عاصمة دولة الأرمن » ومدينة سينجار ومدينة دوركي .

وانتسا مدرسة في رأس الصوة .

وأبطل خسمان المعاني وهو المال الذي كان يجيء من المغنبيين والمغنيات . .
ويضيف أبو المحاسن :

ومع وقوع الفلاء في أيامه فلم يختل شيء من أحوال مصر لحسن تدبيره .
ونفقت في أيامه البضائع الكاسدة من الفنون ، وقصده أربابها من كل الاقطار وهو لا يكل من الإحسان إليهم . فلما كانه بعض خواصه قال رحمة الله لثلاث موت الفنون في دولتي وأيامي .

سلطنة الملك المنصور على ابن الملك الأشرف :

في يوم الخميس ثامن ذى القعدة من هذه السنة بعد مقتل الملك الأشرف شمعان بثلاثة أيام جددت البيعة للملك منصور على بمعرفة الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء . .

وكان أبوه قد أنابه على العرش قبل سفره إلى الحجاز فانتهاز الأمراء المقيمون في القاهرة هذه الفرصة لكي يخلعوا أباه ويجعواوه سلاطانا ، في الوقت الذي كان الأمراء الذين سحبوا السلطان إلى الحجاز بتوائبون عليه كما قدمنا فيفر منهم عائدا إلى القاهرة فقبض عليه المماليك الذين خلعوه وقتلوه .

ولما كان الخليفة والقضاة الأربعة في صحبة الملك عند ذهابه للحج فقد جددت البيعة لابنه بعد عودتهم .

وكان عمر السلطان منصور سبع سنوات .

١٣٨٠ م - ٧٨٢ هـ : بزوغ نجم برقوق :

لم يكد السلطان الطفل يتولى الملك ، حتى بدأت الرواية التى لا تنتهى ، رواية اقتتال المماليك حول السلطنة : وعدوان بعضهم على بعض وتأمرهم مما يسأم الانسان لمتابعنه فى كتب التاريخ التى توردته بتفاصيل شيقة . . وقد انتهت موجة المؤامرات : وعماليات القتل والخنق والسجن والابعاد بظهور نجم جديد على المسرح كان مقدر له أن يذلق صفحة من تاريخ مصر لتبدأ صفحة جديدة .

وتلكم الشخصية هى سيف الدين برقوق الجركسى .

وكان ظهور نجمه وغلبته على باقى الامراء والمتطالعين للرئاسة يعنى انتصار المماليك البرجية نهائيا ، على من اصطحب بتسميتهم المماليك البحرية .

والمماليك البرجية هم الذين انشأ لهم المنصور قلاوون الابراج ليقيموا فيها بالقلعة وأطلق عليهم اسم ممالبك الطباق وهم من أصل شركسى : حيث كانوا يضمون الى الطباق بالقلعة فبرتبة الطواشى أو الاغا المقدم عليه عندالفقيه ليربيه بالآداب والحشمة والحرمة « ثم يدرّب على أعمال الفروسية كالرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل ثم يدرج بعد ذلك فى الجامكية والرواتب من ٣ الى ٧ دنانير فى الشهر » .

وقد وصل برقوق بحيث أصبح اتابكا للعسكر ومديرا للمملكة بعد سلسلة من المعارك الصغيرة والكبيرة مع أعدائه ومنافسيه ثم مع اصدقائه ومعاونيه .

وكان أول ما فعله بعد أن استجمع فى يده السلطة استدعى من بلاد الشركس والده (آنص) وأخواته ، فجاءوا الى مصر لينعموا بعز ابنهم الذى تركهم رقيقا ، وسمعوا عنه أمير الامراء فى مصر . وقد استقبل والده برقوق باحتفال عظيم .

١٣٨١ م - ٧٨٣ هـ - موت السلطان الملك المنصور على :

فى يوم الاحد الثالث والعشرين من شهر صفر مات السلطان الملك المنصور على بعد مرض الزمه الفراش وكان عمره يوم مات اثنى عشر عاما ، تسلطن منها خمس سنوات وثلاثة اشهر وعشرين يوما .

وقد كان لا يعدو صورة الى جوار برقوق .

فبقوا أبو المحاسن : ولم يستطع برقوق رغم ما كان عليه من العظمة أن يتسلطن فأخرج أمير حاح أخا الملك المنصور على وسلطنه عوضا عن اخيه .

سلطنة الملك الصالح زين الدين حاجي :

في يوم الاثنين الرابع والعشرين من صفر اجلس على تخت الملك الصالح زين الدين حاج ابن السلطان الملك الأشرف شعبان .

وكان عمره تسع سنوات . وكان مدير شئون الدولة وأتابك العسكر هو برقوق . وبقية الأمراء يركبون في خدمته ينزلون عنده ويأكلون على سمطة .

١٣٨٢ م - ٧٨٤ هـ : خلع السلطان الملك الصالح زين الدين حاجي :

في والتاسع عشر من شهر رمضان ؛ من هذه السنة خلع الملك الصالح زين . وكان برقوق قد دبر أموره للوثوب الى آخر قمة السلطة ، بأرضاء بعض الأمراء والتخلص من بعضهم الآخر : وابعاد بعض ثالث الى الشام . فلما اطمأن الى سيطرته على الموقف . استدعى المتوكل الخليفة العباسي والقضاة - الاربعة وسائر الامراء . فلما اجتمعوا قام كاتب السر القاضي بدر الدين في وسط المجلس وقال : يا أمير المؤمنين ويا سادات القضاة ، ان احوال المملكة قد فسدت وزاد فساد العربان في البلاد ، وغامر غالب النواب في البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة : والاحوال غير مستقيمة والوقت قد ضاق ومحتاجون الى اقامة سلطان كبير يجتمع فيه الهمة ويسكن الاضطراب

فاقترح القضاة والخليفة سلطنة الاتابك برقوق . وهكذا خلع الملك الصالح زين الدين حاجي وتسلمت السلطنة لبرقوق .

وادخل الملك الصالح الى دور الحريم عند اخوته .

وكانت مدة سلطنته بعد اخيه سنة وسبعة أشهر وأياما .

ويخلع زين الدين حاجي آخر سلالة قلاون ، يعتبر المؤرخون ان دولة المماليك البحرية قد انتهت لتبدأ دولة المماليك البرية او المماليك الجراكسة نسبة الى اصلهم الجركسي .

ولكن الحق ان لا فارق على الاطلاق في الدولتين ، فهما متداخلتان وقد ظلت الانظمة هي الانظمة والاساليب هي الاساليب ، ولم يتغير شيء قل او كثر ، ولعل الاصبح ان يقال ان سلسلة السلاطين الاسمية التي انحدرت من سلالة قلاوون ، والتي ظلت في الحكم رغم ضعفهم وهوانهم ، قد انتهت بسلطنة برقوق واصبحت الكلمة الاخيرة في كل ما يتعلق بشئون الحكم الى ممالك القلعة يعيشون في ابراجها بغير تدخل من غيرهم . فانعدم بذلك آخر ظل لمبدأ الوراثة في ولاية الملك .

واصبحت حقيقة السلطان انه كبير الامراء او الاول بين الامراء .

الفصل الخامس عشر

دولة المالك الشراكية

٧٨٤ : ٩٢٤ هـ - ١٣٨٢ - ١٥١٧ م

سلطنة الملك الظاهر برقوق الاولى على مصر :

في يوم الاربعاء التاسع عشر من رمضان الموافق السادس من نوفمبر سنة ١٣٨٢ هـ جلس الملك برقوق على تخت الملك بعد أن بايعه الخليفة المتوكل على الله أبى عبد الله محمد والقضاة الاربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ولقب بالملك الظاهر .

وقيل أن اسمه الأصلي كان الطنيكا فغيره أستاذة يلبغا لما اشتراه وسماء برقوقا على ما قرر المقرئى ، ولكن أبا المحاسن لا يوافق على هذا الراى ويدحضه بعدة حجج أوردها ، ويقول أن أسم برقوق هو اسمه منذ ولادته .

وكان يلبغا قد اشتراه من الخواجة عثمان بن مسامر ، ولم يابث يلبغا أن اعتقه كما هى العادة ، ووهبه ما اعتادوا إيهابه للمملوك المعتقد من قماش وخيل ومال لبستعين به على حياته الجديدة ، ثم راح يتدرج فى الوظائف ، حتى أصبح أميرا على عشرة ، وأخرط . بعد ذلك شأن الممالك فى المؤامرات والمناورات التى انتهت به الى سلطنة مصر .

مقدم ابن خلدون الى مصر .

وقد عاصر جلوس برقوق على عرش مصر ، حدث مر فى وقته غير ملحوظ : وربما لم يعلق عليه أحد من الأهمية : ما يعاقله على سقوط ملك وتولية ملك جديد : ومع ذلك فإن التاريخ يحتفل اليوم بهذا الحدث ، بأكثر من احتفاله بتولية برقوق ، أو كل ما وقع فى مصر فى هذه اللحظة من أحداث محلية .

أما هذا الحادث فهو مقدم عهد الرحمن بن خلدون الى مصر ، حيث وصل الى الاسكندرية فى أول أيام عيد الفطر من هذه السنة ٧٨٤ هـ وكان السبب الذى أظهره لتعليق قدومه الى مصر هو رغبته فى أداء فريضة الحج : ولكن السبب الحقيقى ، هو سوء الاحوال فى البلاد المغربية ، وقد أقام فى الاسكندرية شهرا يهوى العدة فيه للحج ، أو يتظاهر بذلك ، فلم تتج له فرصة السفر الى مكة ووضع الى القاهرة ليستقر فيها بدلا من ذلك .

القاهرة كما يصفها ابن خلدون :

يقول ابن خلدون في كتابه التعريف ، وهو ترجمة حياته الذاتية فانتقلت الى القاهرة اول ذى القعدة : فرأيت الدنيا وشباب العالم : ومحضر الامم ، ومدرج الدر من البشر وايوان الاسلام ، وكرسی الملك . تلوح القصر والاواوين في جوده : وتزهو الخوانق والمدارس بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من غلمانه . قد مثل بنساطي بحر النيل نهر الجنة مدفع مياه السماء نستقيهم النihal والعال سباحة . ويجنبى اليهم الثمرات والخيرات فجة ومررت في سكك المدينة تفص بزحام المسارة .

واسواقها تزخر بالنعم . . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعض مداه في العمران ، واتساع الاحوال ، لقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا واصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . سألت صاحبنا قاضي الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المغربي ، مقدمه من الحج سنة أربعين وسبعمائة فقلت له كيف القاهرة ، فقال من لم يرها لم يعرف عز الاسلام . وسألت شيخنا أبا العباس بن أدریس كبير العلماء ببجانه فقال : كأنما انطلق أهله من الحساب . . اشارة الى كثرة امه واسمهم العواقب .

وحضر صاحبنا قاضي العسكر بفاس الفقيه الكاتب ابو القاسم البرجي بمجلس السلطان أبي عنان ، منصرف من السفارة عنه الى ملوك مصر ، وناديته رسالته النبوية الى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة وسأله عن القاهرة فقال : أقول في العبارة عنها على سبيل الاختصار : ان الذي يتخيله الانسان فانما يراه دون الصورة التي يتخيلها : لاتساع الخيال عن كل محسوس الا القاهرة فانها أوسع من كل ما بنخل فيها ، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك .

واذا كنا اطلنا في النقل عن ابن خلدون ، ممثلة وهو في رأى بعض العلماء الغربيين أعظم العقول التي أنجبتها العرب ، بل التي أنجبتها الانسانية كلها في هذه الفترة . جدير بأن ينقل عنه ما يصور مكانه وسمعتها وغناها وثروتها وحضارتها في هذه الفترة من التاريخ .

ثم يقول ابن خلدون عن حفاوة القاهرة وعلمائها به .

فلما دخلتها أفمت اباما ، وانها على طلبة العلم ، يلتمسون الافادة مع قلة البضاعة ، ولم يؤسموني علما ، فجلست للتدريس في الجامع الازهر .

وهكذا اندمج ابن خلدون منذ وصوله الى مصر في تسييج حياتها - وسيمظل علما من اعلامها - يدرس ويتولى رئاسة القضاء الحنفى ، يعيد كتابة مقدمته الخالدة ، التي تعتبر بحق أعظم كتاب ظهر في العربية منذ عصره . حتى الآن (على الاقل) .

١٢٨٢ م - ٧٨٥ هـ - خلع الخليفة المتوكل :

كان من غير الطبيعي أن يمر حادث تولى برقوق السلطنة دون أن يحدث رد فعل شديد من الاستنكار والاعتراض في أكثر من جهة . وقد جاء أول رد فعل من الجهة التي ظلت حتى الآن سلبية لا تتدخل في موضوع السلطة : ومعنى بها الخليفة العباسي فقد اتصل المتوكل . الذي يبدو أنه كان شديد الطموح : ببعض أمراء المماليك ، ليقتنعهم أنه باعتباره الخليفة هو האחق بالسلطنة من برقوق . . . ووصل نياؤا أمره إلى برقوق ، فأسرع إلى الخليفة المتوكل والأمراء الذين تأمر معهم . وهم بنو يقاتل الخليفة ، ولكن القضية الأربعة رفضوا أن يفتوه بجواز قتل الخليفة ، فأكفى بخلفه ، وسجنه في أحد أبراج القلعة ، وولى الخلافة بدلا منه عم المتوكل عمر بن إبراهيم ولقبه بالوائق بالله .

١٣٨٦ م - ٧٨٨ هـ - افتتاح مدرسة برقوق :

انشا برقوق مدرسة بين القصرين . وافتنحها في يوم الخميس ناني عشر جمادى الاولى : وملا فسقية المدرسة على جارى العادى بالماء والسكر ووزعه على الناس .

وعين الشيخ علاء الدين السيراني شيخا للمدرسة ، وخلع على الامير جركس الخليلي الذي شاد العمارة . والمهندسين والمرخين والنجارين والدهانين والبنائين لكل واحد منهم خلعة ووزع اشرفين (دينارين) على كل واحد من الفعلة (العمال) الذين اشتغلوا في بناء المدرسة ولا تزال هذه المدرسة قائمة بشعاع المعز لدين الله (شارع النحاسين) وتسمى جامع السلطان برقوق ، وهو من ابداع مساجد القاهرة .

١٣٨٩ م / ٧٩٠ هـ - بزوغ نجم تيمورلنك :

في هذه السنة ، ارتفع نجم تيمورلنك ملك التار والذي كان نجمة قد بزغ منذ سنوات مضت . وتيمورلنك ينحدر من سلالة أحد وزراء المغول وقد ولد في مدينة سمرقند : ولما شب عن الطوق التحق بخدمة حاكم سمرقند ، واستطاع بقوته الشخصية ، أن يخضع سمرقند لسلطانه ، ثم بدأ يضم ما حوالها من المدن والمقاطعات ، فضم خوارزم وخراسان وسستان (سنة ٧٨٥ هـ) ثم ضم شمال فارس بعد ذلك بسنة ، ثم اذربيجان وجورجيا (٧٨٨ - ٨٩١ هـ) وبلاد طفتمش خان ، حاكم القبيلة الذهبية في حوض نهر الفولجا ، حتى اذا فر من بلاد ايران تحرك نحو العراق وأطراف الامبراطورية المصرية المملوكية .

وكانت اخبار زحف تيمورلنك وانتصاراته تترى على السلطان برقوق في حينها .

أول اصطدام بين تيمورلنك وبرقوق :

وفي هذه السنة وقع أول احتكاك بين تيمورلنك وبين السلطان برقوق ، فقد تقدمت طلائع جيشه الى بلد ملطية الخاضعة لحكم مصر - ووصل الى القاضي برهان الدين صاحب مدينة سيواس بآسيا الصغرى ، كتابا من تيمورلنك شديد اللهجة يطلب منه فيه أن بخطب باسمه على المنابر ، وأن يضرب السكة باسمه فأرسل القاضي برهان الدين يستنجد بالسلطان برقوق عام ٧٨٩ هـ فأرسل اليه بجريدة في نفس السنة توجهت الى حلب ومنها زحفت نحو ديار بكر بقيادة الأمير الطنبغا الجوباني نائب الشام ، فقابلت في زحفها بعض فلول جيش تيمورلنك . وكان الأمير قره يوسف أمير الشاه السوداء التركمانية قد استطاع أن يهزم إحدى فرق جيش تيمورلنك التي كان يقودها ابنه ، وأسرع أبرع قواده وهو اكلاميش فأرسله الى برقوق .

قدمت البشائر احتفالا بهذا النصر ، وأصدر برقوق أمره بعودة العسكر فوصلت الى مصر في هذه السنة .

١٣٨٩ م / ٧٩١ هـ - تمرد يلبغا الناصري أمير حلب :

لم ينعم برقوق طويلا بهذا النصر على جيوش تيمورلنك اذ انقلب عليه أكبر أمراء دولته ، وهو الأمير يلبغا الناصري أمير حلب . وكان يلبغا الناصري غير راض منذ اللحظة الأولى عن تولي برقوق السلطة ، فقد كان يلبغا الناصري من كبار الأمراء عندما كان برقوق لا يزال في أول درجات السلم .

وكان قد حدث أن وفد يلبغا الناصري الى مصر عقب تولي السلطان برقوق السلطة ليهنئه تبعا للعادة المرعية ، فما كان من برقوق الا أن اعتقله وسجنه خوفا منه ، ولكنه لم يلبث ان أطلق سراحه واعاده الى نيابة حلب ولذلك فلم يكذب يلبغا الناصري يعود الى مقر امارته ، حتى أعلن التمرد والعصيان وتسارع امراء المماليك الشام فانجازوا اليه .

وانتصر يلبغا الناصري على الحملة التي بعث بها برقوق من مصر لمحاربته وترتب على ذلك دخول مدينة دمشق واستولى عليها ، وتسلم قلعتها بغير قتال .

خلع برقوق :

كان لهزيمة برقوق في الشام ، أثرها في مصر ، اذ هاج الشعب وماج ضد برقوق ، وعبثا حاول برقوق ان يرضي الشعب برفع المكوس عنه ، فقد بدأ الأمراء ينفذون عنه ويلحقون بغريمه ، وبدأت العامة ترحم مماليكه .

فلما أيقن برقوق انه مغاوب على أمره ، أرسل الى يلبغا الناصري يطلب امانا لحياته في مقابل النزول عن السلطة ، كما أرسل اليه شعائر السلطنة بالفعل . وكان

رد يلبغا الناصري : ان الملك الظاهر اخونا وخشداشنا ، ولكن يجب عليه ان يختص في هذه الآونة بمكان ما ، حتى تخمد الفتنة ، وندير له أمرا يكون فيه نجاته . وصعد برقوق بالنصيحة ، فهرب من القلعة في جنح الليل في ليلة الاثنين الخامس من جمادى الآخرة من هذه السنة .

سلطنة الملك الصالح (المنصور) حاجي الثانية :

لم يستطع يلبغا الناصري أن يلى السلطنة لخلاف الأمراء على التولية فاستقر الرأي على إعادة الملك الصالح بحجة ان برقوق قد خلعه ظلما وتعسفا لغير سبب ، فجىء به من عند أهله وبايعه الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء ، وبايعوه بالسلطة ، وأجروا له الاحفالات المعتادة وغيروا لقبه من الصالح الى المنصور وعين يلبغا الناصري أتابكا للعسكر فقبض على زمام السلطة وبأشر سلطانه ، كما أصبحت العادة بالقبض على عشرات من الأمراء والمقدمين وعزل بعضهم وتعيين الأنصار ومن هم محل الثقة .

ثم جرى البحث عن السلطان برقوق . ووعد من يعثر عليه بالنفقة الى درجة أعلى أن كان مملوكا ، وألف دينار أن كان عاميا .

وكان ذلك كافيا للعشور على السلطان برقوق ، واخلفت الآراء بشأن مصيره ، فقال البعض بوجوب اعدامه ، ولكن يلبغا الناصري وجد من مصلحته (فيما يبدو) ان يبقى على حياته . على أن يرسل الى حصن الكرك تحت الترسيم (أى معتقلا) حتى يفصل في أمره .

فأرسل برقوق الى حصن الكرك في ليلة الخميس الثاني والعشرين من جمادى الثاني .

حرب بين يلبغا ومنطاش :

استبد يلبغا كما هو المتوقع بالسلطان وحجر على السلطان حاجي واحتكر لنفسه أجود الأقطاعات ، غر معط لداخيه وحليفه ، الأمير تمريفا الأفضلى الشهير بمنطاش ، الا أقل من القليل . وكان الاتفاق عندما قاما بحركتهما في الشام قد أقسما البمين أن يكون الاثنان كرجل واحد . فلما أن استأثر يلبغا بالسلطة بدأ منطاش يدبر المكائد للابقاع به ، واستغل غضب الشعب من ناحية ، ومماليك برقوق الذين كانوا لا يزالون مختفين عن الأنظار من ناحية أخرى ، لكي يقوم بحركة ضد يلبغا ، فاحتل سطح مسجد السلطان حسن على حين غرة ، وأخذ يرمى على القلعة وتكاثر أعوانه ، وراح يتقرب الى العوام فوزع عليهم الذهب وكان يقول لهم : أنا واحد منكم ، وأنتم اخواننا وأصحابنا فبدلوا أنفسهم في خدمته .

وتقابل يلبغا الناصري بمن معه من أمراء ، ومنطاش ومن معه في معركة مفتوحة فدارت الدائرة على يلبغا وفر هاربا .

منطاش يصبح اتابكا :

وفى يوم الخميس ناسع عشر من شعبان ، صعد منطاش الى القلعة وعلم السلطان الملك المنصور انه فى خدمته .

فعينه السلطان اتابكا للعساكر بدلا من يلبغا . فكان أول عمل قام به هو القبض على يلبغا الناصرى ، وايداعه سجن الاسكندرية . على أن منطاش لم ينعم بانصراره ، فقد ذهبهم مصر وباء الطاعون . وسقط المئات والألوف ضحايا له ، فى الوقت الذى ظلت القاهرة مسرحا للفتن بين أمراء المماليك . فهيا ذلك لعودة السلطان برقوق للسلطان .

استشهاد السلطان مراد خان :

وفى هذه السنة فى الخامس عشر من شعبان قتل السلطان مراد خان الفسازى اثناء حربه مع الصرب ، بعد أن كان قد ضم أكثر منطقة البلقان فى شرق أوروبا تحت سلطانه وكان عمره يوم استشهاده ٦٥ سنة ومدة حكمه ٣١ سنة وقد تسلطن من بعده السلطان يلدرم بايزيد خان .

١٣٩٨ م / ٧٩٢ هـ - سلطنة برقوق الثانية على مصر :

كان وقوع الخلاف بين يلبغا ومنطاش ، وهما اللذان كانا السبب فى خلع برقوق . ذريعة لأهل حصن برقوق ليخرجوه من سجنه ويلتفوا حوله منادين به سلطانا . ولم يكذ النبأ يذاع فى الشام حتى توافد اليه عدد من النواب والأمراء ومن مماليكه . وكان على رأس الدين انضموا اليه نائب حلب ، فاستد امره وقوى سعادته .

وخرج الاتابكى منطاش من القاهرة على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة برقوق واصطحب معه السلطان والقضاة والخليفة وعند قرية شتجب دارت معركة عسكرية طاحنة ، لعلها أكبر المعارك التى خاضها برقوق طوال حياته ، وثبت فيها ثباتا غير عادى ، فكانت له الغلبة على جيوش منطاش .

وقبض على السلطان حاجى والخليفة والقضاة الأربعة ولكن برقوق استقبلهم بقبول حسن واحسن الهم وخاصة السلطان .

وعاد برقوق الى مصر فى الثالث عشر من شهر صفر من هذه السنة فاستقبلته الجماهير استقبالا حافلا .

وفى يوم الأربعاء الرابع عشر من صفر ، خلع الخليفة والقضاة الأربعة السلطان حاجى ، وبايعوا السلطان برقوق ، وسط رضاء عام شامل من المماليك والشعب فى ذات الوقت .

وقد اصطنع برقوق الحكمة والكياسة في تهدئة الموقف : فافرج عن يلبغا الناصري ، وزاد على ذلك أن جعله نائبا على دمشق ، وبعث به على رأس جيش من المماليك ليحارب عدوه منطاش ، الذي كان لا يزال متسلطنا على الشام .

وسار يلبغا الى دمشق واستقر بها ، دون أن ينال من منطاش منسالا ، وقيل أن يلبغا الناصري كان يعتمد الابقاء على منطاش ليظل ورفة يلعب بها في دنيا السلطان الأمر الذي جعل برقوق ينحائل فيما بعد على القبض على يلبغا الناصري واعدامه ، ويلوم أبو المحاسن السلطان برقوق على هذه العلة ، على أساس أن يلبغا الناصري كان هو الذي حقن دماء برقوق في وجه الأعلبية التي كانت يريد اعدامه .

١٣٩٢ م / ٧٩٥ هـ - قتل منطاش :

ظل الأمير منطاش ثائرا على السلطان برقوق في الشام وينقض من حين لآخر على هذه المدينة أو تلك فيستولي عليها أو ينهبها ثم ينسحب منها الى غيرها ، وقصد تنكسر عساكره في بعض المواقع ولكنه كان يعود للانقضاض من جديد .

وقد كان ذلك يسبب ضيقا وقلقا شديدين لبرقوق ، حتى لقد قيل انه مرض بسبب ذلك . على أن الأمير نعيم بن جبار أمير آل فضل من اعراب الشام ، والذي كان الأمير منطاش متزوجا احدي بناته ، خانه واسلمه لنائب حلب لحساب السلطان في مقابل ثمن معلوم - وقيل منطاش وعلقت رأسه على باب رويلة . وهكذا هدا بال برقوق من هذه الناحية .

تيمورلنك يغزو العراق ويهدد الشام :

ولكن بال برقوق لم يكد يهدأ من ناحية تمرد اقوى امرائه ، حتى جاءت اخبار من بغداد بانها سقطت بيد تيمورلنك خان الغول ، وفر صاحبها الخان أحمد بن أدریس من وجه تيمورلنك والتجأ الى مصر ، فاستقبله السلطان برقوق احسن استقبال ووعده بالنصر .

٧٩٦/١٣٩٤ هـ - برقوق يزحف الى الشام لمحاربة تيمورلنك :

في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الثاني ، وصل برقوق على رأس جيش ضخم أعده لحرب تيمورلنك ، الى مدينة دمشق ، وكان بصحبته أحمد بن أدریس صاحب بغداد . وبمجرد وصول برقوق الى دمشق ، جاءت السفارات من الملوك المجاورين تنرى وكلها تضع نفسها تحب امرته لمحاربة تيمورلنك - وكان أهم هؤلاء السفراء مبعوث بايزيد سلطان الدولة العثمانية ، التي اخذت على عاتقها حمل راية الجهاد عن الاسلام واستئناف فتوحاته في شرق أوروبا .

وكان بايزيد يعرض محالفته ضد تيمورلنك فاستقبل برقوق مبعوث بايزيد استقبالا حسنا ، وارسل الى بايزيد ردا مطمئنا .

على ان الأخبار سرعان ما جاءت نبيء بان تيمورلنك قد عاد ادراجه منسحبا من البلاد التي فتحها بعد ان سمع بسير برقوق اليه .

وهكذا اعاد السلطان برقوق الخان أحمد بن ادريس الى قاعدة ملكه في بغداد بعهد من لدنه ، وعاد برقوق الى القاهرة متوجا بأكايل الفار وان كان لم يلق العدو .

١٣٩٩ م / ٨٠١ هـ - وفاة السلطان برقوق :

وفي ليلة الجمعة خامس عشر من شوال من هذه السنة توفي الملك الظاهر برقوق ابن انصر . وكانت مدة سلاطنته بالديار المصرية والشامية الى ان مات على فراشه ست عشرة سنة واربعة اشهر وسبعة وعشرين يوما وذلك على مرتين ، وكان عمره يوم مات ثلاثا وستين سنة .

واعل الامبراطورية المصرية المملوكة قد وصلت الى اوج اتساع رقعتها في عهده ، فقد خطب باسمه في اماكن لم بخطب لاحد قبله فيها من الممالك فخطب باسمه في مدينة تبريز (اذربيجان) وفي الموصل وفي ماردين وسنجار وضربت السكة باسمه في هذه الاماكن . وقد رأينا كيف ان ملك بغداد أصبح يحكم باسمه وبعهد منه .

وقد خلف خزائن الدولة بعده عامرة كما لم يسبق له مثيل فكان بها الف الف واربعمائة الف دينار من الذهب - ومن الثياب وانواع الفرو والفلال والسكر والاعسال ما يبلغ قيمته مثل هذا القدر - وخلف من الخيول ستة آلاف فرس ، ومثلها من الجمال والبغال . وبلغت عدة ممالكه التي اشتراها خمسة آلاف .

يقول ابو المحاسن عن السلطان برقوق - وكان كثير الصدقات والمعروف بحسن الأوقاف على فقراء مكة والحجاج . وكان يذبح في طول ايام امارته وسلاطنته كل يوم من ايام رمضان خمسين بقرة يتصدق بها ، بعد ان تطبخ ومعها آلاف من أرغفة الخبز النقي تفرق على اهل الجوامع والربط واهل السجون لكل انسان رطل لحم مطبوخ وثلاثة أرغفة وذلك بخلاف ما كان يأمر بتوزيعه على الزوايا من اللحم ، حيث كان يخص كل زاوية خمسين رطلا من لحم الضأن بخلاف الأرغفة .

وكان يفرق في كل سنة في اهل العلم والصلاح مائتي الف درهم وثمانية آلاف اردب قمح . ويبعث في كل سنة الى الحجاز ثلاثة آلاف اردب قمح لتوزع على فقراء الحرمين .

ولما عمت موجة من الغلاء في مصر على ابامه كان يوزع يوميا ثمانية آلاف رغيف فلم يمت فيها أحد من الجوع .

سلطنة الملك الناصر فرج بن برقوق الأولى على مصر :

وفي يوم الجمعة غداة وفاة السلطان برقوق بايع الخليفة والقضاة الأربعة وشيوخ الإسلام البلقيين وتلاههم الأمراء ، فرج ابن السلطان برقوق ولم يكن عمره يزيد على عشرين سنوات ، وقيل اثنى عشرة سنة ولقب بالناصر .

وتولى اتابكية العسكر الأمير ايتمش البيجاسي وصحب عملية السلطنة الهزة المعتادة في مثل هذه الظروف من قبض واعتقال وقتل وخنق وعزل لبعض أمراء المماليك من ناحية ، وإفراح وترقية وتولية لبعض الأمراء من ناحية أخرى كما بدأت المؤامرات والفتن حول السلطنة والاضرار بها .

١٤٠٠ م / ٨٠٢ هـ - ترشييد السلطان الملك الناصر فرج :

في يوم الخميس السادس من شهر ربيع الأول ، طلب الملك الناصر فرج من الأمراء والقضاة أن يعلنوا بلوغه سن الرشيد فأقروا له بذلك . وقد كان المحرض على هذه الخطوة مماليك الطباق الساكنين في القلعة وعلى رأسهم الأمير بشبك الخازندار .

وقد غضب الأمير ايتمش لهذه الخطوة التي تحد من سلطانه ، فأعلن عدم موافقته عليها ، واستعرت المعارك بين مماليك الطباق وعلى رأسهم يتشك من ناحية . واتابك العسكر الأمير ايتمش من ناحية أخرى ، ولكن الدائرة دارت على الأمير ايتمش ومن معه ففروا هاربين إلى الشام ، واستباحت بيوتهم في القاهرة فنهبها العامة .

تهرب في الشام وإخماده :

وصل الأمراء الهاربون من القاهرة إلى الشام ، فأحسن استقبالهم ثم أمير الشام ، واستقر رأبهم على خلع السلطان فرج ، وزحفوا بجيئسهم على مصر لهذا الغرض .

ولكن السلطان فرج - أو بالأحرى فواده وأمرأه - بادروا لمقابلة هذا الجيش الزاحف على أرض فلسطين .

وفي يوم السبت الثاني عشر من رجب دارت معركة طاحنة بين الطرفين في مكان بين غزة والرملة . فكان النصر لجيوش السلطان وأنهزم تنم ومن معه من الأمراء ، وقبض على تنم وقتل . ودخل السلطان فرج إلى دمشق وسط الاحتفالات المعتادة ، ومن دمشق عاد فرج إلى القاهرة ، لتتجدد له الاحتفالات .

١٤٠١ م / ٨٠٣ هـ - تكة حاب ودمشق على يد تيمورلنك :

عاد تيمورلنك زحفه على رأس التتار على بلاد الشام وفي يوم السبت الحادي

عشر من ربيع الاول ، وصلت جبوشه الى مدينة حلب ، فهزم الجيش الذي تصدى لحربه واستولى على المدينة عنوة : فنكل بأهلها تنكبلا فاق ما فعله هولاء من قبل . فابن اياس يقول لنا أن تيمورلنك بنى من رؤس القتلى عشرة مآذن ، محيط كل مئذنة نحو عشرين ذراعاً وارتفاعها مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة الى الخارج تسفو عليها الريح ، وتركوا اجساد القتلى في الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش وكان عدد من قتل في هذه الواقعة من اهل حلب نحو عشرين ألف انسان وهلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك .

وبعد حلب استولى تيمورلنك على مدينة حمص ، وفعل بأهلها مثل الذي فعله بأهل حلب .

فلما وصلت هذه الأنباء الى مصر ، خرج السلطان فرج بجيشه الى الشام لمحاربة تيمورلنك ، فوصل الى دمشق في يوم الخميس السادس من جمادى الاول . ودارت بعض المعارك المحدودة بين جيش السلطان فرج وطلائع جيش تيمورلنك فكانت سجلاً ، وبدأت مفاوضات الصلح تجرى بين تيمورلنك وبين السلطان ولكن عقارب الفتن دبت الى صفوف الجيش المملوكى : فانسحبت بعض الأمراء في طريقهم الى القاهرة لاقامة سلطان غير فرج ، فلما سمع فرج بالنبا أسرع نحو القاهرة تاركاً جيشه ودمشق وسوريا كلها تحت رحمة تيمورلنك .

ابن خلدون وتيمورلنك :

ولما كان ابن خلدون قد خرج من القاهرة في رفقة السلطان كغيره من العلماء والقضاة ، وكان يقيم في دمشق ، فهو يصور لنا في كتابه التعريف ماجرى في لقاء تم بينه وبين تيمورلنك قبل تسليم دمشق له ، وكيف تم الاتفاق على طلب الامان من تيمورلنك ، فلما اعطاهم الامان انقسمت الآراء واصر فريق على عدم تسليم المدينة والمضى في المقاومة حتى النهاية فخاف ابن خلدون على نفسه ان يعتبر هو المحرض على هذا الموقف لانه لم يكن في الوفد الذي ذهب للاقاة تيمورلنك . . ولذلك فقد عمل على ان يغادر المدينة ، فأدلى بالحبال من اسوارها . وفر الى مخيم تيمورلنك الذي لمّا عرف بأمره اذن له بالدخول عليه . ويقول ابن خلدون : ودخلت عليه بخيمة جلوسه متكئاً على مرفقة ، وصحاف الطعام تمر بين يديه فيوجهها الى عصب المغول الجالسين امام خيمته حلقاً حلقاً . . فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام ، واوميت ايماءة الخضوع ، فرفع رأسه ومد يده الى فقبلتها ، وأشار بالجلوس حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم فأقعدته بترجم بيننا .

ويسجل لنا ابن خلدون في امانة ما دار بينه وبين تيمورلنك من حديث يفيض بالخضوع والاستكانة والخوف من بطش الطاغية ، وأملاً في أن يعهد له بعمل من الاعمال ، فقد قال لنا انه راح يشئى على تيمورلنك ، ويقول انه قد مضى عليه ثلاث

وابعون سنة يتمنى لقاء تيمورلنك ، فلما سأله تيمورلنك عن سبب ذلك ، أجابه :
لأنك سلطان العالم وملك الدنيا ، وما اعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد
مشكك ولست ممن يقول في الأمور بالجزاف ، فأننى من أهل العلم .

وقد كلف تيمورلنك ابن خلدون ، أن يكتب له عن بلاد المغرب كلها اقاصيها
وادانيها ، وجبالها وانهارها وقراها وامصارها ، حتى كآته بنساهدها. فقات يحصل
ذلك بسعادتك .

وكتبت له بعد انصرافى من المجلس ماطلب من ذلك واوعيت الغرض فيه فى
مختصر وجيز يكون قدر اننى عشر من الكرابس (عبد الرحمن بن خلدون) .

تيمورلنك يحرق دمشق :

والحق أن هذا الحديث والحوار والجو الذى بصوره لنا ابن خلدون فى مقابلته
مع تيمورلنك ، يتناقض كل التناقض مع الصورة المفزعة التى حوتها كتب التاريخ
عما فعله تيمورلنك بعد ذلك فى مدينة دمشق ،والتى دخلها بعد أن اعطى أهلها الامان
فى الثامن عشر من شهر رجب فراح جنوده ينهبون من أهلها ماينهبون ، وراح هو
بغرض على أهلها من صنوف الغرامات المرهقة مايعجزون عن تسديده فاذا سدوده
بعد منسقة ، طالبهم بأضعاف ماقدموا .

وفى يوم الخميس أول شعبان اصدر امره باحراق المدينة فتحولت على مايقول
ابن اياس : الى اطلال بالبه ورسوم خالية قد خوت عروشها واقفرت من زخرفها
ونقوشها — لانرى بها دابة تدب ، ولا حيوانا يهب ، سوى جثث قد احترقت ، وصور
فى الثرى قد تعفرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ، ومغنما للكلاب ونهباً .
وكان تيمورلنك قبل أن يفعل بالمدينة هذه الفعلة : قد جمع كل عمال دمنق
الفنيين وأسطوانها ، وبعث بهم الى مدينة سمرقند .

وكانت مدة اقامة تيمورلنك فى دمشق وماحولها ثمانين يوماً ، كأنه اراد أن يتوج
فطلأعه فى بلاد الشام . فأمر يوم رحل عن المدينة جنوده على مايقول ابن اياس أن
يجمعوا له اطفال المدينة الذين أسر أهلهم فكان عدتهم عشرة آلاف طفل مابين ابن
خمس سنين الى شهر وشهرين ، فوقف تيمورلنك ينظر اليهم ساعة ثم قال للعسكر :
سبوقوا عليهم بالخيـل ، فساقوا عليهم بالخيـل فماتوا أجمعين .

ولا جدال فى أن الهول الذى عانتـه مدن الشام من حملة تيمورلنك قد فتح المجال
لمثل هذه الصور . التى قد يكون فيها شىء من المبالغة لأن أخذ هذه الصورة بمدلولها
يعنى أن سكان دمشق قد أبيدوا عن بكرة أبيهم لعدة اجيال . واحرقت المدينة ، مع
أن الثابت أن تيمورلنك لا يكاد يغادر المدينة ،حتى تعود الحياة فيها الى سابق عهدها .
ولكنها تعطينا صورة عن مدى الرعب الذى كانت تنشره غارات التتار .

تيمورلنك يتوجه لحرب بايزيد :

كان المفروض ان يتابع تيمورلنك زحفه على مصر بعد ان كسر جيشها في الشام ، ولكن تيمورلنك ماكان ليقدّم على هذه الخطوة مخلفا وراءه هذه القوة العسكرية الكبرى قوة بايزيد السلطان العثماني ، فرأى ان يصفي حسابه اولا مع هذه القوة الضاربة . ولكنه قبل ان يتوجه لمحاربة بايزيد، رأى ان يتقى شر السلطان فرج حنى لايباغته اثناء قتاله مع بايزيد . فأرسل الى السلطان فرج يعتذر له عن هذا الذي وقع منه ويعزوه الى سلطان القضاء والقدر كما بعث له بعض الهدايا فيما بعد ومن بينها فيل على ظهره صندوق خشبي يجلس فيه نحو عشرة انفس ، وافرّج عن كل الأسرى من المماليك الذين كانوا في حوزته . وكل ذلك لسحول دون تحالف مصر مع الدولة العثمانية . وقد وقع السلطان فرج ومن معه في هذه الخدعة خلال السنوات التالية ، فخلوا بين تيمورلنك وبين حربه مع بايزيد، واكتفى السلطان فرج بأرسال نوابه من جديد البلاد الشامية ليحكموها باسمه .

١٤٠٢ م / ٨٠٤ هـ - تيمورلنك ينكل بالسلطان بايزيد :

في هذه السنة تم اللقاء المنتظر بين جيوش تيمورلنك وجيش السلطان بايزيد حول مدينة انقره ، فكانت الهزيمة على جيش بايزيد . ووقع في أسر تيمورلنك، الذي باع في تعذيبه وإهانته حتى لقد وضعه داخل قفص حديدى وراح يستعرضه في كل مكان ذهب اليه وظل في هذا العذاب والمهانة حتى مات في العام التالي (٨٠٥) وفتح تيمورلنك بغداد مرة اخرى في طريق عودته الى بلاده .

١٤٠٥ م / ٨٠٧ هـ - وفاة تيمورلنك :

وفي السابع عشر من شعبان الموافق التاسع عشر من فبراير مات تيمورلنك ببلاذ التركستان عن واحد وسبعين سنة بعد ان خضب ارض الشرق بالدماء . .

١٤٠٦ م / ٨٠٨ هـ - اختفاء السلطان فرج :

ضاق السلطان فرج بالمؤامرات من حوله ومابدبره الامراء من محاولات مستمرة لخلعه وقتله ، فتسلل من القلعة وهو متنكر في هيئة لايعرفها احد وسار على قدميه مبتعدا عنها واخفى في مكان حيث لايعرف احد ماذا حل به . وكان ذلك يوم الاحد الخامس عشر من شهر ربيع الاول من هذه السنة .

سلطنة الملك المنصور عز الدين :

عندما باع الامراء نبأ اختفاء السلطان فرج ، تشاوروا فيما بينهم فيمن يولوه سلطانا . فوقع الاتفاق على سلطنة اخيه عبد العزيز فطلبوه من دور الحرير وسلطنوه

فى يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول . وكان عمره يوم ولى السلطنة لا يزيد عن عشر سنوات .

وتولى انابكية العسكر الأمير بيبرس وأصبح هو صاحب الحل والعقد . .

فأهاج ذلك غضب الأمراء الآخرين وخاصة الأمير ينسبك الخازندار فتعصبوا لعودة السلطان فرج ، الذى لم يلبث أن ظهر من مخبئه عندما وصلت اليه هذه الاخبار ، فاستعاد ملكه ، واعاد اخاه عز الدين الى حيث كان فى دور الحريم . فكانت مدة سلطنة عز الدين شهرين وعشرة أيام .

عودة السلطان الناصر فرج للسلطنة :

كان تجديد البيعة للسلطان الناصر فرج يوم الخميس الرابع من جمادى اشانية حيث بايعه الحليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء .

وفاة ابن خلدون :

فى السادس والعشرين من رمضان من هذه السنة توفى العلامة عبد الرحمن ابن خلدون فجأة عن ست وسبعين سنة ، عاش الأربع والعشرين سنة الأخيرة منها فى مصر . فاحبه من احبه وتلمذ على يده من تلمذ وكان على رأس هؤلاء مؤرخنا الكبير تقى الدين المقرئى وأبو المحاسن تغرى بردى . كما كرهه من كرهه واختلف معه من اختلف من اصحاب المذاهب الأخرى . ولكن الدين كرهوه كالدين احبوه قد اجمهوا على تقديمه بالعلم الغزير .

وابن خلدون اعظم من أن يعرف فى سطور او صفحات وحسبه انه مؤلف المقدمة التى اقر العلماء من جميع الأجناس فى وقتنا الحاضر ، أنها من أعظم ما ألف فى كل زمان ومكان .

وبالنسبة لى شخصيا ، فطالما وقفت أمامها محتارا ، فما من باب من أبواب العلم او المعرفة ، الا ونعرضت له بأقوال وآراء تعتبر سابقة ورائدة فى ميدانها ، بحيث يمكن اعتباره منسجىء علم الاقتصاد الحديث ، وعلم الاجتماع الحديث ، وعلم التاريخ الحديث .

شهادة ابن خلدون للعلوم فى القاهرة :

وحسب ابن خلدون عظمة ، اننا نأخذ من أقواله العلمية . . ما يفسر لنا سبب هذه الظاهرة التى تعيا على التفسير وهى كثرة ما أنشئ فى مصر من مدارس وجوامع ومؤسسات اجتماعية فى هذه الفترة من حياتها ، وما شهدته من نهضة علمية لم يسبق لها مثيل من قبل فى العهد الاسلامى ، كما لم يلحقها حتى الآن شبيهه . فيقول لنا ابن خلدون :

ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر ، كما

ان عمرانها مستمر ، وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت ومن جماتها تعليم العالم وأكد ذلك فيها وحفظه ، ما وقع لهذه العصور منذ مائتين من السنين من دولة الترك من إمام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا .

وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يختنون عادية سلطانهم على من يتحلفونه من ذريتهم ، لما له عليهم من الرق أو الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته ، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ، وأوقفوا عليها الأوقاف المغلة يجعلون فيها شرطا لولدهم ينظر عايتها ، أو نصيب منها ، مع ما فيهم غالبا من الجنوح إلى الخير والتماس الأجور في المقاصد والأفعال ، فكثرت الأوقاف لذلك ، وعظمت الغلات والفوائد ، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرياتهم فيها . وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ، ونفقت بها أسواق العلم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء .

ولما درست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة ، بل والعلم إلى مصر والقاهرة ، فلم تزل أسواقه تابعة لهذا العهد . وله بها معلمون يرسمون لتعالم الحروف بقوانين في وصفها وأشكالها متعارفة بينهم ، فلا يلبث المتعلم أن يحكم أشكال تلك الحروف على هذه الأوضاع وقد لقنها حسنا وخرق فيها دربه وكتابة وأخذها قوانين علمية فتجىء أحسن ما يكون .

ويمضي ابن خلدون على هذه الوتيرة من التحليل وربط الأسباب بالمسببات فيدرس سبب تمكن الحضارة في مصر وأن ذلك راجع إلى تاريخها القديم .

١٤١٢ م - ٨١٥ هـ : أعدام الملك الناصر فرج :

أمضى السلطان الناصر فرج ، السنوات التي عاد فيها إلى الحكم من جديد ، في سكر وعربدة وسفك لدماء المماليك الذين عانى منهم الأمرين ، حتى قيل أنه كان يسكر إلى منتصف الليل ثم يخرج إلى حوش القلعة ، فيستعرض المماليك الذين بالسجون فيختار منهم كل ليلة من يذبحه بيده .

وكان يذبح في الليلة الواحدة عشرين مملوكا ، وقيل أن عدة من ذبحهم من مماليك أبيه ألفين (١) وذلك لشدة بغضه لهم لكثرة ما تأمروا عليه وحاولوا الغدر به . وقد أدى ذلك إلى هياج المماليك ، واندلعت الفتنة من بلاد الشام ، فخرج على السلطان الأمير نوروز الحافظي والأمير شيخ محمودي .

وكان على السلطان فرج أن يذهب على رأس جيش من مماليكه السساخطين لاطفاء هذه الفتنة . ولم يكد يتم اللقاء بين الجيشين في يوم الثلاثاء خامس عشر من

(١) لعل هذه الواقعة خير ما يظهرنا على طبيعة الحياة في مصر طوال حكم المماليك ، فحيث تجرى هذه المدايح بين أفراد الطبقة الحاكمة وجندها المسلح ، فإن الحياة تجري في أنحاء البلاد في سبيلها العادي الطبيعي .

المحرم عند اللجون ، حتى انفض عن السلطان فرج اكثر عسكره وانضموا الى خصومه . فدارت عليه الدائرة ، وفر هاربا . ولكنه لم يلبث ان قبض عليه وقتل . وكان عمره يوم قتل ستا وعشرين سنة .

سلطنة الخليفة المستعين بالله :

حار الأمراء المماليك فيمن يولونه السلطنة : لعدم اتفاقهم على واحد منهم يكون سلطانا ، فخرجوا من مأزقهم بحل هو الأول من نوعه منذ نقلت الخلافة العباسية الى مصر ، وهو تولية الخليفة العباسي نفسه السلطنة الاسمية ، على أن يكون الحل والعقد في مصر بين الأمير شيخ وفي الشام من غزة حتى انفرات بين الحافظ وقد اشترط الخليفة لنفسه أنه اذا عزل من السلطنة عاد الى الخلافة .

وعلى ذلك ففي يوم الاثنين سابع عشر من المحرم من هذه السنة تمت سلطنة الخليفة العباسي ابو الفضل بن المتوكل ، وكانت مبايعته في مدينة دمشق ثم دخل على رأس موكبه الى القاهرة وسط احتفالات ارتجت لها البلاد .

خلع الخليفة العباسي من السلطنة :

على أن ذلك لم يدم طويلا ، فان هـى الا بضعة أشهر أو على وجه التحديد في يوم الاثنين أول شعبان ، حتى كان الأمير شيخ قد قرر عزل الخليفة من السلطنة ، فجمع القضاة الأربعة والأمراء في هذا اليوم وقرروا أن الفساد قد عم في الأرض وأن لابد من سلطان تركي له سطوة لقمع أهل الفساد واصلاح البلاد على يديه .

سلطنة الملك المؤيد أبو النصر شيخ :

وهكذا خلع الخليفة العباسي وعاد الى قواعده سالما ، وبويع بالسلطنة على عرش مصر شيخ المحمودى الظاهري ، ولقب بالسلطان الملك المؤيد أبو النصر .

١٤١٤ م - ٨١٧ هـ : عصيان نوروز ومصرعه :

عندما بلغت أخبار عزل الخليفة العباسي من السلطنة الى الشام ، اعتبر نوروز أن ذلك اخلالا بالعهد والميثاق الذى ارتبط به مع الأمير شيخ فأعلن التمرد والعصيان وظل يخطب على منابر الشام باسم الخليفة العباسي فارتحل السلطان المؤيد الى الشام على رأس جيشه ، والتقى به نوروز الحافظ ، ولكن الدائرة دارت عليه ، فانهزم جيشه وقبض عليه وأعدم ، وكان ذلك في شهر جمادى الاولى من هذه السنة .

ولكن السلطان المؤيد لم يكد يرجع الى القاهرة حتى عاود نواب الشام التمرد ، فخرج المؤيد على رأس جيش جديد لقمع حركتهم ، فانتصر عليهم مرة اخرى ، وعاد الى القاهرة فائزا منتصرا وقد صفا له النجو على ما يقول ابن اياس .

١٤١٦ م - ٨١٩ هـ : تفشى الطاعون في مصر :

على أن الطاعون تفشى في مصر هذه السنة . وفنك بالناس شر فنك على منا تجمّع كتب التاريخ .

١٤١٩ م - ٨١٩ هـ : الطاعون والغلاء :

ظل الطاعون يستشري وينقل طوال السنوات الثلاث الماضية حتى اذا كانت هذه السنة ، عاد الى الانتشار الذريع ، وتحالف معه الغلاء لعدم وفاء النيل ، مما جعل السلطان المؤيد يخرج بالناس والعلماء والاطفال والبهائم للاستسقاء ، كما جرت العادة ، وتواضع الله وظهر الزهد وصلى على الرمل بغير سجادة ، ووزع على الفقراء ثلاثين ألف رغيف ، وذبح بيده اغناما وابقارا . واكن ذلك لم يجد فتىلا : فشرقت البلاد وقحطت وظلت كذلك لمدة عام كامل .

جامع المؤيد :

وعلى الرغم من هذا الضيق الذى ألم بالبلاد في هذه السنة ، فقد كمل فيها بناء جامع المؤيد الذى اقامه مكان السجن الذى اشتهر باسم « خزانة شمايل » وفاء لنذر كان قد نذره ، ذلك ان السلطان المؤيد كان قد سجن بهذا السجن أيام السلطان الناصر فرج وقاسى به شدائد كثيرة ، فنذر الى الله ان انجاه الله من هذه الشدة وافرج عنه ، وصار في يوم من الايام سلطانا أن يهدم هذا السجن ويجعله مسجدا . فلما تحقق له ذلك . وفى بالنذر ، واقام هذا المسجد الذى يعتبر تحفة معمارية من تحف هذا العصر ، وقد اقيم لافتتاح الجامع الحفلة المعهودة حيث مائت فسقية الجامع بالماء والسكر والليمون ووزعت على الجمهور ، كما وزعت العطايا على كل من اسهم في بناء المسجد .

ثم رتب في المسجد بعد ذلك دروس الشافعية والمالكية والحنابلة وكلان ذلك بحضور السلطان .

١٤٢١ م - ٨٢٤ هـ : وفاة السلطان المؤيد :

في يوم الاثنين التاسع من المحرم ، مات السلطان شيخ المؤيد ولله من العمر خمس وستون سنة .

يقول ابن اياس وكانت دولته ثابتة القواعد وصار الدثب والغنم يمشيان في صعيد واحد ، مشيرا بذلك الى توطيده أمن الدولة في مصر والشام وقطع دابر الفتن خلال السنوات الثماني والشهور والخمسة التى تسلطن فيها .

ويقول عنه انه رغم اقدمه في الحروب . وحنكته ودربه في الادارة والمكائد والحيل ، فقد كان يميل الى اللهو والطرب ، ويستعمل الراح ويميل الى الملاح . وكان يستعمل الأشياء المخدرة من المصطلات وكان يقرب ارباب الفنون الذين راحوا يتبارون في أيامه في خدمة فنونهم التماسا للزلفى عنده فقد كان يحسن الفهم ويحسن المعرفة . وكان يغنى وينظم الشعر .

ويندد به المقرئى من ناحية أخرى لسفكه الدماء وفتله عددا كبيرا من النواب والأمراء في غير رحمة .

سلطنة الملك المظفر أبو السعادات :

في يوم الاثنين التاسع من المحرم ببيع بالسلطنة ابن السلطان المؤيد الذي كان طفلا لا يتجاوز عمره سنة وثمانية أشهر ، وقد جرى به الى سرير الملك وهو في حجر مرضعته ، وكان ذلك بتدبير من الأمير ططر الذي تولى الاتابكية وراح يدير شئون المملكة . وتزوج والده السلطان (خوند سعادات) أرملة السلطان المؤيد ، وبذلك ازداد نفوذه وسلطانه .

خلع المالك المظفر أحمد من السلطنة :

ونار امراء الشام عندما بلغهم الخبر ، فأعلنوا التمرد والعصيان ، فخرج اليهم الاتابكي ططر لمحاربتهم ، واصطحب معه السلطان أحمد ومرضعته وزوجته . وانتشر ططر على الأمراء الثائرين ، فقويت شوكته بذلك ورأى أن يخلع السلطان الطفل وينادي بنفسه سلطانا .

سلطنة الملك الظاهر ططر :

وهكذا في يوم الجمعة التاسع عشر من شعبان خلع الخليفة والقضاة الأربعة السلطان الطفل ، وبايعوا الأمير ططر سيف الدين أبو سعيد سلطانا ولقبوه بالظاهر . فكان أول ما فعله أن طلق زوجته خوند سعادات أم الملك المظفر أحمد خوفا على نفسه منها ثم أرسل الطفل المخلوع ومرضعته ودادته الى السجن بشق الإسكندرية ، حيث ظل مقيما به الى أن مات فيما بعد عام ٨٣٣ هـ .

موت الظاهر ططر :

لم ينعم السلطان ططر طويلا بالحكم اذ لم يلبث أن مات في يوم الأحد رابع ذي الحجة من تلك السنة ، أى أن مدة سلطته لم تزيد على ثلاثة أشهر وأيام ، ولما كان عمره لا يتجاوز خمسا وخمسين سنة ، فقد قيل ان خوند سعادات أم الملك هي التي دسست له السم ، وهى التي طلقها خوفا من أن يقع له ذلك .

السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد :

ببيع بالسلطنة يوم وفاة ططر ابنه محمد الذي لم يكن يتجاوز عمره يوم مبايعته
أحدى عشرة سنة ، ولقب بالصالح ناصر الدين .

وتولى اتابكية العسكر وتدير شئون المملكة جانى بك الصدفى ، فلم يرض عن
ذلك الأمير برسباى الدقماقى الداودار ، فوثب على الأمير جانى البصدفى ، وقبض
عليه وبعث به سجيناً الى ثغر الاسكندرية وامسك هو بزمام الأمور .

١٤٢٢ م - ٨٢٥ هـ : سلطنة الملك الأشرف برسباى :

فى يوم الأربعاء الثامن من ربيع الثانى ، خلع برسباى السلطان الصالح ناصر الدين
ابن ططر ، وبايعه الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء سلطاناً على مصر ولقب بالملك
الأشرف .

وبرسباى الذى سيقدر له ان يكون من ألمع سلاطين المماليك الجراكسة قد جاء
به بعض تجار الرقيق من بلاد الجركس ، فاشتراه أحد الأمراء ، ثم آلت ملكيته الى
السلطان برقوق ، الذى اعتقه ووهبه مالا وقماشاً وخيلاً ليبدأ حياته الحربية وجعله
من خدمه الخصوصيين ، أو بحسب الترتيب الذى كان معمولاً به ، جمداراً فى
صكيا . فلما تسلطن الملك المؤيد جعله أمير عشرة ، ثم أمير طلبخانة ، ثم رقى الى
امير مائة ومقدم الف وتغلبت به الأحداث الى ان جعله السلطان ططر داوداراً ، فكان
منه بعد ذلك الذى مر بنا .

١٤٢٤ م - ٨٢٨ هـ : الأسطول المصرى يغزو قبرص :

كان الصليبيون كما رأينا قد انحازوا الى جزيرة قبرص ، ورودس التى اتخذها
فرسان الاسبتارية قاعدة لهم ، بعد ان اجلوا عن الأرض الإسلامية . وكان القبرصيون
فى الآونة الأخيرة قد نشطوا نشاطاً غير عادى فتوالت غاراتهم على الساحل الشامى ،
وعلى السفن القاصدة الى مصر ، فأهاج ذلك ذكرى غارة القبرصيين على مدينة
الاسكندرية عام ٧٦٧ هـ ، فقرر السلطان برسباى أن يضرب القبرصيين ضربة رادعة
فأصدر أمره بإنشاء أسطول بحرى فى ترسانات مصر فى بولاق ودمياط فتم صنع
هذا الأسطول فى هذه السنة فبعث به بعد ان شحنه بالبحارة والمقاتلة الى جزيرة
قبرص فهاجم مدينة ليماسول العاصمة وعاد محملاً بالفنائم والأسرى .

الحملة الثانية على قبرص :

شجع برسباى النجاح الذى حققته الحملة البحرية الأولى فأرسل حملة أكبر

نألفت من أربعين سفينة ، ونجحت في الاستيلاء على مدينة فماجوستا واستسلمت لها حامية المدينة المؤلفة من جنود جنويه (أى من جمهورية جنوا) ثم قصدت القوة الى مدينة لارناتا وحطمت جيشا بقيادة أخى الملك حانوس (جيمس) ثم خضعت ليماسول بعد مقاومة يسيرة ثم يافوس جنوب غربى الجزيرة ، وفشلت كل محاولات الأسطول القبرصى لمقاومة المماليك . وعاد قائد الأسطول المصرى جيرباش ومعه ألف أسير بيعوا في أسواق القاهرة .

١٤٢٦ م - ٨٢٩ هـ : الاستيلاء على قبرص :

استقر عزم السلطان برسباى ، بعد أن ظهر له من ضعف قبرص ما ظهر أن يستولى عليها جملة . وكان جنا الثالث امبراطور بيزنطة قد حاول التوسط بين ملك قبرص وبرسباى ، ولكن برسباى رفض وساطته وجهاز أسطولا ضخما مؤلفا من ١٨٠ سفينة محملة بالمقاتلة الذين كان أقلهم من المماليك وأكثرهم من المتطوعين والعرب والبدو .

وفي ٢ يوليو من السنة الميلادية ١٤٢٦ ، سقطت مدينة ليماسول بيد الجيش المصرى الذى تحرك منها صوب الشمال تحت حماية الأسطول ، فاستولى على لارناتا ثم وقعت معركة حامية الوطيس بين ملك الجزيرة جانوس والجيش المصرى عند سيركتيوم ، فانهزم الجيش القبرصى ، ووقع الملك جانوس نفسه أسيرا . ثم سقطت نيقوسيا عاصمة الجزيرة وبذلك تم إخضاع الجزيرة لسلطان مصر الأشرف برسباى . يقول ابن اياس عن حوادث عام ٨٢٩ هـ : وفي هذه السنة تم فتح مدينة (جزيرة) قبرص وأسر ملكها وجيء به الى القاهرة أسيرا فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وزينت المدينة سبعة ايام . ودخل عسكر الفرنج وهم فى زناجير (سلاسل) وملكهم راكب وعليه آلة الحرب .

أما لين بول فيصف هذا الحادث فى تاريخه بقوله :

وكان تاج قبرص والاعلام الملكية من بين ما عرض على الجماهير فى موكب النصر - أما الملك جيمس نفسه فقد حمل الى القلعة وادخل الى حضرة السلطان الذى كان يحيط به أمراؤه وحاشيته وسفراء السلطان - العثماني ودولة التركمان ، وممثلو القبائل العربية وشريف مكة وملك تونس .

وقبل ملك قبرص المقيّد بالسلاسل الأرض بين يدي برسباى ثم أغمى عليه ولما ضغط عليه فى طلب الفدية التى قدرت بمائتى ألف دينار ، كان رد الملك ، اننى لا أملك شيئا الا حياتى فليتصرف فيها السلطان كما يشاء فلما هدد بالموت لم يظهر أى جزع . ولكن قنصل البندقية وبعض التجار الاوربيين ، تدخلوا وتعهدوا بدفع مائة ألف دينار فى الحال على أن يدفع الملك جيمس بعد عودته الى قبرص مثلها ، وأن يكون تابعا لمصر ويدفع جزية سنوية تتراوح بين خمسة الى ثمانية آلاف روكية .

وهذا النصر البحري الذي احرزه برسباي والذي انتهى بضم قبرس الى السيادة المصرية ، هو آية انفرط عقد الدول الأوربية المسيحية وانشغال كل منها بنفسها واهتمامها بمصالحها الخاصة .

عمارة المدرسة الاشرفية :

وفي هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان وهى المدرسة الاشرفية التى عند سوق الوراقين ، وقد أمر السلطان أن تعلق خوذته ملك الأفرنج على باب هذه المدرسة لتكون تذكارا له .

يقول ابن اياس (المتوفى عام ٩٣٠) ان هذه الخوذة ظلت معلقة على باب المدرسة حتى أيامه ، أى بعد مائة سنة .

١٤٢٨ م - ٨٣١ هـ : عمارة مدرسة سرياقوس :

وفي هذه السنة ابتدا السلطان عمارة مدرسته التى فى خانقاه سرياقوس وقد تنهى فى رخامها وزخرفنها بم أقام فيها الخطبة ، وكان اول من خطب فيها الشيخ عبد الرحيم المحمدى الواعظ - ولم يحدث من قبل أن اقيمت الخطبة فى الخانقاة .

١٤٣٠ م ٨٣٣ هـ : تفشى الطاعون فى مصر :

فى هذه السنة تفشى الطاعون فى مصر ، وكان مخالفا لبقية الطوائع ، فقد جرت العادة أن يقع الطاعون فى فصل الربيع ، أما هذه المرة فقد وقع فى وسط الشتاء . وقد مات فى مصر ما يقول ابن اياس ما لا يحصى عدده من الناس حتى قيل انه مات فى يوم واحد أربعة وعشرون ألفا .

وكان ممن ماتوا بالطاعون الخليفة العباسى المستعين بالله ابو الفضل العباسى . ويقول الحافظ بن حجر الذى كان متوليا القضاء الشافعى فى هذه الفترة والذي يعتبر علما من اكبر الأعلام .

« لبا كثر الطاعون بمصر ، اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ودعوا الله برفعه ، فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص .

١٤٣١ م - ٨٣٤ هـ : اتصالات شاه رخ ابن تيمورلنك بـ برسباي :

كان شاه رخ ابن تيمورلنك قد وطد مملكته فى بلاد ما بين النهرين (سيحون و جيحون) وبلاد فارس كلها وكان الاسلام قد انتشر فى صفوف المغول واصبح هو

الدين الحاكم . . فأرسل في هذه السنة سفيرا الى برسباي يطلب منه ارسال بعض المؤلفات لعلماء مصر المعاصرين . كشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ، وتاريخ المقرئى ، ويطلب كذلك السماح له بكسوة الكعبة . ولكن السلطان برسباي رفض هذا الطلب ، بل ولم يرسل المخطوطات المطلوبة .

ولما كان شاه رخ من اكبر هواة جمع المخطوطات ، فانه لم ييأس لهذا الرفض ، وظلت سفاراته تتوالى على القاهرة ، حاملة الهدايا ، ومجددة طلب السماح له بكسوة الكعبة ، ليبر يمين كان قد أقسمها وهو ان يكسو الكعبة .

ولكن برسباي ظل على رفضه هذا الطلب بحجة ان كسوة الكعبة ، هى من حقوق سلطان مصر ، وان فى مصر من الأوقاف المرصودة على كسوة الكعبة ما يجعلها فى غنى عن تقبل أى كسوة أخرى .

١٤٣٣ م - ٨٣٦ هـ : برسباي يقود حملة تأديبية ضد دولة التركمان :

كانت دولة التركمان التى انشأها تيمورلنك تتألف من دولتين متنافستين اولاهما مؤلفة من قبيلة الشاه البيضاء وزعيمها عثمان قرايلوك التركمانى ويسميه ابن اياس قراملك .

وقد بدأ هذا الزعيم يستخف بسلطنة مصر ويغير على بعض ممتلكاتها ثم رأى ان يستفز برسباي ، فبعث اليه بهدية رمزية مؤلفة من مرآة وخروف وخاتمة ، كناية عن ان السلطان وامراءه نجاج والمرآة فانهم مثل النساء والخاتمة باعتبار ان برسباي نائب قرايلوك . وقد اهان برسباي السفراء الذين حملوا له هذه الهدايا وطلب منهم ان يبلغوا ملكهم ان يقابله على نهر الفرات .

وفى شهر مارس من هذه السنة خرج برسباي من القاهرة على رأس جيشه وبصحبته الخليفة المعتضد والمؤرخ ابو المحاسن و (تفرى بردى) والقضاة الأربعة ، ووصل الى نهر الفرات وحاصر قلعة آمد أشد الحصار ، ولكنه لم يتمكن من فتحها ، وساءت الأحوال بين جنوده ولذلك فقد رضى بعقد صلح مع عثمان قرايلوك على ان يكون تابعا لسلطان مصر ، فيخطب لبرسباي على المنابر وتضرب السلطنة باسمه .

على ان برسباي لم يكد يرجع الى مصر : حتى عاد عثمان قرايلوك الى التمرد . على ان نيران القتال لم تلبث ان اشتعلت بين عثمان قرايلوك وبين زعيم الدولة التركمان الثانية وهى الشاه السوداء ، وانتهت الحرب بهزيمة عثمان قرايلوك ، حينئذ قطع زعيم الشاه السوداء المنتصر رأسه وبعث بها الى برسباي ، الذى احتفل بوصول رأس غريمه اليه احتفالات ضخمة .

١٤٣٥ م - ٨٣٩ هـ : الأزمة بين شاه رخ و برسبای :

تجددت الأزمة بين شاه رخ سلطان المشرق وبين برسبای عندما أرسل يحدد طلبه لكسوة الكعبة ويندد بعلماء مصر وقضاتها الذين افتوا أنه يستطيع أن يبر بيمينه لو أنه أنفق قيمة الكسوة على الفقراء والمساكين في مكة ، واتهمهم بأنهم غير نزيهين وأنهم يفتون بما يوافق هوى السلطان حرصا على مصالحهم الدنيوية .

ووصلت الأزمة الى حد خيف معه أن يهاجم شاه رخ بلاد الشام مكررا ما فعله أبوه من قبل ، خاصة وأن شاه رخ كان يرسل السفارات والهدايا الى السلطان العثماني والى أمير الشاه البيضاء التركماني ، والى أمراء الغادر وقرمان ، مما دل على أنه يؤلف حلفا يمهّد به للهجوم على برسبای .

كل ذلك جعل برسبای يعلن أنه سيجهز جيشا لمواجهة شاه رخ . وطلب من القضاة أن يوافقوه على جمع الأموال اللازمة للحملة من الشعب ، فرفض القضاة الموافقة على ذلك ، وانتقدوا اسرافه ، وكان مما قالوه : لا يجوز للسلطان أن يفرض الأموال على المسلمين وزوجته تلبس في يوم ختان ابنها توبا يساوي ثلاثين ألف دينار (مصر في عهد الجراكسة) .

وعاد شاه رخ فأرسل الى برسبای رسالة رابعة وكان شاه رخ يطالب برسبای هذه المرة بأن يقيم الخطبة باسمه ويضرب السكة باسمه كذلك . على أساس أن برسبای تابع له .

وكان رد برسبای على هذه الرسالة : أن أمر باهائه السفير الذي حملها ، وهكذا تأزمت الأمور . ووصل التوتر الى أعلى مداه ، وأصبح هجوم شاه رخ على أرض الدولة متوقعا في أي لحظة .

١٤٣٧ م - ٨١٤ هـ : عودة الطاعون الى مصر :

في هذه السنة عاود الطاعون مصر للمرة الثانية في حياة برسبای وان كان بدرجة أخف من الطاعون السابق ، ومع ذلك فقد مات بسببه عدد كبير .

وفاة السلطان الملك الأشرف برسبای :

في يوم السبت الثالث عشر من ذي الحجة دفن الملك الأشرف برسبای وكان عمره خمسينا وسبعين سنة ، حكم منها ستة عشر عاما وثمانية أشهر وخمسة أيام .

يقول ابن اياس : فكثرت عليه الحزن والأسف من الناس فأن مصر كانت هادئة في أيامه من الفتن والحروب .

وكان الملك الأشرف برسباي ملكا جميلا مبجلا في موكبه وكان منقادا للشريعة ويحب أهل العلم ويقربهم .

وكانت النقود التي سكها أحسن النقود ، وكانت من الذهب والفضة ، ولا سيما الأشرقية البرسيبية فانها من خالص الذهب .

احتكاره تجارة الهند :

واذا كان اخضاع قبرص للسيادة المصرية هو ما تم في عهد برسباي يميزه عن بقية عصور المماليك الجراكسة ، فان ثمة مميزات أخرى لعصره : وهو احتكاره لبعض أصناف التجارة ، وخاصة تجارة الهند التي ازدهرت من جديد في عصره . ومن عجب ان ازدهارها لم يكن سوى آخر خفقة في سراج هذه التجارة فلن يلبث أن تكتشف أمريكا ، وتكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ، وتتحول تجارة الهند نهائيا عن مصر ، مما يسارع الى افقارها في أخريات العهد المملوكي وطوال العهد العثماني .

المقريزي وابن حجر والعيني :

وقد تألق في عهد برسباي ثلاثة من أعلام مصر ، وأعلام العرب والمسلمين في كل زمان ومكان وهم المقريزي الشهير صاحب التاليف التاريخية الخالدة وثنائيهما الحافظ بن حجر شارح البخاري وقد رأينا كيف ان شاه رخ بن تيورلنك قد بعث الى مصر ليحصل على كتبهما .

أما ثنائيهما وهو بدر العيني ، فقد كان لي شخصا حفظ مصاحبته الدائمة قبل زيملييه ، حيث تقوم في مكتبتى منذ أمد بعيد سبع مجلدات ضخمة في شرح صحيح البخاري ، تؤلف بالنسبة لي مرجعا أساسيا في كل ما يتصل بأحاديث رسول الله . وقد رأينا كيف أن وجود عالم واحد في عصر من العصور قد يزينه ويرفع من شأنه فكيف بعلماء ثلاثة .

سلطنة الملك العزيز أبو المحاسن :

بويح بالسلطنة في يوم وفاة الأسرف برسباي ، أي في يوم السبت الثالث عشر من ذي الحجة ، الملك العزيز أبو المحاسن جمال الدين يوسف دقماق ، ابن الملك الأشرف برسباي ، وكان عمره يوم سلطنته أربعة عشر عاما ولقب بالعزيز .

وتولى أتابكية العسكر جقمق العلاني ، فأصبح كما هي العادة صاحب المحل والعقد والمتصرف في كل الشؤون .

١٤٣٩ م - ٨٤٢ هـ : خلع السلطان العزيز :

لم يكد جقمق الأتابك ينجح في القضاء على حركة قام بها الأمراء ضد الملك

العزیز ، حتی رأى هو أن یخطو هذه الخطوة التي أصبحت تلبدية . فاستدعى الخليفة والقضاة الأربعة وطالب منهم خلع السلطان العزیز فخلعوه فی يوم الأربعاء ، التاسع عشر من ربیع الأول من هذه السنة ، فكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وخمسة أيام . على أن جقمق لم یقتل السلطان العزیز أو یسجنه واكتفى بإدخاله دار الحرب لیسكن بها .

سلطنة الملك الظاهر جقمق :

وبويع بالسلطنة فی نفس اليوم جقمق ولقب بالملك الظاهر . وهو كسائر ملوك المماليك - جاب من بلاد الجركس فاشترى السلطان برقوق وأصبح من جملة المماليك السلطانية . ثم اعتق . وعينه خاصکبا ثم ساقيا وفي دولة الناصر فرج أصبح أمير عشرة وفي عهد الملك المؤید شیخ صار أمير طلبخانة ، وفي دولة ططر أصبح أمير مائة ومقدم ألف . ثم عين صاحب الحجاب فی دولة الأشرف برسبای . ثم عهد اليه بمنصب أمير آخور (أى المشرف على الاسطبلات السلطانية) ثم أمير سلاح ثم اتابك العسكر فسلطانا كما رأينا .

وقد عين قرقماش اتابك العسكر .

الفتن ضد السلطان الجديد :

استهل جقمق عهده كای سلطان من سلاطين المماليك . بالعزل والسجن والقتل لمن یتخوف منهم ، والترقية والتعيين فی المناصب الرئيسية لمن یطمئن اليهم . وبسرعان ما تكون هذه الحركات هي مصدر فتن ومتاعب .

وكان أول ما واجهه جقمق هو فرار السلطان العزیز الخاوع واخفائه لدى بعض أنصاره ، مما دل على أن له حزبا قويا یساعده على استعادة السطة ولكن جقمق استطاع أن یقبض على العزیز وأن یرسله مقبوضا علیه الى الاسكندرية .

ولم یكف جقمق یفرغ من هذه الحركة : حتی نما الى علمه ان الأمير قرقماش الاتابك قد دبر أن یقبض علیه أثناء لعبهما معا بالكرة . فاحتاط السلطان لذلك . وفشلت خطة قرقماش فقام الصراع العلنی بین الرجلین ودارت بينهما المعارك التي انتهت بانتصار جقمق ، وارسال قرقماش مقبوضا علیه الى سجن اسكندرية حيث أعيد بعد ذلك .

١٤٤٠ م - ٨٤٣ هـ : تمرد نائب الشام اينال الجكمی :

وفي الشام أعلن الأمير اينال الجكمی خروجه عن طاعة جقمق وانضم الى نائب حلب ، ولكن جقمق استطاع أن یرسل جيشا الى الشام هزم الخارجين علیه وقبض علیهم وقطع رؤوسهم .

جقمق يحاول غزو رودس :

كانت انتصارات برسباى على جزيرة قبرص وضمها الى السيادة المصرية لا تزال اصداؤها تتجاوب فى أرجاء البلاد ، وكانت جزيرة رودس لا تزال تمثل مسوكة فى البحار وتمثل خطرا دائما على الدولة المصرية ، فقد كان فرسان الاسبتارية قد جعلوا منها قاعدتهم الحصينة ، وزادت أهميتها بعد سقوط قبرص فضايف من نشاطها .

وفكر جقمق فى أن يلحق بسلفه برسباى ، ولبس كالاتصارات العسكرية ما يوطد أركان أى سلطان فى الحكم .

لذلك فقد أعد فى ميناء بولاق أسطولاً بحرياً يتألف من خمس عشرة سفينة من السفن المعروفة باسم الغراب عهد الى الأميرين تغرى بردى الساجدار ويونس المحمودى أمير خور بغزو جزيرة رودس وحشد ما يزيد على ألف مقاتل فى هذا الأسطول .

ولكن خبر هذه الحملة تسرب الى رودس ، فلم يكد الأسطول بصل الى مياه الجزيرة حتى وجد أسطول الجزيرة بأكمله فى انتظاره ، فأوقع بهذه التجريدة خسارة جسيمة فعادت على أثرها الى مصر دون أن تحقق شيئاً نافعا .

١٤٤٢ م - ٨٤٦ هـ : ثورة العبيد السود :

تجمع الأرقاء السود فى القاهرة فى هذه السنة ، وعبروا منطقة الجيزة واصلوا التمرد والعصيان وولوا عليهم سلطاناً ووزيراً وأميراً كبيراً وداویداراً وصار سلطانهم يركب وعلى رأسه علم أصفر يحيط به خمسمائة من أتباعه فبعث اليهم السلطان جقمق جيشاً من أمرائه ومماليكه فأوقعوا بهم وأمسكوا بجماعة منهم ، وفر الباقون .

فاستقر رأى السلطان على أن يتخلص نهائياً من الأرقاء السود فأعلن أن كل من يملك رقيقاً أسود يسلمه الى السلطان ويأخذ فى مقابله اثنى عشر ديناراً وهكذا جمع الأرقاء السود ، ثم سيقوا الى الدولة العثمانية حيث بيعوا بها .

وفاة تقي الدين المقرئى :

وفى هذه السنة مات شيخ المؤرخين المصريين من عصره حتى اليوم وكان عمره يوم مات ثمان وسبعين سنة شمسية .

وقد ولد أحمد بن على المقرئى بالقاهرة عام ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ومات عام ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) .

وقد كان حنفى المذهب ثم تحول الى المذهب الشافعى والتحق بدايون الانشاء بالقلعة ثم عمل قاضياً شافعياً ، فاماماً لجامع الحاكم فمدرساً لعلم الحديث بالمدرسة

المؤيدية ، واختاره السلطان برقوق ليكون محتسب القاهرة والوجه البحرى ، ثم
انقل الى دمشق وقام بتدريس الحديث الشريف ، ثم عين فاضيا بدمشق .

وسمى المقرئ وظائف الحكومة على اختلافها ، فرجع الى القاهرة ، واستقر
في حارة برجوان التي ولد فيها ، واشتغل بالتدريس والتأليف وخاصة في هذا العلم
الذى أحبه من كل قلبه وهو التاريخ . وكان أول كتبه هو أعظم كتبه على الإطلاق
وهو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار والذي قال في مقدمته .

« وكانت مصر هي مسقط رأسي وملعب أترابي ومجمع ناسي ومغنى عسيرتي
وموطن خاصتي » .

وكتاب الخطط هو كتاب شامل لجغرافية مصر وتاريخها منذ خلق الله الدنيا
حتى أيام المقرئ .

ثم رأى المقرئ أن يؤرخ لمصر تاريخا سياسيا كاملا منذ الفتح العربى الى العصر
الذى عاش فيه ، فقسم هذه الفترة الى ثلاثة أقسام عصر التبعية للخلافه
الاسلامية ، وخصه بكتاب عقد جواهر الاسقاط في أخبار مدينة الفسطاط .
عصر الخلفاء الفاطميين وخصه بكتاب الفاظ الحنفيا بذكر الأئمة الخلفا .

عصر بنى أيوب والمماليك وخصه بكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . والمقرئ
بعد ذلك عشرات المؤلفات التى لم تصل الينا ، ومن أهمها كتاب « اغاثة الأمة يكشف
الغمة » وقد نحا فيه نحو استأذه ابن خلدون من حيث النظرة الشاملة للتاريخ .
والاجتماع والاقتصاد ، وقد انتهى به بحثه في هذا الكتاب الى أن اسباب ما ينزل
بالناس من المجاعات والأوبئة هو سوء تدبير الزعماء والحكام والقادة واغفالهم النظر
في مصالح الجمهور .

١٤٤٣ م - ٨٤٧ هـ : اخفاق حملة بحرية ثانية على رودس :

غادرت دمياط في أغسطس من هذه السنة الميلادية حملة بحرية ثانية بقيادة
الأمير اينال العلاني لمحاربة رودس ، فقصدت أولا الى سواحل الشام حيث انضمت
اليها قوات شامية ، واحتشد الأسطول بعد ذلك في ميناء ليماسول بجزيرة قبرص ،
حيث مونها ملكها بما هي في حاجة اليه ، ولكن قيام ريع عاصفة حال دون وصول
هذا الأسطول الى رودس فعاد الى الاسكندرية ورشيد .

١٤٤٤ م - ٨٤٨ هـ : حملة ثالثة ضد رودس :

لم يأس السلطان جقمق لفشل حملتيه السابقتين وزاد تصميمه على غزو
جزيرة رودس ، فأعد أسطولا أضخم من كل ما سبق أن أعدته مصر ، حيث كان

ما يقرب من ثمانية عشر ألفا من المتطوعين المصريين والسوريين بالإضافة الى ألف مملوك ، وجعل الامارة على القوات البرية للامير اينال العلأى وامرة البحر للامير تمرى .

وكان فى الحملة عدد كبير من الوعاظ والعلماء .

ووصلت الحملة الى جزيرة رودس فى جمادى الأولى من هذه السنة الهجرية (اغسطس) وحاصرت مدينة رودس ، واشتد القتال ، واستمر الحصار العنيف أربعين يوما ، ولكن المدافعين عن المدينة تلقوا مددا من فرنسا وأسبانيا ، فاستطاعوا أن يرفعوا الحصار عن المدينة ، وان يهاجموا الجيش المصرى فقتلوا عددا من المماليك وهرعت بقية الجند الى السفن ، وعادت ادراجها الى مصر ، فى الوقت الذى كان جقمق قد ارسل لهم المدد .

ومع ان الجيش المصرى لم يوفق فى مهمته ، فان حكام رودس طلبوا الدخول فى مفاوضات الصلح مع مصر للتوصل الى اقرار السلام ، فقد راوا أن جقمق لن يكف عنهم .

ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الدولة العثمانية قد بدأت تهدد جزر شرق البحر الأبيض . وكانت هذه القوة التى تنمو بسرعة فائقة هى التى أصبحت تقض مضاجع أهل رودس ، فكان ان سموا الى الصلح مع مصر على شروط رضاها .

شاه رخ يكسو الكعبة بوفافقة جقمق :

كان شاه رخ ملك ما وراء النهر وبلاد فارس ، لايفتأ بطالب بتحقيق رغبته فى كسوة الكعبة ، وهى الرغبة التى رفضها برسباى أكثر من مرة فلم يكد السلطان جقمق يتولى السلطنة حتى جدد طلبه وبعث الى مصر وفدا من لدنه وزوده بالثمين من الهدايا مع ابداء الرغبة فى كسوة الكعبة فاعتذر جقمق كسلفة عن اجابة هذه الرغبة ، ولكن انهزام الجيش المصرى فى حملة رودس جعل جقمق يكف عن عناده ، ويسمى لعدم توريط مصر فى حرب جديدة مع شاه رخ فأجابه الى طلبه ، وشرط ان تكون كسوة شاه رخ من الداخل أى تحت كسوة السلطان . فقبل شاه رخ هذا الشرط وبعث بكسوته الى القاهرة لترسل مع كسوة السلطان ، وكان من بين مرافقى هذه الكسوة أرملة تيمورلنك .

وهكذا بر شاه رخ بقسمه فى نهاية الأمر ، فوضعت كسوته فوق الكعبة وكأنه كان لايعيش الا لتحقيق هذا النذر اذا لم يلبث أن مات فى العام التالى .

١٤٤٩ م - ٨٥٣ هـ : الطاعون والقلاء :

توقف النيل عن الوفاء فى هذه السنة ، ولم تجد صلاة الاستسقاء فشرقت

البلاد وعزت الاقوات ، وارتفعت الأسعار بحيث أصبح ثمن أردب القمح خمسة دنائير أشرفية ثم زاد الى سبعة . وغلا سعر كل شيء حتى روايا الماء . وشرقت غالب البساتين وماتت الاشجار والبهاائم فلما حدث ذلك خاف الأمراء ان ينهب العامة غلالهم فحولوها من الشون الى بيوتهم تحت حراسة مماليكهم فضاعف ذلك في غلاء الأسعار حتى أصبح سعر رطل الخبز نصف فضة . فأدى ذلك الى اشتعال نورة الشعب فرجمت الجماهير وكيل بيت المال ، والمحتسب . وفي أعقاب الغلاء والقحط جاء تابعهما الطاعون ، فبدأ يفري في الناس فرياً حتى قيل انه كان يموت سبعة عشر الفا كل يوم .

١٤٥٠ م - ٨٥٤ هـ : وفاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى :

وفي هذه السنة مات شيخ الاسلام قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر العسقلانى الشافعى ، فكانت له جنازة مشهورة ، وتبارى الشعراء فى رثائه مما نفص به كتب التاريخ .

وقد كان ابن حجر هو اول من تصدى من علماء المسلمين لشرح صحيح البخارى ، مما جعل شاه رخ كما قدمنا يرسل الى مصر وفدا فى طلب هذا الكتاب .

١٤٥٢ م - ٨٥٧ هـ : السلطان محمد الفاتح يفتح القسطنطينية :

فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الثانية من هذه السنة تم الفتح العظيم الذى ما فتىء المسلمون يسعون لتحقيقه فباعت كل جهودهم بالفشل منذ أيام معاوية ابن أبى سفيان : وهو فتح مدينة القسطنطينية التى كانت تعتبر قاعدة المسيحيين الكبرى . . فتم هذا العمل العظيم على يد السلطان محمد الذى أطلق عليه منذ هذا الحدث لقب الفاتح . وقد نقل السلطان محمد الفاتح عاصمة الدولة العثمانية الى القسطنطينية وأطلق عليها اسم اسلام بول أى مدينة الاسلام ، وهى التى حرفت الى استنبول .

وبصيرورة القسطنطينية عاصمة للدولة العثمانية ، بدأت هذه الدولة صفحة جديدة فى تاريخ حياتها . فالى ما قبل هذه الخطوة كان سلاطين آل عثمان يقصرون جهادهم على غزو الأقطار المسيحية فى شرق أوروبا من صرب وبلغار ويونان .

اما بعد فتح القسطنطينية ، فقد بدأت أبصارها ترنو الى توحيد العالم الاسلامى تحت لوأئهم ، وان كانت هذه الرغبة لم تتحقق الا بعد أكثر من نصف قرن .

وقد كان لسقوط القسطنطينية فى يد المسلمين أثر فى أوروبا ، جعل شعوبها

يعتبرون انفسهم في حرب مقدسة ضد الدولة العثمانية ظلت طوال اربعة قرون ، ولم تهدا الا بعد ان صفت الدولة العثمانية بالفعل .

وفاة السلطان الملك المظفر جقمق :

في ليلة الثلاثاء الرابع من شهر صفر من هذه السنة ، مات السلطان المظفر جقمق عن احدى وثمانين سنة ، حكم منها اربع عشرة سنة وعشرة اشهر ويوما .

يقول عنه ابن اياس : وكان ملكا عظيما جليلا دينيا خيرا متواضعا يحب فعل الخير . وكان عنده لين جانب يحب العلماء وينقاد للشرعية ، ويقوم للعلماء اذا دخلوا عليه . وكانت الدنيا في ايامه هادئة من الفتن والتجديد .

ولكن ابن اياس يأخذ عليه انه سجن قاضي القضاة : وسجن جماعة من العلماء ، وانه غضب في وقت ما على النصاري فهدم جانباً من كنائسهم وحجر عليهم ان يبيعوا النبيذ .

ولك ان تتصور هذه السماحة الدينية التي لن تجدها الا في صفوف المسلمين حيث ينمى عالم ديني وهو ابن اياس على السلطان اضطهاده للمسيحيين ومنعه اياهم من ان يبيعوا النبيذ الذي حلال في شريعتهم .

ويجمل ابن اياس القول في السلطان جقمق فيقول : وبالجمل كانت محاسنة أكثر من مساوئه ، وكان خيار ملوك الترك من الجراكسة بالنسبة الى غيره من الملوك .

سلطنة الملك المنصور أبو السعادات :

في الحادي والعشرين من المحرم بويع بالسلطنة الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان ، ابن الملك الظاهر جقمق العلاني . وكانت سنة يوم بويع تسع عشرة سنة وتولى اتابكية العسكر الأمير اينال العلاني .

خلع المنصور أبو السعادات :

لم تكن تولية المنصور أبو السعادات ، الا ريثما يتفق امراء المماليك فيما بينهم على تولية واحد منهم ، ولذلك فلم يمض شهر وبعض شهر حتى اجتمع امراء المماليك حول الاتابكي اينال العلاني وأرغموه على ان يتولى السلطنة . وحاصر اينال السلطان المنصور في القلعة ، وقطع عنه الماء والطعام ، ولم تلبث المماليك ان تفرقت من حول السلطان ، فاستولى اينال على القلعة ، وخلع الملك المنصور عثمان وبعث به سجيناً الى الاسكندرية ، وكانت مدة سلطنته ثلاثاً وأربعين يوماً .

سلطنة الملك الأشرف اينال :

بويع بالسلطنة بعد خلع المنصور في يوم الاثنين ثامن ربيع الأول ولقب بالملك الأشرف .

«واصل الملك الأشرف جركسى الجنسية جلبه الخواجه علاء الدين على فاشتراه الظاهر برقوق ، واعتقه ابنه فرج من بعده ، ثم ثار في سلم الترقى على النظام المألوف ، تولى في عهد برسبای ادارة بعض المدن في الشام ، ثم جاء الى القاهرة وأنعم عليه بامرة مائة وتقدمة ألف وفي عام ٨٤٩ عين اثابكا للعسكر ، وكان ذلك مسبيله الى السلطنة . ولم يكد يستهل سلطنته حتى واجهته الفتن المعهودة من الأمراء ، فقد استقل الجميع نفقة البيعة التي انفقها عليهم ، وطالبوا بالزید . فاعتذر بضيق ذات اليد ، ووعد باجزال العطاء لهم عند ميسرة .

الاحتفال بفتح مدينة القسطنطينية :

وقبيل آخر هذا العام ، وفد من السلطان محمد الفاتح ، قاض (سفير) لابلاغ سلطان مصر بطريقة رسمية نبأ فتح مدينة القسطنطينية ، قدمت له البشائر في القلعة : واستقبل أعظم استقبال ، ونودي في القاهرة بالزينة لعدة أيام .

وعين السلطان اينال وفدا من لدنه للسفر الى القسطنطينية لتهنئة السلطان الفاتح رسميا باسمه واسم مصر .

ولعل ذلك يكشف عن مدى حسن العلاقات بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية في ذلك الوقت .

١٤٥٤ م - ٨٩٥ هـ : فتنة المماليك ضد السلطان :

قام مماليك السلطان الذين يعيشون في الطباق بالقلعة وهم الذين كانوا يسمون بالجلبان ، بفتنة ، فراحوا يهجمون على محلات التجار وينهبونها . ثم امتد هجومهم الى مخازن وشون الأمراء انفسهم .

وفي شهر رجب من هذه السنة تطورت الفتنة الى ثورة عامة ضد السلطان اينال تزعمها من يدعى شبك بن مهدي - وانحاز اليه الخليفة العباسي حمزة رغم تحذير السلطان له - ولكن اينال استطاع أن يقضى على الثورة وأن يقبض على الخليفة .

وقد حاول الخليفة ان يتحدى السلطان ، فاعلن في حضرة الامراء والقضاة انه خلع نفسه من الخلافة وخلع السلطان اينال من السلطنة . ولكن قاضى القضاة علم الدين صالح البلقيني افتى بأنه وقد خلع نفسه ابتداء ، لم يملك السلطة لخلع السلطان لزوال صفته .

وسجن الخليفة العباسي بعد ان خلع نفسه ، وعين أخوه أبو المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله ، ولقب بالمستنجد بالله .

١٤٥٦ م - ٨٦١ هـ : ارسال حملات لمحاربة التركمان :

هاجمت دويلة التركمان التي كانت خاضعة لسيادة مصر ، أطراف الدولة العثمانية واستولت على مدينة طرطوس في آسيا الصغرى ، فخشى السلطان اينال من ان يؤدي هذه الحركة الى اساءة العلاقات بين مصر والدولة العثمانية ، فأرسل الى دويلة التركمان حملة تأديبية بقيادة الأمير خشقدم ، فأتمت مأموريته بنجاح .

١٤٥٧ م - ٨٦٢ هـ : اصلاح النظام النقدي :

تصاعدت في هذه السنة الشكوى من سوء النقود المتداولة وبلغت ذروتها اذ كثر فيها الغش والتدليس .

فأصدر السلطان في ربيع الأول من هذه السنة مرسوما بتسعير الذهب والفضة ، وضرب السلطان فضة جديدة وسعر الدينار الذهب بثلاثمائة والفضة الجديدة على اساس ان كل أشرفى (دينار ذهبى) بخمسة وعشرين نصفاً عددية من خالص الفضة .

وابطل سائر المعاملات من الفضة المفشوشة ، والتي كان الدينار قد وصل منها الى اربعمائة وستين درهما .

فخسر الناس ثلث اموالهم من هذه الحركة ، ولكن انصاح امر العملة يعد فسادها .

يقول ابن اياس ففرحت طائفة بهذا الاصلاح واغتمت طائفة .

١٤٥٨ م - ٨٦٣ هـ : مصر تبعث بأسطول الى قبرص :

وفي هذه السنة وقع خلاف بين (جيمس) ابن ملك قبرص وبين أخته شالوت على العرش ، فبعث جيمس يستنجد بمصر ، في الوقت الذى لجأت فيه شارلوت الى رودس ، فبعث اينال بنجدة للملك جيمس ، فانتصر على أخته وانصارها بفضل المعونة المصرية . . . وكانت هذه الحركة مظهراً لمباشرة مصر سلطانها على قبرص .

١٤٥٩ م - ٨٦٤ هـ : انتشار الطاعون :

وتفشى هذا الوباء الذى أصبح من سمات هذه الفترة من تاريخ مصر والعالم ونعنى به الطاعون - وقد بدأ تفشيه هذه المرة في الشام ومن الشام امتد الى مصر - وببدو ان الوباء هذه المرة كان شديداً الى الحد الذى هلك به ثلث المماليك والأطفال والجواري والعبيد والغرباء ، وظل يعمل طوال خمسة شهور ، قبل أن يتوقف فجأة ، كما بدأ فجأة .

خشقدم يقضى على الفتنة ضده :

وجرت حركات القبض والاعتقال والعزل ، والترقية ووقعت الفتن المعنادة ، وأراد المماليك أن يكرروا لعبتهم فيعينوا الأتابك الجديد جرباش سلطانا ولكن الحركة فشلت وظل خشقدم سلطانا . ولكى يحتفظ بهذا السلطان راح يقتل من أمراء المماليك كل من يتصور أنه يهدده في ملكه ، كما فعل بالأمير مانى نائب جدة ، مجرد أن كثرت أمواله ، وبرزت شخصيته ، وبهر الناس بكرمه ومنشئاته الخيرية وفوق ذلك فصيح لسانه العربى ، فكان ذاك سببا لقتله بأمر خشقدم .

١٤٦٧ م - ٨٧٢ : وفاة خشقدم :

وقع خشقدم فريسة المرض الذى استمر أربعين يوما ، مات فى نهايتها وكان موته يوم السبت العاشر من ربيع الأول من هذه السنة ، وكان عمره يوم وفاته خمسا وسبعين سنة ، ومدة سلطنته بالديار المصرية ست سنوات وخمسة أشهر وعشرين يوما .

وكانت مماليكه السلطانية التى تحمل اسمه يوم مات أربعة آلاف مملوك .

سلطنة الملك الظاهر بلباى المؤيدى :

وبويع فى نفس اليوم الذى مات فيه خشقدم أى يوم السبت العاشر من ربيع الأول أتابك العسكر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى .

وقد أطلق عليه اسم بلباى المجنون ، وقد غلب عليه منذ ولى السلطنة داوداره الأمير خيربك ، فلم يكن بلباى يتصرف فى شىء من أمور المملكة الا بأمره وإشارته ، فكان إذا سئل عن شىء يقول اشش كنت أنا قل له - أى قل لخيربك - فأطلقت عليه العامة السلطان « قل له » .

خلع الملك الظاهر بلباى :

فى يوم السبت السابع من جمادى الأول خلع السلطان بلباى بعد حكم لم يكمل شهرين وقبض عليه وأرسل الى سجن الاسكندرية .
سلطنة الملك الظاهر أبو سعيد :

وبويع فى ذات اليوم أتابك العسكر تمر بفا الظاهرى ولقب بالملك الظاهر أبو سعيد ، ولكن ملكه لم يدم بدوره أكثر من شهرين . فقد اتفق خيربك مع أمراء المماليك على توليته بدلا من السلطان ، وقبض على السلطان بالفعل فى يوم ٦ رجب من هذه السنة ، وجلس على سرير الملك ولقب نفسه بالملك الظاهر - ولكن لم يصبح الصباح

١٤٦٠ م - ٨٦٥ هـ : موت السلطان اينال :

في يوم الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، مات الملك الأشرف اينال ، وكان عمره يوم مات احدى وثمانين سنة ، حكم منها ثمانى سنوات وشهرين وستة أيام .
ثار عليه المماليك فيها سبع مرات .

وكان اينال قد عين ابنه اتابكا للعسكر ، فلما اشتد عليه المرض خلع نفسه وعهد بالسلطنة الى ابنه .

يقول ابن اياس عنه : كان طويل القامة اسمر اللون ، عربى الوجه ، ضعيف العوارض ، وكان يعرف باينال الاجرود وكان ملكا هينا قليل الأذى ولولا جور مماليكه في حق الناس لكان خير ملوك الجراكسة .

سلطنة الملك المؤيد احمد ابو الفتح العلائى الناصرى :

بويع بالسلطنة في عهد ابيه كما قلدنا ، ولقب بالملك المؤيد وكان عمره يوم بويع بالسلطنة ثمان وثلاثين سنة .

وقد تولى اتابكية العسكر خشقدم الناصرى .

خلع الملك المؤيد :

وعلى الرغم من أن السلطان الجديد ، كان كفؤا للسلطنة ، وكان كآبيه قليل الأذى محبا للناس . . فان المماليك الجلبان الذين استمروا الحصول على نفقة بيعة كلما ولى سلطان جديد كرروا فعلتهم عندما اجبروا الاتابك اينال على مخاصمة السلطان وتولى السلطنة ، فقد حرضوا خشقدم الاتابك على خلع السلطان ، والتسلطن بدلا عنه .

سلطنة الملك الظاهر ابو سعيد :

وفي يوم السبت ١٧ رمضان تم خلع الملك المؤيد احمد ومبايعة الاتابكى خشقدم بمعرفة الخليفة والقضاة الاربعة والأمراء . وكانت مدة الملك أحمد في السلطنة لاتزيد على أربعة أشهر وثلاثة أيام .

اما خشقدم فقد لقب بالملك الظاهر .

وقد عرف خشقدم بالناصرى نسبة الى التاجر الذى جلبه الى مصر وهو الخواجه ناصر الدين . وكان الذى اشتراه هو الملك المؤيد شيخ ثم اعتقه وعينه جمسدارا في صكيا . وفي عهد الملك الظاهر جقمق أنعم عليه بأمانة عشرة وفي سنة ٨٥٠ هـ ترقى الى رتبة أمير مائة وتقدمة ألف بمدينة دمشق . ثم حضر الى مصر فعين أمير سلاح في دولة اينال فاتابكيا في عهد ابنه فسلطانا كما راينا .

حتى كان الأمير قايتباي قد أقنع باقى الأمراء على أحقيته بالسلطنة ، واستولى على القلعة و قبض على الأمير خيربك وأفرج عن السلطان الأسبق تمرغا . وسمح له أن يسافر الى دمياط .

ولا يعد خيربك من سلاطين المماليك ، حيث لم يكمل حكمه الا بضعة ساعات من الليل .

سلطنة الملك الأشرف قايتباي :

فى نفس اليوم الذى كان خيربك يخلع الظاهر تمرغا الى فى يوم الاثنين السادس من رجب ، بايع الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء الأتابكى قايتباي بالسلطنة ، رغم معارضته التى وصلت الى حد البكاء ، فأصر الأمراء والنجند على توليته فانلذروهم انه لن يدفع لهم ما اعتادوا من نفقات البيعة فأجابوه الى هذا الشرط .

وهكذا وصل قايتباي الى سبندر له ان يكون المع المماليك الجراكسة الى كرسى السلطنة .

وليس فى حياته قبل وصوله الى السلطنة ما يخالف حياة بقية السلاطين الجراكسة فقد جلبه الى مصر الخواجة محمود واشتراه منه الملك الأشرف بربسباي بخمسين ديناراً ، ثم راح يتدرج بعد ان اعتق هذا المدرج المألوف . . . الى ان سار أتابكيا .

خروج شاه سوار على سلطة مصر :

واجه قايتباي بمجرد جلوسه على عرش مصر ، فتنة شنها الأمير شاه سوار احد أمراء دولة التركمان النابعة لمصر ، فقد طرد اخاه الأمير التابع لمصر ، والتف حوله التركمان ، واستغل العثمانيون هذه الفتنة لأول مرة ، ليتدخلوا فى شئون دولة تابعة لمصر ، فأيدوا شاه سوار ، الذى اشتد ساعده بهذا النأييد فأعلن استقلاله وضرب السكة (النقود) باسمه ، ثم قويت مطامعه فشرع بهاجم اطراف الدولة المملوكية .

شاه سوار يهزم الحملة المصرية :

تعجل قايتباي الحوادث على ما يقول ابن اياس ، فأسرع بإرسال حملة لاختراع شاه سوار واعادة أميرها المخاوع ، ولكن شاه سوار تمكن من هزيمة هذه الحملة واسر قائدها الأتابكى قلقشير نفسه ، كما قتل كثيراً من الأمراء المقدمين فى هذه الحملة ، وكان طبيعياً ان يشجعه هذا النصر على مزيد من التهاجم والعدوان فاستولى على مدينة عينتاب ، وشرع يهدد مدينة حلب نفسها .

١٤٧٢ م - ٨٧٧ هـ : الأمير يشبك النواذر يهزم شاه سوار :

ظل شاه سوار يهزم التجريدات التى يبعث بها قايتباي اليه ، ويخلط الشدة

باللين ، فيتظاهر بالخضوع للسلطان أحيانا ، ليستأنف اعتدائه من جديد .
وأخيرا رأى قايتباى أن يحسم هذه الفضيحة ، فألف جيشا كبيرا ووضع على رأسه أقدر أمرائه وهو الأمير يشبك الدوادار ، وخوله سلطة مطلقة حيثما حل وأينما سار .

فاستطاع الأمير يشبك أخيرا أن يهزم شاه سوار وأن يسترد منه المدن التى استولى عليها وهى أدنه وطرسوس وعينتاب وهرب شاه سوار وأهله واحتفى بقلعة زمنوطو الحصينة . لكن رجاله بدأوا ينفرون عنه ، فأظهر الخضوع والاستعداد لأن يكون تابعا للسلطان كما كان ، وأن يقدم كل عام ما اعتاد أن يقدمه من مال للسلطان . وانتهى به الأمر الى أن يسلم نفسه فجىء به أسيرا الى القاهرة يوم الاثنين الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة .

وكان يوم وصوله من الأيام التى ارتجت لها القاهرة . « فقد زينت احتفالا بهذا النصر زينة حافلة ، وبلغ أجر البيوت على الشارع الذى كان مقدرا أن يسير فيه شاه سوار ، أربع أشرفيات ، وأجرة كل دكان أشرفى ذهب ، وذلك للفرجة على شاه سوار ، الذى قتل العباد ويتم الأطفال ونهب الأموال » .
وشنق شاه سوار وأخوته على باب زويلة . .

وهكذا انتهت فتنة شاه سوار التى كلفت الدولة ما كلفت من أموال ورجال وجهود طوال خمس سنوات .

حسن الطويل ملك العراقيين يهدد الدولة :

لم تكد متاعب قايتباى تنتهى من شاه سوار ، حتى جاء خطر جديد بمن يسمى فى كتب التاريخ العربية حسن بك الطويل ، وكان قد ملك العراقيين وراح يتوعد الى قايتباى فى بادىء الأمر ، ولكن لما ان منيت جيوش مصر بالهزيمة ازاء شاه سوار فى بادىء الأمر ، بدأ يتنكر لمصر ويستخف بها ، فشرع يغير على اطراف الدولة . ثم راح يعرض شاه بضائع الذى ولته مصر على دولة شاه سوار أن ينحاز اليه ويتبعه ، ولكن شاه بضائع أرسل ما وصله من رسائل الى قايتباى ، الذى انتدب الأمير يشبك الدوادار مرة أخرى للحرب حسن الطويل .

فغزا يشبك بحيشه عبر بلاد الشام حتى وصل الى نهر الفرات حيث تقابل مع جيش حسن الطويل عند مدينة « البيرة » فانتصر عليه وتراجع حسن الطويل الى ما وراء نهر الفرات . وشرع يرأسل دول الغرب وخاصة البندقية ، ليعاونوه فى حربه ضد سلطان مصر عن طريق الغارة البحرية على مصر ، ثم زاد على ذلك عرضه محاربة الدولة العثمانية فى ذات الوقت اذا ساعدته دول الغرب .

وعندما وصلت هذه الأنباء الى السلطان محمد الفاتح أرسل الى قايتباى يعرض استعداداه للتعاون مع مصر للقضاء على حسن الطويل .

ولم تسفر جهود حسن الطويل مع دول الغرب الى اى نتيجة ، وأدرك انه أصبح وحيدا فى الميدان ضد أكبر قوتين فى الشرق وهما مصر والدولة العثمانية فأرسل الى قايتباى يتقرب اليه ويمتدّر عما وقع منه ، ويطلب منه العفو . . . فأجابته قايتباى الى ذلك .

١٤٧٥ م - ٨٨٠ هـ : انشاء منطقة الأزبكية :

فى هذه السنة شرع الأتابكى الأمير ازبك فى تعمير المنطقة التى سميت فيما بعد بالأزبكية نسبة اليه ، وكان قد بدأ بتعمير مناهج (١) الجماله فى هذه المنطقة فلم تلبث أن حسنت فى عينه « فبنى عدة قاعات جليلة ثم دورا ومقعدا ومبشيتات وحواصل وغير ذلك . ثم أحضر أبقارا ومجاريث ، وجرف الكيمان « التلال » التى كانت هناك ومهدّها ثم حفر بها بركة الأزبكية .

وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى ، ثم بنى حول البركة رصيفا . وقيل انه صرف على ذلك أكثر من مائتى ألف دينار .

واقتردى بقية الأمراء ووجهاء الناس بالآتابكى ، فأنشأوا القصور الفاخرة والبيوت العامرة حول البركة ، وظلت عماراتها فى ازدياد ، بعد ان أحبها الناس ورغبوا فى سكناها .

وقد أنشأ بها الأمير ازبك جامعا كبيرا ، وأنشأ حول الجامع الربوع والحمامات والقياصرة والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع وهكذا أصبحت الأزبكية مدينة عامرة .

وكان عند فتح سد هذه البركة تجتمع عنده الأمراء المقدمون بالقصر وتأتى الناس للفرجة أفواجا ، ويكون لها يوم مشهود . وكان يصنع فى كل سنة وقدة هائلة لم يسمع بمثلها ، وينفق بها فى تلك الليلة أموالا جمة بسبب الفرجة ويضرب حول البركة عدة خيام ويقع بها من القصف والفرجة أشياء غريبة وتكون ليلة حافلة (٢) .

(١) ظلت هذه المنطقة حتى الثلاثينات تدمم باسم شارع المناخ إشارة الى هذا التاريخ الى ان ابدل هذا الاسم باسم ميد الخالق ثروت . وليس هنا ما هو اقبح من العدوان على الاسماء التاريخية التى تذكر بصفحات من تاريخ البلاد الى اسماء أشخاص ، اذا أريد تكريمهم فيجب ان تطبق أسماؤهم على شوارع أو منشآت جديدة .

(٢) أطلنا فى النقل من أبى اياس فى وصفه لمنطقة الأزبكية ، وقد ظلت الأزبكية تتمتع - بشهرتها - كمناطقة للسرور والمباهج والمتعة حتى مطلع القرن العشرين - اما اليوم فلم يبق منها الا هذه الاشلاء من البقية الأزبكية .

١٤٧٦ م - ٨٨١ هـ : نفشى الطاعون :

نفشى الطاعون فى هذه السنة بالقاهرة ، وهو الطاعون الثانى الذى وقع فى دولة الاشرف قايتباى ، ووصل الطاعون الى ذروته فى شهر ذى القعدة ، فمات به عدد كبير من الأمراء وأعيان البلاد وكبرائها بما فى ذلك ابن الخليفة العباسى ، وبطريك النصارى اليعاقبة . أما أفراد الشعب الفقراء ، فقد كان الطاعون يفرى بهم فربما الى أن توقف من تلقاء نفسه .

١٤٧٧ م - ٨٨٢ هـ : انشاء حصن قايتباى :

كان قايتباى ككل ملك كبير عاكفا على الانشاء والتعمير ، وقد شملت عنايته أرجاء دولته كلها ، وحظيت منه الاسكندرية بنصيب كبير من الاهتمام بتحسينها ضد الفارات المحتملة ، فأقام حصنه المشهور الذى لا يزال باقيا حتى الآن كأثر خالد لهذا العهد من قوة المبانى وعظمة الانشاء ، وفن المعمار وذروته - وقد أقامها على أساس منارة الاسكندرية الشهيرة - التى كانت فى ذلك الوقت قد تخربت وقد أقام قايتباى فى الاسكندرية بمناسبة الانتهاء من بناء حصنه عدة أسابيع ، زار فيها المدن المحيطة بالاسكندرية وأصاح شئونها .

رحلة قايتباى الى الشام ووصوله الى نهر الفرات :

وفاجأ قايتباى أمراءه فى مصر والشام برحلة خاطفة الى الشام لم يصحب معه فيها سوى أربعين نفرا من البجند ، وذلك ليفتش أحوال القطر الشامى ، ووصل فى تجواله حتى مدينة حاب ، ثم وصل الى نهر الفرات وأقام عليه بضعة أيام . التجأ اليه خلالها محمد اعزلو ابن حسن الطويل ليعيش فى بلاطه .

وعاد قايتباى من هذه الرحلة الفذة فى تاريخ سلاطين المماليك بعد أن أمضى فيها أربعة أشهر .

١٤٧٨ م - ٨٨٣ هـ : وفاة حسن الطويل :

وفى شعبان من هذه السنة جاءت الأخبار بموت حسن الطويل ملك العرقيين . وهكذا تخلص قايتباى من عدو طالما أرقه .

١٤٧٩ م - ٨٨٤ هـ : قايتباى يحج :

فى هذه السنة حج قايتباى ، وتصدق بالوفد الدنانير على فقراء مكة وأظهر

وصول جم أخو السلطان بايزيد الى مصر :

وفي شعبان من هذه السنة وصل الى القاهرة الأمير جم بن عثمان أخو السلطان العثماني بايزيد اخلاف وقع بين الأخوين فرحب به قايتباي ، وأحاطه بعناية كبيرة نكايه في أخيه ، فكانت هذه الحركة سببا لافساد العلاقات بين مصر والدولة العثمانية .

قايتباي يجدد الحرم النبوي :

وفي رمضان من هذه السنة ، أصدر قايتباي أمره بتجديد بناء المسجد النبوي الشريف في المدينة ، واعاد بناء القبة الشريفة والمآذن ، منقفا في ذلك مائة ألف دينار بحيث أصبح المسجد النبوي تحفة معمارية .

١٤٨٢ م - ٨٨٧ هـ : هزيمة جم بن عثمان على يد أخيه :

لم يكن التجاء جم بن عثمان الى مصر ، الا ليستعين بقايتباي ضد أخيه ، وعلى الرغم من ان قايتباي بالغ في كرمه فلم يدر في خاطره أن يعاونه بجيش ضد أخيه ، فلما يؤس جم من هذه الناحية فكر في مفادرة مصر ، وعبثا حاول قايتباي أن يثنيه عن حرب أخيه بالحيلولة بينه وبين مفادرة مصر ، حتى لقد قيل أن الأمير بزبك قد اشتد على الأمير جم لمنعته ولكن الأمير أصر على مفادرة مصر ، ففادرها على كره من قايتباي على ما يقول ابن اياس ، فتوجه الى بلاد قرمان . فأرسل اليه بايزيد جيوتا هزمه وأجبره على الفرار ، فركب سفينة في البحر الأبيض ، فلم يلبث أن وقع في أسر بعض الافرنج وأمضى ما بقى بعد ذلك من حياته في ذل الأسر ، والاتجار به بين شتى الدول ، لاستخدامه في مناوراتها السياسية ضد الدولة العثمانية ..

١٤٨٤ م - ٨٨٩ هـ : اصطدام الجيوش العثمانية بالجيوش المصرية :

لم يغفر السلطان بايزيد لقايتباي ايواء جم ، وتمكينه بعد ذلك من اشهار السلاح في وجهه ، ولم يصدق بايزيد الا أن قايتباي هو الذي سهل لجم عملية الخروج من مصر لمحاربته .

ولذلك فقد أنتهز فرصة تمرد على دولات أخى شاه سوار زعيم الشاه البيضاء على الدولة المصرية ، حتى أمدته بالتشجيع والسلاح والجند العثماني ، فتصدى لهم نائب حلب ، فدارت عليه الدائرة وقتل ، ولكن الأمراء المصريين استأنفوا المعركة فانهزم عسكر على دولات وحلفاؤه من العثمانيين .

الخضوع والنواضع ، ثم فصد بعد الحج الى المدينة المنورة فتدق نبيها من الأمرال .
مثل ما انفق في مكة .

ولا تزال آثاره في حرم مكة والمدينة باقية حتى الآن .

وعندما عاد الى مصر كتب الى الأمراء أن لا يخرج احد الى ملاقاته . .

١٤٨٠ م - ٨٨٥ هـ : مصرع الأمير يشبك الدوادار :

أرسل قايتباي الأمير يشبك الدوادار على رأس جيش لخماد فتنة في الشام .
قام بها سيف أمير آل فضل الذي قتل نائب حماة وأعان العصيان . ولم يكذ الأمير
يشبك يصل الى حماة وحالب على رأس جيشه حتى راح سيف يفر من أمامه ، حتى
انتهى به المطاف خارج حدود الدوالة في مدينة الرها ، ولكن الأمير يشبك أبى إلا أن
يتبعه ، فمهر هو وجنوده نهر الفرات وضرب الحصار على مدينة الرها .

وكانت تابعة ليعقوب بن حسن الطويل . وحاول أميرها بانبدر أن يفاوض يشبك
على أساس أن يسلمه سيف شريطة أن يرفع الحصار عن المدينة ، ولكن يشبك أصر
على فرض إرادته بالعنف ، فأنتهى الأمر الى أن دارت الدائرة عليه ، وفر عنه أكثر
عساكره ، ووقع هو وعدة من أمراء جيشه أسرى .

« وقطع بانبدر رأسه » .

وكانت هذه لظمة شديدة أصابت قايتباي وقرر أن يخرج بنفسه أنفا لهجوم
محتمل قد يقوم به يعقوب بن حسن الطويل بعد هذا الانتصار الذي لم يكن
قد علم به .

ورأى أن يبعث بالأمر الى يربك الأتابكي ، ليستقر في حلب ويستعد للدفاع عنها
ريثما يتم استعداداه .

١٤٨١ م - ٨٨٦ هـ : وفاة السلطان محمد الفاتح :

في الرابع من ربيع الأول من هذه السنة مات السلطان محمد الفاتح خان أعظم
سلاطين آل عثمان لفتح مدينة القسطنطينية وكان عمره يوم وفاته لا يتجاوز
الـ١٣ سنة والخمسين سنة حكم منها واحدا وثلاثين سنة فتح خلالها اثنتي عشرة
مملكة ومائتي مدينة وسلطنتين عظيمتين .

وكان السلطنة من بعده بايزيد الثاني .

وكانت هذه أول معركة مباشرة تدور بين جنود الدولة العثمانية والجنود المصرية واللى ظلت مستمرة حتى انتهت باحتلال العثمانيين لمصر كما سنرى .

وقد حاول قايتباي ، أن يصلح ما بينه وبين بايزيد ، فعمل على خطب وده ، وبعث إليه سفيرا عرف بالمهارة الدبلوماسية ، كما أرسل إليه تقليدا من الخليفة العباسي يوليه كل ما تحت يده من بلاد ، وما قد يفتحه بعد ذلك ولكن هذه المحاولة كانت بغير جدوى .

وكان لابد من اصطدام جديد حاسم يقع بين جيوش الدولتين .

١٤٨٦ م - ٨٩١ هـ : هزيمة العثمانيين امام الجيش المصري :

وقع الاصطدام المتوقع في شهر صفر من هذه السنة حيث التقى جيش مصري ضخم تحت قيادة الأمير يزبك أتابك العسكر المصري ، مع جيش عثماني في أقصى الشمال فهزم الجيش العثماني هزيمة ساحقة ، حتى قيل أن عدة من قتل من العثمانيين يربو على أربعين ألفا ، وقبض على قائد الجيش العثماني أحمد بن هرسك ، واستولى على الأعلام العثمانية واهتزت القاهرة لهذا النصر الكبير ، وأقيمت الزينات وسارت المواكب النى استعرضت فيها الأعلام العثمانية وبعض رعوس القادة التى أرسلت على سبيل البشارة .

وأخيرا سار الموكب الكبير عندما وصل الأتابكى يزبك ، وهو يقود أمامه الأسرى من أمراء الجيش العثماني وسلاسل الحديد في أعناقهم وعلى رأسهم قائد الجيش العام أحمد بن هرسك .

١٤٨٦ م - ٨٩٢ هـ : استغاثة أمير غرناطة بقايتباي :

وبينما كان سلطان الاسلام قائما في مصر يدود عن هذه الرقعة من العالم العربى والاسلامى ضد الافرنج ، وكان العثمانيون لا يزالون يقدمون حدود الاسلام في أوروبا نحو المغرب سنة بعد أخرى . وكانت آخر قلاع الاسلام في الأندلس ممثلة في دولة بنى الأحمر في مدينة غرناطة في النزع الأخير فأرسل أمير غرناطة استغاثة لقايتباي طالبا منه أن يمدّه بجنود لترفع الحصار عن غرناطة ، ولكن الشقة بين مصر والأندلس كانت جد بعيدة فحاول قايتباي أن يساعده باستعمال الضغط ضد مسيحي الشرق ، وبناء كنيسة القيامة . فهدد اذا لم يرفع ملك أشبليه الحصار عن غرناطة فسوف يهدم الكنيسة ، ولكن ذلك التهديد كان بغير اثر .

١٤٨٧ م - ٨٩٣ هـ : انتصار الأمير يزبك الثانى على العثمانيين :

لم يكن النصر الذى احرزته الجيوش المصرية على الجيوش العثمانية حاسما ولذلك فهم لم يتوقفوا عن معاودة الهجوم على حدود الشام الشمالية واستولوا على بعض القلاع المصرية ، كما أرسل بايزيد أسطولا فى البحر الأبيض ليحول دون وصول الجيش المصرى الى شمال الشام .

ولكن قايتباى تمكن من إرسال جيش ضخم انفق على تجهيزه ألف ألف دينار و هو ما لم يسمع بمثله من قبل وجعل على رأسه الأمير يزبك .

وفى الثامن من رمضان من هذه السنة ، دارت معركة كبيرة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان ، وانتهت بانتصار الجيش المصرى على الجيش العثمانى والأسطول العثمانى انتصارا حاسما .

ومن جديد ارتجت القاهرة لهذا النصر الجديد ، وزينت وأقيمت بها احتفالات لم تشهد البلاد لها مثيلا من قبل طوال سبعة أيام .

وعندما وصل الأمر بيزبك الى القاهرة ، سار فى موكب نصره عدد كبير من الجنود العثمانيين الذين انحازوا الى جانب الجيش المصرى وآثروا أن يحضروا مختارين الى مصر ، فتألفت منهم كتيبة خاصة بهم أطلق عليها منذ ذلك الوقت الفرقة « العثمانية » .

١٤٨٨ م - ٨٩٤ هـ : قايتباى يخلع نفسه من السلطة :

أرهقت هذه الحملات المستمرة وما كان قايتباى يتكبد فى سبيل تجهيزها من مشقات ومعاناة ، وضغط على الشعب لتحصيل الأموال اللازمة لها ، أعصابه . وكان يضاعف فى ارهاقه فتن المماليك التى لم تكن تنتهى ، فلا يكادون يتهياون للخروج فى حملة الا وبطالبون بالمال ، وعندما يعودون منها منتصرين يطالبون بالمال الاكثر ، ويستغلون كل ما يعطى لهم وبهددون بالثورة والتمرد .

وكان قايتباى قد أصبح شيخا اثقلت السنون كاهله ، ولذلك فقد فاجأ الأمراء والمماليك بأن جمع الخليفة والقضاة والأمراء فى يوم السبت الرابع من ربيع الثانى من هذه السنة ثم قال لهم :

ان هؤلاء المماليك يرومون منى نفقة ، وقد نفذ جميع ما كان فى الخزائن من المال على التجاريد ولم يبق فيها شئ من المال .

ثم أقسم بالله انه أنفق على التجاريد من حين ولى السلطنة الى ذلك الوقت سبعة آلاف ألف دينار ومائة وخمسة وستين ألف دينار .

ثم التفت صوب الأمراء وقال لهم : اختاروا من تسلطونه غيرى واشهدوا أيها
القضاة أننى خلعت نفسى .

ولكن القضاة والأمراء رفضوا هذه الاستقالة ، وخشى المتمردون من عواقب
تمردهم وانتهى الأمر بمصالحة السلطان ورضاء الممالك ببعض المال الذى كانوا
يطلبون به .

وجدد الخليفة العباسى والقضاة الأربعة والأمراء مبايعة السلطان للاستقرار
فى السلطنة .

١٤٩٠ م - ٨٩٦ هـ : تفشى الطاعون فى مصر :

وتفشى الطاعون فى مصر فى هذه السنة ابتداء من شهر جمادى الأولى . وهو أول
طاعون يقع فى مصر منذ عام ٨٨١ هـ أى أنه انقضى على مصر ستة عشر عاما نظيفة
من الطاعون ، وهو الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، ويقول ابن
ياس لتعليل سبب انتشار هذه الطواعين أنه كان قد كثر بمصر : الزنا واللواط
وشرب الخمر وأكل الربا وجور الممالك فى حق الناس ، وقد روى عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا الا أخذوا بالفناء » .

١٤٩٢ م - ٨٩٨ هـ : عقد الصلح بين قايتباى وبايزيد :

استقر الرأى بعد مفاوضات متواصلة بين السلطان قايتباى والسلطان بايزيد على
عقد صلح بين الملكين على أساس أن يرسل بايزيد مفاتيح القلاع التى استولى عليها
الى مصر اشارة الى ردها الى ملكية مصر ، على أن يطلق قايتباى من عنده من الأسرى
العثمانيين .

وتبادل السلطانان الهدايا والمجاملات الودية وهكذا فتحت صفحة جديدة من
الود بين الدولتين .

اكتشاف امريكا :

وفى هذه السنة وصل كريستوف كولمبس الى ما تصور أنه الهند وذلك عن طريق
السير اليها بالاتجاه فى المحيط الأطلسى غربا مثبتا بذلك كروية الأرض ومهبطا السبيل
لاكتشاف هاتين القارتين اللتين سيطلق عليهما فيما بعد اسم ملاح من ملاحيه وهو
امرجو ونعنى بهما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية ، أو ما أصبح يطلق عليه اسم
العام الجديد ، والذى لن يلبث أن ينقل مركز الثقل فى الحضارة والنشاط الإنسانى
من الشرق الأوسط الى غرب أوروبا .

سقوط مدينة غرناطة في الأندلس :

وفي يناير من هذه السنة الميلادية « ١٤٩٢ » صفيت آخر جيوب المقاومة الإسلامية في مدينة غرناطة . فسقطت بآيدي الأسبانيين وهكذا طويت صفحة الاسلام في اسبانيا والتي استمرت ثمانمائة سنة .

وقد سحب سقوط غرناطة قتل كل من لم ينتصر من المسلمين أو يفادر البلاد نهائيا فجلت آخر بقايا المسلمين من شبه الجزيرة كما أجلى اليهود الذين عاشوا عصرهم الذهبي في ظل الدولة الإسلامية حتى أن عدة من هاجر من اسبانيا بعد سقوط دولة الاسلام بها ١٦٠ ألف يهودي .

١٤٩٥ م - ٩٠٠ هـ : استقالة الأمير يزبك من الأتابكية :

قام نزاع حاد بين ممالك السلطان الجلبان ، وبين الأمراء وعلى رأسهم الأمير يزبك وقد تعرضت حياة الأسر يزبك للخطر لولا حماية السلطان له .

فطلب الأمير يزبك من السلطان أعفائه من الأتابكية ، والسماح له بأن يسافر الى مكة ليجاوز بها فأذن له قايتباي .

١٤٩٦ م - ٩٠١ هـ : الاعتداء على السلطان :

وكان طبيعيا ، وقد وصل طغيان الممالك الجلبان الى حد الاطاحة بأعظم من شهدت مصر من الأمراء ونعنى به الأمير يزبك ، أن يتناولوا بعد ذلك على السلطان نفسه ولذلك فقد رموا مجلسه ببعض الشباب الذي كان يمكن أن يقتله لو لم يتصادف غيابه عن المجلس في هذا اليوم . وقد ثقل هذا الحادث على السلطان ، فأمرضه واشتعلت الحمى في جسده ..

موت السلطان قايتباي :

في يوم الأحد سابع عشر من ذى القعدة توفي السلطان الملك الأشرف قايتباي الحمودى الظاهري ، وكان عمره يوم مات ستا وثمانين سنة ومدة سلطنته على مصر والشام والحرمين سعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرين يوما .

يقول ابن اياس : قد عاش عمره كله وهو في عز وشهامة من حين كان خاصكيا الى ان صار ساطانا . وما نفى قط ولا سجن ولا قيد وكان عليه سكينه ووقار . كفوا للسلطنة وافر العقل سديد الراى . عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأمور في مكانها ، ولم يكن عجولا في الأمور . وكان تقيا لم يشرب الخمر قط ، ولا الأشياء المخدرة ، وكان له اشتغال بالعلم ، كثر المطالعة في الكتب ، وله اذكار وأوراد جليلة

تتلى حتى الآن في الجوامع ، وكان معظم العلماء عارفا بمقام الناس ، وكان تابعا لطريقة الصوفية في التقشف .

عماراته ومنشئاته :

وقايتباى ثالث ثلاثة ، بالغوا في البناء والانشاء والنعيم ، وأولهم الظاهر بيبرس وثانيهم قلاوون ، وثالثهم قايتباى ، وقد لخص أمين باشا سامى هذه المنشآت على الوجه التالي :

وقد أنشأ في حكمه من المباني الفاخرة اشياء كثيرة منها مدرسة بثغر دميياط ومدرسة بثغر الاسكندرية والبرج العظيم الذى أنشاه مكان الفناء القديم والبرج الذى بثغر رشيد وأما ما أنشاه بمصر فهو الجامع الذى بالصحرى مكان تربته وجامع بالروضة وجامع برأس الكبتس وجامع بباب الخزن عند الشيخ سلطان شاه والسبيل والمكتب اللذان بقرب تحت الربع وجامع لطيف خارج باب انقرافة ، وجدد عماره قبة الامام الشافعى ، وأنشأ مدرسة بالخانقا ، وأنشأ غير ذلك عدة زوايا وأسبلة ومدارس وجوامع وصهاريج وربوع في مواضع متفرقة وجعل لها أوقافا ، وجدد عمارة قناطر أبو النجا والقناطر التى بشبرامنت وأنشأ هناك رصيفا وحصل بتمامه في أيام النيل للمسافرين وجدد عمارة قنطرة باب البحر والميدان الكبير الذى بجوار البركة الناصرية ، وجدد مقام سيدى أحمد البدوى ، وأنشأ عدة ربوع بالخشابين والجامع الأزهر وأنشأ أماكن كثيرة حصل منها النفع العام للمسلمين .

ولم يذكر أمين سامى في هذا النخيل ، ما أنشاه قايتباى في مكة والمدينة وبيت المقدس ودمشق وغيرها من مدارس وجوامع وسبل .

رخص الأسعار في سنة وفاته :

وكان السنة التى مات فيها قايتباى أرادت ان تخلد عصره الذهبى فقد بلغت الأسعار حدا من الرخص لم يسبق له مثيل ، فكان كل خمسة أرادب من القمح بدينار .

سلطنة الملك الناصر أبو السعادات :

بويع بالسلطنة يوم السبت سادس عشر من ذى القعدة ، بعد خلع ابيه قايتباى الذى كان يحتضر في هذا اليوم ، ولقب بالناصر وكنى بأبى السعادات ، وكان عمره يوم ولى السلطنة أربع عشرة سنة وعدة أشهر .

ويقول ابن اباس : ولو كان قايتباى واعيا لما جرى حوله لما قبل بسلطنته فلم يكن هذا قصده .

وفي اليوم التالى لتولى الناصر أبو السعادات السلطنة توفى قايتباى ودفن يوم الاثنين في احتفال مهيب .

وتعين الأمير قنصوه أتابكا للعسكر .

١٤٩٧ م - ٩٠٢ هـ : خلع الناصر أبو السعادات :

فام الأتابكى قنصوه بالفتنة المعتادة ليخلع السلطان الصبى . ويجلس هو على أريكة الملك . فجمع الخليفة والقضاة الأربعة في يوم الأربعاء ١٨ جمادى الأولى على باب السلسلة وطلب منهم خلع السلطان الناصر أبو السعادات . ومبايعته على السلطنة فلأجابوه الى ما طلب وبويع قنصوه بالسلطنة ونقلب بالأشرف أبى النصر .
عودة السلطان الأشرف أبو السعادات :

ولكن ممالك السلطان المقيمين فى القلعة ، نعصبوا للسلطان وحاربوا عنه ، وجرت المعارك حامية الوطيس : انتهت بهزيمة قنصوه وفر هارباً نحو الشام .
وفى يوم السبت اول جمادى الثانى طلع الخليفة الى القلعة وفى معيته القضاة الأربعة ، وأعادوا بيعة السلطان وبلوغه رشده وحقه الكامل فى التصرف فى كل شئون المملكة .

وطالب الممالك بتغيير لقب السلطان من الناصر الى الأشرف .
ولم تلبث الأخبار أن جاءت من الشام ، بانتصار الأمير اقبردى الداودار على قنصوه ووصلت رأسه المقطوعة ورءوس من معه من الأمراء وطيف بها فى شوارع القاهرة .

سوء سلوك السلطان الأشرف :

وكان اثر هذا الانتصار على السلطان الأشرف سيئاً اذ أنه انكب على شهواته وملذاته ، حتى وصل الأمر به الى أن امتنع عن مقابلة الخليفة والقضاة والأمراء ، عندما طلعوا الى القلعة ليهنئوه بعيد الفطر وذلك لانهماكه فى ألعاب الطيش .

وأصبح من أعيابه التى فتن بها ، أن تعلم كيف يعدم بيديه بعض المنكودين من المحابيس ، وكيف يقطع أيديهم وأذانهم والسنتهم . وكان لذلك اثره السيئ فى نفوس أمراء الممالك ، فأعلن اقبردى الداودار عدم رضائه عن تصرفات السلطان وأثر أن تكون السلطنة بيده ، فقام صراع بين حزب السلطان من الممالك وبين اقبردى الداودار ، وانتهى الصراع بغلبة السلطان وهزيمة اقبردى الداودار ونهب دوره ودور من ساندته من الأمراء ولكن اقبردى نجح فى الهرب الى الشام .

١٤٩٨ م - ٩٠٣ هـ : عودة الأمير يزبك للاتابكية :

ورأى أمراء الممالك أن يعيدوا الى الاتابكية الأمير يزبك الذى كان مقيماً فى مكة عساه أن يتمكن من اصلاح الأحوال .

فوصل الى مصر فى ربيع الأول من هذه السنة .

البرتغاليون يكتشفون طريق رأس الرجاء الصالح :

في رمضان من هذه السنة الموافق شهر إبريل ، توصل فاسكودى جاما على رأس مركب برتغالى لأول مرة من اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح ، دائرا بذلك حول إفريقيا وواصل إلى الهند عن طريق بحرى متصل من غرب أوربا إليها ، مبتدئا بذلك ما يعتبر انقلابا في التجارة العالمية ، والتفاف الصايبيين حول العالم الإسلامى لظعنه من الخلف ، ولم يلبث الشرق الإسلامى وخاصة مصر أن أحس بآثار هذا الانقلاب في طرق التجارة .

١٤٩٩ م - ٩٠٤ هـ : قتل السلطان الأشرف أبى السعادات :

تزايدت شرور السلطان الأشرف . وبدأ يصدر مراسيم جنونية أشبه بما كان يصدره الحاكم بأمر الله وتفشى الطاعون في مصر ، وهكذا تحالفت شرور السلطان وفتن المماليك وضراوة الوباء على الشعب .

فقرر بعض المماليك أن يتخاصموا من السلطان فكمنوا له يوم الأربعاء خامس عشر من ربيع الأول وكان مقيما في البر الغربى للنيل عند الطالبيّة ، ياهو ويعربد ويسكر بين جوقات المغنين ، واصحاب ملاهيبي خيال الظل ، وظفر به المتآمرون وقتلوه شر قتلة .

وكان سنه يوم قتل سبعة عشر عاما ، حكم فيها سنتين وثلاثة اشهر وتسعة عشر يوما وكانت ايامه كلها فتن وشرور وحروب مستمرة .

سلطنة الملك الظاهر أبو سعيد قنصوه :

هو الملك الظاهر أبو سعيد قنصوه بن قنصوه الأشرفى وهو جركسى الأصل . وقد اعتقه السلطان قايتباى عندما اكتشف انه شقيق لجاريته أم ولده « محمد الذى أصبح سلطانا » .

وفي عهد السلطان محمد جعله خازندارا كبيرا واصبح ينادى بخال السلطان فلما ان قتل السلطان تتساور الأمراء فيمن يولونه السلطنة ، فعرضوها على الأمير يزبك ، فأبى بشدة بل وحلف بالطلاق ثلاثا أن لا يلى السلطنة ، وطلب أن يعود الى مكة . فتحول الأمراء عنه الى قنصوه خال السلطان ، وتمت البيعة له في ذات اليوم الذى قتل فيه السلطان السابق أى يوم الأربعاء الخامس عشر من ربيع الأول ولقب بالملك الظاهر أبى سعيد .

وفاة الأمير يزبك :

وفي يوم الأربعاء عشرين رمضان ، مات الأتابك الأمير يزبك بن ططح عن خمس وثمانين سنة ، ولعل تاريخ المماليك لم يرزق بشخصية مثل شخصية الأمير يزبك

الذى تعفف عن السلطنة مع انه كان كفؤا لها . بل لعله لو ولى السلطنة لكان أعظم من عرفهم تاريخ الممالك سواء في دنيا الحرب والقتال ، أو دنيا الانشاء والتعمير ، وليس أدل على أن شخصية الرجل العظيم تبقى أبدا ، من أنه ظل طوال قرابة أربعة قرون ونصف واسمه لا يفتأ يتردد على الألسنة ، وهى تتحدث قديما عن بركة الأزبكية ثم عن حى الأزبكية ، وحديقة الأزبكية ، وهى تتحدث اليوم عن سور الأزبكية حيث تعرض الكتب والمعارف .

١٥٠٠ م - ٩٠٥ هـ : خلع السلطان الظاهر :

تمرد الأمير طومان باى الداودار على السلطان ، وظاهره جان بلاط الأتابكى فتمت لهم الغلبة على السلطان الذى اختفى نجاة بنفسه من الموت ، فخلع من السلطنة فى آخر ذى القعدة بعد أن حكم سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما كانت خير فى مجموعها بالنسبة للحكم من سبقه .

سلطنة الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط :

فى يوم الاثنين الثانى من ذى الحجة ببيع بالسلطنة الأتابكى جان بلاط وأصله كبقية السلاطين مملوكا شركسيا ، اشتراه أحد الأمراء وقدمه لقايتباى فأعتقه وصار يتدرج فى المناصب حتى أصبح أتابكا .

وكانت مبايعته بسمى طومان باى على كره من الأمراء والعسكر لجفوته وغلاظته .

١٥٠١ م - ٩٠٦ هـ : خلع السلطان جان بلاط وتولية طوماى باى :

ولم تمض بضعة شهور على تولية جان بلاط ، حتى كان طومان باى يحقق ما خططه لنفسه من تولية السلطة فانهز فرصة خروجه على رأس جيش الى بلاد الشام للقضاء على فتنة أثارها نائب الشام قصرده واتفق مع هذا الأخير أن يتولى طومان باى السلطنة ، فنودى به سلطانا على مصر والشام بدون مبايعة من الخليفة والقضاة الأربعة ولقب بالملك العادل أبى النصر ، وعين قصرده نائب الشام أتابكيا ، وقنصوه الفورى داودارا كبيرا واستادارا وزيرا ، ثم زحف على رأس الجيش الذى خرج به من مصر وقد تضاعفت قوته بمن انضم اليه من أمراء وأجناد الشام ، فدخل القاهرة فى يوم السبت ١١ جمادى الآخرة ، وحاصر القلعة ، وبعد معارك بينه وبين أنصار جان بلاط ملك القلعة وقبض على جان بلاط .

وذلك فى يوم السبت الثامن عشر من جمادى الثانى ، وتم بذلك خلع جان بلاط بعد أن حكم ستة أشهر وثمانية عشر يوما .

سلطنة الملك العادل طومان باى :

عندما تخلص طومان باى من جان بلاط بالقبض عليه واعتقاله استدعى الخليفة

العباسي أبو الصبر المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة فقروا بطريقة شرعية خلع الأشرف جان بلاط ومبايعة طومان باي على السلطنة .
وعين طومان باي حليفه قصرود نائب الشام اتابكيا .

قتل قصرود :

على انه لم تمض بضعة أيام على تولي طومان باي السلطنة وحليفه الاتابكية وبينما جلس الاثنان للمسامرة في القلعة اذ فال طومان باي لقصرود :
قلبي خايف منك يا امير كثير . وبعد ان صلى معه العشاء اصدر امره بالقبض عليه . وبعد أيام قليلة كان قد تخلص منه بالخنق ، فنفرت القلوب من طومان باي لهذه الفعلة .

ولم يلبث ان تابعها باصدار امره بقتل السلطان المخلوع جان بلاط والذي كان قد سيق الى سجن الاسكندرية فقتل خنقا .

خلع السلطان العادل طومان باي :

وادت هذه الأعمال الفادرة ، وان كانت ليست جديدة على نظام الحكم المملوكي الى تألب الأمراء على طومان باي ، فاعانوا عليه الحروب ، وانفض من حوله أسراؤه واجناده .

فنزل من القلعة في ليلة عيد الفطر ، واختفى عن الانظار وكانت مدة سلاطنته ثلاثة أشهر وعشرة أيام .

١٥٠١ م - ٩٠٦ هـ : سلطنة الملك الأشرف قنصوه الغوري :

في أول شوال من هذه السنة بويع بالسلطنة الملك الأشرف أبو النصر قنصوه الغوري . بعد أن تردد وتمنع ، حتى لقد سيق اليها سوقا . ولأول مرة في تاريخ المماليك راح الأمراء يتهربون من هذا المنصب . الذي انتهى بأصحابه في السنوات الأخيرة الى الدبح أو الخنق وقد استقر رأي الأمراء على تولية الغوري باعتباره لين العريكة سهل الإرادة في أي وقت عندما يستقرون على رأي . وسرعان ما سوف تظهر الحوادث خطأ تقديرهم ، فقد أثبت الغوري أنه أحد سلاطين المماليك العظام ، وان جاءت نهاية الدولة على يده .

ولا جديد في تاريخ الغوري يختلف عن أي ممن سبقه من السلاطين ، فهو أحد المماليك الجراكسة الذين جلبوا من بلاد الجركس ليعادوا في مصر فاشتراه السلطان قايتباي واسكنه كبقية زملائه في الطباق بالقلعة ، ثم لما انس منه نجابة وتفوقا ، أعتقه ، ومنحه المنحة المألوفة في مثل هذه الأحوال من مال وقماش وخيل ، وجعله من جملة مماليكه الجمدارية الذين يعاونونه على لبس ملابسه ، ثم رقناه الى المماليك

الخاصكية ، تم جعله كاشفا للوجه القبلى ، فأمر عشرة ، وفى زمن السلطان محمد بن قايتباى رقى الى أمير مائة ومقدم ألف . وكان ممن سافروا فى صحبة الأمير طومان باى لما خرج لمحاربة قصره نائب الشام .

ولما ساطن طومان باى ، عينه فى المناصب التى كان يحفلها وهى الداودارية الكبرى والوزارة والاستدارية .

وكان الذى تحمس لتعيينه بعد اختفاء الغادل طومان باى هو أمير السلاح قيت الرجبى والأمير مصرباى . فدعى الخليفة المستمسك بالله يعقوب . والقضاة الأربعة فخلعوا الغادل وأبرموا البيعة لقنصوة الغورى فى يوم الاثنين أول شوال ولقبوه بالملك الأنسرف ، وكان عمره يوم تسلطن قد جاوز الستين عاما وتعين قيت الرجبى أتابكا للعسكر .

مصرع طومان باى :

وكان أول شاغل للغورى بعد توليه السلطة ، هو العثور على طومان باى المخفى والتخلص منه ، وقد تحقق له ذلك فقبض على طومان باى وأعدم .

١٥٠٢ م - ٩٠٧ هـ : فتنة الممالك بسبب نفقة البيعة :

واجه الغورى منذ تقلد زمام السلطة ، مشكلة الممالك وميلهم المستمر للفتنة ، خاصة بعد أن عجز عن أن يدفع ما اعتادوا أن يتقاضوه لدى ولاية أى سلطان جديد مما كان يطلق عليه اسم نفقة البيعة ، فقد اعتذر لهم الغورى فى الأيام الأولى ، واعتذر لهم بخلو الخزانة من الأموال ، واستمهلهم بعض الوقت ، فلما مضت الشهور دون أن يحصلوا عليها ، نزلوا الى الشوارع وهاجموا البيوت والمتاجر ونهبوا ما فيها ولم تتوقف الفتنة الا بعد أن وعدهم الغورى من جديد وعدا محددا أن يفى لهم بالنفقة فى وقت قريب ..

فرض ضريبة ظالة على التجار والملاك :

وانجبه رأى الغورى وعصبة من الممالك أن يستولى على أوقاف الجوامع والمدارس لتعيينه على أداء هذه النفقة ولكن قضاة الشريعة ، وقفوا فى وجهه وقفة حازمة ، موضحين له أن الاستيلاء على الأوقاف اهدار للشريعة لا يمكن أن يفتوا به ، فغضب الغورى على القضاة ، ولكن ذلك لم يجعلهم يغيروا موقفهم .

واخيرا رأى عدم المساس بأعيان الوقف على أن يؤخذ منها ربع سنة كاملة معجلا ، وعلى أن يؤخذ من أملاك القاهرة وغيرها أجرة عشرة شهور كاملة معجلة .

وإذا كان الممالك الجلبان يضغطون فى المطالبة بنفقتهم ، والسلطان يضغط على الأمراء لتحصيل ما تم الاتفاق عليه ، فقد لجأ الأمراء الى الشدة والتعسف لتحصيل المبلغ المطلوب فاستاءت جماهير الشعب لهذا الاجحاف وتعجلى ذلك فى أن بعض

الجوامع أغلقت أبوابها ، وتوقف الناس عن صلاة الجمعة وأخيرا انتهى الأمر في الثامن من شهر المحرم من هذه السنة الى صورة الانفجار الشعبى ، اذ رجعت الجماهير الأتابكى قيت الرجبي أثناء سيره في موكبه فأصيب هو ومن معه من الأمراء . ولم نهدأ الخواطر الا بعد أن خفض المطلوب من عشرة أشهر الى سبعة أشهر فقط .

خروج الجازانى ابن أمير مكة عن الطاعة :

خرج الجازانى ابن أمير مكة عن طاعة سلطان مصر ، وشرع يهاجم الحجاج ويعتدى على الرجال والنساء . وينهب ما ينهب ويقتل ما يقتل ، ولم يلبث أن اشتد ساعده بمن انضم اليه من قبائل الأعراب ، ثم يحيى بن سبع أمير ينبع ، فهجم على مدينة مكة واستولى عليها ونهب سكانها .

فأرسل الفورى في هذه السنة حملة من ستمائة مقاتل وعلى رأسهم الأتابكى قيت الرجبي ، فاستطاعوا أن يهزموا الجازانى الذى فر هاربا ، ثم لم يلبث أن سقط فى الأسر فقتل وقطعت رأسه وأرسلت الى مصر ، ولكن حليفه يحيى بن سبع ظل على تمرده ، واستمر يقطع على الحجاج طريقهم وينهب قوافلهم .

١٥٠٥ م - ٩١٠ هـ انشاء البستان العظيم وقبة الفورى :

منذ ولى الفورى السلطنة ، وعلى الرغم من المشاغل والفتن التى جوبه بها منذ يومه الأول ، فقد أبدى اهتماما شديدا بالبناء والتعمير ، فكان أو ما قام به من أعمال فى هذا الصدد أن أمر باعادة تخطيط ميدان القلعة فارتفع بناء الأسوار المحيطة به . وغطى أرضه بطنى كثيف ، وأنشأ فى الجهة الغربية من الميدان قصرا وبحيرة جلبت اليها المياه بواسطة السواقي والقناطر المعلقة من النيل وأنشأ بستانا عظيما حمل اليه من الشبام أنواعا عدة من الزهور والرياحين ومختلف الثمار .

ولما كانت عادة السلاطين أن يستعملوا لجاوسهم اذا جلسوا مجالس القضاة دكة خشبية فقد رفع هذه الدكة الخشبية واتخذ لجاوسه مقعدا مبنيا فلم تتفائل الناس بهذه الخطوة على ما يقول ابن اياس .

وصارت مواكب الفورى ومجالسه واحتفالاته واستقبالاته تتم فى هذا الميدان . ونقل اهتمامه بعد ذلك الى قصور القلعة ومبانيها ، فجود ببناءها وزخرف قاعته السرية وقاعة العواميد ، ولجأ فى سبيل تزيين هذه القاعات أجمل زينه الى اغتصاب ما كان فى بيوت الأمراء من رخام تفنن الصانع فى نقشه .

وكان قد أصدر أمره ببناء مدرسة وجامع بالشرابية ثم أنشأ لنفسه مدفنا وقد كان فوقه قبة ، لا تزال قائمة حتى اليوم تحمل أسمه باعتبارها أحد معالم القاهرة ، بل لا يزال شارع الفورية المحيط بهذه القبة يذكر بالاثر الكبير الذى أحدثته بإقامة هذه المنشآت .

وفي هذه السنة افتتح الغورى مدرسته وجامعه وقبته . بعد أن حمل الى المدرسة المصحف العثمانى وبعض الآثار النبوية التى كانت موزعة على بعض المساجد .

تفشى الطاعون واطهار السلطان للعدل :

وفي شوال من هذه السنة ، ازداد تفشى الطاعون الذى كان قد بدأ من شهر رمضان ، وبلغت ضحاياه اربعة آلاف جنازة فى اليوم الواحد ، فأظهر السلطان الغورى ميلا الى العدل والورع تقربا الى الله ليرفع الوباء فنادى بإبطال بعض الضرائب ، ودعا الناس الى الافلاع عن المعاصى والذنوب .

يقول ابن اياس :

ولكن الطاعون لم يكد يرتفع حتى اعاد الغورى الضرائب والمكوس بأسسوا مما كانت عليه .

١٥٠٥ م - ٩١١ هـ : الغورى يدفع المخاطر عن دولته :

كان الغورى بطبيعته ممن يميلون الى السلام ، ويفضون حياة البناء والانشاء والتعمير ، ولكنه فى ذلك الوقت كان يقدر واجبه فى الذود عن حياض الدولة ، فتراه فى هذه السنة يجهز تجاريد لجهات مختلفة من الدولة .

احداها للحجاز للقضاء على فتنة يحيى بن سبع التى كانت لا تزال مسنمة - تهدد الحجاج ، وحملة نانية الى بلاد الشام . للقضاء على فتنة اهاجها العرب :

على أن الحملة البالبة هى التى تكشف عن بصيرة الغورى وادراكه الخطر الجديد انزاحف على دولته والعالم الاسلامى ، وهو خطر البرتغاليين الذين وصلت سفنهم الى ساحل ملبار الهندى ، وبدأوا يهددون التجارة الهندية والشرقية المارة عبر مصر ولذلك فقد جهز السلطان الغورى أسطولا بحريا لطرد المراكب البرتغالية من مياه المحيط الهندى والخليج العربى وكان بصحبة الاسطول المصرى عدد كبير من البنائين والنجارين والصناع من مختلف الحرف ، ليقوموا بانشاء التحصينات اللازمة فى الأماكن والموانى التى أصبحت مهددة ، وجعل على رأس هذه الحملة الأمير حسين الكردى وقد قصدت هذه الحملة مدينة جدة أول ما قصدت ، وشرع الأمير حسين فى تحصينها ، وبناء سور يحيط بها .

توقف المحمل عن السفر الى الحجاز :

وفي هذه السنة على ما يقول ابن اياس ، أصدر السلطان أمره بعدم سفر المحمل على جارى العادة ، وعدم سفر الحجاج الى بيت الله الحرام ، نظرا لفتنة يحيى بن سبع الذى كان يقطع الطريق ويقتل الحجاج وينهبهم .

وقد كان منع المحمل من السفر وايقاف الحج حدثا لم تشهد البلاد مثيلا له من قبل في كل تاريخ الممالك ، الذي كان يعتبر سفر المحمل كل عام وما يصحب ذلك من احتفالات عند الذهاب وعند الاياب من اهم معالم دولتها ، وآية عزها ، ومظهر مجد سلطانها .

على ان الغورى قرر وضع حد لفتنة يحيى بن سبع . فأرسل جيشا استطاع ان يهزم المتمردين ، وان يبدد شملهم ، ويفتك بالأكثريّة منهم ، بحيث استتب الأمن من جديد وأعيد فتح طريق الحج ، وان كان يحيى بن سبع نفسه ظل حيا .

وفاة العلامة جلال الدين السيوطي :

وفي يوم الخميس التاسع من جمادى الاولى . خبا نور الحافظ العلامة جلال الدين السيوطي خاتمة العلماء الأفذاذ الذين أنجبتهم مصر في هذه الحقبة من تاريخها . يقول عنه ابن اياس :

وكان عالما فاضلا بارعا في الحديث الشريف وغير ذلك من العلوم ، وكان كثير الاطلاع تادرة في عصره بقية السلف ، وعمدة الخلف ، وبلغت عدة مصنفاته نحواً من ستمائة تأليف ، وكان في درجة المجتهدين في العلم والعمل ، وكان عمره يوم وفاته اثنين وستين سنة واشهر .

١٥٠٧ م - ٩١٣ هـ : اسماعيل الصفوى يهدد الدولة المصرية :

تفاقم في هذه السنة هذا الخطر الجديد الوافد من بلاد فارس ، فقد كان من يدعى الشاه اسماعيل الصفوى قد نجح أخيراً في تأسيس دولة بلاد فارس وهي الدولة الصفوية نسبة الى جده صفى الدين .

وكان الشاه اسماعيل شيعيا متطرفا سيطر على بلاد فارس ثم بدأت اطماعه تتسع ففكر في الاغارة على الدولتين السنيّتين المجاورتين لفارس ، وهما الدولة المصرية المملوكية ، والدولة العثمانية في آسيا الصغرى .

وفي هذه السنة زحفت جيوش الشاه اسماعيل على مدينة ملطية إحدى النيابات المصرية ، فلم تكد الأخبار تصل الى الغورى حتى أسرع الى اعداد جيش لمواجهة الصفوى ، ولكن على دولات امير التركمان التابع لمصر ، تصدى لجيش اسماعيل الصفوى فهزمه هزيمة منكرة وارتد جيشه مدحورا . . . وأرسل على دولات بعض رموس القتلى الى القاهرة مع انباء النصر .

وام يلبث اسماعيل الصفوى بعد قليل ان بعث الى مصر بقاض من الدنه يعتذر مما وقع من جنوده ويؤكد لالسلطان الغورى ان ما حدث كان بغير علمه ، فتقبل الغورى هذا الاعتذار واكرم وفادة سفير الصفوى واعاده الى بلاده معززا مكرما .

١٥٠٨ م - ٩١٤ هـ : بناء مدينة العقبة :

اصدر السلطان امره في هذه السنة الى خابرك المعمار ان يتوجه الى مدينة العقبة « عقبة ايلة » وان يصطحب معه جماعة من البنائين والمهندسين ، لبناء مستودع للماء وفندق عظيم لنزول الحجاج وراحتهم ، وان ينشئ مخازن لايداع الودائع ورصيفا لرسو السفن ، وأن يقيم بروجاً وقلاعاً للدفاع عن المدينة ، كما أمر باصلاح طريق العقبة الذاهب الى المدينة واقامة بروج وحفر الآبار على طول الطريق ليشرّب منها الحجاج .

افتصار حسين الكردي على البرتغاليين :

وفي هذه السنة وقعت اول واقعة بحرية بين اسطول مصر واسطول البرتغال في المحيط الهندي ، فكان النصر حليف اسطول مصر ، وغنم حسين الكردي من البرتغاليين غنائم كثيرة ، وتزينت القاهرة الانباء هذا النصر ، وظلت الموسيقىات « الكوسات » تدق ثلاثة ايام متوالية .

وبعث الامير حسين الكردي يطلب عسكرياً جديداً وسفناً حربية ليواصل حربه ضد البرتغاليين ، فلم يتأخر الفوري عن ارسال المدد المذكور . واستعرض في الثيل ست من السفن الحربية التي كان يطلق عليها اسم « اغرته » ليبعث بها الى الكردي فكان يوم عرضها كما بقول ابن اياس من الأيام التي ارتجت لها القاهرة .

١٥٠٩ م - ٩١٥ هـ : هزيمة الأسطول المصري :

على ان البرتغاليين فيما يبدو استفادوا من الدرس الذي تلقوه في هزيمتهم الأولى ، فعادوا بأسطول أضخم وأكبر تحت قيادة من يدعى فرنسكو والميدا . تربصوا بالأسطول المصري فهزموه هزيمة منكرة ، وقتلوا الكثير ممن كان في مراكب الأسطول من جند وبحارة وغنموا غالبية السفن ولكن الامير حسين الكردي استطاع ان ينجو بنفسه على احدى السفن .

ويمكن ان تعتبر هذه المعركة البحرية احدى المعارك الفاصلة بين الشرق والغرب في بحارة الشرق . فمنذ هذا التاريخ بدأت غلبة البرتغاليين فالانجليز والفرنسيين والهلانديين من بعدهم على بحار الشرق ثم الشرق نفسه .

١٠ ابن اياس المؤرخ والفوري :

ويحدثنا ابن اياس المؤرخ المعاصر للفوري بواقعة جرت بينه وبين الفوري في هذه السنة ، حيث كان قد حرمه من اقطاعه ، بنساء على بعض الدسائس والوشايات ، فوقف ابن اياس في طريق الفوري وقدم له عريضة تظلم فيها مما حل به فأنصفه الفوري ورد له اقطاعه . وجبر بخاطره حتى نظم في مدحه قصيدة طويلة اثبتها في تاريخه ، كسائر القصائد التي نظمها في سائر المناسبات في عصر الفوري .

روعة بستان الغورى :

ويصف لنا ابن اياس فى حوادث هذه السنة مدى ما وصل اليه ازدهار بستان الغورى الذى انشأه فى ميدان القلعة ، مما نقله بنصه اذ يصور لنا جانباً من حياة الغورى .

وفى هذه السنة اينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميدان ، واخرجت الوانا من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسن وغير ذلك من الأزهار العربية ولقد عاينت به وردا أبيض زكى الرائحة وهو غير أنواع الورد التى بمصر وقد نقل من الشام .

وكان السلطان له دكة مطعمة بالعاج والأبنوس ، ويفرش فوقها مقعداً مخملاً ويجلس عليه ، تظله فروع الباسمين ، وتقف حوله المماليك والحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه . ومعلق فى الأشجار اقفاص بها طيور مسموع ما بين عزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من الطيور المسموع ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وجحل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، وتارة يجلس على البحيرة التى طولها اربعون ذراعاً وتمتلئ كل يوم من ماء النيل بسواقى نقالة من المجراة تجرى ليلاً ونهاراً فيجلس على سرير هناك فى غالب أيام الجمعة والا يدخل عليه أحد من الأمراء الا من يختاره .

١٥١٠ م - ٩١٦ هـ : فتنة المماليك الجلبان :

عاد المماليك الجلبان المقيمون فى القلعة الى تمردهم فى مطلع هذا العام ، ورشقوا المارين فى الطرقات بالحجارة وطالبوا السلطان بأن يدفع لكل واحد منهم مائة دينار . وامتنع السلطان عن اجابتهم الى مطلبهم وهدد بخلع نفسه ، ولكن هذا التهديد احدث اثراً عكسياً ، فقد زادت ثورة المماليك الجلبان ، ونزلوا من الطباق فى القلعة الى الشوارع ونهبوا الدكاكين الكائنة فى سوق جامع ابن طولون ، ثم دكاكين الصليبية ، ثم تحت الربع حتى كادت مصر تخرب على مايقول ابن اياس فى هذا اليوم .

واستمر الحال على هذه الصفة من النهب والسلب ، وقد ملت الجماهير فى اليوم التالى . وفى اليوم الثالث من أيام هذه الفتنة قصد المماليك الى دولات أمير السلاح واراؤا أن يسلطوه بدلا من الغورى ، ولكنه فر منهم ولجأ الى السلطان فى القلعة .

ثم بلغ المماليك ان الأمراء قد تجمعوا لينقضوا عليهم ويمسكوا بهم . فدب الفشل الى صفوفهم ، وتسللوا عائدين الى الطباق فى القلعة .

وقد قدر مانهب من الدكاكين بخمسمائة وتسعين دكاناً وقدرت قيمة مانهب بعشرين ألف دينار ذهب على أصحابها هدرا دون أن يجدوا لهم منصفاً .

ملوك الهند يستغيثون بالغوري :

وفي صفر من هذه السنة تلقى الغوري رسالة من ملوك الهند يحذرونه من اطماع البرتغال في امتلاك سواطيء الهند بعد أن احتلوا منطقة جوا وجعلوها فاعة لهم (١) . ويطلبون منه المبادرة بإرسال جيش واسطول لردع البرتغاليين ، ولكن الأحداث كانت تتوالى في سرعة حالت بين الغوري وبين عمل أى شيء لاتقاذ هذا الخطر .

اسماعيل الصفوى يتآمر مع الفرنج ضد مصر :

وكان أخطر ما توافد على الغوري من اخبار ، ما ذكره نائب مدينة البيرة (على الفرات) من أنه قبض على جماعة من طرف اسماعيل الصفوى شاه العجم ، ومعهم كتب الى بعض ملوك الفرنج يطلب منهم فيها ان يتحالفوا معه على سلطان مصر . فيتجهون لغزوه بحرا في الوقت الذى يشن عليه هجوما من البر ، وقد ارسل النائب المقبوض عليهم الى الغوري .

وكان قد سبق ذلك غارة بعض السفن على سفن مصرية ونهب ماكان فيها واسر رجالها الامر الذى جعل الغوري يأمر باغلاق كنيسة القيامة كرد على هذه الغارة ، فلما أن وصل الى سمعه هذه المؤامرة الجديدة غضب الغوري لذلك انسد الفضب وأصدر أمره القبض على قناصل الافرنج في الاسكندرية وطرابلس وهددهم بالشنق واسلمهم للتحقيق والاعتقال . . . وقد حاول قنصل فرنسا ان يترضى الغوري تان وعد بالسعى ارد السفن المنهوبة واطلاق سراح من كانوا فيها من الاسرى .

١٥١١ م ٩١٧ هـ : اسماعيل الصفوى يهدد ويندد بالغوري :

على ان هذه الاخبار عندما وصلت الى مسامع اسماعيل الصفوى لم يزد ذلك الا امعانا في التحرش والتحدى فارسل الى مصر وفدا يحمل رأس ازبك ملك التتار اشعارا بما وصل اليه من القوة ، وتهديدا من طرف خفى ان يكون ذلك مصير الغوري .

ويقول المؤرخون انه بعث مع هذه الرأس بيتين من الشعر — يعرض فيهما بما اشتهر عن الغوري ولعبه بالزهور وغرس البساتين :

السيف والخنجر ريحاندا اف على النرجس والاس
مدامنا من دم اعدائنا وكأسنا جمجمه الرأس

وقد اورد ابن اناس في تاريخه عشرات الابيات التى نظمها شعراء مصر في الرد على الصفوى ولكن الغورى لم يستحسن من كل ما قيل الا بيتين لصفى الدين الحلى

ولى فرس للخير بالخير ملجم ولى فرس للشر بالشر مسرج
فمن رأى تقويمى فانى مقوم ومن رام تعويجى فانى معوج

(١) ظل البرتغاليون يتشبثون بهذا الموقع حتى بعد استقلال الهند وزوال الاستعمار .

السلطان سليم يخاع والده بايزيد :

وفي هذه السنة ، اشنجر خلاف بين السلطان بايزيد وابنه سليم الذي جمع من حوله جيشا ضخما لقتال ابيه ، فانهى الأمر بنزول السلطان بايزيد عن العرش ، وترجع ابنة السلطان سليم عليه .

١٥١٢ م : البندقية ترسل بعثا للغورى :

وصل الى مصر في هذه السنة بعث من البندقية وقد تعددت الوفود والبعثات الأجنبية الى بلاط الغورى في هذه السنة حتى لبحصى منها ابن اياس اربع عشرة سفارة اجنبية . واليك ما قاله ابن اياس وصفا للاحتفال باستقبال وفد البندقية . وهو كثير الشبه بما لايزال يتبع حتى الان في استقبال السفراء الأجانب .

« واركب السلطان في ذلك اليوم وزين باب الزردخانة بالملبوس والسلاح ثم طالع القاضي وصحبته مقدمة حافله « اى هدية » نحو من مائة جمل يحملون اوانى بلور وجوخا ومخملا واثواب مخمل تماسيح وشفق وحرير اطلس وغير ذلك اشياء حافلة فيطلع القاضي وهو راكب على فرس وقدامه سبعة انفس من اخصائه وهم راكبون على خيول والباقي مناه ، فكانوا نحو من خمسين انسانا من جماعة القاضي الذين جاءوا بصحبته ركان القاضي رجلا شيخا بدقن بيضاء وهو جسيم وعلبه وقار . وكان لابسا خلعة حبر ذهب على حرير اصفر . فطلعوا الى القلعة واسأعوا ان قاضي ملك الفرج قد جاء يسعى عند السلطان في فتح كنيسة القيامة التى بالقدس الشريف » .

الغورى يجرب مدافع هذا العصر :

ومما يشهد للغورى انه كان مقدرا للمخاطر التى احدثت تحقيق ببلاده سواء من ناحية الصايبيين الذين يمثلون في البرتغاليين الذين التفوا حول مصر وقطعوا وصول التجارة الشرقية اليها ، او من ناحية الشمال الشرقى من ناحية اسماعيل الصفوى او الشمال . من ناحية الدولة العثمانية . او من الافرنج عن طريق البحر . انه ما فتى يشيد السفن الحربية الكبيرة من شوانى واغربه . ويستعرضها بعد تمام صنعها وتجهيزها بالسلاح والمقاتلة .

وكان آخر ما امر به الغورى من استعدادات حربية . صنع مكاحل ثقيلة ومتوسطة وخفيفة . والمكحلة اقرب الاشياء الى المدافع فى العصر الحديث ، ولكنها كانت تقذف بقطع الاحجار او البارود او النار المشتعلة . وكانت تصنع من النحاس او الحديد ، فاقام الغورى لذلك مسبكاً ضخماً خلف ميدان القلعة . وحشد الصناع المختصين الذين بذلوا فى صنع هذه المكاحل جهدا جبارا حتى تمكنوا من عمل سبعين مكحلة زنة بعضها يصل الى سنمائة قنطار . وطولها يبلغ عشرة اذرع . وقد جربت هذه المكاحل

في حضرة الغورى في منطقة الريدانية خارج القاهرة فلم يخطيء منها سوى واحدة أو اثنتين وكان مقياس النجاح أن تقذف بأحجارها مسافة معينة .

موت السلطان بايزيد وتولى السلطان سليم العرش :

وفي يوم الجمعة الثاني من جمادى الأولى ، مات السلطان العثماني بايزيد بعد أن حكم مملكته بنو عثمان ثلاثاً وثلاثين سنة واصل فيها فتوحات أبيه محمد الفاتح . وبوفاة بايزيد تدعم مركز السلطان سليم الذي كان قد خلع أباه من قبل كما رأينا

على أن أخوة السلطان سليم وأولاد أخوته لم يتقبلوا سيادته عليهم إلا بعد خصام ونزاع وصل إلى امتشاق السلاح فيما بينهم ، ولكن السلطان سليم قهرهم جميعاً وقتل أخاه أحمد وأولاد أخوته الخمسة . كما قتل أخاه كركور ولم ينج من القتل إلا ابنان للامير أحمد التجأ أحدهما إلى الشاه اسماعيل الصفوى والثاني إلى مصر فاستقبله السلطان الغورى واكرمه اكراماً زائداً عن الحد ، مما أحفظ عليه السلطان سليم ، وادى ذلك إلى سوء العلاقات بين السلطانين .

١٥١٣ م - ٩١٩ هـ : عودة الطاعون للانتشار :

اجتاح وباء الطاعون مصر في هذه السنة ومات به العديد من الأمراء والكبراء ممن مات به أميران من أمراء بنى عثمان كانوا قد التجأوا إليها فراراً من وجه السلطان سليم كما أصيب الغورى بمرض في عينه ، واستطارت الاشاعة بين الناس أنه فقد عينيه .

وجاءت الأخبار من بلاد الحجار أن البرتغاليين قد استولوا على كمران واتهم يحاصرون سواكن .

وكثرت الاشاعات أن الأمراء يتآمرون على خلع السلطان ، فلجأ إلى أسلوبه المعتاد فخلع نفسه وانسحب إلى المسجد الذى بناه .

لا ظلم اليوم :

ولجأ الغورى على ما يقول ابن اياس الى ما اعتاده كلما ضاق به الأمر ، واشتدت من حوله الأزمات وهو إجراء العدل ورفع المظالم ، فنودى بالفاء الضرائب التى كان قد فرضها - وطالما اشتكى الناس منها ، وخاصة ضريبة الجامفة والمشاهرة ، وما فرضة من مكوس أخرى على القمح والبطيخ

وافرج عن المسجونين من الأمراء وغيرهم ، ووعد الأمراء وجند المماليك بأنه سيوزع عليهم أموالاً . ونودى في القاهرة ، أن كل من قهر أو ظلم فعليه الاعتاب الشريفة ولا ظلم اليوم .

وراح يوزع الوف الدناتير على المحتاجين والمحاربين ، وحدد تسعيرة للحاجات حتى يخفف من وطأة الغلاء .

فارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام .

حادث خلقى يشغل القاهرة :

وكان مما نادى به الغورى بين الناس أن يكفوا عن المعاصى ويقلعوا عن المنكرات وشاء الفدر أن تقع فى هذا الجو احدى الجرائم الخلقية التى رجت البلاد رجا وأحدثت أزمة فى الحكم ، وقد كان يمكن أن تمر دون أن يحس بها أحد فى غير دائرتها لولا هذا الظرف العصيب الذى كانت تمر به البلاد .

أما هذه الجريمة الخلقية فتتصل بأحد القضاة الشافعيين الذى قبض عليه متلبسا بجريمة زنا مع زوجة أحد قضاة الحنفية ، وقد قبض على الانيمين متلبسين بالجريمة واغترفا بجرمهما المشهود . فصدر الحكم برجمهما ، ولكن أحد قضاة الشافعية أصدر فتوى مؤداها أنه لو عدل المذنبان عن اعترافهما فلا يعود من الجائز رجمهما .

وكان المذنبان قد عدلا فعلا عن اعترافهما .

واقر القضاة الأربعة هذه الفتوة على أساس أن ذلك هو حكم الشرع (١) . وغضب الغورى وتصور أن القضاة الأربعة يتلاعبون بالاحكام الشرعية : وقال للقضاة أنه سيأمر برجم المذنبين بما له من حق السلطان فأجابهم القضاة : بأنه لو فعل ذلك لوجب عليه الدية لقتله من لا يستحق القتل .. فزاد ذلك من غضب الغورى وعزل القضاة الأربعة من مناصبهم .

وهكذا أثر القضاة احتمال غضب الغورى وعزلهم ، على أن يحرفوا فى شريعة الله لارضائه .

وظلت مصر لأول مرة فى تاريخها منذ بدء العصر الاسلامى بغير قضاة للشرع بضعة أيام ، شق الغورى خلالها المذنبين على باب زويلة فى جبل واحد . وعين السلطان اربعة قضاة جدد .

بقول ابن اياس ، ولما ارتفع الطاعون ، وسكنت الجند والأمراء ، وشفى السلطان الغورى ، فأعاد مرة اخرى الضرائب التى سبق أن رفعها .

١٥١٤ م - ٩٢٠ هـ : الغورى يستعرض قواته البحرية فى السويس :

فى هذه السنة سافر الغورى الى مدينة السويس بعد أن زادت أهميتها فى الآونة الأخيرة ، وقد أصبحت ميناء حربيا ، وترسانة تصنيع السفن الحربية وشهد عملية انزال عشرين مركبا حربيا « غرابا » فى البحر وهى مجهزة بكامل الاسلحة والاعتدة والمكاحل وقبل أن السلطان انفق على انشائها أربع مائة ألف دينار ، وكان المشرف على بناء هذا الاسطول البرنس سليمان العثمانى ، وقد جهز الاسطول للسفر الى

(١) وهذا هو حكم الشرع بالفعل .

بحار الهند ، وايقاف القرصنة البرتغالية واقتلاعهم من المناطق التى اجتلوها سواء فى الهند أو الجزر المحيطة بعدن .

وكان مما نادى به الغورى بين الناس أن يكفوا عن المعاصى ويقلعوا عن المنكرات فأصدر أمره بانتشاء فندق بها ودكاكين ودور لشتى الأغراض ، وحفر العديد من الابار وأقام السواقى لتوكير الماء اللازم للمدينة .

يحاول إعادة تحصين الاسكندرية وحيائها :

وفى نفس العام قصد الغورى الى مدينة الاسكندرية ، لمعرفة ما يجب عمله من ترميم أبراجها وقلاعها وتهئية سبل الدفاع عنها ، وانعاش المدينة بصفة عامة . وقد صور لنا ابن اياس : حالة مدينة الاسكندرية فى هذه الفترة وكيف اوشكت أن تتحول الى مدينة مهجورة فيقول :

لم يكن بالمدينة من أعيان التجار سواء من المسلمين أو من الفرنج وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض « أى جباة الضرائب » فأنهم صاروا يأخذون من التجار عشرة أمثال ما كان يؤخذ قبلا وهو العشر .

فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها الى الخراب : حتى قل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الاكل .. ووجد بها بعض دكاكين مفتوحة . والبقية خراب لم تفتح .

ولا يفوت ابن اياس أن يقارن الاسكندرية فى هذه الفترة بما كانت عليه فى سابق الزمان من ازدهار وعمران وغنى مما مر بنا ذكره فى هذا التاريخ .

والذى لم يعرفه ابن اياس فى أيامه ، وأصبحنا نحن نعرفه الآن تمام المعرفة ، أن هذا الخراب ألم بالاسكندرية : كان نتيجة تحول تجارة الشرق عن مصر بعد أن أصبحت تطوف حول رأس الرجاء الصالح ، وأن الاستعمار البرتغالى والاسبانى والاوربى الغربى قد بدأ نشاطه فى التضيق بالتدريج على الشرق .

السلطان سليم يسحق جيش اسماعيل الصفوى :

وفى السادس من رجب من هذه السنة ، اندلعت نيران الحرب بين السلطان سليم وبين الشاه اسماعيل الصفوى ولو كان الغورى رجل حرب لادرك أن مصير مصر سيقرر فى هذه المعركة ، وكان عليه أن لايقف منها موقفا سلبيا ، ولكنه كان كما قدمنا يؤثر السلام وأن كان مستعدا للدفاع عن حدود بلاده وانتهت المعركة بانتصار السلطان سليم انتصارا حاسما على جيش الشاه اسماعيل ، بحيث استولت جنوده على مدينة تبريز عاصمة الدولة الصفوية . وقد كادت الدائرة تدور على السلطان سليم فى أول المعركة ، ولكن سلاح المدفعية العثمانية الجديد وبنادق الرصاص التى كان يتسلح بها أننا عشر الفا من جنود السلطان سليم . كان هو العنصر الحاسم ... كما سيظل هو العنصر الحاسم فى كل معارك العثمانيين المقبلة وانتصارهم فيها .

السلطان سليم يبلغ الغورى بانتصاره :

وقد أرسل السلطان سليم الغورى مبعوثا رسميا من لدنه يحمل له هذه الاخبار ، ولم يفت الغورى مدلول هذا النصر العظيم على اسماعيل الصفوى ولذلك فلم يأمر بدق الكوسبات « الموسيقى » كما جرت العادة فى امثال هذه المناسبات ولا امر بتعليق الزينات . فقد ادرك بحسه ان المعركة التالية ستكون مع مصر .

فتنة المماليك الجلبان :

لم يكن لهذا الخطر الداهم على مصر اى اثر فى سلوك المماليك الجلبان الذين قاموا فى هذه السنة بأخطر فتنة على الاطلاق ، وتحذوا السلطان الغورى مواجهة فقالوا له :

هذا ما كان طريق الملك الاشرف قايتباى ، وانت الذى اشحت الدواوين حتى صار اللحم ينكسر خمسة أشهر ، وكذلك العليق يعطوه لنا من الشون قمح مسوس ما تأكله الخيل والجامكيا التى تعطىها لنا ما تكفىنا لكراء بيت وأسطبل وجامكية الغلام ولكسوتنا . والقماش كله غالى حتى الخام ما يوجد : والانسمة «الشروبات» صارت غالية كل جرة بنصفين فضة ، فما نشبع فى أيامك من اللحم ولا من الانسمة ونحن جياع عرايا .

يقول ابن اياس الذى نقل عنه هذه الصورة البهتة :

فسكت السلطان ساعة ثم قال : اكم الرضا اصرف لكم اللحم المكسور وكذلك العليق اصرفه لكم شعيرا مغريلا واجعل الانسمة كل جرة بنصف فضة فارتفعت الأصوات له بالدعاء وانصرفوا من بين يديه شاكرين وخمدت تلك الفتنة قليلا .

ولكن الفتنة لم تختف فى الظاهر ، الا لتظهر بعد ذلك فى ادق الاوقات ونعنى بها فى ساحة المعركة وفى مواجهة العدو : حيث سينخدلون عن سلطانهم فى اخرج اللحظات المصرية .

١٥١٦ م - ٩٢٢ هـ : خروج السلطان لمواجهة جيوش السلطان سليم :

امضى السلطان الغورى طوال عام ٩٢١ هـ وهو يجهز للحرب التى كان متوقعا بقرب وقوعها بينه وبين السلطان سليم .

ولم تغوز السلطان سليم المكائد لاستشارة الغورى ودفعه الى الحرب فقد هاجم دولة التركمان التابعة لمصر وقتل حاكمها على دولات وقطع رأسه ورعوس اولاده وبعث بها الى الغورى .

وأهان سفراء الغورى وعذبتهم ونكل بهم .

فانتهى ذلك كله الى تصميم الغورى على أن يخرج على رأس جيشه لللاقاة السلطان سليم . فخرج من القاهرة في يوم السبت الخامس عشر من ربيع الثانى بعد أن تقدمته طلائع جيشه الى الريدانية ، ومنها من سبق الى بلاد الشام ..

ويخصص ابن أياس عشرات من الصفحات من كتابه الذى يؤلف الوثيقة الوحيدة عن هذه الفترة : ليصف لنا أدق تفاصيل هذا الجيش ، وما فيه من أسلحة : وخيول وأعلام ونظام الامراء سيرهم ومعدات كل واحد منهم .

ولامر فى مكنون عالم القدر ، أخرج الغورى معه كل كنوزه وكنوز من سبقه من السلاطين والى تجمعت فى خزائن بيت المال عبر السنين : بحيث احتاج الى خمسين جملا لحملها .

وقد أودع الغورى هذه الكنوز عندما وصل الى حلب فى قلعة المدينة لكى لا تقع بعد ذلك غنيمة باردة فى يد السلطان سليم .
معركة مرج دابق :

وفى الخامس عشر من شهر رجب ، تلاقى الجيشان العثمانى والمصرى فى المكان الذى حدده لسلطان سليم لهذا اللقاء وهو مرج دابق فقد قال لسفراء الغورى الذى ذهبوا للتفاوض معه فى شأن الصلح بعد أن انتهرهم وطردهم « قولوا لاستاذكم يلاقينا على مرج دابق » .

وقد أوشك أمراء المماليك أن يوقعوا الهزيمة فى مراحل المعركة الاولى بالعثمانيين حيث هجموا عليهم هجمة صادقة عصفت بالجيش العثمانى وأوشك أن يولى الادبار: لولا هذا السلاح الجديد ، سلاح المدفعية من ناحية : وغدر الخيانة الذى جسم الموقعة لصالح العثمانيين ، فقد كان جماعة من الامراء المصريين قد لجأوا قبل المعركة الى السلطان سليم : وكانوا هم الذين هونوا له أمر القتال مع السلطان الغورى .. وكان خاير بك نائب حلب والذى كان يقف على رأس ميسرة الجيش المصرى من الضالعين فى الخيانة مع السلطان سليم .

فقد انسحب بجيشه منظاهرا بالهزيمة فى الوقت الذى دبت فيه فتنة بين مماليك الجلبان .. والمماليك الفرانصة فزعم الآخرون ان الغورى أصنذر الأمر للمماليك الجلبان أن يدعو الفرانصة ينفردون بمواجهة العدو حتى يبادوا عن آخرهم .

وعبثا راح السلطان ينادى المنهزمين : يا اغوات هذا وقت المروءة .. هذا وقت النجدة ، ولكن هيهات هيهات .

وفجأة وجد الغورى نفسه وحيدا على ارض المعركة الا من بعض المشايخ الذين قد جمعهم حوله ، أقراح يستحثهم على الدعاء لله : ولكن ساعة الدقاء الله كانت قد ولت مع الجنود الفارين .

فلندع ابن أياس يصف لنا لحظات الغورى الاخيرة فى المعركة :

« ولما اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنّجق السلطاني « العلم » فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم الى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك غلبه في الحال خط فالج « أى شلل » أبطل شقه وأرعى حنكه فيطلب ماء فآتوه بماء في طاسة من ذهب فشرب منه قليلا ، وأدار رأس فرسه ليهرب فمشى خطوتين ، وانقلب عن الفرس الى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر ولا يعرف بعد ذلك ماذا حل بجسد الغوري ، فكان الأرض قد ابتلعتة في الحال وفي ذلك عبرة لمن اعتبر .

ابن اياس والغوري :

ويتحدث ابن اياس عن نهاية حكم الغوري المفجعة فيقول :
وقد مات وله من العمر نحو ثمان وسبعين سنة حكم منها خمس عشرة سنة وستة أشهر وعشرين يوما .
وكان الناس معد في هذه المدة في غاية الضنك ومرت على الناس وكل يوم فيها كأنه ألف سنة مما يعدون . وقد قلت في هذا المعنى :

اعجبوا للأشرف الغوري الذي مذ تنهى ظلمه في القاهرة
زال عينه ملكه في ساعة خسر الدنيا اذن والآخرة

وابن اياس في هذا يمثل الروح المصرية عبر آلاف السنين فصفحات كتابه تفيض بقصائد المدح والثناء على الغوري طوال ايام حياته ووصفه بالعدل والورع والتقوى ، وأنه لم يسبقه من الملوك سابق وها هو ذا يحكم عليه بأنه قد خسر الدنيا والآخرة . ولا لوم في ذلك ولا تثريب . فكل الثناء السابق ، وكل قصائد المديح ، وكل اندعوات الحارة التي كان يرسلها الشعب من أجل حاكمه ، لم تكن صادقة ولا هي خارجة من القلب وإنما هي اتقاء لطفيان الحاكم الفرد المستبد وأبعاد لأذاه وشروره . فإذا زال الطاغية وآمن الناس شروره قالوا رأيهم فيه بصراحة وصدق ، في الوقت الذي يدارون فيه الطاغية الجديد بالمدح والثناء ، دفعوا لشره واتقاء لأذاه .

ولا لوم ولا تثريب فالناس تريد أن تحيا وأن تحافظ على بقائها . على أننا يجب أن نذكر لابن اياس من باب الانصاف . . أنه سجل للغوري حسناته كما سجل سيئاته ، ولكنك لا تكاد تقرأ الحسنات حتى يخيّل اليك أن الغوري كان هو الحسن كله ، ثم لا تكاد تقرأ صفحة السيئات ، حتى لتتصور الغوري الشر كله ، ويخلص ابن اياس من ذلك بذكر عبارة طالما ترددت كثير ما السلاطين :

« وقد كان ملكا مهيبا جليلا ، مبجلا ، في المواكب ، تملأ العيون منه ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية ، لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة » .

نحن والغورى :

إما نحن وبعد انقضاء قرابة أربعة قرون ونصف ، وقد بعدت المسافة وأثر السيئات والمظالم قد انتهى ولم يعد يحس ، وليس إلا الأعمال النافعة والطيبة ، هي التي تذكرنا بالغورى . مصداقا للحديث الشريف « اذكروا محاسن موتاكم » فلسنا نفرق بين الغورى وبين أعظم من حكم من مصر من السلاطين المماليك ، وحسبه وهو الشيخ الذى أشرف على الثمانيين قد خرج على رأس جيشه للدفاع عن حدود دولته فى أقصى الشمال ، ولم يفته وهو ذاهب على رأس جيشه للذود عن الحدود الشمالية أن يبعث بالأسطول نحو بحار الجنوب لقتال البرتغاليين ، وقد أبلى هذا الأسطول بلاء حسنا ومرة أخرى هزم الأساطيل البرتغالية ولكن وفاة الغورى وما تلى ذلك من تطورات ، عفا على آثار هذا الانتصار .

وقد ثبت فى المعركة كأعظم ما يكون الثبات ، وكان من الممكن أن ينتصر لولا الخيانة فى صفوفه ، وكأى ملك عظيم مات فى أرض المعركة ، حتى لا يعيش لحظة واحدة فى ظل الذل والهوان .

ولقد رأينا الرجل وهو يمضى طوال مدة حكمه ، متجولا فى البلاد فتارة فى الفيوم وأخرى فى السويس وثالثة فى الاسكندرية بانيا منشئا معمارا مصلحا .

أما الصعوبات المالية التى تعرض لها ، فنحن نعرف الآن سببها وهو القطاع تجارة المشرق .

سلطنة الأشرف أبو النصر طومان باى :

فى الرابع عشر من شهر رمضان من هذه السنة ، استقر رأى أمراء المماليك فى القاهرة على سلطنة طومان باى وكان السلطان الغورى قد خلفه وراءه نائبا عنه فى حكم البلاد أثناء غيابه .

ولما كان الخليفة وتلاثة من رؤساء القضاة الأربعة ، قد أصبحوا فى ركاب السلطان مسلم بعد أن انضموا إليه عقب الهزيمة الساحقة فى مرج دابق ، فقد تولى بيعة طومان باى أمير المؤمنين بعقوب والد الخليفة بعد أن أظهر توكيلا كان ابنه قد أعطاه له .

وكان القدر وهو بصدد طى صفحة حكم السلاطين المماليك فى مصر ، قد شاء أن يختتم كتابهم بصفحة هى من أزهى الصفحات ، فلعله لم يتول عرش مصر من يصل إلى مكانة طومان باى لا فى شجاعته الخارقة وإقدامه ، وذكائه وحيويته ، بل ومن حيث حبه للناس وتقديسه للعدل وحكم الشريعة أى القانون ، وبصفه ابن إياس فى فترة نيابته عن الغورى بأنه كان محبا للعوام لين الجانب ، قليل الأذى ، غير متجبر ولا متكبر .

وسنرى الآن كيف كانت صفاته على العكس من ذلك تماما بالنسبة لخصومه المحاربين فكان قوى الشكيمة لا بلين ، فى الوقت الذى زاد فيه حبه للعدل والانصاف بالنسبة للرعاية .

طومان باى بعد مصر للمقاومة :

كان الطريق قد انفتح امام السلطان بعد هزيمة الغورى فى مرج دابق وخباياه خاير بك نائب حلب ، فقد سلم المدينة وقلعتها بكل ما فيها من ذخائر بغير قتال ، وكذلك اسنولى على دمشق ، ووصلت طلائع جرشه الى غزة ، وارسل الى طومان باى خطابا شديد اللهجة يأمره فيه بأن يعلن خضوعه له ويضرب السكة باسمه ويخطب له فى صلاة الجمعة .

ولكن السلطان طومان باى رفض هذا الاذار وقرر المقاومة . وكان عليه أن يبدأ تنظيم المقاومة من تحت الصفر ، فقد كانت الخزينة خاوية على عروشها ، وقد رفض الاقتراح الذى عرض عليه لجمع ما يلزمه من النفقات من الرعايا وقال : انه لا يحب ان يلقى الله وفى صفحته النقطة السوداء . ولكنه أمر ان يشمر هو وبغية المماليك عن ساعد الجد ، وان يحاربوا عن اعراضهم وكرامتهم ونسائهم واطفالهم . وكان يقول لكل من يطالبه بالنفقة ، لطالما اخذتم الأموال والنفقات وانتم لا تعملون شيئا ، وقد جاء الوقت لتؤدوا الواجب مرة اخرى . .

وعجب ابن اباس للهمة غير المعهودة التى بذلها طومان باى فى هذه الفترة الصغيرة لأعداد مصر للحرب . فقد كان من رأى طومان باى أن يخرج للقاءة الجوش العثمانية فى فلسطين بعد أن هراها البرد ، وتشتت قواها ، ولكن أمراء المماليك أصروا على أن تكون الحرب قريبا من القاهرة ، فرفضوا حتى ملاقات العدو فى الصالحة او فى بلبس .

ولذلك فقد أعد طومان باى خطا حصينا عند الريدانية ، ذكرنا بخطوط التحصينات الحديثة ، وضع فى القاهرة انواعا من الأسلحة لم يكن لمصر سابق عهد بها ، من ذلك مائة عجلة تجرها أبقار ، وتحمل رماة برمون بندق الرصاص ، وجمالا تزيد عنتها على مائتى جمل تحمل فوق ظهرها مكاحل ورماة برمون بالرصاص ، وطوارق خشب تسير بها الرماة بالنشاب .

كما نجح طومان باى نتيجة عدله وحبه للناس فى استثارة حماس أفراد الشعب ليحاربوا الى جوار المماليك .

ولكن ذلك كله كان بغير جدوى ، فقد كان الفدر قد قال حكمه فى انتهاء دولة المماليك ، ولذلك فقد لعبت الخيانة مرة أخرى ، فالاعراب وبعض أمراء المماليك قد دلوا الجيش العثمانى على طرق بوصلهم الى القاهرة بغير حاجة للمرور على هذه الخطوط المحصنة التى اقامها طومان باى ، فالتفوا حولها .

وفى يوم الخميس التاسع عشر من ذى الحجة دارت معركة رهيبة تفوق معركة مرج دابق من حيث الشدة ، وابلى فيها طومان باى بلاء منقطع النظير ، فقد خاض فى قالب الجيش العثمانى هادنا الى قتل السلطان سليم نفسه ، وقتل من كان يظن انه السلطان سليم ولم يكن سوى سنان باشا كبير وزراء السلطان . ولكن مدافع

العثمانيين وبنادق الرصاص ، كانت لها الغلبة في خاتمة المطاف ، فانهمز الجيش المصري ، وانسحب طومان باي .

١٥١٧ م - ٩٢٤ هـ : السلطان سليم يدخل القاهرة :

وفي يوم الاثنين نالت المحرم ، دخل السلطان سليم شاه الى القاهرة من باب مصر . وكان موكبه موكبا حافلا ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان يسير أمامه في موكبه الخليفة والقضاة الأربعة .

طومان باي يهاجم من جديد :

على أن المعركة لم تكن قد انتهت بالنسبة لطومان باي الذي لم يلبث أن هاجم السلطان سليم في داخل معسكره الذي أقامه على ساحل بولاق ، حيث دارت معركة رهيبة انفرط فيها عقد الجيش العثماني ، وعاد السلطان طومان باي الى القاهرة ، حيث خطب باسمه في المساجد في يوم الجمعة .

طومان باي يهاجم من الصعيد :

ولكن عوامل التفتت أحدثت أثرها ، فاذا قوات طومان باي الجديدة تنحل وتتفرق من حوله ، فانسحب الى الصعيد ، حيث استطاع أن يؤلف قوة جديدة ، أخافت السلطان سليم حتى أنه عرض الأمان والصلح على طومان باي أن يقبل أن يكون ناعبا له في حكم مصر وأن يضرب السكة ويخطب باسمه في المساجد وفي مقابل ذلك ينسحب السلطان سليم بجيشه .

ولكن الخبائث من ناحية ، وبعض أمراء المماليك تحالفوا على افساد هذا الاتفاق اذ قبلوا رسل السلطان سليم الى طومان باي . وعلى ذلك لم يبق سوى السيف لتكون حكما .

وحكم السيف في معركة جديدة كانت كأعنف ما دار من معارك بالقرب من الجيزة . ورغم بسالة طومان باي فقد خسرها مرة ثانية .

القبض على طومان باي وشنقه :

لم ييأس طومان باي رغم هذه الهزائم المتكررة ، وظل يرسم الخطط لمواصلة المقاومة ، وكان آخر ما هداه اليه تفكيره أن يلجأ الى شيخ العرب حسن بن مرعي زعيم قبائل البحيرة والذي كان يربط معه برباط الأخوة والصدقة .

وعلى الرغم من أن حسن بن مرعي عاهده على الوفاء والاخلاص . . فقد أرسل سرا الى السلطان سليم يعلمه بوجود طومان باي عنده ، فأرسل السلطان سليم أربعمئة من الجنود الذين اعتقوا طومان باي على غرة .

وتجمع كتب التاريخ على أن السلطان سليم أخذ بشجاعة طومان باى وعزله وكرامته وهو يحاوره فى الحديث فقال له : والله ما كان قصدى اذينك ونويت الرجوع من حلب ، ولو أطلعنى من الأول وجعلت السكة باسمى ما جئت لك ولا دست أرضك فأجاب طومان باى : أن الأنفس التى تربت فى العز لا تقبل الذل ، هل لو أرسلت الآن أنا خطابا وأمرتك أن تكون تحت أمرى هل كنت ترضى بذلك ، وهل سمعت أن الأسد يخضع للدئب ؟ لا أنتم أفرس منا ولا أشجع ، وليس فى عسكريك من يقايسنى فى حومه الميدان . ولبس أضر عليك من هذين الشيطانين الخائنين (وأشار الى خير بك والغزالي ، فانهما لو كان بهما خير لكان لنا .

وكاد السلطان يقتنع بالابقاء على حياة طومان باى . ولكن الخائنين خير بك والغزالي اقنعا السلطان سليم ، أن وجود طومان باى على ظهر الحياة من شأنه أن يضيع كل تعبته وسفره وهلاك زهرة عساكره وأمواله ، فإنه لا يكاد يغادر أرض مصر حتى يخرج طومان باى ولو كان تحت الأرض ، ليفسد عساكر السلطان عليه ، فإذا أراد السلطان أن تطيعه الدول وأن تمهد له البلاد فعليه أن يعجل بهلاك طومان باى . ونزل السلطان سليم عند مشورة الخائنين وفضى بأعدام طومان باى .

وفى يوم الاثنين ١١ ربيع الأول الموافق ٢٣ أبريل ، أخرج طومان باى من سجنه فى انبابه واقتيد الى حيث يعدم عند باب زويلة فكان واقع الرأس يسلم على الناس طوال الطريق ، حتى اذا وصل الى حيث يشنق ، طلب طومان باى من الجمهور المحيط به أن يقرأوا الفاتحة على روحه ثلاث مرات ، وقرأ هو بنفسه الفاتحة ، حتى اذا فرغ منها التفت الى الجلاد وقال له : شوف شغلك .

وكان الأقدار أبت حتى آخر لحظة أن لا تزهد هذه الروح القوية فى يسر وبساطة ، فإذا بالحبل ينقطع مرتين ، ولم يمت طومان باى الا فى المرة الثالثة . وظلت جثته معلقة بعد ذلك على باب زويلة ثلاثة أيام .

يقول ابن اياس : فلما أن شنق وطلعت روحه صرخ الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فانه كان شابا حسن الشكل كريم الخلق سنه نحو أربع وأربعين سنة وكان بطلا شجاعا تصدى لقتال ابن عثمان وبیت وقت الحرب بنفسه وكسرهم ثلاث مرات ، ووقعت منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العنابرة . ومد أبطل لمسا تباطن من المظالم الأشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ، ولما طلب مثله أن يفرض الضرائب على الناس اليملا الخزائن ، وصف ذلك بالظلم ورفض أن يمس أموال الرعية .

انتهاء دولة المماليك :

وبموت طومان باى ، استقرت الأمور فى مصر للسلطان سليم شاه وانتهت دولنا المماليك البحرية والجر كسية ، بعد أن حكمت الأولى ١٣٦ سنة و ١ شهور وعشرين

يوما ، والثانية ١٣٨ سنة و ٣ شهور و ١١ يوما فكانت مدة حكمهم جميعا ٢٧٤ سنة و ٨ أشهر .

ويقول أمين باشا سامى وهو يغلّق كتاب الممالك : ومن راجع مدة سلطنتهم على الديار المصرية يجد أنهم أنشأوا بها عمائر شتى من قناطر وجسور ومدارس كثيرة بها مكتبات فيها كتب قيمة ومساجد وجوامع وأوقفوا عليها الضياع وغيرها مما يقوم بسيرها سيرا حسنا . وهى فى متانة بنائها كالأهرام وأنفع كجامع السلطان حسن وجامع قلاوون وغيرهما . وترتّب العمارات وأنقنت فى عصرهم النقوش والزخارف العربية اتقاناً فائقاً ، حتى أن الفاتيكان فى روما دعا مهرة هؤلاء الصناع لعمل أعمال الزخارف وغيرها ، وهى باقية حتى الآن فى مثل الجمالون الكبير مع ما كتبوه من الكتابات باللغة العربية وبالجملّة فقد سعدت البلاد فى مدّتهم وترقت أدبياً ومادياً كما ذكر ذلك ابن خلدون فى مقدمته فى لعدة مواضع .

وقد أورد أمين باشا سامى بعد ذلك قائمة مفصلة بعدد الجوامع والمساجد والمدارس والزوايا والربط والخوانق التى أنشأوها فى القاهرة وشتى بلاد القطر . ولست أعرف لماذا نسي أمين باشا سامى وهو يحاول أن يلخص آثار الممالك الشاهقة ، دين الاسلام والمسلمين لهم باتّخاذ الاسلام من خطر المغول السحاق ، وتطهيرهم أرض فلسطين من الصليبيين .

انتهى الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث
وهو يتضمن الحكم العثماني
والتاريخ الحديث ابتداء
بحملة نابليون

